المؤسسة العربية للدراسات والنشر



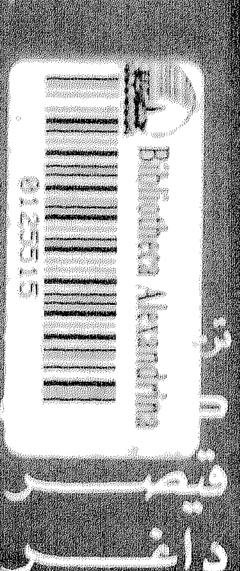
النبي المسلح

تروتسكي ١٨٧٩ - ١٩٢١

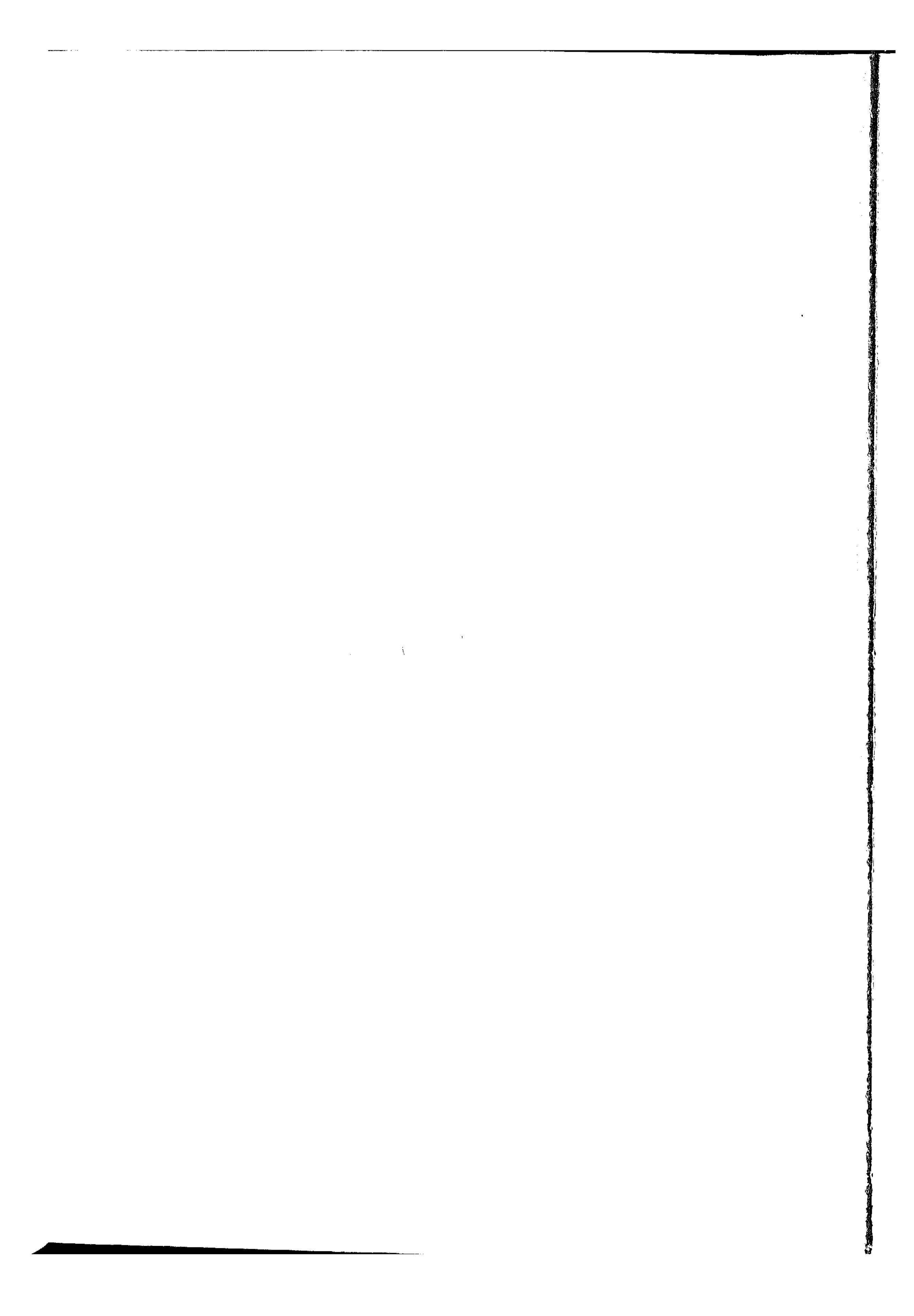


تأليف
إسحق دويتشر

١



قيصر داغر





النبي المسلح

تروتسكي ١٨٧٩-١٩٢١

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون . ساقية الجنزير . ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً موكيالي بيروت . ص.ب ٥٤٦٠ / ١١ بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨١

تأليف

إسحق دويتشر

النبيّ المسلّح

تروتسكي ١٨٧٩-١٩٢١

ترجمه وقدم له

كميل قيصر داغر

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون، ساقية الجنزير، ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً موكيالي، بيروت، ص.ب ١١/٥٤٦٠ بيروت

هذا الكتاب معرَّب عن الترجمة الفرنسية
الصادرة بعنوان:
Le Prophète Armé
Trotsky (1879 - 1921)
Isaac Deutscher
Traduit de l'anglais par:
Paulette Péju et Ernest Bolo

مقدمة الترجمة العربية

حين تبلغ شخصية ما حجماً نادراً ، فيبدو مسار العالم والحياة كما لو كان يتناغم معها ، ويتوقف لا للحظة بل لحقبة ، واكثر ، على الوزن الذي تلقي به في هذا الاتجاه أو ذاك ، عبر الآفاق التي تفتحها قدرتها الرؤ ياوية واستشرافها للمستقبل ، وعن طريق فكرها الخلاق ونهجها وطاقتها على الحركة والفعل ، وطاقتها ، بالتالي ، على تحريك الجموع الهائلة في اتجاه ذلك المستقبل العظيم ، حينذاك تفقد كل « الحصانة » التي يتمتع بها الغُفْل من الناس ، وتصبح ـ ويا للمفارقة ! ـ في متناول الجميع ، سراً وعلانية ، يحكمون عليها الحكم الجازم ، سواء خطأً أو صواباً ، وينزلونها من خرم إبرة النقد ، الذي غالباً ما يستسلم لإغراء السهولة ، وكثيراً ما يتأثر تأثراً حاسماً بالدعاوة المسبقة للقوى السائدة ، ويميل للخضوع للرائج والشائع ، ضمن نوع من الامتثالية التي تلامس الابتذال .

واذا كانت شخصية تاريخية بحجم ليون تروتسكي ، أحد قائدَيْ اعظم ثورة في عصرنا ، بلغت أرفع درجات التألق عبر المسيرة الظافرة حيناً ، والمحبطة حيناً آخر ، للملايين من عبيد هذا العصر على طريق تحررهم ، وتحرر البشرية جمعاء ، فقد تعرضت كذلك ، في حياتها كما في مماتها ، لا فقط لأشرس هجمات الثورة المضادة ، المعنوية والمادية ، بل كذلك لأبشع عملية تشويه لإحدى أنصع الصفحات في التاريخ الثوري الخاص بمن امتلكوا القدرة على الصناعة الحية للتاريخ .

واذا كان المسؤول الأساسي عن هذه الهجمات ، وعمليات التشويه تلك ، هو ستالين بوجه خاص ، والستالينية عموماً ، بما هما تعبيران فظان عن الجانب المحبط في ثورة اوكتوبر ، فقد انتظرت الأجيال ، التي تعايش التحولات العظيمة لعصرنا ، حتى ما بعد وفاة ستالين بسنة ، كي يظهر أهمّ عمل جدي ونزيه يحاول التصدي بفعاليةٍ للأسطورة المشوّهة بالحقيقة الناصعة والنظيفة المتمثلة بحياة تروتسكي وافكاره وافعاله . هذا العمل قام به اسحق دويتشر ، الذي ظهر له عام ١٩٥٤ الجزء الأول من مؤلَّف ضخم خصصه لسيرة ليون تروتسكي هو أقرب ما يكون الى التكامل ، رغم بعض الثغرات والاخطاء في الحكم على بعض الجوانب في شخصية تروتسكي وممارساته . والجزء هذا بعنوان ، النبي

المسلح ، ويتناول حياة تروتسكي ما بين عام مولده ، في ١٨٧٩ ، وعام ١٩٢١ . في هذا الجزء ، كما في الجزأين الآخرين ، اللذين صدرا فيما بعد[1]. ، بذل دويتشر جهوداً جبارة ليعيد تكوين تفاصيل السيرة الحقيقية لليون تروتسكي ، بعد ان سطا « لصوص المقابر » على ضريحه . يقول في مقدمة كتابه :

« وبالنسبة للجيل السوفياتي الحالي ، ولغيره أيضاً ، تشبه حياة تروتسكي واحداً من تلك القبور المصرية القديمة التي يعرف الناس أنها ضمت في الماضي جثمان رجل عظيم ورواية منجزاته المحفورة على ألواح من ذهب ؛ إلا أن لصوص مقابر ومخربي آثار عاثوا في الضريح فساداً وتركوه فارغاً وموحشاً إلى درجة انه لم يعد ثمة أثر واحد للألواح التي كان يتضمنها سابقاً » .

إذا كان هذا هو الواقع ، فنحن نفهم تماماً عمق المأساة التي لم تكتف بتعريض ملهم سوفييت بطرسبورغ لعام ١٩٠٥ ومحركه ، وقائد انتفاضة اوكتوبر ١٩١٧ ، ومؤسس الجيش الاحمر ، للنفي والمطاردة والاغتيال ، اخيراً ، بمعول قاتل ستاليني ، بل واصلت مهمتها بعد الممات ، فعمدت إلى تشويه فظ وسافل للتاريخ الحقيقي لليون تروتسكي ، وللمنجزات العظيمة التي حفلت بها حياته . والعديد من القراء العرب الذين لم يتسنَّ لهم أن يطَّلعوا على الصورة الامينة لهذه الشخصية الفريدة ، بل تعرّضوا لبؤس الخرافات الستالينية الرخيصة ، الحافلة بالدس والتشويه والافتراء ، التي حاولت إفساد ملامح ثوري عظيم وطمس نقائها وبهائها بالكامل ، هؤلاء القراء ، وغيرهم ، لهم ملء الحق في أن يتحدّوا مع دويتشر « لصوص المقابر » و « مخربي الآثار » ، عبر قراءة السيرة الدقيقة التي أنجزها منذ سنين طوال ، مترجمةً الى العربية .

السيرة التي نحن بصددها ، تطالعنا بوجه تروتسكي الناصع والحقيقي ، مرسوماً بريشة كاتب لم يكن حين كتبها تروتسكياً ، إلا أنه لم يخضع ابداً للابتزاز الستاليني ، ولم يحلْ ضباب الأضاليل والسموم ، المنفوثة بصورة منهجية طوال عشرات السنين في أوساط الحركة العمالية العالمية وما حولها ، دون أن يرى الواقع التاريخي على حقيقته ، ويعيد تكوينه كما هو ، بتجرد ونزاهة بالغين . . . نرى معه أخلاق الثوري الرائع الذي أمضى حياته بكاملها مقاتلاً ، وإن كان تفاوت السلاح الذي واجه به خصومه وأعداءه ، حسب تفاوت المراحل ، وتفاوت اولئك الخصوم والاعداء . هذه الاخلاق تشكل النقيض الفعلي لتلك التي تميز بها خصمه الرئيسي ، ستالين ، والتيار الذي تحلق حول هذا

(١) أحدهما بعنوان ، « النبي الأعزل » ، ويتناول حياة تروتسكي بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٩ ، والآخر بعنوان ، ، « النبي المنبوذ » ويتناول فترة ١٩٢٩ ـ ١٩٤٠ ، أي الفترة الباقية من حياة تروتسكي بعد نفيه الى الخارج . وسوف يصدران بالعربية في فترة لاحقة . (المعرب)

الخصم . فلقد بقي تروتسكي ، في خصومته ، سامياً وممتلئاً شهامة ؛ وهو ما يؤكده دويتشر على لسان جورج برنارد شو القائل :

« مثل ليسينغ حين يقطع رأس خصمه ، يرفعه ليبيّن أن لا شيء داخله . إلا أنه لا يمس شخصية ضحيته الخاصة بها . . . يعرّيها من أية قيمة سياسية ، لكنه لا ينال من شرفها »[٢] .

وتبدو علاقة تروتسكي بالثورة هي العلاقة الأكثر بروزاً وعمقاً على امتداد حياته ؛ وهو ما نلمسه في كل لحظة من لحظات سيرته . وقد لخصت هذا الواقع زوجه الأولى ، بعد عشرات السنين من انفصاله عنها . قالت الكسندرا سوكولوفسكايا ، وكانت مناضلة ثورية هي الأخرى ، متحدثة عن الشاب الذي لعبت دوراً مهماً في كسبه إلى الماركسية :

« لم يقيَّض لي أن التقي يوماً ، طيلة عملي النضالي ، شخصاً يكنّ مثله كل ذلك الاخلاص للثورة والتفاني في سبيلها »[٣] .

ذلك الاخلاص تلازم مع تفاؤ ل ثوري لم يفارقه حتى في أسوأ لحظات الشدة التي عاشتها الثورة وعاشها هو . وشخصية الرائي التي تميز بها ، وجعلته يشرف من عل على المستقبل وآفاقه ، وقدرته على تبيّن حركة التاريخ بوضوح ، لا بما هي تعبير عما مضى وحسب ، بل كذلك بما هي حدس بالآتي ، لا بل رؤ ية لهذا الآتي ، ساعدتاه على الارتفاع بذلك التفاؤ ل الى درجاته القصوى ، وهو ما أثر تأثيراً عميقاً في اعطائه تلك الحرارة الهائلة التي انتقلت في الساعات الحرجة والحاسمة الى الجماهير التي قادها ، وتحرك من ضمنها ، وفي المعجزات التي لعب الدور المركزي في تحقيقها ، خلال ثورة اوكتوبر بالذات ، وطوال الحرب الاهلية بين عامي ١٩١٨ و ١٩٢١ . هذا التفاؤ ل عبر عنه ، للمرة الأولى ، في دعائه للقرن العشرين ، الذي كتبه عام ١٩٠١ ، وفيه يقول :

ـ « الموت للطوبى ! الموت للايمان ! الموت للحب ! الموت للأمل ! هكذا يرعد القرن العشرون وسط فرقعة الحرائق ودوي المدافع .

ـ استسلمْ ، ايها الحالم المثير للرثاء . ها أنذا قرنك العشرون الذي طال انتظارك إياه ، « مستقبلك » .

ـ كلا ، يجيب المتفائل غير المنهزم ، أنت لست سوى الحاضر »[٤] .

أما عبقريته الفذّة التي سمحت له بأن يحتل الموقع الذي احتله في صناعة تاريخ هذا

(٢) المقدمة .

(٣) الفصل الثالث .

(٤) الفصل ذاته .

العصر ، فقد برزت معالمها مع خطواته الأولى في العمل السياسي . وفي معرض الاشارة الى الموقف السلبي الذي وقفه منه بليخانوف منذ مطلع معرفته به ، روى لوناتشارسكي نكتة كانت متداولة بين المهاجرين ؛ « وهي غير صحيحة بالطبع ، لكنها توضح جزئياً موقف بليخانوف . فعندما وصل تروتسكي إلى لندن ، امتدحت زاسوليتش امامه مواهب القادم الجديد بالكثير من الحيوية . هتفت قائلة : « لا شك ان هذا الفتى عبقري » . فغضب بليخانوف وأشاح بوجهه قائلاً : لن أغفر له ذلك ما حييت »[٥] .

وإذا كانت هذه مجرد نكتة في حالة بليخانوف ، فيمكن ألا تكون كذلك حين ننتقل إلى حالة ستالين ، الذي لم يكتف بكل الاضطهاد الذي لاحق به تروتسكي ، وبـ « **اغتصاب** » أبوّة الكثير من المنجزات التي حققها تروتسكي بالذات ، بل جعل الأسطورة التي حيكت حول شخصه تنسب له كل المواهب والطاقات التي اجتمعت في الشخصية بالغة الغنى التي تميز بها تروتسكي .

لماذا « النبي » ؟

إن الجامع بين عناوين الثلاثية التي كتبها دويتشر حول حياة تروتسكي ، هو كلمة « **النبي** : النبي الذي بدأ مسلحاً ، وغدا أعزل ، وانتهى منبوذاً . فلماذا ركزّ دويتشر على صفة النبوّة لدى تروتسكي ، وبم كانت تتجلى ، وما طبيعتها والقيمة التي تنطوي عليها ، والأهمية التي تتخذها بالنسبة لحركة التاريخ ولقضية الثورة العالمية ؟ .

إن النبوّة هنا ليست طاقة سحرية ولا ظاهرة ماورائية غير مفهومة ، ولا نتيجة الهام خارجي : هي القدرة على الاحاطة الشاملة بحركة الواقع ، انطلاقاً من ثقافة بالغة العمق ، ومعرفة بحقائق الحاضر والماضي ، تمتد الى استشفاف المستقبل ، لا عن طريق القياس المحض ، بل عن طريق الرؤ ية السليمة والدقيقة للامكانات الفعلية القائمة وللاتجاه الغالب فيها ، لكن ليس بالاقتصار على الجانب الموضوعي من الأمور ، بل بربط هذا الجانب بالجانب الذاتي ، وبالفعل الخلاق الذي تمارسه قوى الثورة ، التي طالما كان تروتسكي في موقع القيادة منها . كل ذلك ، مقروناً بالرؤ ية الصحيحة للأهداف وطبيعتها وامكانات تحقيقها وطرق الوصول اليها ، مع المبادرة في اللحظة المناسبة لوضع التصور النظري الصائب موضع التطبيق ، بحيث تجتمع الريادة في الرؤ ية مع القيادة في العمل . وكان لذلك كله وزن عظيم ضاغط في عملية التغيير التي شهدتها روسيا ، وبالتالي العالم ، في هذا العصر .

---

(٥) الفصل ٣ .

انطلاقاً من تلك المقدرة النادرة ، تمكن تروتسكي في الغالب من التوقع الصحيح لمسار الاحداث ، والتطورات والتحولات قبل وقوعها بزمن يتفاوت بعداً . وكان هذا التوقع يقترن ، عند الاقتضاء ، بالممارسة على طريق استنتاج اقصى درجات الفعالية والفائدة لصالح القضية الثورية . وكثيرة هي الحالات التي يشير اليها دويتشر ، عابراً أو مركزّاً ، وهي تبيّن تلك الشفافية الرائعة لدى تروتسكي .

لقد تحدث دويتشر مراراً عن تروتسكي ، وهو يضع « **خطط عمل** » تصف ما سوف يحدث فعلاً ، وبشكل دقيق ، بعد قليل أو حتى بعد سنوات طويلة ، كما لو كانت عرضاً للأحداث بعد وقوعها « «لو لم يكن مشاراً إلى تلك الأحداث بصيغة المستقبل » . هكذا كتب في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٤ كراسه ، دو ٩ يانفارا (حتى ٩ يناير) ، الذي بين ما ورد فيه تأكيده أنه« لا الانتليجنسيا الليبرالية ، ولا الطبقات البورجوازية هي التي ستوجه ضربة حاسمة للقيصرية ، بل الشغيلة الصناعيون الاشتراكيون »[٦] . . والكراس بمجمله ـ يقول دويتشر ـ « يهتز بالشعور المسبق الظافر بأن الثورة وشيكة » . أكثر من ذلك ، لقد حدد تروتسكي بصفاء مذهل كيف ان الثورة ستبدأ باضراب عام ؛ وكانت تلك فكرة جديدة ، لا فقط بالنسبة لروسيا المتخلفة ، بل حتى بالنسبة لأمم الغرب الصناعية . وخطة العمل التي تصورها آنذاك هي وصف للثورة كما ستحصل بالفعل « في تشرين الاول / اوكتوبر ١٩٠٥ ، وفي شباط / فبراير ١٩١٧ » . يقول دويتشر : « لم تكن « خطة العمل » تستلهم أي نموذج سابق . . . وهذا الوصف كان ينبثق من خيال ثوري وقّاد حيث تمتزج الرومانسية بالواقعية بشكل وثيق . وبعض مقاطع هذا الكراس تبدو كما لو كانت اجزاء من عرض تروتسكي لأحداث ١٩٠٥ و ١٩١٧ . . . حتى الشعارات هي تلك التي ستدوي عام ١٩٠٥ و١٩١٧ »[٧] .

الثورة الدائمة

وفي الزنزانة التي انتقل اليها مباشرة من مقر سوفييت بتروغراد لعام ١٩٠٥ ، أول سوفييت في التاريخ ، الذي كان يتولى قيادته ، توقع تعميم ظاهرة السوفييتات في أية انتفاضة قادمة ، واضطلاع سوفييت مركزي لعمال كل روسيا بالقيادة ، بتكليف من مؤتمر قومي ؛ كما استخلص من تجربة الخمسين يوماً التي عاشها سوفييت ١٩٠٥ برنامج العمل للسوفييت المركزي القادم : « التعاون الثوري مع الجيش والفلاحين والشرائح الدنيا والشعبية من البورجوازية ؛ إلغاء الحكم المطلق ؛ تدمير الجهاز العسكري الخاص بالحكم المطلق ؛ صرف قسم من

---

(٦) الفصل ٤ .

(٧) الفصل ذاته .

الجيش وإعادة النظر الكاملة بالباقي ؛ إلغاء الشرطة والجهاز البيروقراطي ؛ يوم العمل من ٨ ساعات ؛ توزيع السلاح على الشعب ، وعلى العمال بوجه خاص ؛ تحويل السوفييتات الى جهاز حكومة ثورية مدينية ، تشكيل سوفييتات فلاحية مكلفة بإنجاز الثورة الزراعية محلياً ؛ انتخاب جمعية تأسيسية »[٨] . هذا البرنامج ، يقول دويتشر ، « **غدا فيها بعد برنامج ثورة ١٩١٧** » .

وإذا كان الماركسيون ، عموماً ، اعتبروا أن الثورة في روسيا في تلك الحقبة ثورة بورجوازية ، وأنه « لن تستطيع الاشتراكية الثورية أن تستولي على السلطة وتجيب عن تطلعات الجماهير ، إلى المساواة ، إلا في مجتمع رأسمالي وصناعي حديث ، ومع نمو الثروة والتوسع الاقتصادي الذي يؤدي اليه ، فقد كانت فرادة تروتسكي ونبويته ذات القيمة السياسية الفذة في كونه رأى منذ تلك الفترة « ديمومة » الثورة ، وشدد على انه لما كانت الطبقة العاملة ، تمسك بالتفوق السياسي فسيؤدي بها ذلك للانتقال بالثورة من الطور البورجوازي الى المرحلة الاشتراكية ، وذلك حتى قبل ان يستلم « الاشتراكيون السلطة في الغرب » . لقد كان اول من توقع ، منذ عام ١٩٠٦ ، قيام روسيا السوفياتية ، وذلك في عمله المعروف ، « نتائج وتوقعات » ، الذي ذهب فيه إلى أنه « يمكن للبروليتاريا في بلد متأخر ستولي على السلطة بصورة أسرع مما في البلدان التي تكون الرأسمالية متقدمة فيها » ، ،، الحجج المستخلصة من الأدبيات الماركسية الكلاسيكية ، حول تعاقب الثورتين جوازية والاشتراكية ، مؤكداً أن « الماركسية هي قبل كل شيء طريقة تحليل للعلاقات ماعية ، لا طريقة تحليل للنصوص »[٩] . وعلى هذا الاساس ، ما انفك تروتسكي يجزم بأن الثورة الروسية ستكون الاولى التي ستنتصر ، وستحفز ثورات جديدة في كل مكان . وهو ما تم بالفعل .

وحين اندلعت الحرب العالمية الاولى لم ينتظر تروتسكي طويلاً ليستنتج ان الثورة ستولد من تلك الحرب . وينقل دويتشر كلام مؤلف سويسري مشهور هو ف . برويباشر ، الذي قال إن « الأمر لم يكن يتعلق لديه ببند إنشائي ، بل بقناعة في غاية العمق »[١٠] . وفي نص « الحرب والأممية » ، الذي كتبه في زوريخ في بداية تلك المجزرة العالمية ، أكد أن « على الاشتراكيين أن يحددوا هدفاً لأنفسهم سلاماً ديمقراطياً من دون الحاق ولا تعويضات ، سلاماً يعترف بحق المصير للأمم الخاضعة ؛ وهذا السلام لا يمكن ان تنتزعه إلا انتفاضة الشعوب المتحاربة ضد قادتها »[١١] . وأتبع ذلك بصياغة تصورات أدق في أوائل ١٩١٥ ، حين قال إن المستقبل لا

---

(٨) الفصل ٥ .

(٩) الفصل ذاته .

(١٠) الفصل ٨ .

(١١) الفصل ذاته .

يقدم لنا إلا خياراً واحداً : « إما الحرب الدائمة أو الثورة البروليتارية » . ودعا في مواجهة الاشتراكيين الشوفينيين الخونة الذين دعموا الحرب إلى« تجميع قوى الأممية الثالثة » .

إن القدرة الرؤ ياوية التي كانت تدفع به إلى التحديد الدقيق للخيارات المطروحة ، وإلى استشراف المستقبل ، وتعيين ملامحه ومنعطفاته ، كانت تتلازم مع التبيان الواضح لما يجب فعله ، وللأهداف التي ينبغي السعي وراءها . كل ذلك جعله أقدر من غيره على ان يكون في اللحظة المناسبة في موقع قيادة الحركة كلها ، وهو أمر يصح بالنسبة لانتفاضة ١٩٠٥ ، كما يصح بالنسبة لثورة ١٩١٧ . يقول دويتشر في معرض الحديث عن دوره في احداث ١٩٠٥ .

« كان يجسد أعلى درجة من « النضج » بلغتها الحركة في يوم من الأيّام على صعيد تطلعاتها الأكثر اتساعاً : إذ حدد تروتسكي اهداف الثورة ، ذهب ابعد بكثير مما ذهب في أي من الفترات مارتوف أو لينين ، وهذا هو السبب في انه كان أقدر بكثير على لعب دور نشيط في الانتفاضة . قاده حسه السياسي الواثق للغاية ، في اللحظات الحاسمة ، الى النقاط الحساسة ، إلى مراكز الثورة ووجّه خطواته »(١٢) .

بيد أن هذا الحس المرهف الذي تميز به ، والذي كان يندفع به في رؤ يا متفائلة للغاية بما يتعلق بسيرورة الثورة العالمية ، التي توقع أن تشهد تسارعاً عظيماً ، لا سيما في اوروبا الصناعية المتقدمة ، بعد أن تتمكن الثورة من إحراز النصر في روسيا القيصرية ، بدا بالنسبة للعقل العادي ، غير الديالكتيكي ، كما لسيئي النوايا والاعداء المعلنين لما مثله تروتسكي على الدوام من ارتباط جذري بالمفاهيم الثورية ، ومن تطلعات ثابتة الى انتصار قضية الثورة بصورة شاملة ، سواء على المستوى القومي ، أو على المستوى الأممي ، بدا - نقول - مجالاً للتشفّي وتفريغ كل ما هنالك من حقد ، دفين أو معلن ، ومن سخرية سوداء ، مذ تبين ان تلك التوقعات كانت مفرطة في التفاؤ ل ، بما يخص العالم الصناعي المتقدم . لكن لم يتوقف اصحاب هذا الموقف الحاقد والساخر ، والمنافق في الوقت ذاته ، عند الأسباب الفعلية التي حالت دون التحقق الحرفي لما توقعه تروتسكي ، والتي تمثلت قبل كل شيء بالصعود البيروقراطي المخيف في الاتحاد السوفياتي في ظل ستالين ، وبفرض المذكور مفهومه حول « **الاشتراكية في بلد واحد** » وتسخيره ، بالتالي ، الأممية الثالثة لخدمة هذا المفهوم ، وطعن الثورة العالمية في الصدر كما في الظهر . ناهيك بما مثلته التجربة الستالينية من احباط لحركة الطبقة العاملة في العالم ، ولا سيما في البلدان المتقدمة .

ودعونا ، اخيراً ، نترك دويتشر يلخص بنفسه تقويمه لتروتسكي نبيّاً ، في الفصل الذي خصصه لمقولة « **الثورة الدائمة** » . يقول :

« وإذا نظرنا إلى تحليلات تروتسكي بمجملها ، يمكن أن نقول إنه نادراً ما رأى منظرّ سياسي نبوءاته

(١٢) الفصل ٥ .

تتحقق بصورة باهرة تارة ، وطوراً تُحبط كلياً ، ـ لتتبيّن صحتها في الاخير عن طريق دفق من الكوارث التاريخية الجديدة . وهذا يصح بوجه خاص بصدد تشخيصات تروتسكي التي تتناول الدفع الذي كانت ستعطيه روسيا للثورة العالمية ، فأحداث السنوات اللاحقة سوف تلقي المزيد من الاضواء على ذلك باستمرار . ففي عام ١٩١٧ وما بعده بدا انهيار العروش وقرقعة الهزات يؤكدان أقواله بدقة خارقة . ثم حين تراجعت الشيوعية في اوروبا وتقوقعت روسيا البلشفية ، جاء دور فقد الاعتبار والسخرية ؛ اصبح تروتسكي نبي العبث ، نبي « المستحيل والباطل بشكل مكشوف » . ودار الدولاب . إن غداة الحرب العالمية والحرب الباردة بين الكتلتين هما اثبات بعد الممات لتنبؤاته . . .

« . . . لكن مهما يكن البعد والفروق بين مجرى الاحداث الفعلي وذلك الذي رسمه تروتسكي بين ١٩٠٤ و١٩٠٦ ، فهو يظهر اليوم من جديد ، في منتصف هذا القرن ، كذلك الذي فهم بشكل صحيح « مجرى الأشياء الجوهري » . أكانت رسالته تثير الهول أو الأمل ، وسواء اعتبرنا صاحب تلك الرسالة البشير الملهم لعهد جديد فريد في التاريخ ، من حيث سموه وانجازاته او كنبي الكارثة والمصيبة ، لا يسعنا إلا أن نتأثر بسعة الرؤيا وجسارتها . كان يحيط بالمستقبل كما يكتشف المرء من قمة جبل عالٍ أرضاً واسعة مجهولة يلاحظ في البعيد محاور توجهها الكبرى . . . فاذا قورنت النبوءات السياسية التي تنبأ بها اكثر معاصريه مآثر ، واكثرهم حكمة وتبصراً ـ ولا نستثني هنا لينين وبليخانوف ـ باللوحة التي رسمها في زنزانته بقلعة بطرس وبولس ، لبدت خجلة ومرتبكة »[١٣] .

الموقف من الفلاحين

ولا بد من التوقف قليلاً عند الخرافة الستالينية التي فعلت الكثير لاقناع الناس بأن تروتسكي بخس الفلاحين قدرهم ، ووقف منهم موقفاً سلبياً ، ولم يعطهم ما يستحقونه من موقع في العملية الثورية .

وبالطبع ، لن يكون الرد على ذلك بإنكار إصراره منذ البدء على إعطاء الدور الاساسي للطبقة العاملة في ثورات العصر ، حتى في عقر دار البلدان المتخلفة . كلا ، إنما ما يجب إضافته ـ وقد ابرزه دويتشر في العديد من المرار ، دون أن يضعه في سياق واحد ـ هو انه أولى الفلاحين بالغ الاهتمام ، ورأى الاهمية القصوى لدورهم في العملية الثورية ، وشدد على ضرورة التحريض في صفوفهم . ففي كراس ، حتى ٩ يناير ، الصادر عام ١٩٠٤ يستعرض تروتسكي القوى الاجتماعية التي ستشارك في الثورة القادمة ، وإذ يؤكد أن المدينة ستكون المسرح الرئيسي للأحداث الثورية ـ كما حصل بالفعل ـ يرى ان البروليتاريا المدينية لن تقرر لوحدها النهاية ، بل يمثل الفلاحون « مستودعاً مهماً للطاقة الثورية » . وعلى هذا الاساس ، يدعو لنقل « التحريض الى الريف ، من دون تفويت يوم أو فرصة واحدة » .

---

(١٣) الفصل السادس .

ومن موقعه في قيادة عمال بطرسبورغ وسوفييتهم ، نراه فيها بعد يخاطب الفلاحين بالذات ، مذكّراً إياهم كيف جعل القياصرة منهم : « قطيع اقنان يقدمونهم هدية لخدامهم المخلصين ، كما لو كانوا كلاباً » ، ليقول لهم بعد ذلك : « ايها الفلاحون ، فليندلع الحريق في كل مكان ، وفي الوقت ذاته ، في كل انحاء روسيا ، ولن تكون اية قوة قادرة حينذاك على إطفائه » .

وجاء البرنامج الذي استخلصه من تجربة ١٩٠٥ ، بعد انتقاله إلى السجن في قلعة بطرس وبولس ، كي يكون برنامج الثورة اللاحقة ، يتضمن ، بين ما يتضمن ، « التعاون الثوري مع الجيش والفلاحين والشرائح الدنيا والشعبية من البورجوازية » .

لكن التصور الاكثر وضوحاً وتبلوراً حول دور الفلاحين ، إنما هو ذلك الذي ظهر في كتابه ، **نتائج وتوقعات** ، الصادر عام ١٩٠٦ ، حيث عرض مفهومه للثورة الدائمة ، ومن ضمنه رؤ يته لموقع الفلاحين في تلك الثورة . في ذلك النص لم يستبعد إمكانية : « إئتلاف حكومي يضم الاشتراكيين وممثلي الفلاحين » ، إلا أنه جزم بأن الدور الرئيسي سيكون لممثلي الطبقة العاملة الذين سيحددون ، هم ، مضمون سياسة ذلك الائتلاف ، ويقرون ، بين ما يقرون ، وضع يد الفلاحين على الملكيات الكبرى . وبالتأكيد الاخير - يقول دويتشر - يمضي تروتسكي : « أبعد بكثير مما وصل اليه الاشتراكيون الروس حتى ذلك الحين . . . فإذا كان علينا أن نفهم التحالف مع الفلاحين بالمعنى الذي فهمه البلاشفة في عام ١٩١٧ ، وبعد ذلك التاريخ ، يمكن أن نقول حينذاك ان تروتسكي دافع عن ذلك التحالف ، في عام ١٩٠٦ »[١٤] .

وفي معرض المقارنة بين صيغة لينين ، « الديكتاتورية الديمقراطية للعمال والفلاحين » ، وصيغة « ديكتاتورية البروليتاريا » ، يخلص دويتشر الى الجزم : « سوف تثبت احداث ١٩١٧ تحليلات تروتسكي » .

ولقد ابرز دويتشر حقيقة بالغة الاهمية في إعادة الاعتبار لموقف تروتسكي الحقيقي من الفلاحين ، إذ بيّن أن « السياسة الاقتصادية الجديدة » (النيب) التي عرضها لينين عام ١٩٢١ ، واقرها الحزب ، لم تكن غير الخطة ذاتها التي اقترحها تروتسكي قبل ذلك بعام واحد على اللجنة المركزية ، بعد أن لمس لمس اليد ، في جولاته التفتيشية على جبهات القتال كمفوض لشؤ ون الحرب ، الانعكاسات الكارثية لسياسة « شيوعية الحرب » على علاقة السلطة والحزب بالفلاحين . رأى يومذاك ضرورة وضع حد لمصادرة المحاصيل ، وتشجيع الفلاحين على الزراعة وبيع فائض محاصيلهم بقدر من الربح ، إلا ان لينين ، واللجنة

---

(١٤) الفصل السادس .

المركزية عموماً ، وقفا في وجه ذلك الطرح . ويقول دويتشر إن هذه السياسة بالذات ، التي عاد لينين فطرحها عام ١٩٢١ ، رُفعت لها القبعات : «ولا تزال تُرفع كومضة عبقرية لدى لينين ، كمثل خارق لدى رجل دولة على القرار الشجاع والخالي من الدوغمائية » . ويضيف بعد اسطر ان الحادثة تظهر : « الى اي حد لا يمكن دعم الرواية الستالينية للتاريخ ، التي تجعل من لينين صديق الفلاحين ، ومن تروتسكي عدوهم : « إن شهرة لينين كصديق للموجيك تستند قبل كل شيء إلى السياسة الاقتصادية الجديدة » .

مؤسس الجيش الأحمر

في منتصف عام ١٩١٨ ، كانت جمهورية السوفييتات لا تزال عملياً بلا جيش ، حسبما يقول دويتشر . ولم يمض عامان حتى كان الجيش الاحمر ، الذي انشأه تروتسكي بالذات ، من موقعه كمفوض للحرب ورئيس لمجلس حرب الجمهورية ، يبلغ تعداده خمسة ملايين رجل ، في غمار حرب شرسة خاضها ضد الحرس الابيض ، الذي انشأته الفلول المهزومة للبورجوازية والاقطاع ، وضد جيوش التدخل الاجنبي الاربعة عشر ، ويتمكن في النهاية من تحقيق النصر ، وسط الحصار الشرس حول اول جمهورية للسوفييتات .

ولقد كثرت الشهادات على العبقرية العظيمة التي حققت تلك المعجزة ، إلا أننا سنقتصر على ايراد اثنتين ذكرهما دويتشر : احداهما من عدو لدود ، هو الجنرال الابيض دنيكين ، والأخرى من لينين بالذات . فالأول قال في معرض حديثه عن النظام الذي استطاع تروتسكي بواسطته الاستفادة من خبرة عدد كبير من الضباط القيصريين القدامى في عملية بناء الجيش الاحمر وخوض حرب السنوات الثلاث : « يمكن لحكومة السوفييتات ان تفخر بالمهارة التي جندت بها ارادة وذكاء الجنرالات والضباط الروس الذين جعلت منهم أدواتها المطيعة ، رغم نفورهم »[١٥] . اما شهادة لينين فنقلها مكسيم غوركي ، الكاتب والثوري الروسي المشهور ، استناداً الى حديث دار بين الاثنين ، قال الاول خلاله :

« دلني على رجل يستطيع ان يبني في عام واحد جيشاً نموذجياً ، تقريباً ، وان يحظى باحترام الخبراء العسكريين . إننا نملك هذا الرجل . لدينا كل شيء ، وسنجترح العجائب »[١٦] .

وقد ابرز دويتشر كيف استطاع تروتسكي ان يطوّق سيئات استخدام ضباط غير

---

(١٥) الفصل الثاني عشر .

(١٦) الفصل ذاته .

موثوقين ، عن طريق سلسلة من التدابير ، لعل اهمها الاستعانة بجهاز من مفوضين سياسيين كانوا يلعبون دوراً أساسياً الى جانب الضباط ، الذين اقتصر دورهم على الجانب العملياتي ، تحت الرقابة المباشرة والوثيقة للمفوضين المذكورين . كما بيّن مدى الجهد الجبار الذي بذله لتكوين كادرات عسكرية جديدة اختارها من رتبة صف ضابط في الجيش القديم ، ومن بين العمال العاديين ، بحيث « لم تأت نهاية الحرب الاهلية حتى كان الضباط « القيصريون » لا يشكلون اكثر من ثلث اعضاء القيادة ، فالثلثان الآخران جرت ترقيتهم من الفوج ، وبينهم عدد من ماريشالات الحرب العالمية الثانية لاحقاً » .

هذا الجيش ، حقق به تروتسكي اروع الانتصارات ، التي حفظت رأس الثورة ، وسمحت لجمهورية السوفييتات بالاستمرار وسط تكالب خدم رأس المال المحليين والعالميين واستشراسهم . وأبعد ما يكون عن روح « شوفينية » نمّاها ستالين في القوات التي خاضت الحرب العالمية الثانية ، رسّخ تروتسكي في الجيش الاحمر الروح الأممية الرائعة . وهذا ما سلط دويتشر عليه الاضواء حين وصف الحرب مع بولونيا ، إذ يقول :

« في أوج أعمال القتال ، أصدر قراراً علنياً يحظر فينوي ديلو (القضايا العسكرية) ، مجلة هيئة الاركان العامة ، التي استخدمت في مقال حول بيلسودسكي تعابير « مهينة للكرامة القومية للشعب البولوني » . . . وخلال جولات تروتسكي على الجبهة ، كان عليه أن يتحكم بسخط الجيش الذي علم بأن البولونيين يعدمون أسرى الحرب . وقد شرح لجمعيات من الجنود على الجبهة قائلاً إنه حتى العدو لا ينبغي ثلبه وتشنيعه . ومنع منعاً باتاً ممارسة ايه اعمال انتقامية ضد الأسرى البولونيين »[١٧] .

لينين وتروتسكي

إذا كان ستالين فعل كل ما في وسعه ، إبان حياة لينين بالذات ، وبالأخص بعد انضمام تروتسكي للحزب البلشفي عام ١٩١٧ ، من أجل إفساد العلاقة بين الرجلين وإحلال الشك والحذر والعداء محل الثقة والتفاهم والود ، فقد بذل الستالينيون جهوداً حثيثة ومسعورة لتشويه تلك العلاقة ، وتصوير الخصومة بين البلشفية والمنشفية كما لو كانت صراعاً بين لينين وتروتسكي بالذات ، لا قبل عام ١٩١٧ وحسب ، بل كذلك حتى وفاة لينين .

وبالطبع ، ليس من شيء اكثر نفاقاً وافتراء ودساً ، من هذه الصورة التي رسمت خطوطها بعناية ولؤم وبرود أعصاب ، لا سيما إذا علمنا أن لينين جاهر بعد ثورة اوكتوبر

---

(١٧) الفصل الثالث عشر .

باعتباره انه « بعد انضمام تروتسكي الى الحزب ، ليس هناك بلشفي افضل منه » . ورغم أن العلاقة بين الرجلين الرئيسيين في جمهورية السوفييتات الاولى لم تكن دائماً علاقة وفاق تام ، إلا أنها كانت تتميز دائماً بالكثير من الثقة المتبادلة ، وظهر ذلك منذ النقاشات الاولى حول تشكيل الحكومة (التي أطلق تروتسكي ذاته على اعضائها تسمية مفوضي الشعب) ، إذ اقترح لينين على تروتسكي ترؤسها على أساس انه الرجل الذي قاد الانتفاضة المنبثقة منها تلك الحكومة . لكن تروتسكي رفض ، احتراماً للينين ولأسبقيته السياسية[١٨] .

ودويتشر اوضح ، في تقويمه للخلافين الاساسيين اللذين باعدا بين تروتسكي ولينين قبل ١٩١٧ ، أن لينين كان محقاً بصدد مسألة الحزب ، بينما كان تروتسكي مصيباً في موضوع « الثورة الدائمة » . وقد تلاقى الاثنان عام ١٩١٧ بالذات عند نقطة الصواب لدى كل منهما ، ففيما اصبح تروتسكي مقتنعاً بالرؤية اللينينية للحزب ، كان لينين قد خاض نضالاً عنيفاً ومستميتاً طيلة شهر نيسان / أبريل ١٩١٧ داخل حزبه لاقناعه بالتخلي عن الاطروحات البلشفية القديمة حول طبيعة الثورة وآفاقها . حتى أن « اخصام لينين في الحزب البلشفي ، وبينهم كامينيف اخذوا عليه تبنيه ، بالكامل ، لنظرية « الثورة الدائمة » ، واتهموه بالتخلي هكذا عن البلشفية لصالح التروتسكية » .

يقول دويتشر : « في الحقيقة ان طريقي لينين وتروتسكي ، اللتين تباعدتا طويلاً ، التقتا آنذاك . كان كل منهما توصل الى استنتاجات بلغها الآخر قبله بكثير ، وطالما اعترض عليها بحدة وصرامة . لكن لا هذا ولا ذاك وعى بوضوح انه تبنى وجهة نظر الآخر . فبعد ان انطلقا من نقاط مختلفة ، وعبر مسارات متباينة ، انتهيا الآن إلى التلاقي . . . »[١٩] .

ويؤكد في الفصل العاشر من « النبي المسلح » أن « العلاقات بين لينين وتروتسكي كانت تتسم بالثقة المتبادلة والود والاحترام . فنضالهما المشترك ضد البلاشفة المعتدلين ، قبل الانتفاضة ، ولا سيما بعدها ، واتفاقهما حول كل المشكلات الكبرى ، كل ذلك ما كان يمكنه إلا أن يشدهما الواحد للآخر بقوة بالغة . . . كان تروتسكي يعترف بسلطة لينين ويقبل بها صادقاً . كان يفعل ذلك من دون أثر للتملق ودون التخلي عن استقلاله ، لكن مع التأسف لكونه بخس في الماضي قدر لينين كثوري وقائد . أما لينين فكان يبذل من جانبه ما في وسعه ليشعر تروتسكي بنفسه في حزبه ، كما لو كان فيه على الدوام . وخلال السنوات الست التي دام فيها تعاونهما ، الذي لم يخل من عدد من الخلافات الجديدة ، لم يصدر عن لينين ادنى تلميح إلى مشاحناتهما السابقة ، إلا ليقول في مجالسه الخاصة ان تروتسكي كان على حق من بعض النواحي ، وليبدي للحزب رأيه بضرورة تحاشي لوم تروتسكي ، على ماضيه غير البلشفي[٢٠] .

---

(١٨) الفصل العاشر .

(١٩) الفصل التاسع .

(٢٠) الفصل العاشر .

أخطاء لم يسلم منها دويتشر

إن القدرة والتحكم اللذين برهن عنهما دويتشر في تعامله مع سيرة تروتسكي لم يكونا دائماً على الدرجة ذاتها من التكافؤ والاستمرار ، اذ يمكن ان نقع لديه على احكام عديدة تأثر فيها ، إلى هذا الحد أو ذاك ، بالجو المعمَّم حول قائد انتفاضة اوكتوبر ومؤسس الجيش الأحمر وصانع انتصاراته ، أو أخطأ في تقدير أبعاد هذا أو ذاك من الممارسات والمواقف .

في هذا السياق ، انجرف دويتشر مع الفكرة القائلة ان تروتسكي ، الذي كانت لديه افكار عظيمة ، لم يكن على المستوى ذاته ، في حقل التنظيم وقيادة الرجال . وهذه الفكرة شائعة في اوساط الكثيرين ممن رأوا أن لينين كان قادراً ، بفعل مواهبه التنظيمية على بناء حزب بضخامة الحزب البلشفي ، بينما لم يجمع تروتسكي حوله إلا تنظيماً صغيراً . ولم يدر في خلد الذين ذهبوا هذا المذهب ، أو انساقوا خلفه ، ان السبب الحقيقي وراء ذلك يكمن قبل ١٩١٧ في موقف تروتسكي من مسألة التنظيم . فإذا عجز عن تكوين منظمة جماهيرية بعد ١٩٢٣ ، فذلك لا يتعلق بالتحديد بمواهب فطرية ، أو مكتسبة ، على صعيد قيادة الناس ، بل بالواقع الموضوعي المتمثل بالجَزْر الثوري وهزائم الحركة العمالية التي تتحمل وزرها الستالينية إلى ابعد الحدود . ومن يتعمق في التفاصيل التي اعطاها دويتشر ذاته حول علاقة تروتسكي بالناس منذ ثورة ١٩٠٥ ، وحتى الحرب الاهلية ، يتبين له عكس تلك الصورة الشائعة . ومثال الجيش الاحمر ابلغ دليل على قدرات تروتسكي التنظيمية . أما علاقته بعمال بتروغراد وبجنود حاميتها وبحارة كرونشتادت ، قبل الثورة الكبرى واثناءها فحافلة بالدلالات . وقد صوّر سوخانوف ، الذي يستشهد به دويتشر كثيراً ، هذا الواقع في الكثير من الاحيان :

« كان كل جندي وكل عامل في بتروغراد يعرفه ويصغي اليه ، وكان تأثيره على الجماهير ، لا بل على القادة لا يقاوم . لقد كان الشخصية المركزية في تلك الايام ، والبطل الرئيسي لذلك الفصل من التاريخ »[٢١] .

ولم يسلمْ دويتشر من التأثر ، لا بالاحكام الستالينية عموماً وحسب ، بل كذلك بأحكام ستالين ذاته ، الذي رأى ، قبل فترة **الدسائس الكبرى** ، ان قوة تروتسكي تبرز حين تكون الثورة في صعود ، بينما يضعف في فترات التراجع والهزيمة . وقد عقّب دويتشر

(٢١) الفصل التاسع .

على ذلك بالقول إن تروتسكي « لم يكن يعرف ان ينجز إلا اعمال هرقل ، لا الأعمال الأخرى » . والحقيقة أنه إذا كان تروتسكي يبلغ أقصى قدرته وفرادته في فترات الصعود تلك ، بينها تتراجع تلك القدرة في فترات الانحسار ، فهذا ليس دلالة ضعف ذاتي بقدر ما هو تعبير عن تضاؤ ل موضوعي للامكانات الفعلية لتأثير الفكر والممارسة الثوريين في حالات الجزْر . إن قوة تروتسكي في الحالات الاخيرة تتجلى في عدم الانسياق مع التيار الجارف المتقهقر ، وفي التمكن من تحديد الخطوات الملائمة ، بمواجهة هذا التيار ، نحو الاعداد لانطلاقة جديدة .

واخطأ دويتشر أيضاً حين اعتقد بأن لينين وتروتسكي لم يكونا مصيبين حين راهنا على الثورة العالمية عام ١٩١٧ ، وبأنه لو كانت لديهما رؤ ية اوضح حول الامكانات الفعلية لتلك الثورة ، فربما كانا تريثا في تأسيس الأممية الثالثة . وفي الواقع ان الرجلين وضعا نفسيهما - حسبما يقول بيير فرانك(*) - منذ عام ١٩١٤ ، على المستوى التاريخي ، إذ إن ساعة الاشتراكية كانت قد أزفت . والعديد من إشارات دويتشر ذاته تؤ كد أن قرارهما كان يتطابق مع تقدير للمرحلة التاريخية ، لا لهذا الحدث الآني أو ذاك . فكثيرة هي المقالات التي وردت لدى لينين بين ١٩١٤ و ١٩١٧ ، والتي تبرر قيام الأممية الثالثة نظرياً ، وسياسياً ، حتى قبل النهوض الثوري العظيم الذي اعقب ثورة اوكتوبر .

أما الفكرة الاكثر تطلباً للنقاش ، فهي تلك التي يعتبر فيها أن الستالينية هي « البلشفية المنعزلة » ، أي المجيبة موضوعياً عن الظروف الخاصة بروسيا التي استولى فيها الشغيلة على السلطة ، بوجه عالم رأسمالي معادٍ . وهوينطلق في هذا الحكم من كون سياسة الحزب تضمنت منذ بداية العشرينات عناصر هي التي تفاقمت فيها بعد في ظل الديكتاتورية الستالينية :

« لقد رسمنا خيط الاستمرارية التاريخية اللاواعية الذي قاد من محاولات لينين المترددة والخجول ، القائمة على مفهوم الثورة عن طريق الفتح إلى الثورات التي اضطلع بها ستالين الفاتح . إن خيطاً دقيقاً مشابهاً يشد سياسة تروتسكي الداخلية خلال تلك السنوات الى ممارسات خصمه اللاحقة . ويبدو تروتسكي ولينين ، كل في حقل مختلف ، كملهمي ستالين وملقنيه ، من دون علمهما . فلقد انساقا ، كلاهما ، بفعل ظروف خارج سيطرتها ، وبفعل أوهامهما ، الى اتخاذ بعض المواقف التي لم تكن لتسمح لهما الظروف ووساوسهما الخاصة بهما بالدفاع عنها زمناً طويلاً ، مواقف كانت متقدمة على زمنهما ، ولا تنسجم مع الذهنية البلشفية الشائعة ، ومع الأفكار الكبرى التي ألهمت حياتيهما »(٢٢) .

(*) احد مؤسسي الأممية الرابعة .

(٢٢) الفصل الرابع عشر .

أكثر من ذلك ، لقد انطلق دويتشر من مذكرة وجهها تروتسكي في آب / أغسطس ١٩١٩ الى اللجنة المركزية ، يدعو فيها الى التحول نحو الشرق ، ويؤكد فيها ان طريق الثورة الى باريس ولندن ، يمكن ان تمر بكابول وكالكوتا وبومباي ، ليخلص الى القول إن ستالين ، لا تروتسكي ، هو الذي سيغدو المنفذ الرئيسي لهذا التحول الضخم .

والحقيقة ان خطأ دويتشر الاساسي يكمن في النظر إلى الحزب البلشفي كشيء في ذاته ، وفي الانطلاق من بعض الممارسات الاضطرارية التي لجأ اليها تروتسكي ولينين ، اثناء مرحلة « شيوعية الحرب » ، ليخلص الى استنتاجات تعميمية بحجم النظر الى ستالين كنوع من الاستمرارية لتلك الممارسات . كما انه في الوقت ذاته الذي يظهر فيه مدى مقاومة الرجلين للعديد من بذور الانحرافات في جمهورية السوفييتات ، لا يتذكر دائماً تلك المقاومة حين يصل الى بعض الاحكام العامة ، من مثل تلك التي وردت في لاستشهاد الوارد اعلاه ، او ذلك الذي يعتبر بموجبه بعض توجهات تروتسكي في الظروف القاسية والصعبة للحرب الاهلية مقدمة للتشويه البيروقراطي الذي مثلته الستالينية لاحقاً . هذا مع العلم أنه اشار الى بذور معركة تروتسكي ضد البيروقراطية ، مثلاً ، خلال الحرب ، وسوف يبينّ الابعاد العظيمة لتلك المعركة كما تصاعدت فيما بعد ،حين اصبح « النبي المسلح » أعزل من السلاح ، وذلك في الجزأين اللاحقين من ثلاثيته . ففي الفصل الثاني يتحدث عن مقال لتروتسكي في مجلة « قضايا عسكرية » ، ظهر في شباط / فبراير ١٩١٩ ، في موضوع الصعود البيروقراطي ، حيث « يبدي احتقاره لـ « البيروقراطي السوفياتي الجديد » الذي « ترتعد فرائصه خوفاً على وظيفته » ، وينظر الى كل شخص ارفع منه ، بالثقافة أو الكفاءات ، نظرة حقد أو غيرة . . . إن هذا البيروقراطي ، المحافظ والكسول والحانق على كل ما يذكّره بضرورة أن يتعلم ، قد اصبح ثقلاً مربكاً في الدولة الجديدة . « إنه هو التهديد الحقيقي للثورة الشيوعية ، وأمثاله هم المتواطئون الحقيقيون مع الثورة المضادة ، حتى لو لم يشاركوا في أية مؤامرة » . . والثورة لن تكون اكثر من هرجة مشؤومة إذا كانت نتيجتها الوحيدة هي السماح لعدة آلاف من العمال بتقاسم مراكز الحكم والصيرورة اسياداً . « لن تبرر ثورتنا نفسها كلياً إلا حين يشعر كل شغيّل ، رجلاً كان أو امرأة ، ان حياته اصبحت اسهل ، وأكثر حرية ، ونظافة وكرامة . ونحن لم نصل بعد الى هذا الهدف ، ولا يزال يفصلنا طريق وعر عن هدفنا الوحيد والجوهري »[٢٣] .

وإذا كان صحيحاً أن بعض مظاهر الشوفينية الروسية اخرجت رأسها اثناء الحرب مع بولونيا ، في المجتمع السوفياتي ، فنص دويتشر ذاته يبينّ كيف واجه تروتسكي تلك المظاهر ، يدعمه الحزب ، وبأية صرامة . اما التجاوزات التي تمت على صعيد قضية

---

(٢٣) الفصل الثاني عشر .

جورجيا ، والتي يتحمل وزرها قبل أي كان ، كل من الجيورجيين ستالين واورجو نيكيدزه ، فمن الواضح أنها تمت بدون ارادة تروتسكي ولينين أو علمهما، ولقيت منهما التنديد والادانة فيما بعد .

من جهة اخرى ، ليس صحيحاً ان ستالين قاد نوعاً من « الثورة عن طريق الفتح » ، او فتح طريق الثورة ، مثلاً ، الى بكين وشانغهاي . فالكل يعلم مدى الضغط الذي مارسه على الحزب الشيوعي الصيني للالتحاق بذيل الكيومنتانغ منذ عام ١٩٢٥ ، وكيف نزل بكل ثقله ضد استلام الشيوعيين الصينيين ، بقيادة ماوتسي تونغ ، للسلطة في بكين ، حتى في عام النصر ، عام ١٩٤٩ ، بالذات . أما ما تم في بلدان أوروبا الشرقية أثناء الحرب العالمية الثانية ، وما بعدها ، فلم يكن ستالين يرمي من ورائه ، في الأصل إلى إحداث الثورة في تلك البلدان ، بل الى إقامة حاجز دفاعي دون الاتحاد السوفياتي . والتحولات التي تمت فيما بعد كانت حسبما اعترف دويتشر ذاته في كتابه ، ستالين ، من ضمن سيرورة تجريبية لم يتم التخطيط لها مسبقاً .

إن لينين وتروتسكي أخطآ ، بلا ريب ، في العديد من الاحيان ، إلا أن ما يميزهما هو انهما لم يكونا يوماً أداة لقوى تنقلب ضد البروليتاريا ، كما حصل مع ستالين على وجه التحديد . وليس من قبيل الاطالة ان نورد ، اخيراً ، هذا المقطع القيّم لبيير فرانك (من ضمن دراسته لكتاب « النبي المسلح » التي ظهرت في مجلة « الأممية الرابعة » في أيار / مايو ١٩٥٤) ، من ضمن توضيحه لحقيقة التغييرات التي حدثت داخل الحزب البلشفي بعد الثورة ، رغم ارادة لينين وتروتسكي ، وكان الرجلان شديدي القلق تجاهها ، تلك التغيرات الناجمة عن ظهور كتلة من الامتيازات والتمايزات داخل الطبقة المنتصرة ، ولا سيما داخل الحزب :

« كان الحزب البلشفي يتحرك ، يتحول . لقد تضخم وغدا له تركيب اجتماعي جديد ضمن مجتمع جديد في أوان الحمل . فتحت الاسم ذاته كان حزب آخر يتكون .

« لا لينين ولا تروتسكي ولا الحزب البلشفي القديم دعموا تلك الاتجاهات التي ادت بالحزب إلى التوقف عن تشكيل طليعة الطبقة على ارض السياسة والنظرية . على العكس ، فقد عرف لينين كيف يتخلى عن «شيوعية الحرب » ويبادر بجرأة الى انعطافة « النيب » . وفيما بعد ، اعد نفسه لخوض نضال لا يلين ضد الاتجاهات البيروقراطية التي انتهت الى خنق الحزب البلشفي كطليعة للبروليتاريا وحولته الى أداة سياسية للبيروقراطية السوفياتية . هذه الأحداث . . . يعرفها دويتشر تماماً ، واذا كان يتكلم مع ذلك على « بلشفية معزولة » لوصف الستالينية فلأنه لا يرى إلا

الأمر الواقع ، التطور الاقتصادي العجيب للاتحاد السوفياتي ، دون ان يتمكن من الفصل بين ما هو قوى انتاج حررتها الثورة وما هو اكراه بيروقراطي . رغم كل الشروط الموضوعية البائسة لروسيا ما بعد الحرب الاهلية ، ورغم العزلة الاقتصادية ، لم يكن ثمة اسباب كافية لـ « تبرير » الطرائق الستالينية تبعاً للنتيجة المستحصل عليها ، لا سيما ان بيروقراطية الكرملين لم تكن تحلم بتلك النتيجة ، ولم تكن تؤمن بها حين سحقت الحزب البلشفي والطبقة العاملة الروسية . لقد بلغتها تجريبياً . ولم يكن هنالك ظاهرة « استبدالية » تُحل الحزب محل الطبقة ، حيث رأى دويتشر نوعاً من الخطيئة الأصلية في عنق البلشفية . صحيح ان هذا الاتهام بإرادة احلال الحزب محل الطبقة العاملة في إنجاز مهامها وجهه تروتسكي ذاته للينين بعد انشقاق عام ١٩٠٣ ، إلا أنه اتهام لم يكن يستند إلى أي أساس ، فمصدره الاساسي في خطأ تروتسكي آنذاك بصدد مسألة الحزب . وفي المساجلات ، نجد لدى لينين جملاً تبالغ بوجه من مشكلة الحزب لتوضح بشكل افضل اهميته كعامل في صراع الطبقات : كان يرى فيه وعي الطبقة العاملة مرفوعاً الى اعلى مستوياته ، وإرادتها مدفوعاً بها الى حدودها القصوى ، افضل أداة في يد الطبقة ، لا بديلاً عن تلك الطبقة . . .

« ليست الستالينية الحزب الثوري وقد حل محل الطبقة في ظروف استثنائية للغاية ، أعقبت قلب السلطة الرأسمالية وانعزال روسيا الستالينية ، إنها مآل ثورة مضادة سياسية في الاتحاد السوفياتي صادرت الحقوق السياسية للبروليتاريا ، وحملت الى السلطة بيروقراطية منبثقة من الطبقة العاملة ، تستند الى مكتسبات الثورة ، لكنها تتطلع الى حماية تلك المكتسبات لتعزيز امتيازاتها ، هي ، وزيادتها . وكانت الصيغة الخاصة لذلك التحول السياسي في الاتحاد السوفياتي أن البيروقراطية الصاعدة وجدت اداة لها داخل الحزب الحاكم ، على صعيد جزء من كادراته . وفي الواقع ان جزءاً مهماً من العملية المضادة للثورة تمثلت بصراع شرس خاضه الجزء المتبقرط لإبادة الكادرات الحزبية »[٢٤] .

غير أن الأرض لم تزل تدور

جاء كتاب دويتشر بعد أربعة عشر عاماً على مصرع تروتسكي ، يؤكد أن « لصوص المقابر » يستطيعون أن يخفوا لفترة رواية منجزات رجل عظيم ، « المحفورة على ألواح من ذهب » ، لكنهم عاجزون عن ليِّ عنق التاريخ وحجب شمس الحقيقة الساطعة لأكثر من برهة عابرة ، حتى لو أخذت تلك البرهة حجم سنين طوال ، لا بل حقب . وفي هذا المجال ، معبرة جداً تلك الصورة التي تجمع لينين وتروتسكي في مواجهة حشد عظيم

(٢٤) مجلة « الأممية الرابعة » ، العدد ٣ - ٥ ، السنة ١٢ ، آذار / مارس - أيار / مايو ١٩٥٤ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

من الجماهير العاملة ، وقد مرت بها الرقابة الستالينية بحقد يثير الرثاء ، فاختفى منها ، بغير ما سحر ساحر ، وجه تروتسكي وقامته الممدودة . وقد اشار الشاعر الفرنسي ، اندريه بريتون ، الى ذلك في كلمة القاها في احتفال بذكرى ثورة اوكتوبر جرى عام ١٩٥٧ ، حيث يقول :

« رأيت تميمة على الدوام في تلك الصورة التي كان البعض يبذلون الكثير لاخفائها ، والتي تنقلها الصحف في الذكرى الحالية ، وهي تظهر لينين منحنياً على سامعيه الكثر من منبر ينتصب عند قاعدته ليون تروتسكي بزي الجيش الاحمر ، كما لو كان يضطلع لوحده بحرس الشرف . تلك النظرة ذاتها ، نظرة ليون تروتسكي التي اراها من جديد مثبتة عليّ اثناء لقاءاتنا اليومية منذ ٢٠ عاماً في المكسيك ، كافية لوحدها لتلزمني مذاك بأن احتفظ بكل إخلاصي لقضية هي الأكثر قداسة بين القضايا جميعاً : قضية تحرير الانسان ، وذلك ما وراء التقلبات التي يمكن ان تعرفها ، وفيما خصه هو ، ما وراء اسوأ الجحود والمرارات . إن نظرة مثلها ، والضوء الذي يشرق منها لا يمكن لشيء ان يطفئهما ، مثلما لم يكن بوسع ترميدور ان يفسد ملامح سان جوست »[٢٥] .

وبالفعل ، مثلما لم يكن بوسع الترميدور الاول ان يفسد ملامح ثوري عظيم كسان جوست ، فالترميدور الثاني المتمثل بصعود ستالين ، إذا كان تمكن من طمس الملامح الحقيقية لـ « المنظّر الخالد للثورة الدائمة » ، ردحاً من الزمن ، فهو عجز عن تأمين الديمومة لعمله هذا ، ويبدو عجزه اعظم فأعظم كلما تبدلت اكثر فأكثر الظروف المأساوية للردة التي عاشتها الحركة الثورية في العالم طوال حقبة سوداء امتدت من العشرينات حتى الانتعاش الجديد لتلك الحركة الذي تشهد الحقبة الاخيرة مظاهره وتجلياته . هذا يعني بالتأكيد أن تروتسكي لم يخطىء حين اعلن في اسوأ لحظات الصعود الرجعي بعد انتصار النازية في المانيا : « سوف يعطينا التاريخ الحق » . إن كل انتصار جديد لحركة الثورة في العالم سيؤدي الى تقريب اليوم الذي ستتسارع فيه سيرورة الثورة العالمية ، ويتم تقليم الاغصان اليابسة على جسد تلك الثورة ، لتبرز من جديد نضارة الفكر والممارسة الثوريين اللذين جسدهما تروتسكي بأبهى مظاهرهما . ذلك ان العالم يتحرك ، ورغم كل شيء ، فالأرض لن تنفك تدور .

كميل قيصر داغر
آذار / مارس ١٩٨١

---

(٢٥) يمكن قراءة نص الكلمة الكامل في كتابي ، اندريه بريتون ، الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ (ك . د .) .

مقدمة المؤلف

حين تكوّن لديّ ، للمرة الأولى ، مشروع كتابة ثلاثية سيرية تتناول قادة الثورة الروسية ، تبادر الى ذهني أن أضمّنها دراسة عن تروتسكي في المنفى ، لا سيرة كاملة لتروتسكي . فالسنوات الأخيرة من حياة تروتسكي ونهايته المأساوية كانت تأخذ بتلابيب خيالي اكثر مما يفعل القسم الأول ، والأكثر علانية ، من تاريخه . لكن توصلت بعد التفكير إلى التساؤ ل اذا كان بإمكان تروتسكي في المنفى أن يكون مفهوماً بشكل كامل اذا لم يجر توضيح ما كان تروتسكي قبل المنفى ؟ . ثم فهمت ، وأنا أتأمل الوثائق التاريخية والمصادر السيرية التي كان بعضها جديداً بالنسبة لي ، فهمت بصورة أوضح مما قبل ، الى أي حد كانت مأساة السنوات الاخيرة من حياة تروتسكي تمد جذورها في تاريخه السابق ، لا بل في بدايات عمله السياسي . لذا قررت ان اكرس لتروتسكي جزأين متمايزين ، لكن ليس من دون علاقة لأحدهما بالآخر : **النبي المسلح** و **النبي الأعزل** ، حيث يصف الأول ما يمكن تسميته « صعود » تروتسكي ، والثاني « سقوطه » . ولقد امتنعت عن استخدام هذين التعبيرين التقليديين لأني لا أعتقد أن صعود رجل الى السلطة يمثل بالضرورة ذروة حياته ، أو أنه ينبغي اعتبار خسارته هذه السلطة بمثابة سقوطه[1] .

ولقد أوحى اليّ بعنوان كل من الجزأين مقطع لماكيافيللي سوف أورده في حاشية لاحقة . والعمل الحالي يبرز الحقيقة التي كُتبت في داخله ، ألا أنه تأويل لها أيضاً ، ساخرٌ الى هذا الحد أو ذاك . وانه لبرهان على الواقعية التأكيد على طريقة ماكيافيللي ، بأن « الانبياء » المسلحين قاموا بالفتوحات ، والأنبياء المجردين من السلاح سقطوا صرعى . إلا أنه يمكن التساؤ ل اذا كانت المقارنة بين نبي مسلح ونبي أعزل ، من جهة ، وفتح وهزيمة ، من جهة اخرى ، واضحة بمقدار ما يبدو الأمر بالنسبة لصاحب كتاب الأمير[*] . ففي الصفحات اللاحقة ، سوف نرى تروتسكي فاتحاً من دون سلاح ، ابان أعظم ثورة شهدها عصرنا . ثم سوف نراه مسلحاً ، ظافراً ، ورازحاً تحت ثقل سلاحه ، والفصل

---

(١) من المتوقع كتابة جزء ثالث (ملاحظة الناشر)

(*) المقصود ماكيافيللي (المعرب)

الذي يظهره في قمة قوته هو بعنوان « الهزيمة في الانتصار » . وحين سننكب على النبي الأعزل ، سينطرح السؤال لمعرفة ما اذا لم يكن يختفي في هزيمته بالذات مقدار كبير من النصر .

ان دور تروتسكي في الثورة الروسية ، كما بيّنته ، لا بد أنه سيفاجىء البعض . فمنذ حوالي ثلاثين عاماً تكالبت آلة الدعاية الستالينية الضخمة على محو اسم تروتسكي من سجلات الثورة ، وحين تركته فيها كان ذلك بصفة خائن من الطراز الأول . وبالنسبة للجيل السوفياتي الحالي ، ولغيره أيضاً ، تشبه حياة تروتسكي واحداً من تلك القبور المصرية القديمة التي يعرف الناس أنها ضمت في الماضي جثمان رجل عظيم ورواية منجزاته المحفورة على ألواح من ذهب ، إلا أن لصوص مقابر ومخربي آثار عاثوا بالضريح فساداً وتركوه فارغاً وموحشاً الى درجة أنه لم يعد ثمة أثر واحد للألواح التي كان يتضمنها سابقاً . ولقد اجتهد لصوص المقابر ، في الحالة التي نحن بصددها ، بعناد لا مثيل له ، بحيث أفسدوا حتى احكام المؤرخين والباحثين المستقلين الغربيين .

ورغم كل ذلك ، فالألواح التي تتضمن حياة تروتسكي بقيت سليمة ، انها مؤلفاته التي تم نسيان معظمها اليوم ، ومحفوظاته ، انها ذكريات معاصريه ، أكانوا أصدقاء أو أعداء ، والصحف الروسية المنشورة قبل الثورة وأثناءها وبعدها ، ومسوّدات أعمال اللجنة المركزية ، والتقارير الستينوغرافية لمؤتمرات الحزب والسوفييتات . والغالبية العظمى من هذه الوثائق يمكن مراجعتها في مكتبات الغرب العامة ، إلا أن بعضها غير موجود إلا في المكتبات الخاصة . ولقد راجعت كل هذه المصادر . درست مع امرأتي التي ساهمت ، بمقدار ما ساهمت ، في الأبحاث ، وشاركت الى حد عظيم في التمهيد لكتابة هذا المؤلف ، درست بوجه خاص مجموعة الصحف الغنية العائدة لمرحلة ما قبل الثورة الروسية والموجودة في مكتبة هوفر في جامعة ستانفورد بكاليفورنيا حيث وجدت وثائق لم يستخدمها حتى ذلك الحين ، إلا لماماً ، مؤرخو الحركات الثورية الروسية . ومع امرأتي ، درست كذلك محفوظات تروتسكي في مكتبة هاوتون بجامعة هارفارد ، وهذه المحفوظات تشكل أهم مجموعة من الوثائق الأصلية حول التاريخ السوفياتي موجودة خارج الاتحاد السوفياتي (ثمة وصف مقتضب للمحفوظات في البيبلوغرافيا الواردة في نهاية الجزء) .

لذا ليس لديّ ما أتذمر منه ، كما فعلت في مقدمة السيرة التي كتبتها عن ستالين ، بما يخص الفقر في المصادر السيرية . والتناقض بين الشخصيتين كافٍ تقريباً لإيضاح أسباب ذلك . فقد كان تروتسكي واضحاً بخصوص حياته ونشاطاته بقدر ما كان ستالين متخفياً . كان يسمح لأناس غرباء تماماً عنه بأن يتوغلوا في كل ثنايا حياته تقريباً ، وكتب

بذاته سيرته ، والأهم من ذلك أن ثمة مقداراً ضخماً من السيرة الذاتية غير الواعية في مؤلفاته المنشورة التي لا تحصى ، وفي مقالاته وأبحاثه التي لم تجمع في كتب ، كما في كتاباته غير المنشورة . في كل مكان كان يمر فيه ، كان يترك آثاراً واضحة بحيث يصعب محوها فيما بعد أو بلبلتها . حتى أنه لم ينجح في ذلك ، هو ايضاً ، في المرات النادرة التي خضع فيها لهكذا اغراء .

وعموماً ، ليس لكاتب سيرة أن يعتذر لكونه يروي قصة حياة قائد سياسي سبق وكتب سيرته الذاتية . لكن يمكن أن أكون استثناء لهذه القاعدة ، في الحالة التي نحن بصددها . فبعد تفحّص نقدي ودقيق ، أرى أن كتاب حياتي ، الذي كتبه تروتسكي صادق ومطابق للواقع بالقدر الذي يمكن ان يكون كتاب من هذا النوع . إلا أن هذا الكتاب هو في الوقت ذاته دفاع مكتوب في حمّى المعركة الخاسرة التي كان يخوضها كاتبه ضد ستالين . فيه يقاتل تروتسكي لصوص المقابر . يردّ على التشنيع الستاليني الضخم والمتعدد بدفاع خاص هو بحد ذاته تمجيد للذات . وهو لا يفسر فيه - ولم يكن ذلك في متناوله - التغييرات في مناخ الثورة التي جعلت هزيمته ممكنة وحتمية في آن معاً . وسرده للدسائس التي سمحت لـ « مغتصب » خسيس وبيروقراطية سيئة النوايا بازاحته من السلطة غير كافٍ بشكل واضح . والسؤال الذي يطرحه كاتب السيرة على نفسه بشغف هو التالي : الى أي حد كان تروتسكي صانع هزيمته ؟ والى أي حد دفعته ظروف حرجة وشخصيته هو بالذات الى شق الطريق أمام ستالين ؟ ان الاجابة عن هذه الاسئلة تعرّي المأساة الحقيقية التي عاشها تروتسكي ، وهي مأساة كان يمكن ان تكون كلاسيكية لو لم تكن حوافزها الشروط الدنيوية جداً للسياسة الحديثة . ولقد كان لتروتسكي أن يكون اكثر من انسان لو استطاع أن يستخلص جوهر هذه المأساة . لكن من وجهة نظر كاتب السيرة ، فتروتسكي في ذروة مسيرته مذنب وبريء وناضج للتكفير بقدر ما هو كذلك بطل مأساة اغريقية . ووجهة النظر هذه التي تفترض التعاطف والتفهم مسبقاً ، هي ، كما ارجو ، بعيدة عن وجهة نظر المدعي العام بعدها عن وجهة نظر المحامي .

يسعى تروتسكي في كتابه ، حياتي ، لتبرير نفسه ، بتعابير فرضها عليه ستالين والمناخ الايديولوجي للبلشفية بعد عام ١٩٢٠ ، بتعابير تقديس لينين . فستالين يشهّر بتروتسكي كأعدى أعداء لينين ، لذا اهتم تروتسكي بالبرهنة على اخلاصه الكامل للينين وعلى اتفاقه الكامل معه . واخلاصه للينين بعد عام ١٩١٧ كان بلا شك فوق كل الشبهات ، ونقاط الاتفاق معه كانت عديدة ومهمة . إلا أن تروتسكي يشوش مع ذلك التعرجات ويقلل من أهمية المشاحنات بينه وبين لينين ، من عام ١٩٠٣ حتى عام ١٩١٧ ،

والأمر ذاته يقال عن تبايناتها اللاحقة . إلا ان اضطرار تروتسكي لتقديم دفاعه في سياق تقديس لينين كان له نتيجة اخرى أكثر فرادة بكثير : فتروتسكي يقلل من أهمية دوره بالنسبة لدور لينين في بعض الظروف العصيبة الحاسمة ، وتلك ظاهرة نادرة للغاية في أدب السيرة . واضح هو ذلك بوجه خاص حين يفسر دوره في انتفاضة اوكتوبر وفي خلق الجيش الأحمر . انه يقلل من مزاياه لكي لا يبدو انه يقلل من مزايا لينين . أما أنا فحاولت أن أعيد ضبط ميزان التاريخ ، غير مهتم بأي تقديس ، وغير مبال ، بأي وفاء لأي كان .

وفي الأخير ، اهتممت بوجه خاص بتروتسكي الأديب ، والهجّاء ، وصاحب النظريات العسكرية ، ورجل الصحافة . إن اكبر جزء من عمل تروتسكي الأدبي مدفون في النسيان اليوم وفي غير متناول الجمهور الواسع . إلا أن تروتسكي هو مع ذلك الكاتب الذي قال عنه برنارد شو ، الذي ما كان له ان يحكم على ميزاته الادبية إلا انطلاقاً من ترجمات بائسة ، إنه « يتفوق على جونيوس وبورْكْ » . كان شو يقول عن تروتسكي : « مثل ليسينغ حين يقطع رأس خصمه ، يرفعه ليبيّن أن لا شيء داخله ، إلا أنه لا يمس شخصية ضحيته الخاصة . . . يعرّيها من أي قيمة سياسية ، لكنه لا ينال من شرفها[٢] . . . ولا يمكنني إلا أن آسف أن تكون اعتبارات تتعلق بضيق الفسحة وبالتصميم منعتني من أن أدرس بتفصيل اكثر هذا الوجه من شخصية تروتسكي . وإني لآمل ان اتمكن من ذلك في النبي الأعزل .

أ . د .

تشرين الاول / اوكتوبر ١٩٥٢

---

(٢) ذو نايشن ، لندن ، ٧ كانون الثاني / يناير ١٩٢٢ .

كلمات شكر

أدين بالكثير للانتقادات الودية للبروفسور ا . هـ. كار والسيدة بربارة وارد ـ جاكسون ولتشجيعهما ، وقد قرآ اجزاء من مخطوطتي ، وللسيد دونالد تييرمان الذي قرأها كاملة . كما ان السيد برنارد سينغر الذي له اطلاع عميق على الحياة الروسية قدّم لي مساعدة عظيمة . وانا اشكر السيد د . م . دافين واعضاء لجنة نشر اوكسفورد يونيفرسيتي برس ، لإيحاءاتهم العديدة التي ساعدتني في ادخال تحسينات على الأسلوب . وقد وضع السيدان هوغو ديوار وجون كيمنتس في متناولي وثائق ومؤلفات هي الآن من النوادر السيرية . ويهمني أن أشكر البروفسور ويليام أ . جاكسون ومساعديه في مكتبة هاوتون ، بجامعة هارفارد ، الذين ساعدوني كما ساعدوا امرأتي ، على أن نهتدي الى طريقنا في ملفات **محفوظات تروتسكي** . كما أني أدين بالكثير للعاملين في مكتبة هوفر ، ومكتبة لندن ، والمتحف البريطاني ، والمكتبة المركزية القومية .

إن شهامة الأوكسفورد يونيفرسيتي برس وقسم الآداب القديمة في مؤسسة روكفلر سمحت لي ولامرأتي بأن نمضي شهوراً عديدة في الولايات المتحدة وننهي هذا الجزء من برنامج أبحاثنا بنجاح ، هذا البرنامج الذي كان يتوقف اتمامه كلياً على تمكننا من الوصول الى المكتبات الاميركية المشار إليها اعلاه .

وقد أشرت في الهوامش الى ما أدين به لعدد كبير من الكتّاب .

« . . . ليس من شيء معالجته اكثر مشقة ، وإنجاحه اكثر ريبة ، وادارته اعظم خطراً من المغامرة باحداث مؤسسات جديدة ، لأن من يحدثها يستعدي كل اولئك الذين يفيدون من النظام القديم ولا يكسب إلا مدافعين فاتري الهمة ، هم المستفيدون من النظام الجديد » .

« فإذا أردنا الاصغاء ، إذاً الى هذه النقطة ، ينبغي . . . النظر فيما اذا كان اولئك الباحثون عن اشياء جديدة قادرين على شيء بذاتهم أو هم تابعون للغير ، أي اذا كانوا يعتمدون على التوسل أو على القوة من أجل الوصول بعملهم الى النجاح . ففي الحالة

الاولى ، ينتهون دوماً الى الفشل ولا ينهون أي شيء ، لكن حين يعتمدون على ذاتهم حصراً ، ويكونون قادرين على استخدام القوة ، لا يفشلون إلا لماماً . وهذا هو السبب في أن كل الانبياء المسلحين جيداً كانوا ظافرين بينما انهزم العزّل من السلاح . ذلك أنه علاوة على ما قيل أعلاه ، فإن طبيعة الشعوب متبدلة ومن السهل اقناعها بشيء ما ، لكن من الصعب الابقاء على تلك القناعة . لذا ينبغي ترتيب الأمور بحيث حين لا تعود تقتنع بها يكون بالامكان اكراهها على الاقتناع عن طريق القوة . فلم يكن بمستطاع موسى وقوروش وتيزي Théseé ورومولوس أن يفرضوا الالتزام بدساتيرهم مدة طويلة ، الى الحد الذي نعرفه ، لو انهم كانوا عزّلاً . بل كان تم لهم ما تم في عصرنا للأخ جيروم سافونارولا الذي داهمه انهيار النظام الذي كان نظامه مذ بدأ الجمهور يفقد ايمانه به ، لكونه لم يكن يملك وسيلة تثبيت عزم الذين اعتقدوا به ، أو جعل من لا يؤمنون به يؤمنون » .

(ماكيافيللي ، الأمير ، الفصل السادس) .

الفصل الأول

البيت والمدرسة

كان ملك القيصر الكسندر الثاني (١٨٥٥ - ٨١) يقترب من نهايته الحزينة . فالعاهل الذي استثار صعوده واصلاحاته الأولى اكبر الآمال لدى المجتمع الروسي ، لا بل بين الثوريين المهاجرين ، العاهل الذي حاز لقب المحرر ، بتحريره الفلاحين من الرق ، كان يمضي السنوات الأخيرة من حياته في وهدة اليأس ، في حين يطارده الثوريون كبهيمة ، يتخفىّ في قصوره الامبراطورية هارباً من مسدساتهم وقنابلهم .

لقد كان القيصر يدفع ثمن الآمال الخائبة التي استثارها : خان ما تنتظره منه كل طبقات المجتمع تقريباً . ففي نظر العديد من الملاكين العقاريين ، كان يجسد التخريب بالذات ، متوّجاً بالقرمز الامبراطوري ومرتدياً حلله : ذلك انهم لم يغفروا له اصلاح عام ١٨٦١ الذي حرمهم من سلطتهم الاقطاعية على الفلاحين . لكن اذا كان أزاح عن كاهل الفلاحين عبء القنانة فقد تركهم يرزحون تحت ثقل البؤس والديون : لقد اضطر الاقنان القدامى في لحظة تحررهم لأن يحوّلوا الى النبلاء قسماً كبيراً من الأراضي التي كانوا يزرعونها ، وكان عليهم أن يدفعوا إتاوة ثقيلة عن الأرض التي احتفظوا بها ، وذلك طوال سنوات . كانوا ما يزالون يو قرون القيصر كولي نعمتهم وصديقهم ، معتقدين أنه اذا كان النبلاء قد حرموهم من منافع تحررهم فذلك ضد مشيئته ونواياه . إلا أن العطش الى الأرض كان قد استيقظ في أعماق الفلاحين ، هذا العطش العظيم الذي هزّ روسيا طوال اكثر من نصف قرن وأصابها بالحمّى ، جسداً وروحاً .

كانت طبقتا النبلاء والفلاحين لا تزالان تشكلان الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع الروسي . أما البورجوازية المدينية فلم تكن تتطور إلا ببطء . فهي بخلاف البورجوازية الأوروبية ، لم يكن لها ماضٍ ولا تقاليد ولا رأي خاص ولا ثقة بالذات ، كما لم يكن لها أي نفوذ . وكانت بدأت كتلة صغيرة من الفلاحين تنفصل عن الريف وتشكل طبقة عاملة صناعية . لكن مع أن العقد الأخير من حكم الكسندر شهد انفجار الاضرابات الصناعية الكبرى الأولى ، فلم تكن ظهرت الطبقة العاملة بعد إلا كفرع قريب من طبقة الفلاحين .

ان أياً من هذه الطبقات ما كان بإمكانها أن تغدو خطراً داهماً يهدد العرش . كل منها كانت تأمل أن تحظى مطالبها بالقبول وأن يستجيب الملك بذاته لشكواها . في كل حال ، ما كان بمستطاع أي طبقة أن تذيع شروطها وتعلن على الملأ مطالبها . ما كان بمستطاع أي طبقة أن تجمع افرادها وتكتّل قواها في مؤسسة تمثيلية أو في حزب سياسي . فلا هذا ولا تلك كانا موجودين ، ولم يكن هنالك غير الدولة والكنيسة تملكان تنظيماً على المستوى القومي ، إلا أن دورهما الذي تحكّم بشكلها وببنيتها كان يتمثل بإلغاء الاستياء الاجتماعي ، لا بالتعبير عنه .

جماعة واحدة ، كانت تتمرد على السلالة الملكية ، انها الانتلليجنسيا(*) . فعلى صعيد المهن جمعاء ، لم يكن لدى المثقفين ـ لا سيما اولئك الذين لم تمتصهم الادارة ـ أسباب أقل مما لدى الفلاحين ليستاؤ وا من القيصر المحرّر . فلقد خيّب تطلعهم الى الحرية ، بعد أن كان داعبه ، مثلما خيّب رغبة الموجيك(**) بامتلاك الأرض بعد أن كان أيقظها . ولا شك أن الكسندر لم ينهل بالسوط على افراد الانتلليجنسيا كما كان يفعل سلفه ، نقولا الأول ، إلا أنه كان لا يزال يعاقبهم بعنف . كانت اصلاحاته على صعيد التربية والصحافة خجولاً وتافهة ، فالحياة الثقافية للأمة بقيت تحت اشراف الشرطة والرقابة والسنودس(***) المقدس . وبتقديمه للمثقفين ظاهر حرية ، كان يجعل من رفض كل حرية أصيلة امراً اكثر ايلاماً وأشد اذلالاً . لقد كانت الانتلليجنسيا تسعى للثأر لآمالها المخيبة ، فيما كان القيصر يحاول أن يكبح جموحها ؛ هكذا كانت اصلاحات نصف ليبرالية تفتح الطريق أمام القمع ، والقمع يغذي روح التمرد والنقمة .

ولقد كانت الانتلليجنسيا ضعيفة جداً من حيث العدد ، ولم يكن في صفوفها غير حفنة من الثوريين النشيطين . فاذا وصفنا معركتهم ضد سيد تسعين مليوناً من أفراد الرعية كصراع داوود وجوليات ، ففي ذلك تضخيم لقوتهم . فخلال السبعينات من القرن التاسع عشر ، تلك الحقبة الكلاسيكية من تمرد الانتلليجنسيا ، شارك بضعة آلاف من الناس ، لا أكثر ، في المرحلة السلمية من نشاط حركة **نارودنيك** (****) (الشعبية) المكرس « للتثقيف والدعاية » : أما إبان الحقبة الأخيرة ، حقبة الارهاب ، فلم يساهم في العمل

(*) فئة المثقفين (المعرب) .

(**) الموجيك هو الفلاح الروسي المعدم أيام القياصرة (المعرب).

(***) المجمع الكنسي (م).

(****) حركة نادت بالاشتراكية الطوباوية الشعبية وتراوح عملها بين النضال السياسي والارهاب وكانت ترى مهمتها [illegible] في اسقاط الحكم المطلق واطلاق الحرية السياسية (المعرب) .

بشكل مباشر غير أربعين رجلاً وامرأة تقريباً . هؤلاء الأربعون حوّلوا القيصر إلى هارب في مملكته وأحبطوا كل قدرة امبراطوريته . واذا كان لمجموعة في مثل هذا الضعف أن تكسب هكذا أهمية فلأنه كان وراءها أمة مستاءة ، بقضها وقضيضها ، لكنها خرساء . وبعكس الطبقات الأساسية في المجتمع ، كانت الانتلليجنسيا منظمة ، وكان لأعضائها التكوين الضروري لتحليل ما تقاسيه الأمة من محن ، وكانوا يضعون البرامج الكفيلة ، بنظرهم ، بتقديم العلاج لها . وهم ما كانوا ليتحدوا السلطة القائمة لو آمنوا بأنهم يتكلمون فقط باسمهم . فقد كان يحفزهم في البدء وهمٌ عظيم : اذ كانوا يعتقدون بأنهم ينطقون بلسان الأمة ، ولا سيما طبقة الفلاحين . اعتقدوا أن شغفهم بالحرية يلتقي عطش الفلاحين للأرض وعمدّوا تنظيمهم الثوري بأسم **زيمليا أي فوليا** ـ أي الأرض والحرية . كانوا يتمثلون بشرهٍ افكار الاشتراكية الاوروبية ويسعون لتكييفها مع وضع روسيا . اما عماد المجتمع الجديد الذي كانوا يحلمون به فلم يكن عامل المصنع ، بل الفلاح . ولم يكن المصنع ، الملكية العامة ، بل كانت الكومونة الريفية ، أو الملكية الجماعية (المير القديم الذي كان لا يزال حياً) ، هي التي ستشكل خليته القاعدية .

كان محكوماً على « رجال السبعينات » مسبقاً كرواد للثورة . ما من طبقة اجتماعية كانت معدة لدعمهم . وقد اكتشفوا خلال ذلك العقد ، بصورة تدريجية ، واقع عزلتهم ، ولكن أوهامهم لم تسقط إلا ليكوّنوا أوهاماً أخرى ، محاولين أن يحلوا الورطات التي كانوا محاصرين ضمنها ، وبعضها خاص ببلدهم وجيلهم ، بينما البعض الآخر ملازم لكل حركة ثورية . حاولوا باديء ذي بدء أن يحركوا الفلاحين ، إما عن طريق ابراز أخطاء الحكم المطلق للموجيك ، كما فعل انصار لافروف ، أو بمحاولة دفعهم للتمرد على القيصر ، كما كان باكونين يحثهم على أن يفعلوا . ومرتين خلال ذلك العقد ، غادر رجال ونساء من الانتلليجنسيا منازلهم ومهنهم وحاولوا ان يصيروا فلاحين بين الفلاحين ، بهدف فهمهم بشكل أفضل . وقد كتب جنرال من سلك الدرك مكلف بمراقبة هذا النزوح : « ان فوجاً كاملاً من الاشتراكيين كرس نفسه لهذا المشروع بنشاط وروح تضحية لا مثيل لهما في تاريخ الحركات السرية في أوروبا » . إلا أن هذه التضحية لم تُجدِ نفعاً لأن حبل التفاهم كان مقطوعاً بين الفلاحين والانتلليجنسيا . فالموجيك كان ما يزال يثق بالقيصر ـ المحرر ، لذا كان يواجه كلام النارودنيك ، الراغب في « إنارته » أو « دفعه للتمرد » ، بلا مبالاة حذرة أو بعداء مكشوف . وقد تولى الدرك والشرطة توقيف المثاليين الذين « ذهبوا الى الشعب »، وأنزلت بهم المحاكم عقوبات سجن قاسية ، أو حكمت عليهم بالأشغال الشاقة أو بالنفي .

وبالتدريج ، حل محل فكرة ثورة يضطلع بها الشعب فكرة مؤامرة تحبكها أقلية ، قليلة العدد لكن متحلية بالحزم والعزم ، آتية من أوساط الانتلليجنسيا ، وتنتهي بها الى النجاح . أما اشكال العمل فتعدلت نتيجة لذلك . لقد كان نزوح الانتلليجنسيا الى الريف بادرة عفوية ، اذ لم يكن وراءه أي تنظيم مركزي ، إلا أن المؤامرة الجديدة كانت تتطلب تنظيماً سرياً صارماً ، يجمع بين تشعباته تنسيق محكم ، وتوجهه قيادة حازمة وفقاً لانضباط دقيق . أما قادتها ـ جيليابوف ، كيبالتشيش ، سوفيا بيروفسكايا ، فيرا فيغنر ، وآخرون ـ فلم يكونوا معدين منذ البدء للعمل الارهابي ، بيد أن منطق وضعهم بالذات ، مضافاً الى تطور الاحداث ، أدى بهم الى تلك العاقبة . هكذا في كانون الثاني / يناير ١٨٧٨ ، قامت شابة تدعى فيرا زاسوليتش ـ كان لها في يوم من الأيام نفوذ على بطل هذا الكتاب ـ باغتيال الجنرال تريبوف ، قائد درك بطرسبورغ ، احتجاجاً على معاملته السيئة لموقوف سياسي ، وعلى الاهانات التي كان يعرّضه لها . وخلال المحاكمة ، تكشفت التجاوزات الرهيبة التي تتحمل الشرطة مسؤوليتها . ولقد أثارت تلك التجاوزات استهجان القضاة ، كما تأثرت نفوسهم بالمثالية الصادقة التي تحلّت بها المتهمة ، الى درجة انهم أخلوا سبيلها . وحين حاولت الشرطة أن توقفها لدى خروجها من المحكمة ، هرع جمهور صديق لنجدتها وأتاح لها الافلات . فأصدر القيصر مرسوماً يقضي بكف يد المحاكم المدنية ، منذ ذلك الحين ، في قضايا المتهمين السياسيين ، وإيلاء المحاكم العسكرية مسؤولية النظر فيها .

ان بادرة زاسوليتش غير المتعمدة والرد الذي أحدثته دلّا المتآمرين على الطريق . ففي عام ١٨٧٩ انشق حزب **الأرض والحرية** الى قسمين ، وبعض اعضائه المصممين على متابعة العمليات الارهابية حتى اطاحة السلطة المطلقة شكلوا حزباً جديداً باسم **نارودنيا فوليا** ، أو **حرية الشعب**[١] . وكان برنامجهم الجديد يشدد على الحريات المدنية أكثر مما على الاصلاح الزراعي . بينما قطع فريق آخر أقل نفوذاً ، ولا يعلق أية اهمية على العمل الارهابي ، كل علاقة بالفريق الاول ، ميمماً شطر الدفاع عن **القسمة السوداء** (**شورنيي بيريدل**) ـ أو التوزيع المتساوي للأرض . (هذا الفريق ، بقيادة بليخانوف ، الذي هاجر بعد قليل الى سويسرا ، وجّه أول رسالة ماركسية واشتراكية ـ ديمقراطية الى الثوريين الروس) .

ولقد شهد عام ١٨٧٩ تتابعاً سريعاً لعمليات ارهابية مشهدية . ففي شباط / فبراير

(١) غالباً ما تترجم نارودنيا فوليا بـ ارادة الشعب . اذ لكلمة فوليا معنى مزدوج ، فهي تعني تارة « الحرية » وطوراً « الارادة » ويمكن ترجمتها بالطريقتين .

تم اغتيال الأمير كروبو تكين ، حاكم خاركوف . وفي آذار / مارس وقعت محاولة اغتيال استهدفت الجنرال درينتلن ، قائد الشرطة السياسية . وخلال العام ذاته نجا القيصر نفسه من محاولتين : ففي آذار / مارس أطلق أحد الثوريين عليه خمس رصاصات من مسدسه ، وخلال الصيف ، فيما كان عائداً من مقره في كريميه ، انفجرت الغام عديدة تحت دواليب قطاره . وقد تبعت ذلك عمليات توقيف مكثفة وحالات شنق ونفي متعددة . إلا أن المتآمرين ما لبثوا أن نجحوا في أول آذار / مارس ١٨٨١ في اغتيال القيصر .

كانت القيصرية تقدم للعالم أجمع الصورة الساطعة للعظمة والقوة . إلا أن كارل ماركس أصر في نيسان / أبريل ١٨٧٩ ، في رسالة بعث بها من لندن إلى صديق روسي ، على تفكك المجتمع الروسي الذي كان يختفي خلف تلك الواجهة ، وقد قارن وضع روسيا في نهاية حكم الكسندر بوضع فرنسا في ظل لويس الخامس عشر[٢] . وفي الواقع أن معظم الأشخاص الذين أصبحوا فيما بعد قادة الثورة الروسية ولدوا في العقد الأخير من حكم الكسندر .

***

بعيداً جداً عن مسرح هذه الصراعات التي لا هوادة فيها ، ووسط السهب الهادىء والمشمس في جنوبي أوكرانيا ، وبالتحديد في مقاطعة خرسون ، قريباً من مدينة بوبرينتز الصغيرة ، كان يقيم دافيد ليونتييفيتش برونشتاين (عام ١٨٧٩) في المزرعة التي اشتراها قبل مدة قصيرة من الكولونيل يانوفسكي (ومن هنا اسم يانوفكا) . لقد تلقى الكولونيل هذه الأرض ، الممتدة على مساحة أربعمائة هكتار تقريباً ، من القيصر ، مكافأة له على خدماته . إلا أن الكولونيل الذي لم ينجح في مهنته كمزارع كان في غاية الانشراح لبيعه برونشتاين مائة هكتار وتأجيره الثلاثمائة الأخرى . وقد تم الاتفاق في بداية العام . وخلال الصيف ، غادر المالك الجديد وعائلته قرية مجاورة الى البيت المسقوف قصباً الذي حصلا عليه علاوة على المزرعة .

كان آل برونشتاين يهوداً . وكان نادراً أن ترى يهوداً يهتمون باستثمارة زراعية . إلا أن ما يقرب من أربعين مستعمرة لمزارعين يهود ـ فاضوا عن الغيتوات كثيفة السكان في « المنطقة المحفوظة » ـ كانوا متفرقين عبر سهب خرسون . ففي روسيا ، لم يكن من حق اليهود أن يعيشوا خارج المنطقة المحفوظة ، أي خارج المدن الواقعة بوجه خاص في المقاطعات الغربية المقتطعة من بولونيا . إلا أنه كان بأمكانهم أن يقيموا بحرية في السهب

(٢) بيريبيسكاك . ماركسا اي ف . انجلزاس روسكيمي بوليتيشسكيمي دياتيلامي ، ص ٨٤ .

الجنوبي ، القريب من البحر الأسود . ولقد تملكت روسيا تلك الأرض غير المسكونة تقريباً ، لكن الخصبة ، في حوالي نهاية القرن الثامن عشر ، وكان القياصرة يصرون على تشجيع اعمارها . أما الرواد فكانوا مهاجرين أجانب أو منفيين مبعدين ، هنا كما في التاريخ الاستعماري أغلب الاحيان . كان يتم تشجيع صربيين وبلغاريين ويونانيين ويهود على غزو تلك الصحراء . وفي الواقع أن المعمّرين اليهود كانوا يحسّنون بذلك مصيرهم . لقد كانوا ينغرسون في المنطقة ، ويتمتعون ببعض الامتيازات ، ومنها أنهم تحرروا من التهديد بالطرد أو استخدام العنف الذي كان ينيخ بثقله دائماً على يهود «المنطقة المحفوظة» ، التي لم يتم تعيين حدودها بدقة في يوم من الأيام . أما الكسندر الاول فوافق على توسيع تلك المنطقة قليلاً . لكن منذ ارتقى نقولا الأول العرش أمر بدفع اليهود الى الوراء . وقد طردهم في أواسط القرن من جديد ، من نيكولاييف وسيباستوبول وبولتافا ومدن منطقة كييف . ومعظم المطرودين استوطنوا من جديد في «المنطقة المحفوظة» التي ضاقت مساحتها واكتظت بالسكان ، إلا أن البعض مضوا الى السهب[٣] .

ومن المرجح أنه بعد واحدة من عمليات الطرد تلك ، حوالى عام ١٨٥٠ ، غادر ليون برونشتاين ، والد مالك يانوفكا الجديد ، مدينة يهودية صغيرة قريبة من بولتافا ، على ضفة الدنيبير اليمنى ، تصحبه عائلته ، وذلك للاقامة في مقاطعة خرسون . وحين كبر أبناؤه وبناته مكثوا في الأرض ذاتها ، باستثناء أحدهم ، دافيد ، الذي كسب ما يكفي من المال ليغادر المستعمرة اليهودية ويقيم كمزارع مستقل في يانوفكا .

وعموماً ، كان المعمّرون يأتون من أفقر الشرائح وسط السكان اليهود . فخلال قرون عديدة ، كان اليهود من سكان المدن ، وكانت الزراعة غريبة عن طريقتهم في الحياة ، لدرجة أن القليل القليل منهم ، من بين القادرين على كسب معيشتهم في المدينة ، كانوا يختارون الاقامة في الريف . فالتاجر ورجل الأعمال والمرابي والوسيط ودارس التلمود الورع كانوا يفضلون جميعاً أن يعيشوا في المنطقة المحفوظة ، وسط جماعة يهودية ، ولو بائسة . كانوا يزدرون حياة الريف الى حد أن « رجل الأرض » ، أو آم هاآرتز حسبما يسمونه في لغتهم ، كان يعني كذلك الرجل الغليظ ، الفظ الذي ليس لديه أدنى معرفة بالكتابات المقدسة . أما أولئك الذين كانوا يمضون الى السهب فلم يكونوا يخسرون شيئاً ، اذ لم يكن يخيفهم عمل غير معتاد وقاس ، ولم تكن تشدهم الى الكنيس أية علاقات ، أو أنه كانت تشدهم اليه روابط قليلة .

(٣) س . م . دوبنوف ، تاريخ يهود روسيا وبولونيا ، الجزء الثاني ، ص ٣٠ - ٣٤ .

أن أبناء دين مالك يانوفكا الجديد كانوا عاملوه بالتأكيد كـ آم هاآرتز : فقد كان أمياً ، لا مبالياً بالدين ، لا بل كان يظهر بعض الاحتقار للكنيس . ومع أنه لم يتحدر إلا من جيل واحد من الفلاحين ، فقد كان ينتمي الى الفلاح وابن الطبيعة ، الى حد أنه لم يعد فيه شيء تقريباً من سمات اليهودي . ففي بيته ، لم يكن يتم التحدث باليديش ، ذلك الخليط من الالمانية القديمة والعبرانية والسلافية ، بل بخليط من الروسية والأوكرانية . إلا أن آل برونشتاين ، خلافاً لمعظم الموجيك ، لم يكونوا يتذكرون شيئاً من القنانة . فالقنانة لم ترسخ أقدامها يوماً في السهب . كان دافيد برونشتاين مزارعاً حراً وطموحاً ، صلباً ويعمل بشظف ، كان نموذج الرائد بالذات . وكان مصمماً على أن يجعل من مزرعته ملكية مزدهرة ، وكان يقسو على نفسه ، كما على عماله . كان المستقبل أمامه : حين أتى ليقيم في يانوفكا ، لم يكن يتجاوز عمره الثلاثين عاماً .

أما أمرأته ، آنا ، فكانت من بيئة مختلفة . فهي لم تنشأ في الريف بل في أوذيسّا أو في مدينة أخرى من مدن الجنوب . وكانت على قدر من الثقافة يسمح لها بتسجيل اسمها في مكتبة اعارة ، وبقراءة رواية روسية من حين لآخر ـ وهو ما كان القليل من اليهود الروس قادرين عليه في ذلك الحين . وهي انطبعت في بيت أهلها بالتراث اليهودي الأرثوذكسي الى هذا الحد أو ذاك ، وكانت أكثر اهتماماً من زوجها بالحفاظ على الطقوس ، فلم تكن تسافر أو تخيط في يوم السبت . وكان أصلها البورجوازي يظهر في احترامها الغريزي للأعراف ، ذلك الاحترام الموسوم ببعض النفاق الديني . ففي وقت الحاجة ، كان يحدث أن تخيط في يوم السبت ، لكن مع الحرص كثيراً على ألا يراها أي غريب تفعل ذلك . ومن غير الواضح كيف حدث أن تزوجت المزارع برونشتاين ، إلا أن ابنها يقول إنها أغرمت به حين كان لا يزال شاباً وجميلاً . وقد أغاظ ذلك عائلتها كثيراً ، فقد كانت تنظر الى ذلك الفلاح بعين الاحتقار . بيد أن ذلك الزواج لم يكن فاشلاً ، فالسيدة الشابة برونشتاين تحملت حياة الريف على مضض في البدء ، ثم اجتهدت في نسيان عاداتها المدينية لتغدو فلاحة حقيقية . ولقد أنجبت أربعة أطفال قبل وصول العائلة إلى يانوفكا . وبعد أشهر من الاقامة في يانوفكا ، ولد في ٢٦ تشرين الاول / اوكتوبر ١٨٧٩ طفل خامس ، ذكر . وتلقى الولد اسم جده ، ليف أو ليون ، الرجل الذي غادر المدينة اليهودية القريبة من بولتافا ليقيم في السهب[٤] .

وانها لنزوة من نزوات القدر أن يكون يوم ٢٦ تشرين الأول / أوكتوبر ، الذي ولد

(٤) ل . تروتسكي ، موياجيزن (حياتي) الجزء الأول ، الفصل الثاني .

فيه الطفل (أو ٧ تشرين الثاني / نوفمبر وفقاً للتقويم الجديد) هو اليوم ذاته الذي تولى فيه ، بأسم ليون تروتسكي ، قيادة الانتفاضة البلشفية ، بعد ذلك التاريخ بثمانية وثلاثين عاماً[٥] .

* * *

في يانوفكا ، أمضى الفتى الصغير سنواته التسع الأولى ، وكما قال هو بالذات ، لم تكن طفولته « مضاءة مشمسة » ولا « كهف الجوع والمصائب والبؤس » . كان آل برونشتاين يعيشون الحياة المتقشفة التي يحياها الناس الكادحون والمقتصدون الراغبون في الارتقاء . « كانت كل العضلات متوترة ، كل الأفكار موجهة في منحى العمل والتوفير » . « كانت تتحدد الحياة في يانوفكا بإيقاع اشغال المزرعة . لا شيء آخر كان يهم ـ لا شيء سوى سعر الحبوب في السوق العالمية »[٦] . وقد كانت الاسعار تهبط بسرعة . إلا أنه لم يكن لدى آل برونشتاين هموم مالية تزيد عن هموم معظم المزارعين ؛ لم يكونوا أنذالاً حيال أولادهم وفعلوا كل ما في وسعهم ليؤمنوا لهم انطلاقة جيدة في معارج الحياة . وحين ولد ليوفا[٧] كان كبير الأولاد في المدرسة بالمدينة ، وقد تولت العناية بالطفل مربية أطفال ، وهو ترف ما كان يسمح به لغير القليل من الفلاحين ؛ بعد ذلك بأمد قصير قدم أستاذ الموسيقى الى يانوفكا ، وعندما آن الأوان تلقى الاولاد دراسات عالية . أما الوالدان فكان يستهلكهما عملهما الى درجة انه لم يكن يتوفر لهما الوقت لمنح أصغر أولادهما الكثير من الحنان ، إلا أنه كان يحاط بعناية شقيقتيه ومربيته ، المزموجة بالمودة والعطف . وقد غدا ليوفا صبياً مرحاً ومعافى يملأ بالفرح قلوب والديه وأختيه والخدم وعمال المزرعة بفضل حيويته ومزاجه الطيب .

واذا نظرنا الى مستوى الحياة في بيئته ، فقد كانت طفولته ميسورة . لقد كان منزل آل برونشتاين مبنياً من الصلصال ، ويضم خمس حجرات ، بعضها صغير ومعتم ، أرضها من الطين وتخترق سقفها الأمطار الشديدة ، بيد أن العائلات الفلاحية كانت تعيش عموماً في أكواخ ترابية مؤلفة من حجرة أو حجرتين . وقد تضخمت ثروة العائلة وأهميتها خلال طفولة ليوفا . تحسنت المواسم وازداد عدد رؤوس الماشية ، وارتفعت حول البيت أبنية جديدة خاصة بالمزرعة . وبالقرب من المنزل ضمت حظيرة كبيرة مشغلاً ومطبخ المزرعة

(٥) في السنة ذاتها ، بعد أكثر من شهرين ، ولد جوزف دجوغاشفيلي ستالين في مدينة غوري الجيورجية الصغيرة .

(٦) تروتسكي ، المرجع المذكور ، الاستشهاد المذكور .

(٧) ليوفا تصغير لليف أو ليون .

ومسكن الخدم . بينما ارتفعت خلف البيت مجموعة أبنية : أهراءآت ، المربط ، الاسطبل ، زريبة الخنازير وملحقات متنوعة . وعلى بعد غير بعيد ، فوق رابية قائمة في مكان أعلى من المستنقع ، كانت تنتصب مطحنة كبيرة ، يرجح أنها كانت الوحيدة في المنطقة بأسرها . وكان الموجيك يأتون صيفاً ليطحنوا فيها حبوبهم ، قادمين احياناً من أمكنة بعيدة . وكانوا ينتظرون طوال أسابيع ، ينامون في الحقول حين لا تمطر ، أو في المطحنة إذا أمطرت السماء . يدفعون للمالك اتاوة بنسبة العشر مقابل الدرس والطحن . وقد تاجر دافيد برونشتاين في البدء مع الباعة المحليين ، إلا أنه حين تضخمت ثروته فيما بعد ، باع سلعه عن طريق عميله في نيكولاييف ، وكان مرفأ للحبوب على البحر الأسود في حالة ازدهار يومئذٍ . وبعد قضاء سنوات عديدة في يانوفكا ، كان في متناول دافيد برونشتاين وسائل كثيرة للحصول على أراضٍ أوسع بكثير من أراضيه لو لم يحظر أوكاز(*) جديد صادر عام ١٨٨١ شراء اليهود للأرض ، حتى في السهب . هكذا لم يعد باستطاعته إلا أن يستأجر الأراضي من جيرانه استئجاراً ، وهو ما قام به بالفعل . فقد كان جيرانه من طبقة النبلاء الآفلة ، الروسية أو البولونية ، التي كانت تبذر ثروتها برعونة وتثقل كاهلها بالديون ، مع أنها واصلت الحياة في قصور ريفية فخمة .

هناك لاحظ الفتى للمرة الاولى انحطاط طبقة اجتماعية . « كان المثال الأصفى لافلاس الأرستقراطية يتمثل بعائلة غرتوبانوف . وفي الماضي أطلق اسمها على بلدة كبيرة والناحية بكاملها . وكانت المقاطعة بأسرها ملكاً لها . أما الآن فلم يعد يملك العجوز غرتوبانوف أكثر من أربعمائة هكتار مرهونة ومضاعف رهنها . كان أبي يستأجرها منه ويدفع مال المزارعة الى أحد المصارف . وكان غرتوبانوف يحرر للفلاحين عرائض واسترحامات ورسائل بغية تحصيل معيشته . وحين يأتي لرؤ يتنا يسرق تبغاً وسكراً يخبئهما في كمه . وكانت امرأته تحذو حذوه . تروي لنا قصص شبابها والرّشاش يتطاير من فمها ، تحدَّث عن الأقنان ، وآلات البيانو ، والأنسجة الحريرية والعطور التي كانت تمتلكها . وقد ربّيا ولديهما تربية بقيا معها في حالة جهل شبه كامل . اشتغل فكتور ، وهو الأبن الاصغر ، كعامل متدرب في مشغلنا(٨) » . وحين كان آل برونشتاين يقارنون أنفسهم بهكذا جيران كان يتكون لديهم شعور بكرامتهم وبيسرهم . وقد نقلوا الى أولادهم جزءاً كبيراً من ثقتهم بأنفسهم ومن تذوقهم للعمل .

كان والدا ليوفا الصغير وشقيقتاه يحاولون ابقاءه في المنزل ، أو في الفناء ، إلا أنه كان

(*) مرسوم صادر عن القيصر (م) .

(٨) تروتسكي ، حياتي ، الجزء الأول ص ٤٦ ـ ٤٧ .

في المزرعة الكثير من الفوضى والحركة ، ما عدا في أشهر الشتاء الهادئة والرتيبة ، حين تتركز حياة الأسرة في صالة الطعام . وكان الباب المحاذي الذي ينفتح على المشغل يثير شغف الفتى الصغير : هنالك كان ايفان فاسيلييفيتش غريبيان ، شيخ الحرفة ، يعلمه استخدام الأدوات واللوازم . وكان ايفان فاسيلييفيتش موضع ثقة العائلة ايضاً : يتناول طعامه في البيت ، على مائدة الأسياد ، وهو أمر لا يمكن تصوره في أية أسرة يهودية أخرى . كانت مآثره ونكاته ومزاجه المرح ، تفتن ليوفا : وهو يتكلم في حياتي على الميكانيكي معتبراً إياه الرجل الذي مارس أعمق التأثير على طفولته الاولى . إلا أن الفتى كان يصل ، من حين لآخر ، الى المشغل في حين كان عمال آخرون يستشيطون غضباً ، وذلك من الأمور التي كانت تثير حيرته . كان يفاجئهم احياناً وهم يتلفظون بكلمات تسيء الى والديه ، كلمات تهزه هزاً ، تجبره على التفكير وتنحفر في أعماق نفسه .

ومن المشغل ، كان يمضي للتنزه في العنابر والاسطبلات ، يمرح بالاختباء في الأهراء المظلمة ، ويتعلم التعرف الى الناس والحيوانات والمسافات الواسعة في المرج . وقد علمته شقيقته الألفباء ، كما وعى بشكل مبهم قيمة الأرقام وهو يرى والده يتشاجر مع الفلاحين بصدد الزروع والمال . كان يشهد أمام عينيه صورة الفقر والقساوة والتمرد العاجز ، ويتأمل اضرابات العمال نصف الموتى جوعاً في عز الحصاد .« كان العمال يغادرون الحقول ويتجمعون في الباحة . يتمددون على بطونهم في ظلال العنابر ، «رافعين في الهواء أقدامهم العارية ، المتشققة ، التي يجرّحها القصب والقش وينتظرون ليروا ما سيحدث . وكان والدي يعطيهم اذاك قليلاً من الحليب الحامض والبطيخ أو نصف كيس من السمك المجفف فيعودون الى عملهم ، وهم يغنّون غالباً[9] » . هاكم مشهداً آخر لم يقيّض له أن ينساه : كانت مجموعة من العمال عائدة من الحقول ، كانوا يمشون متعثري الخطى ، مادّين أيديهم الى الأمام ، ـ فقد حوّلهم سوء التغذية الى عميان بلا استثناء . وجاء مفتش للصحة الى يانوفكا لكن لم يجد ما يقوله : فآل برونشتاين لم يكونوا يعاملون عمالهم بشكل أسوأ مما يفعل معظم المستخدمين الآخرين ، فالغذاء والشورباء والكاشا لم تكن أسوأ من تلك التي يتم تقديمها في أي مزرعة أخرى . ولا ينبغي ايلاء أهمية كبرى للانطباعات التي تولدت لدى الطفل حيال حوادث من هذا النوع . فالكثيرون غيره رأوا في طفولتهم مشاهد مماثلة أو أشد سوءاً ، دون أن يصبحوا ثوريين فيما بعد . وكانت تلزم تأثيرات أخرى أكثر تعقيداً لتشعل في قلب ليوفا مشاعر السخط على الظلم الاجتماعي ولتتمرد نفسه ضد النظام القائم . إلا أنه تذكّر آنذاك بقوة تلك الصور والمشاهد المدفونة في ذاكرته ، وهي وسمت

(٩) ل . تروتسكي ، حياتي ، الجزء الأول ، ص ٤٢ .

بشكل اعمق حساسيته وإدراكه . كان الفتى قابلاً للوسط الذي يعيش فيه ، ولم يكن يجهش بالبكاء ويمضي ليخبىء وجهه بين وسادات الأريكة في صالة الطعام إلا حين يهز أعماقه مشهد فظ من مشاهد قساوة أبيه .

كان في السابعة من عمره حين أرسله والداه الى مدرسة غروموكولا ، وهي مستعمرة يهودية المانية على بعد ثلاثة كيلومترات من يانوفكا . هناك كان يسكن في منزل بعض الأقارب . أما المدرسة التي كان يتردد عليها فكانت نوعاً من الخيدر Kheder ، وهي مدرسة يهودية جرت العادة على الكلام فيها باليديشية . كان على الفتى الصغير أن يتعلم فيها قراءة التوراة وترجمة النصوص المقدسة من العبرية الى اليديشية ، وكان البرنامج يتضمن كذلك درساً في الروسية الابتدائية والقليل من الحساب . ولما كان يجهل اليديشية ، لم يكن في وسعه أن يفهم ما يقوله استاذه أو أن يتعرف الى رفاق صفه . وكانت المدرسة مكاناً وسخاً تقريباً ، وكريه الرائحة . كان على الفتى المعتاد الركض في الحقول أن يختنق فيه الى حد ما . كما أن تصرفات الكبار كانت تفزعه أيضاً وتثير نفوره . هكذا رأى في أحد الأيام يهوداً من غروموكولا يجرّون زانية في شارع القرية الرئيسي ، معرّضين اياها للذل والأهانة دون شفقة ، وموجهين اليها شتائم فظة . وفي مرة أخرى ، أنزل المعمرون عقاباً صارماً بسارق جياد . وهو لاحظ أيضاً مفارقة غريبة : فمن جهة كانت تصطف الأكواخ البالية التي تقطنها الجالية اليهودية ، ومن الأخرى المساكن النظيفةوالمصانة بشكل جيد التي يسكنها المعمّرون الالمان . وبالطبع ، فقد كان يجتذبه حي « الأمم » .

كانت اقامته في غروموكلا قصيرة : فبعد أشهر قليلة قرر آل برونشتاين ان يعيدوه الى البيت ، ذلك أنه كانت تبدو على الفتى ملامح التعاسة هناك . ودّع الكتابات المقدسة إذاً والأولاد الذين واصلوا تلاوة المزامير ، وترجمة آيات عبرية غير مفهومة الى اليديشية غير المفهومة هي الأخرى[10] . إلا أنه تعلم قراءة الروسية وكتابتها خلال الأشهر القليلة التي قضاها في غروموكلا ، وأثر عودته الى يانوفكا ، شرع ينسخ دون ملل مقاطع من كتب جديدة ، ويكتب موضوعات انشاء ويتلو أبياتاً ويؤلف قصائد . وبدأ يساعد والده في أمور المحاسبة وفي ضبط السجلات . وكان أهله يقدمونه في الغالب للجيران القادمين للزيارة ، ويسألونه أن يلقي أبياتاً أو أن يعرض رسومه . وكان يخجل في البدء فيتوارى عن الأنظار ، إلا أنه سرعان ما اعتاد تلقي شهادات الاعجاب تلك وغدا يسعى خلفها .

وبعد عودة ليوفا الى البيت بعام واحد تقريباً ، وصل الى يانوفكا زائر سوف يترك

(١٠) فيما بعد ، خلال اقامته في اوذيسا ، حاول ان يتلقى مرة أخرى دروساً في العبرية ، لكن دون نجاح .

تأثيراً حاسماً في طفولته ومراهقته . كان ذلك الزائر مويسي فيليبوفيتش سينتزر ، ابن أخ السيدة برونشتاين ، وكان ينتمي الى فرع بعيد من فروع العائلة البورجوازية التي تعيش في المدينة . كان يمارس « القليل من الصحافة والقليل من الاحصاء » ، ويعيش في أوذيسّا حيث تأثر بالأفكار الليبرالية وجرى منعه من دخول الجامعة بسبب جنحة سياسية تافهة . وخلال أقامته في يانوفكا ، حيث مكث طيلة الصيف ـ لأسباب صحية ـ كرس قسطاً كبيراً من وقته لطفل الأسرة المدلل ، الموهوب للغاية لكن المتروك دون تعليم . ثم أبدى رغبته باصطحابه الى اوذيسّا والعناية بتثقيفه . وقد قبل آل برونشتاين ؛ هكذا مضى ليوفا وسط دموع الفرح والحزن ، في خريف عام ١٨٨٨ ، مجهزاً بصرّة تلميذ جديد ، ومحمّلاً حزماً ممتلئة بكل ما يمكن أن يهيئه مطبخ يانوفكا من طيّبات .

أوذيسّا على البحر الأسود كانت مرسيليا الروسية ، مرسيليا أكثر فتوة بكثير ، مشمسة ومرحة ، مرفأ دولياً مفتوحاً لكل الرياح والتأثيرات . وكان مزاج سكان أوذيسّا مكوّناً من حيوية جنوبية وتذوق لما هو مسرحي ،ومن حساسية حارقة . إلا أنه خلال السنوات السبع التي أمضاها فيها لم يكن جو المدينة هو الذي طبع نفس ليوفا وشخصيته بل جو منزل آل سبنتزر بوجه خاص . وكان بامكانه أن يدخل بصعوبة في عائلة أكثر اختلافاً من عائلته . فمن ناحية أولى كان آل سبنتزر في وضع غير ميسور تماماً ، وكان سبنتزر بالذات منزعجاً لطرده من الجامعة ، وكانت امرأته هي التي تنفق مؤقتاً على العائلة ، من عملها كمديرة لمدرسة علمانية لفتيات يهوديات . والكاتب الأميركي ماكس ايستمان الذي عرف الزوجين بعد أربعين عاماً تكلم عليهما كما يتكلم المرء على أناس « محبوبين ، وادعين ، متوازنين ، وأذكياء »[1] . وقد عمدا إلى تعليم الفتى التحدث بالروسية بشكل سليم بدل التحدث باللهجة العائلية ، وهي مزيج من الروسية والأوكرانية ، و صحّحا أساليبه في الوقت ذاته الذي صححا فيه لفظه . وكان ليوفا حساساً ومتعطشاً لتحويل الفتى الريفي الذي كان يمثله الى تلميذ لائق . وكان يكتشف محاور اهتمام جديدة ومتعاً جديدة . ففي المساء كان آل سبنتزر يلقون جهاراً قصائد للشعراء الكلاسيكيين الروس ـ بوشكين ، وليرمو نتوف ، ونيكراسوف ، شاعرهم المفضل ، الشاعر ـ المواطن الذي كانت قصائده صيحة احتجاج ضد مظالم القيصرية . وكان ليوفا يصغي مفتوناً ولا يوافق على النزول مجدداً من غيوم الشعر المذهبة الى سرير الرقاد إلا على مضض . وقد سمع للمرة الأولى قصة فوست ومرغريت على لسان آل سبنتزر ، وبلغ تأثره الى حد ذرف الدموع وهو يستمع الى قصة **أوليفر تويست** . وقرأ خفية كتاب تولستوي القاتم والعنيف ، قوة

(١١) ماكس ايستمان ، ليون تروتسكي : وصف لمرحلة الصبا ، ص ١٤ .

الظلمات ، الذي حظرته الرقابة وكان معظم الأشخاص الكبار يناقشونه بصوت خافت .

ولقد اختار له الزوجان سبنتزر مدرسة ، إلا أنه كان لا يزال يافعاً جداً . لكنهما **نجحا مع ذلك في تخطي تلك الصعوبة : سلمه الموظف البلدي شهادة ولادة سبّق** تاريخها سنة كاملة . إلا أنه بقي عائق أكثر جدية : ففي العام السابق ، عام ١٨٨٧ ، نشرت الحكومة **الأوكاز** المشهور حول الـ numerus clausus(*) الذي كان يحدد عدد الأطفال اليهود المسموح لهم بالدخول الى المدارس الثانوية بـ ١٠٪ ، وفي بعض الأحيان بـ ٥٪ أو ٣٪ . وكان على أولئك المرشحين أن يجتازوا مباراة حقيقية . وقد أخفق ليوفا في امتحان الدخول ، ذلك أنه لم يكن تابع الصُفوف الابتدائية . لذا تم ارساله ليتابع طيلة عام دروساً تمهيدية للدخول الى المدرسة الثانوية : كان التلامذة اليهود الذين يتابعونها يتمتعون لأجل الدخول الى الصف الأول بالأفضلية حيال المرشحين اليهود القادمين من الخارج .

في **ريلشول** القديس بولس ـ ذلك كان اسم المدرسة ـ لم يكن التلامذة يتعلمون اليونانية أو اللاتينية ، بل كانوا يتلقون تعليماً أساسياً أفضل مما في الجيمنازيوم(**) ، ولا سيما في العلوم والرياضيات واللغات الحية ، ـ كالألمانية والفرنسية ـ . وفي نظر الانتلليجنسيا التقدمية ، كان هذا البرنامج يبدو معداً بشكل جيد لاعطاء الأولاد تكويناً عقلانياً وعملياً . ولقد أسس مدرسة القديس بولس الألمان من الطائفة اللوثرية في أوذيسّا ، إلا أنها لم تتخلص من الروسنة(***) . وحين دخل اليها ليوفا ، كان يتم التعليم فيها بالروسية ، إلا أن التلامذة والأساتذة كانوا من أصول المانية وروسية وبولونية وسويسرية ومن الروم الارثوذكس واللوثريين والكاثوليك واليهود . وكان هذا التنوع في الطوائف والقوميات يؤدي الى ليبرالية نادرة في المدارس الروسية . لم يكن لأية قومية أفضلية على القوميات الأخرى ، وما كانت هنالك حظوة لأي من الأديان ، بما فيها طائفة الروم الأرثوذكس . وفي الأكثر ، كان أستاذ روسي يعذب خلسة تلميذاً بولونياً ، أو كاهن من الروم الكاثوليك يزعج بخبثه الخفي ولداً يهودياً . إلا أنه لم يكن هنالك أي تمييز أو اضطهاد علني يمكن أن يوحي بشعور بالدونية للتلامذة غير الروس . وبالطبع كان هنالك التمييز الملازم لواقع أن الروسية كانت اللغة الرسمية ، إلا أن الأهل والتلامذة الألمان وحدهم كان يمكن ان يغتاظوا من ذلك . ورغم الـ numerus clausus ، ما أن كان التلميذ اليهودي

(*) باللاتينية في النص ، وهي بمعنى شرط العدد (م)

(**) مدرسة ثانوية (م) .

(***) التحويل الى الطابع الروسي (م) .

يحظى بالقبول في المدرسة حتى تتم معاملته بانصاف . وقد أعطت مدرسة القديس بولس ليوفا ، بشكل من الاشكال ، أول فكرة عن المواطنية العالمية .

وسرعان ما أصبح الأول في الصف ، « لم يكن من حاجة لأحد كي يحثه على العمل ، أو للقلق بصدد دروسه . فهو كان يعمل أكثر مما هو مطلوب منه »[١٢] . ولم يمر وقت بسيط حتى كان معلموه يعترفون بمواهبه وباجتهاده ، وقد غدا بسرعة رفيقاً لتلامذة الصفوف العليا . إلا أنه كان يتحاشى مع ذلك أنواع الرياضة والتمارين البدنية ، وهو لم يذهب ، طيلة سبع سنوات قضاها على شاطىء البحر الأسود ، ليصطاد أو يسبح أو يركب الزوارق . أما كرهه لملعب مدرسته فناجم ـ ربما ـ عن حادث ألمّ به بعد دخوله المدرسة بوقت قصير : فلقد أصيب بجرح ثخين اثر سقوطه من على سلّم وبقي لفترة « على الأرض يتلوى كدودة » ، وربما كان لديه شعور بأن أفضل مكان للتمارين في العراء هو يانوفكا : « كانت المدينة مكان الدرس والعمل » . وكان تبوؤه الرتبة الأولى باستمرار كافياً لمنحه الثقة بنفسه .

خلال السنوات السبع التي قضاها في ريلشول ، نادراً ما كان يختلط بالضوضاء ، وهو ما كان يشارك أبداً بمشاحنة تنتهي بشكل سيىء . وقد « أصدر » يوماً مجلة مدرسية حررها هو بشكل كلي تقريباً ، إلا أن تلك المجلة قوبلت بالمنع من وزارة التربية ، ومنعه الاستاذ الذي حصل على نسخة منها من مواصلة « اصدارها » . وانصاع ليوفا لهذا التحذير . وفي الصف الثاني ، طارد رهط من التلامذة ، من بينهم ليوفا ، بصياحهم الساخر وصفيرهم أستاذاً كانوا يمقتونه . فوضع المدير في الزنزانة بعض المذنبين ، إلا أنه اخلى سبيل التلميذ الأول في الصف ، وكان فوق الشبهات . بيد أن بعض التلاميذ المعاقبين « خانوا » ليوفا . وأعلن الأستاذ المهان وهو يشير الى التلميذ الذي كان يعتز به : « ان التلميذ الأفضل هو مسخ من الناحية الاخلاقية » . وطُرد « المسخ » . تم تلطيف الصدمة بالتفهم واللطف اللذين أبداهما الزوجان سبنتزر حيال محميّهما ، وبتسامح والد ليوفا بالذات الذي أمتعه ما حدث أكثر مما أغضبه .

في السنة اللاحقة ، أعيد ليوفا الى المدرسة بعد أن خضع لامتحان ، وسرعان ما عاد المفضّل في المدرسة ومصدر اعتزازها ، وقد حرص على تحاشي عقوبات جديدة ، بيد أنه رفض في أحد الصفوف العليا ، هو وتلامذة آخرون ، كتابة مسابقة لأستاذ خامل لم يكن يقرأ الفروض ولا يردها أبداً ، إلا أنه لم يعاقب في هذه المرة . وهو يتكلم في سيرته الذاتية ،

(١٢) م . ايستمان ، المرجع ذاته ، ص ١٧ .

بنوع من الرضى عن الذات ، على تلك المرحلة التي تلت عودته الى القديس بولس : « تلك كانت بشكل من الأشكال تجربتي السياسية الأولى . ومنذ ذلك الحين انقسم الصف الى مجموعات متمايزة : فمن جهة النمّامون والحاسدون ، ومن الأخرى الشجعان والصريحون ، وفي الوسط كتلة الحياديين المائجة . هذه المجموعات الثلاث لم تختف كلياً في السنوات التي تلت . فلقد قيّض لي أن ألتقيها مراراً طوال حياتي . . . »[١٣] . على ضوء تلك الذكريات كان الصف الثاني في مدرسة أوذيسّا شبيهاً بحزب شيوعي صغير في العشرينات من هذا القرن ، موزعاً بين أنصار تروتسكي وخصومه .

كان طبع الولد ومظهره يتبلوران . فهو كان جميلاً ذا سحنة ملوّحة ، وملامح بارزة لكنها منتظمة ، وكان حسير النظر لكن بعينين حادتين خلف النظارتين . أما شعره فكان غزيراً ، فاحم السواد ، يقصه قصيراً ويمشطه بعناية . يولي اهتماماً واضحاً بمظهره : فقد كان نظيفاً وغضاً ، يرتدي ثياباً متقنة لا بل أنيقة ، بحيث يظهر كـ « بورجوازي حقيقي »[١٤] . وكان مفعماً بالحيوية ، فكهاً لكن لبقاً ومهذباً . ومثل الشباب الموهوبين ، كان ذاتياً للغاية ومشغوفاً بالتميز . واذا عدنا الى سيرته الذاتية نراه يقول : « كان يشعر بقدرته على أن يفعل أكثر من غيره . كان الأولاد الذين يغدون أصدقاءه يعترفون بتفوقه . ولا بد أن ذلك أثر على طبعه »[١٥] . وماكس ايستمان ، الذي تخالط اعجابه بتروتسكي روحُ نقدية ، يتكلم على غريزة المنافسة النامية لديه باكراً ، وبقوة ، فيقارنها بغريزة جياد السباق . « وحتى حين تقفز هملجةً(*) تدفعها هذه الغريزة للنظر الى الحلبة خلفها لترى اذا كان ثمة منافس يعتبر نفسه مساوياً لها . وهذه الغريزة تستتبع وعياً للذات شديد الاحتراس . إلا أن هذه علامة رديئة ـ لا سيما حين تتجلى لدى جياد غير معدة للسباق[١٦] » ومع أنه كان لليوفا معجبون كثر بين رفاق صفه ، إلا أن أحداً منهم لم يصبح صديقه الحميم .

في المدرسة ، لم يخضع لأي تأثير حاسم . كان أساتذته ، الذين رسم شخصياتهم بحيوية بالغة في سيرته الذاتية ، يشكلون كلاً متنوعاً بما فيه الكفاية : بعضهم مقبولون وآخرون دون المتوسط أو معروفون بقابليتهم للبيع والشراء ، وحتى أفضلهم كانوا كذلك

---

(١٣) ليون تروتسكي ، حياتي ، الجزء الأول ، ص ٩٤ .

(١٤) م . ايستمان ، ليون تروتسكي ، صورة لمرحلة الشباب ، ص ١٥ ، ٣١ .

(١٥) ل . تروتسكي ، المرجع المذكور ، الجزء الأول ، ص ١١١ .

(*) أي رافعة قائمتيها اللتين من جهة واحدة (م) .

(١٦) م . ايستمان ، المرجع المذكور ، ص ١٩ .

رديئين للغاية فيما بإمكانهم أن يثيروه . وقد تكوّنت شخصيته وتكوّن خياله لدى آل سبنتزر . كان محبوباً هناك بقدر ما هو مثير للاعجاب ، وكان يرد على تلك المودة بحرارة وعرفان بالجميل . فمنذ الأسابيع الأولى ، اذ كان يتأمل بانخطافٍ البسمات الأولى لطفل الزوجين سبنتزر ، الى نهاية اقامته ، لم تعكر غيمة واحدة صفاء تلك الصداقة المفعمة بالمحبة . فقط حادثة واحدة رواها مربّوه بعد سنوات عديدة ، جاءت لتدخل نغماً ناشزاً في ذلك الايقاع المتساوق : ففي احدى المرار ، في مطلع اقامة ليوفا لدى الزوجين سبنتزر ، باع بعض أثمن كتبها ليشتري ملبّساً . وقد زاد تقديره ، وهو يكبر ، للحظ الذي توفرّ له بالعثور على مرشدين ممتازين الى ذلك الحد ، وكان يقاسمهما اكثر فأكثر افكارهما وأفضلياتهما الفكرية . وكان يتردد على المنزل زائراً محررون في الصحافة الليبرالية والعديد من أدباء أوذيسّا . أما ليوفا فكان يبهره حديثهم ، لا بل مجرد حضورهم . فبالنسبة اليه « مثَّل الكتاب والصحافيون والفنانون على الدوام عالماً أكثر فتنة من أي عالم آخر ، ينفتح لذوي الامتيازات وحسب »(١٧) ، وكان يتأمل هذا العالم بالشغف الذي لا يشعر به غير الأديب بالفطرة حين يلتقي للمرة الأولى الناس والاهتمامات التي تتناسب مع موهبته .

لم تكن أوذيسّا المركز الأدبي الرئيسي أو الأكثر حيوية ، ولم يكن « كبار » الأدب الروسي أصدقاء لآل سبنتزر . لا يهم ، فذلك الفتى ابن الخمس عشرة ، أو الست عشرة سنة ، كان يقف باحترام على عتبة الهيكل ، حتى لو لم يكن يرى أيّاً من كبار الكهنة يحتفل بالقداس . وكان للصحافة الليبرالية المحلية التي تواجه ازعاجات الرقابة كتّاب موهوبون وشجعان من أمثال ف . م . دوروشيفيتش ، وهو معلم في البحث الذي عند منتصف الطريق بين الأدب والصحافة ، وهو النوع الذي سوف يتميز فيه برونشتاين بالذات في فترة لاحقة . وقد كانت مسلسلات(١٨) دوروشيفيتش القراءة المفضلة لدى ليوفا واخوته الأكبر منه . وحين انشأ الزوجان سبنتزر دارهما للنشر ، غدا منزلهما ممتلئاً على الدوام بالكتب والمخطوطات والتجارب المطبعية التي كان يلتهمها ليوفا بفضول وشغف . ان رؤ ية الكتب وهي تصنع كانت تثيره وكان يستنشق باستمتاع رائحة الحبر الطريء ، تلك الرائحة التي احتفظ بميل شديد اليها حتى خلال السنوات التي قاد فيها عمليات ثورية وعسكرية واسعة . هناك عشق الكلمات عشقاً عنيفاً ، وهنالك سمع للمرة الأولى كاتباً حقيقياً كان يعتبر حجة في موضوع شكسبير يعبر بعد قراءته موضوعاً كتبه الفتى ليوفا عن اعجابه الشديد بالطريقة التي يعالج بها الكلمات ويسيطر عليها .

---

(١٧) ل . تروتسكي ، حياتي ، ج ١ ، ص ٨٦ .

(١٨) لم تكن مسلسلات الصحافة الروسية مكرسة لروايات بل لأبحاث أو حوليات (ملاحظة للمترجم الى الفرنسية) .

وكان مشغوفاً بالمسرح ايضاً : « . . . تعلقت بالأوبرا الايطالية التي كانت تعتز بها أوذيسّا . . . لا بل كنت أعطي بعض الدروس لأكسب مالاً يخوّلني دفع ثمن تذاكر المسرح . وقد بقيت بضعة أشهر مغرماً في الخفاء بسوبرانو(*) بارعة باسم جويزيبينا أو جيت : كانت تبدو لي وقد نزلت من السماء مباشرة الى مسرح أوذيسّا[١٩] » هذا الشغف بالمسرح ، بأضوائه وأزيائه وأقنعته ، بانفعالاته ونزاعاته ، يتناسب تماماً مع مراهقة رجل سيلعب دوره بحس حاد بالمسرح ، وستجري حوادث حياته بقوة تراجيديا كلاسيكية وعلى مثالها .

ومن أوذيسّا كان ليوفا يعود الى يانوفكا لقضاء العطلة الكبرى وفرصة عيد الميلاد ، وفي بعض الاحيان لأخذ قسط من الراحة . وفي كل مرة يعود كان يلاحظ العلامات الواضحة لازدهار متنامٍ . فهو غادر بيت مزارع موسر ، لكن البيت الذي عاد اليه كان يشبه أكثر فأكثر منزل مالك للأرض . كان الزوجان برونشتاين يبنيان بيتاً كبيراً لهما ولأولادهما ، بيد أنهما كانا لا يزالان يعيشان ويعملان كما في السابق . كان الوالد يمضي أيامه في المطحنة يساوم الموجيك بصدد أكياس الطحين ، ويفتش الاسطبلات ، ويراقب العمال أثناء الحصاد ، مشاركاً إياهم ، بالمناسبة ، في استخدام الحاصدة . وكان مركز البريد ومحطة القطار الأكثر قرباً على بعد ٣٠ كيلومتراً . ولم يكن أحد يقرأ الجريدة في يانوفكا ـ فعلى الأكثر كانت أمه تقرأ بصعوبة وبطء رواية قديمة ، ممرّرة على الصفحات اصبعها الذي استهلكه العمل .

تلك العودة الى البيت كانت تفعم ليوفا بمشاعر متشابكة . كان باقياً في اعماقه ما يكفي من الولد الذي ترعرع في الريف لكي يحس بالاختناق في المدينة ويستمتع بالمسافات الواسعة الطليقة في السهب . هنالك كان يسترخي ويلعب ويتنزه على قدميه أو بالعربة . ولكن في كل مرة كان يعود كان يحس بنفسه غريباً أكثر فأكثر في يانوفكا . كانت مشاريع والديه تبدو له ضيقة بصورة لا تحتمل ، وتبدو له أساليبهما الفظة ونمط حياتهما بلا معنى . وبدأ يحس بالدور الذي تلعبه في ازدهار المزارع قسوته حيال العمال والموجيك ، حتى لو لطّف تلك الصرامة ـ بالنسبة للوضع في يانوفكا ـ رفق بطريركي . وكان ليوفا يساعد والديه خلال العطلات: يمسك السجلات وحساب أجور العمال . وكان الوالد وابنه يتشاجران أحياناً ، لا سيما حين يجد برونشتاين العجوز ان حسابات ولده تراعي العمال كثيراً .

(*) صاحبة النغم الاعلى في الموسيقى (م)

(١٩) ل . تروتسكي ، المرجع المذكور ، ص ٨٥ ، الجزء الأول .

وكانت تلك النقاشات تسترعي انتباه الشغيلة مما يغيظ المزارع . أما الفتى فلم يكن ميالاً للتصرف بدراية وكان يغذي روح التناقض لديه شعور بالتفوق شائع لدى الابن المثقف لفلاح أمي . وبوجه عام ، كانت فظاظة حياة الريف تثير نفوره . وقد حاول يوماً أن يحتج على فظاظة شرطي جاء ليطرد عاملين بحجة ان جوازي سفرهما ليسا حسب الأصول ، لكن دون جدوى . كما لاحظ القساوة الوحشية التي يعامل بها الفقراء بعضهم بعضاً . وكان يشعر بتعاطف غامض مع الضحايا وبوخز ضمير أكثر غموضاً نتيجة لوضعه المتميز . وكان يحس بقوة أشد بالحرج الذي أصيبت به كبرياؤه . فهو كان يتألم لرؤية نفسه ولداً لبخيل ريفي وحديث نعمة أمي ، ولداً لما يمكن تسميته اليوم بالكولاك(*) .

وانتهت اقامته في أوذيسّا في عام ١٨٩٦ . ان المدارس الملكية كانت تضم في العادة سبعة صفوف ، إلا أنه لم يكن في مدرسة القديس بولس غير ستة : كان عليه اذاً أن يتسجل في مدرسة أخرى مماثلة في نيكولاييف من أجل تقديم امتحانات الدخول الى الجامعة . كان عمره يقارب آنذاك السابعة عشرة ، إلا أنه ما من فكرة سياسية كانت قد اجتذبته حتى ذلك الحين . لقد مات فريدريك انجلز قبل عام من ذلك التاريخ ، فلم يترك الحدث أي أثر في نفس الثوري المقبل ـ لا بل لم يكن بلغ اسم كارل ماركس بالذات مسمعه بعد . وهو يقول انه كان « قليل المعلومات من الناحية السياسية ، بالنسبة لفتى في السابعة عشرة من عمره آنذاك » . كان يجذبه الأدب ، كما كان يعد نفسه لمتابعة دروس في الرياضيات . وسوف يجتهد فيما بعد بأن يوفق في مؤلفاته بين تينك الطريقتين في التعامل مع الحياة (كان الخيال والتجربة يفتنانه) . إلا أن السياسة لم تكن تجتذبه في تلك الحقبة ، وكان ينظر الى احتمالات مهنة جامعية ، وهو ما أثار خيبة أمل عظيمة لدى والده الذي كان يفضل له اهتماماً عملياً أكثر . أما تصور نفسه يمارس العمل الثوري ، فتلك آخر فكرة كان يمكن أن ترد الى ذهنه .

وبالطبع كان للجو السائد في تلك الحقبة دور في ذلك . ففي أزمنة أخرى ، كان الشباب ينضمون الى مجموعات ثورية سرية حالما يغادرون المدرسة وتلك كانت هي الحال حين كانت تلك المجموعات ، التي تخمّرها أفكار جديدة وتحركها آمال كبيرة ، تميل بشكل طبيعي للتطور والنمو . إلا أن الحركة الثورية في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي كانت ، على العكس ، في أدنى مستوى وصلت اليه . فمنظمة حرية الشعب نحرت نفسها بنفسها باغتيالها للقيصر ألكسندر الثاني . لقد أمل قادتها بأن يفتتح عملهم انتفاضة على

(*) الفلاح الغني (م)

المستوى القومي ، إلا أنهم لم يحدثوا أي صدى ، وبقيت الأمة صامتة . كل الذين كان لهم ارتباط مباشر أو غير مباشر بالمتآمرين قضوا على أعواد المشانق ولم ينهض أحد لمواصلة عملهم . ومرة أخرى كان يبدو أن طبقة الفلاحين ، رغم استيائها ، لم يكن لديها أي روح ثورية : فقد اعتبر الفلاحون اغتيال ألكسندر بادرة انتقام من جانب النبلاء ضد ولي نعمة الفلاحين .

وقد ألغى القيصر الجديد ألكسندر الثالث معظم اصلاحات سابقه شبه الليبرالية ، فمستشاره الرئيسي كان بوبيدونوستسيف ، مربيه القديم ووكيل المجمع المقدس . وكان هذا ذا طبع قاتم وفطن تحركه كل أنواع الخوف والخشية التي توحيها الثورة للطبقات الحاكمة . وقد دفع بوبيدونوستسيف القيصر ليعيد « سلطة الأب المطلقة على عائلته ، والمالك على أراضيه والعاهل على كل انحاء روسيا » . أصبح حمد القيصر السابق على الغائه القنانة جريمة ، وأعيدت سلطة النبلاء على الفلاحين . تم اقفال أبواب الجامعات بوجه أبناء الطبقات الدنيا ، وحظرت الدوريات الأدبية الراديكالية . كان على الأمة بأسرها ، بما فيها الانتلليجنسيا أن تخلد الى الخضوع الصامت .

لقد تكشّف عجز الارهاب الثوري ، وتبدد بذلك وهم آخر من أوهام الحركة النارودنية . فشلت محاولة لاغتيال الكسندر الثالث ، تلك المحاولة التي شارك فيها ألكسندر أوليانوف ، شقيق لينين الأكبر . أما الباقون على قيد الحياة من أعضاء **حرية الشعب** فكانوا يذبلون في السجن أو في المنفى ، مهدهدين ذكرياتهم ، ضائعين في الحيرة الكاملة . ولقد كان من الأمور التي ميزت تلك الحقبة ندم أحد القادة النارودنيين القدامى ، تيخوميروف ، الذي نشر في أوروبا الغربية اعترافه بعنوان : « لماذا لم أعد ثورياً » . وجد بعض الثوريين القدامى منافذ لمواهبهم وطاقاتهم في الصناعة والتجارة اللتين كانتا تتطوران يومذاك بوتيرة أسرع مما في السابق . ووجد عدد كبير منهم نبياً لهم في شخص ليون تولستوي الذي كان يستفظع شرور السلطة المطلقة ، لكن يعلمهم عدم المقاومة بواسطة العنف . بدا كما لو أن مذهب تولستوي يقدم كفالة أخلاقية لسكون الانتلليجنسيا الخائب .

ويعزو تروتسكي ، في كتابه ، **حياتي** ، لا مبالاته السياسية لتلك العقلية العامة . وهذا التفسير صحيح جزئياً . أما الحقيقة فهي أنه بدأت قبل عام ١٨٩٦ ـ السنة التي غادر تروتسكي فيها أوذيسّا ـ بزمن لا بأس به نهضة حقيقية للحركة الثورية السرية . كان الماركسيون يطوّرون برنامجاً جديداً وطريقة للعمل جديدة ، وبدأت تتشكل بسرعة مجموعات طلاب وعمال كانوا يعتبرون أنفسهم اشتراكيين ـ ديمقراطيين . ونحن نعرف

بواسطة تقرير روسي عاصر الأمية الاشتراكية أنه كان في أوذيسّا حوالى عام ١٨٩٥ مجموعات نشطة للغاية[٢٠] . إلا أن برونشتاين الشاب لم يكن يعلم بوجودها . وبالطبع لم يكن ثمة حلقة اشتراكية واحدة بين تلامذة مدرسة القديس بولس ، فلو كانت موجودة لحاولت أن تجتذب التلميذ الأفضل موهبة والأكثر شعبية في المدرسة . ان نشاط الحركة الجديدة لم يحدث أي تأثير ايضاً في بيت آل سبنتزر المزدهر والمحمي بشكل جيد . فآل سبنتزر كانوا ينتمون لتلك الفئة من الناس التي أحدثت فيها الكارثة التي حلت بالنارودنيين تأثيراً عميقاً . غدوا يتجنبون الموضوعات الخطرة في أحاديثهم أو لا يتحدثون عنها إلا بصوت خافت . تحولت راديكاليتهم الى ليبرالية منفتحة ، لكن خجول ، لا بد أنها كانت تعارض القيصرية بشكل ضمني . وذلك كان قليلاً فلا يمكن أن يؤثر على محميّهم . فلا يمكن إلا لأفكار صريحة وجريئة ومعبر عنها بشكل واضح أن تثير الحماس في نفوس الشباب وأفئدتهم . وحين ارتقى نقولا الثاني العرش عام ١٨٩٥ ، ونصح مندوبي الزمستفوات(*) ، ذوي النزعة الليبرالية المعتدلة للغاية ، بالتخلي عن « أحلامهم المجنونة » ، كان قلب ليوفا الى جانب « الحالمين » ، إلا أنه مثله ، مثل آل سبنتزر ، كان يعتقد أن النضال لتغيير النظام القائم نوع من الدونكيشوتية .

ضمن ذلك الجو الغامض ، المطبوع بليبرالية هادئة ، لم يكن يحرك عواطف الناس الى هذا الحد أو ذاك غير شعور واحد ، متمثل بالغيرة من أوروبا وحضارتها ، ومن الغرب وحرياته بوجه عام . ذلك « الغرب » كان يشبه رؤ يا من **الأرض الموعودة** ـ يقدم تعويضاً ونوعاً من الثقة بالنفس حيال واقع روسيا الحزين والبائس . فذلك الجزء من العالم الذي يجهل ذبح اليهود ، والحواجز ، والـ numerus clausus ، كان يمارس سحراً كثيفاً لدى الانتليجنسيا اليهودية . وكان يمثل الغرب بالنسبة لقسم كبير من الانتليجنسيا غير اليهودية نقيض كل ما تكرهه في روسيا : المجمع المقدس ، والرقابة ، والجلد ، والأشغال الشاقة . وصل عدد كبير من المثقفين الروس الى الغرب وفي نفوسهم الاحترام المتحمس ذاته الذي شعر به هرزن(*) Herzen الشاب حيال تلك الليبرالية

---

(٢٠) كانت تلك المجموعات الثورية أكثر نشاطاً في أوذيسا مما في أي مكان آخر جنوبي روسيا (دوكلادروسكيخ سوتس ديموكراتوف فتورومو انترناسيونالو ، جنيف ١٨٩٦) . أنظر ايضاً ب . أ . غارفي ، فوسبومينانيا سوتسيالد يموكراتا ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(*) الزمستفو هو الاسم الذي اطلق على الادارة المحلية التي انشئت سنة ١٨٦٤ في المحافظات المركزية من روسيا القيصرية ، والتي ترأسها الاعيان (م) .

(*) فيلسوف مادي تاثر بهيغل وكان يؤ يد اشتراكية طوباوية ويعتقد أن بإمكان روسيا القفز فوق المرحلة الرأسمالية انطلاقاً من طوائف الفلاحين (م)

البورجوازية التي خيّبت آماله بعد أن رآها عن كثب . وخلال الاعوام اللاحقة ، وبعد أن أصبح ليوفا اشتراكياً ، كان عليه ان يتعرف بدوره الى حدود الليبرالية الاوروبية ويتحول الى مناهضتها : إلا أن شيئاً من حماس صباه للغرب بقي على قيد الحياة ولوّن فكره حتى نهاية حياته .

تلك كانت حالته الذهنية حين غادر اوذيسا « المدينة الأكثر بوليسية في روسيا بين أيدي البوليس » . والذكرى السياسية الوحيدة الحادة للغاية التي احتفظ بها عن تلك المدينة هي مشهد كان نجمه الأميرال زيلنوي ، حاكم أوذيسّا . كان ذلك رجلاً يمارس « سلطة مطلقة بطبع لا يلين » . « لم أره إلا مرة واحدة ، ومن الخلف فقط ، لكن كان ذلك كافياً بالنسبة لي . كان الحاكم واقفاً في عربته ، مستقيماً تماماً ، وكان يصيح بصوته المبحوح وهو يمد قبضته . كان رجال شرطة في وضع التأهب وحرّاس يحملون قبعاتهم بأيديهم ، يمرون في رتل من أمامه . وخلف ستائر النوافذ ، كانت وجوه خائفة تلقي نظرة عابرة . أصلحت وضع محفظة كتبي على كتفي وركضت الى المنزل[٢١] .

لم تكن شرارة التمرد لمعت بعد بالنسبة للشاب الذي كان يراقب المرزبان(*) ـ لقد ارتجف هولاً فقط ازاء السلطة القائمة وتابع طريقه ، كما لو كان مستسلماً لسلبية تولستوية .

(٢١) تروتسكي حياتي ، الجزء الأول ، ص ٧٩ .

(**) الحاكم الفارسي ، وهنا المقصود حاكم اوذيسّا بالذات (م) .

الفصل الثاني

بحثاً عن مثل أعلى

كانت الصدفة هي التي وضعت في البدء برونشتاين الشاب على الطريق الثوري . فبعد أن وصل الى نيكولاييف ، في صيف عام ١٨٩٦ ، لينهي دروسه الثانوية سكن لدى عائلة تأثر ابناها بالأفكار الاشتراكية .

وقد جره هذان الى نقاشات معهما حاولا من خلالها أن يقنعاه بأفكارهما . بقيا على تلك الحال عدة أشهر ، من دون نتيجة في الظاهر . فقد كان يزدري « طوباهما الاشتراكية » . وازاء حججهما ، كان يتبنى موقف شاب محافظ ، يشفق على الشعب لكنه يحترس من « ايديولوجيا العامة » و « حكم الجمهور » . فبما أنه كان متحمساً للرياضيات ، لم يكن لديه الوقت للاهتمام بالسياسة ولم يكن يتذوق ذلك . أما المضيفة التي كانت ترعبها أفكار ابنيها الغريبة ، فقد اعجبها العقل السليم لدى برونشتاين الشاب ، وكانت تقدمه كمثال لولديها . إلا أن ذلك لم يدم طويلاً ، فالنقاشات حول الظلم الاجتماعي السائد وضرورة تغيير الحياة وطريقة الحياة في البلاد كانت قد بدأت تفعل فعلها في نفس الفتى . وحجج الاشتراكيين كانت تذكّره بمشاهد البؤس وأمثلة الاستغلال التي ترسخت في وعيه منذ طفولته ، وتسلط الأضواء عليها وتوضحها ، وقد جعلته تلك النظريات الاشتراكية يحس كذلك الى أي حد كان الجو الذي طالما تنفسه خانقاً ، وكانت تفتنه بجدتها وجسارتها . بيد أنه بقي يقاومها . وكلما كانت تجذبه الأفكار الجديدة كلما كان يتعلق بمحافظته المصطنعة وبلامبالاته حيال السياسة . فروح المعارضة لديه ورغبته بالانتصار في المناقشة كانتا تحولان دون انصياعه بسهولة . إلا أن مقاومته وكبرياءه انتهتا الى التسليم . وفي منتصف السنة المدرسية ، اعترف فجأة بـ « هزيمته » وشرع يدافع في الحال عن الاشتراكية بحماس وعنف أذهلا من اهتدى على أيديهم[1] .

وسوف نرى هذه الأوالية النفسية تلعب لعبتها مراراً في مسلكه . فاذا ووجه بفكرة

(١) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

جديدة يشعر نحوها بالتعاطف الى هذا الحد أو ذاك ، يقاوم في البدء بعناد وازدراء ، وكلما زادت جاذبية الفكرة زادت مقاومته واذاك يقوم باخراس تردده وشكوكه . ثم تضعف مقاومته الداخلية وتبدأ ثقته بالذات تتراخى ، إلا أنه يبقى شديد الكبرياء أو غير مقتنع كفاية فلا يظهر انصياعه . ليس من علامة خارجية تفضح حقيقة المعركة التي تدور في أعماقه . ثم بغتة ، تتصلب القناعة الجديدة لديه وتحرز النصر ، الذي يبدو فورياً ، على روح معارضته وكبريائه . ولا يذهل خصومه القدامى باستسلامه الكامل والصادق وحسب ، بل كذلك بالحماس الذي يعتنق به قضيتهم، وفي بعض الأحيان بالطابع غير المتوقع للاستنتاجات التي يستخلصها من حججهم وبأهمية تلك الاستنتاجات .

ان القضية التي اعتنقها كانت لا تزال مبهمة في أعماقه . فلقد تبنى حالة ذهنية أكثر مما تبنى فكرة . سوف يكون « الى جانب الضحايا » . لكن من هم أولئك الضحايا ؟ وكيف غدوا كذلك ؟ وما العمل ؟ لم يكن هنالك من يرشده الى كل ذلك . ففي نيكولاييف ، لم يكن ثمة مجموعة اشتراكية واحدة ، ولم يكن ثمة منظمة مهمة . وللحال تجلت اشتراكيته باهتمام مستجد بالمشكلات الاجتماعية والسياسية ، في حين كان يضعف شغفه بالرياضيات . شرع يفتش عن أناس يشاركونه آراءه واهتماماته ؛ هكذا غادر البيئة المحمية جيداً التي أمضى فيها طفولته ومراهقته .

والتقى بواسطة من كان يقطن عندهم شخصاً يدعى فرانز شفيكوفزكي ، وكان بستانياً فقيراً يستأجر جنينة في ضاحية المدينة . وكان ينظم في حجرته ، وسط الجنينة ، اجتماعات متعارضة للطلاب ذوي الاتجاه الراديكالي وللعمال . أما شفيكوفزكي ذو الأصل التشيكي فكان شخصية مثيرة للفضول . كان يقرأ لغات عديدة ويعرف جيداً الكتّاب الكلاسيكيين في الأدبين الألماني والروسي ، وكان مشتركاً في صحف ودوريات أجنبية ، كما كان دوماً مستعداً لتقديم خدمة لأصدقائه عن طريق اعارتهم كتاباً سياسياً أو مقالة نقدية محظّرين . وأحياناً كان يأتي نارودنيون (شعبيون) متقدمون في السن يعيشون في المدينة تحت رقابة الشرطة ، فيشاركون في الاجتماعات التي تتم في البستان . ولم يكن بين أولئك النارودنيين أية شخصية من الصف الأول ، كما لم يكونوا يشكلون منظمة ، بيد أنهم كانوا يحملون معهم بعضاً من رومانسيتهم الثورية الى حلقة شفيكوفزكي . وكان كل أعضاء تلك الحلقة تقريباً يعتبرون أنفسهم نارودنيين . أما الاجتماعات فكانت تتميز بطابع « مسالم » ، حسب شهادة أحد المشاركين . كان الناس يأتون الى البستان لأنهم يحسون بأنفسهم على سجيتهم هناك ويتمكنون من الكلام بحرية . وسرعان ما اكتسب بستان شفيكوفزكي في المدينة « سمعة سيئة للغاية . . . كمركز

لمؤامرات خطيرة جداً » وقد أرسلت الشرطة جواسيس مقنعين بصفة بستانيين ، إلا أنهم اقتصروا في تقريرهم على الاشارة الى أن شفيكوفزكي قدّم لضيوفه تفاحاً وأعداداً كبيرة من فناجين الشاي متحدثاً في مواضيع غير مؤذية وسخيفة[٢] .

كانت تلك حقبة اليقظة الثورية . وفي آذار / مارس ١٨٩٥ كتب وزير الداخلية ، دورنوفو ، الى بوبيدونوستسيف يعلمه بأنه قلق للاتجاهات الجديدة ، لا سيما بين الطلاب الذين تطوعوا بحماس لاعطاء محاضرات حول موضوعات اجتماعية متنوعة جداً .

وفي نظر الوزير ، لم تكن تلك المثالية المنزّهة مثاراً للتفاؤل . وكل التشريع القمعي في السنوات السابقة لم ينجح في حماية المدارس والجامعات من التأثيرات التخريبية . ومنذ سنوات ، كان الوزير يعيّن بذاته الأساتذة ، من دون العودة الى عمداء الكليات ، مقصياً المشبوهين ومزكياً ترقية اشخاص تافهين لكن مطيعين . ولقد تم اقصاء علماء مشهورين عالمياً ـ من مثل الكيميائي د . منديلييف ، وعالم الأحياء ا . متشنيكوف وعالم الاجتماع م . كوفالفسكي ـ تم اعتبارهم غير موثوق بهم ، أو أجبروا على تقديم استقالتهم . كما حظرت مؤلفات جون ستيوارت ميل وهربرت سبنسر وكارل ماركس ، وأغلقت المكتبات ونوادي الطلاب ، وأرسل جواسيس الى قاعات المحاضرات . ضوعفت رسوم التسجيل خمس مرات لمنع دخول طلاب متحدرين من عائلات فقيرة الى الجامعات . ورغم كل تلك التدابير وصل العصيان المنبعث الى الجامعات . وفي نهاية عام ١٨٩٥ أو بداية عام ١٨٩٦ أصبح على الطلاب أن يقسموا يمين الاخلاص للقيصر الجديد نقولا الثاني . وقد رفض العديد من الطلاب أداء تلك اليمين في بطرسبورغ كما في موسكو وكييف . وتلا تتويج القيصر (هذا التتويج ، الذي تم خلاله دوس آلاف المشاهدين بالأقدام أو جرحهم أو قتلهم وسط هرج ومرج القيت تبعته على الشرطة) اضراب في بطرسبورغ في شهر أيار / مايو ١٨٩٦ شارك فيه ٣٠ ألف عامل ، وكان أول أضراب بهذا الحجم[٣] .

في تلك الأحداث برز تأثير **اتحاد النضال من اجل تحرر الطبقة العاملة** ، الذي أسسه لينين ومارتوف وبوتريسوف . كانت الحركة المتجددة تحت تأثير الماركسيين بصورة كاملة ـ ولم يكن يشارك فيها غير قليل من النارودنيين . فالاشتراكية الجديدة استندت

---

(٢) ج . أ . زيف : تروتسكي ، كار اكتيريستيكا بوليشنيم فوسبومينا يام ، ص ٨ .

(٣) سيبيرياك ، ستودنشسكويي دفيزهيني ف روسيي .

بشكل رئيسي الى الطبقة العاملة ، وكانت تستنكر الارهاب ، وتعترف بضرورة مواصلة التصنيع الرأسمالي في روسيا ، ذلك التصنيع الذي يؤدي الى تنامي الطبقة العاملة من حيث العدد والقوة . إلا أن هدفها المباشر كان النضال من أجل الحريات المدنية وحفز الشغيلة لتنظيم أنفسهم باتجاه العمل السياسي والاجتماعي .

تلك الأحداث لم تحرك حتى ذلك الحين مياه نيكولاييف الراكدة إلا قليلاً . وفي حين دخل برونشتاين الى حلقة شفيكوفزكي (في نهاية خريف عام ١٨٩٦ أو في بداية شتائه) كان أعضاؤها منشغلين بالأحداث التي جرت في بداية العام . كانوا يجمعون معلومات ويناقشونها . إلا أنهم لم يكونوا يتخطون ذلك ، فهم ما كانوا بقادرين على تحديد أهمية الحركة الجديدة ولم يكن لديهم غير معرفة مبهمة بالنقد الماركسي لمذاهب النارودنيين ، لذا استمروا في اعتبار أنفسهم نارودنيين ، إلا أنه كان بينهم عضو واحد ، امرأة شابة تدعى ألكسندرا سوكولوفسكايا ، كان والدها نارودنياً ، أما هي فكانت تعتبر نفسها ماركسية ، وتحاول اقناع أصدقاء شفيكوفزكي بأن الاشتراكية البروليتارية تقدم لهم فلسفة الثورة وعلمها الحقيقيين . ولم تحصد في البدء إلا القليل من النجاح ، إلا أنه سرعان ما دوّت حجرة البستان بنقاشات عنيفة . وقد وصل برونشتاين الى الحجرة في ذروة مجادلة صاخبة ، وطلب منه في الحال أن يحدد موقفه ، فأعلن فوراً عن آرائه النارودنية وسارع الى مهاجمة الماركسية الموحدة . ويروي ج . أ . زيف (وكان صديق صباه ثم عدوه فيما بعد ، وقد سرد ذكريات حية عن تلك الأيام) أنه في المرة الأولى التي أتى فيها (أي زيف) الى الحجرة في شتاء عام ١٨٩٦ ، كان برونشتاين ، الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، « بدأ يفتن بمواهبه وبراعته كل زائري فرانز » ؛ كان قد غدا ، « الخطيب الأكثر جسارة وتصميماً » في المجموعة ؛ كان يتكلم بـ « سخرية لا هوادة فيها » على نظريات كارل ماركس التي عرضتها الامرأة الشابة .

كانت معرفته بالنظريتين ضئيلة للغاية ، فهو لم يقرأ حتى ذلك الحين إلا مقالات نقدية سرية قديمة ومجموعات نشرات دورية راديكالية استعارها من شفيكوفزكي ، وهو تصفحها سريعاً ، نافد الصبر لفهم جوهر النظريات التي تتضمنها . أما المؤلفون الذين كانوا أكثر من يثيرون حماسه فجون ستيوارت ميل ، وبنثام وتشيرنيشفسكي ، مع أنه لم يكن لمؤلفاتهم أية علاقة مباشرة بالجدال الدائر آنذاك ، وقد اعتز برونشتاين طيلة فترة من الزمن بكونه من أنصار بنثام دون أن يدرك الى أي حد لم يكن ذلك يناسب ثورياً ، أكان نارودنياً أو كان ماركسياً . وهو لم يكن يعرف شيئاً عن ماركس بالذات أو عن المدرسة الماركسية . وان شاباً اكثر حذراً أو تبصراً كان وقف على الحياد ليصغي الى النقاش ،

وربما كان رجع الى المصادر ووزن الحسنات والسيئات قبل أن يلتزم . (هكذا واجه لينين تعاليم ماركس) ، إلا أن برونشتاين كان ناضجاً قبل الأوان ، وكان يتمتع بادراك سريع ، وبقدرة عظيمة على الفهم . « ومثل الناس الموهوبين فكرياً ، ذوي التفكير السريع ، كان ماهراً بشكل خارق في الايهام . فلقد كان قادراً على التقاط فكرة خصمه بسرعة فائقة ، هي وكل ما تستتبعه ، بحيث كان من الصعوبة بمكان دحض ما يقوله استناداً فقط الى المعرفة الزائدة »[٤] . « وهو احتفظ من المدرسة بثقة التلميذ الممتاز بنفسه وبعادة كسف رفاقه . فاذا استدرجه أصحابه الجدد وألحوا عليه ليتخذ موقفاً ، لم يكن في وسعه أن يتذرع بالجهل ، بل كان يتخذ موقفاً ويلقي بنفسه في المعركة حاني الرأس ، ذلك أنه كان يعجز عن الظهور بمظهر الفاتر المتحفظ .

أما اختياره فكان فطرياً ، وكانت المنظورات النارودنية تجتذبه بما يميزها بالضبط عن الماركسية . فبالنسبة للماركسيين يحدد كل ظاهرة اجتماعية ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، الوضع الاقتصادي السائد في المجتمع . ولم يكن النارودنيون يستبعدون وجهة النظر هذه بشكل كلي ، فقبل عشرين عاماً كانوا روّاد المادية التاريخية في روسيا . إلا أنهم لم يكونوا يدعمونها بالصرامة الحازمة ذاتها . كان عدد كبير منهم يسلمون بالفلسفة الذاتية المزعومة التي كانت تشدد على أولوية « الفكر النقدي » و « الارادة الفردية » . تلك الفلسفة كانت تتوافق تماماً مع تراث حزب رفض تأجيل هجماته ضد القيصرية حتى « تكون نضجت » الشروط الاقتصادية أو كسبت الأفكار الثورية الجماهير . لقد فضل الحزب النارودني أن يرسل مقاتليه وشهداءه المعزولين ، متآمريه المنطقيين والحازمين ، ليطاردوا القيصر ووزراءه وحكامه ، وفي أيديهم القنابل . أما الماركسية فكانت تبدو للشاب برونشتاين ضيقة وجافة كالغبار ـ صفعة لكرامة الانسان الذي يظهر فيها أسيراً للشروط الاقتصادية والاجتماعية ، لعبة في يد قوى الانتاج المغفلة . وقد اعترف فيما بعد بأن الأمر كان يتعلق بتبسيط للماركسية وتحريف ساخر لها . في كل حال ، ما من قناعة سياسية حديثة أخرى ، غير الماركسية ، تمكنت من أن تلهم ذلك العدد العظيم من الناس ارادة حازمة للنضال والمعاناة والموت في سبيل قضيتها[٥] .

إلا أن ذلك التحريف كان ينطوي مع ذلك على قسط من الحقيقة . فعدد لا بأس

(٤) ماكس ايستمان ، المرجع المذكور ، ص ٦٨ ، أ . ج . زيف ، المرجع ذاته ، ص ٩ ـ ١٢ . ل . تروتسكي ، المرجع المذكور ، الجزء الأول ، الفصلان السادس والسابع .

(٥) قارن تروتسكي الماركسية ، في سنواته الأخيرة ، بالكالفينية في الغالب : فالحتمية في الأولى ، ومذهب القضاء والقدر في الثانية ، كانا يعززان الارادة الانسانية ، بدل أن ينتقصا منها أو « ينكراها » . ان قناعة الماركسي ، كما الكالفيني ، بأن عمله يتوافق مع ضرورة أسمى ، تدفع الأول ، بقدر ما تدفع الثاني ، الى البذل والتضحية القصوى .

به من معتنقي الماركسية كانوا يكوّنون عنها صورة ضيقة وطمأنينية ، صورة محرّفة . ولا بد أن أول نسخة من الماركسية اكتشفها الشاب برونشتاين كانت من ذلك الطراز . لذا كانت جاذبية التراث الرومانسي النارودني تنتصر في مواجهة تلك الصورة المحرّفة . فهو كان يقترح السير على خطى نماذج مثيرة للحماس ، والاحتفال بأبطال وشهداء ، ويطرح وعوداً بالمستقبل واضحة وبسيطة . كان يسترجع ماضياً مجيداً ويعطي الانطباع بأنه يعرض مستقبلاً مجيداً أيضاً . إلا أنه كان يعطي الانطباع فقط . فالحركة النارودنية كانت عاجزة ، في أيام أفولها ، عن تجديد فتوحاتها الماضية ، ولا سيما مع الأوهام الخالصة والبطولية الماضية . إلا أن شمس الحركة الرومانسية العظيمة كانت لا تزال ترسل بريقها في سماء روسيا ، حتى في لحظة أفولها . وكان ذلك البريق يخطف أبصار الفتى برونشتاين .

ما أن انخرط في النقاش حتى كان أعنف خصوم سوكولوفسكايا . كان يدخل في علاقاتهما شعور غامض ، ومحتوم بين خصمين سياسيين قريبين الواحد من الآخر غاية القرب . مختلفين من حيث الجنس ، يلتقيان بصورة منتظمة داخل مجموعة صغيرة : كانا يتجا[illegible] ، عاجزين عن الافلات الواحد من الآخر . وبالطبع ، فإن سوكولوفسكايا . التي كانت تكبر برونشتاين بعدة سنوات ـ ست حسب البعض ، وعشر حسب البعض الآخر ـ كانت تتميز بتجربة سياسية أوسع وأكثر جدية من تجربة التلميذ في الصف العالي بمدرسة ريلشول . كانت تشرح آراءها دون ملل ، حريصة على الامحاء ، حازمة في قناعاتها وبعيدة كل البعد عن الغرور ، تشرحها من دون أن تفقد مزاجها الهادىء حتى حين كان خصمها الشاب يهاجمها بسخريته وهزئه . واتخذ الوضع وجهاً هزلياً . ففي البستان ، كان الجميع مغرمين تقريباً بالامرأة الشابة ، وكان بعضهم يكتبون لها قصائد حب . ان المشكلات الكبرى ، والكلمات التي تشير الى الاتجاهات الفكرية ، والحب الوليد والقصائد ، كل ذلك كان يختلط وتصبح النقاشات أكثر فأكثر حدة . كان يتساءل برونشتاين لتنكيد الامرأة الشابة : « ألا تزالين تعتبرين نفسك ماركسية ؟ كيف يمكن لفتاة تتمتع بكل هذه الحيوية أن تدعم هذه البلاهات البائسة ، والضيقة والنظرية الخالصة ؟ » فتجيب سوكولوفسكايا : « وكيف يمكن لشخص يدعي المنطق أن يكتفي برأس محشو بانفعالات مثالية غامضة ؟ » . وكان برونشتاين يسخر أحياناً من عاطفية الفتاة لديها ، التي لم تكن تتفق مع التزامها بالماركسية ، تلك « النظرية المخصصة للتجار وأصحاب الحوانيت »[٦] .

---

(٦) ج . أ . زيف ، المرجع المذكور ، ص ١٥ ، ماكس ايستمان ، المرجع المذكور ، ص ٤٦ .

بيد أن حجج سوكولوفسكايا بدأت تشق طريقاً لها في عقل برونشتاين ، وبدأت تضعف ثقته بذاته . وكلما كان النقاش يزداد عنفاً كانت نكات برونشتاين تزداد فظاظة . وقد التأمت المجموعة في اليوم الأخير من كانون الأول / ديسمبر ١٨٩٦ للنقاش والاحتفال برأس السنة . فجاء برونشتاين وأذهل رفاقه حين أعلن عن تبنيه الكامل للماركسية . أما سوكولوفسكايا فطار لبها . وشرب الجميع نخب تحرر الطبقة العاملة السريع وسقوط الطغيان القيصري ، الخ . وحين وصل الدور الى برونشتاين ، نهض وأمسك بقدحه واستدار نحو سوكولوفسكايا ، ثم صاح من دون أي مبرر ظاهر ومن غير أن يسبق ذلك أدنى استفزاز : « اللعنة على كل الماركسيين وجميع من يودون أن يرسوا في العلاقات الانسانية القساوة والجفاف ! » وقد غادرت الفتاة البستان ، بعد أن أقسمت أنها لن تصافح بعد اليوم هذا الأحمق . ولم يطل الوقت حتى كانت تغادر المدينة[٧] .

حل العام الجديد ولم تكن المجموعة قد تخطت طور النقاشات . كتب برونشتاين مقالة نقدية بحق الماركسية ، مصنوعة من « الأهاجي ، والاستشهادات ، والسم أكثر مما هي فكر حقيقي » ، وأرسلها الى نشرة دورية على صلة بالنارودنيين . إلا أن المقالة لم تنشر أبداً . ثم تعاون مع شقيق سوكولوفسكايا على كتابة تراجيديا تدور حول الجدال الماركسي ـ النارودني ، إلا أنها توقفت فجأة بعد الفصل الأول او الثاني . كانت غاية المسرحية اظهار النارودني بمظهر ملائم ، بعكس الماركسي . إلا أنه مع نمو الحبكة ، ذهل المؤلفان وهما يكتشفان أن الماركسي هو الذي غدا الشخص الجذاب ، ولا شك أنه كان يستعير بعض ملامحه من سوكولوفسكايا . وقد أشعلت المجموعة ثورة صغيرة في المكتبة البلدية العامة ، التي كان مجلس ادارتها ينوي زيادة تعرفة الاشتراك . جمع « البستان » « الجمهور » ، « وجاء بمشتركين جدد ، ثم أطاح مجلس الادارة في الاجتماع السنوي ـ وهو أمر لم يكن قليل الأهمية في تلك المدينة النائمة[٨] .

شرع برونشتاين يهمل عمله المدرسي في تلك الفترة ، إلا أن معلوماته كانت كافية ليجتاز امتحاناته في صيف ١٨٩٧ بدرجة جيد جداً . إلا أن والده انتبه الى أن الأمور ليست على ما يرام . وقد تكلم ليوفا ، خلال العطلة التي قضاها في يانوفكا ، على انتزاع الحرية وإطاحة القيصر . فأجاب المزارع الذي كان يتساءل من أين استقى ولده تلك الأفكار : « اسمع يا بني ، هذا لن يحصل أبداً ، ولو بعد ثلاثمائة عام ! » . ومنذ

(٧) روى تلك الاحداث كل من ايستمان وزيف . أما تروتسكي فلا يتكلم عليها في كتابه ، حياتي ، إلا أنه في تقديمه لكتاب ايستمان يشهد على دقةالوقائع المروية فيه ، مثبتاً صحة تلك النوادر التي تكلم عليها زيف قبل غيره .

(٨) ل ، تروتسكي ، الاستشهاد المذكور .

اكتشف أصدقاء ليوفا الجدد، أمره بكل فظاظة أن يغادر بستان شفيكوفزكي . فأكد ليوفا حينذاك « روحه النقدية » و « حريته » . وقال لوالده انه حر باختيار أصدقائه . إلا أنه منذ اللحظة التي لم يعد يخضع فيها لارادة أبيه ، لم يعد يرغب في مواصلة الحياة بواسطة ماله : فتخلى عن معاشه ، وبدأ يعطي دروساً خاصة وترك مسكنه المترف الى حجرة شفيكوفزكي حيث كان يحيا ستة طلاب ، بعضهم مصاب بالسل . وقد أفعمه التغيير بالفرح ، فحريته له أخيراً ! اختفى ابن البورجوازي المطيع وحسن الهندام ، الذي كان يثير اعجاب أقارب الفتيان الآخرين . وحل محله نارودني حقيقي يذهب كالرواد السابقين الى الشعب ليغدو واحداً من الشعب ، يحيا وسط جماعة صغيرة يرتدي كل فرد من أفرادها ثياب عامل زراعي ويضع الكوبيكات(*) النادرة التي يحصل عليها في الصندوق المشترك ، ويشرب الشوربا الصافية ذاتها ، ويأكل الكاشا ذاتها في القصعة الحديدية البيضاء ذاتها .

وكان برونشتاين العجوز يأتي من يانوفكا أحياناً ليرى اذا لم يكن ولده ، المتعب من الحرمان والشظف ، مستعداً لتبديل سلوكه . إلا أنه لا شيء كان يمكنه من افتراض ذلك . فأحد المستأجرين لدى شفيكوفزكي الذي أصبح فيما بعد صحفياً شيوعياً مشهوراً استرجع لاحقاً صورة المزارع الضخم ذي العوارض . . . داخلاً الى الحجرة عند الفجر ومنتصباً تجاهه ، عنيداً ومهدداً : « السلام عليك ! » ، صاح المزارع بصوته الضخم الرنان : « وأنت أيضاً ، هربت بعيداً عن أبيك ؟ »[9] وكانت مشاهد غاضبة تعقب مشاهد مصالحة جزئية . فالوالد الذي رأى أعز آماله تنهار كان يبدي رعونة ونفاد صبر . أما الابن المهان بحضور رفاقه ، الذين كان يأمل أن يكون مشعلهم ، فكان يرد بعنف ووقاحة . كان يدخل في الصراع ، من الجانبين ، المزاج ذاته والاستقامة ذاتها ، والعناد ذاته والكبرياء ذاتها والصوت الرنان ذاته . وحين دخل ليوفا الى جامعة أوذيسّا ليدرس الرياضيات بدا أن الأشياء يمكن أن تسوّى بعد : فالمزارع كان يرى أن الرياضيات الخالصة أفضل من لعبة اطاحة القيصر ، بمعاونة رفاق غامضين . وفي الجامعة ، أظهر ليوفا منذ البدء مواهب استثنائية في حقل الرياضيات[10] . إلا أن جاذبية الجامعة لم تكن شيئاً إزاء جاذبية بستان شفيكوفزكي ، فليس بمقدور الحساب أن يتفوق على الثورة .

(*) الكوبيك وحدة نقد روسية (م)

(٩) م . ايستمان ، المرجع المذكور ، ص ٥٥ .

(١٠) يورد ايستمان ذكر تقني روسي رفيع ، كان زميلاً لتروتسكي في الجامعة ، وكان يأسف ، حتى بعد الثورة ، أن يكون رياضي خارق الى تلك الدرجة قد خسره العلم (المرجع ذاته ، ص ٥٩) .

وكانت اقامة الفتى في أوذيسّا قصيرة ، لكن طويلة بما يكفي للاحتكاك بالثوريين الذين أعطوه صحفاً ومقالات سرية عاد بها الى نيكولاييف مظفراً .

وحان آنذاك ربيع عام ١٨٩٧ المضطرب . في شهر آذار / مارس ، انتحرت طالبة مسجونة بسبب أفكارها السياسية في قلعة بطرس وبولس بمدينة بطرسبورغ ، انتحرت في زنزانتها باشعال النار في ثيابها ، وقد أثارت الحادثة زوبعة من الاحتجاجات ومظاهرات عنيفة في الجامعات .

ردت السلطات على ذلك بنفي عدد كبير من الطلاب ، مما أدى الى احتجاجات جديدة ومظاهرات جديدة . حتى أوذيسّا التي كانت الشرطة تشدد رقابتها عليها بدأت تتحرك . وجاء طلاب وصلوا لتوهم من كييف فحركوا الحماس والاستنكار في بستان شفيكوفزكي . فشعر برونشتاين وأصدقاؤه أن الوقت حان للانتقال من الكلام الى الأفعال .

« فجأة انتحى بي برونشتاين جانباً ليعرض عليَّ ، بسرعة محكمة ، بأن أدخل في جمعية عمالية ، نظمها هو بنفسه » ، هذا ما كتبه زيف الذي كان طالباً في الطب ، ووصل لتوه من كييف . ويقول برونشتاين : « كان قد جرى التخلي عن الأفكار النارودنية » ، كانت المنظمة تعتبر نفسها اشتراكية ـ ديمقراطية ، مع أن برونشتاين تحاشى التلفظ بالكلمة وعرض تسميتها **اتحاد روسيا الجنوبية العمالي** . وتابع زيف : « حين دخلت الى المنظمة ، كان كل شيء مهيأ . فبرونشتاين كان قد أقام صلات بالعمال والحلقات الثورية في أوذيسّا وايكاتيرينوسلاف ومدن أخرى . . . »[١١] .

عشرة آلاف شغيل تقريباً كانوا يعملون في احواض السفن والمصانع في نيكولاييف ، معظمهم من العمال المتخصصين الذين يتلقون أجوراً جيدة ، ولديهم أوقات فراغ كافية لقراءة الكتب والصحف . إلا أنهم لم يكونوا قد تنظموا حتى ذلك الحين ، لا بل لم تكن لديهم حتى نقابة . وكانت تزدهر في الأحياء العمالية فرق دينية لا تحصى معارضة للكنيسة الأرثوذكسية . وقد اتصل برونشتاين بأعضائها ، فميّز بسرعة من كانوا منشغلين بوجه خاص بالعقيدة الدينية عمّن كانوا يهتمون أكثر بما يترتب سياسياً على معارضتهم للأرثوذكسية اليونانية . ومن بين هؤلاء نظم الأعضاء الاولين في **الاتحاد العمالي لروسيا الجنوبية** . جمعهم في حلقات صغيرة كانت تجتمع بانتظام لمناقشة احداث

(١١) أ . ج . زيف ، المرجع المذكور ، ص ١٨ . حول تلك الحقبة المتميزة بالتجمع مجدداً أو تكوين منظمات اشتراكية ـ ديمقراطية في معظم مدن الجنوب ، انظر م . ن . ليادوف ، كاك ناشينا لاسكجاديفاتسيا ر . ك . ب ، ص ٣١٠ .

راهنة.وقراءة الصحف السرية . وقبل نهاية العام كان يضم الاتحاد حوالي مئتي عضو . ويقدم تقرير روسي معاصر لتلك الحقبة ، تم نشره بعد توقيفهم ، معلومات مفصلة حول المنظمة . كان أعضاؤها وهم حدادون ونجارون وكهربائيون وخيّاطات وطلاب ، تتراوح أعمار معظمهم بين ٢٠ و٢٣ سنة ، إلا أن بعضهم تجاوز الأربعين[١٢] . وكان بين الأعضاء المؤسسين سوكولوفسكايا بالذات . فهي تناست حادثة سان سيلفستر وعادت الى البستان ، مذ عرفت بالانطلاقة الجديدة .

استعارت المنظمة اسمها ، بالطبع ، من تشكيلة أخرى كانت قائمة قبل ربع قرن من ذلك التاريخ ، وكانت أوذيسّا مركزها . **فالاتحاد العمالي لروسيا الجنوبية** القديم الذي أسسه طالب يدعى ا . أو . زاسلافسكي ، كان يهتدي بالنارودنية ، ويميل وفقاً لتعاليم لافروف الى القيام بتثقيف الشعب . وكان لذلك الاتحاد ، حسب ما توفر لنا من المعلومات ، أهمية شبيهة تقريباً بأهمية الاتحاد الجديد . إلا أن الشرطة اكتشفته في عام ١٨٧٥ ، وأحيل قادته للمحاكمة أمام مجلس الشيوخ فصدر الحكم على معظمهم بالأشغال الشاقة . وقد مات زاسلافسكي والعديد من رفاقه في السجن . وحكم على أحد مؤسسيه ن . ب . شتشيدرين بالاعدام مرتين ، وفي المرتين ، جرى استبدال الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة . وبقي السجين سنوات طوالاً موثوقاً الى نقالته ، الى أن غدا مجنوناً ، فنقل حينذاك الى قلعة شلوسلبورغ ، حيث خضع طوال خمسة عشر عاماً أيضاً للتعذيب الذي ربما أعطى دوستويفسكي فكرة عنه في روايته **ذكريات من منزل الأموات** . وكان الناس في روسيا الجنوبية يحتفظون في ذاكرتهم بذكرى ذلك الاستشهاد الطويل ، ومن المرجح أن يكون برونشتاين سمى منظمته **اتحاد عمال روسيا الجنوبية** احياء لتذكار شتشيدرين . وقد تبنى يومذاك اسمه المستعار الأول ـ لفوف .

هذا التحول لفتى كان يبدو قبل عام تقريباً بمظهر ابن أنيق لعائلة موسرة ، الى مؤسس منظمة سرية اختارت طوعاً درب الثورة الضيقة والقاسية ، حدث بسرعة مذهلة . وكان يفيض طاقة مفرطة بالطبع ، وحماساً وخيالاً لم تكن النشاطات التقليدية تقدم لها إلا القليل من المنافذ ، أو لا شيء على الاطلاق .

كان بحاجة لقضية يخدمها ويضحي بنفسه من أجلها ، وحين اكتشفها ظهر مزاجه الفتي والمشبوب على الملأ . وقد اعترف أصدقاؤه وأعداؤه، على السواء ، بأنه كان روح

(١٢) ان رابوتشيي ديلو ، أورغان سويوزا روكسيخ سوتسيال ـ ديمقراطوف ، جنيف ، أول نيسان / أبريل ١٨٩٩ ، ص ١٥٠ ـ ٢ ، قدمت لائحة طويلة ومفصلة بأعضاء الاتحاد الموقوفين ، مع معلومات عن أعمارهم ومهنهم ، الخ .

الاتحاد ، والناطق بلسانه ، ومنظمه وصانعه الأكثر نشاطاً والأشد اخلاصاً . « كانت مجموعتنا المنظمة الاشتراكية ـ الديمقراطية الأولى في نيكولاييف ـ هذا ما كتبه زيف في مذكراته المطبوعة بعداء يرتد الى الماضي ـ وكان نجاح عملنا يثير شغفنا الى حد اننا كنا . . . في حالة حماس مزمن . ولا شك أن معظم نجاحاتنا عائدة الى برونشتاين الذي كانت طاقته لا تنضب ، وحيويته لا تكل ، ومواهب الابداع المتعددة والمتنوعة لديه لا تعرف حدوداً » . ويواصل زيف كلامه فيقول : « بعد سنوات طويلة من ذلك الحين ، كانت المنظمة لا تزال تلتفت بكبرياء الى أيام شبابها حين كان يقودها فتى في الثامنة عشرة من عمره ، يسحر رفاقه بفصاحته ومثاله : كان ينسيهم ارتباطاتهم وانشغالاتهم الشخصية ، ويدفعهم ليكرسوا للقضية أفكارهم وطاقاتهم ووقتهم . وبعد رحيل برونشتاين ، تقصّف نابض الحركة . ما عاد بإمكان الاتحاد أن يسترجع حماس المرحلة الاولى »[١٣] .

واذا قورن الاتحاد بحزب أو بمنظمة ، بالمعنى المعتاد ، فهو لم يكن بالطبع غير مجموعة صغيرة . أما بالنسبة للسلطة التي كان يتصدى لها ، فكان بنسبة جرثومة تنطلق لمهاجمة جسم ضخم ومصاب بالتلف ، ولقد كان بالفعل واحدة من جراثيم الثورة التي بدأت عملها .

وكانت الحلقات المتكونة في أحواض السفن والمصانع تتناقل منشورات وصحيفة صغيرة تدعى **ناشي ديلو** (**قضيتنا**) . تلك المنشورات كانت تعرض مسائل ذات اهتمام محلي ، كالوضع في المصانع وأحواض السفن ، وتفضح تجاوزات المستخدمين وادارات الدولة . وكان ذلك يحدث تأثيراً عميقاً ، وكان الناس الذين يتعرضون للاتهام يضطرون للرد ، فيجيب الاتحاد بمنشورات جديدة .

« كم كنت أشعر بالرضى وأنا أعرف أن العمال في المصانع والمشاغل يقرأون مشغوفين المنشورات السرية المطبوعة بالحبر البنفسجي . . . كانوا يتخيلون الكاتب بشكل شخص غريب وقدير . . . يدخل الى المصانع ، ويعرف ما يجري في المشاغل ويستطيع أن يرد على الاحداث في مهلة الاربع والعشرين ساعة بأوراق جديدة تماما[١٤] . ولاقت **ناشي ديلو** ، نشرة الاتحاد استقبالاً مشجعاً أيضاً . وكانت الحلقة فقيرة جداً فلا تستطيع طباعة تلك النشرة السرية . فاقترح برونشتاين ، كما يقال ،

---

(١٣) أ . ج . زيف ، المرجع المذكور ، ص ٢١ .

(١٤) ل . تروتسكي ، المرجع المذكور ، الجزء الأول ، ص ١٣٣ ـ ٤ .

طبعها سراً في مطبعة سبنترز في أوذيسّا ، إلا أن رفاقه أقنعوه بعدم صواب ذلك (كان حماسه يجعله لا يفكر بما يمكن أن يعود به ذلك من ضرر على أصدقائه) . في تلك الفترة بالذات ، اقترح على المجموعة متعاطف غريب الاطوار « خطة » للقيام بالثورة : كان يعتقد أن ثمة حاجة من أجل اطاحة القيصر ، لمئة ألف روبل تسمح بأن توزع في أنحاء روسيا ألف مطبعة سرية صغيرة تغمر المراكز العمالية بدعوات معادية للقيصر . وقد جلب بهدف البدء آلة طباعة بدائية . وشرع برونشتاين بالعمل في الحال . كان يكتب بذاته المنشورات والصحيفة ، كما كان هو الذي يخط النصوص بالحبر البنفسجي (لئلا يجد العمال أية صعوبة في قراءتها) ، ويزين النص برسوم كاريكاتورية ، وكان يتولى بنفسه ، في شقة خربة لرفيق أعمى ، سحب أوراق الستنسل ومئات النسخ من كل طبعة ويشرف على التوزيع(١٥) . وكان يحتاج الى ساعتين تقريباً لطباعة صفحة واحدة . « كنت احياناً أبقى أسبوعاً كاملاً ، منحني الظهر ، لا أنهض إلا للذهاب الى اجتماعات الحلقة ونقاشاتها » .

على الصعيد السياسي ، كان الاتحاد جمعية محلية من الثوريين ، المتحررين من كل المسبقات . وكان بعض اعضائه لا يزالون يعتبرون أنفسهم نارودنيين ، بينما يعتبر البعض الآخر أنفسهم ماركسيين ، إلا أن هذا الاختلاف لم يكن يعيق عملهم المشترك . فقد كان في وسعهم العمل معاً لأنه كان لعملهم هدف محدد بوضوح . كانوا يدعون العمال للنضال من اجل زيادة أجور أو انقاص لساعات العمل ، ولم يكن يظهر أي خلاف بهذا الصدد بين النارودنيين والماركسيين . وحين كانوا يتوجهون بالكلام الى العمال ، كانوا يتحاشون الكلام على أهدافهم السياسية التي يناقشونها في البستان . هذا النوع من النشاط ، المميز يومذاك لمعظم الحلقات السرية ، جرت تسميته فيما بعد بالنشاط « الاقتصادي » ، لأنه لم يكن يستهدف أكثر من وجه من وجوه الموضوع ، أي مسألة « الخبز والزبدة » . لكن لأنه كان لديهم بالضبط مقصد محدد حققوا نجاحاً سريعاً . فلو تكوّنت مجموعتان ، تنادي كل منهما باتجاه مخالف ، وبدأتا تتنافسان لكسب العمال ، لوصلتا الى البلبلة والاخفاق . ولا يمكن النضال بجدية للقضاء على الخلافات ، إلا داخل حركة أوسع وذات تكوين أكثر حزماً . وقد توصل اتحاد نيكولاييف ، مع ذلك ، الى أن يعرفه كل قادة الحلقات الأكثر تقدماً في المراكز الأخرى ، الذين كانوا يستعدون لعقد مؤتمر وتأسيس الحزب العمالي الاشتراكي -

(١٥) « كان برونشتاين يقوم بكل العمل التقني الأكثر اهمية ، ناهيك بتوليه مسألة التحرير » . أ . ج . زيف ، المرجع المذكور ، ص ٢١ .

الديمقراطي . وقد تساءلوا اذا كان ينبغي دعوة حلقة نيكولاييف لارسال مندوب : ألا يمكن لحداثتها أن تفسد أبهة الحدث ؟ إلا أنه قبل أن تبتّ تلك المسألة ، كانت مجموعة نيكولاييف تدخل الى السجون[١٦] .

ان نجاح تلك المغامرة الأولى أظهر للثوري الشاب « قوة الكلمة المكتوبة » . كانت المدينة بأسرها في حالة انفعال ، فالاتحاد ، المثير للاعجاب أو للرهبة ، كان عنصراً ينبغي أخذه بالحسبان ، وكان أصدقاؤه ، كأعدائه ، يتصورونه أقوى مما هو في الواقع . وكل ذلك كان نتيجة كتابات برونشتاين بالذات . وهو احتفظ حتى النهاية بثقته بالكلمة المكتوبة . ففي أي حالة من الحالات ، يلتفت الى الكتابة ، كما نحو ملجئه الأول والأخير ، وطيلة حياته سوف يمارس هذه المقدرة ، مستحصلاً أحياناً على نتائج هزت العالم ، وأحياناً أخرى على اخفاقات تدعو للرثاء . وفي داخل هذه الجمعية الصغيرة من الثوريين أيضاً بدأ يمتحن بلاغته ، إلا أن محاولته الأولى انتهت بالمهانة والدموع . فالمشاركة في نقاش بنباهة واندفاع غير القاء خطاب في الجمهور . « كان يستشهد بغومبلوفيتز و . . . جون ستيوارت ميل . . وضاع في أحبولة كلمات كبيرة غير مفهومة ، ملاحقاً فكرة ما انفكت تهرب ، الى حد أن سامعيه أحسّوا بالعرق البارد يتصبب منهم ، وتساءلوا اذا كانت هناك وسيلة في العالم يمكن أن تساعده على التوقف عن الكلام . وحين انتهى في الأخير ، وفتح المجال للنقاش العام ، لم ينبس احد ببنت شفة . اذ لم يفهم أحد موضوع محاضرته » .

أما المحاضر « فاجتاز القاعة وارتمى على أريكة ، دافناً رأسه في مخدة . كان العرق يتصبب منه ، والخجل يسحقه ، والجميع أحبوه »[١٧] .

ضمن تلك المجموعة الصغيرة ، لم تكن أي من صفات برونشتاين الحسنة أو الرديئة تخفى على رفاقه . والملاحظات التي أعطوها تتوافق تقريباً في كل شيء ، إلا من حيث الأهمية الممنوحة لبعض العلاقات . لقد ذكرت سوكولوفسكايا التي أصبحت زوجه فيما بعد ثم انفصل عنها ، ذكرت بعد ذلك التاريخ بثلاثين عاماً أنه قادر على الظهور بمظهر الحنان والرأفة ، لكن كذلك على أن يبدو متعالياً وقاطعاً . إلا أن الشيء

---

(١٦) ل . تروتسكي ، بوكوليني اوكتيابريا ، ص ٢٠ ، م . ن . ليادوف ، كاك ناشالاسكلاديفاتسيا . ر . ك . ب ، ص ٣٢٤ ، اكيموف ، ماتيريالي دلا خاراكتيريستيكي رازفيتيا ، ر . س . د . ر . ب . ، ص ٣٩ ، ٧٥ .

(١٧) م . ايستمان ، المرجع المذكور ، ص ٧٠ ويشير زيف الى أن برونشتاين درس بالكثير من الاجتهاد تقنية المحاجّة وحيلها في فن الجدل ، الذي ألفه شوبنهاور .

الوحيد الذي لم يتغير فيه إنما هو اخلاصه للثورة . فسوكولوفسكايا تقول : « لم يقيّض لي أن ألتقي يوماً ، طيلة عملي النضالي ، شخصاً يكن مثله كل ذلك الاخلاص للثورة والتفاني في سبيلها » . اما الشخص الذي درج على اغتيابه فيلح اكثر على ذاتيته وطبعه المهيمن ، فقد كتب زيف يقول : « ان الأنا (الأيغو) لدى برونشتاين كانت تسيطر على كل سلوكه » . ويضيف : « إلا أن الثورة كانت تسيطر على أناه » . كان يحب العمال ويحب رفاقه . . . لأنه كان يحب فيهم ذاته » . فبعد أن تخلى طوعاً عن ترف حياة مستقرة تماماً وآفاق عمل مزدهر لم يكن بوسعه أن يفهم أن يكون للآخرين سلوك آخر . فحين شرع زيف ، المهتم بانجاز امتحاناته في الجامعة ، يهمل اجتماعات الحلقة ، وجه اليه برونشتاين تحذيراً لبقاً لكن واضحاً . فقد قدم لزيف رسماً أرفقه بالكلمات التالية : « الايمان الذي تنقصه الأعمال هو ايمان ميت »[١٨] .

أما الشخص الذي أثر فيه اكبر تأثير فهو فردينان لاسال ، مؤسس أول حركة جماهيرية اشتراكية في المانيا . فنفوذ لاسال لدى الاشتراكيين الأوروبيين في تلك الحقبة كان نفوذاً كبيراً جداً ، إلا أن كشف علاقاته السياسية الملتبسة مع بيسمارك فيما بعد ثلم سمعته . واذا كان برونشتاين الشاب تأثر ذلك التأثر العميق بلاسال ، فلأنه كان بينهما قرابة لا جدال فيها . فلاسال كان ، هو الآخر ، ابن عائلة يهودية غنية وتخلى عن وسطه ليناضل لصالح تحرر الشغيلة . وكان واحداً من أعظم خطباء عصره ، ومن الشخصيات الأكثر تلوّناً ورومانسية في ذلك العصر . وقد انتهى مجرى حياته كشهاب ساطع نهاية مأساوية : سقط صريعاً خلال مبارزة رومانسية . ولقد دخل لاسال في التاريخ كمؤسس لأول حزب عمالي حديث ، لا في المانيا وحسب بل في العالم أجمع . ان عظمة حياة كتلك الحياة وألقها ومأساويتها أثارت خيال برونشتاين الشاب . وكان يتكلم على بطله باعجاب وذهول ، الى حد أنه أقسم على تقفّي آثاره ، وإذا أمكن أن نصدق زيف ، فهو أقسم أنه سيغدو لاسال الروسي . فلم يكن لدى الشاب أي ميل الى التواضع ، كاذباً كان أو حقيقياً . وهو لم يكن يخفي عيوبه ولا طموحاته . كان معتاداً التفكير والحلم والاستسلام - جهاراً - لأحلامه التوّاقة .

* * *

دامت الحلقة الأولى من نشاطه السري من ربيع عام ١٨٩٧ إلى نهاية ذلك العام . وكانت الشرطة ترفض الاعتقاد في البدء أن التعبئة في المصانع وأحواض السفن يمكن أن

(١٨) م . ايستمان ، المرجع المذكور ، ص ٨٧ . أ . ج . زيف ، المرجع المذكور ، ص ١٢ ، ١٩ - ٢٠ .

تنتج عن عمل بعض المراهقين والحالمين في بستان شفيكوفزكي . وكانت تبحث لها عن مصدر أكثر جدّية . فتسنت هكذا الفرصة للاتحاد كي يوسع نفوذه الى أن عادت الشرطة عن خطئها وبدأت تراقب ذهاب برونشتاين ورفاقه وايابهم . وحوالى نهاية العام ، قرر قادة الاتحاد ، الذين كانوا يتوقعون تدخلاً لاحقاً من جانب الشرطة ، ان يتفرقوا وينتظروا بعض الوقت قبل العودة الى عملهم . إلا أنهم قرروا العودة الى المدينة اذا أوقف اثناء غيابهم عمال ينتمون للاتحاد : ما كان ينبغي أن تتمكن الشرطة من القول للعمال ان قادتهم تخلوا عنهم .

وفي الأسابيع الأولى من عام ١٨٩٨ ، غادر برونشتاين نيكولاييف باحثاً عن ملجأ في الريف في ملكية التزم شفيكوفزكي بالعمل فيها كبستاني . وما كاد يصل برونشتاين حتى أوقفته الشرطة في الوقت ذاته الذي أوقفت فيه شفيكوفزكي . جرى توقيف معظم أعضاء الاتحاد بدورهم في نيكولاييف أو في الضاحية . ونُقل برونشتاين الى الريف ، إلى سجن نيكولاييف ثم الى سجن خرسون حيث بقي عدة أشهر . فالشرطة لم تكن تشك في أنه محرك المجموعة . هكذا أبقي معزولاً تماماً طيلة شتاء قارص ، في حجرة ضيقة لا تدفئة فيها ولا هواء ، لكنها تعج بالحشرات . وكان السجّانون يأتون في المساء بفراش من القش للنوم عليه ليلاً ، ثم يستعيدونه منذ الفجر ، بحيث لا يكون للسجين مقعد أو سرير خلال النهار . كان محروماً من حق التنزه أو تأدية بعض التمارين الرياضية في ساحة السجن ، كما من حق تلقي الصحف ، أو الكتب ، أو الصابون ، أو ثياب الغيار . كان جائعاً ، متسخاً ، ممتلئاً بالقمل ، يذرع حجرته جيئة وذهاباً ، ويضرب الجدران بقبضتيه ليرى اذا كان ثمة أحياء في الزنزانات المجاورة - لم يكن هناك احد ؛ يعود الى المسير ، محصياً خطاه ومحاولاً التخلص من الحشرات .لم يحصل شيء واحد يقطع رتابة تلك الشهور ، ولا حتى استجواب ، لا بل لم يجر اعلام السجين بالتهم الموجهة اليه . تلك المعاملة المقصود منها تثبيط عزم السجين كانت ألطف في كل حال من تلك التي عومل بها بعض أعضاء الاتحاد الآخرين الذين دفع بهم التعذيب الى الانتحار أو الجنون أو الانهيار : كانوا يوافقون حينذاك على العمل كمخبرين . « كانت تمر لحظات . . . أشعر فيها بأني مريض من الوحدة » ، هذا ما اعترف به برونشتاين . إلا أنه كان يجد في تضحيته ترضية معنوية ، وكان يؤلف أناشيد ثورية دخلت في الفولكلور فيما بعد . وحوالى نهاية إقامته في ذلك السجن ، تراخت قبضة الشرطة ، ونجحت والدته ، عن طريق رشوة الحراس بدنّ خمر ، في أن ترسل اليه رزم طعام ، وبعض أدوات « الترف » ، كالصابون والبياض ، والثمار .

ولأجل الاستجواب وسماع الشهادات ، تم نقله في الاخير الى سجن أوذيسّا حيث بقي سنة ونصف السنة ، أي حتى نهاية عام ١٨٩٩ . هنالك أيضاً ، بقي في السجن الانفرادي ، لكنه كان يتمكن من الاتصال سراً بأصدقائه[١٩] . كان السجن مزدحماً وتبعث فيه الحياة على الدوام الرّوحات والغدوات ، المؤامرات وانواع المزاح . وكان برونشتاين ذا مزاج ممتاز ، يسخر من كولونيل الدرك الذي يقود التحقيق . ولكي يعد نفسه للاستجواب ، كان عليه أن يعرف بدقة كل ما اكتشفته الشرطة بصدد الاتحاد : فتبادل لهذه الغاية المعلومات مع اصحابه في الزنزانات الأخرى . « لم تكن مهمته سهلة . . . كان عليه أن يروي لي كل قصة توقيفه ، وأن يحدد ظروف ذلك التوقيف ويلخص شهادته . . . كان يلزمه علاوة على ذلك أن يعبر عن كل ذلك بطريقة أتمكن معها من فهم ما حدث بأفضل ما يمكن من الوضوح ، لكن دون أن يقدم اتصالنا أي حجة ضده ، فيما لو تم كشف ذلك الاتصال . وقد أدى تلك المهمة بطريقة بارعة . كتب بحثاً ملفتاً للنظر ، لطيفاً ومسلياً ، أهجية ساخرة ومقالاً نقدياً رائعاً[٢٠] » . كان قد بدأ تجربته الاولى في الأدب .

وطالت عمليات الاستجواب دون أن تقدم أي اثبات لملف الاتهام . ابان ذلك ، كان برونشتاين يقرأ كل ما يقع تحت يده ، كان عليه أن يكتفي في البدء بكتب ونشرات دورية من مكتبة السجن ، إلا أنه تمكن فيما بعد من تلقي كتب من الخارج . فمكتبة السجن لم تكن تحوي غير مؤلفات دينية أو مجلات مسيحية . ولكي يتمرس برونشتاين باللغات ، كان يقرأ التوراة بالألمانية والفرنسية والانكليزية والايطالية في الوقت ذاته . ثم حصل على مجموعة المجلة الأورثوذكسية التي كان قدر كبير من أعدادها يعج بالهجمات على اللاأدريين(*) والملحدين ، والماسونيين بوجه خاص . وقد كتب برونشتاين فيما بعد : « ان محاجّات الفقهاء الأورثوذكسيين ضد فولتير وكانط وداروين أدخلتني في عالم أفكار لاهوتية لم أكن قاربتها من قبل ، فأنا لم أتخيل يوماً ؛ حتى من بعيد ، عبر أي من الاشكال المتحذلقة والخرافية والشاذة كانت تعبّر تلك الأفكار عن نفسها » . « ان الأبحاث حول العفاريت والأبالسة وأمرائهم ، وحول الشيطان بالذات ومملكة الظلام ، كانت تفعمني بالدهشة . . . كان وصف سخي للجنة . . يحوي تفاصيل عديدة حول

(١٩) في ذلك السجن بالذات علم اعضاء الاتحاد بانعقاد المؤتمر الذي تأسس فيه الحزب الاشتراكي - الديمقراطي ، في مدينة مينسك ، ومن كثرة الحماس ، تناقل السجناء الخبر من شباك لآخر . ل . تروتسكي ، بوكوليني اوكتيابريا ، ص ٢٠ .

(٢٠) أ . ج . زيف ، المرجع المذكور ، ص ٢٨ .

(*) اللاأدرية مذهب الذين ينكرون قيمة العقل وقدرته على المعرفة (م)

. . . ترتيبها الأصلي ينتهي بهذه الملاحظة الكئيبة : « ليس لدينا شيء أكيد حول موقع الجنة الجغرافي » ، وكنت أردد هذه الجملة على العشاء ، وفيها أنا أتناول الشاي أو أتنزه : لا يعرفون شيئاً أكيداً حول موقع الجنة الجغرافي »[٢١] . كانت المشاحنات اللاهوتية مع سجّان متزمت تسليته المفضلة . في كل حال ، كان الرفض العقلاني للدين يميز المثقف الروسي في تلك الحقبة ، أكان راديكالياً ، أو اشتراكياً ، أو ليبرالياً بشكل غامض وحسب ، وسواء تحدر من عائلة اورثوذكسية أو من عائلة يهودية . والايمان اليهودي لم يلعب أي دور في تربية برونشتاين ، إلا أن الأوثوذكسيتين ، اليهودية أو اليونانية ، كانتا ظلاميتين ومستشرستين في رفضهما لأخذ أي فكرة جديدة بالحسبان ـ كانتا متخلفتين من هذه الزاوية عن الكنيسة البروتستانتية ، لا بل عن الكنيسة الكاثوليكية ايضاً ـ الى حد أنهما كانتا تنفرّان كل رجل مثقف أو متوسط الثقافة تنفيراً مطلقاً . لم يكن بإمكانه التفاهم مع ديانة ترفض أي تنازل لتيارات الفكر الحديث .

كان برونشتاين يتسلى بالغوص في ذلك الأدب اللاهوتي ، محاولاً أن يستخلص من تلك العروض الجدالية المختصرة والمبيّتة الخطوط الأساسية في تلك الفلسفات الغريبة عنه وفي الأنظمة السوسيولوجية التي كانت تدينها الكنيسة . كان يبحث عن السلك الناقل الذي يسمح له بتكوين نسخته الخاصة عن تلك النظريات الخاطئة وبالحكم عليها وفقاً لقيمه الخاصة ، وفقاً لطريقة ماركسية . ولقد تلقى إذّاك كتباً من الخارج ساعدته بشكل أكثر مباشرة . قرأ مؤلفات داروين التي أثبتت إلحاده التلقائي . وقد ذكّر القارىء بعد خمسة وعشرين عاماً من ذلك التاريخ كيف أن الطريقة التي فسّر داروين بها التكوين الطبيعي والعفوي لريش الطاووس طردت من عقله الى الأبد مفهوم الكائن الأسمى ، والى أي حد كان مصدوماً حين عرف أن داروين بالذات لم يكن ملحداً »[٢٢] . ولقد قرّبته الأبحاث الفلسفية التي قام بها الماركسي الايطالي أرتور لابريولا من الهدف : ففكر لابريولا وأسلوبه الواضحان والسهلان والخاليان من الدوغمائية تركا لديه انطباعاً دائماً . وهو لم يفهم كتاب لابريولا يومذاك إلا فهماً نصفياً ، إلا أنه وجد فيه نقاط استناد اكثر صلابة حول النظرية الماركسية .

انطلق من وجهات النظر الحائرة تلك ، مستخدماً معطيات غامضة بما فيه

---

(٢١) انظر رسالة تروتسكي الى ايستمان في كتاب ايستمان المذكور سابقاً ، ص ١١٣ ، ول . تروتسكي ، حياتي ، الجزء الأول ، ص ١٤١ .

(٢٢) قال في حديث لطلاب جامعة سفردلوف ، في موسكو ، عام ١٩٢٣ : « سأتساءل حتى نهاية حياتي اذا كان داروين صادقاً أو اذا كان يقدم فقط تنازلاً للمعتقدات التقليدية » بوكولوبني اوكتيابريا ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

الكفاية مستخلصة من الأورثوذكسية اليونانية ، ليحاول كتابة تاريخ مادي للماسونية وليجعل من ذلك التحليل التاريخي الملموس امتحاناً لنسخته الشخصية والمبسّطة عن الماركسية . وكان ذلك عمله الأدبي المهم الأول الذي بقي متعلقاً به طيلة حياته : لم يتعزّ أبداً لفقدانه اياه خلال أحد أسفاره الأولى . وليس من واجبنا مشاركة المؤلف شغفه حيال أول عمل له ، إلا أن من المؤكد أنه بدأ يتمرس فيه بالتاريخ الماركسي . وبين محاولاته الأولى ، التي كان يخفيها عادة في مخبأ داخل السجن ليقرأها رفاقه ، كانت هناك واحدة حول دور الفرد في التاريخ بقيت موضوع نقاش بين الماركسيين والنارو دنيين . « لم أقم باكتشافات ، فكل الاستنتاجات ... التي توصلت اليها قام بها آخرون منذ زمن طويل ... إلا أني بلغتها ، من جانبي ، عن طريق التلمس ، وبقواي الخاصة الى حد ما . وقد أثر ذلك فيما بعد على كل تطوري . واكتشفت فيما بعد في مؤلفات ماركس وانجلز وبليخانوف ومهرينغ اثبات ما لم يظهر لي في السجن ألا كظنّ بسيط ... فأنا لم أتمثل في البداية المادية التاريخية بشكلها الدوغمائي[٢٣] » .

تلك الجهود كانت تشغله وتبقيه في حالة جيدة على الصعيد الفكري ، فيما كانت تنتهي سنته الثانية في السجن . كان المراهق بصدد الانتقال الى النضج ، من الناحية الفكرية ، ولما لم يكن من شيء آخر يشغل السجين في زنزانته غير الفكر والتأمل ، فقد عجّل ذلك في التحول المشار اليه .

* * *

حوالى نهاية عام ١٨٩٩ ، تعرض السجناء لتدبير اداري : صدور حكم من دون محاكمة . حكم على برونشتاين وثلاثة من رفاقه بالنفي الى سيبيريا لقضاء أربع سنوات ، بينما حكم على آخرين بالنفي لمدة أقصر ، وأخلي سبيل البعض . ثم بدأ نقل المنفيين . فاقتيدوا في البدء الى موسكو ، حيث انتظروا ستة أشهر في « سجن انتقالي » . وبالاضافة الى أنه لم تحدث محاكمة ولا استجواب حسب الأصول ، فالسنتان ونصف السنة التي قضوها في التوقيف لم تحسم من مدة العقوبة .

---

(٢٣) ل . تروتسكي ، حياتي ، الجزء الأول ، ص ١٤٧ . ويؤكد زيف أن برونشتاين كتب أيضاً في سجن اوذيسّا دراسة حول الأجور حيث دعم الفكرة القائلة ان المكافأة بالقطعة أفضل من المكافأة على أساس الساعة ، لأنها تشجع الانتاجية ، ويبدو شبه مستحيل أن يكون كرس نفسه آنذاك لموضوع اقتصادي بتلك الدرجة من الخصوصية . وقد تواجد زيف مرة اخرى في السجن مع برونشتاين في سان بطرسبورغ ، في عام ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ، ولا شك أنه يربط بتلك الحقبة بحثاً كتبه صديقه بعد سنوات من ذلك الحين .

التقى برونشتاين في سجن موسكو ثوريين أكبر سناً وأكثر خبرة ، جاؤوا من كل أنحاء روسيا وكانوا ، هم أيضاً ، ينتظرون نفيهم . وكانت الوجوه الجديدة تثير اندفاعاً جديداً وأفكاراً جديدة . هنالك سمع للمرة الأولى باسم لينين وقرأ مؤلفه الجدي حول **تطور الرأسمالية في روسيا** الذي صدر للتو . هنالك أيضاً أدرك التطور الذي لحق بالحركة السرية في شمالي البلاد . حتى المجادلات السياسية التي كانت تهز أوروبا الغربية كانت تجد صدى لها بين جدران السجن . وبين الكتب العديدة التي كانت تنتقل من زنزانة لأخرى كان الكتاب المشهور الذي كتبه ادوار برنشتاين بعنوان ، **وعود الاشتراكية** ، وهو المحاولة الأولى التي قام بها الاشتراكي ـ الديمقراطي الألماني رفيع المقام ليميز بوضوح الحركة العمالية ذات الطابع الاصلاحي والتطوري عن المفاهيم الثورية التي أتت بها الماركسية . وقد أحدث كتاب برنشتاين في تلك الحقبة صراعاً شديداً حقيقياً بين جناحي الاشتراكية الأوروبية ، بين الماركسيين الأورثوذكسيين والتحريفيين . إلا أنه لم يحدث تأثيراً كبيراً بين نزلاء السجن : فما كان واحد منهم مستعداً للانحراف عن طريق الثورة الى الطريق المبتذل جداً الذي قيل انه يؤدي الى الاشتراكية .

في هذا الوسط الجديد لم يفقد برونشتاين ابداً رباطة جأشه . واصل القراءة والنقاش ، وكان يكتب بلا انقطاع أبحاثاً وموضوعات نقدية . وكان لديه مشروع لتأسيس مطبعة صغيرة داخل السجن ، يتحدى بها الشرطة . إلا أن ذلك بدا كثير المجازفة بالنسبة لأصدقائه ، وكان عليه أن يكتفي بوضع مخطوطاته في التداول . منذ ذلك الحين ، كان يبدو خياله جسوراً جداً بالنسبة لرفاقه ، وتبدو ارادته تحدي السلطة متهورة للغاية . فقد أقنع رفاقه في خرسون ، ورغم المعارضة التي واجهته ، بتفجير اضراب عن الطعام للاحتجاج على عرض قدمته الشرطة بتحرير السجناء الشباب شريطة أن يؤدبهم أقاربهم تأديباً ملائماً ويحظروا عليهم التدخل في السياسة : كان ذلك « لطمة لشرف الشبيبة الثورية » . وفي مستودع موسكو بالذات ، دافع بشجاعة عن كرامة السجين . فقد صدر حكم على سجين لم يرفع قبعته بحضرة حاكم السجن بعزله عن سائر السجناء . وفي الحال نظم برونشتاين تظاهرة تضامن معه :

« تقرر في اجتماع قصير أن نخرج جميعاً وعلى رؤ وسنا قبعاتنا فنطلب من الحارس أن يقرع جرس الانذار لدعوة الحاكم . وكان علينا ، بالطبع ، ألا نرفع قبعاتنا حين يصل الحاكم ، بينما تملي علينا الظروف السلوك الذي يجب أن نتخذه فيما بعد . إلا أن الحارس رفض قرع جرس الانذار ، فتحلقنا حوله ، وأخرج برونشتاين ، الذي كان في الصف الاول ، ساعته وقال بكامل الهدوء ورباطة الجأش : « اعطيك دقيقتين لتتخذ

قرارك » . . . ثم . . . بعد أن دفع السجّان المذهول ، ضغط الزر بأبهّة . فوضعنا قبعاتنا وخرجنا الى الساحة . أما الحاكم الذي كانت تحيط به زمرة كبيرة من الحراس المسلحين فوصل وهو يعدو الى الساحة . وصاح وهو يقفز على برونشتاين المنتصب في الصف الأول ، مبدياً أمارات التحدي : « لماذا لا ترفع قبعتك ؟ » فأجاب برونشتاين باعتزاز : « وأنت ، لماذا لا ترفع قبعتك ؟ »(٢٤) .

وقد قاد بعض الحراس ، من ذوي الجثث الضخمة والمناكب العريضة ، هذا المتمرد المشاكس الى السجن الانفرادي .

وبينما كان قاسياً وحذراً تجاه السلطة ، أو تجاه العدو الطبقي ، كما كان يقول هو بالذات ، كان شهماً لا بل عاطفياً تجاه رفاقه وأقاربهم . فقد كان من حق المحكوم عليهم أن يستقبلوا عائلتهم ، مرتين في الاسبوع . خلال تلك الزيارات ، كان « برونشتاين يعبر عن حنان مؤثر ، لا تجاه صديقته وامرأته اللاحقة . . . بل كذلك حيال كل النساء القادمات لرؤية زوج أو أخ ؛ كان يدهشهن بلطفه ولياقته »(٢٥) . . وبوجه عام ، كانت النساء يحملن معهن الى البيت غيارات السجناء ، إلا أن برونشتاين رفض دائماً تلك التسهيلات . كان يغسل ثيابه بذاته ويرتقها بذاته ، ساخراً من أولئك الثوريين الراسخين في العادات والتقاليد البورجوازية بحيث يفرضون على نسائهم عملاً من هذا النوع .فبعد الزيارة ، « حين كنا نعود الى زنزاناتنا ، كان يغدق علينا علامات حنانه الفيّاض ، ويداعبنا ، ويعانقنا ويشدنا الى قلبه » . وكانت حرارة صداقته تترك ذكرى قوية الى حد أن أصدقاءه ، الذين أصبحوا خصوماً له بعد ذلك بسنوات ، كانوا يندهشون لصرامته الجازمة في الثورة والحرب الأهلية .

ولقد تزوج الكسندرا سوكولوفسكايا خلال اقامته في سجن موسكو ، في ربيع عام ١٩٠٠ أو صيفه . أقام مراسم الزواج مرشد يهودي في احدى الزنزانات ، واستعار العريس خاتم الزواج من احد حراسه . إلا أن قصة ذلك الزواج غامضة بما فيه الكفاية . ففي أحيان كثيرة كان منفيون سياسيون ينظمون زيجات وهمية ، لأن الأزواج كانوايتمتعون بامتياز النفي الى مكان واحد ويتخلصون هكذا من العزلة الكاملة . وكانت تلك الزيجات تصبح في الغالب زيجات حقيقية . إلا أننا نجهل كيف كان برونشتاين وسوكولوفسكايا ينظران الى زواجهما . ففي كتابه ، حياتي ، لا يخصص لهذا

---

(٢٤) أ . ج . زيف ، المرجع المذكور ، ص ٣٩ .

(٢٥) المرجع ذاته ، ص ٣٦ .

الزواج إلا جملة باردة ومفصولة بشكل يثير الفضول ، مما قد يدفع للاعتقاد بأنه لم يكن في الأمر غير حيلة . فهو يقول : « ان العمل المشترك قد ربطنا ، الواحد الى الآخر ، بشكل وثيق ، ولكي نتحاشى الانفصال تزوجنا . »[٢٦] . بيد أن شاهد عيان يكذّب الطابع الجاف لذلك الارتباط . وهو يفسر كيف أن العواطف الملتبسة لدى الخصمين القديمين أخلت المكان للحب ، وكيف أظهر برونشتاين في السجن ، وخلال الرحلة من موسكو الى سيبيريا ، الكثير من المودة ، وكيف كانت عواطفه تطغى عليه خلال الانتقال بحراسة عسكرية طيلة خمسة عشر يوماً ، بحيث أهمل أصدقاءه كلياً وابتعد عن النقاشات السياسية . وكل شيء يثبت ، كما يبدو ، رواية شاهد العيان هذا . فالزواج لم ينعقد ، في الواقع ، بسهولة . وكان برونشتاين بدأ يفكر فيه في سجن خرسون ، إلا أنه لم يكن بلغ السن القانونية يومذاك ، وكان بحاجة إذاً لموافقة والديه . وقد عارض والده ، فهو لا يسمح لابنه بالزواج من امرأة اكبر سناً بكثير منه ، امرأة كان برونشتاين العجوز مقتنعاً بأنها قادت ولده على طريق غير قويم . وكتب زيف : « استشاط ليوفا غضباً ، وناضل بكل قواه وبكل العناد الذي كان قادراً عليه . إلا أن العجوز لم يكن أقل عناداً ، وكان يتمتع بميزة الوجود خارج جدران السجن ، وقد ربح الجولة » . وما أن وصل ليوفا الى موسكو ، حتى عاود الهجوم ، ونجح في هذه المرة . ومن المرجح انه ما كان ليصارع بكل ذلك العنف من أجل عقد زواج وهمي .

دامت الرحلة من موسكو الى المنفى ، التي قطعتها توقفات قصيرة في سجون مختلفة ، من بداية الصيف الى نهاية الخريف . ارتحل المنفيون جميعهم بالقطار معاً حتى ايركوتسك ، وهناك تم تفريقهم في شتى الاتجاهات . أما الزوجان برونشتاين فعبرا الى لينا(*) على متن طوفيّة(**) كبيرة ، بصحبة مجموعة آتية من سكوبتسي[٢٧] ، ترتدي ثياباً بيضاء وتنشد صلوات وترقص رقصات مجنونة .

---

(٢٦) تروتسكي ، المرجع المذكور ، الجزء الأول ، ص ١٤٨ .

(*) نهر في سيبيريا (م)

(**) قارب كبير مسطح على شكل طوف (م) .

(٢٧) كانت جماعة السكوبتسي بدعة مضطَهَدة من المتعصبين الذين يخْصون أنفسهم ليعيشوا في القداسة («القديسون الخصيان ») . يعيشون في جماعات ويعملون في البستنة عادة ، يرتدون ثياباً بيضاء ويمضون لياليهم بالصلاة . وكانت البدعة تستند الى قول أشعيا : « لأنه هكذا يتكلم الله الأزلي : للخصيان الذين يحفظون السبت ، ويختارون ما يلذ لي ، ويواصلون الارتباط بي ، أقدم في بيتي وبين جدراني مكاناً واسماً مفضلين لأبناء وبنات (اشعيا ، ٥٦ ، ٤ ، ٥) . واذا صدقنا الأسطورة ، فإن العديد من القياصرة (ولا سيما ألكسندر الأول) كانوا من هذه الجماعة .

تلقى الزوجان برونشتاين الأمر بالنزول في بلدة أوست ـ كوت التي كانت نقطة انطلاق لمعمري سيبيريا الشرقية في فترة الهجوم على ذهب الـ **لينا**. في تلك الفترة ، كان الباحثون عن الذهب يمضون أبعد الى الشمال أو الى الشرق ، وكانت أوست ـ كوت مكاناً نسيه الله : تتوزع فيه أكواخ تناهز المئة ، يسكنها فلاحون ، وتتميز بالوساخة بحيث تكتسحها الحشرات وأنواع البعوض . أما السكان ، الذين مرضوا لكثرة ما خابت احلام الثروة التي راودتهم ، فكانوا يعالجون أنفسهم بجرعات الفودكا . وقد بقي الزوجان برونشتاين في أوست ـ كوت ردحاً من الزمن ، وهناك قرأ صاحبنا **رأس المال** لكارل ماركس ، « فيما يطرد الحشرات التي تتراكض على الصفحات » . ولم يمض زمن طويل حتى حصلا على الاذن بالاقامة في مكان يبعد ٢٤٠ كم الى الشرق ، حيث وجد برونشتاين عمل محاسب لدى فلاح ـ تاجر صاحب ملايين وأمي . وكانت أعمال مستخدمه تغطي قطاعاً واسعاً : كان الملك غير المتوّج لبلاد التونغوز . وقد درس برونشتاين تطور تلك المنشأة الرأسمالية الضخمة على أرض سيبيريا العذراء ، ـ استشهد فيما بعد بها كمثال لتوضيح ذلك الخليط من التخلف والتطور الرأسمالي الخاص بروسيا . ان الملاحظة السوسيولوجية ومسك الدفاتر بشكل جيد أمران لا يتفقان ، وقد أدى خطأ في الحسابات الى خسارة برونشتاين لوظيفته . هكذا كان على الزوجين برونشتاين أن يعودا الى اوست ـ كوت في عز الشتاء ، وسط طقس قارص بلغت برودته ٢٥ درجة تحت الصفر ، على ظهر زلاجة . وكان معهما ابنتهما ، طفلة في سن العشرة اشهر ملفوفة بفراء كثيفة . وحين كان يتوقف الوالدان ، كان عليهما أن يحرراها قليلاً للتأكد من أنهما لم يخنقاها بمحاولة حمايتها من البرد القاتل .

ومن أوست ـ كوت ، انتقلا الى فرخولنسك ، في منتصف الطريق الى ايركوتسك ، في الجبال التي تسيطر على بحيرة بايكال . هناك أقاما في بيت صغير وسط رخاء نسبي . وكانت فرخولنسك احدى أقدم مستعمرات سيبيريا الشرقية ، وقبل ذلك التاريخ بخمسة وثلاثين عاماً ، نفي اليها متمردون بولونيون ليقوموا بشق طرقات ـ وقد أقام فريق مهم منهم في فرخولنسك التي كانت لها علاقات بريدية ممتازة مع ايركوتسك ، المدينة الأهم في تلك المنطقة من سيبيريا . وفيها وجد برونشتاين شروطاً ممتازة لمواصلة دراساته وتطوير أفكاره ، كما ليقيم كذلك صلات مفيدة ويعرّف بنفسه بشتى الطرق . وسرعان ما علم بالنقاشات التي كانت تقسم الجاليات المنفية ولعب فيها دوراً أكثر فأكثر أهمية . وفي محاضراته ، أو نقاشاته ، أو كتاباته ، كان يدافع عن الاشتراكية ضد الفوضى ، وعن المعركة الجماهيرية ضد الارهاب ، وعن الماركسية ضد الفلسفة

الذاتية . وخلال السنوات السابقة ، كان تبنى الخطوط العريضة للفلسفة الماركسية ، وفي سيبيريا ، التحق نهائياً بتيار الأفكار الاشتراكية ـ الديمقراطية . وبدأ يتطور بالضبط اتحاد اشتراكي ـ ديمقراطي لسيبيريا ، كان يستقطب اعضاءه من بين المنفيين والعمال الذين يشتغلون في بناء الخط الحديدي الذي يعبر سيبيريا . واتصل الاتحاد ببرونشتاين ليطلب منه تحرير منشورات وبيانات . فوافق طوعاً وتوصلت المنظمة الى اعتباره قائداً لها وناطقاً باسمها . وقد مثل اتحاد سيبيريا ، بعد ذلك بعامين ، في بروكسل ولندن ، أثناء المؤتمر الحاسم الذي شهد انشقاق الحزب الى مناشفة وبلاشفة .

لقد جاء ربيع عام ١٩٠١ بواحدة من تلك الهزات المفاجئة التي كانت تطبع مد الرأي العام في الامبراطورية القيصرية وجزره ، حدثت مظاهرات جديدة في الجامعات واضرابات في المصانع ، وتم توقيف آلاف الطلاب وتجنيد عدد كبير منهم تلقائياً في الجيش ـ كانت تلك عقوبة جديدة تم اقرارها منذ عام ١٨٩٩ ـ كما جرى نفي آخرين ، في الأخير ، وألقى المجمع المقدس الحرم على ليون تولستوي ، وفي شباط / فبراير ١٩٠١ اغتال الطالب كاريوفيتش وزير التربية الوطنية بوغوليبوف ، واحتجت جمعية الكتاب ضد فظاظة الرقابة البوليسية على الحياة الجامعية ، وأدانت الاممية الاشتراكية القيصر في بيان رسمي علني . أما التجمعات السرية فكانت تستقطب فرقاً جديدة ويحمل منفيون جدد معهم هواء متجدداً الى المستعمرات السيبيرية . وبفضل المعلومات التي قدمها القادمون الجدد ، حاول برونشتاين أن يقدر قوة المعارضة المناهضة للقيصر . وتوصل الى استنتاج ان الخميرة الثورية كانت على وشك ان تتفكك ، رغم قوتها وعنفها ، لأن الحلقات السرية لم تكن تعرف كيف تستخدمها أو أن توجه عملها ضد الحكم المطلق ، فالمنظمات السرية التي كانت تتنامى كالفطر كانت تعيش منفصلة ، تستغرق كلاً منها مسائل وطموحات ذات طابع محلي ، وكان ينبغي تنظيم التنسيق بينها وبين قيادتها على الصعيد القومي . ولم يكن برونشتاين أول من عرض تلك الفكرة ، ففي الخارج ، كان ماركسيون محنكون من أمثال بليخانوف ولينين ومارتوف ، وآخرين ، يطرحون تلك الفكرة في الصحيفة التي أسسوها باسم ايسكرا (الشرارة) . إلا أن أيسكرا التي صدر أول عدد منها قبل أشهر في المانيا لم تكن وصلت بعد الى المنفيين في فرخولنسك . وقد عرض برونشتاين أفكاره في بحث تم توزيعه بشكل واسع ونوقش بحيوية في المستعمرات السيبيرية . هذا البحث الذي قل من يعرفه اليوم يحتفظ مع ذلك بفائدة سيرية : عرض فيه تروتسكي الأفكار الأساسية لتنظيم وانضباط حزبيين ، شبيهين بذينك اللذين سيصبحان فيما بعد سمة البلشفية بالذات ، واللذين سيتلقاهما هو

بانتقادات حادة وعنيفة [٢٨] .

فلقد أكد عام ١٩٠١ أن الحركة الثورية ستكون مسخاً على طريقة فرانكنشتاين اذا لم تقدها لجنة مركزية قوية تكون لها سلطة حل المنظمات أو طرد الأفراد غير المنضبطين . « سوف تقطع اللجنة المركزية كل علاقة بالـ (منظمة غير المنضبطة) وتفصل هذه المنظمة عن عالم الثورة ، وستتوقف اللجنة المركزية عن ارسال تعليماتها والوسائل الضرورية لحياة المنظمة . ترسل الى المواقع . . . ممثليها الخاصين مانحة اياهم الموارد الضرورية ، كما أن اللجنة المركزية ستقرر أن هذه الهيئة المنتدبة تشكل اللجنة المحلية » . ويمكن أن نقول انه كانت تكمن في هذا التصور بذور التطهيرات وعمليات الطرد والتحريم التي انتهت بطرده ، هو بالذات ، « من عالم الثورة » . صحيح مع ذلك أنه لم يعد بوسع الحركة الثورية في روسيا في تلك الحقبة أن تواصل تقدمها دون عملية دمج ودون انضباط على المستوى القومي ، وأن تك القيادة القومية اضطرت في بعض الاحيان لأن تفرض انضباطها بالقوة على تجمعات متمردة[٢٩] . وحين صاغ برونشتاين وجهة النظر تلك ، للمرة الأولى ، ووجه بالاتهامات ذاتها التي وجهها هو ذاته فيما بعد للينين ، وقد أكد بعض المنفيين أن أطروحات برونشتاين كانت تكشف انتكاساً من الموقف الماركسي الى اخطاء النارودنية ، وأن الاشتراكيين ـ الديمقراطيين يضعون آمالهم في جمهور الشغيلة لا في حفنة من القادة ، وأنهم ليسوا بحاجة ، بالتالي ، لمنح اللجنة المركزية سلطات ديكتاتورية ، لا بد منها داخل مجموعة صغيرة من المتآمرين . ونحن لن نذهب الآن الى أبعد في هذا الجدال الذي سيصبح في طور أكثر تقدماً واحداً من الموضوعات المسيطرة في هذا الكتاب ، إلا أنه تهم الاشارة الى أن أول تعبير عنه يعود الى عام ١٩٠١ .

إلا أن هذه النشاطات ليست معروفة لدينا بقدر أعمال برونشتاين الأدبية خلال سنوات نفيه في سيبيريا ، فبعد وصوله بوقت قصير بدأ يكتب لـ **فوستوكنويي أوبوزريني** (المجلة الشرقية) ، وكانت صحيفة تقدمية تصدر في ايركوتسك . وكان يوقّع كتاباته باسم آنتيد أوتو ، وهو اسم (استعاره من الكلمة الايطالية آنتيدوتو) يتناسب تماماً مع

---

(٢٨) راجع فوتوروي سيبزد .R.S.D.R.P (اونشيت سيبير سكوي ديليفاتسيسي) ص ،٣٢ . وقد استشهد عام ١٩٠٣ بهذا البحث المكتوب في سيبيريا ، كملحق لتقريره الى الاتحاد السيبيري حول المؤتمر الثاني للحزب ، ـ وهو تقرير كان يحاول أن يفسر فيه لماذا اصطف الى جانب المناشفة ضد البلاشفة ، رغم الأفكار التي دعمها في سيبيريا ، فالاتحاد السيبيري كان شبيهاً في البدء باتحاد روسيا الجنوبية ، من حيث أنه ذو طابع اقتصادي صرف ، ولم يعترف بأونوية السياسة الثورية على الاقتصاد الا عام ١٩٠٢ ، وانضم بذلك الى الايسكرا تحت تأثير برونشتاين . ولقد اصطف فيها بعد الى جانب المناشفة .

(٢٩) ل . مارتوف ، ايستارياروس ، سوتسيال ـ ديموكراتيي ، ص ٦٢ ـ ٧٢ .

روح المعارضة التي كانت تلهم كل كتاباته . وتحت اسم آنتيد أوتو ، غدا شهيراً جداً في المستعمرات السيبيرية ، وبواسطة المنفيين الذين كانوا يعودون الى روسيا ، توسعت شهرته الى الحلقات الثورية في بطرسبورغ وكييف ، لا بل الى المنفيين في أوروبا الغربية(٣٠) . إن كتاباته التي تم جمعها في الأعمال الكاملة (الجزآن الرابع والعشرون) هي في النهاية من قبيل الأدب والكتابة الصحفية ، ـ مع أنه ينبغي تصنيفها في خانة الأدب بالتأكيد اذا قارناها بالكتابة الصحفية ضيقة النفس في أواسط القرن العشرين . لقد كتب تحقيقات اجتماعية ونقداً ادبياً . أما الأولى فكانت بوجه خاص دراسات حول حياة الفلاحين في سيبيريا ، كتبت بأسلوب مرن ووصفي يداخله أحياناً هجاء صارم . وقد تأثر كثيراً في تلك الكتابات بغليب أوسينسكي ، النارودني المأساوي والموهوب ، الذي وصف وصفاً واقعياً ، وان كان يشوبه حزن عميق ، حياة الفلاحين والحرفيين وصغار الموظفين ، معرّياً جروح الأمبراطورية القيصرية وبؤسها ؛ قدم هكذا أوراق نبالته لـ « أدب الشهادات » .

« مر ربع قرن تقريباً على ملاحظة الكاتب العجوز للمسرح ، وقد آن الاوان لنرى الى أي حد تغير الريف والمدن الروسية منذ تلك الحقبة » . بعد هذا التذكير ، كان آنتيد أوتو يسير على خطى أوسينسكي يتناول الشخصيات ذاتها ، من فلاحين وصغار موظفين ، من مهانين ومساءاليهم، كان يتناولهم بالتعاطف ذاته والشفقة ذاتها ـ إلا أن استنكاره كان أعنف وأشد مرارة. ولما كانت مقالاته خاضعةللرقابة، فهو لم يكن يهاجم الحكم بشكل مكشوف ، إلا أن هذا الاكراه كان يجعل غضبه وسخريته المكظومين اكثر فعالية . أما أسلوبه ، السهل والسريع رغم بعض التكلف ـ كان مهذاراً في الغالب ، مفخماً أحياناً ومدروساً بشكل جيد ـ فكان ملوّناً ومعبراً ؛ الملاحظة غنية ونفّاذة ، تتخذ شكل صور ومفارقات غير متوقعة تعوّض ما في ذلك الأسلوب من متصنع . فقد كتب في دراسة حول الشروط الصحية الرديئة في الريف السيبيري ومصير الطبيب في الريف : « يكتسح قريتنا الكولاك ، من الناحية الاقتصادية ، والسفلس وكل أنواع الأوبئة ، من الناحية الصحية ، وهي تعيش على الصعيد الروحي وسط ظلمات كثيفة . . . » . « تموت قريتنا من المرض في صمت متأمل » . كان المرضى العقليون موضوعين تحت المراقبة في السجون : فلسبب قلة المستشفيات ، كان المسؤولون المحليون عن الخدمة الصحية يستخدمون السجون كـ « جناح للطب النفسي » . وهاكم مثالاً على ذلك :

(٣٠) عرف الكاتب شخصياً منفيين قدامى كانوا ما يزالون يستشهدون في العشرينات والثلاثينات بتروتسكي في أحاديثهم باسم آنتيد أوتو ويتساءلون مثلاً : « ماذا يقول آنتيد أوتو عن الوضع ؟ » .

كان مريضان لا ملجأ لهما ، ومتمرد عجوز ودركي متقدم في السن يتقاسمون الزنزانة ذاتها في السجن ـ الدركي العجوز ، بالضبط ، الذي خفر الثوريَّ في الماضي الى منفاه . أما الأطباء فكانوا مقطوعين عن سائر العالم ، عاجزين ومحبطين . وربما كان في وسع محاضرات منطقية للجهاز الطبي أن تخرجهم من بلادتهم(٣١) . وفي مرة أخرى ، طالب لسيبيريا بحكومة محلية ، وقد كتب : « يمكن للزمستفوات (جمعيات ريفية) في روسيا الأوروبية أن تبدي ، على الأقل ، رأيها حول المسائل ذات المنفعة المحلية ، إلا أن الادارة في شرقي الأورال تستشف عصياناً في كل زمستفو . وحتى لو كان موجوداً ، هنا وهناك ، جنين حكومة محلية ، فالفلاحون ما كانوا ليظهروا فيها إلا كـ « رموز صامتة » . فطبقة النبلاء كانت تعين ممثلاً لها مقابل دخل مقداره ٣٠٠٠ روبل ، بينما كان الفلاحون يرسلون ممثلاً مقابل ٤٣٠٠٠ روبل بمثابة دخل » .

لقد أوضح الطبيعة المغلوطة تاريخياً الخاصة بالادارة عن طريق رسم شخصية مستخدم في **فولوست سيبيري** (منطقة ادارية تضم عدة قرى) . كان المستخدم ينوء تحت ثقل عدد لا يحصى من الأعباء المختلفة : كان يعمل في موقعه باسم وزارة الداخلية ، وكان مسؤولاً عن التجنيد أمام وزارة الحربية ، وكان يجمع الضرائب لوزارة المال ، ويتولى أمور الاحصاء لحساب وزارة الزراعة ، كما كان الممثل المحلي لوزارة العدل ووزارة التربية الوطنية والعبادة ، ولم تكن تتركه وشأنه الا وزارة البحرية ووزارة الشؤون الخارجية ، إلا أنه حتى ذلك لم يكن اكيداً . كان يجتمع في شخص واحد الجابي والاحصائي والخبير الزراعي ومهندس الطرق والجسور ، والمهندس المعماري ، والكاتب العدل ، والقاضي ؛ ان مستخدم الادارة هذا لم يكن يتقاضى حتى اجرته بشكل منتظم ، فما تكون النتيجة والحالة هذه ؟ .

« إن الاحصائيات نصف الخيالية التي يقدمها الى رؤسائه تتمثلها المستويات العليا ، وتشكل هكذا قاعدة للعديد من التقارير أو التحقيقات التي تقدم ، بدورها ، موضوع نقاش حماسي للقادة المسؤولين عن الرأي(٣٢) » وقد خصص برونشتاين ايضاً سلسلة من المقالات « لاستشهاد النساء » : فالموجيك كان يضرب امرأته بوحشية ، وهو ما كان يفعله التاجر السيبيري الغني .

بعد مرور نصف قرن ، لا تزال تحتفظ هذه الأبحاث بقيمة وثائقية ، ويمكن تصور

(٣١) ل . تروتسكي ، سوشينيا ، الجزء الرابع ، ص ١٧ ـ ٤٢ .
(٣٢) ل . تروتسكي ، سوشينيا ، الجزء الرابع ، ص ٣ ـ ٧ .

التأثير الذي أحدثته في فترة صدورها . فالمراقب كان ينكب عليها بحذر متنامٍ ويقتطع في أغلب الاحيان مقطعاً أو فقرة كاملة ، وقد كان على الكاتب أن يلجأ باستمرار لحيل جديدة للافلات من مقصه ، ويستخدم ايحاءات أو تلميحات للوصول الى أهدافه . وحين كان يعجز عن القبض على الحقيقة من دون قفازات ، كان يلجأ وهو يعتذر ، الى ما يشبه القصة الخيالية .

وغالباً ما وجد كتّاب المعارضة في النقد الادبي ملجأ ضد هجمات الرقابة . تلك كانت حال برونشتاين ، إلا أن النقد الادبي كان بالنسبة اليه أكثر بكثير من ذريعة ملائمة للتعبير عن أفكاره السياسية ، فلقد كان ناقداً أدبياً موهوباً . حتى محاولاته الأولى لفهم الأدب من الزاوية الماركسية لم تنطبع بتلك النفعية السياسية الضيقة التي يجعل منها النقد الماركسي المزعوم فضيلته الرئيسية في الغالب . كان نقده تحليلياً اكثر مما كان تعليمياً ، وبما أنه ينطوي على تقويم حي للقيم الجمالية فقد كان يعتني بالمتعة التي تقدمها تلك القيم . ولقد كان برونشتاين قارئاً نهماً ، فخلال السنتين اللتين قضاهما في سيبيريا كتب عن نيتشه ، وزولا ، وهوبتمان ، وايبسن ، ودانونزيو ، وروسكين ، وموباسان ، وغوغول ، وهرزن ، وبيلنسكي ، ودوبروليوبوف ، وأوسينسكي وغوركي وكثيرين غيرهم ، وكانت سعة تلميحاته التاريخية وتذكراته الأدبية فسيحة للغاية ، حتى انه كان ينبغي دحض بعضها مما يمكن اعتباره تفاخراً صبيانياً الى حد ما بغزارة المعارف . كان يهتم قبل كل شيء - كما من واجب كل ماركسي - بتأثير المجتمع في العمل الأدبي ، وبالمناخ الأخلاقي والسياسي الذي يعطي عنه الروائي أو الشاعر تعبيراً شخصياً ، وبالتأثير الذي يمارسه العمل بدوره على ذلك المناخ .

لكن لم يكن في أبحاثه أي أثر لتلك الماركسية المبتذلة التي تدعي اكتشاف مصلحة اقتصادية أو سياسية طبقية ، تختفي وراء أي قصيدة أو مسرحية أو رواية . كان متحرراً بشكل استثنائي (وهذا استثنائي حقاً لدى رجل في سن تتراوح بين العشرين والاثنين والعشرين) من كل موقف عصبوي كان بامكانه أن يقود ثورياً لفضح كل القيم الروحية التي لا تتفق مع مفاهيمه الشخصية ولا تعود عليه ، بالتالي ، بأية منفعة . ان موقفاً كهذا لدى ماركسي شاب هو في العموم علامة تردد داخلي : لم يتمثل حقا الفلسفة المكتشفة حديثاً ؛ المبادىء التي يجاهر بها هي الى هذا الحد أو ذاك من خارج نمطه في التفكير ؛ وهو مادي - تاريخي بالواجب اكثر مما نتيجة قناعة شخصية . وكلما ازداد عنفه في فضح ما يبدو له معاكساً لفلسفته غير المتمثّلة جيداً كلما ازداد رضى حس الواجب لديه وازداد شعوره براحة الضمير . أما الشاب برونشتاين فكانت الحرية تعني بالنسبة اليه اذاً

انه يثق بها بصورة كافية ليشعر بأنه متحرر تماماً من كل عصبوية ، فهو لم يكن يخاف من السخاء بامتداح كاتب أفكاره بعيدة جداً عن مذاهب الاشتراكية أو معاكسة لها بشكل مباشر . وهو لم يكن يتصرف على هذا المنوال انطلاقاً من الأمانة المجردة بل لأنه كان يؤمن بأن « رأس المال الروحي للانسان عظيم للغاية ووفير جداً في تنوعه » ، بحيث أن « من يستند الى الأسلاف العظام هو وحده » الذي يتمكن من التحدث بلغة جديدة وغنية . كان هذا الكاتب الذي لم يتجاوز الواحد والعشرين عاماً يصر على واقع أن من واجب الاشتراكية الثورية ان تتقبل التراث الثقافي العظيم لا أن ترفضه ـ وهو لم يكن يستبعد إلا الفهم المحافظ والتقليدي للتراث . لم يكن يخشى اكتشاف انه بامكان المنظورات الاشتراكية وغير الاشتراكية ان تتساوق أو تتطابق ، أو التسليم بأن ثمة نواة أو قسطاً من الحقيقة في ايديولوجية ينبذها بمجملها(٣٣) .

ان اول بحث أدبي كتبه ، وكان عرضاً سيرياً بمناسبة وفاة نيتشه ، ظهر على حلقات في المجلة الشرقية ، خلال كانون الاول / ديسمبر ١٩٠٠ ، بعد شهر أو شهرين من وصوله الى سيبيريا . ما كان في وسعه اختيار موضوع اكثر ارباكاً من مؤلفات نيتشه الذي كان ذائعاً حقده على الاشتراكية ، وكان تقديسه للانسان الأمثل (السوبرمان) يتعارض مع الفكر الاشتراكي . لقد بدأ برونشتاين مقاله معتذراً بسبب الانتقادات التي ينطوي عليها ؛ « علينا أن نكون منزهين عن الهوى في نظرتنا الى شخصية خصومنا ، وعلينا أيضاً . . . أن نحيي جسارتهم ومزاياهم الشخصية الأخرى . إلا أن الخصم ، أكان صادقاً أو غير صادق ، حياً أو ميتاً ، يبقى خصماً ، لا سيما اذا كان كاتباً يخلد في أعماله . . . » وقد بيّن كيف تطورت فكرة الانسان الأمثل انطلاقاً من الاخلاق البورجوازية الرائجة وكيف كانت تعارضها . ولقد أكد أن نيتشه عمّم ازدراء الجماهير المترسخ عميقاً في الفكر البورجوازي ومضى به الى نتيجته المنطقية الاخيرة ، أو بالأحرى غير المنطقية . ولكي يدعم الناقد هذا التأكيد بيّن كيف ان الكثير من افكار نيتشه استتبعتها افكار هربرت سبنسر ، الفيلسوف وعالم الاجتماع الممثل للبورجوازية الفيكتورية ، أو عبرت عنها بشكل مكشوف . كان بين مفهوم الانسان الأمثل والاخلاق البورجوازية التعارض ذاته القائم بين المغالاة والقاعدة . فالانسان الأمثل اللاأخلاقي

---

(٣٣) اختتم هكذا بحثاً حول غوغل : « مؤسس الرواية الروسية » : « اذا كان غوغول حاول التقليص من الأهمية الاجتماعية الخاصة بكتاباته . . . فلنمتنع عن القسوة عليه من جراء ذلك . فاذا كان حاول في اعماله الصحفية ان يجلب النفوس المنحطة ـ فلنغفر له ذلك ! فلأجل مزاياه العظيمة ، مزاياه الفنية التي لا تنضب ، لأجل النبل الانساني في عمله الخلاق ـ فليكن مجده خالداً لا ينضب ! » سوشينيا ، الجزء العشرون ، ص ٢٠ .

كان يدافع مع البورجوازية الفاضلة عن العلاقة ذاتها التي دافع عنها روبريتر (الفارس النهّاب) في العصر الوسيط الذي كان شعاره :

Rauben ist keine Schaude, dastuhndie Besten im Lande

أو : (ليس النهب عاراً ، فأفضل الناس في البلد يفعلون ذلك) ، مع السيد الاقطاعي . كان مثل نيتشه الاعلى البورجوازي الجشع المتحرر من كل كبت ، ومن كل نفاق . ورغم كل شيء ، لم يكن في وسع الاشتراكيين إلا أن يعجبوا بالفرادة الباهرة التي برهن بها نيتشه عن سرعة عطب الأخلاق العملية الرائجة لدى البورجوازية(٣٤) .

وقد توصل برونشتاين للاستنتاج ذاته في دراسة عن ايبسن ، الذي كان يرى فيه الفنان الخالد بمواجهة الاخلاقي المزيف(٣٥) . « ان مؤرخ الفكر الاجتماعي في أوروبا لن ينسى أبداً الصفعات الرائعة التي وجهها ايبسن للوجه المغسول جيداً ، والمصقول تماماً والمشع من الرضى ، الخاص بالبورجوازي غير المستنير » . ففي **عدو للشعب** ، مثلاً ، أظهر ايبسن كيف أن في وسع ديمقراطية بورجوازية ، من دون أن تستعمل العنف وبمهارة لبقة ، أن تعزل هرطوقياً وتدمره (« بالفعالية ذاتها التي لنفيه الى سيبيريا ») . الا انه لم يكن بامكان الاشتراكيين ان يؤيدوا موقف بطل ايبسن الشبيه جداً بموقف الانسان الأمثل ، موقف الحذر تجاه الشعب واحتقار حكومة الأغلبية . فالشعب ، أو الاغلبية ، ليس مصدر كل حكمة (والاشتراكيون يسلمون بذلك) : « اذا كانت « الجماهير » مدعوة لاعطاء رأيها في حسنات نظرية علمية أو نظام فلسفي . . . يكون ايبسن على حق مبين . . . ونظرية داروين حول مشكلات البيولوجيا اهم مئة مرة من الرأي الجماعي الذي يعبر عنه لقاء يضم مئة ألف شخص » . (لم يكن المؤلف يتخيل منظراً شائعاً في بلاده بالذات ، بعد خمسين عاماً من ذلك التاريخ ، حيث تتهم لقاءات جماهيرية علماء احياء أو لغويين بأنهم « خونة » .) « لكن حين يتم الدخول الى ميدان السياسة الاجتماعية العملية حيث تتصادم مصالح متعارضة الى حد بعيد ، تصبح المشكلة مختلفة تماماً . . . في مثل تلك الحالة ، يكون لاخضاع الاقلية للأكثرية قيمة اسمى بكثير ، اذا كان ذلك يتناسب مع توازن القوى الاجتماعية الحقيقي ولم يكن نتيجة مؤقتة ناجمة عن حيلة من الحيل » . لقد كان حذر ايبسن من « الشعب » يعبر مع ذلك عن تعارض الفنان مع المجتمع البورجوازي ، تعارض كان على الماركسيين أن ينظروا

---

(٣٤) ل . تروتسكي ، سوشينيا ، الجزء العشرون ، ص ١٤٧ - ١٦٢ .

(٣٥) المرجع ذاته ، ، ص ١٨١ - ٩٥ .

اليه بتفهم وعطف ، مع أنهم تمردوا على ذلك المجتمع بشكل مغاير وانطلاقاً من مسلمات مخالفة .

كماركسي ، كان برونشتاين يرفض ادعاءات الفن للفن . « فهو كطائرة من ورق يمكن ان يرتفع الى علو تبدو كل الأمور الأرضية معه غارقة في رتابة لا مبالية . إلا أنه حتى حين يبلغ هذا الفن البائس «الحر» الغيوم ، يبقى مربوطاً بحبل صلب يمسك الجهلة ، الواقفون على الأرض ، طرفه بحزم »[٣٦] . وقد كتب في مرة أخرى : « ان الأدب ، اذا لم يتميز بقدرة كبيرة على التحليل ، يكون علامة ملل اجتماعي ويطبع فترات الانتقال[٣٧] » . لقد اصدر اذاً حكماً نقدياً على الحركة الرمزية الرائجة آنذاك ، إلا انه لم يدافع بالمقابل عن الواقعية الضيقة . على العكس من ذلك ، فهو يقول : « ان الخلق الفني ، اكان واقعياً او لم يكن ، كان دوماً رمزياً وسيبقى كذلك . . . فهدف الفن . . . ليس نسخ الواقع في كل تفاصيله ، بل تسليط الضوء على تعقيد الحياة عن طريق عزل ملامحها المميزة العامة . . . وبصورة عامة ، كل نموذج فني هو رمز ، دون الكلام على شخصيات رمزية للغاية ، من امثال مفيستو ، وفوست ، وهاملت ، واوتيللو ، الذين يجسدون على صعيد الفن « لحظات » محددة من النفس الانسانية . . . » لكن المدرسة الرمزية ـ حسبما يؤكد برونشتاين ـ ، بمحاولتها رفع الوسائل الى مرتبة الهدف لذاته ، حقّرت الرمز الذي توقف عن ان يكون تعبيراً اكثر حدة عن التجربة البشرية ليصبح وسيلة فقط للهرب من تلك التجربة .

وكان اهتمامه بالآداب الاوروبية بحيوية رد فعله ضد الذاتية القومية الخاصة بروسيا الرسمية وبعض النارودنيين . وقد سخر من محبي السلافية الذين كانوا يفتخرون بأنه ليس لديهم ما يتعلمونه من الغرب ويعلنون بأن كل الاكتشافات والاختراعات الكبرى روسية ـ « يمكن للأرض الروسية أن تنتج أفلاطونيها الخاصين بها ونيوتنيهاذوي الذهن السريع[٣٨] » . هذه « النزعة الغربية » التي كان يشترك فيها آنذاك كل الماركسيين والليبراليين ، لم تكن تستتبع اطلاقاً رفض الارث الروحي العظيم لروسيا القرن التاسع عشر ، إن تراث روسيا الأدبي العظيم لم يكن يعود الى عهد أبعد بكثير ، ومعظم المفكرين والكتّاب الروس كانوا متمردين وكانت مؤلفاتهم تخلي مكاناً واسعاً للمثقف

(٣٦) راجع الدراسة عن هوبتمان ، المرجع ذاته ، ص ١٧٠ ـ ٨١ .

(٣٧) الدراسة حول بالمون ، المرجع ذاته ، ص ١٦٧ ـ ٧٠ .

(٣٨) ل . تروتسكي ، سوشينيا ، الجزء العشرون ، ص ١٦٦ ـ ١٨ ، راجع المقال الهجائي ، « داروين الروسي » ، المنشور في تشرين الاول / نوفمبر .

الثوري . وتأثير أدب التمرد هذا هو الذي ساعد برونشتاين على قطع صلاته بطفولة ومراهقة لم تقدما له تجربة جديدة بأن تصنع منه ثورياً . ونحن نعرف أنه تأثر تأثراً عميقاً بغليب اوسبنسكي . وحين مات أوسبنسكي مجنوناً ، عام ١٩٠٢ ، أورد برونشتاين ملاحظته التي ترى أنه ليس من رابط واحد تقريباً بين حياته كرجل راشد ومتمرد وطفولته أو مراهقته ؛ وقد أيد تلك الملاحظة ، مما يعتبر معبراً للغاية . واضاف اوسبنسكي انه كان عليه ان « ينسى ماضيه » ليعثر على شخصيته الجديدة . هذا الواقع ينطبق اكثر على مؤلف سيرته بعد موته. فقد كتب : « أدرك اوسبنسكي الحياة كما هي ، بوعي رهيب ومدمر لذاته ، وأفنى نفسه باحثاً عن الحياة كما يجب ان تكون . كان يفتش عن الحقيقة ووجد الكذب ، كان يسعى وراء الجمال وعثر على البشاعة ، كان يبحث عن العقل وقد اكتشف الغباوة والجهل »[٣٩] .

ومن بين المعلمين الآخرين للتمرد الأدبي ، كان يعجبه بيلنسكي ودوبروليوبوف ، وهرزن بدرجة أقل : كان يعجبه لديهم تماثلهم مع المضطهدين ، ولا مبالاتهم بالنجاح المادي ، ورفضهم لكل تفاهة ، والشهامة المنزهة التي كانوا يبحثون بها عن الحقيقة . لقد ارتفع اوسبنسكي النارودني فوق مسبقات النارودنيين وأوهامهم : « كوجه متوحد ، شهيد لفكره الجسور ، ينظر بنفاذ أليم ، من فوق رؤوس معاصريه ورفاقه . . . الى صورة المستقبل » . وكان بيلنسكي « جد الأدب الروسي الحديث » ، يؤكد انه لا شيء مما ينجح فور ظهوره ، ويتلقى مدائح من الجميع ، يمكن ان يكون عظيماً أو مهماً : لا يكون عظيماً ومفعماً بالدلالة إلا ما يقسم الآراء . . . ما ينضج وينمو عبر معركة حقيقية ، ما يؤكد ذاته . . . في وجه مقاومة الحياة » . كان الناقد يقدر لدى دوبريوليوبوف الحساسية القصوى ازاء كل علامة مزيفة ، ورفضه للافكار المبتذلة ، حتى حين تكون غير مؤذية ، وما كان شيء يزعج دوبروليوبوف ، اكثر من اضطراره للاصغاء الى واحد يثبت ، عن قناعة ، قساوة أكل لحوم البشر أو منفعة التعليم . ويخلص برونشتاين الى القول ان نقد دوبروليوبوف ذو راهنية حادة ، ويبقى كذلك « طالما أصر الناس على القتال ببطولة من اجل اشياء تافهة . . . . وطالما اعتبروا التبشير بأصول ليبرالية سهلة مزية وجدارة »[٤٠] .

هذه النظرة المقتضبة الى برونشتاين ناقداً أدبياً ، وهي نظرة مختصرة جداً ، ربما

---

(٣٩) كتب برونشتاين دراستين سيريتين عن اوسبنسكي ، احداهما للمجلة الشرقية والأخرى للمجلة العلمية (نوشنويي اوبوزريني) ، سوشينينيا ، الجزء العشرون ، ص ٣٣ - ٤٠ و ٤١ - ٦٧ .

(٤٠) المرجع ذاته ، ص ١٢ ، ٢٩ - ٣٢ .

اعطت انطباعاً مغالى به قليلاً عن نضج كتاباته . فقد كان اسلوبه ، المصطنع جداً ، والنظري جداً ، والمتحذلق للغاية ، لا يزال اسلوب مراهق ؛ إلا أن الأحكام التي يطلقها كانت اجمالاً احكام رجل . وهذه الدراسات تهم كاتب السيرة بقدر ما يجد فيها تحليلات وصوراً للكاتب بقلمه . إلا أن برونشتاين الشاب لخص بشكل اكثر مباشرة نظراته الشخصية في دعائه للقرن العشرين (المكتوب في بداية عام ١٩٠١ ، بعنوان « حول التفاؤ ل والتشاؤ م ، وعن القرن العشرين وأشياء اخرى كثيرة »)[٤١] . وقد حلل فيه مختلف انواع التفاؤ ل والتشاؤ م وأكد تفضيله لرؤ ية متشائمة للحاضر ، لكن متفائلة بالمستقبل ؛ فبرونشتاين يرى أن الرجل الذي يشاطره وجهة النظر هذه يفتح للفكر الانساني آفاقاً جديدة ويصنع التاريخ . ففي اكثر من مرة ، كان على هذا التفاؤ ل من نموذج خاص أن يتحدى محاكم التفتيش . « في أكثر من مرة ، كرس له التوركيمادا(*) الجماعي انتباهاً خاصاً جداً » . الا انه ، هو المتفائل ، ينبعث من الرماد . و « بإيمان وحماس وحمية نضالية متساوية ، يقرع بحزم باب التاريخ » . يلتقي في طريقه الجاهل الذي يستمد قوته من العدد الكبير ومن سوقية مطلقة : « هو مسلح حتى اسنانه بتجربة لا تتخطى الصّرافة او المكتب او المخدع الزوجي » . على تفاهة الجاهل وروحه المحافظة الواقعية المزيفة (« لا شيء جديد تحت الشمس ») يرد المتفائل الملتفت الى المستقبل :

Dum Spiro Spero ! . . . لو كنت جرماً سماوياً ، لكنت تأملت بتجرد كامل هذه الكتلة من الرماد والوحل . . . كنت تألقت على الخير وعلى الشر بالتساوي . . . إلا أني انسان . بالنسبة اليك ، أيها الملتهم البارد للعلم ، بالنسبة اليك ، يا حامل كتب الأبدية ، ليس تاريخ العالم غير لحظة مهملة في مر الزمان ؛ بالنسبة لي ، هو كل شيء . طالما أتنفس ، سأناضل من اجل المستقبل ، هذا المستقبل المشرق حيث الانسان القوي والجميل يغدو سيداً لمجرى حياته الخطر ويوجهه نحو الآفاق اللامتناهية ، آفاق الجمال والفرح والغبطة ! ! . . .

لقد خيّب القرن التاسع عشر آمال المتفائل أكثر مما أرضاها . . . أجبره على أن ينقل معظم آماله الى القرن العشرين . في كل مرة كان المتفائل حيال واقع فظ كان يصيح : ماذا ، أيمكن لهذا أن يحدث على مشارف القرن العشرين ! وحين كان يرسم

---

(٤١) المرجع ذاته ، ص ٧٤ - ٧٩ .

(*) التوركيمادا نسبة الى المفتش العام الاسباني توماس دي توركيمادا المسؤ ول عن محاكم التفتيش في كل شبه الجزيرة الايبرية ، والذي عرف كذلك بعدائه لليهود ودعوته لطردهم . ولد عام ١٤٢٠ وتوفي عام ١٤٩٨ (م) .

لوحات عجيبة لمستقبل متناغم ، كان يحدد لها موقعاً في القرن العشرين .

والآن ، ها قد بدأ هذا القرن ! فماذا حمل مع استهلاله ؟ .

في فرنسا ـ الزبد المسموم للحقد العرقي ؛ في النمسا ـ الصراعات القومية ؛ في افريقيا الجنوبية ـ احتضار شعب صغير يغتاله عملاق ؛ وفي الجزيرة « الحرة » بالذات ، الأناشيد لمجد الجشع الظافر لدى اصحاب المصارف الشوفينيين ؛ تعقيدات « درامية » في الشرق ؛ تمرد الجماهير الجائعة في ايطاليا ، وبلغاريا ، ورومانيا . . . الحقد والقتل والمجاعة والدم . . . كل شيء يتم كما لو كان القرن الجديد ، هذا القادم الجديد العظيم ، حاول منذ ظهوره أن يلقي المتفائل في تشاؤم مطلق وفي نيرفانا مدنية .

ـ الموت للطوبى ! الموت للايمان ! الموت للحب ! الموت للأمل ! هكذا يرعد القرن العشرون وسط فرقعة الحرائق ودوي المدافع .

ـ استسلم ، أيها الحالم المثير للرثاء ، ها أنذا ، قرنك العشرون الذي طال انتظارك اياه ، « مستقبلك » .

ـ كلا ، يجيب المتفائل غير المنهزم ، أنت ، لست سوى الحاضر » .

* * *

بعد أربع سنوات ونصف من السجن والنفي ، كان برونشتاين يتطلع الى حقل عمل أوسع من المستعمرات السيبيرية . وخلال صيف ١٩٠٢ حمل اليه البريد السري نسخة من **ما العمل** ؟ للينين ومجموعة الايسكرا . وقد قرأهما تخامره عواطف مختلطة ، اذ وجد فيهما افكاراً حول بنية الحزب وطابعه ، افكاراً كانت نضجت في داخله ، لكن عبر عنها كتاب مهاجرون لامعون بثقة قصوى . وأن يكون توصل لوحده ، في خلوته ، الى الاستنتاجات ذاتها كان يشجعه ويؤكد ثقته بذاته ، لكنه كان نافد الصبر : ما كان في وسعه أن يتحمل بعد الآن رؤية الشوارع الضيقة والموحلة وسيئة التبليط في فرخولنسك . حتى النقاشات داخل جاليات المنفيين ونجاحاته الادبية في **المجلة الشرقية** كانت تملؤه بالضجر . فلو كان يستطيع الذهاب الى موسكو أو بطرسبورغ . . . ومن هناك ، ربما الى جنيف ، أو ميونيخ أو لندن ، حيث تنصهر الاسلحة الفكرية الخاصة بالثورة . . .

وكانت امرأته تشاطره نفاد صبره وطموحه الخفي . لم تكن الكسندرا تشك في أنه ينتظر زوجها قدر عظيم ، وأن الساعة أزفت في سن الثالثة والعشرين لصنع شيء يضمن خلوده . وكانت تحثه على محاولة الهرب من سيبيريا ، قابلة بذل تضحية قاسية ، فهي

أنجبت ابنتهما الثانية وكان عليها أن تناضل مذاك لأجل نفسها ولأجل طفلتيها دون عون ، ودون أي يقين بإعادة جمع الشمل . في نظرها لم تكن تقوم إلا بواجبها كزوج وكثورية ؛ وكانت قابلة بهذا الواجب دون ادنى قدر من الميلودراما .

في ليلة صيف من عام ١٩٠٢ ، كان برونشتاين ، المختفي تحت حمولة من الشعير في عربة أحد الفلاحين ، يشق طريقه نحو ايركوتسك عبر حقول سيبيريا الهزّازة . تمدد في مكانه تمثال لعرض الملابس ، في سريره بهُري فرخولنسك . وفي المساء مضى مفتش شرطة كعادته ليتأكد من أن الزوجين برونشتاين لم يبرحا المكان المخصص لهما : تسلق السلم حتى الهري ، والقى نظره على السرير ، فشعر بالرضى اذ وجد كل شيء في مكانه ، وعاد من حيث أتى . في غضون ذلك ، كان الهارب ، الذي قدم له بعض الاصدقاء ثياباً جديدة ولائقة في ايركوتسك ، يأخذ مقعده في القطار الذي يعبر سيبيريا .

وقبل رحيله من ايركوستك ، قدم له رفاقه جواز سفر مزوراً . كان عليه أن يسجل عليه الاسم الذي اختاره ، وقد كتب سريعاً اسم أحد سجانيه القدامى في سجن اوذيسّا . وخلال ذلك الفرار الخطر ، هل كان ذلك التماثل مع السجان القديم يرضي لدى الهارب حاجة غير واعية الى الأمن ؟ ربما ، إلا أن أسم السجان الغامض سوف يكتب بأحرف كبرى في تاريخ الثورة : كان ذلك اسم تروتسكي[٤٢] .

مرت الرحلة الى الغرب في هدوء غير متوقع ، وكان الراكب يقتل الوقت بقراءة اشعار هوميروس في ترجمة روسية . وقد توقف في سمارا على الفولغا ، حيث أقامت هيئة تحرير الايسكرا الخاصة بروسيا . وهناك استقبله بحفاوة كرجيجا نوفسكي ـ كلير ، وكان مهندساً لامعاً ، صديق لينين ومدير الغوسبلان (لجنة التخطيط القومي) السوفياتية ، فيما بعد . وكانت شهرة برونشتاين الأدبية قد سبقته : اطلق كرجيجا نوفسكي ـ كلير عليه اسم بييرو (الريشة) وأرسل الى هيئة الايسكرا في لندن تقريراً حاراً للغاية عن موهبته وعمله . وقد تم ارسال برونشتاين فوراً الى خارتوف فبولتافا فكييف حيث كان عليه أن يتصل بحلقات اشتراكية . فاكتشف ان معظم تلك المجموعات بقيت على وطنيتها المحلية وكانت ترفض التعاون فيما بينها أو الخضوع لسلطة مركزية . وعاد الى سمارا ومعه تقرير عن الوضع . فوجد هناك رسالة تعلمه بأن لينين ينتظره : كان على الريشة أن يمضي في أسرع وقت ممكن ليقدم تقريراً لهيئة اركان الايسكرا العامة في الخارج .

(٤٢) زيف ، المرجع ذاته ، ص ٢٥ ـ ٢٦ . م . ايستمان ، المرجع المذكور ، ص ١٤٣ . لا يشير تروتسكي في سيرته الذاتية الى الأصل الغريب لاسمه المستعار ، وكما لو كان خجولاً بعض الشيء ، كان يكتفي بالقول انه لم يتصور ان تروتسكي سيصبح اسمه طيلة ما تبقى من حياته .

الفصل الثالث

على عتبة التاريخ

في صبيحة يوم من أيام تشرين الأول / اوكتوبر ١٩٠٢ ، ولدى بزوغ الفجر تقريباً ، كان الهارب من سيبيريا يقرع بشدة باب ١٠ هولفورد سكواير ، قرب كينغز كروس ، في لندن . هناك كان يعيش في غرفة يحاذيها مطبخ كل من فلاديمير ايليتش لينين وامرأته نادجدا كونستانتينوفنا كروبسكايا ـ وكان يعيش بالقرب منهما السيد والسيدة ريشتر ، وهما جاران بورجوازيان صغيران . كانت الساعة الصباحية غير مناسبة كثيراً كزيارة ، إلا ان الزائر كان شديد الوثوق بأهمية مهمته ، نافد الصبر وعظيم الثقة بنفسه فلم يفكر بقواعد الكياسة والمجاملة . لقد سافر من ايركوتسك الى لندن في حالة من التوقد والحماس ، مجتازاً الحدود سراً ومتجاوزاً كل العقبات . في فيينا ، انتزع فيكتور ادلر المجيد ، مؤسس الحزب الاشتراكي النمساوي ، من راحته الاسبوعية وحصل منه على الدعم والمال لإكمال سفره . وفي زوريخ قرع في الليل العميق باب بول اكسلرود ، شيخ الماركسية الروسية ، ليقدم نفسه ويعد المرحلة الأخيرة . لقد وصل الآن الى المكان الذي يقصده ، وحيداً في ضباب الصباح في لندن ، وخلفه الحوذي منتظراً أجره ـ اذ لم يكن بحوزة المسافر أي قدر من المال . وصل وعبر عن اضطرابه الداخلي بدق الباب عنيفاً . وفي الواقع أنه « كان يدق باب التاريخ » .

تكهنت كروبسكايا بأن هذا المسافر الصباحي والمضجاج واحد من مواطنيها ، وتضايقت قليلاً بسبب الازعاج الذي يلحق بجاريها الانكليزيين نتيجة سلوك المستأجرين الأجانب المجنون ـ فلم يكن ذلك طارئاً استثنائياً ـ ثم هرعت تستقبل القادم الجديد . وصاحت من الباب : « وصل الريشة ! » وقد روت فيما بعد أن « لينين كان قد استيقظ لكنه لم يكن بارح السرير . فتركتهما معاً ومضيت لأدفع للحوذي وأهيىء القهوة . . . وحين عدت وجدت فلاديمير ايليتش لا يزال جالساً على حافة السرير يناقش تروتسكي بحماس في موضوع شائك . ان التوصيات الحارة التي سبقت « النسر الشاب » وهذه المحادثة الأولى دفعت فلاديمير ايليتش الى ايلاء القادم الجديد اهتماماً خاصاً[1] . وقد

---

(١) ن . ك . كروبسكايا ، ذكريات عن لينين ، ص ٦٠ .

تذكر الزائر فيما بعد « البشاشة التي كانت تظهر على وجه لينين . . . مقرونة بدهشة مشروعة » .

من دون ان يستجمع الزائر أنفاسه ، قدم تقريراً عن الاتجاهات والمشاعر السياسية في اوساط المنفيين السيبيريين ، وعن انطباعاته خلال رحلته الأخيرة الى كييف وخاركوف وبولتافا ، عن نفور المجموعات الاقليمية من الاندماج في حركة قومية ممركزة ، عن العمل في مركز القيادة بسمارا ، عن أهمية شبكات الاتصال السرية ، عن ثغرات جهاز اجتياز الحدود بصورة غير شرعية وعن موضوعات كثيرة أخرى ايضاً . ان لينين الذي كان يثير غيظه الطابع المرتبك والفوضوي للمعلومات التي تلقاها حديثاً من التجمعات السرية في روسيا ، أدهشه أن يتلقى من الشاب مقداراً غير عادي من المعلومات الدقيقة والمنهجية ، وأن يصغي الى ملاحظاته « الواعية والنفّاذة ويجد فيه نصيراً مقتنعاً بفكرة حزب ممركز »[٢] .

ولما كان لينين مهتماً بملاحظته عن كثب ، فقد اصطحبه في نزهات طويلة كان يدله اثناءها ، وهو يجاذبه أطراف الحديث ، على النصب التاريخية في مدينة لندن . إلا أن تروتسكي ـ هكذا غدوا يسمونه منذ ذلك الحين ـ كان منشغلاً بالنضال السري في روسيا لدرجة أنه بقي منغلقاً على كل ما عدا ذلك . إلا أنه لاحظ الصيغة التي كان يستخدمها لينين في تقديمه بعض الأنصاب : « هي ذي وستمنسترهم » ـ وهكذا اعتاد أن يقول ـ أو « هوذا متحفهم البريطاني » . في تلك الـ هم ، التي كان يشدد عليها بالتغيير في مقام الصوت ، كان يعبر عن اعجابه بالعبقرية المتجسدة في تلك النصب الكبيرة ، وفي الوقت ذاته عن معارضته للطبقات الحاكمة التي كانت تلك المباني ترمز الى روحها وقوتها . أما تروتسكي فكان مستعجلاً بهدف واحد : التخلي عن تلك الاستطرادات للعودة الى الموضوعات التي تشغله كثيراً : بأية طريقة كانت جماعة الايسكرا تفكر في توحيد التجمعات الفوضوية في حزب ممركز؟ كيف كانت تناضل ضد الاقتصاديين الذين يحاولون ابقاء الحركة ضمن حدود نقابية لا سياسية ؟ كيف كانت تواجه محاولات البعض بعث حزب ارهابي من النموذج النارودني ؟ ماذا ستفعل لمكافحة « الماركسيين الشرعيين » بقيادة بيتر ستروفه ، الذين كانوا ينحرفون عن الماركسية الثورية ؟ وقد شعر لينين برضى باطني وهو يصغي الى تروتسكي يروي له كيف درس مع رفاقه في السجن كتابه حول

(٢) لينين ، سوشينينيا ، الجزء ٣٤ ، ص ٨٩ ـ ٩٢ ، كروبسكاي ، الاستشهاد ذاته ، ل . تروتسكي ، حياتي ، الجزء الأول ، الفصل الحادي عشر .

تطور الرأسمالية في روسيا ، وأي انطباع تركته لديهم الكمية الضخمة من الاحصاءات التي استخدمها ليظهر أن الصناعة الرأسمالية بدلت المجتمع الروسي تبديلاً جذرياً بحيث دمرت كل أمل في اشتراكية زراعية ومهدت الطريق أمام حركة بروليتارية . إلا أنه كان ثمة سؤال يهمه اكثر بكثير من كل الأسئلة الأخرى : لماذا كان هنالك اصرار على أن يمضي هو ، تروتسكي ، الى لندن ، وماذا كان عليه ان يفعل فيها ؟ .

في الواقع انه لم تكن تنتظره أية مهمة خاصة ، كل ما هنالك ان لينين كان يهتم في العادة بلقاء كل الذين تميزوا في العمل السري . لقد كتب قبل اسابيع : « لكي يكون القائد قادراً دائماً ، لا على النصح والاقناع والنقاش وحسب ، بل كذلك على أن يقود الاوركسترا حقاً ، يجب ان يعرف بدقة من يعزف على كل آلة وكيف يعزف ، اين تعلم كل واحد العزف وعلى أية آلة ، من يحدث نغمة شاذة ، واين ولماذا . . . . ؟ ، من ينبغي تغيير موقعه ، وكيف واين ينبغي وضعه لتحاشي الانغام الشاذة ؟ . . . . »(٣) . ان فكرته عن حزب ممركز كانت تتطلب اهتماماً شديداً بالناس الذين يقودون نضالات الحزب في المواقع ، هذا الاهتمام الذي يميز القائد الحقيقي . وهو كان يعرف ان تروتسكي لعب دوراً من الدرجة الأولى في سيبيريا ، لذا كان يتمنى أن يلتقيه ليعرف « اين وكيف تعلم استخدام آلته » . وكان لينين يتذمر في تلك الفترة ، في رسائله الى اصدقائه ، من النقص والتقصير في تحرير الايسكرا ، وقد تساءل اذا لم يكن يمكن استخدام الريشة بشكل افضل في الايسكرا . وهو نجح في اليوم ذاته الذي وصل فيه تروتسكي في تدبير اقامته في بيت مجاور كان يقطنه محررا الايسكرا الآخران ، مارتوف وزاسوليتش . وما أن استقر القادم الجديد حتى كتب مقاله الاول للجريدة ، هذا المقال الذي نشر في العدد الذي صدر للحال بعد وصوله ، بتاريخ الاول من تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٢(٤) .

كانت هيئة تحرير الايسكرا تتألف من ستة اشخاص : بليخانوف ، وفيرازاسوليتش ، وأكسلرود ، الرواد الثلاثة المهاجرين في الحركة الاشتراكية ـ الديمقراطية ، علاوة على ثلاثة رجال أصغر سناً بكثير هم لينين ومارتوف وبوتريسوف الذين غادروا روسيا لتوهم . ومعظم الصحفيين كانوا يعيشون في لندن ، في حي سان بانكراس ، بينما كان بليخانوف واكسلرود يعيشان في سويسرا ؛ إلا ان بليخانوف كان

---

(٣) لينين ، سوشيننيا ، الجزء السادس ، ص ٢٠٥ ـ ١٤ .

(٤) الايسكرا ، العدد ٢٧ .

يسافر باستمرار الى لندن . من هذه المجموعة ، ولا سيما من بيت لينين ، كانت تنطلق كل الاتصالات بالحركة السرية في روسيا . كان السعاة يصلون الى هولفورد سكواير حاملين رسائل ، ويغادرونها ومعهم تعليمات . هكذا وجد تروتسكي الشاب نفسه وقد انتقل مباشرة من فرخولنسك الى مركز الاشتراكية الروسية القيادي وأصبح تحت التأثير اليومي لشخصيات متنوعة جداً ، لكن من المرتبة الأولى .

كان مارتوف وزاسوليتش يقاسمانه بيتهما ، وطعامهما وأفكارهما . ان فيرا زاسوليتش هي التي اطلقت النار في السنة التي سبقت ميلاد تروتسكي ، على الجنرال تريبوف ، ودفعت منظمة « حرية الشعب » للسير على منوالها ، دون أن تكون ارادت ذلك . وبعد اطلاق سراحها ، فرت الى الخارج وبقيت على اتصال بكارل ماركس ، ومع انها لم تقبل تعاليمه من دون تحفظ ، فقد أصبحت واحداً من مؤسسي المدرسة الماركسية الروسية.غاضة النظر عن تردد ماركس ، كانت بين الاوائل الذين اعلنوا ان الاشتراكية البروليتارية التي كان ينادي بها لاوروبا الغربية تلائم كذلك روسيا(٥) . لم تكن شخصية بطولية وحسب ، ففي حين كانت تعرف التاريخ والفلسفة جيداً ، وكانت خارجة على الدين من حيث الجوهر ، كان لديها ذكاء نسائي مرهف ، يعمل باندفاعات واستضاءات حدسية اكثر مما عن طريق الاستدلال المنطقي . وفي كل الصور التي رسمها لها معاصروها ، نجد اشارات مسلية الى الجانب البوهيمي الروسي القديم لديها . « كانت تكتب ببطء شديد معانية حقاً كل هموم الخلق الادبي » ، وحين كانت تكتب أو تناقش كانت تذرع غرفتها متأملة ، جارة خفّيها ، لافّة « سجائر تدخنها الواحدة تلو الأخرى ، رامية أعقابها على حافة النوافذ أو على الطاولات ، ناشرة « الرماد على صدارها وذراعيها ومخطوطاتها أو في فنجان الشاي ، لا بل على محاورها أحياناً . بالنسبة لتروتسكي الشاب ، كانت بطلة ملحمة مجيدة ، وكان يسكن تحت السقف ذاته هو والأسطورة الحية للثورة .

لم يكن مارتوف يزيد تروتسكي إلا بضع سنوات . وهو كذلك كان يهودياً ، يتحدر من عائلة قديمة لفقهاء عبريين كبار ، وكان اسمه الحقيقي زيدربيوم ، وهو من مؤسسي البوند ، الحزب الاشتراكي اليهودي ، إلا أنه تخلى فيما بعد عن فكرة حزب اشتراكي يهودي مستقل ، واسس في بطرسبورغ ، مع لينين ، جمعية النضال لتحرر الشغيلة . لحق بلينين الى المنفى ، والتقى الاثنان مهاجرين من زمن بعيد ليؤسسا معهم

(٥) بيريبسكاك . ماركسا أي ف . ف . انجلز روسكيمي بولينيشسكيمي دياتيلامي . ص ٢٤ ـ ٢ .

جريدة الايسكرا . وقد كان مارتوف محللاً مرهفاً ، وكاتباً نقدياً بشكل تلقائي ، يتناول الموضوعات الراهنة بسهولة ، وبهذه الصفات كان عماد تحرير الايسكرا ، بينما كان لينين مديرها السياسي ومنظمها . وكان مارتوف وزاسوليتش ينتميان معاً الى ذلك الجيل من المتمردين الرومانسيين الذين لا ينصاعون لمبادىء نظرية بقدر ما لسخط اخلاقي على الظلم الاجتماعي . ممتلئين سحراً وشهامة وبساطة ، كانا بالتالي فنانين اكثر مما مشتغلين بالسياسة .

أما لينين فكان مختلفاً تماماً . هذا لا يعني أنه كان متجرداً كلياً عن الرومانسية ، فبدون شيء من الرومانسية ما كان في وسع احد ان يكون ثورياً في وقت كانت لا تزال الثورة فيه حلماً ، أو فكرة لا اكثر . إلا أن لينين خنق في ذاته لذعة الرومانسية هذه وكان يزدري المتمرد الروسي التقليدي الذي لم تكن تقف قدماه على الأرض . فكأخ لشهيد نارودني ، كان يعرف ثمن الدم والخيبة الذي دفعه الثوريون لقاء قلة واقعيتهم . وكانت مهمته ، كما تصورها ، تكمن في اعطائهم حس الواقع ، وتهدئة حماسهم بتعليمهم الهدوء ورباطة الجأش ، وبتعويدهم طرائق العمل الدقيقة والفعالة . وكان يخصص لذلك وقته وقواه . ولما كان يخضع لنظام شخصي دقيق ، منهمكاً بالدراسة والعمل ، فنادراً ما كان يظهر في اجتماعات المنفيين ، كما لم يكن يشارك في نقاشاتهم التي لا تنتهي ، ولا تجدي في الغالب ، الا بشكل استثنائي . كان يتمنى النقاش ويحبه كتهيئة للعمل ، ولكن ليس النقاش لذاته . بمعنى ما ، كان فكره يتبع طريقاً واحداً ، إلا أن هذا الطريق كان واسعاً وسع المجتمع بالذات ، وكان يقود الى تغيير المجتمع .

وكان امراً محتوماً ان يقترب تروتسكي من زاسوليتش ومارتوف ، اللذين كان يشاطرهما سقفاً واحداً وكانا يمارسان عليه تأثيراً ثابتاً ، اكثر مما من لينين الذين كان تأثيره متقطعاً . كان لا يزال في فترة تكوين وكان يحتاج الى علاقات ونقاشات تنشط فكره . وخلافاً للينين ، كان مارتوف وزاسوليتش يرضيان تلك الحاجة الى حد بعيد . وكانا يلامسان كذلك وتراً أعمق لديه ، الوتر الذي جعله النارودنيون يهتز حين دخل الى حلقة شفيكوفزكي . ورغم الاهتمام والاحترام اللذين كان سلوك لينين يثيرهما ، لم يكن في وسع ذلك السلوك إلا أن يبدو له جافاً بعض الشيء . وسوف تمر سنوات قبل ان يكتشف عظمة تلك الشخصية غير الشعرية .

بعد قليل من وصوله الى لندن ، التقى كذلك بليخانوف الذي كان بالنسبة اليه ، مثله مثل زاسوليتش ، بطلا أسطورياً . كان بليخانوف هو الآخر احد مؤسسي الماركسية الروسية ، وبقي قريباً جداً من انجلز ، وقد تمتع بشهرة اوروبية وكان فيلسوف المدرسة

الجديدية وايديولوجيها ، وكاتبها الأول وخطيبها الأكثر بريقاً . إلا انه لما كان بليخانوف شديد الاعتزاز بمجده وقيمته ، فكان يبقى بعيداً ومتعالياً . وفي اللقاء الأول بينهما ، أبدى نفوراً غريزياً من المتعاون الجديد مع الايسكرا ، وتحول هذا النفور الى كراهية شديدة . فالرجلان كانا يمتلكان المواهب ذاتها والطبع ذاته . كانا ، الواحد والآخر ، كاتبين واسعي الخيال ومحاجّين مرهفي الذهن . كان لكل منهما طريقة مسرحية في الكلام والسلوك ، كل منهما كان مزهواً بذاته وبأفكاره واعماله ، إلا انه فيما كان نجم الأصغر سناً بدأ يسطع ، كان نجم الأكبر شرع بالأفول . كان تروتسكي يفيض حماساً فتوياً الى حد ما ، لكن فاتناً ، بينما غدا بليخانوف متشككاً ، و « ناضجاً » اكثر من المطلوب . وقد روى لونا تشارسكي هذه النكتة التي كانت متداولة بين المهاجرين ، - وهي غير صحيحة بالطبع ، لكنها توضح جزئياً موقف بليخانوف : فعندما وصل تروتسكي الى لندن ، امتدحت زاسوليتش امامه مواهب القادم الجديد بالكثير من الحيوية . هتفت قائلة : « لا شك ان هذا الفتي عبقري » فغضب بليخانوف وأشاح بوجهه قائلاً : « لن أغفر له ذلك ما حييت »[٦] .

لقد كان القراء يعتقدون ان جهاز الايسكرا يتخذ قراراته بالاجماع . اما الواقع فهو أنه كانت توجد خلافات سرعان ما علم بها تروتسكي ، ثم انخرط فيها من دون ارادته . كانت هيئة التحرير منقسمة الى فريقين : فمن جهة هنالك الشيوخ الثلاثة ، ومن الأخرى الصحفيون الشباب الثلاثة . وكان التصويت هو الذي يحسم الجدالات ، ولما كان كل فريق يصوت حتماً ضد الآخر ، كان ذلك يؤدي الى مأزق ، كان ينبغي دوماً ترك الخلافات المتعلقة بالأوراق السياسية من دون حل . أما لينين فكان قد عيل صبره للخروج من تلك الورطة ، لذا فكر في تعيين محرر جديد ، يكون السابع في الجهاز . هكذا ما أن حل شهر آذار / مارس ١٩٠٣ أي بعد أربعة اشهر من وصول تروتسكي ، حتى ارسل مذكرة الى كل من العاملين في الايسكرا يوصيهم بالحاح قبول ترشيح تروتسكي . وقد أجاب مسبقاً على الاعتراضات الممكنة بما يخص عمر تروتسكي ومؤهلاته : ابرز « الطاقات الاستثنائية » لدى تروتسكي ، « قناعته ومقدرته » ، مضيفاً أن تعاونه « ليس مفيداً وحسب بل ضروري بشكل مطلق »[٧] . وقد وافق كل من زاسوليتش ومارتوف على التوصية . وكتب مارتوف الى اكسلرود مشيداً بالموصى به :

---

(٦) أ . لوناتشارسكي ، ريفولوتسيوني سيلويتي ، ص ١٩ - ٢٢ . ويقول بعض مؤلفي المذكرات (زيليكسون - بيروفسكايا) انه عندما ظهرت أولى مقالات تروتسكي في الايسكرا ، من دون توقيع ، نسبها القراء الى بلخانوف .

(٧) كروبسكايا ، المرجع المذكور ، ص ٦٥ ، تروتسكي ، حياتي ، الجزء الأول ، الفصل الثاني عشر .

« ان اعماله الادبية تنم عن موهبة لا جدال فيها . . . وبفضل مواهبه الاستثنائية كخطيب ، غدا يمارس تأثيراً عظيماً . انه يتكلم بشكل رائع . وقد استحصلنا ، فلاديمير ايليتش (لينين) وأنا ، على براهين كافية . لديه معارف واسعة وهو يجهد لتنميتها ، اني أؤ يد من دون تحفظ اقتراح لينين »[٨] . ووافق اكسلرود ، هو الآخر ، على الترشيح . كان الشيوخ والشباب متفقين حول هذا الموضوع ، على الأقل . الجميع تقريباً استقبلوا ترشيح تروتسكي بحماس ، ما عدا واحداً . وكان هذا الواحد بليخانوف . لقد عارض بقوة ، متذرعاً بأن أسلوب تروتسكي المزخرف يحط من مستوى الجريدة . وبالفعل ، كان اسلوب تروتسكي متكلفاً ومليئاً بالزخارف . وقد حاول لينين أن يشذبه بلطف . وفي رسالته التي اوصى فيها بتعيين تروتسكي أوضح انه اذا اصبح هذا الاخير من هيئة تحرير الجريدة ، يصير من الاسهل افهامه ضرورة ان يكتب ببساطة : يلاحظ حينذاك ان هذا رأي الفريق بأكمله لا فقط ميل لينين الى التقشف والصرامة . إلا أن بليخانوف لم يتزحزح ، مما أثار وجوم جميع زملائه . وبعد الكثير من النقاشات ، جاءت زاسوليتش بتروتسكي ، الذي لم يكن مطلعاً على شيء مما يجري ، الى اجتماع تحرير ، آملة ان ينصاع بليخانوف . إلا أن بليخانوف « تعالى » على الدخيل وأبقى اعتراضه قائماً .

ويقول تروتسكي في كتابه ، **حياتي**، ان بليخانوف كان يعتقد أنه ـ اي تروتسكي ـ سيساند معارضة لينين لمجموعة « القدامى » . إلا أن ذلك كان يمكن أن يشكل بصعوبة السبب الرئيسي وراء معارضة بليخانوف . فكل « القدامى » الآخرين كانوا يعاملون تروتسكي باعتزاز ولطف شبه أبويين ، ومن جهته ، هو الذي أصبح أصغر اعضاء المجموعة ، كان يعاملهم باحترام ومودة . ولم يكن ذلك موقفه من زاسوليتش وحدها ، بل كذلك ، وبوجه خاص من اكسلرود الذي سرعان ما غدا مسكنه في زوريخ محل اقامة تروتسكي المفضل ، حين كان يتوجه الى هناك . ومن الصعب تخيل أشخاص اكثر اختلافاً الواحد عن الآخر من بليخانوف واكسلرود اللذين عملا معاً خلال ما يقارب الخمسة والعشرين عاماً وكانا صديقين حميمين . كان اكسلرود ، كتروتسكي ، يهودياً من أوكرانيا الجنوبية . وقد بدأ نارودنياً داخل الاتحاد الأول لشغيلة روسيا الجنوبية الذي استعار منه تروتسكي اسم منظمته الأولى . ثم هاجر وفتح الطريق للماركسية . وهو لم تكن له مواهب بليخانوف البارزة ، فقد كان كاتباً رديئاً وخطيباً أردأ أيضاً ، وكان المخترع الصامت لمعظم الأفكار التي عرضها صديقه بالكثير من النجاح . في حين كانت اشتراكية بليخانوف ثقافية ، وكانت اشتراكية اكسلرود تمد جذورها في ثقته المطلقة

(٨) بيسما اكسلرودا أي مارتوفا ، ص ٧٩ ـ ٨٠ .

بالطبقة العاملة . كان مقتنعاً بحماس وشغف بأن الشغيلة سيجدون بوسائلهم الخاصة الطريق الى الاشتراكية والتحرر ، وكان حذراً بالـغريزة من ادعاء الانتلليجنسيا دلّهم عليه ، وكان ذلك هو السبب الاساسي ، فيما بعد ، لمعارضته المتواصلة للبلشفية . واذا كان بليخانوف ، الاوروبي المرهف وذو المظهر الارستقراطي ، يعيش حياة بورجوازية بما فيه الكفاية ، فقد كان اكسلرود يكسب معيشته كعامل ، صانعاً في بيته نوعاً من اللبن يذهب لتسليمه الى زبائنه ، ووسط صفائح الحليب ، كان يناقش الهاربين من روسيا ، الذين كان منزله بالنسبة اليهم مستراحاً ، وكان يقدم لهم الطعام ، وفي الغالب الألبسة ، كان يشبه بلحيته الكثة المشعثة حاخاماً روسياً ورعاً اكثر مما يشبه ثورياً . إلا أن القادة الثوريين ، بما فيهم لينين حتى حقبة متأخرة جداً ، اعتبروه جميعاً معلمهم وملهمهم . وقد تعلق تروتسكي بهذا الرجل بشكل وثيقبحيث سوف تؤثر الصداقة بينهما على مستقبله السياسي(٩) .

وكانت تشده روابط صداقة الى رائد آخر ، هو ليون دوتش الذي انتسب هو الآخر في الماضي إلى الحركة النارودنية في روسيا الجنوبية ، وهرب حديثاً من سيبيريا بعد ثلاثة عشر عاماً من الكاتورغا(*) ليقوم برحلة حول العالم . ومع أنه كان في ذروة مجده ـ عاد عليه فراره الجريء باعجاب العالم اجمع ـ فقد كان دوتش ينظر الى العالم الحديث ، ومشكلاته ورجاله ، نظرة متعبة ومشوشة بعض الشيء . واذا كان انزعج قليلاً من تطرف تروتسكي وتفاؤله المفرط ، إلا ان ذلك لم يمنعه من مصادقة ذلك « الطفل المدلل » اللامع ، الذي كان يجسد بشكل ما آمال صباه ، وقد تابع بإعجاب خطواته الأولى ، وسعى لمساعدته ودفعه الى الامام بشتى الطرق .

لم يكن للانقسامات داخل فريق الايسكرا أي مغزى سياسي حتى ذلك الحين . وقد رأينا قبل زمن قصير ، كيف انحنى لينين ومارتوف امام الشيوخ ، تحركهما العواطف ذاتها التي كانت تحرك تروتسكي آنذاك . إلا أن تدرجهما كان قد انتهى ، وكما يحصل غالباً ، فقد كان التلميذان يدركان ذلك بحدة اكبر من حدة ادراك المعلمين . كان العمل بمجمله ينحصر في تلك الفترة بالايسكرا ، إلا ان مساهمة القدامى ، باستثناء

---

(٩) ل . تروتسكي ، الاستشهاد ذاته ، ولينين ، ص ٩ ـ ٦٠ ، أ . لونا تشارسكي ، المرجع المذكور ، ص ٣٥ ـ ٤٠ ، ف . دان ، برويسخوزدني ، بولشفيسما ، ص ١٩١ ـ ٢٤٠ ، ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ؛ ن . الكسييف في بروليتارسكايا ريفولوتسيا ، العدد ٣ ، ١٩٢٤ ؛ ل . ن . مشتسيرياكوف في بيشات أي ريفولوتسيا ، الجزء ٢ ، ١٩٢٤ ؛ ف ميديم ، فون ماين ليبين ، الجزء ٢ ، الفصل ١ ، جون ميل ، الرواد والبناة ، الجزء الأول ص ٢٠٥ ـ ٧ .

(*) الكاتورغا هي عقوبة الاشغال الشاقة في روسيا القيصرية (م) .

بليخانوف ، في ادارة الجريدة أو تحريرها ، كانت غير فعالة اجمالاً ، فنادراً ما كان اكسلرود وزاسوليتش يكتبان ، ولم تكن كتابتهما جيدة للغاية ، كما كانت مشاركتهما قليلة ـ أو معدومة ـ في تنظيم العمل السري في روسيا . أما لينين ومارتوف فكانا يتقاسمان اعمال التحرير اليومية ، وكان لينين يضطلع كلياً بالعمل المرهق الذي ينبغي القيام به للحفاظ على الاتصالات بروسيا وتنميتها ، تساعده في ذلك كروبسكايا[١٠] . وكان القدامى يحسون حتماً بأنه تم تخطيهم .

كان مركز الخصومات في التضاد بين بليخانوف ولينين ، اذ كان كل منهما الشخصية الأكثر بروزاً في مجموعته . هذا التضاد الذي ظهر في فترة تأسيس الايسكرا ، نما وتطور منذ ذلك الحين . كان لينين يزداد ثقة بأفكاره الشخصية وطرائقه في العمل ولا يخفي ذلك . أما بليخانوف فكان يعامله بسخرية متعالية أو بغطرسة معلم مدرسة . وكان لينين كتب لبليخانوف قبل أشهر من وصول تروتسكي ، في أيار / مايو ١٩٠٢ : « لديك معرفة كاملة بالذوق . . . إلا أنك لا تتردد في استعمال التعابير الاكثر تحقيراً . . . فاذا كنت تهدف الى جعل كل عمل مشترك امراً مستحيلاً ، فالطريقة التي اخترتها ستسمح لك بالنجاح سريعاً جداً . اما علاقاتنا الشخصية . . . فلقد افسدتها نهائياً ، او انك نجحت في قطعها كلياً[١١] » . وبعد تلك القطيعة ، نجح مارتوف وزاسوليتش في مصالحة لينين وبليخانوف . إلا أن صدامات جديدة وقعت ، وكان الاخير بصدد عمل تروتسكي في الايسكرا . وقد كتبت كروبسكايا : « عاد لينين ، في يوم من الايام ، من اجتماع لهيئة التحرير ، في حالة غضب شديد ، وقال : « أية حالة ملعونة ! لا أحد لديه ما يكفي من الشجاعة للرد على بليخانوف . هاك فيرا ايفانوفنا (زاسوليتش) مثلاً . فبليخانوف يهاجم تروتسكي ، ولا تجد فيرا ما تقوله إلا : « انه بالضبط مثل صاحبنا جورج . لا يتوقف عن الصياح . . . » وصرخ لينين : « لا استطيع أن استمر على هذه الحال »[١٢] .

ومن دون ان ينتبه احد ، تحولت تلك المشادة الى المحل الثاني بفعل مشادة اخرى

---

(١٠) اعترف بوتريسوف عام ١٩٢٧ بما يلي : « ومع ذلك . . . فنحن جميع الذين كنا قريبين من هذا العمل . . . كنا نقدر لينين ، لا لمعارفه وذكائه وقدرته على العمل وحسب ، بل كذلك لاخلاصه الخارق للقضية ، واندفاعه المستمر للتدبير الكامل ، وللاضطلاع بالأعباء الأكثر ازعاجاً التي كان يتولاها بضمير حي للغاية » أ . ن . بوتريسوف ، بوسميرتني سبورنيك برويز فدنيي ، ص ٢٩٩ .

(١١) رسائل لينين ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

(١٢) كروبسكايا ، المرجع المذكور ، ص ٦٥ .

تفرعت عنها . لقد كان لينين ومارتوف وبوتريسوف (كان دور هذا الاخير مهماً في البدء ثم أصبح تافهاً) لا يزالون يصوتون ويعملون معاً ضد القدامى ، إلا أنه مع ازدياد حدة الخصومة ، بدأ لينين يفقد كذلك حليفيه ، ومارتوف بوجه خاص . كان مقتنعاً بأنه على حق ، لذا كان يرفض التراجع ، لا بل كان يهجم من دون أي مراعاة لما يمكن أن يغضب القدامى ؛ وقد حاول مارتوف أن يعيد الهدوء والسلام ، هو الذي كان اقل حزماً في افكاره وأقل تصميماً على فرضها . وعموماً كانت لديه الافكار ذاتها التي لدى لينين ، لكن مذ حاول وضعها موضع التنفيذ وصادف مقاومة ، بدأ يتردد ، ثم تقهقر بعد شيء من التفكير . وليس صراعه مع القدامى المثل الوحيد على ذلك . فلقد كان متفقاً مع لينين ، بالنسبة لموضوعات اخرى عديدة ، « على النضال دون هوادة » من اجل بلوغ هدف ما . ثم كان يقف في وجه تصلب لينين ويتراجع في الاخير عن الغاية التي حددها . كان مزاجه « ناعماً » ، وكانت « قساوة » لينين تصدمه . وفي الاجتماعات ، « كان لينين ينظر الى مارتوف ، الذي كان يقدره كثيراً ، نظرة نقدية ومتشككة قليلاً ؛ ولما كان مارتوف يحس بتلك النظرة تثقل كاهله ، كان يغض طرفه ويهز كتفيه بعصبية . وحين كان لينين يتكلم ، لم يكن يتطلع اليه ، وكانت عينا مارتوف تتجمدان خلف نظارته الأنفية التي كانت تزلق دوماً والتي لم يكن ينظفها ابداً[١٣] .

تلك كانت التأثيرات التي خضع لها تروتسكي في تلك الحقبة . وواقع أن لينين كان يدعمه ، ويحاول « تقديم العون » له ضد بليخانوف ، كان يمكن ان يقربه من لينين بالذات عن طريق وضعه بمعارضة القدامى ، إلا ان شيئاً من ذلك لم يحصل . أولاً لأن القدامى لم يكونوا يؤيدون بليخانوف ، في تلك النقطة بالذات ـ فهم ايضاً كانوا يفعلون كل مستطاعهم لدعم تروتسكي وتشجيعه . ثم لأنه كان أصغر من لينين بعشر سنوات وكان اكثر حساسية بكثير تجاه جاذبية القدامى الرومانسية . لم يكن تسنى له بعد أن يحس بالاحباط حيالهم ، ولا أن يلاحظ أنهم كانوا فاقدي الفعالية في العمل اليومي ، بالرغم من كل مزاياهم . كانت معارضة لينين لهم تبدو له فظة للغاية ، قائمة على مبررات شخصية ، ومن دون أي أساس جدي .

هذا الخلاف كان في نظره وجهاً لا أهمية له لمغامرة مجيدة وأساسية ، وليس اكثر . ان الخصومات الداخلية لم تكن تمنع الايسكرا من ان تكون مركز لم شعث الحزب الوليد ـ فاسمها وحده كان نداءً مؤثراً الى الثوريين ـ . ولم يكن ثمة احد يؤمن اكثر من

(١٣) تروتسكي ، حياتي ، الجزء الاول ، ص ١٧٦ .

تروتسكي بمهمة الايسكرا ، وكان ذلك الايمان يعبر عن نفسه في كتاباته . وما يميز اولى تلك الكتابات في الايسكرا ليس فرادة الافكار بمقدار ما الرعشة التي تجتازها ، والطابع المشبوب لنداءاته الثورية ، والعنف شبه الدرامي الذي كانت تنطوي عليه الشتائم التي يوجهها ضد أسياد روسيا واعداء الاشتراكية . كان يكتب يومذاك متحرراً من متطلبات الرقابة ويترك العنان لمزاجه وطبعه ، وهو ما لم يكن يساهم بالضرورة في تحسين نوعية كتابته : كانت مقالاته في الايسكرا أقل جودة في الغالب من دراساته المكتوبة في سيبيريا .

كان مقاله الاول في الايسكرا مخططاً للذكرى المئوية الثانية لقلعة شلوسلبورغ ، مشؤومة الذكر ، التي بناها بطرس الأكبر قرب عاصمته ـ « نافذته على أوروبا وسجنه الأهم » . كان الكاتب يتذكر ظلال الشهداء الذين تم اغتيالهم أو جنّوا بين جدرانها ، ولا سيما الكسندر اوليانوف ، شقيق لينين . وقد أنهى مقاله بهذا التعنيف المؤثر للقيصر وخدمه : « لا زال في وسعكم أن تسترسلوا في مفسقاتكم الوطنية ،ـ فأنتم لا تزالون اسياد شلوسلبورغ » وفي العدد ذاته ، أنب البورجوازية الليبرالية الكاذبة التي لم تكن تجرؤ على أن تنبس ، في الزمستفوات ، ببنت شفة ضد السلطة : « أي جرح مصري ، أي عقارب روسية تحتاج اليها لتقويم ظهور ليبراليي الزمستفوات المحنية بمذلة ؟ »(١٤) . وقد كتب بصدد المظاهرات المؤيدة للسلافية ضد تركيا ، برعاية القيصر ، كتب بعنوان : « أسماك قرش محبة للسلافية » : « أيها المواطن الروسي ، ها هم يحاولون مرة اخرى ان يفتحوا صمام أمان محبة السلافية الرسمية ، ليقدموا منفذاً لأهوائك الوطنية . مرة اخرى ، وكما حدث قبل خمس وعشرين سنة [خلال الحرب الروسية ـ التركية في عام ١٨٧٨] ، يسحب مموّنو الوطنية الصحفية من محفوظاتهم . . . افكار الاخوة السلافية الكبرى ويطلقونها بصخب شديد . إلا أن الحكومة القيصرية لا تعامل شعبها افضل مما يعامل السلطان رعاياه المسلمين » . ويتساءل الكاتب : « هل سجوننا أفضل من السجون التركية ؟ . . . وخلال حملات جنودنا التأديبية ، ألم ينتهكوا اعراض زوجات فلاحي بولتافا وبناتهم ؟ ألم ينهبوا أملاكهم ؟ لماذا اذاً يقدم الليبراليون المزعومون دعمهم لرسالة القيصر « التمدينية » في تركيا ؟ لماذا لا يدعون الى حرب صليبية ضد همج . . . القيصرية ؟ » إن المعارضة نصف ـ الليبرالية « هذه المعارضة الشرعية لحكومة من دون شريعة » كانت قد اصبحت منذ سنوات عديدة ـ

---

(١٤) الايسكرا ، العدد ٢٧ ، اول تشرين الاول / نوفمبر ١٩٠٢ .

وسوف تبقى ـ مرمى سخريته المفضل[١٥]. وفي الزمستفوات ، التي كان يفترض في دورها ان يكون الحكم على اعمال الادارة ، « يلعب المدافع في الواقع ، دور القاضي وينتحل حق تأجيل الدعوى في كل حين» كانت القيصرية تقدم للزمستفوات ، « السوط المغلف في رق الميثاق الكبير» ، وكان ذلك يرضي الزمستفوات . ماذا كانوا يعنون بكلمة حرية ؟ ـ « الحرية من دون الحرية السياسية ؟ » « يمكن القول من دون خطر الوقوع في الخطأ انه اذا كان على الحرية الروسية أن تولد في الزمستفوات ، فهي لن تبصر النور في يوم من الأيام . ولحسن الحظ أن للحرية الروسية أهلاً أكثر جدية : البروليتاريا الثورية والمنطق الداخلي الذي يدمر الحكم المطلق الروسي تدميراً ذاتياً » . ان العديد من الأحزاب سوف يظهر ثم يختفي ، ويزعم كل منها انه يحسن برنامج الاشتراكية ـ الديمقراطية وتكتيكها ، إلا أن التاريخ القادم سيقول : لم تكن تلك الحركات والأحزاب غير فصول ثانوية ، تافهة ، من النضال العظيم للطبقة العاملة التي غدت واعية . . . والتي تتقدم بخطى متعثرة لكن حازمة ، على طريق التحرر السياسي والاجتماعي »[١٦] .

وقد تكلم بالاسلوب ذاته على محاولات القيصر فرض اللغة الروسية على الفنلنديين والقضاء على استقلالهم ، وعلى طرد مكسيم غوركي من الاكاديمية الامبراطورية ، وعلى تذبذب الحزب الاشتراكي الثوري المتشكل حديثاً والمتحدر من الحركة الارهابية النارودنية ، او على جهود الشرطة لإقامة منظمات سرية مزيفة تزاحم الحركة السرية الأصيلة . ان هجماته على ارهابية الاشتراكيين الثوريين ، ولا سيما المقال المنشور بعد إعدام الطالب بالماشيف الذي اغتال وزير الداخلية سيبياغين ، أدت الى احتجاجات غاضبة من جانب الليبراليين والاشتراكيين . فلقد كان لدى الانتلليجنسيا الليبرالية تعاطف مع الارهابيين اكبر بكثير من تعاطفها مع الماركسيين . حتى الاشتراكيون كانوا يجدون انتقادات تروتسكي عنيفة جداً ويعتقدون أنه كان عليه ان يتحدث عن الاشتراكي ـ الثوري الذي نفذ فيه حكم الاعدام باحترام أو تعاطف اكبر[١٧] .

---

(١٥) الايسكرا ، العدد ٢٨ ، ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر ، والعدد ٢٩ ، اول كانون الاول / ديسمبر ١٩٠٢ . ولنلاحظ ان تروتسكي كتب منذ آذار / مارس ١٩٠١ في المجلة الشرقية : « ان الليبرالية الخالصة ، وبنود ايمان مانشستر ، ماتت في بلادنا قبل أن تقيض لها الحياة : فهي لم تجد اساساً اجتماعياً . كان يمكن استيراد افكار مانشستر . . . لكن كان يستحيل استيراد الارضية الاجتماعية التي ولدتها » . سوشينيا ، الجزء ٢٠ ، ص ٨٥ ـ ٨٦ .

(١٦) الايسكرا ، العدد ٢٩ ، اول كانون الاول / ديسمبر ١٩٠٢ .

(١٧) خلال صيف عام ١٩٠٢ ، قام ميليوكوف ، القائد اللاحق للديمقراطيين الدستوريين ، بزيارة مدراء الايسكرا في لندن

ولم تمر تسعة أشهر بين وصوله الى لندن وافتتاح المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي - الديمقراطي الروسي . خلال هذا المدى القصير من الوقت ، كانت شهرته قد توطدت الى درجة انها سمحت له . وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين ، بأن يلعب دوراً أساسياً في المؤتمر خلال القطيعة الدرامية بين البلاشفة والمناشفة ؛ هذه الشهرة نتجت عن خطاباته ومحاضراته اكثر مما عن كتاباته . فهو ما أن وصل الى لندن حتى اطلقه لينين ومارتوف في الصراع ضد النارودنيين المحترمين والفوضويين المهاجرين في وايتشابل. ولقد فوجىء هذا المبتدىء بالسهولة التي كان يكنس معها خصومه المتقدمين في السن . ثم قام بجولة فيما بعد على الجاليات الروسية بأوروبا الغربية . وقد وصف المعاصرون الصدمة التي لا تقاوم التي كانت تحدثها بلاغته وانطلاقته وحماسه وذكاؤه ، والنبرة المعدنية لصوته الأخاذ ، كل تلك الصفات التي كانت تكهرب سامعيه وتسحق خصومه . ويبدو ذلك ملفتاً جداً للنظر اذا اخذنا بالاعتبار انه كان عاجزاً قبل سنوات إلا عن التلعثم وهو يحمر ارتباكاً امام القليل من الحضور ، وانه عاش منذ ذلك الحين في عزلة المنفى أو السجون . وهو لم يتلق من احد دروساً في الفصاحة : لم يصغ في يوم من الأيام الى خطيب يستحق تقليده . انه احد الامثلة على موهبة كاملة ، غير متوقعة ، تنفجر بغتة بحيوية بالغة امام استمتاع المشاهدين ودهشتهم . كان خطابه يتميز ، اكثر من كتابته ، بكثافة نادرة في الفكرة والخيال والانفعال والتعبير . فاللغة المنمقة التي غالباً ما كانت تفسد كتاباته كانت تجعل فصاحته اكثر درامية ايضاً ، بحيث يخيل للمرء أنه يحمل المأساة في ذاته ، ويشعر بأنه يساهم في معركة تتواجه فيها قوى وشخصيات بطولية فوبشرية(*) ، معركة هوميروسية على ذرى جديدة بأنصاف آلهة(١٨) . فحين يكون واقفاً فوق الجمهور ، يحس بحشد من الأعين المحدقة فيه ، ويكهرب جمهرة من القلوب والأنفس - حينذاك يكون في بيئته ومناخه . يصفه احد معاصريه فيظهره عالي القامة ، رقيقاً ، ذا عينين واسعتين شرستين ، وفم كبير وشهواني غير منتظم الخطوط ، جاثماً على منبر كـ « طير جارح » .

* * *

وامتدح الجريدة لكنه انتقد حملتها على الارهاب . قال : « فلتحدث محاولتان أو ثلاث من هذا النوع أيضاً ضد وزراء القيصر ويصبح لدينا دستور » . فغالباً ما كان الدستوريون المعتدلون يعتبرون الارهاب عاملاً مفيداً لممارسة ضغط على القيصر .

ن . اليكسييف في بروليتارسكايا ريفولوتسيا ، العدد ٣ ، ١٩٢٤ .

* أي فوق البشر Surhumains (م) .

(١٨) في آب / أغسطس ١٩٠٢ ، قبل هربه مباشرة من سيبيريا ، كتب في المجلة الشرقية : « ان قوانين الحياة الاجتماعية ومبادىء الحزب ... هي قوة مساوية من حيث العظمة لل فاتوم Fatum القديم . فالقوة الاكراهية في المبادىء الاجتماعية ، المساوية للقدر لدى ايشيل ، يمكنها ان تسحق الروح الفردية اذا تنازعت معها » سوشينيا ، الجزء ٢٠ ، ص ٢٤١ .

كان لا يزال لدى هذا الكاتب والخطيب المثير للاعجاب آنذاك ، كما يقول هو بالذات ، « غريزة بقاء وحشية » . لقد وجد نفسه ينتمي لنخبة الحركة ، وكان عليه ان يرتفع على المستوى الفكري بوسائله الخاصة . فانكب على دراسة الماركسية التي كانت إذاك في عصرها الذهبي وكانت تعطي طلابها تكويناً فكرياً صلباً . هكذا قبل ان يغادر سيبريا ، تعمق في دراسة « تناقضات الاقتصاد الرأسمالي » بأزماته الدورية ، كما حللها الجزء الثاني من **رأس المال** ، بجفاف ظاهر كان يقدم عنها صورة درامية . ان التأثير العميق الذي احدثته الماركسية في نفسه كان يجعله عصياً بالنسبة لأية فكرة أو ظاهرة أخرى . هكذا حين وصل الى لندن وجد من الغرابة ان يحاول لينين اثارة اهتمامه بالنصب التاريخية ، وحين زار باريس للمرة الاولى دافع بالطريقة نفسها عن نفسه في مواجهة دفق الانطباعات الجديدة . وقد لخص شعوره الاول في باريس بهذه الصيغة الهازلة : « انها تشبه اوذيسا كثيراً ، إلا ان اوذيسا افضل » . كانت كنوز الفن في اللوفر تثير ضجره ، اما ما كان يثير شغفه في فرنسا اكثر من غيره فكان الجدال بين الماركسيين الأورثوذكسيين ، بقيادة جول غيسد ، والاصلاحيين الذين كانوا يتبعون جوريس . وهو اختلط بالعمال الباريسيين الذين كانوا يتظاهرون ضد ميللران ، اول اشتراكي يصبح وزيراً في حكومة بورجوازية ويؤدي به ذلك ، بالتالي ، الى قمع العديد من الاضرابات . سار وسط الجمهور ، وكان يصرخ « بكل ما يمكن الصراخ به من كلمات الاستقباح والاستهجان ضد ميللران » .

في باريس ، بالذات التقى امرأته الثانية ، ناتاليا سيدوفا ، وكانت طالبة قادته الى اللوفر وحاولت ان تطلعه على الرسم والنحت . كانت تصغر امرأته الأولى بسنوات ، وكانت هي الأخرى ثورية . فلقد طردت من مدرسة داخلية لبنات النبلاء في خاركوف لأنها اقنعت رفيقاتها بعدم المشاركة في الصلوات وباستبدال قراءة الكتاب المقدس بقراءة الادب الراديكالي الروسي[١٩] . وكانت تدرس في تلك الفترة تاريخ الفن في السوربون . وهي سوف تكون رفيقته مدى العمر وتقاسمه النجاح وسوء الحظ . إلا أن سوكولوفسكايا بقيت امرأته الشرعية وظلت تحمل اسمه . لم يكن يهم الثلاثة التحديد الشرعي لروابط القرابة فيما بينهم : فكالثوريين الآخرين كانوا يحتقرون من حيث المبدأ قواعد الاحترام البورجوازي . ولكن ربما لم يتحرر تروتسكي ، في اعماق نفسه ، أبداً من بعض الوساوس بالنسبة للطريقة التي انفصل بها عن سوكولوفسكايا ، ويمكن لهذا ان

(١٩) ايستمان ، المرجع المذكور ، ص ١٥٣ .

يفسر ، بشكل أفضل من نفور مزعوم من الكلام على حياته الخاصة ، واقع انه لم يخصص في سيرته الذاتية اكثر من جملة واحدة لكل هذه القضية . فبعد هجرته ، لم يكن في وسعه أن يصنع اشياء كثيرة لامرأته وابنتيه . أما أهله الذين أتوا الى باريس سعياً وراء مصالحة فقد اهتموا بالولدين وساعدوا في تربيتهما . وحسبما يمكن معرفته ، لم تنطرح ابداً مسألة عودة تروتسكي الى امرأته الاولى . وحين عاد الى روسيا مع سيدوفا ، لم يكن بين الثلاثة اية علاقة خلاف ، فقد ظلوا مرتبطين جميعاً حتى النهاية بتقدير متبادل وصداقة سامية . وفي نهاية المطاف ، يمكن القول ان المرأتين وأولادهما قد لحقت بهم بشكل متساوٍ ، وبالطريقة الدرامية ذاتها ، سرّاء حياة تروتسكي السياسية وضرّاؤها .

* * *

في حين كان يعمل ويلقي محاضرات في فرنسا وسويسرا وبلجيكا ، كانت تأتي من القيادة العامة للحركة السرية في روسيا رسائل تطالب بعودته بلا ابطاء . فالحركة السرية الروسية ومركز الهجرة كانا يتزاحمان بحدة على المجموعة القيادية ، اما تروتسكي فلم يكن على علم بكل ذلك . وحين وصلت الانباء الى ليون دوتش العجوز استخدم كل نفوذه للحيلولة دون عودة تروتسكي الى روسيا . فلقد كان لا يزال يتذكر بقوة ثلاثة عشر عاماً من الاشغال الشاقة قضاها في سيبيريا . وقد ترافع لدى مدراء الايسكرا لابقاء الشاب في الخارج بحيث ينهي تثقيفه ويرى العالم ويطور مواهبه ؛ وهو وجد حليفاً له في شخص لينين ، الذي لم يكن مستعداً لخسارة مساعده . وكتب لينين الى روسيا قائلاً : ان تروتسكي لا يبدي اية رغبة في العودة . بهذه الحيلة ، كان يأمل في الخلاص من مطالبة مركزالقيادة الروسي ، وكروبسكايا لا تترك أي شك حول هذا الموضوع : ان لينين هو الذي وقف ضد عودة تروتسكي الى روسيا . هكذا تحدد مؤقتاً مصير تروتسكي : سيبقى في الخارج حتى المؤتمر القادم للحزب(٢٠) .

* * *

انعقد هذا المؤتمر في بروكسل في تموز / يوليو ١٩٠٣ ، وفي تلك الدورة تأسس الحزب في الواقع ، فالمؤتمر المزعوم لعام ١٨٩٨ لم يضم اكثر من ثمانية اشخاص ، تم توقيفهم بعد وقت قصير ، ولم يتركوا شيئاً سوى البيان الحار الذي كتبه بيتر ستروفه . فشبكة المنظمة السرية انتظرت الى عام ١٩٠٣ بالذات ، حتى يتم تنظيمها بشكل معقول ، وتصبح اتصالاتها بالايسكرا صلبة بما فيه الكفاية ، بحيث شعر الجميع أن الأوان قد حان لتأسيس حزب سويّ له نظام داخلي واضح الحدود ولجنة ادارية منتخبة ؛

(٢٠) ن . كروبسكايا ، ذكريات عن لينين ، ص ٦٠ ، لينين ، سوشينينيا ، الجزء ٣٤ ، ص ١١٤ .

وكان مسلماً به أن تبقى القيادة لفريق الايسكرا الذي تولى ، دون غيره ، اعطاء خط سياسي للمنظمات وتنسيق نشاطاتها . لقد كان المؤتمر بالنسبة للفريق بمجمله مناسبة رسمية . فالقدامى كانوا يرون فيه تحقيقاً لحلم طالما داعب خيالهم في سجونهم أو في منافيهم .

وكان من المسلم به أيضاً ان يظهر فريق الايسكرا في المؤتمر كجماعة متجانسة ، تشدها وحدة الافكار والعمل ، وتطلعٌ مشترك الى القيادة . وقد ظهرت بعض الخلافات قبل المؤتمر حين انطرحت قضية وضع برنامج ، إلا أن الأمور سوّيت بسهولة . توقع المؤتمرون أن تأتي المعارضة من جانبين : من جهة الاقتصاديين الذين قد يخوضون مناوشات خلفية ضد تقدم السياسة الثورية المظفّر ؛ ومن جهة البوند اليهودي الذي كان يطالب بنظام خاص داخل الحزب . إلا أن هاتين المجموعتين كانتا تشكلان اقلية ، بينما كانت جماعة الايسكرا موحدة فيما بينها . فقبل افتتاح المؤتمر بدأ محررو الايسكرا يتجادلون حول الطريقة التي ينبغي أن تتشكل وفقاً لها منظمات الحزب القيادية ، إلا أن ذلك لم يظهر إلا كتفصيل تنظيمي ثانوي .

وفي بداية تموز / يوليو ، اجتمع ٤٤ مندوباً لهم حق التصويت ، و ١٤ آخرون ليس لهم سوى صوت استشاري ، في دار الشعب (الاشتراكية) في بروكسل . وصل تروتسكي من جنيف ليمثل ، هو ومندوب آخر ، الاتحاد السيبيري للشغيلة الاشتراكيين ـ الديمقراطيين[٢١] . كان المندوبون يجلسون في مستودع معتم في مؤخرة دار الشعب ، وقد أصغوا بحماس الى خطاب الافتتاح يلقيه بليخانوف . كانوا يحسون ، بحضورهم ، انهم سيسجلون محطة مهمة في تاريخ روسيا المسحوقة التي ناضلت خلال اكثر من ثلاثة ارباع القرن ضد القياصرة ، والتي دخلت معركتها الآن طورها النهائي . فلا فقر مكان انعقاد المؤتمر ، ولا السرية التي كان يحيط نفسه بها ، كان في وسعهما أن يحرما تلك الدقيقة من قيمتها التاريخية .

(٢١) في كتاب حياتي لتروتسكي ، يروي بدعابة كيف نجح هو واوليانوف ، شقيق لينين الأصغر ، في أن يستقلا القطار السريع الى بروكسل ، من محطة صغيرة قريبة من جنيف ، بينما كان القطار قد انطلق ، وكيف اوقف رئيس المحطة القطار ليُنزل هذين المسافرين الغريبين من سدادات الحافلة حيث اتخذا لهما مكاناً . كان تروتسكي يسافر بجواز سفر مزيف باسم م . ساموكوفلييف . وقد اتخذت تلك الاحتياطات لخداع الشرطة السرية الروسية . إلا أنه كان للاوخرانا عملاء بين المندوبين ، وكانت الشرطة البلجيكية تراقب المؤتمر والمشاركين فيه عن كثب . ويصف تروتسكي جريه مع رجل شرطة في شوارع بروكسل الفارغة وصفاً سينمائياً مثيراً . ولقد انعقد المؤتمر في الاخير في لندن .

كان النقاش الأول بصدد البوند . فالمنظمة اليهودية كانت تطالب بالاستقلال داخل الحزب ، علاوة على حق انتخاب لجنتها المركزية الخاصة وتحديد سياستها الخاصة بما خص السكان اليهود . وكانت تطالب أيضاً بأن يعترف الحزب بالبوند وسيطاً وحيداً بينه وبين العمال اليهود . وكانت تضغط على الحزب ، لا ليدافع فقط ـ كما سبق وفعل ـ عن حقوق اليهود المتساوية ، بل ليعترف أيضاً بحقهم في « استقلال ثقافي » ، أي بحقهم في تسيير امورهم الثقافية وفي مواصلة تعليم البيديشية في مدارسهم . وقد وقف مارتوف ، احد مؤسسي البوند ، وتكلم باسم جماعة الايسكرا رافضاً تلك المطالب بغضب واستنكار ، واكد تروتسكي هذا الرفض بحدة اشد . وهذا الجدال تم بعد اشهر فقط من مذبحة كيشينيف الكبرى التي ايقظت حساسية اليهود وحذرهم . وقد ظهر ذلك بشكل غير مباشر في موقف البوند[٢٢] .

ولكي لا يصدم الناطقون غير اليهود بلسان الايسكرا تلك الحساسية ظلوا في الظل . وهكذا تولى يهود رفض اقتراحات البوند . وقدم مارتوف اقتراحاً ضد البوند وقعه المندوبون اليهود وحدهم . تكلم تروتسكي بالذات باسم اعضاء الايسكرا من اصل يهودي ، واعتمد بقوة على هذا الواقع ليوجه ضد مندوبي البوند هجمات اثارت غيظهم ، فاحتجوا بشدة على خطابه وطالبوا بفصله لاهانته اليهود وتوجهوا للرئيس كي يدافع عنهم ، وحين اعلن الرئيس ان ملاحظات تروتسكي لا غبار عليها ، قدموا اقتراحاً بلوم الرئيس .

كان ذلك هو الفصل الأكثر حدة في المؤتمر ، واحدى المناسبات النادرة جداً التي تكلم فيها تروتسكي كيهودي ، على قضية يهودية بشكل خاص . وكونه تدخل هكذا ليقتصر على نقد المطالب اليهودية بدا كما لو كان شبه فظاظة بالنسبة لمندوبي البوند اليهود ، الذين استُفزت حساسيتهم الى ابعد الحدود . إلا أنه اشار مع ذلك الى ان رهان ذلك الصراع يتخطى الحالة التي طرحها اليهود . فبمطالبة البوند لنفسه بالاستقلال الذاتي في اطار الحزب ، مع حق انتخاب لجنته المركزية ، كان يخلق بالفعل سابقة خطيرة : فلو منح الحزب البوند امتيازات في وجه مجموعات اخرى ، كان عليه إذ ذاك ان يتخلى عن فكرة منظمة مندمجة ويتحول الى اتحاد فضفاض لأحزاب ومجموعات . وباختصار ، كان البوند يحاول بوسائل منحرفة ان يدفع جماعة الايسكرا للتخلي عن مبدئها الاساسي وعن العمل الذي اضطلعت به باتجاه وضع ذلك المبدأ

(٢٢) نجد رواية معبرة عن عقلية الاشتراكيين اليهود بعد المذبحة في مراسلات سفردلوف ، رئيس السوفييت لاحقاً ، في بيشات اي ريفولوتسيا ، الجزء ٢ ، ١٩٢٤ . انظر أيضاً ميديم ، المرجع المذكور ، الجزء ٢ ، ص ٢٩ - ٣٢ .

موضع التطبيق . اما مطلب البوند الآخر، الذي يشترط الاعتراف به كممثل وحيد للحزب لدى الشغيلة اليهود ، فكان يعني الاعلان بأن اليهود وحدهم مخولون حمل الرسالة الاشتراكية الى الشغيلة اليهود وتنظيمهم . كان ذلك يعني تبني موقف حذر تجاه اعضاء الحزب غير اليهود ، حسبما اشار تروتسكي ، وتحدي قناعاتهم ومشاعرهم الأممية . لقد صاح تروتسكي وسط عاصفة من الاحتجاجات : « ان للبوند ملء الحرية في عدم الثقة بالحزب ، ولكنه لا يمكن أن يأمل تصويت الحزب ضد نفسه »[٢٣] . لم يكن يمكن للحزب ان يتخلى عن حق التوجه الى الجماهير الكادحة اليهودية من دون الخضوع للنزعة الانفصالية اليهودية . اما مطلب البوند المتعلق بالـ « استقلال الثقافي » ، فكان يصدر عن الروح الانفصالية ذاتها ، عن طريق توجيه اشتراطاته في البدء الى الحزب ، ثم الى الدولة والأمة . كانت الاشتراكية تصر على اسقاط الحواجز بين الأعراق والديانات والقوميات ، فما كان في وسعها أن تقدم العون لبناء حواجز من هذا النوع . وكان تروتسكي يعترف لليهود بحق ان يكون لهم مدارسهم علاوة على تعليم اليديشية اذا رغبوا في ذلك ، إلا أنه اضاف ان تلك المدارس لا ينبغي بشكل عام ان تكون خارج نظام التعليم القومي ؛ ولا ينبغي بشكلٍ عام أن تكون الحياة الثقافية اليهودية منغلقة على ذاتها . وقد قدم اقتراحاً بهذا المعنى لاستكمال قرار مارتوف العام . وجرى التصويت على القرارين بأغلبية ساحقة[٢٤] .

ومثل مارتوف واكسلرود ودوتش واشتراكيين آخرين من اصل يهودي ، تبنى تروتسكي النظرية التمثيلية المزعومة ، مؤكداً ان لا مستقبل لليهود في جماعة منفصلة . فالروابط التي أبقت على تلاحم اليهود كانت اما روابط الدين ، المحكوم عليها بالزوال - كان الاشتراكيون مقتنعين عموماً بذلك - او روابط القومية نصف الاسطورية التي تؤدي الى الصهيونية . وكان البوند يعارض الصهيونية بشدة ، لأنه يرى مستقبل اليهود في بلدان ما يدعى بالدياسبورا . لكن تروتسكي كان يعتبر أن البوند الذي يعارض الصهيونية ، تبنى مع ذلك جوهرها القومي[٢٥] .

(٢٣) فتوروي سييزد ، R.S.D.R.P. ، ص ٥٢ - ٥٥ .

(٢٤) المرجع ذاته ، ص ١٩٨ .

(٢٥) بعد المؤتمر بوقت قصير ، نشر تروتسكي في الايسكرا هجوماً عنيفاً على الصهيونية . وقد قدم له المناسبة النزاع بين الصهاينة الاصليين وعلى رأسهم تيودور هرتزل والصهاينة الذين كان يقودهم ماكس نوردو وكانوا يستعدون لمغادرة فلسطين من اجل تأسيس الوطن اليهودي في اوغاندا . كان هرتزل يحاول شراء فلسطين من السلطان بينما كان نوردو يخوض الحملة للحصول على اوغاندا . وقد حاول نصير متعصب لهرتزل ان يغتال نوردو . وكتب تروتسكي بهذا الصدد أن « هرتزل مغامر عديم الذمة » وتكلم على « النواح الهستيري لرومانسيي صهيون » . وكان يرى في هذا النزاع افلاس الصهيونية (الايسكرا ، عدد ٥٦ ، اول كانون الثاني / يناير ١٩٠٤) .

وكان تروتسكي يرى ان حل المشكلة اليهودية لا يكمن في خلق دولة يهودية ، ولا في إقامة دول يهودية داخل الدول غير اليهودية ، بل في اعادة تكوين المجتمع وفقاً للمبدأ الأممي ، وأول شرط على طريق ذلك الثقة المتبادلة ومن دون تحفظ بين اليهود وغير اليهود ، في الحزب كما في الدولة . وقد بقي مخلصاً لهذه الفكرة حتى نهاية حياته : ولم يدفعه الى التخفيف ، ولو قليلاً ، من عدائه للصهيونية[٢٦] إلا صعود النازية . لم يكن يعترف بالحقيقة المأساوية الكامنة في حذر اليهود من محيطهم غير اليهودي ، فلا هو ، ولا أي اشتراكي آخر، كان في وسعه ان يتخيل حتى في احلامه المزعجة ان الطبقات العاملة الاوروبية ، التي أصغت خلال اجيال الى تعظيم التضامن الأممي ، لن يمكنها أو لن يسعها ، بعد مرور اربعين عاماً على ذلك التاريخ ، ان تحول دون ابادة ستة ملايين رجل وامرأة وطفل من اليهود في غرف الغاز الهتلرية ، أو لم تكن قادرة على حل المشكلة . لقد اتخذ تروتسكي ، من حيث هو يهودي ، موقفاً ضد الانفصالية اليهودية ، لأن رؤياه للمستقبل كانت بعيدة عن « حضارة » اوروبا في اواسط القرن بعد السماء عن الأرض .

وقد انفجرت خصومة أخرى اثناء المؤتمر بين اعضاء الايسكرا والاقتصاديين . فهؤلاء الاخيرون كانوا يحتجون على ما اعطي من رجحان للسياسة الثورية في اهتمامات الحزب بصدد النقابية والنضال من اجل الاصلاحات . كما كانوا معادين ايضاً لمنظمة ممركزة يكونون فيها ، هم الاقتصاديين ، في وضع العاجزين ، وقد كان الناطقان باسمهم ، مارتينوف واكيموف ، ينتقدان الايسكرا لموقفها الديكتاتوري و « اليعقوبي »[٢٧] . وتلزم الاشارة الى ان هذه العبارة ظهرت آنذاك للمرة الاولى في المحاضر ، وقد ردت جماعة الايسكرا بلا استثناء بالطريقة ذاتها على الانتقادات . هاجم تروتسكي الاقتصاديين بعدوانية أدت إلى تلقيبه بـ « هراوة لينين »[٢٨] . قال ان المعركة لأجل منافع هزيلة على المستوى الاقتصادي وعلى مستوى الاصلاحات ليس لها معنى إلا بمقدار ما تساعد في حشد القوى الطبقية الكادحة لصالح الثورة . « حين يناضل الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي لأجل اصلاحات ، يحقق تحويلاً اساسياً للحزب ، تحويلاً لعقلية البروليتاريا التي تعد نفسها هكذا لإقامة ديكتاتوريتها الثورية » . والطبقات

---

(٢٦) خلال مقابلة اجرتها مع تروتسكي المجلة اليهودية الاميركية فوروارد (٢٨ كانون الثاني / يناير ١٩٣٧) اعلن انه بعد تجربة النازية ، يصعب الاعتقاد بـ « تمثّل » اليهود كما كان تمنى من قبل . وتابع قائلاً ان الصهيونية لن تحل المشكلة ، لكن حتى في ظل نظام اشتراكي ، ربما يكون ضرورياً ان يقيم اليهود في أرض منفصلة .

(٢٧) فروتوي سييزر R.S.D.R.P. ، ص ١٣٧ .

(٢٨) ن . ك . كروبسكايا ، المرجع المذكور ، ص ٧٠ .

الحاكمة لا تقبل الاصلاحات في كل حال إلا حين تكون مهددة بالثورة ، إذاً على الايديولوجية الثورية ان تشغل المكان الأول ، حتى ضمن منظور نضال لأجل الاصلاحات[٢٩] . كان يدافع عن التنظيم المركز قائلاً ان الحزب يحتاج لأنظمة صارمة تضع القيادة بمعزل عن التأثيرات الخارجية . وقد أكد وهو يسخر من الاتهامات بالـ « يعقوبية » أن على الأنظمة أن تعبر « عن حذر القيادة المنظم » ، حذر يتجلى برقابة متيقظة من جانب القيادة على الحزب[٣٠] .

وسرعان ما اصبحت هذه الفكرة ملكية لينين الحصرية ، والسمة الخاصة بالبلشفية . فلنتذكر أن تروتسكي دافع عنها منذ عام ١٩٠١ ، وكانت هذه الفكرة ملكية الايسكرا المشتركة . فاذا استشهدنا بالمؤرخ المنشفي الأكثر براعة ، فهي كانت تلخص رد كل الاشتراكيين المتنبهين على « الضعف وانعدام الدقة » في المنظمة الاتحادية الخاصة بحركتهم[٣١] . الا انها كانت المرة الأخيرة التي يتفق فيها كل جماعة الايسكرا ـ ومن بينهم المناشفة اللاحقون ـ للدفاع عن تلك الفكرة ، مع العلم انه ربما لم يدافع عنها احد بالقوة التي دافع بها عنها تروتسكي . وما كان احد ليفاجأ اكثر منه لو قيل له انه سوف يجحد بعد بضع دورات تصريحاته الخاصة به بشدة وعنف . وفي الحقيقة انه لم يكن لينين ، بل القادة اللاحقون للمنشفية ، ولا سيما بليخانوف ، هم الذين أيدوا بمنتهى الحزم ديكتاتورية البروليتاريا أمام المؤتمر ، ابان النقاش حول البرنامج . فقد ألح بليخانوف على المندوبين ليتبنوا صيغاً تعني بوضوح انهم لن يتراجعوا في مرحلة ثورية حيال الغاء المؤسسات البرلمانية أو الحد من الحريات المدنية . Salus revolutioni suprem a Lex esto(*) . كان بليخانوف يجعل من هذا الاستشهاد الحكمة التي يتمسك بها حين كان يؤكد انه اذا ما تم انتخاب جمعية تأسيسية معادية للحكومة الثورية بعد

---

(٢٩) فتوري سييزو .R.S.D.R.P ، ص ١٣٦ ـ ٧ .

(٣٠) المرجع ذاته ، ص ١٦٨ .

(٣١) ل . مارتوف ، ايستوريا روسيسكويي سوتسيال ديموكراتيي ، ص ٦٢ ـ ٧٢ . يفسر مارتوف الى أي حد كانت فكرة التنظيم المركز آنذاك « شائعة » . فالفكرة لم يصغها للمرة الاولى صياغة دقيقة لينين بالذات ، بل مناضل سري من شغيلة بطرسبورغ كتب للينين بهذا الصدد ، ثم انضم الى المناشفة بعد الانشقاق . وفي السنة التي سبقت المؤتمر ، اقترح على الايسكرا مشروعاً تنظيمياً شبيهاً جداً بمشروع لينين المد عو سافينكوف الذي غادر فيا بعد صفوف الاشتراكيين ـ الديمقراطيين ، ليؤسس الحزب الاشتراكي الثوري . ولقد كتب مارتوف حتى بعد الانشقاق : « بما يخص مشكلة التنظيم كنا المناصرين الاوائل للمركزية كما ينبغي ان تكون لأننا ديمقراطيون اشتراكيون ـ ثوريون » ، المرجع ذاته ، ص ١١ ، راجع كذلك لينين ، سوشينيا ، الجزء االسادس ، ص ٢٠٥ ـ ٢٤ ، مقدمة مارتوف لكتاب تشيريفانين ، اورغانيزا تسيونيي فوبروس ، وماتيريالي دلاخار اكتيريستيكي رازفيتيا .R.S.D.R.P ، لف . ل . أكيموف ، ص ١٠٤ .

(*) باللاتينية في النص ، ومعناها « خلاص الثورة هو القانون الاسمى » (م) .

اسقاط القيصرية ، فعلى الحكومة ان تحل الجمعية ، كما فعل كرومويل من قبل ، ووفقاً لهذا المبدأ بالذات تصرف لينين وتروتسكي عام ١٩١٨ ، دون ان يتأثروا حيال احتجاجات بليخانوف الشائخ والمريض . في ذلك الحين كان هذا الأخير يؤكد ضرورة ان تتحاشى الحكومة الثورية الغاء عقوبة الاعدام لأنه يمكن ان تكون ضرورية لازالة القيصر ـ وهذه الافكار لم تلاق الاحتجاج إلا من جانب مندوب مغمور ولم تستثر غير تردد ضعيف لدى بعض الآخرين ؛ لقد تم استقبالها عموماً بتهليل شامل .

إلا أن تضامن جماعة الايسكرا كان قد بدأ يفسد في كواليس المؤتمر . والخلاف لم يتجل في البدء على الصعيد السياسي ، ولا بصدد الفقرة الاولى من النظام الداخلي ، التي تم الانفصال في النهاية من جرائها ، بل بصدد موضوع لم يكن يتعلق بأي مبدأ سياسي او تنظيمي ، لقد اقترح لينين انقاص عدد محرري الايسكرا من ٦ الى ٣ ، على أن يكون هؤلاء المحررون بليخانوف ومارتوف ولينين بالذات ، ويجري صرف اكسلرود وزاسوليتش وبوتريسوف . وقد رأى بعض المؤرخين في هذا الاقتراح نوايا ذات مرمى بعيد ، مضرة أو ملائمة وفقاً للمدرسة التي ينتمي اليها هذا المؤرخ أو ذلك . اما في الواقع فكانت نية لينين بسيطة للغاية . لقد كان يسعى لجعل هيئة تحرير الايسكرا اكثر فعالية مما كانت عليه في الآونة الاخيرة . وحين كان الفريق السداسي بدأ يميل الى الانقسام على نفسه اقترح اضافة تروتسكي للخروج من المأزق . لكن بما ان اعتراضات بليخانوف حالت دون ذلك ، فقد حاول الوصول الى اهدافه عن طريق اختصار عدد المحررين بدل زيادته . وكان الثلاثة الذين اقترحهم هم أعمدة الايسكرا . فزاسوليتش واكسلرود وبوتريسوف لم يشاركوا في التحرير إلا قليلاً جداً ، اذ لم يكن احد منهم يكتب بسهولة ، كما كان عملهم أقل ايضاً على صعيد الادارة والتنظيم(٣٢) ، فإذا نظرنا الى القضية من زاوية الفعالية بوجه الحصر ، نجد ان لاقتراح لينين ما يبرره . إلا ان اعتبارات الفعالية كانت تصدم ـ كما يحدث في الغالب ـ الحقوق المكتسبة والمشاعر . لقد كان على لينين ان ينتصر على بعض الوساوس قبل ان يتخذ قراراً ، بينما لم يكن لدى بليخانوف شيء من ذلك ، او كان لديه القليل . وهذه المحاولة للاستغناء عن اثنين من مؤسسي الايسكرا بدت لتروتسكي انتهاكاً للحرمات : لقد صدمته قساوة لينين .

هذا الخلاف حول نقطة محدودة سرعان ما تعقد واختلط بمسائل اكثر اتساعاً .

---

(٣٢) بمعرض تفسير لينين أسباب موقفه لأحد تلامذته ، اعلن أنه من أصل ٤٥ عدداً من الايسكرا ، القديمة ، قدم مارتوف ٣٩ مقالاً ، ولينين ٣٢ ، وبليخانوف ٢٤ ، بينما لم تكتب زاسوليتش غير ٦ مقالات ، وكتب اكسلرود ٤ ، وبوتريسوف ٨ . لينين سوشينينا ، الجزء ٣٤ ، ص ١٦٤ .

كان على فريق تحرير الايسكرا ان يبقى كما كان حتى ذلك الحين ، أي قيادة الحزب المضمرة . وكان على اللجنة المركزية التي سينتخبها المؤتمر أن تعمل في روسيا . لكن بسبب عملها في الخفاء وكونها مهددة بالسجن ، لم يكن في متناولها أن تؤمن القيادة بصورة مستمرة ، وهو ما لم يكن يمكن ان يقوم به غير جهاز في المنفى ، كفريق التحرير ، وقد اقترح لينين علاوة على ذلك انتخاب لجنة تلعب دور الحكم بين اللجنة المركزية وفريق تحرير الايسكرا . قوام تلك اللجنة خمسة اعضاء : اثنان من الايسكرا ، واثنان من اللجنة المركزية ، ورئيس يعينه المؤتمر ، وكان مقدراً ان يتولى بليخانوف الرئاسة بحيث تكون هيئة تحرير الايسكرا متيقنة من ممارسة نفوذ حاسم في اللجنة . وبسبب هذا المشروع بالذات ، جرى اتهام لينين بالسعي الى السيطرة على الحزب . وكما اظهرت الاحداث ، لم يكن ذلك المشروع معداً لتوفير نفوذ اكبر للينين مما كان له في توزيع المهمات السابق . شخص واحد كان يمكن ان يرى نفوذه يزداد ، هو بليخانوف ، عدو لينين لاحقاً . ولم يكن لاقتراح لينين غير هدف واحد : التخلص من الاعضاء الأقل فعالية في الفريق القديم ، ولا سيما اكسلرود وزاسوليتش . لقد كان لينين يرغب في ان يقدم لذينك المحاربين القديمين الاحترام الذي يستحقانه لكنه لم يكن مستعداً لفعل ذلك بطريقة تفشل العملية التي تحمل نفقاتها هو بالذات . ولقد صدم الشيخان ، وكان ذلك امراً طبيعياً . فاهتم مارتوف بتهدئتهما وتطييب خاطرهما ، أما تروتسكي الذي لم يكن على علم بأعمال الفريق الداخلية ، فلم يكن قادراً على فهم مبررات لينين ، وتكوّن لديه انطباع غامض بوجود عداوة ومؤامرة .

وفي حين كان المبتدئون يتحدثون في الكواليس بصوت خافت « عن تلك الفضيحة العائلية » ، أثيرت مسألة النظام الداخلي للحزب في جلسة بكامل المندوبين . كان فريق الايسكرا ناقش الموضوع قبل انعقاد المؤتمر ولاحظ الخلاف بين لينين ومارتوف ، فمشروع لينين نص على ما يلي : « يكون عضواً في الحزب كل من يوافق على برنامجه ، ويقدم له دعمه المادي **ويشارك شخصياً في عمل** احد اجهزته » ، اما مشروع مارتوف فكان شبيهاً بمشروع لينين ، لكن يتميز عنه بأنه في حين يطالب لينين العضو بأن « يشارك شخصياً في عمل » احد اجهزته ، كان مارتوف يطالب بصورة اكثر غموضاً ، بـ « تعاون شخصي ومنتظم تحت اشراف احد اجهزة الحزب » . وقد بدا الفرق دقيقاً لدرجة لا يمكن معها فهمه . كانت صيغة لينين تتجه نحو حزب متراص البنيان ، مؤلف فقط من اناس يناضلون بالفعل في المنظمات السرية . اما تحديد مارتوف فكان يستتبع تنظيماً اكثر تراخياً ، يضم اولئك الذين يكتفون بمساعدة المنظمات السرية ، دون ان يكونوا جزءاً

منها . وحين تصادمت الصيغتان للمرة الاولى لم يبد الفرق مهماً ، وكان مارتوف مستعداً لسحب مشروعه(٣٣) . كان يبدو انه ما من سبب لينقسم الحزب حول كلمتين في فقرة من نظامه الداخلي ومبادئه .

ان الصدامات الشخصية بصدد مشروع لينين لاعادة تنظيم هيئة تحرير الايسكرا احدثت في الوقت ذاته نوعاً من الانزعاج والمرارة ادى بالقادة الاساسيين الى مواجهة بعضهم بعضاً بحدة وحذر متناميين(٣٤) . كان مارتوف وتروتسكي والآخرون يأخذون على لينين قساوته وميله الى السلطة ، بينما لم يكن لينين يفهم كيف يمكن توجيه اتهام من هذا النوع اليه ، بينما اقتصر على اقتراح خطة قابلة للتحقيق ، تبرر ذاتها بذاتها ، لاعادة تنظيم الايسكرا . وبدأت كل جهة تستشم المكيدة والمؤامرة في كل من حركات الاخرى . كان كل واحد على اهبة الاستعداد لكشف الاحبولة التي يعدها له الآخر ، وبدأ كل واحد يحرك خصومات قديمة نصف منسية ؛ هذه الخصومات كانت بدت بالأمس بالذات تافهة للغاية ، الا انها شرعت تظهر منذ ذلك الحين محملة بالمعاني والنتائج . وعلى اساس تلك العقلية بالذات كان المتخاصمون يتصادمون في حين بدأ المؤتمر نقاش النظام الداخلي ، لذا لم يعد من مجال للتوفيق بين الصيغ المختلفة والاتفاق على مشروع واحد . على العكس ، فقد كان صاحب كل مشروع يندفع لاستخراج اكثر مستتبعات مشروعه خفاء ، عن طريق جعلها واضحة قدر الامكان ، والتشديد على الفروق أمام المندوبين المربكين ، والتأكيد على الهوة - وهي هوة لا يمكن ردمها - التي تفصل بين المفهومين ، والالحاح بشدة على النتائج العملية التي يمكن أن يؤدي اليها تبني هذا النص أو ذاك . هكذا كان الصديقان ، مارتوف ولينين ، والرفيقان ، يتواجهان كعدوين . تكلم كل منهما وهو يرتعد ، كل منهما كان مندهشاً لغرابة سلوكه ، كل منهما كان ذلك يفاجئه ويفزعه ، إلا أنه لا هذا ولا ذاك كان قادراً على التوقف والعودة الى الوراء(٣٥) .

---

(٣٣) بافلوفيتش ، بيسموك توفاريششام اوفتوروم سييزدي ، ص ٥ .

(٣٤) ظل اعضاء الايسكرا يجتمعون خارج المؤتمر . وحين ظهرت الخلافات للمرة الاولى في احد تلك الاجتماعات وصل الامر بتروتسكي الى ترؤس ذلك الاجتماع لأن الخصوم لم يتمكنوا من الاتفاق على أي رئيس آخر . تروتسكي ، حياتي ، الجزء الأول ، الفصل ١٢ .

(٣٥) بعد المؤتمر بوقت قصير كتب لينين لبوتريسوف : « والآن أطرح على نفسي السؤال التالي : « لماذا واجه بعضنا بعضاً كأعداء الداء ؟ حين اتذكر احداث هذا المؤتمر والانطباعات عنه اعي اني تصرفت غالباً تحت تأثير الغضب ، و « ببلاهة » ، وأنا مستعد للاعتراف بخطئي أمام أي كان ، اذا امكن اطلاق تسمية خطأ على شيء تسبب به الجو ، وردود الفعل ، والاجابات السريعة ، والصراعات ، الخ . لينين ، سوشينينيا ، الجزء ٢٤ ، ص ١٣٧ .

لقد انعكس موقف القادة الرئيسيين في موقف المندوبين . هكذا انقسم المؤتمر الى قسمين ، وبدل ان يخلق حزباً خلق حزبين . ان بليخانوف الذي سوف يغدو اعدى أعداء الثورة البلشفية كان في ذلك الحين افضل حلفاء لينين ، أما تروتسكي فكان خصمه الاكثر صخباً . وقد اتهم لينين بأنه ينوي تشكيل حلقة مقفلة من المتآمرين ، لا حزب الطبقة العاملة . فالاشتراكية قامت على الثقة بالعاطفة الطبقية للشغيلة وعلى تمكنهم من فهم رسالتهم التاريخية ، فلماذا لا يفتح الحزب لهم ابوابه على مصراعيها ، كما اوحى بذلك مارتوف ؟ وقد فوجىء لينين برؤية « هراوته » تنقلب ضده ، فقام بعدة محاولات لفصل تروتسكي عن مارتوف . بدا خلال الاجتماع ودياً ومقنعاً حيال تروتسكي ، مؤكداً انه يدفع بالنقاش الى الغموض والابهام ويسيء تفسير الفروق لقلة تجربته ، وتابع لينين يقول اننا نجد الارتباك والتردد والانتهازية في داخل الطبقة العاملة ايضاً ، فاذا كان على الحزب ان يفتح أبوابه الى الحد الذي اقترحه مارتوف ، فهو يسمح ، بذلك ، بأن تدخل الى صفوفه عناصر ضعف . ينبغي لأعضاء الحزب ان يشكلوا طليعة البروليتاريا وحسب ، عناصرها الأكثر شجاعة والأشد وعياً لمهمتهم « الطبقية » . على الحزب ان يقود الطبقة العاملة ، لذا لا يمكن ان يكون كل الطبقة العاملة .

هذه الحجة لم تقنع تروتسكي ، فالتقى لينين به خارج قاعة الاجتماع وامضى اربع ساعات يحاول الاجابة على اتهاماته وشرح موقفه له . ثم ارسل فيها بعد أنصاره وأخاه بالذات من أجل « هداية تروتسكي »[٣٦] . ، لكن من دون جدوى . كان عداء تروتسكي يزداد حدة .

وحصل مشروع مارتوف على الأغلبية . لكن هذه الاغلبية كانت تستند الى اصوات البوند والاقتصاديين الذين ، بعد أن هزمهم جماعة الايسكرا ، كانوا على وشك مغادرة المؤتمر والانفصال عن الحزب .

وبعد رحيلهم ، قدم لينين مشروعه لإعادة تنظيم قيادة الايسكرا . فقدم تروتسكي بالمقابل اقتراحاً بتثبيت اعضاء الفريق القديم في وظائفهم[٣٧] . إلا أن لينين انتصر هذه المرة بأغلبية صوتين . وبالاكثرية نفسها انتخب المؤتمر مرشحي لينين للجنة المركزية . وهكذا أخذ انصار لينين اسم **البلاشفة** (أي جماعة الاكثرية) وخصومه اسم (**المناشفة**)

---

(٣٦) تروتسكي ، الاستشهاد المذكور .

(٣٧) فتوروي سييزد .R.S.D.P.R ، ص ٣٦٤ .

(أي جماعة الاقلية) . وقد صدم قادة الاقلية ـ لا بل أرعبهم تقريباً ـ تجرؤ لينين على ازاحة زاسوليتش واكسلرود ، فأعلنوا مقاطعة الايسكرا واللجنة المركزية المنتخبة حديثاً . ثم استقال مارتوف من هيئة التحرير ، فاحتج لينين معتبراً ذلك سلوكاً فوضوياً غير مقبول . وكان عازماً على تقوية سلطة الاجهزة المنتخبة حديثاً ، فأعلن بإصرار : مع أنه تم انتخاب هذه الأجهزة بأغلبية ضعيفة ، إلا أنها تشكل مع ذلك القيادة الشرعية . وفي أي منظمة ديمقراطية ، تكون الاكثرية ، مهما كانت ضعيفة ، اساس السلطة الدستورية . ـ وارفضّ المؤتمر في حالة فوضى وصخب .

ورغم طابع ذلك الانقسام العرضي في الظاهر ، فقد كان في اصل سيرورة طويلة من التمايز ، لا رجعة فيها ، أدت بحزب الثورة الى الانفصال عن المعتدلين . وفي اوروبا الغربية ، كانت العناصر الأكثر اعتدالاً داخل الحركات العمالية غدت تحدد نفسها بشكل مكشوف كإصلاحية ، ومناهضة للثورة . وكان طبيعياً أن تظهر المعارضة ذاتها في روسيا ايضاً . لكن في ظل الحكم المطلق القيصري ، حتى اكثر الاشتراكيين اعتدالاً كانوا عاجزين عن ان يؤسسوا حزباً اصلاحياً بشكل مكشوف : كان ينقصهم القاعدة البرلمانية اللازمة للديمقراطية . فاستمروا يعتنقون بهذا الحد أو ذاك من الصدق اشتراكية ثورية وأورثوذكسية ماركسية . وكان هذا الموقف يخفي طبيعته الحقيقية ، بقدر ما كانت الحال مع ظروف الانشقاق المبلبلة ؛ كان للقطيعة مظهر معقد ولا عقلاني وغامض . هكذا كان تروتسكي يرى في عام ١٩٠٣ ان الفريقين يعتنقان المبادئ السياسية والتنظيمية ذاتها . ولم يكن يرى ما أدى بهما الى الانفصال ، اللهم إلا قساوة لينين تجاه رفاقه ، ولا سيما تجاه رفيقين مرموقين كزاسوليتش واكسلرود . وكان يعتقد أن هذا الانشقاق غير المجدي كان مصدر ضعف للحزب والطبقة العاملة ، لا اكثر ولا أقل .

كان ذلك صحيحاً ، تماماً ، بصورة من الصور ، فحتى ذلك الحين ، لم يكن القادة الأساسيون يتعارضون إلا باختلاف طباعهم ، مع ان كلاً منهم كان يلجأ في الحال الى اضفاء طابع عقلاني على اعتراضاته ويجعل منها قضية أفكار ومفاهيم . إلا أن اختلاف الطباع لم يكن بلا معنى ، فبافتقاد لينين « الاحترام » تجاه القدامى ، اظهر أنه يخضع كل عاطفة ـ ولو كانت تستحق المديح ـ وكل اعتبار آخر ، للمتطلبات الأكثر سمواً على صعيد السياسة والتنظيم . فلو كان ينبغي التضحية بمؤسسي الحزب لصالح الفعالية لضحى بهم ، ذلك ان حركة سرية تتصدى للقلعة القيصرية وتواجه قمعاً شرساً لا يمكن ان تسمح لنفسها بتوزيع وظائف شرفية ، حتى على اولئك الذين اسسوا الحركة . وبالطبع كان ذلك موقفاً متعصباً ، وبمعنى ما ، غير انساني . والانسان الذي يتصرف هكذا لا يتردد في

التضحية بأشخاص آخرين وباعتبارات اخرى على مذبح ما يعتبره المصلحة الحيوية للثورة . الا انه لا يمكن لحزب ثوري أن يعمل من دون مقدار كبير من هذا التعصب . عليه ان ينظر بجدية الى الحكمة التي طرحها بليخانوف ، والتي تقول : ان سلامة الثورة هي القانون الأسمى . وقد كان خصوم لينين ، من جهة اخرى ، يعطون مشاعرهم الشخصية الوزن ذاته الذي اقسموا ان يعطوه لذلك القانون . وسوف يعطون في فترة لاحقة الوزن ذاته لمشاعر اخرى واعتبارات اخرى متعارضة مع التطلعات الثورية التي كانوا يجاهرون بها ، وسوف يظهرون كتوفيقيين لا كثوريين .

إلا أنه لا يفاجئنا ان يكون مغزى ذلك التباين ، الذي يبدو بديهياً للغاية للمتطلع الى الماضي ، بقي محجوباً عن معظم الممثلين . لم يلاحظ تروتسكي المنظور الثوري خلف قساوة لينين الشخصية . ولا شك أن أسباباً اخرى ثبتته في موقفه . فإلى جانب لينين كان يرى بليخانوف المتعجرف والمتعالي الذي عامله ببرودة في العديد من المناسبات ومن دون مبرر ظاهر . ومن الجهة الاخرى كان هنالك كل الرجال والنساء ، المتحمسين والمتواضعين ، الذين يدين لهم بالكثير . ولقد كان خياره واضحاً ، ذلك الخيار الذي سيأسف له بمرارة في يوم من الأيام .

بعد المؤتمر مباشرة تقريباً ، وتحت تأثير النقاش الحاد ، كتب **تقرير الوفد السيبيري المنتدب** ، وهو « وثيقة انسانية بالنسبة للمؤرخ المقبل » كما سمّاه هو بالذات ، وكان يعبر فيه ، بالكثير من التكلف ، عن خيبته وعدائه للينين وتناقضات موقفه .

« اعتقد المؤتمر انه يقوم بعمل بناء ، لكن هذا العمل كان تخريبياً . . . من كان في وسعه ان يتخيل ان هذه الجمعية ، التي جمعتها الايسكرا ستستبسل في مهاجمة الفريق المشرف على الايسكرا ؟ . . . أي سياسة مستبصرة كان في وسعها ان تقرأ في كرتها البللورية ان مارتوف ولينين . . . سيظهران كزعيمي زمرتين متعاديتين ؟ كل ذلك حدث كزمجرة رعد في سماء زرقاء . . .[٣٨] . ان هذا الرجل (لينين) ، بالقوة والموهبة اللتين يمتلكهما ، لعب دور مفكك للحزب . . . وخلف لينين . . . كانت تقف الأغلبية الجديدة ، المتلاحمة جيداً ، المؤلفة من « متصلبي » الايسكرا ، الذين يقفون في وجه « متميعي » الايسكرا . أما نحن ، مندوبي الاتحاد السيبيري ، فقد تحالفنا مع « المتميعين » . . . ولا نعتقد أننا كدرنا بذلك مثلنا الأعلى الثوري . . . كان قد جرى اعتبار الإبقاء على الفريق القيادي القديم للايسكرا أمراً مفروغاً منه . . . وفي الغد ، كنا

(٣٨) تروتسكي ، فتوروي سييزد R.S.D.P.R ، (أوتشيت سيبيريسكوي ديليغاتسي) ص ٨ ـ ١١ .

ندفن الايسكرا ، أيها الرفاق . . . . الايسكرا انتهت ، أيها الرفاق ، لم يعد في وسعنا الكلام عليها إلا بصيغة الماضي ، أيها الرفاق » .

وقد كتب ، وهو يكرر كلام مارتوف ، ان شهوة السلطة دفعت لينين لوضع الحزب « في حالة طوارئ » وفرض « قبضته الحديدية » عليه[٣٩] . لقد منينا بفشل لأن القدر لم يقرر انتصار المركزية ، بل انتصار النزعة الذاتية (لدى لينين) » . مثل روبسبيير جديد ، كان لينين يحاول « تحويل المجلس المتواضع للحزب الى لجنة سلام عام كلية القدرة » ، ومثل روبسبيير ، كان يمهد الطريق لـ « تروميدوريي الانتهازية الاشتراكية »[٤٠] . « للمرة الأولى اقام تروتسكي هذه المماثلة التي سيعود اليها مراراً عدة خلال حياته ، ضمن سياقات مختلفة وظروف مختلفة . هو ذا ما كان يريد ان يفهمه الآخرون : عبر الارهاب ، احدث روبسبيير الردة الترميدورية التي شكلت تقهقرًا ، لا بالنسبة لليعاقبة وحسب ، بل بالنسبة للثورة الفرنسية بمجملها . والأمر ذاته يقال عن لينين ، فقد دفع بمبدأ المركزية بعيداً جداً ، وبذلك لن يفقد اعتباره وحسب بل سيتسبب أيضاً بردة ضد مبدأ المركزية بالذات ، ردة تلائم انتهازيي الحركة واتحادييها . وأضاف تروتسكي ساخراً في حاشية لاحقة انه لم يرد مقارنة لينين بروبسبيير : فالقائد البلشفي لم يكن غير تحريف ساخر لروبسبيير الذي كان يشبهه « مثلما تشبه هرجة مبتذلة تراجيديا تاريخية »[٤١] ما ان قرر مناهضة لينين حتى توقف عن مضغ كلماته . هاجمه بكل ما لديه من عنف المشاعر ومن قوة الشتيمة .

هذا وقد وضع قادة الاقلية ـ المناشفة ـ تهديدهم بمقاطعة اللجنة المركزية والايسكرا موضع التنفيذ ، كما أن تروتسكي اوقف هو الآخر كل تعاون من جانبه . واجتمع المناشفة في جنيف في ايلول / سبتمبر عام ١٩٠٣ ليضبطوا الخطوط العريضة لعملهم لاحقاً : الى اي حد عليهم أن يصلوا بالمقاطعة ؟ هل عليهم المخاطرة بأن يُتّخذ قرار طرد بحقهم ، وفي تلك الحالة ، هل يشكلون حزباً منافساً ؟ أو هل عليهم ، على العكس ، ان يرتبوا الامور بحيث يبقون في الحزب ويحاولون استبعاد لينين في المؤتمر اللاحق ؟ ولقد كانت الآراء منقسمة . فبالرغم من عنف هجمات تروتسكي العلنية على لينين ، كان يدعو الى الاعتدال ؛ كان هدف المقاطعة ، حسبما قال ، الضغط على لينين وبليخانوف لارجاع القدامى الى مراكزهم الاساسية وإعادة الوحدة . وتبنى الاجتماع قراراً حرر مسودته كل

---

(٣٩) المرجع ذاته ، ٢٠ ـ ٢١ .

(٤٠) تروتسكي ، فتوروي سييزد R.S.D.P.R. (اوتشيت سيبيرسكوي ديليغاتسيي) ، ص ٣٠

(٤١) المرجع ذاته ، ص ٣٣ .

من مارتوف وتروتسكي . وكان الجزء من الاعلان الذي حرره تروتسكي يؤكد ما يلي : « نعتبر ان واجبنا الاخلاقي والسياسي . . . (يفرض علينا) خوض المعركة بكل الوسائل ، دون وضع انفسنا خارج الحزب ومن دون النيل من الحزب أو من فكرة تغيير في بنية الفريق القيادي ليتاح للحزب العمل بحرية من اجل نجاحه»[٤٢]. ومع ان المناشفة تخلوا عن فكرة انشقاق نهائي ، فقد شكلوا لجنة « ظل » مركزية كانت مهمتها خوض حملة ضد اللجنة اللينينية وضد الايسكرا ، لجنة معدة ، في حال القطيعة النهائية ، لقيادة الحزب الجديد . تلك اللجنة ، - أو « المكتب » - تشكلت من اكسلرود ومارتوف وتروتسكي ودان وبوتريسوف . هؤلاء الرجال - ما عدا تروتسكي - قادوا الجناح المنشفي حتى النهاية .

لم يحتج المناشفة ، في الواقع ، للاضطلاع بالدور البشع المتمثل بتفجير الحزب . فالمقاطعة التي نادوا بها بالكثير من الضجيج لم تتأخر في احداث نتائجها . فبليخانوف الذي وقف في البدء بحزم شديد الى جانب لينين كان منشغلاً بتهدئة المعارضة وانتزاع أي مبرر للشكوى لديها . حاول اقناع لينين بإعادة فريق الايسكرا القديم ، إلا أن لينين بقي على حزمه وتماسكه ، واعلمه بأنه لا يستطيع الخضوع لضغط بعض المجموعات غير الرسمية من المهاجرين والعودة عن قرار اتخذه مؤتمر قومي[٤٣] . ومن وجهة نظر الاصول التي يتمسك بها عادة حزب من الاحزاب ، كانت حجة لينين غير قابلة للدحض . إلا أن بليخانوف كان في وضع يسمح له بألا يأخذها بالحسبان ، فقد كان رئيس مجلس الحزب وكان في الوقت ذاته الرجل الأكثر نفوذاً داخل فريق الايسكرا القيادي الذي اقتصر عليه وعلى لينين بعد استقالة مارتوف . قرر بليخانوف دعوة اكسلرود وزاسوليتش ومارتوف وبوتريسوف للانضمام لهيئة التحرير ، فقدم لينين استقالته . فوضع المناشفة يدهم على الايسكرا التي كانت لا تزال تتمتع بنفوذ عظيم . وقد تساءل انصار لينين ذاتهم اذا لم يكن ذهب بعيداً جداً واذا لم يكن اكثر حكمة وتعقلاً السعي لوصل ما انقطع مع خصومهم . كان لينين مهزوماً ومعزولاً ، لكن مقتنعاً أكثر من أي وقت مضى بصحة موقفه وعازماً على الدفاع عنه .

وعاد تروتسكي الى الايسكرا مع المناشفة وسط استياء بليخانوف الشديد . لكن لما كان فعل كل ما في وسعه لعودة القدامى المظفرة ، لم يكن بليخانوف قادراً على اغلاق الباب في وجه المدافع عنهم الأكثر اخلاصاً ، والحاظي بحمايتهم ، فاكتفى في البدء بالضغط على مارتوف الذي كان آنذاك رئيساً للتحرير ليبقي تروتسكي في مركز دون المركز الذي كان

---

(٤٢) بيبسا اكسلرودا أي مارتوفا ، ص ٩٤ .

(٤٣) لينين ، سوشيننيا ، الجزء ٣٤ ، ص ١٦٢ - ٦ .

يشغله في الايسكرا القديمة ، أو دون المركز الذي كان مارتوف ينوي اعطاءه إياه . وهكذا لم تطلب من تروتسكي إلا تعليقات على موضوعات غير مهمة تقريباً ، لا سيما حين انتقد قراء من روسيا اللهجة العدائية التي اتخذتها محاجته ضد لينين[٤٤] . ومع أن بليخانوف هاجم لينين بحدة في تلك الفترة ، إلا أنه لم يكن يود دعم تلك اللهجة لدى تروتسكي . وقد طلب في الاخير وقف نشر مقالات تروتسكي في الايسكرا . حتى انه هدد بالاستقالة من الجريدة اذا لم تتم الاستجابة لطلبه . قال انه « ينفر أخلاقياً » من رئاسة تحرير جريدة يكتب فيها تروتسكي .

أما حجة ذلك « الانذار » فكانت مقالاً لتروتسكي حول الحرب الروسية ـ اليابانية التي اندلعت قبل قليل . وكان المقال الذي نشرته الايسكرا في اواسط آذار / مارس ١٩٠٤ مرتبك الاسلوب ، مشوش الفكرة . ولم تكن انتقادات بليخانوف غير مبررة كلياً ، إلا ان المقال كان يتضمن بعض الافكار المهمة ايضاً . فجزء كبير منه كان مخصصاً لفضح الليبرالية الروسية « الغامضة والحائرة والهزيلة والميالة الى الخيانة » . هذا الموقف من جانب الطبقات الوسطى كان يضر بقضية الديمقراطية ، إلا انه كان له ، بالمقابل ، اثر تعويضي : فليس في وسع الليبرالية ان تقود الثورة ؛ وبوقفها كانت تسرع « تقرير البروليتاريا مصيرها بحرية » . إلا ان المقال كان يشكل بمجموعه نقداً للحزب لا يتفق مع شتائم تروتسكي ضد الليبراليين . كان يهاجم « اغلبية لجان الحزب » ، وينتقد دعاوتها السيئة حين كانت تعلن ان الحرب ضد اليابان شنت لمصلحة البورجوازية الروسية وبدعم منها . لقد اكد تروتسكي خطأ ذلك الاتهام ، معتبراً ان القيصر يخوض الحرب لمصلحة الاوتوقراطية(*) بوجه الحصر ـ فالبورجوازيون الليبراليون كانت لديهم « استعدادات مناهضة للوطنية » . واعترض على « الكلام المعاد الماركسي المزيف » الذي كان يقال داخل الحزب : « اصبح مقياس المصلحة الطبقية الحيوي كلاماً معاداً فارغاً يفرغه من جوهره . . . كان يتحول الى سرير بروكوست(**) للمشكلات التي لم تعد تحلل بل يجري التملص منها . . . من اجل اضعاف البروليتاريا » . كان يتم توجيه الانتقاد الى البلاشفة بوجه خاص ، لكن ليس اليهم وحدهم[٤٥] .

---

(٤٤) راجع مثلاً احتجاج لجنة تفير ، الايسكرا ، العدد ٦٠ .

(*) الحكم المطلق ، او الاستبدادي (م) .

(**) بروكوست حسب الاسطورة اليونانية كان قاطع طرق في أتيكا يوقف المسافرين ويمددهم على سرير حديدي ، فيقصر قامتهم بتشويهات مرعبة أو يطيلها بشد اعضائهم بحيث تصبح بطول السرير (م) .

(٤٥) الايسكرا ، العدد ٦٢ ، ١٥ آذار / مارس ١٩٠٤ ، راجع ايضاً في ملحق الايسكرا ، حزيران يونيو ١٩٠٤ ، تعليق تروتسكي وهو نصف اعتذار .

وضع « انذار » بليخانوف الفريق المنشقي في الايسكرا في حالة ارباك . فلقد أيدوا جميعهم المقال المشكومنه ، وكانوا ينفرون من الاستغناء عن خدمات تروتسكي ، فقد كان احد الناطقين الرئيسيين بلسانهم وعضواً في لجنة الظل المركزية . الا انهم لم يستعيدوا الايسكـرا إلا بفضل بليخانوف بالذات ، وهو كان علاوة على ذلك رئيساً للمجلس ، وكانوا يدينون له بنفوذهم الراجح ، كما لم يفتأ يذكرهم بهذا الواقع . وقد بدأوا برفض شروطه ، وكانوا ينتقدون « سلوكه غير المشرّف » ، و« ابتزازه » و« ضغائنه الشخصية » . إلا أن تروتسكي قدم استقالته وعبر عن رغبته في العودة الى العمل السري داخل روسيا ، فأقنعه مارتوف وسائر المناشفة بنسيان الاهانة ومواصلة تعاونه مع الايسكرا . بيد أن بليخانوف ، الذي جعل من هذه القضية قضية هيبة ، لم يكن في وسعه التراجع ، فوضع تهديده بالاستقالة موضع التنفيذ . وفي الاخير ، وبعد أن خشي المناشفة من خسارة أقوى حليف لهم ، ذلك الذي سمح لهم بانزال الهزيمة بلينين ، لم يجدوا بداً من الخضوع لارادة بليخانوف ، وهكذا اختفى اسم تروتسكي من الايسكرا[٤٦] .

بهذه الطريقة بدأت القطيعة بين تروتسكي والمناشفة . ومع أنه عرض هو ذاته الاستقالة تلافياً لإزعاج أصدقائه ، إلا أن المساومة مع بليخانوف أثارت امتعاضه ، غادر جنيف مستاء واختفى بضعة اشهر ، فلم يعد يظهر في الحلقات المنشفية . كان الحقد الشخصي يتداخل مع نشوء تباينات سياسية . فلما كان المناشفة يحاولون اضفاء العقلانية على اسباب صراعهم مع البلاشفة ، شرعوا يبتعدون عن الافكار التي دافعوا عنها قبل الانشقاق . كانت وجهات نظرهم تتبدل بصدد المسائل التنظيمية كما بصدد المنظورات السياسية . فزاسوليتش تحلم جهاراً بتحالف بين الاشتراكية وليبرالية الطبقات الوسطى . وكان تيودور دان ، الذي راح نفوذه يزداد ، يطالب بذلك التحالف علناً . وكان دان وتروتسكي يتعارضان بالفطرة ، حتى حين كانا قائدين للعصبة ذاتها . فدان كان من حيث المزاج بليداً ومبتذلاً بقدر ما كان تروتسكي لامعاً ومندفعاً . كان في وسع الأول ان ينجح كلياً في مناخ مساومة سياسية ، كما اثبت ذلك الدور الذي لعبه عام ١٩١٧ في ظل نظام كيرنسكي ، أما الآخر فكان مجبولاً على الثورة . شرع المناشفة يسعون بصعوبة وراء صيغ اكثر اعتدالاً وأخذ نفوذ دان يزداد لديهم فيما يتناقص تأثير تروتسكي . وفيما كان مارتوف ذاته يعد العدة للمستقبل لاحظ سعي انصاره وراء موقف معتدل ، الا ان السيرورة التي أطلقها تخطته . ولم تترك الردة حيال روح الايسكرا القديمة تروتسكي في حال من

(٤٦) نقل خبر هذا الحادث عن بيريبيسكا بليخانوفا أي اكسلرودا ، الجزء الثاني ، ص ١٩٨ ـ ٢٠١ : بيسما اكسلرودا أي، مارتوفا ، ص ١٠١ ـ والايسكرا .

اللامبالاة . والحقيقة أنه لم يكن يمكن للأمور أن تأخذ مساراً آخر ، ذلك ان لينين ، الذي وضع نفسه في مواجهته ، كان يجسد تلك الروح . غدا تروتسكي يعتقد ان الايسكرا القديمة كانت لديها ميول تآمرية ، تماماً كالنارودنيين ، وانها كانت تظلم الاقتصاديين واخطأت في الدفاع عن اولوية التنظيم على الحركة العمالية العفوية . كانت تلك هي الاستنتاجات التي توصل اليها معظم المناشفة حين كانوا يتفحصون الماضي القريب ، وكان تروتسكي يواكبهم حتى ذلك الحين[٤٧] ، إلا أنه حان الوقت الذي غضب فيه وكان محقاً في غضبه : حين حاولوا ، للمرة الأولى ، ان يقيموا جسراً بين الاشتراكية والليبرالية . وقد تمسك بالموقف المناهض لليبرالية الذي انتصر على الدوام في الايسكرا القديمة . هكذا بدأ يفهم خلال نقاشات طويلة مع المناشفة الى أي حد كان بعيداً عنهم ، بما يخص تلك المشكلة الجوهرية ، وقريباً من لينين .

إلا أنه قبل أن يقطع علاقته بالمناشفة ، هاجم لينين مرة اخرى ، موجهاً اليه سلسلة من الشتائم الجارحة جعلت أي مصالحة شبه مستحيلة . ترك تروتسكي الايسكرا في نيسان / أبريل ١٩٠٤ ، وفي آب / أغسطس ظهرت في جنيف مقالته النقدية : **مهامنا السياسة** ، التي اهداها الى : « معلمي العزيزي ، بول . ب . اكسلرود » . وتكمن الاهمية السيرية والتاريخية الخاصة بهذه المقالة في كونها قرار الاتهام الاكثر فظاظة الذي حدث ان كتبه اشتراكي ضد لينين . كما تكمن ايضاً في التيار الفكري الذي كان يعبر عنه وفي الحدوس intuitions السياسية الخاطفة المنثورة في اكثر من مئة صفحة مضغوطة ، محشوة بانتقادات حادة .

« في اللحظة التي كان يطرح علينا فيها التاريخ المهمة الكبيرة ، مهمة قطع عقدة الرجعية في العالم ، بدا الاشتراكيون ـ الديمقراطيون الروس وكأنه ليس لهم ما يهتمون به غير خصومة داخلية تافهة » . هكذا بدأ ترونسكي وهو يشير الى الحرب الروسية اليابانية تلميحاً . اية « مأساة وأي جو كابوس خلقته ! . . الجميع ، أو معظم الاعضاء ، كانوا يعون طابع الانشقاق الاجرامي ، الا انه ما كان احد يستطيع التملص من مخلب التاريخ الحديدي » . أما السبب العميق وراء الانقسام ، فينبغي البحث عنه في عجز الحزب عن التوفيق بين مهامه الديمقراطية ومهامه الاشتراكية . لم تكن روسيا عرفت بعد ثورة بورجوازية ، وكان هدف الحزب المباشر اطاحة استبدادية القيصر ؛ إلا أن هدفه الحقيقي ، لكن الأبعد ، كان الاشتراكية . كان الحزب ممزقاً باستمرار بين هذين

---

(٤٧) حول هذه النقطة ، لم يكن هنالك اي اختلاف بين تروتسكي وتشيريفانين الذي كان يمثل الجناح المنشفي اليميني .

المقصدين . وفي كل مرة كانت تدور مناقشة في صفوفه ، كان كل تكتل يتهم الآخر بالتخلي عن مصلحة البروليتاريا الطبقية لصالح الديمقراطية البورجوازية . « كل مجموعة تمثل اتجاهاً جديداً تلقي الحرم على سابقيها . وتبدو المرحلة السابقة ، للذين يصلون وفي جعبتهم افكار جديدة ، كما لو لم تكن غير انحراف فظ عن الطريق القويم ، كما لو كانت خطأ تاريخياً ! »(٤٨) .

ويتابع تروتسكي قائلاً : « ان لينين والايسكرا القديمة عاملا بهذه الطريقة اجمالاً جماعة الاقتصاديين الذين ايقظوا ، رغم حدودهم ، الطبقة العاملة الروسية . كان المناشفة أول « من حاولوا ان يبنوا فوق ما بناه أسلافهم ، بدل أن يقفوا على انقاضهم » . ؛ وهذا وحده كان علامة نضج ، فالاقتصاديون « لم يوجهوا الدعوة للبروليتاريا باسم الاشتراكية ـ الديمقراطية ، بل باسم النقابية اللاسياسية . ووجهت الايسكرا ، من جانبها ، رسالتها الاشتراكية ـ الديمقراطية للانتلليجنسيا لا للشغيلة . جر لينين الانتلليجنسيا الى الاورثوذكسية الماركسية ، الى خضوع غير مشروط لسلطة ماركس ، املاً بأن يجعل من أفراد الانتلليجنسيا قادة موثوقين لحركة عمالية لا تزال حيية ولم تنضج بما فيه الكفاية . إلا ان لينين كان يحاول تسريع وتيرة التاريخ : لأن امتلاك مذهب بروليتاري كالماركسية لم يكن يكفي للحلول محل بروليتاريا متطورة سياسياً »(٤٩) . لم يكن لينين يثق بالجماهير وكان ينظر بنوع من الازدراء الى اعمالها المرتجلة، مؤكداً ان العمال غير قادرين على الانتقال من تلقاء انفسهم من النقابية الى الاشتراكية الثورية ، وان الايديولوجية الاشتراكية سوف تحملها الانتلليجنسيا الثورية الى الحركة العمالية من « الخارج » . وقد كتب تروتسكي ما مفاده أن تلك كانت نظرية « التيوقراطية الاورثوذكسية » . وان مخطط لينين التنظيمي كان يناسب حزباً « ينوي الحلول محل الطبقات العمالية » ، والعمل باسمها بالوكالة ، دون حسبان ما يفكر فيه العمال أو يشعرون به .

هذه « الاستبدالية » (زامستيتلسفو) ـ حسبما كان يدعوها تروتسكي ـ ، هذا التصور لحزب يعمل كـ « Locum tenens » (أو قائم مقام) البروليتاريا ، كان يواجههما تروتسكي بمشروع اكسلرود القاضي بتشكيل حزب ذي قاعدة واسعة ، من نوع الاحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية الاوروبية(٥٠) . كانت طريقة لينين تؤدي الى ما يلي : تبدأ منظمة الحزب (لجنة صغيرة) تحل محل مجمل الحزب ، ثم تحل اللجنة المركزية محل المنظمة ،

---

(٤٨) تروتسكي ، ناشي بوليتيشسكيي زاداشي ، ص ٤ .

(٤٩) ن . تروتسكي ، ناشي بوليتيشسكيي زاداشي ، ص ٢٣ .

(٥٠) ـ المرجع ذاته ، ص ٥٠ .

ويحل « ديكتاتور » ، في الاخير ، محل اللجنة المركزية . . . »[٥١] . « على الحزب ان يرسي استقراره على قاعدته ، ضمن بروليتاريا نشيطة وواثقة من نفسها ، لا على فريق قيادي يمكن للثورة . . . أن تكنسه فجأة . . . » وبعد تحريف ساخر لأسلوب لينين[٥٢] « المثير للسخط والديماغوجي » ، وبعد الهزء بمحاولة لينين فرض انضباط على الحزب ، تساءل تروتسكي : « هل من الصعب للغاية ان نرى . . . انه حين ينبغي لأي مجموعة جدية أن تجيب على مسألة معرفة ما اذا كان عليها ان تمّحي وتصمت احتراماً للانضباط ، أو أن تقاتل من اجل حياتها دون مراعاة للانضباط ، سوف تختار الحل الثاني وتقول : فليمت الانضباط الذي يخنق المصالح الحيوية للحركة » . لن يقول التاريخ انه كان على الانضباط ان ينتصر حتى لو هلك العالم من جراء ذلك ؛ إنه سيعطي الحق ، في نهاية المطاف ، لأولئك الذين « فهموا بالشكل الأعمق والأفضل مهام الثورة »[٥٣] .

أما الجزء الأكثر اثارة للفضول في هذه المقالة فهو الفصل الاخير فيها ، بعنوان « اليعقوبية والاشتراكية الديمقراطية »[٥٤] . ففي المؤتمر ، كان تروتسكي ، رد الاتهام باليعقوبية الذي وجهه الاقتصاديون ضد الايسكرا بمجملها . هذا الاتهام ، غدا يوجهه الآن للينين ، وقد رد هذا الاخير بازدراء : « إن اشتراكياً ـ ديمقراطياً ثورياً هو يعقوبي بالضبط ، لكن يعقوبي حازم ومتمسك بتنظيم البروليتاريا وواعٍ لمصالحها الطبقية » . وكما يظهر من المقالة النقدية ، كان تروتسكي بنى اتهامه على الدراسة المعمقة للثورة الفرنسية التي قام بها ؛ كان يتجه بأنظاره الى الدراما اللاحقة للثورة الروسية . أعلن أن طبائع اليعقوبي والاشتراكي ـ الديمقراطي تتنابذ . فبسبب الحدود التي كان يضعها عصر الثورة الفرنسية ، لم يكن في وسعها أن تؤسس الا مجتمعاً بورجوازياً قائماً على الملكية البورجوازية . وكانت اليعقوبية (« اقصى درجة من الراديكالية في متناول مجتمع بورجوازي ») تحاول ان تديم اللحظة الهاربة التي تمثلها ذروة الثورة ، حيث تجلى اتجاه شبه مساواتي ، لا يتفق مع التوجه الاساسي للعصر . كانت تلك طوبى محكوماً عليها سلفاً : كان على التاريخ ان يتوقف لينقذ اليعقوبية . فالنزاع بين اليعقوبية وعصرها يفسر فكر اليعاقبة وعملهم . وكان لدى روبسبيير واصدقائه فكرة ما ورائية عن الحقيقة ، حقيقتهم ؛ الا انهم ما كانوا قادرين على الاعتماد على حقيقتهم من أجل كسب قلب الشعب وروحه .

---

(٥١) المرجع ذاته ص ٥٤ .
(٥٢) المرجع ذاته ص ٧٥ .
(٥٣) المرجع ذاته ص ٧٢ .
(٥٤) المرجع ذاته ، ص ٩٧ ـ ١٠٧

كانوا ينظرون الى ما حولهم بحذر مرضي ويرون اعداء مختبئين في كل ثنية . كان عليهم أن يرسموا حدوداً بينهم وبين سائر العالم ، وقد رسموها بشفرة المقصلة . « كل محاولة لمحو هذه الحدود بين اليعقوبية وسائر العالم كانت تهدد بتحرير قوى داخلية نابذة للمركز . . . » كانت غريزة روبسبيير السياسية توحي لروبسبيير بعجزه عن ابقاء الثورة في ذروتها الزائلة في حالة طوارئ دائمة . « لم يوفروا حياة البشر لاقامة قاعدة تمثال لحقيقتهم . . . وكان يقابل ايمانهم المطلق بفكرة ما ورائية حذرهم المطلق تجاه الناس الاحياء » .

ويتابع تروتسكي فيرى أن الاشتراكي ـ الديمقراطي يختلف عن اليعقوبي بتفاؤ له لأنه يتفق مع توجه عصره . ففي بداية القرن العشرين التي شهدت تطور الصناعة الحديثة والطبقات العاملة لم تعد الاشتراكية طوبى . ان الاشتراكي ـ الديمقراطي واليعقوبي يدافعان عن « عالمين ، ومذهبين ، .وتكتيكين ، وذهنيتين متعارضتين . . . لقد كان اليعاقبة طوباويين ، اما نحن فنتطلع الى التعبير عن توجه موضوعي . كانوا مثاليين ، ونحن ماديون . . كانوا عقلانيين . . . ونحن ديالكتيكيون . . . كانوا يقطعون الرؤ وس . . . اما نحن فنوقظها الى الوعي الطبقي » .

لكن تروتسكي لم يكن ينكر بعض التشابه بين اليعاقبة والاشتراكيين ـ الديمقراطيين . لكن الطرفين كانا غير متوافقين . فاليعقوبي كان يناضل ضد الاعتدالية ، والاشتراكي يقف في وجه الانتهازية الاصلاحية . الا ان الاشتراكي ـ الديمقراطي لم يكن بحاجة الى المقصلة » . كانت محكمة يعقوبية حولت الى المحاكمة كل الحركة العمالية العالمية ، بتهمة الاعتدال ، وكان رأس الأسد ، رأس ماركس أول رأس يمكن أن يسقط بالمقصلة(٥٥) .

لقد كان روبسبيير يقول : « لا أعرف إلا حزبين ، حزب المواطنين الجيدين وحزب المواطنين الاشرار » ؛ وهذه الحكمة محفورة في قلب « ماكسيميليان لينين » الذي يمثل « طبعه الخبيث والمتشكك والكريه من الناحية الأدبية الكاريكاتور الشاحب للتشدد المأساوي لدى اليعقوبي . . . » (كان يصفه في المقطع ذاته كـ « احصائي ماهر ووكيل مهمل ») .

ويخلص تروتسكي الى القول بضرورة الخيار بين اليعقوبية والماركسية . فاذا أراد لينين الجمع بينهما انتهى الى التخلي عن الاشتراكية والظهور كقائد للجناح الثوري في الديمقراطية البورجوازية . ان اخطر مأخذ يأخذه تروتسكي على لينين يكمن في انه تحول

(٥٥) ن . تروتسكي ، ناشي بوليتيشسكي زاداشي ، ص ٩٥ .

من اشتراكي الى بورجوازي راديكالي لأنه ليس غير السياسي البورجوازي يمكنه أن يشعر تجاه الطبقة العاملة بحذر في حدة حذر لينين(٥٦) . وكان انصار لينين يذهبون أبعد وأبعد ، ويتطلعون جهاراً الى « ديكتاتوريتهم على البروليتاريا » . وحين يرى المرء كيف ان بعض البلاشفة (كان تروتسكي يستشهد بمنشوراتهم في الأورال) يطالبون بحزب متماثل بشكل مطلق « يحس برعشة في الظهر » .

وقد أنهى برهانه بهذا النقد للتماثل :

« ستكون مهام النظام الجديد معقدة لدرجة عدم القدرة على التصدي لها إلا بالتنافس بين طرائق مختلفة في البناء السياسي والاقتصادي ، بنقاشات طويلة ، بنضال منهجي لا يضع العالمين الاشتراكي والرأسمالي وحسب وجهاً لوجه ، بل كذلك عدة اتجاهات داخل الاشتراكية ، اتجاهات ستظهر بالضرورة منذ تطرح ديكتاتورية البروليتاريا عشرات ومئات من المشكلات . . . الجديدة . ما من منظمة « تسلطية » ، مهما تكن قوية ، . . . يمكنها ان تلغي الاتجاهات والنقاشات . . . ان بروليتاريا قادرة على ممارسة ديكتاتوريتها على المجتمع لن تسمح بسلطة ديكتاتورية . . . فالطبقة العاملة . . . ستجد بالتأكيد في صفوفها بعض السياسات الرديئة . . . وكتلة من الأفكار اللاغية . . . التي يتبغي التخلص منها . وفي فترة الديكتاتورية ، كما الحال الآن ، ينبغي ان تنبذ النظريات الخاطئة والتجربة البورجوازية ، وتطرد من صفوفها السياسيين الثرثارين والثوريين المتطلعين الى الماضي . . . لكن لا يمكن حل هذه المشكلة المعقدة بوضع فريق صغير من الرجال المختارين بدقة فائقة فوق البروليتاريا . . . أو شخص واحد مقلد سلطة التصفية والفصل(٥٧) .

ومن بين كل كتابات تروتسكي ، المنشورة على امتداد اربع سنوات ، ربما هذه هي الوثيقة الأكثر ادهاشاً ، لا سيما اننا نجد فيها افكاراً عظيمة وحيلاً سياسية صغيرة ، ملاحظات تاريخية ، وزخارف متكلفة ، وقد خضعت لتجميع غريب . ما من كاتب منشفي هاجم لينين يوماً بهذا العنف وبنبرة شخصية الى هذا الحد . فالرجل الذي مد يد الصداقة الى تروتسكي منذ وقت قصير جداً ، واستقدمه الى اوروبا الغربية ، و « أطلقه » ، ثم دافع عنه ضد افتراءات بليخانوف ، هذا الرجل يطلق عليه تروتسكي

(٥٦) يستشهد تروتسكي هنا بأكسلرود الذي قارن تطور لينين بتطور ستروفه . ويرسم تروتسكي في مقالته النقدية هذه صوراً براقة لقادة مناشفة ، ولا سيما اكسلرود ومارتوف ، معرفاً الأول بأنه « ماركسي كبير وعقل سياسي نفّاذ» ومعتبراً الثاني «دوبروليوبوف جيله » .

(٥٧) المرجع ذاته ، ص ١٠٥ .

صفات من مثل « مثير للسخط » و « منحلّ » و « ديماغوجي » و « وكيل مهمل » و « خبيث ومنفرٍ اخلاقياً » . طبعاً ، كان الماركسيون ـ ولا سيما الروس منهم ـ معتادين على قول ما يفكرون به بصراحة فظة . الا انهم كانوا يتحاشون عموماً القيام بهجمات شخصية . ولا يمكن أن نفسر انتهاك تروتسكي لهذه القاعدة باندفاع الشباب وحسب ، لقد كان ذلك يكشف موقفاً مميزاً لم يتخلص منه ابداً بشكل تام : فهو لم يكن يستطيع الفصل بين الافكار والناس .

لم يكن يسند اتهاماته الى وقائع تعطيها وزنها في نظر المؤرخ . فحتى ذلك الحين لم يكن لينين استبعد أي عضو من الحزب ، بل اكتفى بالاصرار على صحة التفويض الذي منحه اياه المؤتمر وبتحذير اعضاء المعارضة من انه سيضطر لاتخاذ تدابير بحقهم اذا ظلوا يعيقون تطبيق قرارات المؤتمر الرسمية عن طريق مقاطعة القيادة المنتخبة . وبعمله هذا كان يفعل ما يفعله في الظروف ذاتها أي قائد في أي حزب[٥٨] . ولما كان المناشفة استعادوا في البدء الايسكرا ، بعد سلسلة من الحوادث والمناورات الشخصية ، ثم أبعدوا لينين عملياً عن القيادة ، فقد استمرت سلطته الرسمية وقتاً قصيراً لم يفعل شيئاً ابانه لوضع تهديداته موضع التنفيذ . ولكن ما ان وصل زعماء المعارضة الى السلطة حتى وجهوا للينين التحذيرات ذاتها ، علماً انهم كانوا أقل تخويلاً لتوجيهها اذ لم يقم مؤتمر بانتخابهم[٥٩] .

كل ذلك كان تروتسكي يعرفه وقد قاله في مقالته النقدية ، وكانت اتهاماته تقوم فقط على استنتاجات وعلى نقطة نظرية واحدة . لقد دافع لينين عن الفكرة التي تقول ان الانتلليجنسيا الثورية لعبت من الناحية التاريخية دوراً خاصاً في الحركة العمالية ، عن طريق اعطائها منظورات ماركسية ما كان استطاع العمال ، لوحدهم ، ان يستخلصوها . وكان تروتسكي يرى في هذا التأكيد انكاراً للطاقات الثورية لدى الطبقة العاملة ، وطموحاً من

---

(٥٨) ـ حين كانت روزا لوكسمبورغ تهاجم لينين في نيو زايت وفي الايسكرا (عدد ٦٩ ، ١٠ تموز / يوليو ١٩٠٤) كانت تأخذ عليه كونه ادخل الى روسيا نماذج التنظيم الاوروبي والالماني والانكليزي . ففي الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني كان يدعم القادة المعتدلون المركزية ضد الجناح الثوري . وكان كارل كاوتسكي (الايسكرا ، عدد ٦٦ ، ١٥ / مايو ١٩٠٤) يوجه الانتقاد ذاته الى لينين ، قائلاً : ما يعتبر غذاء لاوروبا هو سمّ لروسيا . وكان الاشتراكيون الثوريون الروس ، اعداء البلشفية لاحقاً ، يؤيدون لينين بحرارة . (راجع ايفولوتسيا روسكوي سوتس . ميسلي في فستنيك روسكوي ريفولوتسيي ، العدد ٣) . ويمكن ان نرى في ذلك الى اي حد كانت تعاكس التاريخ الموضوعة التي دعمها البلاشفة والعديد من خصومهم في الوقت ذاته ، والتي تقول ان نموذج المركزية الذي قدمه لينين عام ١٩٠٣ ، كان شيئاً خاصاً بالبلشفية ، فضيلتها الخاصة او خطيئتها الأصلية .

(٥٩) كان بارفوس ، وهو اقرب الى المناشفة منه الى البلاشفة (انظر الفصل القادم) يأخذ على المناشفة تبنيهم طرائق التنظيم الديكتاتورية التي ينسبونها للينين . بارفوس ، روسيا أي ريفولوتسيا ، ص ١٨٢ وما بعدها .

جانب الانتلليجنسيا، التي نطق لينين بلسانها ، الى ابقاء الحركة العمالية تحت وصايتها . وكان يرى في ذلك نية من النموذج اليعقوبي ، أو ـ كما نقول اليوم ـ من الديكتاتورية الكليانية . إلا أن العديد من الكتاب الاشتراكيين اصروا على دور الانتلليجنسيا الفريد في الحركة العمالية ، وفي الواقع ، لقد استمد تروتسكي منظوراته من كاوتسكي ، الذي كان مرجعاً اساسياً في النظرية الماركسية(٦٠) . لقد كان مثقفون يقودون كلا التكتلين ، البلشفي والمنشفي : لم يكن يضم المؤتمر الاخير غير ثلاثة عمال من أصل عشرات المندوبين . لم يكن هنالك ، اذاً ، أي مبرر لإسقاط « خطأ » التعبير عن تطلعات المثقفين على رأس لينين . ففي مفهوم النظام الثوري كما صوره لينين ، لم يكن ثمة نقطة واحدة يمكن ان يدعم بها تروتسكي اتهامه . لقد اكد لينين آنذاك ، وطوال سنوات عديدة لاحقة ، ان الحكومة الثورية في روسيا ستتكون من تحالف احزاب وأنه لا يمكن للاشتراكيين حتى ان يأملوا بالحصول على الاغلبية فيها(٦١) . ان فكرة دولة احادية الاتجاه لم تخطر حتى بباله . وكان تروتسكي أقرب آنذاك الى تلك الرؤ ية من لينين : لم يطل الوقت حتى بدأ يدافع في وجه لينين عن ديكتاتورية البروليتاريا كهدف الثورة المباشر ، وهو ما لم يكن يعني بالضرورة دولة احادية الاتجاه لكن كان يستتبع حتماً نوعاً من التقارب . وباختصار ، لم يكن في وسع تروتسكي ان يجد ، ان في الممارسة او في النظرية ، ملامح مهمة تسمح له بأن يعطي هذه الصورة عن لينين كروبسبير روسي يرسم بالمقصلة حاجزاً بين حزبه والعالم . كانت ثمة حاجة لخيال ناقد نزويّ وغير مسؤ ول كي يظهر خصمه في مرآة مشوّهة الى هذا الحد .

إلا أنها كانت مع ذلك مرآة للمستقبل أمينة ، مع أن روبسبير الروسي لم يكن لينين بمقدار ما كان خليفته ، الذي لم يكن يومذاك غير اشتراكي ـ ديمقراطي قوقازي مغمور تماماً . ان مرآة المستقبل تلك كانت في الواقع امينة الى درجة اننا نجد فيها كل عناصر دراما الثورة الروسية مختلطة . ثمة في البداية النزاع بين الديمقراطية البورجوازية والاهداف الاشتراكية للثورة ، وهو نزاع سيعود الى الظهور في الغالب . ثم هنالك النزاع بين الماركسي واليعقوبي داخل البلشفية ، وهو نزاع لم يتم حله لدى لينين ، ولا لدى البلشفية ، ولا حتى لدى تروتسكي . فحين كان تروتسكي يلح على ضرورة الخيار بوضوح بين الماركسية واليعقوبية ، لم تكن الظروف تسمح للينين ، ولا لتروتسكي ، للقيام بهذا الخيار . وكانت المرآة تُظهر كذلك المراحل التي سيجتازها حزب الثورة : « يحل فريق محل

---

(٦٠) لينين ، سوش . ، الجزء ٥ (شتوديلات) ، ص ٣٥٤ ، كاوتسكي في نيوزايت ، العدد ٣ ، ١٩٠١

(٦١) لينين ، سوش ، ج ٨ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ ؛ انظر الفصل الآتي .

صفات من مثل « مثير للسخط » و« منحلّ » و« ديماغوجي » و« وكيل مهمل » و« خبيث ومنفرٌ اخلاقياً » . طبعاً ، كان الماركسيون ـ ولا سيما الروس منهم ـ معتادين على قول ما يفكرون به بصراحة فظة . الا انهم كانوا يتحاشون عموماً القيام بهجمات شخصية . ولا يمكن أن نفسر انتهاك تروتسكي لهذه القاعدة باندفاع الشباب وحسب ، لقد كان ذلك يكشف موقفاً مميزاً لم يتخلص منه ابداً بشكل تام : فهو لم يكن يستطيع الفصل بين الافكار والناس .

لم يكن يسند اتهاماته الى وقائع تعطيها وزنها في نظر المؤرخ . فحتى ذلك الحين لم يكن لينين استبعد أي عضو من الحزب ، بل اكتفى بالاصرار على صحة التفويض الذي منحه اياه المؤتمر وبتحذير اعضاء المعارضة من انه سيضطر لاتخاذ تدابير بحقهم اذا ظلوا يعيقون تطبيق قرارات المؤتمر الرسمية عن طريق مقاطعة القيادة المنتخبة . وبعمله هذا كان يفعل ما يفعله في الظروف ذاتها أي قائد في أي حزب[٥٨] . ولما كان المناشفة استعادوا في البدء الايسكرا ، بعد سلسلة من الحوادث والمناورات الشخصية ، ثم أبعدوا لينين عملياً عن القيادة ، فقد استمرت سلطته الرسمية وقتاً قصيراً لم يفعل شيئاً ابانه لوضع تهديداته موضع التنفيذ . ولكن ما ان وصل زعماء المعارضة الى السلطة حتى وجهوا للينين التحذيرات ذاتها ، علماً انهم كانوا أقل تخويلاً لتوجيهها اذ لم يقم مؤتمر بانتخابهم[٥٩] .

كل ذلك كان تروتسكي يعرفه وقد قاله في مقالته النقدية ، وكانت اتهاماته تقوم فقط على استنتاجات وعلى نقطة نظرية واحدة . لقد دافع لينين عن الفكرة التي تقول ان الانتلليجنسيا الثورية لعبت من الناحية التاريخية دوراً خاصاً في الحركة العمالية ، عن طريق اعطائها منظورات ماركسية ما كان استطاع العمال ، لوحدهم ، ان يستخلصوها . وكان تروتسكي يرى في هذا التأكيد انكاراً للطاقات الثورية لدى الطبقةالعاملة ، وطموحاً من

(٥٨) ـ حين كانت روزا لوكسمبورغ تهاجم لينين في نيو زايت وفي الايسكرا (عدد ٦٩ ، ١٠ تموز / يوليو ١٩٠٤) كانت تأخذ عليه كونه ادخل الى روسيا نماذج التنظيم الاوروبي والالماني والانكليزي . ففي الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني كان يدعم القادة المعتدلون المركزية ضد الجناح الثوري . وكان كارل كاوتسكي (الايسكرا ، عدد ٦٦ ، ١٥ / مايو ١٩٠٤) يوجه الانتقاد ذاته الى لينين ، قائلاً : ما يعتبر غذاء لاوروبا هو سمّ لروسيا . وكان الاشتراكيون الثوريون الروس ، اعداء البلشفية لاحقاً ، يؤيدون لينين بحرارة . (راجع ايفولوتسيا روسكوي سوتس . ميسلي في فستنيك روسكوي ريفولوتسي ، العدد ٣) . ويمكن ان نرى في ذلك الى اي حد كانت تعاكس التاريخ الموضوعة التي دعمها البلاشفة والعديد من خصومهم في الوقت ذاته ، والتي تقول ان نموذج المركزية الذي قدمه لينين عام ١٩٠٣ ، كان شيئاً خاصاً بالبلشفية ، فضيلتها الخاصة او خطيئتها الأصلية .

(٥٩) كان بارفوس ، وهو اقرب الى المناشفة منه الى البلاشفة (انظر الفصل القادم) يأخذ على المناشفة تبنيهم طرائق التنظيم الديكتاتورية التي ينسبونها للينين . بارفوس ، روسيا أي ريفولوتسيا ، ص ١٨٢ وما بعدها .

جانب الانتلليجنسيا، التي نطق لينين بلسانها ، الى ابقاء الحركة العمالية تحت وصايتها . وكان يرى في ذلك نية من النموذج اليعقوبي ، أو ـ كما نقول اليوم ـ من الديكتاتورية الكليانية . إلا أن العديد من الكتاب الاشتراكيين اصروا على دور الانتلليجنسيا الفريد في الحركة العمالية ، وفي الواقع ، لقد استمد تروتسكي منظوراته من كاوتسكي ، الذي كان مرجعاً اساسياً في النظرية الماركسية[٦٠] . لقد كان مثقفون يقودون كلا التكتلين ، البلشفي والمنشفي : لم يكن يضم المؤتمر الاخير غير ثلاثة عمال من أصل عشرات المندوبين . لم يكن هنالك ، اذاً ، أي مبرر لإسقاط « خطأ » التعبير عن تطلعات المثقفين على رأس لينين . ففي مفهوم النظام الثوري كما صوره لينين ، لم يكن ثمة نقطة واحدة يمكن ان يدعم بها تروتسكي اتهامه . لقد اكد لينين آنذاك ، وطوال سنوات عديدة لاحقة ، ان الحكومة الثورية في روسيا ستتكون من تحالف احزاب وأنه لا يمكن للاشتراكيين حتى ان يأملوا بالحصول على الاغلبية فيها[٦١] . ان فكرة دولة احادية الاتجاه لم تخطر حتى بباله . وكان تروتسكي أقرب آنذاك الى تلك الرؤية من لينين : لم يطل الوقت حتى بدأ يدافع في وجه لينين عن ديكتاتورية البروليتاريا كهدف الثورة المباشر ، وهو ما لم يكن يعني بالضرورة دولة احادية الاتجاه لكن كان يستتبع حتماً نوعاً من التقارب . وباختصار ، لم يكن في وسع تروتسكي ان يجد ، ان في الممارسة او في النظرية ، ملامح مهمة تسمح له بأن يعطي هذه الصورة عن لينين كروبسبيير روسي يرسم بالمقصلة حاجزاً بين حزبه والعالم . كانت ثمة حاجة لخيال ناقد نزويّ وغير مسؤول كي يظهر خصمه في مرآة مشوّهة الى هذا الحد

إلا أنها كانت مع ذلك مرآة للمستقبل أمينة ، مع أن روبسبيير الروسي لم يكن لينين بمقدار ما كان خليفته ، الذي لم يكن يومذاك غير اشتراكي ـ ديمقراطي قوقازي مغمور تماماً . ان مرآة المستقبل تلك كانت في الواقع امينة الى درجة اننا نجد فيها كل عناصر دراما الثورة الروسية مختلطة . ثمة في البداية النزاع بين الديمقراطية البورجوازية والاهداف الاشتراكية للثورة ، وهو نزاع سيعود الى الظهور في الغالب . ثم هنالك النزاع بين الماركسي واليعقوبي داخل البلشفية ، وهو نزاع لم يتم حله لدى لينين ، ولا لدى البلشفية ، ولا حتى لدى تروتسكي . فحين كان تروتسكي يلح على ضرورة الخيار بوضوح بين الماركسية واليعقوبية ، لم تكن الظروف تسمح للينين ، ولا لتروتسكي ، للقيام بهذا الخيار . وكانت المرآة تُظهر كذلك المراحل التي سيجتازها حزب الثورة : « يحل فريق محل

(٦٠) لينين ، سوش . ، الجزء ٥ (شتوديلات) ، ص ٣٥٤ ، كاوتسكي في نيوزايت ، العدد ٣ ، ١٩٠١

(٦١) لينين ، سوش ، ج ٨ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ ؛ انظر الفصل الآتي .

الحزب ، ثم اللجنة المركزية محل الفريق ، وفي الاخير يحل ديكتاتور محل اللجنة المركزية » .

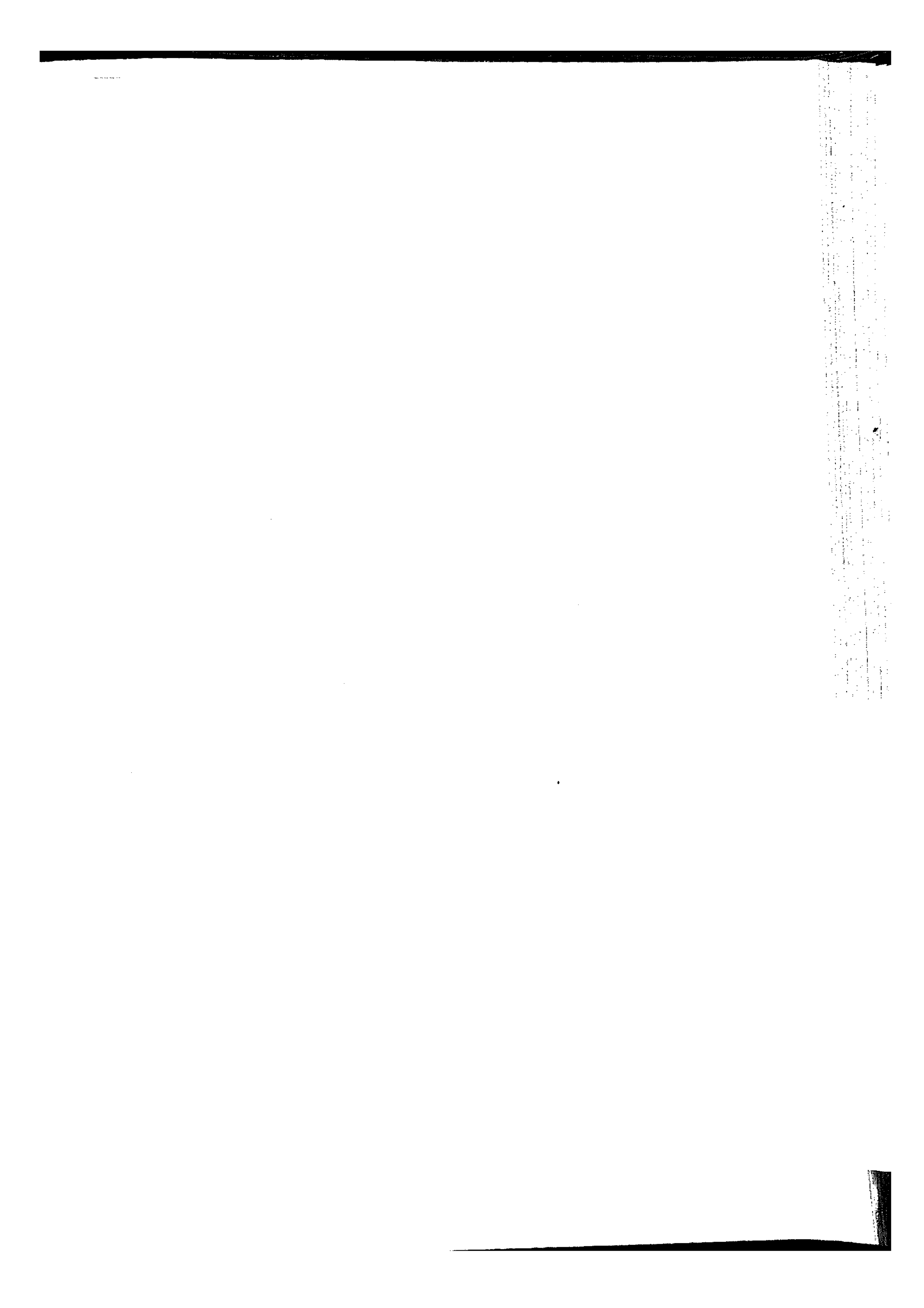
تلك هي في الواقع عناوين فصول عديدة ، من حوليات الثورة ، كانت لا تزال بعيدة في ذلك الحين . لم يكن تروتسكي يتصور انه سيذهب في يوم من الايام ابعد بكثير مما ذهب لينين في دفاعه ، عن « الاستبدالية » وامتداحه لها ، قبل أن يرتجف هولاً حين تتحقق . ثم كان هنالك ، فيما بعد ، صورة ذلك التحقق المشؤومة : صورة الدكتاتور فريسة لحذر مرضي ، وقد تقلد سلطة الفصل والتصفية ، يرى اعداءه حوله مختبئين في كل الزوايا ، ولا يوفر أي ذبيحة بشرية في صراعه لإبقاء الثورة في ذروتها ، ويعزل الثورة عزلاً مطلقاً عن سائر العالم . وكما في بداية تراجيديا كلاسيكية ، تظهر النُذُر التي يبدو انها تنبىء تروتسكي بمصيره الخاص : انه يدافع عن التنافس الحر بين الافكار والاتجاهات ، وهو دفاع سوف يكرره ، بالتعابير ذاتها تقريباً ، بعد عشرين عاماً امام محاكم البلشفية ، انه لا يزال يؤمن بحزم بأن « طبقة عاملة قادرة على ممارسة ديكتاتوريتها على المجتمع لن تسمح ابداً بأن يفرض ديكتاتور قانونه عليها » . لا يدرك انه يقوم بمصادرة خطرة جداً على المطلوب pétition de principe(*) : ما الذي يحصل اذا لم تكن الطبقة العاملة قادرة ، بعد الثورة ، على ممارسة ديكتاتوريتها ؟ انه يؤمن كلياً بأن الثورة ستنتهي الى اعطاء الحق لأولئك الذين « يفهمون بالشكل الأعمق والأكمل » متطلبات عصرهم ، وهو ايمان اكده طيلة حياته ، حتى اللحظة التي شق فيها رأسه المعول الصدئ في يد احد القتلة . وفي الاخير ، كما لو انه توقع تلك اللحظة ، يشعر بـ « رعشة باردة تجتاز ظهره » وهو يتصور ما يخاطر بأن يصير اليه حزب لينين .

ليس في وسعنا أن نعيد تفصيل السيرورة الذهنية التي توصل بواسطتها الى هذه الرؤيا المستقبلية . وكونه نقصته أحداث فعلية لإسناد استنتاجاته يظهر ان الامر يتعلق بسيرورة حدسية لا باستدلال منطقي . ولا يمكننا الا ان نسجل بعض الحوادث الخارجية التي حفزت خياله . فبوجه عام كان بعض المناشفة اقاموا في السابق المقارنة بين البلاشفة واليعاقبة . فبليخانوف قال عن لينين في وقت كان لا يزال فيه حليفاً له : « انه من المعدن الذي يصنع منه امثال روبسبيير » هذا الـ obiter dictum(*) كرره آخرون ، بصوت خافت في البدء ، ثم جهاراً لكن لم يكن أحد يأخذ هذا الكلام بمعناه الحرفي (ولا حتى صاحب

(*) المصادرة على المطلوب هي خطأ منطقي يعتبر فيه المرء القضية التي ينبغي البرهان عليها امراً مسلماً به (المعرب) .
(*) باللاتينية في النص (م)

ذلك الكلام) ـ بل كانوا يقبلونه كنكتة قالها بليخانوف . اما تروتسكي فأخذ الكلمة بحرفيتها ، أو على الأقل بجدية كافية ليغوص في تاريخ اليعقوبية ويدرسه بشغف فيما يقيم المقارنة . ان خياله الذي الهبته التراجيديا اليعقوبية وفاض بالصور المكتشفة حديثاً ، أسقط تلك الصور على المجموعات والافراد الذين كان يلتقيهم كل يوم ـ على مستقبل روسيا البعيد . وكان يمكن لذلك الاسقاط ان يبدو مجانباً ونزويّاً على ضوء تحليل عقلاني دقيق . فذهن اكثر بروداً واكثر انضباطاً ما كان ليرتضي توقعات الرائي تلك . الا انه كان لدى تروتسكي حاسة سادسة بشكل ما ، حدس تاريخي يميزه عن المفكرين السياسيين من جيله عرّضه احياناً للانتقادات الساخرة ، لكنه أعطاه الحق غالباً ، وإن بصورة متأخرة جداً في بعض الاحيان .

خلف محاجّاته واسقاطاته الخيالية ، كان الحماس المخبوء لثوري رومانسي ، ذلك الحماس الذي كان ينفجر في مواجهة واقع الحزب ، مذ ينبغي له ان يجابهه ، مع انه دافع ، هو بالذات ، عن ضرورة حزب منضبط ومنظم بصرامة . كانت ميوله وأذواقه ومزاجه تنتفض ضد التصميم العادي والعملي ، الذي كان لينين يحاول عبره ان يخرج الحزب من غيوم التجريد ويعيده الى ارض التنظيم الصلبة . ولم يكن احتجاج تروتسكي يختلف كثيراً عن ذلك الذي اطلقه ، وهو في السابعة عشرة من عمره بغضب في وجه سوكولوفسكايا ، الماركسية الأولى التي التقاها : « فلتحل اللعنة على من يودون اصابة كل العلاقات الحياتية بالجفاف والقسوة ! » . تلك الصرخة التي اطلقها في الليلة الاخيرة من عام ١٨٩٦ ، في بستان شفيكوفسكي كان صداها يترجع في أهجيته المعادية للينينية عام ١٩٠٤ .



تعاون فكري

في الفترة التي ظهرت فيها مهماتنا السياسية ، في آب /اغسطس ١٩٠٤ ، كان الوضع داخل الحزب مختلفاً جداً عما كان عليه في السنة السابقة ، غداة الانشقاق . لم تكف الايسكرا المنشفية عن مضايقة لينين الذي بقي لمدة من الزمن غير قادر على الرد على الهجمات : فجريدته ، الفبريود ، لم تتمكن من الظهور إلا بعد مرور ستة اشهر . كان بليخانوف يهزأ من حليفه سابقاً ، مقتنعاً أنه أفسد سمعته الى الأبد . فأولياء الاشتراكية الاوروبية ، والالمانية بوجه خاص ، الذين كانوا يعرفون بليخانوف منذ زمن بعيد ويحترمونه ، انضموا اليه في جوقة واحدة ضد لينين الذي اعتبروه دخيلاً غراً وغامضاً . حتى اللجنة المركزية البلشفية ذاتها كانت تتعامل مع المناشفة دون الاهتمام بالموقف الذي يتخذه لينين . الا انه حين ظهرت مقالة تروتسكي الهجائية ، جمع لينين في سويسرا البلاشفة المستعدين للحاق به وعرض عليهم خطة للدعوة الى مؤتمر جديد ، بمشاركة المناشفة أو من دون مشاركتهم .

بدا أن الأحداث تخطت مقالة تروتسكي : فلقد تبدد العدو قبل ان يتمكن من تلقي صدمة الهجوم . واضاف تروتسكي ، بالتالي ، مقدمة لـ مهامنا السياسية ، كتب فيها ان ازمة الحزب قد انتهت وان في وسع أنصار الوحدة النظر الى المستقبل بثقة ، لأن المتطرفين ، أكانوا لدى البلاشفة أو لدى المناشفة ، فقدوا حظوتهم وتم عزلهم . ان رجل سياسة اكثر تجربة أو اكثر انتباهاً الى الأثر الجارح الذي يحدثه كلامه ، كان امتنع ، بالمناسبة ، عن نشر الأهجوة ، أو كان أسقط منها على الأقل الشطط والاسراف الجداليين . إلا أن تروتسكي كان مأخوذاً بكلماته الى الحد الذي يحول بينه وبين ذلك . بيد انه حاول في المقدمة أن يأخذ الوضع الجديد بالحسبان : فلقد حض المناشفة على حل منظمتهم المنفصلة ، ذلك الحزب داخل الحزب ، الذي كان هو أحد قادته السريين . كتب بأبهة أن على المناشفة ان يقبلوا « الموت التنظيمي » ، أي اندماج المجموعتين المتعارضتين حتى ذلك الحين[1] . إلا أن نداءه لم يحظ بالاستجابة ، والانشقاق بدأ يتبلور ويتركز . فـ

(١) تروتسكي ، ناشي بوليتيشسكيي زاداشي ، ص ٨ .

« المتعصبون » في المجموعتين كانوا ينشطون ، فمجموعة لينين في صفوف البلاشفة كانت تعتبر التبدلات الطارئة منذ المؤتمر اغتصابات منشفية على المؤتمر الجديد ان يضع حداً لها . والمناشفة الذين استعادوا مواقع قوة لم يكونوا ينوون المخاطرة بخسارتها في مؤتمر جديد ، ولا حتى تقاسمها مع خصومهم ، وهو ما كان يمكن ان يحدث في حال الاندماج . وبعد ان وصف تروتسكي لينين بـ « مفسد التنظيم » ، مرفقاً هذا الوصف بالكثير من الضجيج ، استاء لاكتشافه « مفسدين للتنظيم » في صفوف اصدقائه المناشفة . فبدأ يكرز بينهم بالمصالحة ، مظهراً ما يكفي من الاعتدال . لقد انضم الى المناشفة ليصلح الخطأ الذي ارتكبه لينين بحق مؤسسي الحركة ، وعبرهم بالحركة بالذات ، ولقد تم اصلاح الخطأ حقاً . واللجنة المركزية البلشفية بالذات كانت ترغب في اصلاحه . ما كان ينبغي فعله الآن لاختتام هذا الفصل المؤلم يكمن في التخلص من الترتيبات الخاصة التي كانت ضرورية لهزيمة لينين ؛ ينبغي ان يتصافح في الاخير ذوو النيات الحسنة في جناحي الحزب . لم يفهم تروتسكي ان التدابير الخاصة اتخذت لتدوم .

في مجادلات من هذا النوع ، لا يكون الساعي لأجل المصالحة على الرحب والسعة ابداً . فهو يهدد بقلب الخطط وخلط الأوراق جميعاً . ينظر اليه اصدقاؤه بحذر ، ويكادون ينظرون اليه كخائن . هكذا كان ينظر المناشفة الآن الى تروتسكي : لم يكن سلوكه واضحاً ، بل كان شبيهاً بموقف البلاشفة المعتدلين ؛ ما كان بمستطاع احد ان يحدد موقعه في الغد . وفي الحقيقة كان في وسع تروتسكي أن يغدو بسهولة احد « المصالحين » البلاشفة لو ان هجماته الحادة على لينين وانصاره لم تبعده عن البلاشفة أجمعين ؛ ففي نظرهم ، كان احد اخطر المناشفة . باختصار ، كان تروتسكي يقطع علاقته بأصدقائه السياسيين ، دون ان يكون لديه حظ كبير بالتفاهم مع خصومه .

حينئذٍ بالذات خضع لتأثير رجل كان ، بمعنى ما ، غريباً عن الحزب ولعب في اعماله دور مغامر لامع . يتعلق الأمر بـ أ . ل . هلفاند ، وكان يهودياً روسياً مقيماً في المانيا ، اكتسب شهرة اقتصادي ، وصحفي ، وكاتب مؤلفات ماركسية[٢] . كان يتعاون باسم مستعار هو بارفوس مع النيوزايت ، الدورية الاشتراكية الاعظم اهمية والاكثر اصطناعاً في اوروبا ، ومع العديد من الصحف الاشتراكية الاخرى ، وكان يصدر كذلك مجلة باسم Aus der Weltpolitic ، تنبأ فيها منذ عام ١٨٩٥ بالحرب الروسية ـ اليابانية وتوقع أن تنتج

---

(٢) ترجمت كتبه الى الروسية . احدها ، اقتصاد العالم والأزمة الزراعية ، حياه لينين بإعجاب عام ١٨٩٩ . كتب لينين : « ان بارفوس يعالج بشكل رئيسي تطور السوق العالمية ، ويصف الاطوار الحديثة في هذا التطور في صلة مع افول التفوق الصناعي في انكلترا .... نوصي بشدة ... بقراءة كتاب بارفوس » . لينين سوش ، الجزء ٤ ، ص ٥١ ـ ٥٢ .

عن تلك الحرب الثورة في روسيا ، وهو توقع جرى الاكثار من الاستشهاد به بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ ، حين أثبتته الاحداث . كان بارفوس الى اقصى يسار الحزب الالماني ، معارضاً بعنف للتيار الاصلاحي ومزدرياً لادعاءات الاورثوذكسية الروسية ، التي كان بعض القادة لا يزالون يستخدمونها لإخفاء تصالحهم مع الوضع القائم . كان فطناً ومحباً للقتال ، ولذا كان يبحث عن وسائل تجديد الروح الثورية في الاشتراكية الالمانية .

كان القادة الاصلاحيون ينظرون اليه بخوف ، وبتلك السخرية التي تُدَّخر للمهاجرين الذين يحاولون ان يصلحوا اساليب البلد الذي يهاجرون اليه[٣] . وكان بارفوس يستعيد سمعته باتخاذ موقف أبوي حيال مواطنيه القدامى الذين كان يرشقهم بانتقادات اكثر لذعاً : كان يفضح « روح الحوذي والهمجية » لدى الروس في المنفى وينوي تعليمهم الطرائق السياسية الغربية . وبالرغم من هرجاته ، كان الروس ينظرون اليه كنوع من الدليل في قضايا السياسة والاقتصاد الدولي . وقد تعاون مع الايسكرا ، مستعيراً في البدء اسم مولوتوف ، ثم اسم بارفوس . وكانت دراساته تظهر عموماً في الصفحة الاولى ، وكان المحررون سعداء بنشر مقالاتهم في المقام الثاني ليتركوا له الأول . كانوا يحترمون معارفه الواسعة ، ومواهبه واحكامه ، لكن ذلك لم يكن يمنعهم من الشعور نحوه ببعض الحذر . كان هنالك شيء من الغارغانتوية والفالستافية(*) « في رأس البولدغ(**) الثقيـل وكثير اللحم هـذا » ، كما يقول تروتسكـي . الا أنه لم يظهر شيء يبرر ذلك الحذر ، مع ذلك ، طوال سنوات عديدة : لم يصدر عنه أي خطأ ، أي خطأ مشهود ، أي خطأ يسمح على الأقل بالتشكيك بنزاهته وبإيمانه الاشتراكي . كان متعاوناً غير منتظم قليلاً ، وكانت دراساته تستوجب سلاسل مقالات طويلة نادراً ما كان يسلمها في اوقاتها ، لكـنها كانت تلاقي استقبالاً جيداً . كان يقوم بمشاريع مالية تنطوي على مخاطر : فقد اخفق في محاولة انشاء دار نشر اشتراكية وكان ينوي تأسيس يومية اشتراكية تظهر في الوقت ذاته بعدة لغات اوروبية ، وتكون مهمتها اخراج الاشتراكية الاوروبية من سباتها الاصلاحي . لكن كان يحتاج لأجل ذلك الى كمية كبيرة من المال لم يتمكن من الحصول عليها ، لأنه ، على الأرجح ، لم يكن أصبح مهيأ للانطلاق في مغامرات مالية خطرة . الا انه ، لسبب أو لآخر ، كان الاحترام الذي يقابل به يمتزج ببعض السخرية والحذر .

---

(٣) حل محل السخرية احترام شديد ، منذ بدأ المهاجر يتوافق مع الاعراف ، وفي نهاية حياة بارفوس اصبح الموجه الخفي لايبرت ، رئيس جمهوريةوايمار .

(*) نسبة الى شخصيتين روائيتين مشهورتين هما غارغانتوا وفالستاف (م)

(**) نوع من الكلاب (م)

وقد أظهرت مغامراته اللاحقة انه كان في شخصيته نفّاج Snob وغشاش سياسي . الا انه كان احدى الشخصيات الاكثر جرأة والاكثر نفاذاً بين ابناء جيله . فالمفكر السياسي كان يتفوق لديه على الغشاش .

وفي المجادلات التي كانت تشق الروس ، ابدى بارفوس في البدء تعاطفاً مع المناشفة ، الا انه ما لبث ان وقف على مسافة متساوية ومعقولة من الجناحين ، كما يحسن برجل يرشح نفسه للعب دور المصالح . فلقد حاول في السابق ان يصالح جماعة الايسكرا والاقتصاديين ، وكان يحاول الآن التوصل الى هدنة فيما بين جماعة الايسكرا . وكانت علاقاته مع المجموعتين علاقات سليمة على الأقل . وحين بدأ ينتقد بعد قليل كلا المجموعتين ، وافق الجميع بطيبة خاطر على تدخله ، دون ان يتزحزحوا عن مواقعهم ، ومنحوه المعاملة المحفوظة لجهة حيادية مشهورة وحسنة النية(٤) .

بعد أن طرد تروتسكي من الايسكرا واختلف مع الجميع غادر جنيف وذهب الى ميونيخ حيث كان يسكن بارفوس . وقد أقام عنده حيث انضمت اليه سيدوفا ، امرأته الثانية . وجد تروتسكي في بارفوس رجلاً ينظر بتجرد الى الانقسامات الداخلية بين الروس ، رجلاً قادراً على الاحاطة بالاشتراكية في وضعها العالمي ، معلماً في التحليل الماركسي ، لا يفوقه احد في فن رؤية المنظورات الواسعة لصراع الطبقات وفي جعل الآخرين يرونها . وكان تروتسكي يعجب في الاخير ، وبصورة خاصة ، بـ « الأسلوب الرجولي ، والمتين » الخاص ببارفوس ، الذي بقي يحن اليه بعد القطيعة فيما بينهما بزمن طويل . وباختصار كان بارفوس لا يزال يسيطر على تروتسكي بعلمه وتجربته وحكمه الأدبي . إلا أنه ليس سهلاً قياس مدى تأثيره على تروتسكي . فحتى اليوم ينسب مغتابو تروتسكي الأبوة الحصرية لنظرية « الثورة الدائمة » الى بارفوس ، مدعين أن تروتسكي استعارها ونسخها ، وأن نظرية آتية من مصدر بهذه الدرجة من الفساد لا يمكن إلا أن تكون بلا قيمة . ولم ينكر تروتسكي ذاته ديونه تجاه بارفوس ، وإن كانت الحرارة التي اعترف بها بتلك الديون تبدلت وفقاً للحقب الزمنية والظروف . ان ما كتباه في أفضل أيام تعاونهما يبيّن الى أي حد طبعت الافكار والنظريات التي صاغها بارفوس في البدء تروتسكي ، الذي أعاد تأكيد العديد منها على امتداد حياته ، بشكل شبيه بذلك الذي اعطاها أياه في السابق صديقه القديم .

---

(٤) بارفوس ، روسايا اي ريفولوتسيا ، ص ١٨٢ ، وما بعدها ، الايسكرا ، العددان ١١١ و١١٢ (٢٤ ايلول / سبتمبر ١٩٠٥ و ٨ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٠٥) انظر كذلك مارتوف ايستورياروس . سوتس . ديم ، ص ١١٢ وما بعدها . وقد اجاب لينين بارفوس بنبرة كلها توقير واحترام (سوش . الجزء ٨ ، ص ٢٦١) .

إلا أن تروتسكي كان يتميز ببعض الصفات التي جعلت منه ، منذ البدء ، اكثر من تلميذ لبارفوس وحسب . فكانت لديه تجربة حديثة تتعلق بروسيا والنضال السري لم تتوفر لبارفوس . وكان خيال تروتسكي السياسي متوهجاً باستمرار ، بينها كانت تحليلات بارفوس وتشخيصاته ناجمة عن ذكاء جسور ، لكن بارد . كانت لتروتسكي تلك الحمية الثورية التي تمنح الافكار اجنحة تحلق بها ، بينها كان بارفوس من النموذج الثوري الساخر والوقح . وفي الاخير ، لقد حمل تروتسكي اسهامه الخاص الى رصيدهما المشترك من الأفكار . وكما في معظم الشركات من هذا النوع ، يصعب تحديد اسهامات كل من الشريكين بوضوح ، حتى بواسطة الشريكين بالذات . فالتفكير يتم بصورة مشتركة ، وحتى لو امكن في بعض الاحيان قول من سلم قبل الآخر للناشر.هذا الجزء او ذاك من النظرية ، تبقى التبادلات الفكرية بين الشريكين غير قابلة للتمييز . وكل ما يمكن تأكيده بصدد بارفوس وتروتسكي هو ان الاكبر سناً بينهما كان في الطليعة في البدء ، يقود الفريق بأفكاره وصيغه . اما فيما بعد فبدا ان الرجلين يتقدمان Pari passu(*) . وفي الاخير ، اخذ الاصغر سناً دفة القيادة بدوره ، مقدماً اسهاماً من نتاجه الخاص هو الصياغة الناجزة لمذهب سياسي جديد ، وضعه في واجهة مسرح الثورة الواسع والمختلط . علينا أن نضيف ان هذا التطور بمجمله حدث سريعاً . بدأ في صيف عام ١٩٠٤ وانتهى عام ١٩٠٦ ، حين عرض تروتسكي كتابه ، في سجن بطرسبورغ حيث كان ينتظر صدور الحكم عليه ، نظرية كاملة للثورة الدائمة . وقد كانت فترة تدربه لدى بارفوس أقصر أيضاً : لم تتخطّ بداية عام ١٩٠٥ ، التي توافقت مع بداية الثورة الاولى . كانت تلك فترة تأمل مكثف ومتسارع ؛ كان الشاب تروتسكي الذي اسقط صورة اليعقوبية على الثورة الروسية يتعلم بسرعة .

* * *

بعد اندلاع الحرب الروسية ـ اليابانية ، نشر بارفوس في **الايسكرا** سلسلة من الدراسات حول « الحرب والثورة »[٥] . قبل ذلك بكثير ، كانت مقالاته ، التي وقعها عادة باسم مولوتوف ، هزّت تروتسكي بشدة . الا ان الافكار المعروضة في « الحرب والثورة » هي التي تركت بوجه خاص ، تأثيرها الأطول مدى في نفس تروتسكي .

كانت الفكرة المركزية لدى بارفوس هي ان الدولة القومية ، كما نمت وتطورت مع الرأسمالية ، لم تعد تفعل غير الاستمرار من دون مبرر . وكانت هذه الفكرة موضوعة

(*) باللاتينية في النص (م) .

(٥) بدأ نشرها في الايسكرا ، العدد ٥٩ ، ١٠ شباط / فبراير ١٩٠٤ .

تقليدية من موضوعات الماركسية ، عرضها ماركس ، من قبل ، في البيان الشيوعي . لكن بالنسبة للكثير من الكتاب الاشتراكيين في بداية القرن ، كانت تأكيداً للمعلم يصلح لترداده خلال الاحتفالات بالعيد السنوي ، الا أنه ليس له اكثر من علاقات بعيدة بواقع اوروبا الفيكتورية والقومية والامبراطورية . كانوا يرون ان اختفاء الدولة القومية لن يتم إلا في مستقبل بعيد جداً . أما بارفوس فكان يؤكد ، على العكس ، ان الدولة القومية على وشك الزوال ، وكان يشير الى علامات ذلك ويتنبأ بالتسارع الكارثي لتلك السيرورة ويحرض الاشتراكيين على اعادة النظر في مواقفهم وسياستهم بالتوافق مع الوضع الجديد . كان يولي اهمية غير معتادة لتداخل الأمم والدول ، وهو ما يعطي لتحليلاته منظوراً واسعاً ، وعالمياً ونادراً لدى الاشتراكيين الآخرين . ولقد رأى في النزاع الروسي الياباني لعام ١٩٠٤ بداية سلسلة طويلة من الحروب سوف تقاتل فيها الدول القومية ، المنجرفة في المنافسة الرأسمالية ، من اجل البقاء على قيد الحياة . سوف تتشابك مصائر القارات . ولقد جعل فتح الغرب الاميركي التنافس بين المنتجين الزراعيين من اجل غزو الاسواق العالمية اكثر حدة واحتداماً . وكانت المصالح الزراعية والصناعية الاوروبية ، ولا سيما الالمانية ، تتضافر للتخلص من حرية التجارة وفرض مذهب الحماية protectionnisme على اوروبا الغربية . « اصبحت الجدران الجمركية حاجزاً اقتصادياً ، دون السيرورة التاريخية المتمثلة بالتوحيد الثقافي للأمم ؛ ولقد ضاعفت النزاعات بين الدول . . . وعززت سلطة الدول والحكومات . . . وكلما كانت سلطة الحكومات أقوى كلما لجأت الدول بصورة اسهل الى السلاح » . هذه الأفكار غدت بالنسبة لتروتسكي مبادئ دافع عنها طيلة حياته .

وكان بارفوس يؤكد ان التوسع الروسي في آسيا والنزاع مع اليابان هما جزئياً نتيجة ضغوط داخلية : كانت القيصرية تبحث في غزو خارجي عن وسيلة للتخلص من صعوباتها الداخلية ، الا ان الضغوط الخارجية على روسيا كانت اعظم اهمية . وفي الصراع العالمي بين الدول القومية الرأسمالية ، كانت القوى العظمى الحديثة ، وحدها ، قادرة على العمل باستقلال تام . حتى امبراطورية باتساع امبراطورية القيصر لم تكن غير « متقاضية معاش من البورصة الفرنسية » ، « بسبب تأخرها الصناعي » . « اندلعت الحرب بصدد منشوريا وكوريا ، الا انها تحولت الى صراع من اجل السيطرة في آسيا الشرقية . وفي التطور اللاحق سيكون في الميزان كل موقع روسيا في العالم ، وسوف تؤدي نهاية الحرب الى توازن سياسي جديد في العالم » .

وانهى بارفوس تحليله بالشكل التالي : « ان السيرورة العالمية للتطور الرأسمالي تقود الى هزة سياسية في روسيا ، ستكون لها ، بالضرورة ، انعكاسات على التطور السياسي في

كل البلدان الرأسمالية . وسوف تهز الثورة الروسية العالم البورجوازي . . . ويمكن للبروليتاريا الروسية ان تلعب دور طليعة الثورة الاجتماعية »[٦] .

هكذا منذ عام ١٩٠٤ ، كان بارفوس لا يعتبر الثورة الروسية المقتربة قضية روسية خالصة ، بل انعكاساً في روسيا للتوترات الاجتماعية العالمية ، والهزة الروسية القادمة كانت بالنسبة اليه مقدمة الثورة العالمية . وهذه هي العناصر الرئيسية لنظرية الثورة الدائمة . إلا أن بارفوس كان لم يتكلم بعد الا على « هزة سياسية » في روسيا ، لا على ثورة « اجتماعية » ، او اشتراكية . كان يفكر في الظاهر ، مثل كل ماركسيي ذلك الزمان ، بأن الثورة الروسية ستكون ثورة بورجوازية في الجوهر ، بسبب طابع البلد المتأخر وشبه الاقطاعي . وسيكون تروتسكي أول من يقول ان الثورة،تدفعها انطلاقتها الخاصة ، ستنتقل من الطور البورجوازي الى الطور الاشتراكي ، وسترسي في روسيا ديكتاتورية البروليتاريا ، قبل قيام الثورة في الغرب بزمن طويل .

ان الافكار الاممية والمنظورات الثورية لدى بارفوس اصبحت اذاً موضوعات الفكر التروتسكي الأساسية . لكن ثمة كذلك بعض المفاهيم التروتسكية المتعلقة بالتاريخ الروسي ، لا سيما حول الدولة الروسية ، نجد مصدرها لدى بارفوس[٧] . فبارفوس يرى ان الدولة الروسية ، التي تمثل تقاطع الاستبدادية الاسيوية والحكم المطلق الاوروبي ، لم تتأسس كأداة لطبقة محددة في المجتمع الروسي ، بل كآلة بيروقراطية عسكرية معدة بشكل رئيسي لمقاومة ضغط الغرب الاكثر تمدناً[٨] . ضمن هذا الهدف بالذات ادخلت القيصرية بعض عناصر الحضارة الاوروبية الى روسيا ، لا سيما الى الجيش . « هكذا ولد جهاز الدولة الروسي : حكم مطلق آسيوي يستند الى جيش من النموذج الاوروبي . » وهو يقول انه

(٦) الايسكرا ، العدد ٨٢ ، اول كانون الثاني / يناير ١٩٠٥ . كتب بارفوس في الدراسة ذاتها : « ينبغي الوصول الى هذه الخلاصة الغريبة التي تقول ان العامل الذاتي الاكثر حسماً في التطور التاريخي ليس الحكمة ، بل البلاهة السياسية . فالناس لم يكونوا يوماً قادرين على الاستفادة كلياً من الشروط الاجتماعية التي خلقوها . يتخيلون دائماً انهم يسبقون السيرورة التاريخية الموضوعية كثيراً ، بينما هم خلفها بأشواط بعيدة . . . وغالباً ما قاد التاريخ اولئك الذين اعتقدوا انهم يستطيعون افشاله من طرف انوفهم » . « اصبح النظام الاقتصادي في اوروبا حائلاً منذ زمن بعيد دون تطور اوروبا الثقافي والسياسي والاقتصادي . لا يبقى على قيد الحياة إلا لأن الجماهير لم تصبح بعد واعية بما فيه الكفاية لشرطها المأساوي . ان طاقة البروليتاريا السياسية غير مركزة كفاية ، وينقص الاحزاب الاشتراكية التصميم والشجاعة . ولا يستحيل ان نتخيل اخذ الاحداث مساراً يصبح الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي معه مسؤولاً سياسياً عن بقاء النظام الرأسمالي . » . هذه الفرضية كانت عجيبة جداً ، بالنسبة للمعاصرين .

(٧) ان مصدر ملاحظات بارفوس وتروتسكي بصدد التاريخ الروسي يكمن ، مع ذلك ، جزئياً ، في كتابات المؤرخ الليبرالي ب . ميليوكوف .

(٨) الايسكرا ، العدد ٦١ ، ٥ آذار / مارس ١٩٠٤ .

يكفي القاء نظرة على خط القلاع على امتداد الحدود الروسية لرؤ ية ان القياصرة سعوا لفصل روسيا عن الغرب بنوع من السور الصيني . وبعض هذه الاطروحات ، كما راجعها تروتسكي وطورها ، ستغدو بعد عشرين عاماً موضوع خصومات سياسية وتاريخية حامية .

وتأثير بارفوس على تروتسكي واضح ايضاً في أسلوب هذا الاخير ، وفي طريقة عرضه لافكاره ، وخصوصاً في حس التوقع التاريخي لديه . هذا لا يعني ان تروتسكي قلد بارفوس على المستوى الادبي . كل ما هنالك انه لم يقاوم تأثيره الذي سمح له تآلفه الثقافي والأدبي مع بارفوس بتمثله ، وهو تآلف لا تحد منه الاختلافات في الطبع والمزاج .

* * *

خلال اقامة تروتسكي الاولى في ميونيخ ، حوالى نهاية ايلول / سبتمبر ١٩٠٤ ، اعلن قطيعته مع المناشفة في« رسالة مفتوحة الى الرفاق » بعث بها الى الايسكرا . هذه الرسالة لم تنشر ابداً . ولا نمتلك منها غير الملخص الذي اعطاه عنها المناشفة ، ويقول هذا الملخص ان تروتسكي اعتمد « لهجة متعالية ومزدرية » في صياغة عدد من الاتهامات ضد « بعض الرفاق » ، ورفع مطالب متنوعة . اما جوهر تلك الاتهامات فهو ان المناشفة كانوا يميلون الى تقديم مصالح تكتلهم على مصالح الحزب . وتابع يقول ان المناشفة يردون بقوة على اتجاه مهم لدى لينين : ففي حين يميل لينين لإعطاء الانتلليجنسيا مكانة متميزة ، وراجحة ، داخل الحزب ، يثير المناشفة العمال ضد الانتلليجنسيا الاشتراكية . وقد شرح تروتسكي في رسالة خاصة الى مارتوف وزاسوليتش كيف أن انتقاداته تستهدف بوجه خاص تيودور دان ، نصير الاعتدال ، وكيف كان ينوي اعطاء الحزب « مركزاً ثابتاً » وتسهيل التقارب مع اللجنة المركزية البلشفية . وكان يشكو ايضاً من ان الكتّاب « الذين لم يكن في وسعهم الاندماج بالايسكرا » ـ وهذا تلميح الى اقصاء بليخانوف له ـ كان يستحيل وصولهم الى القراء الاشتراكيين . وفي الاخير اعلن انسحابه رسمياً من التكتل المنشفي[٩] .

رد المناشفة بغضب الناس المرتبكين . تبادل تروتسكي ومارتوف « رسائل عاصفة جداً » . كتب مارتوف يقول : « لو لم اكبح جماح تروتسكي ، لكانت انتهت القضية بقطع كامل العلاقات بيننا » . وكان مارتوف ومناشفة آخرون يودون تلافي القطيعة ، لأنه اذا انتقلت الى العلن الانتقادات التي صاغها ضدهم أكثر محاجيهم المناهضين للبلشفية جسارة ، يمكن أن تضر بتكتلهم كثيراً . تم تنظيم اجتماع سري في جنيف لمناقشة

(٩) بيسيا اكسلرودا اى مارتوف ، ص ١١٠ ـ ١١١ .

تروتسكي حول **رسالته المفتوحة** . وتم الاعتراف رسمياً بأن وجود منشفية مهاجرة « يمكن ان يغدو مصدراً لنزاعات جديدة في الحزب » ، وبأنه ينبغي حل تلك المنظمة بانتظار معلومات جديدة من المجموعات المنشفية في روسيا[١٠] .

ومن الواضح ان هذا القرار كان يستهدف تطييب خاطر تروتسكي وجعله يخلد الى الهدوء . إلا أن ذلك لم يستتبع اي أثر : بقي التكتل المنشفي ، « الحزب داخل الحزب » ، مثله مثل التكتل البلشفي ، كما كانت حاله سابقاً . وتعزّى تروتسكي ـ وهو واهم جداً ـ حين فكر بأن المناشفة تبعوا نصائحه . الا ان القرار الرسمي المتعلق بحل المنظمة المنشفية كانت له على الأقل نتيجة متمثلة بتحرير تروتسكي من الانضباط التنظيمي الذي كان تقيد به حتى ذلك الحين . وقد اعلم مارتوف أكسلرود بعد ذلك بقليل بأن تروتسكي « هدأ » اخيراً ، و « لان » وعاد يكتب الى **الايسكرا** . هكذا ظهر اول مقال لتروتسكي ، منذ خصامه مع بليخانوف ، ظهر في الجريدة بعد ذلك بوقت قصير[١١] . وكالمعتاد ، كانت الاحقاد الشخصية والادعاءات والأسباب السياسية تتشابك الى حد استحالة تمييز بعضها من البعض الآخر . ولا نعرف اذا كان تروتسكي هدأ لأن المناشفة بدوا وكأنهم خضعوا لرأيه في مسألة مبدئية ، أو لأنهم قدموا له نوعاً من التعويض عن حادثته مع بليخانوف ، أو للسببين معاً . لم يعد الآن احد مدراء **الايسكرا** السياسيين وأحد محرريها ، كان يساهم فقط في تحرير دفتر المذكرات السياسي ، الذي كان يظهر في احدى الصفحات الأخيرة . الا ان الايسكرا كانت لا تزال جريدة القتال المنشفية ، وكان الأجانب لا يزالون ينظرون الى تروتسكي كمنشفي .

* * *

لم تكن خلافاته مع المناشفة قد سُوّيت حقاً ، وقد زادت الطين بلة الاخبار التي وصلت آنذاك من روسيا . فالحرب الروسية ـ اليابانية كانت تتحول الى كارثة بالنسبة لروسيا ، وشرعت تظهر شقوق في بناء القيصرية . وفي تموز / يوليو ، اغتال سازونوف ، وهو اشتراكي ثوري[١٢] ، بليهفي ، وزير القيصر وملهم السياسة الروسية في الشرق الاقصى . كان بليهفي حظّر الزمستفوات وحلها ، وكانت تشكل المواقع القوية الخاصة بالنبلاء الصغار الليبراليين وشبه الليبراليين . ولتهدئة المعارضة ، خوّل سفاتو بولك ـ

(١٠) المرجع ذاته .
(١١) الايسكرا ، العدد ٧٥ ، ٥ تشرين الاول / اوكتوبر ١٩٠٤ . (الاسهام الوحيد الذي ظهر لتروتسكي في غضون ذلك ظهر في ورقةنقاش ، نشرت في حزيران / يونيو ، كملحق للايسكرا) .
(١٢) شارك آزيف ، العميل الاستفزازي الذي استخدمه بليهفي لأجل تفكيك التنظيم الارهابي السري ، في اعداد الاغتيال .

ميروسكي الزمستفوات حق عقد مؤتمر قومي في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٤ . وأعقبت المؤتمر حملة مآدب سياسية في العديد من المدن . خلال تلك المآدب، عرض القادة الليبراليون للنبلاء الصغار والبورجوازية مطالبهم ، لكن ظهر الى جانبهم ، للمرة الاولى ، عمال واعضاء في المنظمة الاشتراكية السرية . وقد أظهرت المآدب ان هناك اجماعاً ضد الحكومة ، لكن كذلك ان المعارضة كانت عميقة الانقسام . وكان العمال يشتبهون بأن الخطباء الليبراليين لا يريدون اطاحة القيصر ، بل عقد صفقة معه .

وفي اوروبا الغربية ، تابع المهاجرون باهتمام مفعم بالأمل حملة المآدب التي امتدت حتى نهاية العام . وقد اجبرت الاحداث الاشتراكيين على ان يحددوا موقفهم من الليبرالية بوضوح . ذلك ان الانقسام بين الاشتراكيين والليبراليين كان قائماً ايضاً في حلقات المهاجرين . ومنذ عام ١٩٠٢ ، كان بيير ستروفه يصدر جريدته الاوسفوبوجدني (التحرير) في شتوتغارت أولاً ، ثم في باريس . وقد دافعت الجريدة في البدء عن « الماركسية الشرعية » ، وهي نسخة محلاّة من الماركسية كانت تلح بوجه خاص على الادانة الماركسية للارهاب النارودني وللاشتراكية الزراعية ، وتؤكد ان التصنيع الرأسمالي سيحمل التقدم الاجتماعي الى روسيا . ولم تكن الايسكرا القديمة والاوسفوبوجدني قد تجابهتا بعد بشكل مكشوف . ولكنه سرعان ما غدا واضحاً ان مجموعة ستروفه كانت تستخدم المحاجّة الماركسية لإسقاط احد الاتجاهات الاشتراكية ، الاتجاه الزراعي ، وليس للدفاع عن الاشتراكية البروليتارية اطلاقاً . كانت اوسفوبوجدني تتطور من « الماركسية الشرعية ، نحو الليبرالية ، وغدا ذلك التطور ملموساً جداً في الوقت الذي كان يحتدم فيه بالضبط انقسام الاشتراكيين . كان المناشفة يميلون نحو الليبراليين ، والبلاشفة ضدهم . وحول هذه النقطة غضب تروتسكي مجدداً ، في خريف ١٩٠٤ ، من المناشفة »[١٣] .

في تشرين الثاني / نوفمبر وكانون الاول / ديسمبر ، كتب كراساً حول المشكلات التي اثارتها حملة المآدب وحوّله الى الناشرين المناشفة . وقد تردد هؤلاء وأجّلوا نشره . ويعتقد تروتسكي انهم كانوا ينوون دفنه في طيات النسيان . لكن يصعب تصديق تروتسكي ، اذ نشره المناشفة في نهاية المطاف . وكان الكراس يضم نقداً لاذعاً جداً وعنيفاً جداً لليبراليين بحيث لم يكن يمكن الا ان يثير تحفظات لدى اناس كانوا بدأوا يعتبرون ان المستقبل لعمل مشترك بين الليبراليين والاشتراكيين ضد القيصر . وكان مدار محاجة تروتسكي ان الليبراليين ، الذين ترعبهم الثورة اكثر مما يرعبهم القيصر ، عاجزون عن

---

(١٣) مارتوف ، ايستوريياروس . سوتس . ديم . ص ١٠٢ ، تروتسكي ، حياتي ، الفصل ٨ .

خوض غمار عمل من هذا النوع[١٤] .

هاجم في البدء الوطنية المنافقة والمؤثرة التي ابداها الليبراليون خلال الحرب الروسية ـ اليابانية . كتب يقول ان ستروفه « يضحي بآخر بقايا روح المعارضة لديه وبكرامته السياسية ، لا على مذبح « الشعور الوطني » ، بل على مذبح الرياء الوطني »[١٥] . وعلى اثر الهزائم العسكرية التي منيت بها القيصرية ، وجدت نفسها في مأزق . « على المعارضة ان تكشف الهوة العميقة التي تفصل القيصرية عن الأمة . . . بالمزيد من الاندفاع والقوة . وعليها ان تعمل ، بالمزيد من الحزم ، لدفع القيصرية ، عدو الأمة الحقيقي ، الى الهوة . عوضاً عن ذلك ، يربط الزمستفو الليبرالي نفسه الى عربة الحرب المهتزة ، ويرفع الجثث ويمحو آثار الدم » . ويصلي الليبراليون ، في اعماق قلوبهم ، من اجل هزيمة القيصر التي يمكن ان تؤدي بهم الى ملاقاة المعارضة عند منتصف الطريق . « لكن ماذا تفعل الصحافة الليبرالية ؟ هذه الصحافة الليبرالية البائسة ، والمتمتمة ، والماهرة ، والكذابة ، والمختلقة للاعذار والفاسدة والمفسدة ؟ . . . لما كانت لا تصدق الكلام الذي تتفوه به وتخفي بذلٍّ رغبتها في دمار القيصر ، (فهي تتحدث عن) مليكنا وحربنا . « لقد كانت المعارضة الليبرالية تسعى وراء « استحقاق عرفان الحكم المطلق بالجميل وثقته ، وراء صيرورتها ضرورية له ، وشرائه في الاخير بمال الشعب ، وهو تكتيك قديم قدم الليبرالية الروسية ، تكتيك لم يصبح اكثر نباهة ، ولا اكثر جدارة مع توالي السنين »[١٦] . لقددشن الوزير الجديد ، الامير سفاتوبولك ـ ميرسكي عهد تنازلات مزيفة بتعبيره (« بحماقة ووقاحة ») عن ثقة حكومته بالشعب ، « كما لو كانت المسألة مسألة معرفة اذا كانت الوزارة تثق بالشعب ، لا اذا كان الشعب يثق بالوزارة » . وتابع تروتسكي معتبراً ان ذلك كان كافياً لكي تستبعد الزمستفوات من مطالبها الاقتراع العام والحكومة الدستورية . كانت تخاف هذه الكلمة الغريبة : « الدستور » ، و « خلف الخوف من الكلمة يختفي الخوف من الشيء » . . . « من يود ان تفهمه الجماهير وتصطف الى جانبه عليه قبل كل شيء ان يصوغ مطالبه بوضوح ، ويسمي الاشياء بأسمائها ، فيسمي الدستور دستوراً ، والجمهورية جمهورية ، والاقتراع العام اقتراعاً عاماً »[١٧] . وقد كان الليبراليون يعيدون الى الحكام والمحكومين ، من دون أن يلاحظوا ذلك ، ثقتهم بمستقبل

---

(١٤) كراس دو ٩ يانفارا (حتى ٩ كانون الثاني / يناير) موجود ايضاً في سوش . الجزء ٢ ، الكتاب ٢ .

(١٥) تروتسكي ، سوش . الجزء ٢ ، الكتاب ١ ، ص ٦ .

(١٦) المرجع المذكور ، ص ٩ .

(١٧) المرجع المذكور ، ص ١٥ .

الحكم المطلق ، وذلك من جراء حيائهم وجبنهم . كانوا يزعمون أنهم حزب الديمقراطية ، لكنهم كانوا يخونون مبادئهم الخاصة بهم ، « ليس لدينا تقاليد ديمقراطية ، وينبغي خلقها . الثورة وحدها تستطيع انجاز هذه المهمة . ولا يمكن لحزب الديمقراطية إلا ان يكون حزب الثورة »[١٨] . لا الانتلليجنسيا الليبرالية ، ولا الطبقات البورجوازية هي التي ستوجه ضربة حاسمة للقيصرية ، بل الشغيلة الصناعيون الاشتراكيون .

والكراس بمجمله يهتز بالشعور المسبق الظافر بأن الثورة وشيكة . « يتظاهر محامون في الشوارع ، ويحتج المنفيون السياسيون في الصحف على نفيهم . . . يطلق ضابط من البحرية حملة علنية ضد وزارة البحرية . . . يصير ما لا يصدق حقيقة ، ويغدو المستحيل مرجّحاً »[١٩] . ويصعب أن نجد في كتابات مهاجر آخر حدساً بهذا الوضوح بالأحداث التي كانت تقترب . فالمهاجرون الآخرون كانوا غارقين في صراعاتهم الداخلية ، ومنشغلين بعضهم بالمناورة بمواجهة البعض الآخر ، بهدف ان يؤمنوا لحزبهم الوضع الأكثر ملاءمة في الثورة ، الى درجة انهم اخطأوا تقريباً قدوم الثورة . أما تروتسكي الذي كان يقف على حدة ، لوحده ، فقد ركز كل انتباهه على الوضع في روسيا . ويقول لونا تشارسكي انه كان مهاجراً أقل من سائر الاشتراكيين الذين فقدوا ، بدرجات متفاوتة ، صلتهم ببلادهم[٢٠] . وكان اصدقاؤه ، المتشككون ، يهزون اكتافهم وهم يصغون اليه يتنبأ ، مزهواً ، بانتفاضة ، أو يذم الليبراليين .

كان تروتسكي يعتقد أن الثورة ستبدأ بإضراب عام . وكانت تلك فكرة جديدة : فنزاعات العمل في روسيا كانت قد بقيت حتى ذلك الحين محلية ، وحتى أمم الغرب الصناعية ونقاباتها القديمة لم تكن خبرت فعلياً ، في يوم من الأيام ، الاضراب العام . ويقول تروتسكي في حياتي أنه تصور هذه الفرضية منذ عام ١٩٠٣ ، لكنه لم يتبنّها نهائياً إلا عام ١٩٠٤[٢١] . وقد وضع حينذاك « خطة عمل » لخصها كالتالي :

« انتزاع العمال من آلاتهم ومشاغلهم ، جعلهم يجتازون باب المصنع وقيادتهم إلى الشارع ، توجيههم إلى المصانع المجاورة ليدعوا فيها إلى وقف العمل وجر جماهير جديدة إلى الشارع . هكذا ، عن طريق الذهاب من مصنع إلى مصنع ، ومن مشغل إلى

(١٨) المرجع المذكور ، ص ٣٠ .
(١٩) المرجع المذكور ، ص ٣ .
(٢٠) أ . لوناتشارسكي ، ريفولوتسيونيي سيلويتي، ص ٢٠ ـ ٢٥ .
(٢١) تروتسكي ، حياتي الجزء الأول ، الفصل ١٣ ، سوش ، الجزء ٢ ، الكتاب ١ ، ص ٥٢١ .

مشغل ، وبتضخيم صفوفكم فيما أنتم تتقدمون ، وتكنيس كل حواجز الشرطة ، وبوعظ المارة وجذبهم ، وبامتصاص الجماعات التي تأتي في الاتجاه المعاكس ، وبملء الشوارع ، وباحتلال المباني الأولى الصالحة كأمكنة اجتماعات ، وبتحصنكم في تلك المباني ، وبعقد لقاء ثوري تحملون النظام الى حركة الجماهير ، وتضاعفون ثقتها ، وتفسرون لها هدف الأحداث ومعناها . هكذا سوف تنجحون في تحويل المدينة الى معسكر ثوري . هذه هي خطة العمل ، بشكل اجمالي»[٢٢] .

ذلك وصف الثورة كما ستحدث في تشرين الأول أكتوبر ١٩٠٥ وفي شباط/فبراير ١٩١٧ . ولم تكن « خطة العمل » تستلهم أي نموذج سابق : كان عنصر البروليتاريا الصناعية غائباً عن الثورة الفرنسية . وهذا الوصف كان ينبثق من خيال ثوري وقّاد ، حيث تمتزج الرومانسية بالواقعية بشكل وثيق . وبعض مقاطع هذا الكراس تبدو كما لو كانت الأحداث بصيغة المستقبل ، حتى الشعارات هي تلك التي ستدوي عام ١٩٠٥ وعام ١٩١٧ : « وقف الحرب » و « الدعوة الى جمعية تأسيسية »[٢٣] .

ثم استعرض تروتسكي في الأخير القوى الاجتماعية التي ستشارك في العمل . «سوف تكون المدينة المسرح الرئيسي للأحداث الثورية »[٢٤] . إلا أن البروليتاريا المدينية لن تقرر لوحدها النهاية . إذ تمثل طبقة الفلاحين « مستودعاً مهماً للطاقة الثورية »[٢٥] . يجب « نقل التحريض الى الريف ، من دون تفويت يوم أو فرصة واحدة »[٢٦] . وعوضاً عن دعوة البروليتاريا المدينية ـ كما سيأخذ عليه البعض فيما بعد ـ لمهاجمة القيصرية لوحدها ومواجهة الهزيمة بهذه الطريقة ، أصر تروتسكي بشدة على مخاطر الانعزال التي كانت تهدد الطبقة العاملة[٢٧] . حلل دور الجيش ، المؤلف من فلاحين ، وشجع الاشتراكيين على أن يلاحظوا بجدية ما يحدث في الثكنات ، وحين كان يؤمر الجنود باطلاق النار على الجمهور ، كان هؤلاء يفضلون توجيه بنادقهم الى الهواء . وكانت معنويات الجيش تنهار :

« مراكبنا بطيئة . ومدافعنا لا تصل قذائفها الى البعيد . جنودنا أميون . وضباط

---

(٢٢) تروتسكي ، سوش الجزء ٢ ، الكتاب ١ ، ص ٥١ .
(٢٣) المرجع المرجع ذاته ، هنا وهناك .
(٢٤) المرجع المذكور ، ص ٥٠ .
(٢٥) المرجع المذكور ، ص ٢٠ وهنا وهناك .
(٢٦) المرجع المذكور ، ص ٥٢.
(٢٧) المرجع المذكور ، ص ٤٦ .

الصف من دون خارطة أو بوصلة . ليس لجنودنا أحذية ، إنهم عراة وجائعون . صليبنا الأحمر يسرق ، وإدارتنا تسرق . وكل هذا معروف في الجيش ، يقبل عليه الجميع بشراهة . كل اشاعة تأكل كالحامض صدأ التلقين الرسمي . ثمة حاجة لسنوات من دعاوتنا السلمية للحصول على النتيجة ذاتها التي تحدثها سنة واحدة من الحرب .

في اليوم الحاسم لن يتمكن الضباط من الثقة بالجنود . . فهذا الجندي ذاته الذي كان يطلق البارحة النار في الهواء ، سيقدم سلاحه للعامل في الغد ، سوف يفعل ذلك مذ يتأكد من ان الشعب لم يخرج الى الشارع لهدف واحد هو احداث هياج ، وان الشعب يعرف ما يريد وأنه قادر على القتال لأجل ما يريد . . علينا القيام بأكثف التحريض بين القوات ، بحيث عندما تأتي لحظة الاضراب (العام) يعرف كل جندي أنه أُرسل لسحق « العصاة » ان في مقابله الشعب الذي يطالب بدعوة الجمعية التأسيسية »[٢٨] .

كان الناشر المنشفي لا يزال يؤجل طبع كراس تروتسكي حين سمع الناس بأول فصل من فصول الثورة في روسيا . ففي ٢٣/٩ كانون الثاني/يناير ١٩٠٥ ، سار عمال بطرسبورغ في موكب ضخم وسلمي نحو قصر الشتاء الخاص بالقيصر . وكان يقودهم الأب غابون ، مرشد السجن ، ومحمي زوباتوف ، قائد الدرك الذي جهز منظمة عمالية لمصارعة الاشتراكية السرية . وكان المتظاهرون ، الحاملون صوراً للقيصر ، وأيقونات ، ورايات دينية ، يأملون تسليم القيصر عريضة يتوسلون إليه فيها ، بكل تواضع ونحيب ، أن يصلح الأخطاء التي ارتكبت بحقهم . أما القيصر فرفض استقبال مقدمي العريضة وأمر قواته التي تحرس قصر الشتاء باطلاق النار على الجمهور . وقد فجّر بذلك المد الثوري .

وصلت الأنباء الى تروتسكي في جنيف ، الى حيث عاد بعد جولة من المحاضرات . وكانت توقعاته التي حاول نشرها عبثاً بدأت تتحقق . وقد امتلأ أملاً وهياجاً ، فعاد إلى حيث بارفوس في ميونيخ ، ومعه مسودة كراسه في جيبه . قرأ بارفوس المسودة وتأثر الى درجة قرر معها أن يدعم بكل ما له من سلطة أطروحات تروتسكي . وضع مقدمة وطلب إلى المناشفة ان ينشروا الكراس . في تلك المقدمة ، استخلص النتيجة التي لم يتجرأ تروتسكي على صوغها : « ستكون حكومة روسيا المؤقتة حكومة الديمقراطية العمالية . . وبما أن الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي على رأس الحركة الثورية . . ستكون هذه الحكومة اشتراكية ـ ديمقراطية » وحين صدر الكراس في

---

(٢٨) تروتسكي ، سوش ، الجزء ٢ ، الكتاب ١ ، ص ٥٠ .

الأخير ، أثار نقاشات عديدة وشجع البلاشفة ـ كما المناشفة ـ على صياغة توقعاتهم الخاصة بهم ، وقد انصبت المجادلة على خلاصة بارفوس التي رفضها البلاشفة والمناشفة على السواء . كان هؤلاء الأخيرون يؤكدون انه لما كان للثورة طابع بورجوازي ، ولما كانت تستهدف الحكم المطلق وبقايا الاقطاع وليست لها منظورات اشتراكية ، فالبورجوازية هي وريث السلطة الشرعي لا البروليتاريا . وقد رأوا ان الاشتراكيين لم يكونوا قادرين على المشاركة في أي حكومة بورجوازية ، ولا تلك التي قد تنبثق من الثورة ، إذ ان مهمتهم تكمن في أن يدافعوا ، في المعارضة ، عن مصالح الطبقة العاملة . وكان لينين يفكر أيضاً بأن الثورة ستبقى بورجوازية طالما بقيت من دون هدف اشتراكي ، إلا أنه لم يكن يعتقد بالمهمة الثورية للبورجوازية . وقد أكد أن من واجب الثوريين الدخول في حكومة ثورية . إلا أنه كان يعترض على تحليل بارفوس حول طابع تلك الحكومة الاشتراكي ـ الديمقراطي . وكتب لينين يقول : « **لا يمكن لهذا أن يحدث ،** إذا لم نكن نفكر بأحداث عارضة بل بديكتاتورية ثورية نصف قابلة للاستمرار ، قادرة على ترك أثر في التاريخ . لا يمكن لهذا أن يحدث لأنه لا يمكن إلا لديكتاتورية ثورية كهذه أن تضمن بعض الاستقرار . . . لأنها تستند إلى أغلبية كبرى . ان البروليتاريا **الروسية تشكل الآن أقلية بين سكان روسيا » على الحكومة الثورية إذاً أن تتشكل من** تحالف ، تتواجد ضمنه ، أو حتى « تسيطر العناصر البورجوازية الصغيرة ونصف البروليتارية . . وسيكون من الخطر بمكان أن نغذي أوهاماً حول هذا الموضوع مهما تكن تلك الأوهام »[٢٩] .

كانت تلك هي المرة الأولى التي تطالب فيها مجموعة ، أو يطالب فرد ، باسم الاشتراكية الروسية بشكل مكشوف بالسلطة ، أو بمشاركة مهمة بالسلطة ، ومن غرائب التاريخ أن أول من صاغ هذه المطالبة هو بارفوس ، وكان شخصاً من خارج الثورة الروسية ، وكان لينين هو من رفضها بما يشبه الاستفظاع . بدت الثورة في نظر لينين ، « تتراجع ، وقد أفزعها الاتساع الحائر لأهدافها الخاصة » . إلا أنه حتى بارفوس تكلم على « حكومة عمالية » لا على ديكتاتورية البروليتاريا . أما تروتسكي فلم يفكر بالاعتراض على التأكيد المشترك بأن الثورة ستكون بورجوازية خالصة ، وبأنه ما ان تزول المؤسسات الاقطاعية والاستبدادية حتى ينتهي دورها . في الوقت ذاته ، كان يبدو له (كما لبارفوس) أمراً لا يدحض ، أنه إذا كانت البروليتاريا المدينية القوة المحركة الرئيسية للثورة ، فعلى ممثليها ، في حال انتصار الثورة ، ان يمارسوا تأثيراً راجحاً داخل

---

(٢٩) لينين ، سوش ، الجزء ٨ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

الحكومة المؤقتة . ما من طبقة اجتماعية توافق على تحمل كل تكاليف الثورة لتتخلى فيما بعد عن ثمار النصر . وقد عجزت الانتقادات عن الاجابة عن هذه الحجة اجابة فعالة . الا ان المناشفة والبلاشفة طرحوا سؤالين ملائمين : كيف التوفيق بين هذا الاستنتاج وطابع الثورة البورجوازي ؟ وكيف نتصور حكومة الأقلية البروليتارية دون التخلي عن مبدأ الحكومة الديمقراطية التمثيلية ، وهو ما لم يكن أي من المحاورين يريد فعله ؟ هذان السؤالان لم يجب عنهما آنذاك بارفوس ، ولا تروتسكي .

وفي كانون الثاني/يناير ١٩٠٥ بدأ تروتسكي يكتب لدى بارفوس سلسلة من الدراسات التي ظهرت فيما بعد بعنوان : «**بعد انتفاضة بطرسبورغ**» . هذه السلسلة كانت تتألف من قطع متباينة : هجمات تهكمية جديدة على الليبراليين ، مقاطع تفيض حماساً لتحية الثورة . وفي تلك المجادلات ضد الليبراليين ذكّر تروتسكي بأن ستروفه اعلن قبل يومين من مظاهرة بطرسبورغ « أنه ما من شعب ثوري في روسيا » . ويقول تروتسكي : « هذا الكلام ينبغي حفره على جبين السيد ستروفه ، والشعارات والأفكار الاشتراكية ، والليبرالية ، وغيرها»[٣٠] . وختم تروتسكي هكذا : « ان نضالنا من أجل الثورة ، وإعدادنا للثورة ، سوف يتماشيان مع نضالنا الذي لا هوادة فيه ضد الليبرالية من أجل التأثير على الجماهير ، من أجل دور البروليتاريا القيادي . . . » .

أما مضمون المقاطع التي كان يحيي الثورة فيها فيظهر بوضوح في السطور الآتية :

« أجل لقد وصلت ، وكنا ننتظرها . لم نشك بمجيئها . منذ سنوات ، لم تكن غير استنتاج خاص بـ« مذهبنا » ، كان يسخر منه التافهون من كل المشارب السياسية . . . ومع موجتها الأولى ، أهاجت المجتمع . . قبل التاسع من كانون الثاني / يناير ، كانت مطالبتنا بالجمهورية تبدو خيالية ، نظرية ، وكانت تثير نفور كل الأحبار الليبراليين . ولقد كفى يوم ثورة واحد . كفى احتكاك رائع واحد بين القيصر والشعب لتصبح فكرة الملكية الدستورية خيالية ، ونظرية ، ومنفرة . لقد هب الكاهن غابون حاملاً فكرته عن الملك ضد الملك الحقيقي . لكن لما لم يكن وراءه ملكيون ليبراليون بل ثوريون بروليتاريون ، أظهر هذا « التمرد » المحدود فوراً مضمونه الانتفاضي في معركة المتاريس ، وفي صيحة : فليسقط القيصر ! الملك الحقيقي دمر فكرة الملك . . جاءت الثورة ووضعت حداً لطفولتنا السياسية »[٣١] .

---

(٣٠) سوش ، الجزء ٢ ، الكتاب ١ ، ص ٥٧ وما بعدها .

(٣١) الاستشهاد المذكور .

حينذاك تأخذ مشكلات التقنية الثورية « أهمية عظيمة » . « لقد برهن عمال بطرسبورغ عن بطولة كبرى ، إلا أن بطولة الجمهور العزلاء تعجز عن مجابهة حماية الثكنات المسلحة » . من الآن وصاعداً ، لن تؤدي جهود مبعثرة الى شيء ، يجب أن تبلغ الحركة أوجها بانتفاضة عامة في كل انحاء روسيا . على الثورة أن تتسلح . ان البعض يؤكد أن لا أمل لثائرين بالانتصار على حكومة مجهزة بأسلحة حديثة . كان كاتب انجليزي ، مثلاً ، يعتقد أنه لو كان تحت تصرف لويس السادس عشر بعض الرشاشات لما تمت الثورة الفرنسية . ويقول تروتسكي : « أي أدعاء عابث يكمن في الرغبة بقياس الحظوظ التاريخية لاحدى الثورات بمقياس أسلحتها ومدافعها ، كما لو كانت الأسلحة والمدافع تقود الناس ، وكما لو لم يكن الناس هم الذين يستخدمون الأسلحة والمدافع »[٣٢] كان تروتسكي يعترف بأن العمال لا يستطيعون لوحدهم ، حتى لو كانوا مسلحين ، ان ينتصروا في انتفاضة ، وبأن عليهم كسب الجيش الى جانبهم . لكن للوصول الى ذلك ، عليهم أن يتسلحوا هم في البدء ويؤثروا بتصميمهم على جنود القيصر المترددين . وقد فصّل تروتسكي هذه الفكرة في صفحات تعلم العمال في جزء منها كيف يتسلحون وتصف في الجزء الآخر السيرورة التي ستنتقل بموجبها قوات القيصر الى صفوف الثورة . هذه المشاهد المتصورة مسبقاً تشبه كذلك قصص الثورة التي كتبها تروتسكي بعد حدوثها . لقد اختتم هذا الأخير كراسه بنداء الى رفاقه ذي أسلوب دانتوني[*] : لتكونوا على مستوى الوضع ، تحتاجون فقط إلى « بعض الصفات البسيطة للغاية : التخلي عن روتين التنظيمات والتقاليد البائسة لحركة سرية ، سعة النظر ، المبادرة الشجاعة ، القدرة على تقدير الأوضاع ومرة أخرى ، المبادرة الشجاعة » .

يمكننا أن نحس أيضاً ، لدى قراءة هذه السطور ، بالحمّى التي كانت تلهب كاتبها . كان متلهفاً للعودة إلى روسيا والغوص في الزوبعة . كفاه الهواء الفاسد في جاليات المهاجرين حيث كان يتخاصم مع الجميع تقريباً . كفاه المنفى الذي يستطيع المرء أن يتابع منه بشكل مرتبك مسار الثورة ، مثلما يراقب عاصفة في عرض البحر من شاطىء بعيد . إلا أن العودة إلى روسيا كانت تنطوي على مخاطر كبرى . فالفار من سيبيريا إذا سقط مجدداً في قبضة رجال الشرطة ، يعامل على الفور كخارج على القانون ويرسل الى الأشغال الشاقة حتى لو لم يصدر عليه حكم بذلك من قبل ، إلا أن تروتسكي قرر العودة الى روسيا . وقد سبقته سيدوفا لتعد له مضافات سرية . وفي شباط / فبراير

---

(٣٢) المرجع المذكور ، ص ٦٠ .

(*) نسبة الى دانتون، احد قادة الثورة الفرنسية (م) .

١٩٠٥ بدأ تروتسكي رحلة العودة . توقف في فيينا ليرى فيكتور أدلر ، القائد النمساوي الذي تخلص عنده من شاربيه ولحيته ليجعل من الصعب تعرف الشرطة الروسية اليه .

كان بحث لدى أدلر في البدء عن المساعدة حين هرب من سيبيريا وحاول بلوغ انكلترا ولم يكن مر على ذلك اكثر من عامين ونصف ، لكنهما عامان ممتلئان تماماً ، يحفلان بالبشائر والنُذُر .

تروتسكي في عام ١٩٠٥

وصل تروتسكي في شباط / فبراير الى كييف واختبأ هناك خلال أسابيع عديدة باسم أربوزوف ، ملازم متقاعد . كانت كييف آنذاك مركز التنظيم السري ، إلا أن الشرطة كانت أقل حذراً فيها منها في بطرسبورغ أو موسكو . هناك التقى تروتسكي ليونيد كراسين ، الذي بقي على صلة وثيقة به حتى نهاية العام . كان كراسين تقنياً ممتازاً وصناعياً مزدهراً ، وكان كذلك عضواً في اللجنة المركزية ـ كان يأتي بعد لينين مباشرة في المرتبة البلشفية ـ وكان هو الذي يقود عملياً المنظمة السرية هناك . إلا أن كراسين كان « مصالحاً » راغباً في سد الثغرة داخل الحزب . لذا لم يكن يتفق مع لينين ، وكان تروتسكي يرى أن هذه النقطة تسهل تعاونه مع كراسين . وبالنسبة لكراسين ، فتروتسكي الكاتب الكبير الوحيد ، والمنظر الاشتراكي الكبير الوحيد الموجود آنذاك في روسيا ، أصبح في العاجل لا غنى عنه . وفي الربيع، اصطحبه كراسين الى بطرسبورغ .

كان القادة الاشتراكيون الآخرون في أوروبا الغربية التي لم يغادروها إلا في تاريخ لاحق من السنة . ففي الظروف العادية ، حين لا تتسارع الأمور ، كان في وسع المنظمة السرية أن تأخذ وقتها لاستشارة المهاجرين وانتظار تعليمات . لكن الآن وحقل نشاطاتها يتوسع بصورة عنيفة ، والحزب يجد نفسه مضطراً بصورة مضطردة ، للعمل تحت ضغط الاحداث ودفع اللحظة ، كانت الصلات المعتادة مع الاغتراب تبدو مزعجة أكثر بكثير وبطيئة للغاية .

أما تروتسكي الذي عاد مبكراً جداً الى روسيا ، فوجد نفسه دفعة واحدة في قلب النشاطات السرية بالذات . وقد سمح له ذلك بأن يلعب في ثورة ١٩٠٥ دوراً أهم بكثير من أدوار سائر القياديين القدامى . إلا أن هذا ليس السبب الوحيد ، ثمة سبب آخر اكثر أساسية بكثير . فالاتجاهان داخل الحزب لم يكونا تبلورا بعد بما يكفي ليصبحا قوتين متمايزتين ومتعاديتين ، إلا أن المجادلة احتدمت مع ذلك كفاية لشحن فكر القادة وطاقتهم . والعاصفة التي هزت روسيا جاءت بالتالي متأخرة جداً بحيث لم يكن

الحزب قادراً على الرد فوراً بقوة جماعة موحدة الاتجاه وتماسكها . إلا أنها جاءت كذلك باكراً جداً ، لأن الحزبين ، البلشفي والمنشفي ، كانا لا يزالان متداخلين بشكل وثيق بحيث لا يملكان حرية حقيقية . وكان تروتسكي يمثل أكثر من أي شخص آخر روح التردد تلك وذلك النفور الشديد من الانقسامات ، اللذين كانا لا يزالان من الملامح المشتركة في اتجاهي الحزب . كان يجسد ، بمعنى ما ، « نقص النضج » في الحركة بينما كان « متعصبو الانشقاق » أكثر تمثيلاً لمستقبلها . كان يعبر عن رد الفعل العاطفي القوي جداً من جانب الحزب ضد منطق تطوره الأقوى . الا انه كان يجسد كذلك اعلى درجة من « النضج » بلغتها الحركة في يوم من الأيام على صعيد تطلعاتها الأكثر اتساعاً : اذ حدد تروتسكي اهداف الثورة ، ذهب أبعد بكثير مما ذهب في أي من الفترات مارتوف أو لينين ، وهذا هو السبب في أنه كان أقدر بكثير على لعب دور نشيط في الانتفاضة . لقد قاده حسه السياسي الواثق للغاية في اللحظات الحاسمة الى النقاط الحساسة ، الى مراكز الثورة ، ووجه خطواته .

في الشهور التي تلت عودته ، لم يعد يتمكن من فعل شيء غير الكتابة ، وغير الهام كراسين ، والمنظمة عبره . كانت عاصفة كانون الثاني / يناير وشباط / فبراير قد انتهت ، وفي الربيع ، راوحت الحركة العمالية في مكانها . كانت الاضطرابات قد أجهضت وخوّف القمع البوليسي والاعدامات البشغيلة . انتقلت المبادرة السياسية الى أيدي البورجوازية الليبرالية ، وكان عدد كبير من المؤتمرات والجمعيات التي عقدها صناعيون وتجار ، وأصحاب مصارف ، وأطباء ، وحقوقيون ، الخ . يطالب باصلاح الدستور . وسوف تنتظر الطبقة العاملة وقتاً **متأخراً** من العام ، بعد هزيمة تزوشيما وتمرد طاقم المدرعة بوتمكين ونهاية الحرب الروسية ـ اليابانية لتستعيد من البورجوازية قيادة الأحداث .

لم يكن في وسع تروتسكي في تلك الفترة ان يظهر علناً . حتى في أوساط بطرسبورغ السرية ، كان يتحرك بحذر باسم « بيير بتروفيتش » . لم تكن الأرض توحي بالثقة ، فلقد تغلغل عملاء للأوخرانا(*) داخل المنظمة بالذات . لكنه كان يراقب المسرح السياسي من مخابئه ، كتب عدداً مهماً من الأبحاث والدراسات السوسيولوجية ، والرسائل الى **الايسكرا** ، والأهاجي ، والمجادلات والمؤلفات حول استراتيجية الثورة

(*) الشرطة السرية القيصرية (م) .

وتكتيكها . توطدت ثقته بالأفكار التي عرضها مع بارفوس ، لا بل ذهب أبعد منها ، وبعد عودته مباشرة ، كتب الى **الايسكرا** أنه ما عدا الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي لم يكن يوجد شيء في ميدان قتال الثورة » قادر على تنظيم انتفاضة قومية :

« سوف تلعب فئات السكان المدينية الأخرى دوراً في الثورة، لكن بمقدار ما تلتحق بالبروليتاريا . . فلا الفلاحون ولا البورجوازية ولا افراد الانتلليجنسيا يمكنهم ان يلعبوا دوراً ثورياً مستقلاً يمكن مقارنته بشكل من الأشكال بدور البروليتاريا . . . وينتج عن ذلك ان تركيب الحكومة المؤقتة سيكون بروليتاريا بشكل رئيسي . فإذا انتهت الانتفاضة بانتصار حاسم ، سيستولي على السلطة اولئك الذين يكونون على رأس انتفاضة الطبقة العاملة »[1] .

وفي الخارج ، كان بارفوس يعظّم هو الآخر الانتفاضة المسلحة ، ولينين ايضاً بالطبع . وكان يجيب المناشفة بضرورة انتظار الساعة المناسبة : فبرأيهم أن انتفاضة مسلحة ، أو ثورة كبرى ، لا يمكن تنظيمها ، انها تولد لذاتها مع تطور العصيان الشعبي . وقد كانت انتظارية المناشفة ترتكز على القناعة الحازمة بأن قيادة الثورة لليبراليين لا للاشتراكيين . وفي عدد **الايسكرا** الذي كتب فيه تروتسكي « انه لم يكن يوجد شيء ، عدا الاشتراكية ـ الديموقراطية ، على ارض معركة الثورة » قادر على قيادة انتفاضات قومية ، كان مارتوف يؤكد ان المهمة التاريخية للطبقات البورجوازية تكمن في احداث دمقرطة[**] جذرية للمجتمع الروسي . وقد كتب مارتوف : « نحن مخوّلون التفكير بأن حكماً سياسياً واقعياً يؤدي ببورجوازيتنا الديمقراطية الى لعب الدور ذاته الذي لعبته في القرن الماضي البورجوازية الديموقراطية في اوروبا الغربية ، بإيحاء من الرومانسية الثورية »[2] .

وقد رد تروتسكي على مارتوف بنقد للمواقف الليبرالية ، التي اتخذتها على وجه الخصوص جمعية صناعيي موسكو ، وصناعات الحديد والفولاذ في بطرسبورغ ، ومصارف المقاطعات ، ومستخدمو الأورال ، ومصافي اوكرانيا للسكر ، والمؤتمرات القومية للجرّاحين ، والممثلين ، وعلماء الجنايات . . . الخ . اعترف بأن الطبقات البورجوازية تعاني من القمع الأوتوقراطي ، وبأن حاجتها للتقدم الاقتصادي والحرية التجارية تدفعها للمطالبة بالحرية السياسية . لا بل كتب أن « النظام الليبرالي أصبح ضرورة طبقية لرأس المال » وأنه « على صعيد المعارضة ، عرف تجار المدن ألا يظهروا أدنى من ملاكي الأراضي

---

(١) الايسكرا ، العدد ٩٣ ، ١٧ آذار / مارس ١٩٠٥ .

(**) اضفاء الديمقراطية (م) .

(٢) المرجع ذاته .

المستنيرين »[٣] . إلا أنه أضاف أن الطبقات البورجوازية لم تعبر في يوم من الأيام عن مصالح العمال في المطالب التي ترفعها وان خوفها من الثورة يشل حركتها . « بالنسبة للبروليتاريا ، تكون الديمقراطية ضرورية في كل الظروف ، من الناحية السياسية ، أما بالنسبة للبورجوازية فهي حتمية سياسياً في بعض الظروف[٤] » . والطبقات البورجوازية ، بابداء معارضتها ، تكتسب هيبة سياسية ليست خالية من المخاطر بالنسبة للثورة . وحتى الفترة الأخيرة ، كانت الانتلليجنسيا لا تكن سوى الاحتقار للصناعيين والتجار ، بينما تحيّيهم الآن كمبشرين بقضية الشعب . أما الصادحون بالليبرالية فيعتبرون خطبهم مقنعة لدرجة توقع الاستسلام الفوري من جانب عدوهم (القيصر) . . . إلا أن أريحا لا تزال واقفة ، لا بل هي تعد ضربة قاسية[٥] .

وبالفعل ، فإن أريحا ، بناء على طلب وزير القيصر ، بوليغين ، كانت تعد لدعوة جمعية مزيفة ، هي « دوما بوليغين » ففي ٦ آب / اغسطس ، أعلن القيصر عن نواياه عبر بيان. ستكون الدوما جهازاً استشارياً ، لا تشريعياً ، تنتخبها الطبقات الثلاث التي ستصوت بشكل منفصل ، وسيقوم حق التصويت على الملكية ، ويحتفظ القيصر بحق التمديد للدوما أو حلها . وكانت الطبقة العاملة محرومة عملياً من حق التصويت . إلا أن البيان أثار البلبلة في صفوف المعارضة . فميليوكوف ، المؤرخ الكبير ، الذي كان ينطق آنذاك بلسان الليبراليين تلقّاه بحرارة وصرح أن الأمة اجتازت مع البيان ، روبيكون[*] النظام الدستوري[٦] . هذا الاستعجال من جانب الزعيم الليبرالي للاكتفاء بالعظم الذي رمى به القيصر دفع تروتسكي الذي كان ينادي بمقاطعة الدوما، لكتابة « رسالة مفتوحة الى الأستاذ ب . ن . ميلوكوف[٧] » . ومن بين كل أهاجيه الموجهة ضد الليبراليين ، كانت الأكثر لذعاً والأكثر رهافة . جرى تداولها بشكل واسع في ظل سرية نصفية. كتب تروتسكي يقول : « لا يمكن اجتياز روبيكون تاريخي حقاً إلا حين تنتقل الوسائل المادية للحكم من أيدي الحكم المطلق الى أيدي الشعب . وليس توقيع رقٍّ ، أيها الأستاذ ، هو

---

(٣) ل . تروتسكي ، سوشينيا ، الجزء ٢ ، الكتاب ١، ص ٧١ ، ٧٩ .

(٤) المرجع ذاته ، ص ٩١ .

(٥) المرجع ذاته ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(*) نهر صغير في شمال ايطاليا كان محرماً على القواد عبوره مع جيوشهم (م) .

(٦) سيطر الارتباك في صفوف الاحزاب : كان العديد من الليبراليين المختلفين مع ميليوكوف يعدون انفسهم لمقاطعة الدوما . وكان المناشفة ضد المقاطعة لبعض الوقت ، أما البلاشفة فكانوا مع المقاطعة . انظر مارتوف ، ايستوريا روس . سوتس . ديم . ص ١٢٦ .

(٧) ل . تروتسكي، سوشينيا ، الجزء ٢ ، الكتاب ١ ، ص ١٩٦ ـ ٢٠٥ .

الذي يعطي هكذا نتيجة . ينبغي التفتيش عنها في الشارع ، والحصول عليها بالنضال والصراع » . وقد ذكَّر بأن المنعطفات الكبرى في الثورة الفرنسية لم تكن متمثلة بالاعلانات الدستورية بل بعمليات النقل الفعلية للسلطة . وذكّر أيضاً بأحداث ١٨٤٨ في المانيا : كيف هدأت البورجوازية الليبرالية حين وعدها ملك بروسيا بالحرية ، وكيف ساعدت الاوتوقراطية على سحق الثورة ، وكيف هزم الاتوقراطي في النهاية الليبراليين وأذلهم ، حين أصبحت الموجة الثورية في أوج انحسارها :

« إلا أن التاريخ لا يعلم أساتذة التاريخ شيئاً . فأخطاء الليبراليين وجرائمهم عالمية . أنتم لا تعرفون أكثر من تكرار ما صنعه أسلافكم منذ نصف قرن في وضع مماثل . . . تخافون قطع علاقتكم بالدوما لأن هذا السراب الدستوري يبدو لكم حقيقة في الصحراء اليابسة والعارية التي تطأها اقدام الليبرالية الروسية منذ أكثر من عشر سنوات . . أنتم ، أيها الأستاذ ، لن تقولوا هذا للشعب . أما نحن فسنفعل ذلك . واذا أردتم التفاهم معنا ، لا في واحدة من مآدب الليبراليين تلك بل أمام الجماهير فسوف نظهر لكم حينذاك أننا بلغتنا البسيطة والغليظة والثورية ، نستطيع أن نكون على درجة من البلاغة تسمح لنا بإقناعكم . . . إذا لم تتراجع الثورة فسوف تتمسك البيروقراطية بكم كما بمتراسها ، واذا حاولتم حقاً أن تكونوا متراساً لها ، سرعان ما ستجرفكم الثورة المظفرة . . . (وإذا انهزمت الثورة ، لن تكون القيصرية بحاجة حينذاك الى الليبرالية) . أنتم تزعمون أنه لا أصوات اليمين ولا أصوات اليسار تؤثر فيكم . . . إن الثورة لم تقل كلمتها الأخيرة . وهي باندفاعات واسعة وقوية تخفض شفرتها شيئاً فشيئاً فوق عنق الحكم المطلق . فليحترس مشعوذو الليبرالية الكبار من وضع يدهم تحت حدها اللامع فليحترسوا ! »

الانسان كله في اسلوب هذه « الرسالة المفتوحة » والعلّامة ، والخطيب ، والمجادل الذي لا يقهر . ان تروتسكي قريب جداً من لينين بموقفه حيال الليبرالية . لكن خلافاً لهذا الأخير ، ولمّا كان غير متحمس للحوار الأيديولوجي مع الليبراليين ، كان يشعر بالحاجة الى مقارعة الليبرالية بالاشتراكية الثورية باستمرار . وسوف يفعل ذلك حتى نهاية حياته ، لا لأن قطيعته مع الليبرالية البورجوازية كانت أقل كلية من قطيعة لينين ، بل لأنه كان يخاف أكثر منه اغراء تلك الأيديولوجية . فلينين كان يعلم انصاره ويقودهم ، ولم يكن يعظ بمعنى ما الا مهتدين ، بينما كان تروتسكي يتوجه مباشرة الى الناطقين بلسان الليبراليين ، ويحلل حججهم ويدحضها امام حاضرين عديدين وحائرين . وقد كان النقاش مع الخصم

يناسب مزاجه الجدالي وأسلوبه الديالكتيكي اكثر أيضاً . وليس صدفة ان وسيلته المفضلة للتعبير كانت الرسالة المفتوحة .

كان يتوجه هكذا مباشرة الى أكثر المستمعين تنوعاً . والى أي كتلة اجتماعية انتمى محاوروه ، كان يعرف كيف يستخدم لغتهم بسهولة وانطلاق خارقين . كان يتوجه بالكلام إلى المثقفين والعمال المتقدمين في هجماته على الليبراليين ، وكانت « الرسالة المفتوحة الى ميليوكوف » موجهة إلى جامعيين . وبعد عودته إلى روسيا بقليل ، كان قد كتب بياناً الى الفلاحين نشره كراسين بإمضاء اللجنة المركزية . كان جمهوره في هذه المرة الكتلة الكبرى المتخلفة والامية من العمال الزراعيين ، الذين عرف أمثالهم في مزرعة أبيه . والبعض منهم فقط قادرون على قراءة نصه للآخرين . ان نداءه ، الذي لا يستخدم غير تعابير بسيطة جداً ، يستعيد ايقاع القصائد الملحمية الشعبية السلافية ، بلازماتها وابتهالاتها المميّزة . فالكلمات والوتيرة تبدو خارجة من فم قصّاص قروي هو في الوقت ذاته محرض سياسي . إلا أننا نجد في هذا النداء الموجه إلى الموجيك قوة الاستدلال والاقناع ذاتها التي نجدها في أهاجيه الاكاديمية . وعبثاً نفتش في الأدب الثوري عن نصوص مكتوبة للفلاحين أو بواسطتهم ، تضارع من حيث الأسلوب الشعبي وصدق اللهجة النص الذي يروي فيه تروتسكي للجماهير الفلاحية مجازر كانون الثاني / يناير في بطرسبورغ . يبدأ بتصوير كيف أن العمال الحاملين صوراً للقيصر وايقونات ورايات دينية مروا « بسلام وهدوء » حتى قصر القيصر :

« ماذا فعل القيصر ؟ كيف ردّ على شغيلة سان بطرسبورغ ؟

« استمع ، استمع ، أيها الفلاح . . .

« اسمع كيف كلم القيصر شعبه . . .

« كانت كل قوات بطرسبورغ متأهبة للحرب . . . هكذا كان قيصر روسيا يستعد للتحدث الى رعاياه . . .

« مئتا ألف عامل كانوا يتقدمون نحو القصر .

« كانوا قد ارتدوا ثياب الأحد ، شيباً وشباناً ؛ كانت النسوة يمشين الى جانب أزواجهن ، ويمسك الآباء والأمهات بيد صغارهم . هؤلاء هم الناس الذين مضوا لمقابلة القيصر .

« استمع ، اسـتمع ، أيها الفلاح !

« فلتنحفر كل كلمة في أعماق قلبك . .

« كل الشوارع ، كل الساحات ، حيث كان موكب العمال المسالم سيمر ، كانت تحتلها القوات .

« اتركونا نذهب الى القيصر » ، هكذا تضرع العمال ـ

« الشيوخ ركعوا على ركبتيهم .

« تضرعت النساء وتضرع الأطفال .

« دعونا نذهب الى القيصر .

« وحينذاك حدث كل شيء !

« انطلق الرصاص بصوت كصوت الرعد . . . وتخضب الثلج بدم العمال . . .

« قولوا للجميع ، لكي يعلم الجميع ، كيف استقبل القيصر شغيلة سان بطرسبورغ ! . . .

« تذكّر أيها الفلاح الروسي بأية غطرسة ردد قياصرة روسيا أجمعين : أنا في بلادي السيد الأول والمالك الأول . . .

« قياصرة روسيا جعلوا من الفلاحين قطيع أقنان يقدمونهم هدية لخدامهم المخلصين ، كما لو كانوا كلاباً . . .

« أيها الفلاحون قولوا في محافلكم للجنود ، أبناء الشعب هؤلاء الذين يعيشون بمال الشعب، ألا يتجرأوا على اطلاق النار على الشعب » .

هكذا ، بلغة بسيطة ، ودون أن يفقد تروتسكي أبداً سيطرته على نفس الموجيك ، كان يشرح أهداف حزبه والوسائل التي ينوي استخدامها . حتى كلمة « الثورة » الغريبة ترجمها بلغة يفهمها الفلاحون: « أيها الفلاحون ، فليندلع الحريق في كل مكان ، وفي الوقت ذاته ، في كل أنحاء روسيا ولن تكون أية قوة قادرة حينذاك على اطفائه . الحريق الذي يشعل الأمة بأسرها هو ما نسميه الثورة »[٨] .

أما عمال المدن فكان يكلمهم بطريقة اخرى . هاكم مثالاً على ذلك حين رفضوا

(٨) الايسكرا، العدد ٩٠ ، ١٣ آذار / مارس ١٩٠٥ . سوشينيا ، الجزء ٢ ، الكتاب ١ ، ص ٢١٧ ـ ٢٢٤ . وقد تم اكتشاف النداء بعد عام ١٩١٧ في محفوظات درك كييف الذي صادره خلال تفتيش جرى في مطبعة كراسين .

التظاهر في أول أيار / مايو، رغم نداء الحزب اليهم : « لقد ارتعدتم امام جنود القيصر . . . لكنكم لا تخافون تسليم اخوتكم لجيش القيصر ، لا تخافون ارسالهم ليملأوا المقابر المقفرة الكبرى في منشوريا . . . لقد بقيتم البارحة في بيوتكم ، لكنكم ستخرجون منها غداً أو بعد غد »[٩] . ويشكل مقال قصير جداً ، بعنوان « صباح الخير يا دفورنيك بطرسبورغ »، رائعة حقيقية من روائع الصحافة الثورية[١٠] . وقد كتبه تروتسكي بعد ذلك التاريخ بعدة أشهر ، اثر نشر بيان تشرين الأول / اوكتوبر ، الذي وعد القيصر فيه بدستور وبالحريات المدنية . والدفورنيك ، أي الحجّاب ، الجواسيس والمخبرون العاديون لحساب الشرطة السرية ، كانوا بدأوا يلتقطون الجرثومة الثورية . « إن دفورنيك بطرسبورغ يستيقظ من كابوسه البوليسي . الفان وخمسمائة دفورنيك اجتمعوا ليتدارسوا حاجاتهم . الدفورنيك يرفضون أن يلعبوا بعد اليوم دور ادوات لفظاعات الشرطة » . لقد ناقشوا مطالبهم ورفضوا التوقيع على مذكرة شكر للقيصر ، لأن « الحرية موعودبها ،بيد أنها لم تكتسب بعد » .

وكتب تروتسكي : « كثيرة هي الأخطاء والجرائم التي تثقل ضمير حجّاب بطرسبورغ ، فقد استجابوا لأوامر الشرطة أكثر من مرة وأساؤ وامعاملة عمال أو طلاب شرفاء . هددتهم الشرطة وتوصل الشعب الى الحقد عليهم . إلا ان ساعة اليقظة الشاملة قد أزفت . يفتح دفورنيك بطرسبورغ عينيه . صباح الخير يا دفورنيك بطرسبورغ .

هكذا كان يعرف تروتسكي كيف يخاطب كل طبقة من طبقات المجتمع باللغة التي تفهمها ، لكنه كان يسمع صوته هو على الدوام . لقد كان ـ ولا يزال ـ الناطق الأغنى ، والأكثر تنوعاً ، بلسان الثورة الروسية .

* * *

خلال اقامة تروتسكي في كييف ، وكان مجبراً على الاختفاء ، انتقل من بيت لبيت باسم « الملازم أربوزوف » . وكانت رتبة ملازم تجعل صاحبها شخصاً محترماً ، لا بل مرموقاً . إلا أن تروتسكي كان منهمكاً للغاية ، يستقبل زواراً غريبين ، ويبقى منفرداً بهم طيلة ساعات أو تستغرقه جبال من الصحف والكتب والمخطوطات . وقد خافت بعض

---

(٩) ل . تروتسكي ، سوشينيا، الجزء ٢ ، الكتاب ١ ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٥ . هذا النداء الذي وقعته اللجنة المركزية ، وجد كذلك في محفوظات درك كييف، بعد عام ١٩١٧ .

(١٠) روسكايا غازيتا ، ١٥ تشرين الثاني ، ١٩٠٥ ، سوشينيا ، ج ٢ ، ك ١ ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ .

مضيفيه وكان عليه أن يرحل . وآواه آخرون بشجاعة وطيبة خاطر . وهو يروي في كتابه ، **حياتي** ، كيف وجد ملجأ في عيادة لطب العيون ، بعد أن تكلف المرض . وكان الطبيب المسؤول وبعض مساعديه على علم بحقيقته . وكانت ممرضة فوق كل الشبهات تعتني بهذا المريض الغريب بلطف وحزم ، تقطر له نقطاً في عينيه ، وتعد له الماء الساخن ليحمم قدميه ، وكانت تقطع جلساته للقراءة أو للكتابة مخافة أن يتعب .

مضى كراسين الى بطرسبورغ حيث سرعان ما وجد ملجأ لتروتسكي لدى الكولونيل ليتكنز ، رئيس أطباء الأكاديمية العسكرية الامبراطورية ؛ أضف إلى ذلك أن كراسين كان يلتقي لديه بالذات المناضلين السريين بعيداً عن الأعين . فلقد كان الكولونيل محبذاً وكان أولاده يعملون للمنظمة . وانتحل تروتسكي وسيدوفا ، لدى الكولونيل ، صفة ملاكين نبلاء من آل فيكنتييف ، وهو ما سمح لهما بالافلات لبعض الوقت من رقابة الاوخرانا . إلا أن سيدوفا أوقفت خلال مظاهرة أول أيار ، وأجبر وجود عميل استفزازي داخل المنطقة السرية تروتسكي على الفرار . فمضى على وجه السرعة الى فنلندا التي كانت آنذاك جزءاً لا يتجزأ من الامبراطورية الروسية ، لكن حيث الناس يتمتعون بقسط من الحرية أكبر بكثير مما في روسيا بالذات . هناك حول البحيرات وفي غابات الصنوبر بالريف الفنلندي ، في فندق روها (السلام) فكر تروتسكي ودرس وكتب ، في الوقت الذي بقي فيه على صلة بكراسين . وفي منتصف تشرين الأول / اوكتوبر ، وصل نبأ اضراب عام في بطرسبورغ ، فكان له في ذلك الفندق الهادئ والمقفر تأثير الاعصار في بيت مشرع للرياح . وفي ١٤ تشرين الأول / اوكتوبر ، أو في ١٥ منه، على الأكثر ، عاد تروتسكي الى العاصمة .

فجّر الاضراب عمال المطابع الذين كانوا يطالبون بتخفيض ساعات العمل وزيادة الأجور . وسرعان ما انتقل الاضراب الى قطاعات صناعية أخرى ، ومن بطرسبورغ توسع ليشمل المقاطعات . وقد اتخذ طابعاً سياسياً واضحاً ، ففاجأ قادة المنظمة السرية . فالمطالب لم تكن تقتصر على خفض ساعات العمل وزيادة الأجور ، بل تعدت ذلك الى مسألة الحرية الدستورية . ولقد أدى توسع ذلك الاضراب الى قيام مؤسسة أساسية للثورة الروسية : أولى جمعيات النواب العمال ، المسماة بالسوفييت . ولم يكن السوفييت ابتكاراً بلشفياً . على العكس ، فالبلاشفة ، ومن بينهم بوغدانوف وكنونيانتس ـ رادين اللذان كانا من قادة بطرسبورغ ، نظروا إليه متوجسين كما لو كان منافساً للحزب . وسوف ننتظر حتى الاسبوع الأول من تشرين الثاني / نوفمبر (الثالث حسب التقويم الجديد) ، حين غدا السوفييت في ذروة قوته ونفوذه ، ليشجع لينين ، من ستوكهولم ، انصاره كي يتعاونوا مع

السوفييت[11] . وقد تشكلت نواة السوفييت من مضربي ٥٠ مشغل طباعة انتخبوا مندوبين وكلفوهم بتشكيل مجلس عمالي . وسرعان ما انضم إليهم مندوبو قطاعات أخرى . ومن قبيل المفارقة ان القيصر هو الذي أطلق فكرة المجلس العمالي بصورة غير مباشرة ومن دون ان يبغي ذلك: فبعد احداث كانون الثاني / يناير شكل لجنة يرأسها السناتور شيدلوفسكي ، للتحقيق في أسباب الاضطرابات ، وهذه اللجنة امرت العمال بأن ينتخبوا في مصانعهم مندوبين يعرضون شكاويهم ، وقد نسج مضربو تشرين الأول / اوكتوبر على هذا المنوال . وفي الاجتماع الأول للسوفييت في ١٣ تشرين الأول / أوكتوبر ، لم يكن ثمة غير مندوبي منطقة واحدة هي منطقة النيفا ، وكانت هنالك حاجة لمهماز كي تنجز بقية المناطق . وقد أقبل مناشفة قادوا تلك المجالس العمالية التي سيصبحون فيما بعد اعدى اعدائها .

وفي الحال اكتسب السوفييت سلطة خارقة . كان الجمعية الأولى المنتخبة التي تمثل الطبقات الكادحة المحرومة حتى ذلك الحين من حق التصويت : ففي ظل حكومة كانت تكنّ اقصى درجات الاحتقار لمبدأ التمثيل الشعبي بالذات ، لم يكن في وسع جمعية تجسد للمرة الأولى هذا المبدأ الا أن تنافس من الناحية الأدبية ، وعلى الفور ، الادارة القائمة . أصبح السوفييت في الحال قوة ثورية من الدرجة الأولى .

وقد ظهر تروتسكي للمرة الأولى في السوفييت الذي اجتمع في المعهد التكنولوجي في ١٥ تشرين الأول / اوكتوبر ، في يوم عودته من فنلندا ، أو في اليوم الذي يليه . كان نواب عدة مناطق حاضرين ، وقد شارك في الانتخابات مئتا ألف شخص تقريباً ، أي حوالي ٥٠ ٪ من عمال العاصمة . وفيما بعد ، اثر انتخابات اخرى ، زاد عدد النواب وتروا‌ح بين ٤٠٠ و٥٦٠ . وكان السوفييت قد قرر تأسيس جريدته الخاصة ، الازفستيا ، وكان يفاوض المجلس البلدي للحصول على مقر وعلى مشغل للطباعة . كانت تسيطر في صالات المعهد التكنولوجي وبماشيه حركة محمومة: المضربون يدخلون ويخرجون ، ويناقشون ويطلبون تعليمات ، بما يشكل صورة مسبقة لسوفييت ١٩١٧ .

إلا أن الأحزاب والتجمعات ذات الاتجاه الاشتراكي لم تكن تبنت بعد موقفاً مشتركاً حيال السوفييت . فالمناشفة والاشتراكيون ـ الثوريون قرروا أن يرسلوا اليه ممثليهم فوراً .

---

(١١) كتب لينين رسالة بهذا المعنى الى الجريدة البلشفية نوفايا جيزن (الحياة الجديدة) التي كانت تصدر في بطرسبورغ ، الا ان الجريدة لم تنشر الرسالة ، التي لم تخرج الى العلن إلا بعد مرور ٣٥ عاماً على ذلك التاريخ ، على صفحات البرافدا في ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٠ .

أما البلاشفة فكانوا يرفضون حذو حذوهم : لم يكونوا مستعدين للقبول بذلك إلا إذا اعترف السوفييت سلفاً بسلطة الحزب . أما تروتسكي الذي دعاه كراسين الى اجتماع اللجنة المركزية للحزب البلشفي فحث اعضاءها على الانضمام الى السوفييت من دون شروط مسبقة واعلن انه ليس لحزب ، أو لمجموعة ، حق في التطلع الى قيادة حصرية . فعلى السوفييت ان يكون جمعية تمثل كل الآراء ضمن الطبقة العاملة ، لأن هذا هو الشرط الذي لا بد من توفره لأجل ان يتمكن هذا السوفييت ، في مناخ من الوحدة، من قيادة الاضراب العام والحالة الثورية التي يمكن ان يولدها .

لم يكن النقاش قد اختتم حين أصدر القيصر بياناً في ١٧ تشرين الأول / اوكتوبر يعد فيه بدستور وبالحريات المدنية والاقتراع العام، بعد أن أرعبه الاضراب العام . وكان البيان من وضع الكونت ويت ، الوزير الأول ، وكان نصف ليبرالي . هكذا تم دفن دوما بوليغين قبل أن تبصر النور ، وبدا أن القيصر تخلى عن ذلك الحكم المطلق ، القديم قدم السلالة الملكية بالذات . وقد حدث ذهول في بطرسبورغ سرعان ما تبعه انفجار الغبطة والفرح . اكتسح جمهور سعيد شوارع العاصمة وقرأ البيان بدهشة . إلا أن معارضي الاصلاح هم الذين كانوا يحتفظون على صعيد الحكومة ، بالسلطة . وقد أصدر الجنرال تريبوف ، وزير الداخلية ، أمراً للشرطة يقول : « لا توفروا الرصاص » وألصق الأمر على الجدران الى جانب البيان كشرح سيّىء النية لـ « العهد الجديد » المعلن عنه . وقبل نشر بيان القيصر، كانت الشرطة أوقفت العديد من المناضلين .

وفي صبيحة يوم ١٧ ، كان تروتسكي انضم إلى التجمع الشعبي الضخم الذي توجه إلى المعهد التكنولوجي حيث غدا مقر السوفييت منذ يومين . كان رهط من رجال الدرك الممتطين احصنة يشقون صفوف الجمهور . وبدا أن بلاغ تريبوف يقول انه ما زال الوقت مبكراً جداً للتغني بالنصر ، إلا أن الكتلة البشرية المؤلفة من عمال وبورجوازيين صغار غمرتها الفرحة العامة . كان العمال أبطال ذلك النهار ، فإضرابهم هو الذي انتزع من القيصر الوعد بدستور وبإطلاق الحريات . كانت البيوت مزينة بعلم السلالة القيصرية الملون بالأبيض والأحمر والأزرق ، إلا أن العمال الشباب سارعوا الى انتزاع الرقع الزرقاء والبيضاء والقائها أرضاً ، ورفعوا أعلاماً ضيقة حمراء ممزقة الأطراف. كان الموكب يقترب من المعهد التكنولوجي حين أوقفه حاجز من رجال الشرطة والدرك .

وقد توجهت المظاهرة الى الجامعة حيث كان ينعقد لقاء جماهيري وكان بين الجمهور المغتبط والمتزايد ضخامة الشاب الذي طالما انتظر لحظة من هذا النوع سبق وتنبأ بها . كان

في تلك اللحظة فريسة القلق ، وكان يتحرق لتحذير هذا الشعب المحيط به من استعجاله التعبير عن بهجته الغامرة . وقد دخل الجمهور الى ساحة الجامعة ، وكان الخطباء يتكلمون من احدى الشرفات . شق تروتسكي طريقاً له الى الشرفة عبر الجمهور المتلاصق ، فهناك بالذات كان مكانه الطبيعي ! وكان منظمو اللقاء يعرفونه كالرجل الذي مثل المناشفة في السوفييت ، باسم يانوفسكي (أي رجل يا نوفكا). وكان البعض يعرفون أنه تروتسكي ، الذي يكتب في الايسكرا[١٢] . وقد تفحص الحشد الذي تحت بصره : لم يسبق ان شاهد ما يشابه ذلك . وبصوت بدا له غريباً وبعيداً ، قال : « أيها المواطنون ! لأننا قبضنا على عنق الزمرة التي تحكمنا ، وعدتنا بالحرية » !

وتوقف ، كما لو كان يتساءل إذا كانت برودة حديثه ستبدد حماس الجمهور . بحث عن الجمل والكلمات التي يمكن أن تفهم هؤلاء الناس أنه يشاطرهم فرحهم ، وأن عليهم الاحتراس من سرعة التصديق لديهم .

ثم واصل قائلاً : « من هذا الجلاد المتعب الذي يستوي على العرش انتزعنا الوعد بالحرية . انه نصر عظيم ! لكن لا نستعجلن اعلان النصر ، فانتصارنا لم يكتمل بعد . هل الوعد بالكنز يساوي الكنز ذاته ؟ هل الوعد بالحرية يساوي الحرية ؟ . . . انظروا حولكم ، أيها المواطنون ! هل تبدل شيء بين البارحة واللحظة الحاضرة ؟ هل انفتحت أبواب السجون ؟ هل عاد اخوتنا من صحارى سيبيريا . ؟ . .

وصاح الجمهور : « العفو ! العفو » ! إلا أنه لم يكن ذلك هو الجواب الذي اراده تروتسكي . كان يود أن ينبثق من الصدور والحناجر شعار آخر :

« . . . لو كانت الحكومة عازمة حقاً تحقيق السلام مع الشعب ، لبدأت بمنح عفو عام . لكن ليس هذا كل شيء أيها المواطنون ! يمكن أن يطلق اليوم سراح المئات من المناضلين لكن من يضمن أنه لن يلقى بالألوف غداً في السجون ؟ ألم يلصق الأمر الذي يقول : « لا توفروا رصاصكم » الى جانب البيان الذي يعدنا بالحرية ؟ ألا ترون أن الجلاد تريبوف لا يزال سيد بطرسبورغ المطلق ؟

وصاح الجمهور : « فليسقط تريبوف » .

« فليسقط تريبوف ! » ردد تروتسكي ، « أجل لكن هل تريبوف وحده ؟ . . انه يمسك بنا لأن في تصرفه الجيش . انه قدير لأن الحرس دعامته ومستنده ، الحرس الذين لم

(١٢) بيرفايا روسكايا ريفولوتسياف بيتربورج ١٩٠٥ ، الجزء الأول ، ص ٦٣ ، الجزء ٢ ، ص ٦٨ .

يتمكنوا من محو دماء التاسع من كانون الثاني / يناير عن بزاتهم ، والذين تلقوا الأمر بالتصويب جيداً ، وبألا يخطئوكم . هل تقدرون، هل تريدون ، هل تقبلون الحياة تحت تهديد البنادق » ؟

أما جواب الجمهور فكان المطالبة بإبعاد القوات عن بطرسبورغ . إلا أن تروتسكي الذي أثارت غيظه سرعة عطب الانتصار الشعبي ، وردود الفعل لدى ذلك الجمهور رابط الجأش ، وجمحت به السلطة غير المتوقعة التي كان يمارسها عليه ، صاح مختتماً : أيها المواطنون ، ان قوتنا الوحيدة في ذاتنا . وعلينا أن ندافع عن الحرية والسلاح بأيدينا. أما بيان القيصر فهاكم اياه . ليس غير خرقة من الورق(١٣) » .

وبحركة مسرحية رفع البيان ليراه الجميع ومزقه بغضب ارباً ارباً.

« قدموه لنا اليوم هدية ، وسيستعيدنه منا غداً ليمزقوه ، وتطير حريتكم كمزق الورق التي ترون » .

هكذا كان تروتسكي حين تكلم للمرة الأولى في عاصمة روسيا .

كان تروتسكي فضح في خطابه كل نقاط الضعف التي ستعود بالشؤم على ثورة ١٩٠٥ .لقد اهتزت ثقة القيصر نفسه ، إلا ان الآلة الحكومية الضخمة لم تمس . كان هنالك بالطبع خميرة ثورية في الجيش ، لا سيما في البحرية ، إلا ان القوزاق ، والحرس ، والمشاة الذين لا يحصون من الموجيك ظلوا متجمدين في الطاعة التقليدية العمياء . وكان الجيش يعكس العالم الريفي الفسيح الذي يشله فرط بؤسه بالذات . كانت الثورة يومذاك حكراً على المدن ، وحتى في المدن كانت نجاحاتها تثير المخاوف . فالبورجوازيون والناطقون الليبراليون باسمهم ، الذين يتعلقون حالمين بوعود القيصر، لكن يزعجهم انهم يدينون بها لإضراب العمال العام ، كانوا يسعون بقلق وراء وضع حد للثورة . وتحت هاجس شبح « الفوضى » العامية ، كانوا يخافون بالقدر ذاته أن يؤدي استمرار الثورة الى أن يعير القيصر أذنه لنصائح الذين يريدون جره الى طريق القمع بدل السير على طريق التنازلات . وكان الليبراليون يشرحون للاشتراكيين قائلين : « إذا لم توقفوا النضال ستكون الحرية التي حصلنا عليها وهماً » . الا ان الاشتراكيين كانوا يجيبون : « لكن هذه الحرية هي وهم حقاً » فبيان تشرين الأول / اوكتوبر لم يقدم للطبقة العاملة الشعور بالنصر بقدر ما جعلها تعي قوتها وينفد صبرها لاستخدام تلك القوة في معارك جديدة . وكانت كل طبقة

(١٣) ل . تروتسكي ، داي روسيشي ريفولوسيون ١٩٠٥ ص ٩٣ - ٩٦ .

اجتماعية تواصل السعي وراء هدفها الخاص . كانت البورجوازية تأمل ان تحصل على أقصى الفائدة الممكنة من ملكية دستورية . أما العمال فكانوا جمهوريين . الأولون لم يكونوا يريدون أكثر من الحرية السياسية ، بينما كان الآخرون يصوغون مطالب اجتماية تتهم البورجوازية والقيصرية في الوقت ذاته .

لقد فاقت الطبقة العاملة المتحمسة والمندفعة حتى القادة الاشتراكيين . فهؤلاء كانوا يعدون قواتهم ، ويبلورون خططهم ويضعون تقويمهم . كانوا يتوقعون ان يبلغ الصراع أوجه في ٩ كانون الثاني / يناير ١٩٠٦ ، في ذكرى المسيرة الى قصر الشتاء[١٤] . الا ان البرنامج قد قلبته رأساً على عقب حماسة الجماهير ، التي سرعان ما تجيب عن الاستفزازات بالأفعال . إلا ان ضعفها كان مساوياً على الأقل لرباطة جأشها ، وما كان في وسع النتيجة إلا أن تكون كارثية . فالطبقة العاملة لم تكن مسلحة ، اذ أين يمكن ان تجد ما يكفي من السلاح اذا لم ينضم اليها الجيش ؟ فحتى حين تتوفر الشروط المثالية لنجاح ثورة ، ينبغي الكثير من الوقت لتدخل روح التمرد الى الثكنات . وعقلية الجيش الروسي كانت تعكس عقلية الفلاحين . والحال ان الفلاحين الروس لم يبدأوا بالتحرك جدياً إلا عام ١٩٠٦ . لكن في ذلك الحين كانت الثورة في المدن قد سحقت تماماً ، سحقها الفلاحون الشباب بزيهم العسكري ، هم الذين كان بإمكانهم أن يدعموها لو أن الحركة كانت أقل عجلة في المدن . فالثورة بذرت طاقتها جزءاً فجزءاً . لم تكن للطبقة العاملة أي خبرة في الانتفاضة ، وكانت الأحزاب الاشتراكية ضعيفة الى حد عجزها عن كبح نفاد صبر العمال . وكان هنالك بوجه خاص ، ذلك الواقع الحاسم المتمثل بأن النظام القديم لم يكن قد استنفد قواه . كان لا يزال قادراً على بث الفرقة في صفوف القوى التي يمكن ان تتحد في وجهه .

ان سوفييت بطرسبورغ ، مركز هذه الثورة المحكوم عليها سلفاً ، كان منذ البدء نقطة التقاء كل التيارات المتعارضة . كان يتجاذبه منذ البدء الشجاعة والحذر ، الضغط البركاني للمحيط المحمّى للغاية وحكمه السياسي الخاص به . وقد انتخب السوفييت مكتبه في ١٧ تشرين الاول / اوكتوبر ، هذا المكتب الذي ضمّ بين من ضمّ ثلاثة مناشفة وثلاثة بلاشفة وثلاثة اشتراكيين ثوريين . كان كنونيانتس ـ رادين وسفرتشكوف (الذي

---

(١٤) في الرسالة التي بعث بها لينين من استوكهولم والتي لم تنشرها البرافدا الا عام ١٩٤٠ ، وقد سبق وأشرنا اليها ، كتب بوجه خاص ، « يجب الا يبقى في الذكرى السنوية ليوم ٩ كانون الثاني / يناير العظيم أي أثر للمؤسسات القيصرية في روسيا » لينين ، سوشينيا جزء ١٠ ص ١١ وكان آخرون اقل توقعاً لانتصارات بتلك السرعة وتلك الجذرية . وقد كتب لينين ، مرة أخرى ، ان من الافضل تأجيل الانتفاضة حتى ربيع ١٩٠٦ (المرجع ذاته ، ج ٣٤ ، ص ٣١١) .

كتب فيما بعد تاريخ السوفييت) القائدين الرئيسيين للبلاشفة . وكان تروتسكي الممثل الرئيسي للحزب المنشفي ، مع انه استقال منه خلال اقامته في الخارج . لقد نجح منذ عودته في التأثير على المنظمة المنشفية في العاصمة وقلبها ضد قادتها المهاجرين[١٥] . وكان يعاونه زليدنييف ، وهو عامل جاء الى بطرسبورغ من نيكولاييف انتدبه رفاقه في بداية العام للمشاركة في لجنة السناتور شيدلوفسكي . وبناء على طلب تروتسكي خلقت اللجان المنشفية والبلشفية في بطرسبورغ مجلساً فيدرالياً مهمته الاعداد لاجتماع المجموعتين ، وتنسيق عملهما ، في الحالة الحاضرة ، داخل السوفييت[١٦] . وكان يقود الاشتراكيين الثوريين أفكسنتييف بالذات ، الذي اصبح في عام ١٩١٧ وزيراً للداخلية في حكومة كرنسكي ، وأمر يومذاك بتوقيف تروتسكي . إلا أن الأحزاب الثلاثة تعاونت في عام ١٩٠٥ تعاوناً كاملاً . لم يحاول أي منها أن يطغى على الآخرين . وقد اتفقت فيما بينها لانتخاب خروستاليف ـ نوزار رئيساً للسوفييت ، وكان محامياً من خارج الأحزاب اكتسب ثقة العمال بدفاعه عنهم في نزاعات العمل[١٧] . وغدت لخروستاليف حظوة كبرى في الخارج ، حيث كان يمثل السوفييت رسمياً . إلا أن قرارات السوفييت السياسية كانت من عمل الأحزاب ، والاشتراكيين ـ الديمقراطيين بشكل رئيسي ، فدور خروستاليف في الثورة كان عرضياً . فملهم السوفييت ومحركه كان تروتسكي ، كما تشهد على ذلك روايات اعضائه وذكرياتهم . فهو الذي تكلم في المناسبات الكبرى باسم البلاشفة والمناشفة والسوفييت بكامله . وهو الذي حرر معظم بيانات السوفييت ومقرراته ، وهو الذي كان يدير الازفستيا . هكذا قامت منافسة صامتة في الكواليس بين رئيس السوفييت الرسمي ورئيسه الفعلي[١٨] .

وفي ١٩ تشرين الاول / اوكتوبر ، اي بعد يومين من نشر بيان القيصر ، طلب تروتسكي من السوفييت ان يضع حداً للأضراب العام . لم يكن لمواصلة الاضراب الا القليل من الحظ في تحقيق نجاحات جديدة ، لكن كان يمكن لها ان تؤدي الى اهراق المزيد

---

(١٥) ل . مارتوف ، ايستوريا روس . سوتس . ديم ، ص ١٤١ ـ ١٤٣ .

(١٦) ظهر نص الاتفاق بتوقيع تروتسكي في الازفستيا ، العدد ٢ ، انظر ايضاً مارتوف ، **الاستشهاد ذاته** .

(١٧) إلا أن خروستاليف نوزار انضم فيما بعد الى الحزب المنشفي .

(١٨) وجه خروستاليف ضربة حاسمة لأسطورته حين اوقفته الشرطة الفرنسية ، اثر هجرته ، في قضية اختلاسات مالية . وفي عام ١٩١٧ ، طلب ان يقبل في سوفييت بطرسبورغ كرئيس قديم إلا أنه تم استبعاده بازدراء . وخلال الحرب الاهلية ، في ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ، برز كقائد لجمهورية صغيرة ، دعيت جمهورية خروستاليف ، في احدى مقاطعات روسيا الجنوبية ، ولقد قتل بعد ذلك بوقت قصير . بصدد مجادلات خروستاليف ـ تروتسكي ، انظر ل . تروتسكي ، سوش . ، الجزء ٨ ، ص ١٩٠ ـ ١٩٧ ، والجزء ٢ ، الكتاب ١ ، ص ١١٠ ـ ١١١ ، ٥٠٨ ـ ٥٠٩ ، ن . سوخانوف ، زابيسكي ، أوريفولتسيي ، ج ١ ، ص ١٢٦ ، ١٢٩ .

من الدماء . وقد تجاوب السوفييت مع رأيه بالاجماع ، وانتهى الاضراب العام في ٢١ تشرين الاول / اوكتوبر . وأعلن السوفييت آنذاك أن الجنازة الرسمية للعمال الذين سقطوا خلال الاضراب ستتم في ٢٣ تشرين الاول / اوكتوبر . وفي الثاني والعشرين ، علم أن الجنرال تريبوف يستعد لمنع المظاهرة بواسطة رجال الدرك ، وأن الاوخرانا تهيىء في الوقت ذاته مذبحة لليهود . وفي الليل ، تكلم تروتسكي في السوفييت طالباً الغاء الجنازة . فكان الاقتراح الذي قدمه يقول : « ان السوفييت يعلن ما يلي : لن تقوم بروليتاريا بطرسبورغ بهجومها النهائي على الحكومة القيصرية في اليوم الذي يختاره تريبوف ، بل في اليوم الذي يناسب البروليتاريا المسلحة والمنظمة »[19] . وكظم السوفييت كبرياءه والغى الاحتفالات المتوقعة من اجل جنازة شهدائه . كان في هذا العمل الذي ينم عن التواضع والخضوع شيء من القلق والغم : هل سيكون بإمكان البروليتاريا ان تخوض معركة نهائية في اليوم الذي تختاره هي اذا لم تكن مسلحة أو منظمة ؟ وكيف ستتسلح ؟ في اليوم ذاته قرر السوفييت خلق مجموعات قتالية كانت مهمتها المباشرة الحيلولة دون المذبحة ضد اليهود . في وقت لاحق ، أثناء محاكمة السوفييت ، قدّم البرهان على أن مذبحة كانت معدة بالفعل وان رد فعل السوفييت هو وحده الذي حال دونها . إلا ان المجموعات القتالية ، وحتى تلك التي كانت تحرس السوفييت لم يكن في حوزتها غير المسدسات ، وكان معظم افرادها لا يحملون غير عصيّ وعوارض حديدية . بيد أن الدعوة الى التسلح كانت احد الاتهامات الرئيسية الموجهة الى السوفييت[20] .

لكن السوفييت احتفظ مع ذلك بالمبادرة بقوة . فبيان تشرين الاول / اوكتوبر وعد بحرية الصحافة ، بيد أن الوزير الاول ويت ، الذي كان ليبرالياً مزيفاً ، لم يلغ لهذا الرقابة . ورداً على ذلك ، اعلن عمال المطابع الذين شجعهم السوفييت ، رفضهم صف ـ أو طبع ـ صحف وكتب تخضع للرقابة . وهكذا قدموا لروسيا أول نموذج من الصحافة الحرة ، عن طريق الضغط على الحكومة والناشرين والكتّاب . ثم رفع مطلب يوم العمل من ثماني ساعات الذي طبق العمال مضمونه في مراكز العمل تحت رعاية السوفييت . وفي نهاية تشرين الاول / اوكتوبر أعلنت الحكومة حالة الطوارئ في بولونيا ، وهو ما شعر به ثوريو بطرسبورغ كإهانة لهم . نظم السوفييت في أول تشرين الثاني / نوفمبر استقبالاً احتفالياً لـ « مندوبي بولونيا المضطهدة » . إلا أن اعضاء السوفييت صدموا حين لاحظوا ان ممثلي الشعب البولوني كانوا كلاً من الكونت زاموجسكي ، والكونت كرازينسكي ، والامير

---

(١٩) ل . تروتسكي ، سوش ، ج ٢ ، ك ١ ، ص ٢٨٤ .

(٢٠) انظر الفصل ٤ ، سفرتشكوف ، نازاري ريفولوتسيي ص ٢٠٠ .

لوبوميرسكي ، وبعض الكهنة الكاثوليك ، وبعض التجار ، وفلاحاً واحداً وعاملاً واحداً . ومع ذلك فقد استقبل تروتسكي الوفد بحرارة وأعلن بصورة رسمية حق بولونيا في تقرير مصيرها . وقرر السوفييت القيام باضراب عام آخر تعبيراً عن التضامن مع بولونيا . ولما كانت الحكومة اعلنت في الوقت ذاته أن بحارة كرونشتادت الذين شاركوا في الاضراب العام سيُحوَّلون للمحاكمة أمام محكمة عرفية ، فقد امتزجت بصيحات الدعوة الى حرية بولونيا الصيحات الداعية الى تحرير البحارة[21] . .

ان ذلك القدر من الشهامة والبطولة لم يكن يمر دون ان ترافقه بعض الدعاية العدوانية . فلقد وجه الوزير الاول ويت نداء الى المضربين يقول فيه : « **ايها الاخوة العمال** ، استمعوا الى نصيحة رجل لا يكنّ غير المودة لكم ، ويريد لكم الخير » . وقد وصل النداء الى السوفييت وسط جلسة عاصفة ، فكتب تروتسكي على الفور الجواب التالي[22] :

« العمال ليسوا اخوة الكونت ويت . . . يسألنا الكونت ويت أن نشفق على نسائنا واطفالنا . . . يسأل السوفييت . . . العمال أن يحصوا عدد الأرامل واليتامى الذين تدين الطبقة العاملة بهم الى الوزير ويت . ويتكلم الكونت ويت عن عطف القيصر على الطبقة العاملة . يذكّر السوفييت بـ . . . الأحد الأحمر الواقع في ٩ كانون الثاني / يناير . يبتهل الكونت ويت لنعطيه « الوقت » ويعد بأن يفعل « كل ما في وسعه » . . . يعرف السوفييت ان الكونت ويت عرف كيف يجد الوقت ليسلّم بولونيا لجلادي الجيش . . . والسوفييت على يقين تام من ان ويت سيفعل « كل ما في وسعه » لخنق البروليتاريا الثورية . الكونت ويت . . . يريد لنا الخير . يعلن السوفييت ان لا حاجة لديه الى خيرات حاشية القيصر الأذلاء . انه يطالب بتمثيل شعبي قائم على الاقتراع العام ، المتساوي والمباشر والسري »[23] .

في الصالات الليبرالية ، في مدرّجات الكليات ، في المقاهي الشعبية ، انفجر الجميع بالضحك . أما ويت فقد اعترف بأنه أصابته نوبة عصبية وهو يقرأ جواب

---

(٢١) ظهر خطاب ترحيب تروتسكي بالبولونيين في الازفستيا ، العدد ٥ (٣ نوفمبر)

(٢٢) يروي سفرتشكوف ان السوفييت كلفه هو بوضع مشروع جواب ، لكنه لما كان ينقصه الوحي ، طلب الى تروتسكي الذي وصل لتوه كتابته عوضاً عنه . وقد كتب تروتسكي في الحال جواباً قرأه وسط الحماس العام . سفرتشكوف ، نازاري ريفولوتسيي ، ص ٢٨ .

(٢٣) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ص ٢٨٧ .

السوفييت[٢٤] .

وفي ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ، طلب تروتسكي أمام السوفييت ، وباسم المكتب ، وقف الاضراب العام الجديد . فالحكومة اعلنت ان محاكمة بحارة كرونشتادت ستتم أمام محاكم عسكرية عادية ، لا أمام محاكم عرفية . وكان بإمكان السوفييت أن ينحني ، فذلك ليس النصر إلا أنه تمت حماية الشرف . وقد كان عليه ان يفعل ذلك لأن التعب كان يزداد في صفوف مضربي المقاطعات. شرح تروتسكي فكرته كما يلي : « ان الاحداث تعمل لصالحنا ، فعلينا ألا ندفع بها الى الهاوية . علينا مواصلة اعداد انفسنا أطول وقت ممكن ، وربما طيلة شهر أو شهرين أيضاً . علينا قبل كل شيء ان ننظم القوى الشعبية ، علينا أن نجعل من الطبقة العاملة جيشاً حقيقياً » لم يكن بالامكان مواصلة اضراب عام الى ما لا نهاية له ، فالاضراب العام ينبغي ان يؤدي الى الانتفاضة ، والسوفييت لم يصبح مستعداً لذلك . قال تروتسكي : « حين ينضم عمال سكك الحديد والمواصلات الهاتفية والبرقية والبريدية الى صفوف الثورة ، عند ذلك سيصنع فولاذُ السكك والاسلاك البرقية من جزر الثورة الكثيرة المتوزعة في كل انحاء البلاد قلعة واحدة وعظيمة . حينذاك نصبح قادرين ، في فرصة اربع وعشرين ساعة اذا اقتضى الأمر ، على تفجير الثورة في روسيا جمعاء » .

في الوقت الذي كان تروتسكي يحاول فيه أن يكبح جماح متعصبي الثورة ، كان في السوفييت تجسيداً لتحدٍّ شرس ومشبوب . انظروا كيف نقل حواراً له مع ليبرالي مرموق كان يشجعه على الاعتدال : « ذكّرته حينذاك أنه خلال الثورة الفرنسية ، صوتت الكونفنسيون (*) على اقتراح يعلن ان الشعب الفرنسي لن يناقش العدو على ارضه الخاصة به . فصرخ احد اعضاء الكونفنسيون عندئذٍ : « هل وقّعتم على معاهدة مع النصر ؟ - فأجيب بالقول : « كلا ، بل وقّعنا على معاهدة مع الموت » . ايها الرفاق حين تقول لنا البورجوازية الليبرالية ، هل تعتقدون بقدرتكم على مواصلة النضال من دوننا ؟ هل وقعتم على معاهدة مع النصر ؟ » علينا ان نرمي في وجهها الجواب ذاته : « كلا ، لقد وقّعنا على معاهدة مع الموت »[٢٥] .

وبعد مرور عدة أيام ، كان على تروتسكي تذكير السوفييت من جديد بضعفه ليدفعه

(٢٤) تثبت شهادة ميليوكوف ان تروتسكي لم يظلم الكونت ويت . فقد ذهب ميليوكوف في تلك الفترة الى ويت وقال له انه يرى من واجب القيصر اصدار دستور فوراً ، من دون انتظار الدوما . وقد اجابه ويت بأن القيصر لا يريد ذلك وأن بيان تشرين الاول / اوكتوبر قد اعلن في لحظة « حمّى » . وويت ذاته لم يكن يريد دستوراً ، فشبه نظام دستوري كان يكفيه . ميليوكوف ، ايستوريا فتورووي روسكوي ريفولوتسيي ، خ ١ ، ك ١ ، ص ١٨ - ١٩ .

(*) الجمعية التأسيسية التي انتخبت ابان الثورة (م)

(٢٥) ظهر الخطاب في الازفستيا ، العدد ٧ ، ٧ نوفمبر ١٩٠٥ ، سوش . ج ٢ ، ك١ ، ص ٢٩٠ .

الى التخلي عن التطبيق الاجباري ليوم العمل من ثماني ساعات . وكان المستخدمون ردوا بإقفال المصانع في وجه اكثر من مئة الف عامل . وقد انقسم السوفييت ، وأعلنت أقلية تأييدها للاضراب العام . وانتصر تروتسكي في الاخير بفضل دعم عمال المعادن . غدت التراجعات من هذا النوع متواترة ، إلا ان ضغط التطرفية الشعبية كان يجعلها حتمية . وما يفاجئنا هو انه لم يكن لضعف السوفييت نتائج اكثر كارثية ، لا سيما اذا فكرنا بأن محركه الرئيسي كان لا يزال شاباً يافعاً لم يقد يوماً حركة جماهيرية على قدر من الأهمية ، لا بل لم يشارك بمثلها في يوم من الأيام . واذا اخذنا بالاعتبار كل الصعوبات التي كان على تلك الثورة ان تتخطاها ، فإن تكتيك السوفييت ، الذي كان يتمثل بإرهاق العدو دون خوض معركة عامة ضده ، يبدو حينئذٍ لا عيب فيه تقريباً . وبالمقابل ، فإن النتائج التي توصل اليها ، والسلطة التي عرف كيف يحتفظ بها الى النهاية ، والتنازلات التي توصل الى انتزاعها ، تبدو مثيرة . وعلينا أن ننتظر عشرين عاماً ، والصراع بين تروتسكي وستالين ، لنرى من يأخذ على تروتسكي « اعتداله » خلال خريف ١٩٠٥ . لكن خلال العشرين عاماً هذه ، نظر البلاشفة الى قصة السوفييت كفصل مجيد في سجلات الثورة[٢٦] .

ولم يقدم البلاشفة أي اقتراح آخر للسوفييت ، أو أدنى ايحاء . وفي الأدب السياسي المخصص لهذا الموضوع ، عُزي فشل ثورة ١٩٠٥ دائماً الى وضع البلد « الموضوعي » ، لا الى اخطاء قائدٍ ما ، وأقل أيضاً الى اخطاء تروتسكي[٢٧] .

سرعان ما أصبح السوفييت المركز الثوري الكبير الذي لم يتوفر للمجموعات والزمر الوقت لتقدير اهميته وتحديد موقفها تجاهه . وحوالى منتصف تشرين الثاني / نوفمبر ، كان كل القادة المهاجرين الذين عادوا اخيراً من أوروبا الغربية ينظرون بقلق وذهول الى هذه الجمعية التي تشبه تماماً كونفنسيون روسية . بيد أنه كان فيهم شيء ما « مهاجر » جداً ، بحيث يعجزون عن الانغراس فيها ، زد على ذلك أن السوفييت كان بدأ يعمل ، حين وصلوا ، منذ ثلاثة اسابيع أو أربعة . وكان تروتسكي هو الذي تولى عندئذٍ ، باسم بروليتاريا بطرسبورغ ، وأمام السوفييت ، تحية تضحية المهاجرين القدامى

---

(٢٦) لا بل كان البلاشفة يحتفلون بانتفاضة موسكو ١٩٠٥ ، بورع وحماس ، تلك الانتفاضة التي قادها اعضاء من مجموعتهم .

(٢٧) لينين ، سوشينيا ، ج ٢٣ ، ص ٢٢٨ ، برفارروسكايا ريفولوتسياف بطرسبورغ ١٩٠٥ ، ج ١ و ٢ . لم يظهر أي خلاف على تكتيك السوفييت في مؤتمر الحزب اللاحق . انظر بياني سييزد R.S.D.R.P.، وسفرتشكوف ، المرجع المذكور . ولم يبدأ مؤرخو الحزب (ليادوف وبوكوروفسكي) الا حوالي ١٩٢٦ ، مراجعة هذا الموقف شيئاً فشيئاً الى ان أكد تاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي الخاص بستالين (ص ٧٩ ـ ٨٠) بشكل مكشوف ان السوفييت الخاضع لتأثير تروتسكي ومناشفة آخرين كان « ضد الاعداد لانتفاضة » .

وبطولتهم[٢٨] . حين تركهم في بداية العام ، كان هؤلاء لا يزالون يعاملونه بمزيج من الاعجاب والتنازل اللذين يحس بهما المرء ازاء طفل عجيب . اما الآن فكانوا ينظرون الى هذا الرجل باحترام مستجد ، بعد أن رأوه يسيطر على المنبر بسلطة القائد وقرأوا على الوجوه القاسية والرصينة لذلك الحشد من العمال سلطته والورع الذي كان يلهمه . ويروي لوناتشارسكي ان احدهم قال للينين ، بعد عودته بقليل ، في الثامن أو العاشر من تشرين الثاني / نوفمبر ، ان « الرجل القوي حالياً في السوفييت هو تروتسكي » . « بدا لينين وقد اكفهر لحظة ثم أعلن : لم لا ؟ انه يدين بذلك لاجتهاده المثابر والمرموق » . واذا كان لينين اكفهر لحظة فعلى الأرجح لأنه سمع مجدداً في لمح البرق النعوت الجارحة التي وصفه بها تروتسكي . لقد بقيت على قلبه : قبل وقت قصير ، أخذ على بارفوس تعاونه مع تروتسكي « هذه الصدفة الفارغة ، صانع الجُمل هذا ، هذا البالالايكين»[٢٩] . أما الآن فكان يحيي بشكل مشرِّف مزاياه وعمله .

وبدا أن تروتسكي ، من جهته ، يدعم خصومه القدامى ، لسبب آخر . ولينين ، كمارتوف ، كان يعتقد الآن ان خصوماتهم المحمومة لم تكن غير عواصف في فناجين شاي الهجرة . كانت النقاشات حول صلاحيات اللجنة المركزية وشروط الانتساب للحزب مبررة بالنسبة لمنظمة سرية . إلا أن الحزب كان مذاك قد خرج من السرية ليعمل في وضح النهار : للمرة الاولى ، كان في وسع اعضائه أن يصوّتوا وينتخبوا اجهزتهم القيادية دون الخوف من الاوخرانا . وكان لينين لا يرغب اقل من مارتوف في ان تنتخب القاعدة اللجان ، لا أن تعيّن من فوق[٣٠] . من جهة أخرى ، اهتزت قناعة المناشفة بالرسالة الثورية الخاصة بالبورجوازية ؛ تمكنوا من ان يروا ان تلك القناعة لا تتفق مع الوقائع . لقد تأثرت مجموعة بطرسبورغ المنشفية تأثراً عميقاً براديكالية تروتسكي بحيث خضع القادة المهاجرون ولم يعاندوا . بدا ان كل الخلافات قد زالت ؛ وقبل نهاية العام ، كرس اندماج اللجنتين المركزيتين البلشفية والمنشفية المصالحة بين التكتلين ، وبدا أن متعصبي الانشقاق كانوا على خطأ مبين ، بينما كان نصير الوحدة محقاً[٣١] .

ولقد تجاوز اشعاع تروتسكي وافكاره ، في تلك الفترة ، السوفييت والأحزاب

---

(٢٨) انظر ذكريات ميخايلوف في برفايا روسكايا بطرسبورغ ، ١٩٠٥ ، ج ١ ، ص ١٢٨ ، تروتسكي ، حياتي ، ج ١ ، الفصل ١٤ .

(٢٩) البالالايكين شخصية هجائية لسالتيكوف ـ شتشيدرين . ثرثار ، ماهر في التخطيط ، مدّع ، ومحام . كان ذلك رد لينين على نعت « محام مشوه » الذي خصه به تروتسكي .

(٣٠) لينين ، سوش . ج ١ ، ص ١٢ ـ ٢١ .

(٣١) ل . مارتوف ، ايستوريا روس . سوتس . ديم . ص ١٤١ ـ ١٥١ .

الاشتراكية الى حد بعيد . ففي عام ١٩٠٦ ، حين كانت الثورة قد اصبحت في ذروة تقهقرها ، رد ميليوكوف بهذه التعابير على هجمات اليمين : « ان من يتهمون الآن حزبنا (الحزب الديمقراطي الدستوري) بكونه لم يفضح . . . الأوهام الثورية للتروتسكية . . . اما انهم لا يفهمون الروح التي كانت تسود آنذاك داخل جمهور الاجتماعات الديمقراطي ، أو أنهم يتناسونها » . وشرح ميليوكوف بقوله : « لو ان احداً حاول في عام ١٩٠٥ ان يقف في وجه « أوهام التروتسكية » لفقد حظوته واعتباره »[٣٢] . وهذه ملاحظة معبرة بشكل خاص ، لأن « الجمهور الديمقراطي » المعني ، المؤلف من رجال اعمال مستنيرين واصحاب مهن حرة ، لم يكن يشكل مباشرة جزءاً من الدائرة التي ينشط فيها تروتسكي . فهذا الاخير لم يكن يخرج إلا نادراً جداً من الوسط الشعبي الخاص بالسوفييت ليواجه حضوراً بورجوازيين ، وحين كان يفعل ذلك كان يفعله كمرسل من جانب السوفييت . وفي رواية تروتسكي لأحداث ١٩٠٥ يذكر كيف جاء خلال اضراب تشرين الثاني / نوفمبر الى قصر البارونة أوكسول فون هيلد برانت ليشارك في اجتماع سياسي مهم . « كان الخادم ينتظر بطاقة زيارتي ، لكن يا لتعاستي ، أي بطاقة زيارة يمكن ان يبرز رجل مثلي لا يستخدم غير أسماء مستعارة ؟ . . . . » ظهر في قاعة الدخول على التوالي طالب ومحاضر راديكالي ومدير مجلة جدية للغاية ، ثم في الاخير البارونة بالذات . كانوا يتوقعون بوضوح ان يكون « رجـل العمال » ذا مظهر اكثر رهبة . وينبغي أن نقول انه في خلال ذلك العام المضطرب جداً كان مظهر تروتسكي بورجوازياً الى حد بعيد ، ولباسه انيقاً ولا عيب فيه ، لدرجة ان بعض اصدقائه الاشتراكيين بدوا مصدومين[٣٣] . والمؤكد أن مدعوي البارونة لم يتمكنوا من الشعور برعشة الانفعال التي كانوا يتوقعونها من الاحتكاك بديماغوجي ثوري فظ . « ذكرت اسمي فجرى ادخالي بالكثير من اللياقة والتهذيب . وقد شاهدت جمهوراً من ستين الى سبعين شخصاً . . . في جانب من الممر كان ثمة ثلاثون ضابطاً كبيراً ، بينهم من يرتدي بزات ضباط الحرب المزركشة ، وكان يشغل الجانب الآخر من القاعة عدد من السيدات وفي الصف الأول مجموعة اذيال سترات سوداء » ، منارات الليبرالية . كان بيير ستروفه ، الماركسي السابق ، يطالب ضباط الحرس بالدفاع عن بيان تشرين الاول / اوكتوبر ضد هجمات اليمين واليسار . وفيما كان تروتسكي يصغي ، تذكر نصاً لم يمض على كتابة ستروفه له اكثر من سبع سنوات ، يقول : « كلما تقدمنا في اوروبا الى الشرق ، كلما كانت البورجوازية اكثر خنوعاً وجبناً وبؤساً » ثم جاء دور تروتسكي لمخاطبة

(٣٢) ب . ميليوكوف ، كاك بروشلي فيبوري فوفتورويو غوس دومو ، ص ٩١ - ٩٢ .
(٣٣) أ . لوناتشارسكي ، ريفولوتسيونني سيلويتي ، أ . زيف ، المرجع المذكور ، ص ٥٠ - ٥٢ .

الضباط . فقال لهم ان الطبقة العاملة ، وبالتالي الحرية بالذات ، عزلاء من السلاح ، وانهم هم ، الضباط ، الذين يمسكون بمفاتيح ترسانات الأمة ، وان واجبهم في تلك اللحظة الحاسمة يقضي بتسليم تلك المفاتيح لأصحابها الحقيقيين ، أي الشعب[٣٤] . وأن يكون ضباط كبار في الحرس استطاعوا سماع كلام من هذا النوع يعطي فكرة عن البلبلة السياسية في تلك الفترة . في كل حال ، ما كان بامكان ذلك النداء ان يصل الى آذانهم إلا كمزحة يائسة . فهرم القيصرية لن يدك في يوم من الأيام إلا من القاعدة ، لا من القمة .

وحين لم يكن تروتسكي في اجتماع ما ، كان في قاعة للتحرير ، فقد كان مديراً أو مديراً مشاركاً لثلاث صحف . فأزفستيا السوفييت ظهرت بانتظام ، ودوماً ، لقاء عمل باهر كله سذاجة . فكل عدد جرى صفه في مطبعة جريدة لأقصى اليمين كانت تقتحمها فصيلة من السوفييت وتصادرها للمناسبة . زد على ذلك ان تروتسكي نجح ، بمعاونة بارفوس العائد الى بطرسبورغ ، في وضع اليد على صحيفة الليبراليين الراديكاليين ، **روسكايا غازيتا** ، التي جعل منها اليومية الشعبية للاشتراكي المناضل . بعد ذلك بوقت قصير ، أسس مع بارفوس ومارتوف جريدة يومية جدية كبيرة باسم **ناشالو** (الانطلاق) . و **ناشالو** التي كانت من الناحية النظرية لسان حال المناشفة ، كانت في الواقع جريدة تروتسكي بوجه خاص . فهذا املى شروطه على المناشفة : ستدافع الجريدة عن « الثورة الدائمة » التي ينادي بها تروتسكي وبارفوس ، لن تكون هنالك ادنى علاقة بالديمقراطيين الدستوريين (الليبراليين) . كتب مارتوف الى أكسلرود : « علينا الموافقة على ان نكون دعاويّي نظرية محفوفة بالمخاطر يلزمنا ألا ننتقدها بأي شكل من الاشكال »[٣٥] . وكانت لائحة المتعاونين معها تضم الاسماء الكبيرة في الاشتراكية الاوروبية : فيكتور أدلر ، أوغوست ببيل ، كارل كاوتسكي ، روزا لوكسمبورغ ، فرانز مهرينغ ، كلارا زتكين . ولقد كان بمثابة انتقام لطيف من جانب تروتسكي فتحه اعمدة **ناشالو** لبليخانوف الذي لم يمر اكثر من عام على اعلانه انه يجد « منفراً من الناحية الاخلاقية » ان يجاور تروتسكي في **الايسكرا** . ولقد نجحت صحف تروتسكي اكثر بكثير من جريدة البلاشفة ، نوفايا جيزن ، التي كان يشرف عليها لينين وغوركي ، ولونا تشارسكي وبوغدانوف . وليس في ذلك ما يدهش اذ يكفي القيام بالمقارنة لإدراك ان صحف تروتسكي كانت أفضل بكثير ، بما تتميز به من قريحة ولذع[٣٦] . واذا كانت جرائد

(٣٤) ل . تروتسكي ، سوشينينيا ، ج ٢ ، ك ٢ ، ص ٧٣ .

(٣٥) بيسما اكسلرودا أي مارتوف ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(٣٦) اعترف لينين بذلك فيما بعد . ففي أيار / مايو ١٩١٧ ، وقبل أن ينضم تروتسكي مجدداً الى صفوف الحزب البلشفي ، اقترحه لينين لادارة الجريدة اليومية الشعبية البلشفية ، وذكّر بالنوعية الممتازة لجريدة تروتسكي روسكايا غازيتا التي كانت تصدر عام ١٩٠٥ . الا انه تم مع ذلك اسقاط اقتراح لينين . كراسنايا ليتوبيس ، العدد ٣ (١٤) ١٩٢٣ .

التكتلين متنافسة على المستوى الصحفي ، فقد قدمت الدعم المتبادل وساندت السوفييت .

الحرية التي احس بطعمها الشعب ، والنشاط المكشوف للسوفييت والأحزاب الاشتراكية والصحافة ، كل ذلك ما عتم أن تعرض للزوال . فالحكومة نجحت في سحق العديد من التمردات المشتتة داخل الجيش . وكان قسم من الطبقة العاملة بدأ يتساقط من التعب ، بينما عيل صبر قسم آخر يود حمل السلاح . وقد اعاد الكونت ويت فرض الرقابة . إلا أن السوفييت أبدى مقاومة ، وصاح تروتسكي بمندوبي العمال : « دافعوا عن الكلمة الحرة ، فحرية التعبير بالنسبة للعمال كالخبز والهواء . والحكومة تخشاها كشفرة موسى »(٣٧) . اما الضربة اللاحقة فتم تسديدها للسوفييت بالذات . في ٢٢ تشرين الثاني / نوفمبر ، أوقف خروستاليف نوزار وقادة آخرون . ثم انتظرت الحكومة ردة فعل السوفييت . ومرة اخرى ، وجد السوفييت نفسه في المأزق الذي كان يعرفه جيداً : إما الاقتصاص من وزراء القيصر كما كان يشترط الاشتراكيون الثوريون أو اعلان الاضراب العام ، كما يطالب آخرون . وكان الاشتراكيون ـ الديمقراطيون معارضين للارهاب من حيث المبدأ ، وكانوا يرون من قبيل المغامرة اعلان الاضراب العام . ومرة اخرى ، تعين على المحتدم تروتسكي أن يجعل من نفسه محامي الحذر والاحتراس ، وان يطلب تأجيلاً جديداً لامتحان القوة النهائي . قدم اقتراحاً بأن ينتخب نواب سوفييت العمال رئيساً جديداً مؤقتاً ويواصلوا الاعداد للانتفاضة العامة . واصطف السوفييت الى جانب رأي تروتسكي وانتخب مجلس رئاسة (بريزيديوم) من ثلاثة اعضاء ، ضم يانوفسكي (اسم تروتسكي المستعار) ، وسفرتشكوف وزليدنييف . كانت الاعدادات للانتفاضة المسلحة التي لمّح اليها تروتسكي لا تزال في طور جنيني : جرى تكليف مندوبين اثنين بالاتصال بسوفييتات المقاطعات . كان ينقص الانتفاضة كلياً جهاز عصبي ، إلا أن الحكومة لم تكن مستعدة لمنح السوفييت الوقت لتنظيم نفسه ، وسرعان ما بدأت الشرطة تقيم الحراسات على أبواب الشركة الاقتصادية الحرة حيث كان يجتمع السوفييت .

وكان بديهياً أن أيام السوفييت اصبحت معدودة . وقد اكتفى ، بعد أن أصبح مهدداً في عمله ، بالقيام بالمبادرات المشهدية . كان دوره يتمثل بتلقين الشعب مبادئ الثورة ومناهجها . وحين طلب تروتسكي من السوفييت التراجع عن التطبيق الجبري ليوم العمل من ثماني ساعات ، قال : « ربما لم نربح يوم العمل من ثماني ساعات للطبقة العاملة ، إلا أننا نجحنا في ربح الطبقة العاملة ليوم العمل من ثماني ساعات » . وكان

(٣٧) روسكايا غازيتا ، ١٧ تشرين الثاني / نوفمبر ، ١٩٠٥ . تروتسكي ، سوش . ج ٢ ، ك ٢ ، ص ٣٠١ ـ ٣٠٣ .

ذلك صحيحاً ! فيوم العمل من ثماني ساعات كان بدا قبل وقت قصير من ذلك الحين طوباوياً بشكل كامل بالنسبة للعامل الروسي ، كما بالنسبة للعامل في اوروبا الغربية أيضاً . والحالة هذه ، أصبح هذا المطلب بين عامي ١٩٠٦ و ١٩١٧ بين المطالب الأولى التي ترفعها الطبقة العاملة الروسية . ويمكن أن نقول ان رسالة تروتسكي عام ١٩٠٥ لم تكن حفز انتفاضة البروليتاريا بقدر ما كانت كسب البروليتاريا للانتفاضة . ففي كل مرة سنحت الفرصة ، كان يفسر بلا كلل لماذا لم يكن في وسع الأضراب العام ، الذي كان البعض يعتقدون أنه يكفي ليقلب القيصرية بشكل عجائبي ، ان يؤدي الى قلب اسس المجتمع الا اذا انتهى الى الانتفاضة المسلحة ، ثم كان يعدد الشروط المطلوبة لنجاح انتفاضة . وحتى في قفص المتهمين ، اعاد شرح وجهة نظره ، وأثبتت احداث الشهور والسنوات اللاحقة صحة تحليله . فاذا اعتقدنا بأن ثورة ليست غير مؤامرة مهيأة بذكاء ، واذا اهملنا تراكم المظالم الطويل والبطيء ، والتجارب والعادات القتالية التي يفترضها لدى الشعب ، نكون استخففنا بهذه الدروس الثورية ، ونكون نظرنا الى قرارات السوفييت حول الانتفاضة كما لو كانت تهديدات جوفاء ، وكانت كذلك في الحالة التي نحن بصددها . وسوف ننتظر المستقبل ليعطي منظورات السوفييت وتروتسكي السياسية حقها . فثورة شباط / فبراير ١٩١٧ سوف تضع موضع التطبيق المبادئ التي ورثتها من ثورة ١٩٠٥ . كانت في البدء اضراباً عاماً اندمج بانتفاضة مسلحة خاضها بنجاح اولئك العمال ذاتهم ، عمال بطرسبورغ الذين توجه اليهم تروتسكي في عام ١٩٠٥ ، وأولادهم .

كان آخر عمل للسوفييت قراره مقاطعة النظام القيصري مالياً . طالب السوفييت الشعب بالامتناع عن دفع الضرائب ، ورفض الأوراق البنكية وعدم قبول ما دون القطع الذهبية ، وسحب الودائع من المصارف[٣٨] . كان « البيان المالي » الذي وضع بارفوس نصه ، يفضح كذلك فساد الادارة وافلاسها المالي وموازنتها المغشوشة ، وفوق كل هذا افتقادها للطابع التمثيلي . « تخاف الحكومة الرقابة الشعبية التي يتكشف للعالم أجمع عجزها المالي ، لذا ترفض اتخاذ الاجراءات اللازمة لقيام التمثيل الشعبي . . . فالحكومة لم تثق يوماً بالشعب ، وهي لم تتلق منه أية سلطة . الحكام يملون ارادتهم على بلادهم كما لو كانت بلاداً مفتتحة » . وكان البيان يعلن كذلك ان الشعب الروسي لن يدفع ديون القيصر ،

(٣٨) لم تأت مبادرة المقاطعة من السوفييت بل من جمعية فلاحي عموم روسيا ، ، الاكثر اعتدالاً ، التي كان السوفييت يتعاون معها بشكل وثيق . وقد وقّع على بيان المقاطعة كل من السوفييت ، والجمعية المذكورة ، وجناحي الحزب الاشتراكي - الديمقراطي ، والحزب الاشتراكي الثوري والحزب الاشتراكي البولوني P. P. S. .

وهو تحذير سوف تذكّر الحكومة السوفياتية به دائني القيصر الأوروبيين في يوم من الأيام . واذا كانت حجج البيان الأدبية والسياسية مقنعة ، فقد كانت النتيجة الوحيدة للمقاطعة المالية تسريع الانهيار الذي كان السوفييت يحاول الحيلولة دونه . رأى فيه الجانبان بديلاً عن الانتفاضة ، وهما محقان في ذلك . فالسوفييت لجأ اليه بالضبط لأنه كان عاجزاً عن خوض كفاح مسلح . « ليس ثمة غير طريقة واحدة للخروج من المأزق . . . طريقة واحدة لقلب النظام ، تتمثل بحرمانه من موارده » : هكذا اعلن البيان ، خلافاً لوجهة النظر التي طالما جرى التعبير عنها ، وكانت تقول ان « الوسيلة الوحيدة » لاطاحة القيصرية هي الانتفاضة المسلحة . أما الحكومة ، فالصدمة التي كانت ستتلقاها من الاضراب الضريبي هي تقريباً بقساوة الصدمة التي كانت ستحدثها الانتفاضة ، لذا كان هجومها المضاد فورياً(٣٩) .

وبعد ظهر الثالث من كانون الاول / ديسمبر ، كان تروتسكي يرئس اجتماعاً للجنة السوفييت التنفيذية التي كانت تعد جدول اعمال جمعية عامة وشيكة للسوفييت . كان يعرض التدابير الحكومية الاخيرة : تلقى حكام المقاطعات السلطة الكاملة لإعلان حالة الطوارئ ، وهو ما كان قد تم بالفعل في بعض المناطق : تم تهديد المضربين بغرامات باهظة ، وصودرت الجرائد التي نشرت « البيان المالي » ، وكان وزير الداخلية يستعد لاعادة حظر الاحزاب الاشتراكية وسجن قادتها . فاقترح المناشفة والبلاشفة معاً يومذاك اعلان الاضراب العام . وفي أوج النقاش ، جاء من يحذرهم من ان اقتحام الشرطة للسوفييت اصبح وشيكاً . فقررت اللجنة مواصلة الجلسة ، لكنها صرفت بعض الاعضاء الذين يمكنهم متابعة العمل باسمها ، فيما لو ألقي بالسوفييت في غياهب السجون . وقد انطلق هؤلاء ، إلا انهم سرعان ما عادوا : فالحرس والقوزاق ورجال الدرك والشرطة كانوا قد طوقوا المبنى . وقررت اللجنة بالاجماع البقاء في مكانها ، لكن دون ابداء أية مقاومة مسلحة ازاء عرض القوة الضخم هذا . وواصلت مشاوراتها : واقترب طرق الاحذية وصليل السيوف . ومن القاعة الأرضية حيث اجتمع المندوبون في الدورة المنعقدة بكامل هيئتها ، كانت تتصاعد صيحات الاحتجاج الغاضبة . خاطب تروتسكي النواب من احدى الشرفات : « ايها الرفاق ، امتنعوا عن المقاومة ، اننا نعلن سلفاً أنه لن تطلق رصاصة واحدة من هنا ، إلا اذا اطلقها عميل استفزازي أو رجل شرطة ! » ، وطلب من

(٣٩) حين قرر القيصر ، بعد مرور سبعة اشهر على ذلك التاريخ ، وبعد هزيمة الاشتراكيين ، ان يسوّي حساباته مع الليبراليين ويصرف الدوما الثانية ، دعا هؤلاء أيضاً ، في بيان فيبورغ المشهور الذي صدر عنهم ، الى المقاطعة المالية . وقد فعلوا ذلك بالتعابير ذاتها تقريباً التي استخدمها السوفييت ، لكن دون جدوى . وكان بيان فيبورغ يطالب الشعب ايضاً برفض الخدمة في جيش القيصر .

النواب كسر آلية قدح مسدساتهم قبل الاستسلام للشرطة ، ثم عاد واتخذ مكاناً له على طاولة اللجنة .

كان مندوب نقابي يقول ان نقابته تقدم دعمها للاضراب العام حين احتلت فصيلة من الجنود ورجال الشرطة المماشي . دخل ضابط شرطة الى القاعة التي كانت اللجنة تعقد جلستها فيها وبدأ يقرأ مذكرة توقيف . ولما كانت المقاومة قد استبعدت ، لم يعد ثمة شيء كثير يعمله الحاضرون ، لكن بقي مع ذلك أن يقرر السوفييت اذا كان سيتحمل ذل الهزيمة بكرامة . هل سيستسلم اعضاؤه كخراف خائفة ، من دون أي بادرة تحدّ ؟ ان كبرياء تروتسكي وحس التأثير الدرامي لديه ما كانا ليتوافقا مع فصل بتلك التفاهة وذلك التثبيط للمعنويات . واذا لم يكن بالامكان تحدي المنتصرين جدياً ، يمكن على الأقل معاملة الوضع بدعابة وسخرية . وقد جعل تروتسكي من ذلك المشهد النهائي قطعة جسارة طريفة وهازلة . قاطع ضابط الشرطة المندفع في قراءة مذكرة التوقيف ، قائلاً له بجفاف : « أرجو ألا تقاطع الخطيب . اذا كان لديك ما تقوله ، أعطِ اسمك وأسألُ الجمعية اذا كانت ترغب في الاستماع اليك » .

أما الضابط ، المضطرب ، الذي لم يعد يعرف اذا كان موضع سخرية او اذا كانت تلك مقدمة مقاومة مسلحة ، فانتظر حتى أنهى المندوب النقابي مداخلته . حينئذٍ سأل تروتسكي اللجنة بكل رصانة ووقار اذا كانت تسمح للضابط بإعطاء تصريح « لأخذ العلم » . وقد قرأ الضابط مذكرته ، فدعا تروتسكي اللجنة لتدوين ذلك وانتقل الى النقطة الثانية من جدول الاعمال . ثم اخذ الكلام عضو آخر .

وتلعثم الضابط الذي اذهله ذلك السلوك الغريب وهو يقول : « عذراً » ، ثم استدار نحو تروتسكي كما لو كان يطلب منه المساعدة .

ـ « لا تقاطع ! صاح به تروتسكي بجفاف . لقد منحناك فرصة للكلام ، وأعطيت أنت تصريحك ، ودونّا نحن ما جاء فيه . هل ترغب اللجنة في الاستماع بعد الى هذا الشرطي ؟

ـ « كلا ! » .

ـ أطلب اليك إذاً أن تغادر القاعة » .

وتعثر الضابط ، وتمتم بعض الكلمات وخرج . فطلب تروتسكي عندئذٍ من اعضاء اللجنة ان يتلفوا كل الوثائق ويمتنعوا عن كشف هويتهم للشرطة . كانوا يصغون الى

الضجيج الذي يصدر من القاعة السفلية حيث كان النواب يحطمون مسدساتهم .

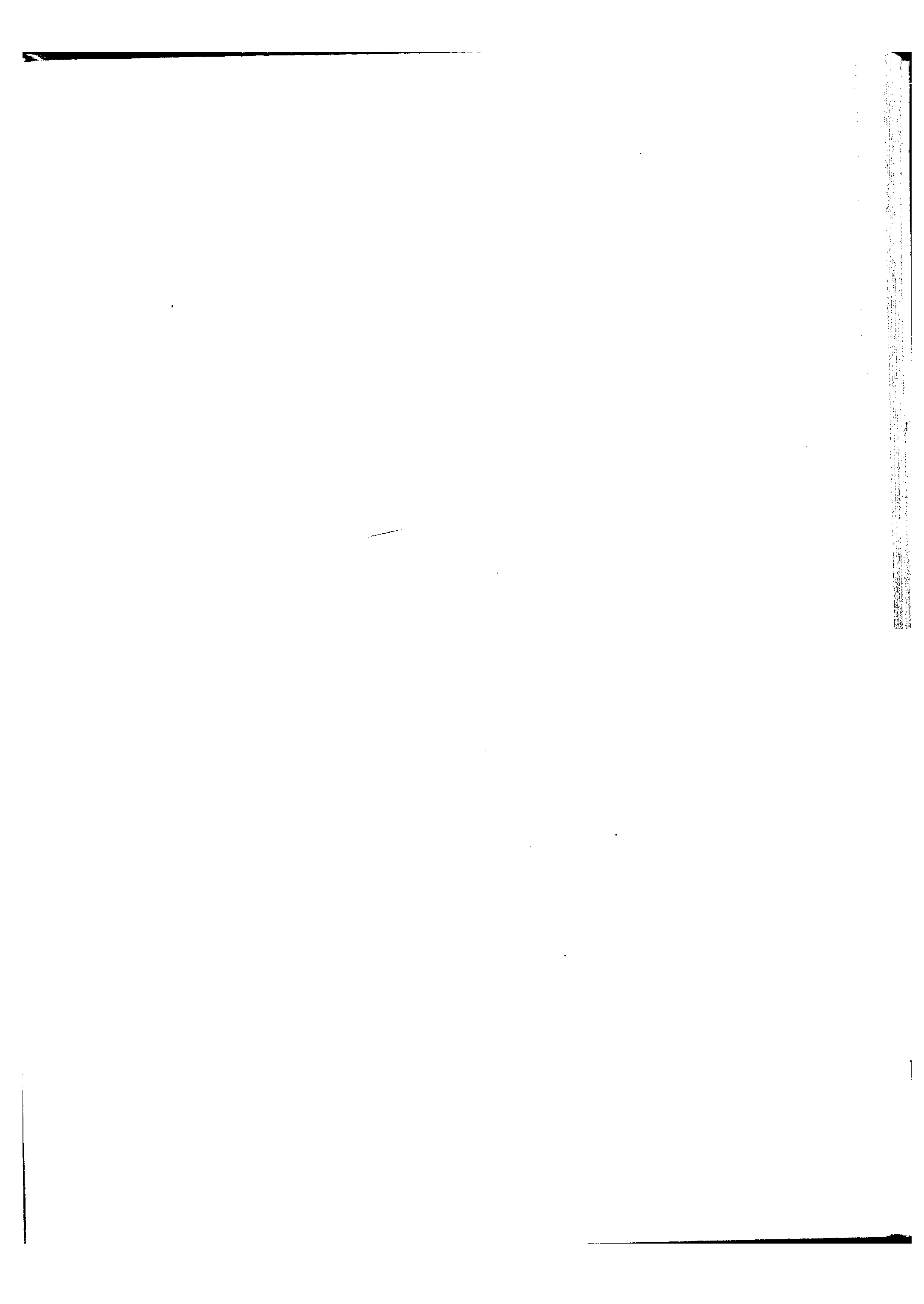
وعاد ضابط الشرطة الى القاعة ، لكن مصحوباً هذه المرة بمفرزة من الجنود . فنهض أحد اعضاء اللجنة وتوجه بكلامه الى الجنود قائلاً : « لقد جحد القيصر في هذه اللحظة بالذات وعود بيان تشرين الاول / اوكتوبر ، فيما قبل الجنود بأن يستخدمهم كأدوات ضد الشعب . واذ خشي الضابط تأثير خطاب من هذا النوع ، سارع الى صرف جنوده الى الممشى وأغلق الباب خلفهم . فقال الخطيب وهو يرفع يده : « لن تحول الأبواب دون وصول نداء العمال الأخوي الى الجنود » .

وفي النهاية ، اقتحمت مفرزة كبيرة من رجال الشرطة القاعة وأعلن تروتسكي ان « جلسة اللجنة التنفيذية قد رفعت » .

هكذا انتهت ، بعد خمسين يوماً ، ملحمة أول سوفييت في التاريخ[٤٠] .

---

(٤٠) سفرتشكوف ، نازاري ريفولوتسي ، ص ١٦٣ ـ ١٦٥ . تروتسكي ، داي روسيشي ريفولوسيون ١٩٠٥ ، ص ١٧٧ ـ ١٧٩ . ولكتابة هذا الفصل ، استند قسم من التوثيق إلى . ف . فواتنسكي ، غودي بوبيد أي بورازهني ، ك ١ ، ص ١٨٤ ، ٢٢٢ ـ ٢٢٣ . . . ، غارفي ، فوسبوسينانيا سوتسيال ، ديمكراتا ، س . يو . ويت ، فوسبومينانيا ، ج ٢ .



«الثـــورة الدائمة»

كانت تصفية السوفييت حدثاً سياسياً من الدرجة الأولى ، وكان الناطق الرئيسي بلسان السوفييت سجيناً مهماً من سجناء الدولة . وكان المناخ السياسي لا يزال متقلباً . أما السجناء الذين احتجزوا في سجن كرستي ثم في قلعة بطرس وبولس ، فاستفادوا من نظام تمييزي . فزنزاناتهم لم تكن موصدة ، مع أنهم كانوا نظرياً في السجن الانفرادي . كان في وسعهم أن يلتقي بعضهم بعضاً ، وان يتنزهوا معاً في الساحة ، ويتلقوا كتباً ، وأن يمارسوا أكثف نشاط سياسي تحت الغطاء الأرق .

وقد أمكن التساؤ ل في البدء اذا ما كانت الحكومة قد أفرطت ، بضربها للسوفييت ؛ في تقدير قواها ؛ فبطرسبورغ ردت بإضرابات، وموسكو بالاضراب العام ومتاريس بقيت قائمة عشرة أيام . وحتى بعد قمع انتفاضة موسكو لم تبدُ الثورة إلا نصف مهزومة . وخلال شهري كانون الاول / ديسمبر وكانون الثاني / يناير ، اندلعت سلسلة من التحركات في سيبيريا والمقاطعات البلطيقية والقوقاز لم تتغلب عليها الحملات التأديبية بسهولة . وفي آذار / مارس جاء انتخاب الدوما الاولى التي قاطعها الاشتراكيون فشلاًللحكومة ونجاحاً باهراً للدستوريين ـ الديمقراطيين . وكان يمكن التساؤ ل بعد اذا كانت محاكمة السوفييت ستتم . في كل حال لم تكن السلطات تبدو مستعجلة لتحديد موعدها . ثم تحدد موعد افتتاحها في ١٢ حزيران / يونيو ١٩٠٦ . لكن قبل الصيف استعاد القيصر رباطة جأشه فصرف نصف الليبرالي ويت وقطع المفاوضات الجارية لتأليف وزارة دستورية ديمقراطية ، وأعلن حل الدوما وعيّن ستوليبين وزيراً أول . وغدت المحاكمة موضوع حرب استنزاف على صعيد الادارة . وقد جرى تأجيلها ، شهراً بعد شهر ، حتى نهاية ايلول / سبتمبر . فأنصار الحكم المطلق كانوا يريدون استخدام المحاكمة ليظهروا للقيصر ان سياسة الليونة التي أقدم عليها ويت هزت العرش . أما شبه الليبراليين في الادارة فكانوا يرغبون في استخدام المحاكمة لأهداف معاكسة تماماً ، ليبرهنوا أن

(١) كان نظام السجن المعتاد رخواً لدرجة ان روزا لوكسمبورغ التي خرجت لتوها من سجن فارصوفيا ، تمكنت من القيام بزيارة « سرية » لبارفوس ودوتش في قلعة بطرس وبولس . ولا يبدو انها التقت تروتسكي ايضاً .

دسائس الرجعيين خرّبت سياسة بيان تشرين الاول / اوكتوبر .

في غضون ذلك اعد السجناء دفاعهم . حصلت في البدء خلافات حول النهج المفترض تبنيه أمام القضاء . فباسم اللجنة المركزية المنشفية (التي كانت على وشك الاندماج مع اللجنة المركزية البلشفية) كتب مارتوف للسجناء ، يدعوهم الى الاعتدال ، على ان يكون قاعدة لدفاعهم بيان تشرين الاول / اوكتوبر . وكان عليهم ان يبرهنوا للمحكمة ان السوفييت لم يتخط الحدود التي عيّنها البيان ، وان يدحضوا الاتهام الذي اعتبر ان هدف السوفييت كان الانتفاضة المسلحة . وقد رفض تروتسكي تلك النصائح بغضب واشمئزاز . ارسل جواباً بواسطة محاميه يعبر فيه عن « دهشته القصوى » : « لن يتبنى احد من المتهمين هذا الموقف ، فبرنامج بيان تشرين الأول/ اوكتوبر لم يكن برنامج السوفييت في يوم من الأيام » . لقد رد السوفييت على وعود القيصر مؤكداً قناعاته الجمهورية من دون لف أو دوران . وانه « لخطأ سياسي خطير » من جانب اللجنة المركزية أن تنصح المتهمين بأن يجحدوا الانتفاضة . كل ما يمكنهم ان يقولوه ، وسيقولونه ، أما المحكمة هو انهم لم يعدوا بشكل ملموس وفعلي لانتفاضة ، لكن عليهم ان يتحملوا مسؤولية الاعداد السياسي للانتفاضة .

هذه الرسالة التي تمت كتابتها بسرعة ، في غضون انتظار المحامي الذي كان عليه أن ينقلها الى الخارج كانت انفجار غضب ، رداً على اهانة . وقد أصر تروتسكي على القول ان على اعضاء السوفييت ان يعرضوا مبادئهم ، ويشرحوا اسبابهم ، ويعلنوا اهدافهم . وقفص المتهمين ينبغي ان يكون منبراً سياسياً لهم لا ملجأ[٢] . وقد دعمت اللجنة المركزية البلشفية تروتسكي . وهذا على الأرجح السبب ـ كما يقول صديقه القديم زيف الذي كان معه في السجن ، مرة أخرى ، ـ في أن « رسالته تفيض تعاطفاً حاراً مع البلاشفة الذين كان يشعر بأنه اخوهم بالروح ، ونفوراً غير مكتوم تجاه المناشفة الذين كان مرتبطاً بهم »[٣] . وقد نجح تروتسكي في اقناع كل المتهمين بتبني الدفاع القتالي ذاته ، وأيد الجميع رسالته الى اللجنة المركزية المنشفية . أما النغمة الشاذة الوحيدة ، فجاءت من خروستاليف ـ نوزار ، أول رئيس للسوفييت ، الذي كان له موقف ملتبس بما يكفي خلال التحقيق الأولي . وقد هدد سائر السجناء بفضحه علناً ، كخائن ، أمام المحكمة . وتجاوز تروتسكي خصومته

---

(٢) وقعت رسالة تروتسكي الى مارتوف فيما بعد بين يدي رجال الشرطة ، ابان توقيف مارتوف ، وغدت جزءاً من الاثباتات التي قدمها الاتهام . ونشرت الرسالة في تروتسكي ، سوش . ، ج ٢ ، ك ١ ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ ، انظر ايضاً المرجع ذاته ، ص ٦٩٣ ، عدد ٣٣٨ .

(٣) أ . زيف . المرجع المذكور ، ص ٥٣ .

القديمة مع خروستاليف محاولاً قبل كل شيء تحاشي فضيحة يمكن ان تخفف من الفعالية السياسية الخاصة بالمحاكمة . واقنع خروستاليف بتبني الدفاع ذاته الذي يتبناه الآخرون ووعده بالمقابل بعدم وضع التهديد موضع التنفيذ . وقد تقاسم المتهمون الرئيسيون الأدوار : يقدم خروستاليف تقريراً عن نشاط السوفييت خلال رئاسته ، ويتكلم سفرتشكوف على أيام السوفييت الأخيرة ، ويثير كنونيانتس موقف الحزب الاشتراكي - الديمقراطي ، وأفكستنييف موقف الاشتراكيين الثوريين ، أما تروتسكي فيهتم بالنقطة الأكثر حساسية ، نقطة الانتفاضة المسلحة .

وما أن انتهى تروتسكي من اعدادات المحاكمة ، حتى بدأ عمله ، منصرفاً الى القراءة والكتابة . حتى التحقيق التمهيدي الذي أشرف عليه جنرال الدرك ايفانوف لم يستطع انتزاعه من دراساته : رفض رفضاً باتاً ان يؤدي شهادة ، محتفظاً بما سيقوله ليوم المحاكمة . وكتب سفرتشكوف يقول : « تحولت زنزانة تروتسكي بسرعة الى نوع من المكتبة . كانت تحوّل اليه كل الكتب الجديدة التي تستحق بعض الانتباه ، يقرأ كل شيء ، وطيلة النهار ، من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل ، يهتم بأعمال أدبية . كان يقول : أنا في احسن حال ، انا هنا أعمل ، عالماً تماماً بأنهم لن يأتوا لتوقيفي . . . وفي روسيا القيصرية ، يعد هذا يقيناً نادراً بالأحرى »[٤] . ويروي زيف ان تروتسكي كان يبادر الى اعارة كتبه وجرائده الى السجناء الآخرين ، وان قريحته التي لا تنفد كانت حافزاً معنوياً مرموقاً بالنسبة للجميع .

في الصورة التي أخذت لتروتسكي في زنزانته قبل المحاكمة بوقت قصير ، يبدو مظهره جميلاً ، بوجه المفكر الذي يطغى عليه جبين واسع . أما القسمات فأكثر انتظاماً مما كانت في الواقع ، والرأس الذي تغطيه لبدة سوداء واسعة وغزيرة فيدق الى الاسفل منتهياً بلحية صغيرة مستدقة الرأس ، ويوحي الوجه بالتركيز والتحكم بالذات . وهدوء التعبير يسمح مع ذلك ببروز الحرارة الداخلية وغليان العواطف والافكار . أما الشعر الاسود ، والجبين الواسع ، والحاجبان العاليان الكثان ، ونظارة الأنف السوداء والشارب المقصوص بعناية والذقن البارزة فتمنح الوجه تنوعاً يبرز حيويته الشديدة . والسجين الرقيق وذو القامة المتوسطة يرتدي ثياباً سوداء . وتعطي البذلة القاتمة ، والطوق المستعار الابيض ، والاردان البيضاء التي تتجاوز الأكمام قليلاً ، والحذاء الململّع ، انطباعاً عن أناقة شبه متكلفة . ويمكن ان تكون تلك صورة ثري مثقف من طراز نهاية القرن في اوروبا الغربية ، يمضي الى

(٤) سفرتشكوف ، نازاري ريفولوتسيي ، ص ١٨٩ .

استقبال رسمي ، اكثر مما يمكن ان تكون صورة ثوري ينتظر محاكمة في قلعة بطرس وبولس . ولا يجعلنا نكتشف طبيعة الديكور الا العري المتقشف الذي يتميز به الحائط ومنظار الباب .

خصص تروتسكي الكثير من الوقت لقراءة الكلاسيكيين الاوروبيين : « فيما أنا متمدد على فراش السجن ، كنت أنتشي بهم بالاستمتاع الجسدي الذي يحس به شره يكرع نبيذاً جيداً أو يتنشق عطر سيجار جيد . . . في تلك الفترة تعرفت حقاً ، للمرة الاولى ، الى كبار كتّاب الرواية الفرنسية »[٥] . وقد احتفظ طيلة حياته بتفضيل واضح للرواية الفرنسية ، الكلاسيكية والحديثة . كان أتقن في تلك الفترة معرفته بالفرنسية والألمانية اللتين كان يتكلمها جيداً ، واذا كان متمرساً اكثر بالمصطلحات الاقتصادية والسياسية الالمانية ، الا انه كان يفضل الفرنسية كلغة أدبية . لم يعد ينقّب بإجهاد في نظريات ماركس ، كما كانت الحال في أيام خرسون وأوذيسّا . لم يعد يتعلم الماركسية ، بل اصبح هو الذي يعلّمها منذ ذلك الحين . كان في وسعه الآن ، بكل حرية ذهنية ، ان يتنزه بسهولة في بساتين الأدب الاوروبي . . . .

***

في هدوء زنزانته ، أمكنه أن يفكر في الدروس التي كانت تستخلص من زوبعة الأشهر الاخيرة . كتب دراسات ومقالات نقدية سوف يكون لأحداها اهمية استثنائية . كل المؤلفات التي كتبها في تلك الفترة ـ أو ما يقارب ذلك ـ صدرت في كتاباته ، ما عدا دراسة حول الريع العقاري ضاعت ولم تبصر النور ابداً . وهو يقول في سيرته الذاتية ان خسارة تلك المخطوطة « أزعجته للغاية » . الى أي حد هي خسارة لنا ايضاً ، هذا ما لن نعرفه بالطبع ابداً . ان فهمه للمشكلات الاقتصادية أمر لا شك فيه ولا جدال ، لكن بخلاف لينين أو بوخارين ، لم يبرز أبداً كمنظّر اقتصادي . يمكننا اذاك أن نتساءل اذا كان مؤلفه يمثل مساهمة فريدة حقاً في موضوع مختص بقدر ما هي نظرية الريع العقاري الماركسية . ما لا شك فيه هو ان بعض كتاباته السياسية لتلك الفترة لها من الغنى والوزن ما يترك كل ما يمكن ان يكون كتبه حول الريع العقاري بعيداً خلفها . فلنمر سريعاً على بيير ستروفه في السياسة ، وهي مقالة نقدية نشرها باسم ن . تاخوتسكي المستعار ، ولقيت نجاحاً كبيراً : انها هجوم جديد على الليبرالية ، هجوم لاذع ، فعّال ، لكنها لا تضيف شيئاً كثيراً الى ترسانة الحجج المناهضة لليبرالية . أما تاريخ السوفييت (ايستوريا سوفييتا رابوشيخ

(٥) تروتسكي، حياتي، ج ١ ، ص ٢١٦.

ديبوتاتوف) الذي شارك في كتابته عدة اشخاص تحت اشراف تروتسكي فيستحق اهتماماً اكبر . وقد تصور تروتسكي مشروعه منذ انغلقت ابواب السجن دونه . وهو مؤلف الفصل المخصص لدور السوفييت . ويقول في ختام ذلك الفصل :

« كانت روسيا المدينية قاعدة ضيقة جداً للنضال . وقد حاول السوفييت ان ينقل النضال الى كل انحاء البلاد ، الا انه بقي قبل كل شيء مؤسسة بطرسبورغية . . . ولا شك انه لو حدثت انتفاضة ثورية جديدة ، لتشكلت مجالس عمالية في كل البلاد . وسيضطلع بالقيادة سوفييت مركزي لعمال كل انحاء روسيا ، يختاره مؤتمر قومي . . . فالتاريخ لا يتكرر ابداً . ولن يكون على السوفييت الجديد أن يعيد تجربة الخمسين يوماً ، بل سيتمكن من ان يستخلص من تلك التجربة كل برنامجه للعمل . . . التعاون الثوري مع الجيش والفلاحين والشرائح الدنيا والشعبية من البورجوازية ، الغاء الحكم المطلق ، تدمير الجهاز العسكري الخاص بالحكم المطلق ، صرف قسم من الجيش واعادة النظر الكاملة بالباقي ، الغاء الشرطة والجهاز البيروقراطي ، يوم العمل من ثماني ساعات ، توزيع السلاح على الشعب ، وعلى العمال بوجه خاص ، تحويل السوفييتات الى جهاز حكومة ثورية مدينية ، تشكيل سوفييتات فلاحية مكلفة بإنجاز الثورة الزراعية محلياً ، انتخاب جمعية تأسيسية . . . ان صياغة برنامج اسهل من وضعه موضع التطبيق . لكن اذا كانت الثورة معدة للنصر ، لا يمكن للبروليتاريا الا ان تضطلع بهذا الدور . وسوف تنجز بذلك فتحاً ثورياً لم يشهد العالم يوماً ما يماثله .

لن تكون قصة الخمسين يوماً هذه صفحة كاملة من تاريخ نضال البروليتاريا وانتصارها »[٦] .

هذا البرنامج غدا فيما بعد برنامج ثورة ١٩١٧ . لكن تلك الدراسات وتلك المؤلفات لم تكن غير تهيئة للعمل العظيم الذي كتب في تلك الفترة ، عنينا **نتائج وتوقعات** ، **قوى الثورة المحركة** (ايتوجي اي برسبكتيفي ، دفيرزوشي سيلي ريفولتسيي) . هذا الكتاب الذي يضم المبادئ الرئيسية التي تتميز بها « التروتسكية » ، والذي سيكون موضوع جدال مستميت خلال العقود اللاحقة[٧] ، ما كان مقدراً له في البدء ان يكون غير فصل طويل من خاتمة كتاب بعنوان : **ثورتنا (ناشا ريفو لوتسيي)** ،

---

(٦) تروتسكي، سوش.، ج ٢، ك ١، ص ٢٠٦.

(٧) يرجعنا التحليل والاستشهادات الى الطبعة الثانية الموسكوبية لهذا المؤلف لهذا المؤلف (آذار / مارس ١٩١٩). وكان المؤلف يملك في مكتبته بفارصوفيا طبعة عام ١٩٠٦، الأصلية التي فقدها خلال الحرب العالمية. اما طبعة عام ١٩١٩ فهي اعادة طبع امينة للطبعة الأصلية، مسبوقة بمقدمة خاصة.

يضم سلسلة من المقالات والاخبار التاريخية المكتوبة في عام ١٩٠٥ . في هذا الفصل النهائي يعرض تروتسكي بشكل كامل ، لكن بجفاف شبه رياضي ، نظريته حول الثورة الدائمة . يدرس بادئ ذي بدء الأزمة الحالية تبعاً لتيارات التاريخ الروسي التقليدية الكبيرة ، ثم بعد ان يضع نفسه على الصعيد الأممي ، يحدد موقع الثورة الروسية في تاريخ اوروبا الحديثة ، ويرسم بخطوط عريضة انعكاسات الثورة الروسية القادمة على باقي العالم ، والتأثير الذي سيكون للعالم على الثورة الروسية . وهكذا ، كان يعارض بمفهومه الخاص تلك المفاهيم الرائجة يومذاك لدى الماركسيين . وكانت تلك اعادة التحديد الأكثر جذرية لشروط الثورة الاشتراكية ، منذ البيان الشيوعي الذي وضعه ماركس ، أي منذ عام ١٨٤٧ . واذا لم يكن إلا لهذا السبب ، يليق بنا أن نتوقف عندها قليلاً .

عموماً ، كان الماركسيون يعتبرون الثورة في روسيا في تلك الحقبة ثورة بورجوازية هدفها اطاحة القيصرية وتكنيس ارثها شبه الاقطاعي . وكانوا يقولون انه لن يستطيع مجتمع رأسمالي وصناعي حديث أن ينمو في روسيا ويتطور بشكل كامل إلا بعد تحقيق تلك الأهداف . ولن تستطيع الاشتراكية الثورية أن تستولي على السلطة وتجيب عن تطلعات الجماهير الى المساواة ، إلا في مجتمع من هذا النموذج ، ومع نمو الثروة والتوسع الاقتصادي الذي يؤدي اليه . وكان الماركسيون يعتقدون بالطبع ان الوضع ناضج للثورة الاشتراكية في بلدان الغرب الرأسمالية القديمة . كانت الاشتراكية في الغرب توشك ان تنتصر ، بينما كان الشرق لا يزال في طور الثورة البورجوازية . وكانت تلك حقائق ثابتة لدى اشتراكيي اوروبا الغربية ، كما لدى المناشفة والبلاشفة الروس . ولم ينقسم هؤلاء الاخيرون إلا لأنهم كانوا قد اختلفوا حول الطبقة - البورجوازية أو العاملة - التي سيكون لها الدور القيادي في ثورة روسيا « البورجوازية » .

أما تروتسكي فاعترض على معظم تلك التأكيدات . فهو كالبلاشفة كان يعتبر البورجوازية عاجزة عن قيادة الثورة ويرى ان على البروليتاريا الصناعية ان تضطلع بهذا الدور . لا بل مضى ابعد من ذلك وكان يعتقد انه لما كانت الطبقة العاملة تمسك بالتفوق السياسي فسيؤدي بها ذلك الى الانتقال بالثورة الروسية من الطور البورجوازي الى المرحلة الاشتراكية ، وذلك حتى قبل أن يستلم الاشتراكيون السلطة في الغرب . وتتجلى « ديمومة » الثورة في واقع انه يستحيل حصرها ضمن حدود انتفاضة بورجوازية .

لماذا كانت روسيا معدة لتصبح رائدة الاشتراكية ؟ لماذا تعجز البورجوازية الروسية عن القيام بما قامت به الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر ، فيستحيل عليها أن تبلغ

بثورتها شاطئ النجاح ؟ الجواب عن هذا السؤال في خصوصيات التاريخ الروسي . فالدولة الروسية نصف الآسيوية نصف الاوروبية ترتكز على مجتمع متخلف ، غير متمايز ، كان تطوره بطيئاً للغاية . والضغط العسكري من جانب الدول الاوروبية العظمى هو الذي كيّف الدولة لا المتطلبات الداخلية الخاصة بالمجتمع الروسي . فمنذ الأيام الاولى لوجود الدولة الروسية طالبت الشعب ببذل جهود خارقة لمقاومة السيطرة التتارية ، ثم الغزوات الليتوانية ـ البولونية والسويدية . أستولت على حصة مهمة ، غير متكافئة ، من الثروة الاجتماعية المنتجة ، واوقفت بذلك التكون البطيء للغاية لطبقات ذات امتيازات ، والتطور الاكثر تباطؤاً لوسائل الانتاج . إلا أنه لما كانت الدولة بحاجة لبنية تراتبية فقد اضطرت لتشجيع التمايز الاجتماعي . هكذا كانت القيصرية تحول دون تطور المجتمع الروسي وتسعى لحفز ذلك التطور في الوقت ذاته . وهو ما كان يجعل ميليوكوف يقول انه اذا كانت « الدول » هي التي خلقت **الدولة** في البلدان الغربية ، **فالدولة** هي التي ولّدت « الدول » في روسيا . وقد أسقط تروتسكي هذا التفسير الذي وجده أحادي الجانب ، فقال : « لا يمكن لسلطة الدولة أن تصنع وفقاً لمشيئتها فئات وطبقات اجتماعية » . إلا ان ذلك لم يمنع من ان يكون الحكام برهنوا عن جسارة فائقة ، ومن ان يكون المجتمع الروسي بليداً وجامداً لدرجة انه « حتى الرأسمالية ظهرت في روسيا كواقع خلقته الدولة »[٨] . فالدولة ، لا المنشأة الخاصة ، هي التي أرست أسس الصناعة الحديثة . حتى الذهنية والفكر الروسيّان كانا يبدوان من انتاج الدولة . ففي العصر الحديث ، سمحت نزعة الحماية الجمركية والعسكرية ، والمساعدة المالية التي قدمتها اوروبا ، ببلوغ القيصرية درجة من التحديث زادت من سيطرتها على المجتمع . وكان الليبراليون يؤكدون ان رجحان الدولة المخيف هذا يجعل الثورة من المستحيلات . لكن العكس هو الصحيح إذ إنه كان يجعلها امراً محتوماً .

نتج عن ذلك ان روسيا دخلت القرن العشرين ببورجوازية مدينيّة محدودة تماماً . فالمدينة الروسية بالذات ظهرت خلال العقود الاخيرة . وكان السكان المدينيون يمثلون في ظل بطرس الاكبر ٣٪ من مجمل السكان ، وفي نهاية الحروب النابوليونية ٥,٤٪ ، ولا اكثر من ١٣٪ حوالى نهاية القرن التاسع عشر . والمدينة الروسية القديمة ، بعكس المدينة الاوروبية ، لم تكن مركزاً صناعياً وتجارياً ، بل حامية أو قلعة (كانت موسكو قرية القيصر) . والمدينة الروسية ، كالمدينة الآسيوية ، لم تكن تنتج بل كانت تستهلك . فهي لم تتمكن اذاً من معرفة مراكمة الثروة أو قسمة العمل . هكذا تعززت كل الحواجز الرهيبة

(٨) تروتسكي ، ايتوغي أي برسبكتيفي ، ص ١٦ .

التي وضعها المناخ واتساع الأرض في وجه تطور الحضارة . لم تجد الرأسمالية في روسيا ١٨٥٠ تلك الحرف المدينية التي ولدت منها الصناعة الحديثة في اوروبا الغربية ، ولم تكن روسيا تعرف تقريباً غير الحرفة الريفية الصغيرة . وقد سبق وشدد بارفوس على الأهمية السياسية المترتبة على وضع من هذا النوع : لم تكن توجد في روسيا تلك الطبقة الاجتماعية المؤلفة من الحرفيين ، المركزة في المدن ، التي شكلت هيكل البورجوازية الفرنسية ، تلك البورجوازية التي صنعت الثورة الفرنسية الكبرى . فالأربعة ملايين حرفي (كوستاري) الذين كانت تضمهم روسيا كانوا مبعثرين في مختلف انحاء البلاد .

حتى تطور الصناعة الحديثة لم يتوصل الى أن يعزز وضع البورجوازية بشكل ملحوظ ، ذلك أن الصناعة الروسية كانت في جزء كبير منها ثمرة توظيفات أجنبية . فالبورجوازية الغربية اصطفت في بلدانها تحت راية الليبرالية ، أما في روسيا فلم تكن تهتم إلا بأمن توظيفاتها ، وهو أمن ما كان يمكن إلا لحكومة « قوية » ، أي مطلقة ، أن تضمنه بالشكل الأفضل . وباختصار ، فرجحان الدولة الاقتصادي ، وضعف البورجوازية العددي ، وهيمنة الرساميل الاجنبية في الصناعة ، وغياب تقليد بورجوازي ، كل ذلك كان يساعد في جعل البورجوازية الروسية طفلاً ولد ميتاً . لكن اذا لم تكن الصناعة الحديثة تعزز البورجوازية بشكل ملحوظ ، فلقد ابرزت دور البروليتاريا . فلما كانت الصناعة الروسية المولود الأخير ، بشكل من الاشكال ، فقد تبنت دفعة واحدة اشكال التنظيم الاكثر حداثة ، تلك الاشكال التي توصلت اليها اخواتها الكبيرات ببطء وجهد كثير. والمصانع الحديثة القليلة التي كانت تمتلكها روسيا كانت تبلغ أحجاماً ودرجة تركزّ لم تعرفها اوروبا ، وحتى اميركا . وهكذا استطاعت البروليتاريا الروسية ، اكثر من أي بروليتاريا اخرى ، ان تتنظم وتنطلق في اعمال جماهيرية ، ولم يكن يمكن لوزنها إلا ان يكون مرموقاً في ميزان القوى السياسية .

ان الفصل الواضح بين الطبقات الاجتماعية قلب السيرورة الثورية التقليدية بشكل جذري . فتاريخ الثورة في اوروبا كان يضم ثلاث مراحل : ١٧٨٩ ، ١٨٤٨ ، ١٩٠٥ . ففي عام ١٧٨٩ قادت البورجوازية الفرنسية القوية والواثقة من نفسها النضال ضد الحكم المطلق . وفي الحقيقة ان الجمهوريين المتطرفين واليعاقبة الديمقراطيين قادوها في الغالب على طريقهم رغماً عنها . لكن لما كانوا كتلة غير منظمة ولا شكل واضح لها ولا برنامج متماسك ، لم يتمكنوا من الوقوف، إلا مؤقتاً ، في وجه البورجوازية الغنية التي سارعت ، بعد ديكتاتورية روبسبير القصيرة ، الى استعادة السلطة التي لم يكن يمكن لأي بروليتاريا

صناعية من الطراز الحديث ان تزاحمها عليها[٩] .

وفي عام ١٨٤٨ ، كانت المانيا والنمسا مركزي الثورة البورجوازية ، لكن البورجوازية الالمانية لم تكن بقوة مثيلتها الفرنسية ولا بتماسكها . فالشجاعة التي كانت بحاجة اليها للنضال ضد الحكم المطلق كانت اضعف بكثير من خوفها من انتفاضة شعبية . فجمهور عام ١٨٤٨ الشعبي لم يعد بورجوازية صغيرة غاضبة ومرتبكة ، وهامشها من انصاف الفقراء ، بل طبقة شغيلة صناعيين تتلمس الطريق الى الاستقلال السياسي وتقف في وجه أرباب عملها بشكل مباشر اكثر مما في وجه الملكية . لكن اذا كانت الطبقة العاملة اصبحت من القوة بحيث تخيف البورجوازية ، الا انها كانت لا تزال ضعيفة جداً ووجلة جداً بحيث يصعب ان تقود الأمة . ولقد انهارت الثورة لأنه لم يكن ثمة طبقة قادرة على اخذها على عاتقها . كانت البورجوازية قد اصبحت ضعيفة جداً بحيث تعجز عن الاضطلاع بقيادتها ، وكانت البروليتاريا ، لا تزال ضعيفة جداً بحيث ينطبق عليها العجز ذاته .

أما في روسيا ١٩٠٥ فكان الدولاب قد انجز دورة كاملة . لم يعد ينقص الثورة قادة ، وكانت البورجوازية ضعيفة جداً وخائفة جداً ازاء البروليتاريا فليس باستطاعتها شن الحرب على الأوتوقراطية . لكن البروليتاريا الصناعية كانت قادرة ، من جهتها ، على ذلك : كانت اقوى بكثير من البروليتارية الالمانية لعام ١٨٤٨ ، وقد تمثلت بنهم الدروس الاخيرة للاشتراكية الاوروبية[١٠] .

ينتج عن ذلك ـ كما يقول تروتسكي ـ انه اذا لم تفشل الثورة فسوف تؤدي الى استيلاء البروليتاريا على السلطة . « كل حزب سياسي جدير بهذا الاسم يسعى لانتزاع السلطة كي يضع الدولة في خدمة الطبقة التي يدافع عن مصالحها »[١١] . وكان المناشفة يزعمون أن روسيا المتخلفة « غير ناضجة » للاشتراكية وأن على الطبقة العاملة الاكتفاء بمساعدة البورجوازية على استلام السلطة . وقد ناقضهم تروتسكي بصورة جذرية : « يمكن للبروليتاريا في بلد متأخر اقتصادياً ان تستولي على السلطة بصورة اسرع مما في البلدان التي تكون الرأسمالية متقدمة فيها . . . فالثورة الروسية تجمع الشروط التي تسمح للبروليتاريا بأن تأخذ السلطة، قبل أن تتوافر لسياسيي الليبرالية البورجوازية امكانية اظهار

---

(٩) بعد سنوات طويلة ، أكد تروتسكي أن هذا الحكم الذي استعاره من ماركس كان يبالغ في الصفات الثورية للبورجوازية الفرنسية ، حتى في القرن الثامن عشر .
(١٠) تروتسكي ، نتائج وتوقعات ، ص ٣٣ .
(١١) تروتسكي ، المرجع ذاته ، ص ٣٤ .

كل عبقريتهم كرجال دولة »[١٢] . وكان يستبعد الحجج التي يمكن استخلاصها من الأدبيات الكلاسيكية الماركسية حول تعاقب الثورتين البورجوازية والاشتراكية : « الماركسية هي قبل كل شيء طريقة تحليل للعلاقات الاجتماعية ، لا طريقة تحليل للنصوص » .

وسرعان ما تم اتهامه بأنه يريد « حرق » المرحلة البورجوازية من التطور الاقتصادي في روسيا ، ويدافع عن سياسة ستؤدي الى اطلاق الاقلية الصغيرة من العمال الصناعيين في وجه سائر الأمة . وقد سعى لتدارك الانتقادات . فهو يؤكد انه لا ينكر ، على الاطلاق ، طابع الثورة الروسية البورجوازي . وهو يرى ان الثورة ستكون بورجوازية ، أي أنها ستضع على رأس جدول اعمالها مهمة تخليص روسيا من الوزن الميت لإرثها الاقطاعي ، كما سبق وفعلت البورجوازيتان الفرنسية والانكليزية . لكنه كان يقول ان الثورة لن تقف عند هذا الحد ، وفي ذلك ينفصل عن سائر المفكرين الاشتراكيين . فبعد استئصال النظام الاقطاعي ، سوف تتصدى لأسس الرأسمالية بالذات ، وتفرض ديكتاتورية البروليتاريا[١٣] . ولم يكن يستبعد امكانية قيام ائتلاف حكومي يضم الاشتراكيين وممثلي الفلاحين ، الا ان هؤلاء الاخيرين لن يلعبوا فيها غير دور ثانوي ، بينما سيشكل ممثلو الطبقة العاملة اغلبية منسجمة داخل تلك الحكومة ويحددون مضمون سياستها[١٤] .

هل ستكون اذاك ديكتاتورية للأقلية ؟ كان تروتسكي يضمر ـ اكثر مما يقول ـ ان الثورة ستكون في الواقع من عمل الطبقة العاملة وحدها . ففي المدن ينبغي قلب النظام القديم ، وفي المدن ستكون البروليتاريا كلية القدرة . « العديد من شرائح الجمهور الكادح ، لا سيما في الارياف ، سيجري خرطها في الحركة الثورية ، وستتمكن للمرة الاولى من تنظيم نفسها سياسياً ، لكن فقط حين . . . تكون البروليتاريا المدينية تسلمت دفة الحكم »[١٥] . لكن اذا لم تكن اطاحة النظام القديم والاستيلاء على السلطة الا عمل اقلية ، يبقى أن الثورة ستكون بحاجة مطلقة ، من أجل البقاء وتعزيز قوتها ، الى دعم الاغلبية الكامل ، أي دعم الفلاحين . « ان البروليتاريا في السلطة ستبدو للفلاحين كمحررة لهم »[١٦] . وسوف تقر ، بين ما تقر ، وضع يد الفلاحين على الملكيات

---

(١٢) المرجع ذاته ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(١٣) المرجع ذاته ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .
(١٤) المرجع ذاته ، ص ٤٠ .
(١٥) المرجع ذاته ، ص ٤١ .
(١٦) المرجع ذاته ، ص ٤٢ .

الكبرى . ان الفلاح الفرنسي تبع نابوليون لأن هذا ضمن له امتلاك قطعة أرضه الصغيرة في وجه الادعاءات المحتملة للملاكين المهاجرين . ولأسباب مشابهة سوف يدعم الفلاح حكومة بروليتارية . ينجم عن ذلك ان هذه الحكومة ستكون ، ولن تكون ، في الوقت ذاته ، حكومة اقلية . فالاقلية البروليتارية ستكون روحها وتقودها في كل الحقول المهمة . لكنها ستعمل لمصلحة الاكثرية الساحقة التي ستقدم لها دعمها الكامل بالتالي .

هذا التصور لدور الفلاحين في الثورة ، الذي هو في قلب التروتسكية سيكون مصدر نقاشات لا تنتهي . والنقد الأكثر رواجاً الذي وُجّه لتروتسكي كان يتمثل بأنه بخس قدر امكانات الفلاحين الروس الثورية ، ويستبعد احتمال قيام « تحالف » بينهم وبين البروليتاريا . ولم يكن تروتسكي يجد في عرضه ما يسمح له بالتملص من هذا الاتهام . فلقد رأينا بأية قوة يعلن « ان البروليتاريا في السلطة ستبدو للفلاحين كمحررة لهم » . فبتأكيده ان الاشتراكيين لن يقتصروا على مصادرة ملكيات كبار الملاكين ، بل سيقرون تملك الفلاحين للأرض ، كان يمضي أبعد بكثير مما وصل اليه الاشتراكيون الروس حتى ذلك الحين . فبالنسبة للمناشفة ، كان يجب أن تأخذ البلديات اراضي النبلاء الريفيين على عاتقها . ومعظم البلاشفة ، لا سيما لينين ، كانوا يدافعون عن مبدأ تأميم الأرض لا توزيعها[١٧] . فإذا كان علينا أن نفهم التحالف مع الفلاحين بالمعنى الذي فهمه البلاشفة في عام ١٩١٧ ، وبعد ذلك التاريخ ، يمكن حينذاك ان نقول ان تروتسكي دافع عن ذلك التحالف في عام ١٩٠٦ .

إلا أنه لا جدال في انه لم يكن يعتبر الفلاحين ، أو كل المالكين الصغار أو صغار البورجوازيين ، قوة ثورية مستقلة . كانت طبقة الفلاحين بالنسبة اليه كتلة عديمة الشكل ، متفرقة ، ذاتية جداً بما يخص مصالحها ، عاجزة عن خوض عمل شامل . انه قدر طبقة الفلاحين أن يجري استغلال ثوراتها ، حتى في الحالات النادرة التي تنتصر فيها ، من جانب طبقات أخرى ، أو أن تؤدي تلك الثورات الى ارساء حكم سلالات جديدة لا تقل طغياناً عن سابقاتها . وفي المجتمع الحديث ، كان الفلاحون اكثر عجزاً أيضاً من ذي قبل . « ان تاريخ الرأسمالية هو تاريخ تبعية الريف للمدينة »[١٨] . ولا يوجد في المجتمع المديني غير قوتين حقيقيتين اثنتين ، احداهما حالية ، والأخرى كامنة : البورجوازية

---

(١٧) كان ستالين الوحيد بين القادة البلاشفة المشهورين اليوم الذي طلب من الحزب في عام ١٩٠٦ ان يتخذ موقفاً لصالح توزيع الملكيات الكبرى على الفلاحين . ستالين ، سوش . ، ج ١ ، ص ٢١٤ ـ ٢٣٥ . انظر كذلك أ . دويتشر ، ستالين ، سيرة سياسية ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(١٨) تروتسكي ، نتائج وتوقعات ، ص ٤٣ .

الكبرى التي تركزّ كل الثروة ، والبروليتاريا التي تركز بين أيديها كل القدرة على إنتاج الثروة . ولا يمكن للفلاحين ، رغم تفوقهم العددي الساحق ، إلا أن يلتحقوا بواحدة من هاتين القوتين . وعلى مستوى انتخاب مجلس نيابي ، يزن تصويت فلاح قدر ما يزن تصويت عامل . لكن لا تعود ثمة مساواة في وضع ثوري . فألف عامل من عمال السكك الحديدية يزنون في الميزان السياسي اثقل من مليون قروي مبعثرين . وفي أيامنا ، لا يتحدد دور طبقة اجتماعية بأهميتها العددية ، بل بوزنها النوعي الخاص الذي هو وزن وظيفتها الاجتماعية . وعلى البروليتاريا أن تكسب مؤازرة الفلاحين ، لأنه من دونهم لا يمكنها الاستيلاء على السلطة . الا ان الطريقة الوحيدة لكسب جمهور الملاكين الريفيين الصغار هي في الظهور بمظهر القوة والحزم في الصراع من اجل انتزاع السلطة . فالضعفاء يجتذبهم الأقوياء .

هذا التحليل الواضح والصريح للغاية في استنتاجاته كان يبتعد جذرياً عن النظريات الماركسية الرائجة آنذاك ، مع انه يمكننا الاعتقاد بأنه كان متضمنّاً بوضوح في مؤلفات ماركس (ان نفور تروتسكي من « تحليل النصوص » حال بينه وبين حشو عرضه بالاستشهادات المنجدة) . كان من المسلم به عموماً لدى الماركسيين ان الطبقة العاملة لا تستطيع ـ ولا يجب ـ أن تأخذ السلطة قبل أن تُدخل في صفوفها اغلبية الأمة . وكانت الاشتراكية الشعبوية تحتفظ بوهم ثابت في ذهنها مفاده أن الطبقة العاملة الصناعية في البلدان الحديثة سيتضخم عددها بالضرورة بحيث تصبح ، كما في انكلترا ، الشريحة الأهم بين السكان[١٩] . أما تروتسكي فقد قطع صلته بهذا الوهم بشكل جذري ، حيث كتب : ان الثورة ستنتصر قبل وقت طويل من تبلتر(*) غالبية الأمة[٢٠] .

وكان تقويمه لقدرات الفلاحين يبتعد هو الآخر بشكل كامل عن الرأي الرائج . فالمناشفة كانوا يرون في صغار الملاكين الريفيين اعمدة للرجعية ، لذا كانوا يضعون آمالهم في تحالف الطبقة العاملة مع البورجوازية الليبرالية . وعلى العكس ، كان لينين يحسب الحساب لطاقة الموجيك الثورية ، لكنه ، بخلاف تروتسكي لم يتوصل الى تحديد الطريقة التي ستتجلى بها . كان يراقب وينتظر ، متسائلاً اذا كانت طبقة الفلاحين لن تشكل حزبها

---

(١٩) يؤكد ستالين في مقدمة مؤلفاته ، في عام ١٩٤٦ (سوش . ، ج ١ ، ص ١٤ ـ ١٥) أنه في عام ١٩٠٥ « وافق على الاطروحة المألوفة لدى الماركسيين التي ترى ان احد الشروط الرئيسية لانتصار الثورة الاشتراكية هو ان تشكل البروليتاريا اغلبية الأمة . ينتج عن ذلك انه في البلدان التي لم تكن توصلت فيها البروليتاريا لتشكيل غالبية السكان ، لأن الراسمالية لم تتطور فيها كفاية ، يستحيل انتصار الاشتراكية .

(٢٠) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ص ٥٥ .

(*) أي تحولها الى بروليتاريا (م) .

الثوري الخاص بها الذي سيكون على الاشتراكيين ان يتعاملوا معه على قدم المساواة . وفي بداية عام ١٩٠٥ ، ووسط سخرية بليخانوف وتروتسكي ومارتوف ، اهتم لينين بالكثير من الفضول والأمل بصورة غابون المحيِّرة . كان يتساءل اذا لم يكن ذلك الكاهن ، ابن القوزاقي ، الذي قاد عمال العاصمة الى قصر الشتاء ، رائد حركة فلاحية تقدمية كبيرة[٢١] . ان صيغة لينين ، « الديكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين » ، الأكثر شمولاً وحذراً من صيغة تروتسكي القائلة بـ « ديكتاتورية البروليتاريا » ، كانت تناسب اكثر عملية جمع الاشتراكيين والثوريين الزراعيين . وسوف تثبت احداث ١٩١٧ تحليلات تروتسكي . وفي العشرينات ، اعطت السياسة الشيوعية في الصين راهنية لهذه المشكلة ؛ وبعد مرور ما يقارب نصف قرن على عرض تروتسكي لنظرياته ، تنطرح هذه المشكلة باستمرار بالنسبة للثورات الآسيوية في البلدان التي تبدو فيها العلاقات بين العالمين المديني والريفي اكثر تعقيداً وتشوشاً مما كانت في روسيا .

لم نتناول حتى الآن إلا الوجه الداخلي ، القومي ، لنظرية تروتسكي عن الثورة . إلا أن هذا الوجه لا ينفصل ، بالنسبة لتروتسكي عن وجهها الأممي . فاذا حاول الفلاحون ان « يطردوا الى الخارج »[٢٢] الطبقة العاملة ، وكانوا قادرين على ذلك ، سيكون هنالك حينئذٍ خطر قيام نزاع بين الطبقتين ، نزاع تخاطر فيه البروليتاريا بفقدان دورها القيادي على المستوى القومي . طالما تكون مهمة الثورة تحطيم سيطرة الأرستقراطية الأرضية وقوتها ، تجد وراءها كل طبقة الفلاحين . بعد ذلك ، « لا بد ان يثير معارضة « الفلاحين » وجهان عظيمان للثورة البروليتارية ، هما **الجماعية** و **النزعة الأممية** »[٢٣] . هكذا اذاً ، رغم قوة النظام الجديد الابتدائية ، لا يكاد يبدأ نقل الثورة ، في الارياف كما في المدن ، من طورها البورجوازي الى طورها الاشتراكي ، حتى يواجهه ضعفه الخاص به . فيدفعه ذلك حينئذٍ الى البحث عن خلاصه في الثورة العالمية . ان تخلف الصناعة الروسية وفقرها سوف يشكلان في نهاية المطاف حاجزاً لن يمكن تخطيه إلا بمساعدة غرب اشتراكي . وفي الاخير ، ان عداء اوروبا محافظة هو الذي سيجبر الثورة الروسية على نقل الصراع الى خارج حدودها .

« من دون دعم البروليتاريا الاوروبية المباشر والمكشوف ، لن تستطيع الطبقة

---

(٢١) لينين ، سوش . ، ج ٨ ، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٨ ، تروتسكي ، سوش . ، ج ٢ ، ك ١ ، ص ٥٤ ـ ٥٧ ، انظر بارفوس حول موضوع غابون ، الايسكرا ، العدد ٨٥ (٢٧ يناير ١٩٠٥) .

(٢٢) تروتسكي ، نتائج وتوقعات ، ص ٤٢ .

(٢٣) المرجع ذاته ، ص ٤٦ .

العاملة الروسية البقاء في السلطة وتحويل سلطتها المؤقتة الى ديكتاتورية اشتراكية مستقرة ودائمة »(٢٤) .

« منذ البدء ، سيضفي ذلك اهمية دولية على مجرى الاحداث ويفتح أوسع الآفاق : **فالطبقة العاملة الروسية ، باضطلاعها بقيادة عملية التحرر السياسي ، ستبلغ ذروة فريدة من ذرى التاريخ . ستمسك بين يديها بقوى ووسائل عمل جبارة وتغدو رائدة تصفية الرأسمالية من على كامل سطح الكرة الأرضية . . .** »(٢٥) .

« واذا امتنعت البروليتاريا الروسية ، بعد استيلائها المؤقت على السلطة ، عن نقل الثورة بذاتها الى أرض اوروبا ، فسوف تجبرها الرجعية الاقطاعية والبورجوازية على ذلك »(٢٦) .

« **ان الخوف من انتفاضة البروليتاريا هو الذي سيجبر الاحزاب البورجوازية ،** بعد التصويت على موازنات عسكرية خيالية ، على تقديم عروض سلام رسمية ، وعلى الحلم بجمعيات دولية للوفاق ، لا بل بولايات متحدة اوروبية . . . وهي أوهام بائسة لن تلغي تعارضات القوى العظمى ولا النزاعات المسلحة . . . ان الحرب الأوروبية تعني الثورة الأوروبية حتماً »(٢٧) .

ويواصل تروتسكي كلامه فيفضح : « الدعاوة المحافظة » لدى الاحزاب الاشتراكية ، هذه الدعاوة التي يمكن ان تكبح نضال البروليتاريا لأجل الاستيلاء على السلطة : ويعبر عن أمله بأن توقظ الثورة الروسية الاشتراكية الأممية ، مثلما ايقظت احداث ١٩٠٥ بروليتاريا بروسيا والنمسا التي لجأت الى الاضراب الشامل لفرض الاقتراع العام . « ان الثورة الشرقية تنقل جرثومة المثال الأعلى الثوري الى البروليتاريا الغربية وتبث فيها ارادة التكلم بالروسية مع اعدائها »(٢٨) . وينهي محاجّته بالطريقة التالية :

« ان البروليتاريا الروسية . . . في الوقت ذاته الذي ستواجه فيه العداء المتفق عليه في اوساط الرجعية العالمية ، ستجد البروليتاريا العالمية مستعدةً تماماً لتقديم مساعدة منظمة الى الثورة . فاذا تركت الطبقة العاملة الروسية لوحدها ، لا بد أنتسحقها الثورة المضادة .

---

(٢٤) المرجع ذاته ، ص ٧١ .
(٢٥) المرجع ذاته ، ص ٧٣ .
(٢٦) المرجع ذاته ، ص ٧٧ .
(٢٧) المرجع ذاته ، ص ٧٧ .
(٢٨) المرجع ذاته ، ص ٨٠ .

حين يدير الفلاحون ظهورهم للبروليتاريا لن يكون أمام العمال غير امكانية واحدة ، هي ربط مصير سيطرتهم السياسية ، وبالتالي مصير الثورة الروسية بمجملها ، بمصير الثورة الاشتراكية في اوروبا . سوف تلقي البروليتاريا الروسية في ميزان صراع الطبقات في كامل العالم الرأسمالي بوزن سلطتها السياسية المخيف . تلك السلطة التي تكون منحتها أياها الظروف المؤقتة للثورة البورجوازية الروسية . ان العمال الروس ، القابضين على سلطة الدولة بأيديهم ، والذين تهددهم الرجعية الاوروبية من الأمام ، سوف يوجهون الى كل اخوتهم في انحاء العالم النداء القديم الذي سيكون في هذه المرة اشارة الهجوم الأخير : « يا بروليتاريي كل البلدان ، اتحدوا ! »(٢٩) .

كل هذه المحاجّة تفترض سلفاً أن تتم الثورة الاوروبية وفقاً لسيرورة وحيدة ومتواصلة . كان تروتسكي ، والحالة هذه ، ضحية وهم خطير ، على الأقل بما يخص وتيرة السيرورة بمجملها . كان يردد الفكرة التي يسلم بها اجمالاً الاشتراكيون الاوروبيون ، والتي صاغها منظر الأممية الكبير آنذاك ، كارل كاوتسكي ، تلك الفكرة التي ترى ان المجتمع والاقتصاد الاوروبيين « ناضجان » للاشتراكية . ومع ذلك ، حتى في عام ١٩٠٦ ، ومهما تكن جازمة استنتاجات التحليل الذي قدمه تروتسكي ، فقد كان حذراً كفاية فقال انه يستحيل توقع كيف ستخرج الثورة من حدود روسيا ، واذا كانت ستنتقل الى المانيا والنمسا عبر بولونيا ، او ستمتد الى الشرق في آسيا(٣٠) .

لم يكن تروتسكي يعتقد لحظة واحدة ان الثورة الروسية يمكن أن تستمر عشرات السنين ، في حالة من العزلة . لذا يمكن القول ، كما فعل ستالين ، بعد مرور عشرين عاماً ، أن تروتسكي « بخس تقدير » موارد روسيا الثورية وحيويتها العميقة . إلا ان هذا الخطأ الواضح ، اذا اخذنا بالاعتبار بعد الشقة الزمنية ، لم يكن مفاجئاً الى هذا الحد في عام ١٩٠٦ ، لأن كل القادة البلاشفة ، بما فيهم ستالين ، اقترفوه بين عامي ١٩١٧ و ١٩٢٤ . وبالطبع يفقأ هذا الخطأ اليوم الأعين الى درجة نسيان باقي توقعات تروتسكي . صحيح تماماً ان تروتسكي لم يكن يعتقد بقدرة روسيا السوفياتية على الاستمرار عشرات السنين في ظروف العزلة. لكن مَنْ غيره توقع منذ عام ١٩٠٦ قيام روسيا السوفياتية؟ من جهة اخرى ، لقد قدم تروتسكي بذاته ، وسلفاً ، تفسيراً لخطئه ، في تقويمه للفلاحين الروس . هذا التفسير ، قدمه بشكل غير مباشر ، ومن دون أن يعرف ذلك . فعجز الفلاحين السياسي ، بالضبط ، وافتقارهم للاستقلال ، هما اللذان يفسران ان يكون نظام

(٢٩) المرجع ذاته، ص ٨٠ .

(٣٠) المرجع ذاته ، ص ٧٤ ـ ٧٧ .

جماعي تمكن من الاستمرار في بلد يشكل فيه الفلاحون ذوو النزعة الفردية الغالبية الساحقة من السكان ، وهما اللذان يسمحان كذلك بأن نفهم كيف تمكنت الجماعية من ان تُفرض عليهم بالقوة ، وليس من دون نجاح .

لقد كان يؤكد تروتسكي اذاً أن النظام البروليتاري سينهار مذ يرتد الموجيك ضده ، بما يتناقض في الظاهر مع نظريته الخاصة به . هذا الخطأ - اذا كان ثمة خطأ - يعود الى مفهومه بالذات للثورة في عامي ١٩٠٥ - ١٩٠٦ . لم يكن يتخيل للحظة واحدة ان حزباً بروليتارياً يمكن أن يقود هذه الأمة الكبيرة ويحكمها طويلاً ضد ارادة غالبية السكان . لم يكن يتوقع ان تقود الثورة الى السيطرة طويلة الأمد التي تمارسها اقلية . ومع ذلك فقد كان هذا نتيجة ضمنية لتحليلاته ، لكن نتيجة ما كان يمكن ان يتصورها بشكل ملموس ، لا هو ولا معظم معاصريه ، الذين كانوا اعتبروها لا تتفق مع الاشتراكية . وفي الواقع ان تروتسكي لم يكن يتخيل ، رغم كل ما كتبه حول « يعقوبية » لينين ، ان تسعى الثورة لتجاوز عزلتها وضعفها عن طريق الكليانية .

واذا نظرنا الى تحليلات تروتسكي بمجملها ، يمكن أن نقول انه نادراً ما رأى منظِّر سياسي نبوءات تتحقق بصورة باهرة تارة ، وطوراً تحبط كلياً ، - لتتبين صحتها في الاخير عن طريق دفق من الكوارث التاريخية الجديدة . وهذا يصح بوجه خاص بصدد تشخيصات تروتسكي التي تتناول الدفع الذي كانت ستعطيه روسيا للثورة العالمية . فأحداث السنوات اللاحقة سوف تلقي المزيد من الأضواء على ذلك باستمرار . ففي عام ١٩١٧ وما بعده بدا انهيار العروش وقرقعة الهزات يؤكدان اقواله بدقة خارقة . ثم حين تراجعت الشيوعية في اوروبا وتقوقعت روسيا البلشفية ، جاء دور فقد الاعتبار والسخرية ، أصبح تروتسكي نبي العبث ، نبي « المستحيل والباطل بشكل مكشوف » . ودار الدولاب . ان غداة الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة بين الكتلتين هما اثبات بعد الممات لتنبؤاته . بدت روسيا في نظر الغرب وقد بلغت اكثر من أي وقت آخر « قمة فريدة في التاريخ » ، وأمسكت « بين يديها بقوى ووسائل عمل جبارة » ، وجعلت من نفسها بطلة « تصفية الرأسمالية من على وجه كامل الكرة الأرضية » . لكنه من قبيل تجاوز حدود قصدنا بكثير ان نتساءل اذا كانت روسيا لا تخرج بذلك عن دورها الحقيقي ، أو الى أي حد تخرج عنه ؟ . كذلك الأمر ، لا يمكننا ان نفعل اكثر من الاشارة الى المفارقة بين توقعات تروتسكي وتحقيقها الظاهر . لقد كان تروتسكي يعتقد ان النظام الروسي الجديد سيغدو الرائد والملهم ، لا سيد الثورة العالمية ؛ كان يعتقد ان « تصفية الرأسمالية » ما وراء الحدود

الروسية ستكون من عمل البروليتاريا الغربية الخاص اكثر بكثير منها نتيجة لمسيرة الجيوش الروسية المظفرة .

لكن مهما يكن البعد والفروق بين مجرى الاحداث الفعلي وذلك الذي رسمه تروتسكي بين ١٩٠٤ و ١٩٠٦ ، فهو يظهر اليوم من جديد ، في منتصف هذا القرن ، كذلك الذي فهم بشكل صحيح « مجرى الاشياء الجوهري » . أكانت رسالته تثير الهول أو الأمل ، وسواء اعتبرنا صاحب تلك الرسالة البشير الملهم لعهد جديد فريد في التاريخ ، من حيث سموه وانجازاته ، أو كنبي الكارثة والمصيبة ، لا يسعنا إلا أن نتأثر بسعة الرؤ يا وجسارتها . كان يحيط بالمستقبل كما يكتشف المرء من قمة جبل عالٍ أرضاً واسعة مجهولة يلاحظ في البعيد محاور توجهها الكبرى . وفي الحقيقة ، لم يكن في وسعه ان يلاحظ من موقعه ، كل هذا الجانب من المنظر الذي كان يمتد عند قدميه . كانت طبقات ضباب كثيف تخفي عن عينيه العديد من نقاطه ، ولم تكن المسافات والرئايات تظهر له كما لو كان في الوادي . لقد اخطأ في تعيين الاتجاه الدقيق لطريق طويل ، بدت له شواخص متمايزة كما لو كانت تؤلف واحداً ، ولم يلاحظ واحداً من الأودية الوعرة التي سيسقط فيها ، في يوم من الأيام ، سقطته المشؤومة . الا ان ما يعوض كل ذلك انما هو الاتساع الفريد للمنظر الشامل الذي كان في مدى عينيه . فاذا قورنت النبوءات السياسية التي تنبأ بها اكثر معاصريه مـآثر واكثرهم حكمة وتبصراً ـ ولا نستثني هنا لينين وبليخانوف ـ باللوحة التي رسمها في زنزانته بقلعة بطرس وبولس ، لبدت خجلة ومرتبكة .

مع **نتائج وتوقعات** ، بلغ فكر تروتسكي السياسي الذروة . وتلك الأقامة في السجن ، التي تأمّل خلالها ، وتمثّل تجربته الحديثة ، تشير الى الانتقال من الشباب الى النضج ، وهو انتقال مفاجئ وسريع بقدر ما كان كذلك انتقاله من الطفولة الى المراهقة ومن المراهقة الى الشباب . هذا الكراس المؤلف من ثمانين صفحة يضم جوهر فكره . وخلال كل البقية الباقية من حياته كقائد للثورة ومبدع وقائد للجيش ،وكمحرك للأممية الجديدة ، وفي الاخير كمنفي مطارد ، سوف يدافع عن الاطروحات التي نجدها مجموعة في مؤلفه المكتوب في عام ١٩٠٦ ، ويوسعها ويوضحها . والأمر ذاته يقال عن كارل ماركس الذي لم يفعل غير تطوير الافكار الواردة في **البيان الشيوعي** ، حيث عرض مبكراً جوهر مذهبه ، وتطبيق تلك الافكار .

ان مؤلَّف تروتسكي كان يمكن أن يصير بالنسبة للحزب الروسي ما كان **البيان** منذ عام ١٨٤٨ بالنسبة للاشتراكية الاوروبية : نداء الى الثورة ودعوة عاجلة الى العمل . إلا

ان ذلك لم يحدث ، فتأثير عمل تروتسكي كان ضعيفاً للغاية ، رغم النقاشات التي استثارها . وتفسر ذلك بعض الظروف ، من جهة ، وموقف المؤلف ، من جهة اخرى . اما الكتاب فصادره البوليس منذ صدوره في عام ١٩٠٦ ، والنسخ القليلة التي تدوولت لم تثر اهتمام القراء الا قليلاً ، مع ان تروتسكي كان في الفترة ذاتها ـ فترة محاكمة السوفييت ـ قبلة انظار الرأي العام . زد على ذلك ان الكتاب كان في جزء كبير منه اعادة طبع لدراسات سبق ان ظهرت ، والقارئ الباحث عن لمحات جديدة كان يمكنه أن يخطئ الفصل الجديد الوحيد الذي كان يتضمنه[٣١] . ومن المؤكد تقريباً ، مثلاً ، ان لينين لم يقرأه قبل عام ١٩١٩ ، مع أنه تكلم عليه مرة ومرتين قبل ذلك التاريخ ، من دون مراعاة ، مستنداً الى استشهادات غير موثوقة ، نقلها آخرون[٣٢] . وفي الفترة التي طبع فيها الكتاب ، كانت الثورة تعيش لحظاتها الاخيرة ، وكانت اهتمامات الاشتراكيين المباشرة تدفعهم لتبُّين حظوظ الردة الظافرة ، اكثر مما لتأمل آفاق الثورة المنتصرة . باختصار ، إما أن نتائج وتوقعات جاءت مبكرة جداً ، أو أنها جاءت متأخرة جداً . من جهة اخرى ، لم يكن أي من الاتجاهين الرئيسيين في الحزب يريد تبني هذه الصورة ، الفريدة والمثيرة ، عن المستقبل . فالمناشفة رفضوا راديكالية عام ١٩٠٥ ، وكانوا يسعون بنفاد صبر الى التخلص من نفوذ تروتسكي ، وقد وصفوا هذا الموجز الجديد عن « التروتسكية » بأنه حلم خيالي . اما البلاشفة فلم يكونوا مستعدين لأن يعيروا انتباهاً جدياً للمنظورات الثورية الصادرة عن الناطق بلسان المنشفية . ان تروتسكي المتوحد في حزبه الخاص به كان شبه عاجز في الفترة ذاتها التي كان يمكن ان يكون الاكثر فعالية فيها . حتى شبابه لعب دوراً ضده . واذا كان كسبَ شعبيةً واسعة لدى جمهور الشغيلة والعمال غير الحزبيين الكبير ، فقد كان في نظر الدعاويين والمنظمين ، الذين أعِد مؤلَّفه ليقرأوه ، لا يزال فتياً جداً بحيث لا يمكن ان يكون النبي[٣٣] .

ورغم الصمت الذي استُقبل به مذهبه ، كان قد غدا واعياً تمام الوعي انه في طريقه ليأخذ مكاناً له في موكب الذين يصنعون التاريخ ، وفي مثل هذا الاستعداد النفسي دخل في التاسع عشر من تشرين الثاني / نوفمبر قفص المتهمين .

* * *

(٣١) تروتسكي ، الثورة الدائمة ، ص ٣٩ ـ ٤٢ .

(٣٢) انظر رسالة الوداع التي وجهها يوفي الى تروتسكي ، (١٦ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢٧) في محفوظات تروتسكي (هارفارد) .

(٣٣) أ . لوناتشارسكي ، ريفولوتسيونيي سيلويتي

اما الدفاع فبامكانه ان يرد بأن السوفييت لم يتجاوز في اعماله الحدود التي عينها بيان القيصر بالذات ، وهو يفضل اعلان قناعاته الديمقراطية والجمهورية علانية . فلتقرر المحكمة اذا كانت الحرية الموعودة في البيان مقصورة على الملكيين ، او اذا كانت تشمل كذلك الجمهوريين والاشتراكيين . « فليعلن لنا البيان بواسطة الحكم الذي سيصدر عنكم : أنتم لم تؤمنوا بي ، لكني موجود لأجلكم كما لأجل البلاد جمعاء » . ولو كان الأمر غير ذلك ، لتم الحكم على المتهمين من جراء آرائهم لا بسبب أعمالهم .

ثم مضى تروتسكي يثبت أن الانتفاضة التي يدينها القانون هي في بعض الظروف النتيجة الضرورية للاضراب العام الذي لا يدينه القانون . لقد بدأت الانتفاضة ، بمعنى ما ، مع الاضراب العام . فالاضراب شل الحكومة القائمة وكان عليه ان يُحل محلها حكومةً اخرى . كانت سلطتان تعملان بصورة ما في الوقت ذاته ، والاتهام يعلن انه يمثل النظام القائم في مواجهة السوفييت . إلا ان هذا النظام القائم ، اذا كان مصدره حقاً بيان القيصر ، فليس الا ناتج الاضراب العام ، لأن القيصر أعلنه للرد على اضراب اوكتوبر العام . لقد اهتز الاساس القانوني ، مثله مثل الاساس الفعلي الخاص بالنظام القديم . قامت حكومتان ، في الواقع ، تحاول كل منهما فرض نفسها ، وكل منهما تحاول كسب الجيش الى جانب قضيتها . وكان الصراع فيما بينهما محتوماً . « هل كان عمال بطرسبورغ يعون ذلك ؟ اجل ! هل كان السوفييت والبروليتاريا يعتقدان بأن الصراع المكشوف بين الحكومتين أمر محتوم ؟ أجل ! » . ولم يكونا وحدهما يعتقدان ذلك ، فالبورجوازية كانت تعرف ، هي الأخرى ، هذا الأمر ، وعبرت في أكثر من مناسبة عن تعاطفها مع السوفييت . كانت الحكومة القديمة هي التي تمثل الفوضى واهراق الدماء ، لا السوفييت . ولأجل حفظ النظام ، كان ينبغي قلب الحكومة القديمة ، وهو ما لم يكن يمكن أن يقوم به غير الانتفاضة .

وتساءل تروتسكي بعدئذٍ : ما كانت طبيعة الانتفاضة ؟ ان القانون الروسي الذي وضع منذ مئة عام لم يكن ينص إلا على المؤامرة ضد الحكومة ، التي تعدها سراً قبضة من العصاة . وكان ذلك شكل التمرد الوحيد في الماضي . الا ان الانتفاضة التي نحن بصددها هي انتفاضة شعبية لم يتطرق اليها القانون . اصبح هذا متخلفاً عن العصر وسيجد الاتهام صعوبة حقيقية للعثور فيه على حجة اجرائية تبرر ادعاءه ضد السوفييت .

« ومع ذلك كان عملنا ثورياً ! ومع ذلك كنا نستعد لانتفاضة مسلحة ! ان انتفا...
جماهيرية لا تُختلق ، أيها السادة القضاة ، بل تصنع ذاتها بذاتها ، انها ناتج بعض...

الاجتماعية وبعض الشروط الاجتماعية لا ناتج خطة مدروسة جيداً . لا يمكن لانتفاضة شعبية ان تُصطنع اصطناعاً ، إلا انه يمكن توقعها ، فلأسباب لا تتوقف علينا بقدر ما تتوقف على القيصرية ، كان نزاع مكشوف قد غدا محتوماً . وفي كل يوم كان يقترب موعده . ان استعدادنا لهذا النزاع المحتوم كان يعني بالنسبة الينا ان نفعل كل ما في وسعنا لنخفض عدد الضحايا الى الحد الأدنى » .

لقد حاول السوفييت تنظيم الجماهير وشرح معنى الأحداث لها . لم يكن يعد العدة للقيام بانتفاضة ، بل كان يهيىء نفسه للانتفاضة . زد على ذلك أن الشعب لم يكن يملك سلاحاً . لكن « لا تهم كثيراً معرفة اهمية السلاح ، لأن الجماهير لا تمتلك قدرة عظيمة عن طريقه هو ، ايها السادة القضاة . كلا ! ليست قدرة الجماهير على القتل ، بل قبولها بخطر الموت ، هو الذي يضمن الانتصار ، في نهاية المطاف ، لانتفاضة شعبية . . . » ولا يمكن للشعب ان ينتصر على الجيش . عماد النظام القديم ، الا حين يبدو مصمماً على الموت على المتاريس . والمتاريس لا تلعب في الثورة الدور ذاته الذي تلعبه القلاع في حرب نظامية ؛ المتاريس هي قبل كل شيء ميدان الالتقاء المادي والأدبي للشعب والجيش . « انها تخدم الانتفاضة ، لأنها بحيلولتها دون حركة القوات العسكرية تضع هذه القوات في احتكاك وثيق بالشعب . وعلى المتاريس يسمع الجندي للمرة الاولى كلاماً شريفاً وشجاعاً ، نداء اخوياً ، هو صوت ضمير الشعب ، وخلال تلك الاحتكاكات ، وفي حرارة الحماس الثوري ، تتحطم مزاليج الانضباط العسكري القديم . . . » .

وبعد أن حدد تروتسكي دور الانتفاضة في الثورة ، عاد الى مهاجمة الحكومة ، فقال : « يحاول سادتنا ان يطيلوا أمد سيطرتهم بالاغتيال والمذابح ؛ لقد تلقى انذال المائة السود التعليمات من الشرطة والدرك ، والقيصر بالذات جعل من نفسه حامياً لهم »[٣٨] . وذكر تروتسكي اعترافات الامير الليبرالي اوروزوف امام الدوما الاولى ، وقد اعلن خلالها ان احد قادة الدرك صرح معتزاً : « يمكننا أن نفتعل مجزرة في كل مرة يناسبنا ذلك ، مجزرة لعشرة اشخاص ، أو مجزرة لعشرة آلاف » .

« أما الاتهام فلا يصدق شيئاً من ذلك . ليس في وسعه ان يصدق لأن ذلك يتطلب

---

(٣٨) كان برنامج المائة السود يقول :

« ١ ـ ان مصلحة الوطن ترتبط بالحفاظ الحازم على الاورثوذكسية والاوتوقراطية التي لا حدود لها في روسيا . . .

٢ ـ ينبغي ان يكون للكنيسة المسيحية الاورثوذكسية موقع مسيطر وسيد في الدولة .

٣ ـ انبثقت الاوتوقراطية الروسية من العقل الشعبي ، وباركتها الكنيسة ، وبررها التاريخ » .

انقلابه ضد اولئك بالذات الذين يدافع عنهم اليوم ، والاعتراف بأن المواطن الروسي الذي حمل السلاح ضد الشرطة يمارس حق الدفاع المشروع عن النفس . . . اننا لا نشك لحظة بأن خلف المائة السود اليد القديرة الخاصة بأولئك الذين يحكموننا . ايها السادة القضاة ، هذه اليد المشؤومة هي هنا بالذات في مواجهتنا !

« الاتهام يطالبكم بأن تعترفوا بأن السوفييت سلح العمال ليقاتلوا مباشرة ضد « شكل الحكم » القائم . واذا سئلت بشكل حازم : هل هذا صحيح ؟ اجيب بـ : نعم ! . . . انا على اتم الاستعداد للاعتراف بهذه التهمة ، لكن بشرط واحد . الا أني اجهل اذا كان الاتهام والمحكمة مستعدين للقبول بهذا الشرط .

« اطرح عليكم السؤال التالي : ماذا يعني الاتهام بالضبط بـ « شكل الحكم » ؟ هل يوجد في هذا البلد شكل حكم معين ؟ فالحكومة قطعت علاقتها بالأمة منذ زمن بعيد . . . وما لدينا ليس حكومة قومية بل آلة قتل في غاية الضخامة . أي اسم آخر يمكن أن نطلقه على حكومة تمزق لحم شعبنا ؟ واذا قلتم لي ان المذابح ، والحرائق ، وأعمال العنف . . . . اذا قلتم لي ان كل ما حدث في تفير وروستوف وكورسك وسيدلس . . . اذا قلتم لي ان كيشينيف وأوذيسا وبيوليستوك (المدن التي نظمت فيها المجازر) تمثل شكل الحكم في الامبراطورية الروسية ، أقول لكم اذاك نعم ! اعترف عند ذلك ، مع الاتهام ، بأننا حملنا السلاح في تشرين الاول / اوكتوبر ، وتشرين الثاني / نوفمبر ، لنقاتل ضد شكل الحكم في الامبراطورية الروسية [٣٩] » .

هكذا كان تروتسكي امام قضاته . كان يتكلم بصوت رنان ، مدوٍّ ، ملقياً نظرات سريعة على الجمهور . وكان بين افراد ذلك الجمهور اقرباؤه . لم يكن والده يشيح عنه بنظراته ، كان فخوراً بابنه ، ومتصالحاً معه كلياً ، أما والدته فكانت تبكي بهدوء . وقد احدثت مرافعته انفعالاً وتأثراً جعلا المحامي يطالب بوقف الجلسة ريثما يسترخي الجو ، وهو ما استجابت له المحكمة . في غضون ذلك ، تحلق المحامون والحاضرون حول القفص يهنئون تروتسكي ، ثم حاول تروتسكي ان يُفهم امه بلطف ان عليها توقع حكم قاسٍ للغاية : فلقد اطمأنت بسذاجة وهي ترى ما يحيط بابنها من مجاملة واعتبار . ولدى استئناف الجلسة اعلن المدعي العام بكل فرح ان المتهم قدم بذاته كل البراهين المطلوبة ، إلا أنه حيّا في الوقت ذاته شهامته وجرأته .

اما استجواب الشهود المضاد فكشف شيئاً فشيئاً كل الفساد والعنف اللذين لجأت

(٣٩) تروتسكي ، سوش . ، ج ٢ ، ك ٢ ، ص ١٦٣ - ١٧٧ .

اليهما الحكومة والشرطة باستمرار . ففي حين كان تروتسكي يطرح الاسئلة على جنرال الدرك ايفانوف الذي قاد التحقيق ، دفعه إلى الاعتراف وسط الضحك المعمَّم بأن محفظة مليئة بالوثائق عائدة لتروتسكي تمت سرقتها في مكاتب القيادة العامة للشرطة السياسية . وشرح الجنرال المسألة بقوله انه لدليل اهمال كثير أن يترك المرء أغراضاً شخصية خارج رقابته ، ولو للحظة قصيرة ، لأنها تتعرض دائماً للسرقة . وفي ١٣ تشرين الاول/ اوكتوبر جرى حادث مفاجئ في المحكمة . فقد تلقى احد المحامين رسالة من مدير قديم لمصالح الشرطة فُصل حديثاً ، يدعى لوبوكين ، يسأله فيها الاستماع اليه كشاهد . فلوبوكين ، وهو موظف ليبرالي الاتجاه ، كان قد اجرى تحقيقاً خاصاً حول أعمال مصلحته المشبوهة ، وأوصل الى المحكمة نسخة عن التقرير الذي قدمه بنفسه لستوليبين ، وزير الداخلية الجديد . وكان يرغب في الشهادة بأن بطرسبورغ لم تنج من مذبحة دامية لليهود إلا بفضل التدابير التي اتخذها السوفييت ؛ كان يريد ان يقول ان المنشورات الداعية للمذبحة طُبعت في القيادة العامة للشرطة السياسية ، في مكتب احد رؤساء تلك الشرطة ، الذي اعلن امام المحكمة انه لم يشاهد تلك المنشورات ابداً . وكشف بعدئذٍ أن الشرطة السياسية بالذات هي التي نظمت فرق المائة السود ، وأن الجنرال تريبوف هو الذي كان قائد تلك الفرق الحقيقي ، وان قائد البلاط الامبراطوري بالذات كان يقدم للقيصر تقارير منتظمة حول كل تلك النشاطات . وقد طلب الدفاع للشهادة كلاً من ويت ، الوزير الاول السابق ، ودورنوفو ، وهو وزير داخلية اسبق ، ولوبوكين طبعاً . الا ان المحكمة رفضت الاستماع اليهم بحجة ان استجواب الشهود المضاد قد انتهى . فالسماح لرئيس مصالح الشرطة السابق بالشهادة لصالح المتهمين وتعريض البلاط الامبراطوري للشبهة ، إنما يعنيان استثارة غضب القيصر على القضاة . الا ان رفض الاستماع الى الشهود الجدد يعني الاعتراف بأن المحاكمة سياسية . كان ذلك يشبه الاعتراف ، وقد قرر المتهمون والمحامون عدم حضور تتمة المحاكمة .

وصدر الحكم في ٢ تشرين الثاني / نوفمبر ، في قاعة فارغة ، وقد قضى ببراءة اعضاء السوفييت من التهمة الاساسية المتعلقة بالانتفاضة ، الا انه حكم على تروتسكي و ١٤ آخرين بالحرمان من كل الحقوق المدنية . وبالنفي الى سيبيريا مدى الحياة .

* * *

في فجر الخامس من كانون الثاني / يناير ١٩٠٧ ، مضى المحكوم عليهم الى المنفى ، بثياب السجن الرمادية . وقد أبقي سراً تاريخ رحيلهم ومكان نفيهم . وحين تم

العواصف الثلجية في التوندرا ، ولم تكن الشرطة تخاف هرب المنفيين .

الا ان مجموعة من الظروف دفعت بتروتسكي الى اعادة النظر في قضية الفرار بعد وصوله الى بيريزوف . هناك تعرف الى طبيب منفي علّمه كيف يتصنع معاناة آلام عرق النّسا ، وهكذا تجنب المضي في المرحلة الاخيرة من الرحلة ووضع في المستشفى حيث كانت الرقابة رخوة للغاية . ان تصنّع آلام عرق النّسا يتطلب اجتهاداً دائماً ، لكن اذا ثبت المرء في ادعائه يصعب اكتشاف حقيقة الأمر ، لا بل يستحيل . ولو واصل الرحلة مع الآخرين وحاول الهرب فيما بعد من اوبدورسك لكان عليه ان يجتاز ٥٠٠ كلم اضافي عبر الصحراء الشمالية . هذه الفكرة وحدها كانت تعطيه الرغبة في البقاء في بيريزوف والقوة لتنفيذ تعليمات الطبيب بدقة تامة . وقد التقى فلاحاً متعاطفاً اعلن عن استعداده لمساعدته . وكان عليه ان يختار بين طرق ثلاث : طريق توبولسك التي جاء منها ، وكانت الأكثر عملية من بعض الجوانب ، لكن كان خطر اعادة احتجازه فيما لو سلكها اكثر جدية ؛ وطريق الشمال عبر الأورال حتى أرخانجلسك وفنلندا ، وكانت صعبة وخطرة في الوقت ذاته ؛ وقد قرر أن يسير في اتجاه الجنوب الغربي ، عبر التوندرا التي لا طريق فيها حتى نهر سوسفا ، ليصل الى منجم ذهب في الأورال ، حيث نهاية سكة حديد ضيقة موصولة بسكة الحديد الكبرى بيرم ـ فياتكا . ووجد له الفلاح دليلاً من الزيريان ، وكان سكيراً مدمناً يعرف كيف يتحرك في التوندرا ويتكلم الروسية ولهجات المنطقة . وقد عقدا صفقة : اشترى الدليل حيوانات الرنّة والفرو اللازم ، وهو سيحتفظ بها في نهاية الرحلة .

كان يوم الرحيل يقترب . وقد زعم تروتسكي ان نوبة عرق النسا قد انتهت . هكذا ذهب قبل ليلة من يوم الارتحال فحضر مسرحية لتشيخوف اخرجها هواة . وخلال الاستراحة التقى قائد الشرطة المحلية وقال له انه اصبح الآن يحس بنفسه قادراً على اكمال الجزء الاخير من الرحلة . وعند منتصف الليل ، سلّم تروتسكي نفسه لسكّيره الذي سيتولى دور الدليل ، ومضى نحو الجنوب وهو يشعر ببعض القلق .

وقد احتاجا لاسبوع من السفر ليلاً ونهاراً تقريباً ليجتازا في التوندرا مسافات « لم يقسها احد باستثناء رئيس الملائكة القديس ميخائيل » . كان الدليل يمتلك حساً شبه حيواني للاستشراق ، كما لو كانت له غريـزة التونـدرا . وكمعظم الاوستياكيين والزيريانيين ، كان لا ينفك في حالة سكر ، وغالباً ما كان ينام ، فيثير ذلك خوف المسافر الشديد ، الذي كان يرى الزلاجة تغوص تحت سماكة الثلج ويخشى ان يكون ثمة من يلاحقه . كان تروتسكي ، المحروم من الطعام والمشروب والنوم يهز دليله ويشده بعنف ، ثم ينتزع قبعته فيوقظه حينذاك البرد . وحين كانا يمران قرب خيام الاوستياكيين ، قليلة

اياماً عديدة في سجن محلي . هناك علموا ان هدف رحلتهم هو مستعمرة أوبدورسك الاصلاحية . وأوبدورسك دسكرة صغيرة في الجبل تطل على مصب نهر أوب ، وتقع على الدائرة القطبية ، وتبعد عنها الطريق الحديدية ألفاً وستمئة كيلومتر ، بينما تبعد اقرب محطة برقية مسافة ٨٠٠ كلم . ومن توبولسك الى اوبدورسك ، تتبع الطريق مجرى نهر أوب ، وتمر بساماروفو وبيريزوف ، وتتمدد على مئات الكيلومترات في صحراء من الثلج والجليد ، هي **التوندرا** و **التايغا** ، حيث الآثار الوحيدة للحياة البشرية هي خيام الأوستياك(*) الجلدية المتفرقة . وبعد التقدم قليلاً الى الشمال ، كان على المسافرين ترك الجياد واستبدالها بحيوانات الرنّة . وقد شعر المنفيون بشدة بالقطيعة الكلية مع الحضارة . كتب تروتسكي الى امرأته من سجن توبولسك في ٢٩ كانون الثاني / يناير ، فقال انه يغمره حنين مفاجئ وحاد « الى ضوء المصابيح الكهربائية وضجيج الترامواي ، والشيء الألذ في العالم (وهذا مميز تماماً للشخص الذي نحن بصدده) ، أي رائحة حبر المطبعة على جريدة صدرت لتوّها » .

قبل مغادرة بطرسبورغ كان احتاط فخبأ جواز سفر مزيفاً وبعض المال في نعل حذائه . لكنه لم يكن فكر حتى ذلك الحين بالفرار ، اولاً لأن السجناء السياسيين قرروا عدم الهرب خلال الرحلة لكي لا يخلقوا متاعب لجنود الحراسة ، ثم لأنه كان مشهوراً جداً لدى الجمهور بحيث تبدو المحاولة مجازفة الى ابعد الحدود : كانت محاولة الفرار تكلف ثلاثة اعوام من الاشغال الشاقة بالنسبة للمنفيين . وكان قليل التفكير في الهرب الى حد انه ، وهو يكتب لسيدوفا معيناً لها مكان النفي ، كان لا يزال يحسب انها ستجيء للقائه مع ابنهما الذي ولد خلال احتجازه الذي سبق المحاكمة . كان يحاول تشجيع سيدوفا بأن روى لها ان اوبدورسك بلدة يسكنها ألف شخص ، وأن مناخها صحي للغاية ، يمكنه ان يكسب على الأرجح معيشته فيها . طلب منها ايضاً ان تحمل اليه كتباً وجرائد ، أو ترسلها اليه : هكذا دائماً كتباً وجرائد ! لقد غادر تروتسكي توبولسك الى ماساروفو وبيريزوف ، المحطتين اللاحقتين ، كرجل يستعد لمواجهة إقامة طويلة ما وراء الدائرة القطبية ، وبالطبع ليس من دون كآبة .

اجتاز الموكب سريعاً منطقة واسعة عاث فيها التيفوس فساداً ، حيث كان الأوستياك يموتون تحت خيامهم مثل الذباب . ووصل المنفيون الى سجن بيريزوف في ١٢ شباط / فبراير . وقد سُمح لهم بمغادرة زنزاناتهم وبالتنزه بحرية . فشباط / فبراير كان شهر

(*) قوم من سكان سيبيريا (م) .

العواصف الثلجية في التوندرا ، ولم تكن الشرطة تخاف هرب المنفيين .

الا ان مجموعة من الظروف دفعت بتروتسكي الى اعادة النظر في قضية الفرار بعد وصوله الى بيريزوف . هناك تعرف الى طبيب منفي علّمه كيف يتصنع معاناة آلام عرق النّسا ، وهكذا تجنب المضي في المرحلة الاخيرة من الرحلة ووضع في المستشفى حيث كانت الرقابة رخوة للغاية . ان تصنّع آلام عرق النّسا يتطلب اجتهاداً دائماً ، لكن اذا ثبت المرء في ادعائه يصعب اكتشاف حقيقة الأمر ، لا بل يستحيل . ولو واصل الرحلة مع الآخرين وحاول الهرب فيما بعد من اوبدورسك لكان عليه ان يجتاز ٥٠٠ كلم اضافي عبر الصحراء الشمالية . هذه الفكرة وحدها كانت تعطيه الرغبة في البقاء في بيريزوف والقوة لتنفيذ تعليمات الطبيب بدقة تامة . وقد التقى فلاحاً متعاطفاً اعلن عن استعداده لمساعدته . وكان عليه ان يختار بين طرق ثلاث : طريق توبولسك التي جاء منها ، وكانت الأكثر عملية من بعض الجوانب ، لكن كان خطر اعادة احتجازه فيما لو سلكها اكثر جدية ؛ وطريق الشمال عبر الأورال حتى أرخانجلسك وفنلندا ، وكانت صعبة وخطرة في الوقت ذاته ؛ وقد قرر أن يسير في اتجاه الجنوب الغربي ، عبر التوندرا التي لا طريق فيها حتى نهر سوسفا ، ليصل الى منجم ذهب في الأورال ، حيث نهاية سكة حديد ضيقة موصولة بسكة الحديد الكبرى بيرم - فياتكا . ووجد له الفلاح دليلاً من الزيربان ، وكان سكيراً مدمناً يعرف كيف يتحرك في التوندرا ويتكلم الروسية ولهجات المنطقة . وقد عقدا صفقة : اشترى الدليل حيوانات الرنّة والفرو اللازم ، وهو سيحتفظ بها في نهاية الرحلة .

كان يوم الرحيل يقترب . وقد زعم تروتسكي ان نوبة عرق النسا قد انتهت . هكذا ذهب قبل ليلة من يوم الارتحال فحضر مسرحية لتشيخوف اخرجها هواة . وخلال الاستراحة التقى قائد الشرطة المحلية وقال له انه اصبح الآن يحس بنفسه قادراً على اكمال الجزء الاخير من الرحلة . وعند منتصف الليل ، سلّم تروتسكي نفسه لسكّيره الذي سيتولى دور الدليل ، ومضى نحو الجنوب وهو يشعر ببعض القلق .

وقد احتاجا لاسبوع من السفر ليلاً ونهاراً تقريباً ليجتازا في التوندرا مسافات « لم يقسها احد باستثناء رئيس الملائكة القديس ميخائيل » . كان الدليل يمتلك حساً شبه حيواني للاستشراق ، كما لو كانت له غريزة التونـدرا . وكمعظم الاوستيـاكيين والزيريانيين ، كان لا ينفك في حالة سكر ، وغالباً ما كان ينام ، فيثير ذلك خوف المسافر الشديد ، الذي كان يرى الزلاجة تغوص تحت سماكة الثلج ويخشى ان يكون ثمة من يلاحقه . كان تروتسكي ، المحروم من الطعام والمشروب والنوم يهز دليله ويشده بعنف ، ثم ينتزع قبعته فيوقظه حينذاك البرد . وحين كانا يمران قرب خيام الاوستياكيين ، قليلة

العدد وشديدة التباعد الواحدة عن الأخرى ، لحسن الحظ ، كان الزيرياني يوقف مقطورته ، ويختفي ، وكان تروتسكي يعثر عليه مجدداً وهو يشرب مع الاوستياكيين ونسائهم وأولادهم حتى الانطفاء ، هذا اذا لم يكن متمدداً على الأرض فاقداً وعيه تماماً . وفي يوم من الايام بدأت الرنة الامامية تعرج وسرعان ما أنهكت بقية الحيوانات . وقد توجب التخلي عنها وشراء حيوانات جديدة . حدث ذلك مراراً عديدة ، وشارك تروتسكي الاوستياكيين في صيد الرنة .

ورغم الشظف والغيظ كان مسروراً لكونه في الطريق . كان يتأمل بشرهٍ ذلك الجمال الخيالي الذي تتمتع به الصحراء البيضاء وبؤس الخيام الاوستياكية الرهيب . وكان في معظم الوقت يقاوم النعاس ، وحين يتوقف المسافران في الأرض الواسعة القفراء ليشعلا ناراً أو يغليا ماء الثلج لصنع الشاي ، كان تروتسكي يجلس قرب النار ويضع ملاحظاته التي جمعها في كتاب فيما بعد . ما كان لمخاطر تلك المغامرة والخوف من التوندرا ان تتغلب على الفضولي والكاتب في شخصيته . دوّن ملاحظات حول المناظر ، وحول شكل الاشجار والآثار المختلفة التي يتركها على الثلج الذئب والثعلب والقاقم والعلند وغيرها من الحيوانات ؛ حول محادثاته مع دليله ، وحول عادات السكان الاصليين وتقاليدهم (اولئك السكان الذين كانوا يلتهمون الاسماك الحية وهي لا تزال تنتفض بين أيديهم) ، وعن عبودية نسائهم المهينة ، وعن صيد الابل وسلوك الصيادين والبهيمة المصطادة ، وعن تفاصيل اخرى لا تحصى .

ومع الاقتراب من الاورال ، اصبحت التجمعات السكنية البشرية اكثر تواتراً ، وغدت اسئلة الناس الذين يصادفهم مربكة . وقد عرّف تروتسكي عن نفسه حيناً كتاجر ، وحيناً آخر كعضو في حملة قطبية . وقد لزمه الكثير من المهارة للاجابة بشكل ملائم حين يعثر على شخص عرف واحداً او اثنين من اعضاء الحملة القطبية التي ادعى انه عضو فيها ، الا ان شيئاً مزعجاً لم يحصل وتوصل المسافران في الاخير الى بلوغ بوغوسلوفسك ، نهاية الخط الحديدي .

في الغداة ، استقل في بيرم قطار الغرب في اتجاه فياتكا وفولوغدا وبطرسبورغ . وقد روى فيما بعد قائلاً : « في البداية ، بدت لي المقصورة الواسعة وشبه الفارغة ضيقة وخانقة . فأخذت لي مكاناً على الموقف(*) ، حيث كانت الريح تصفر والمكان مظلماً ،

(*) مكان يقف فيه الركاب في حافلة أو سيارة (م)

فأفلتت من صدري صيحة عظيمة ، صيحة فرح وحرية[٤١] . بلغ فرحه درجة ازدرى معها ابسط مبادئ الحذر واتجه نحو بطرسبورغ حيث كان يعرفه أي شرطي . أبرق الى امرأته معلماً إياها بقدومه وطالباً منها أن تأتي للقائه . فلم تصدق سيدوفا عينيها ، ذلك ان صحف بطرسبورغ كانت لا تزال تنشر يومذاك مقالات عن رحلة المنفيين الى الدائرة القطبية .

(٤١) تروتسكي ، حياتي ، ج١ ، ص ٢٢٧ .

الفصل السابع

الانحسار ١٩٠٧ - ١٩١٤

كان عام ١٩٠٧ عام الانتقام بالنسبة للقيصر . فلقد أعاد انقلاب ٣ حزيران / يونيو الحكم المطلق ودشن حكم الارهاب على يد ستوليبين . كما جرى حل الدوما الثانية ، وبعد اصدار قانون انتخابي جديد يحرم غالبية افراد الشعب من حق التصويت تم انتخاب دوما ثالثة . ونُفي النواب الاشتراكيون ـ الديمقراطيون الى سيبيريا . تم سحق الاحزاب الثورية وألغيت نواديها وصحفها ، كما اغتيل الآلاف من اعضائها . سيطرت المحاكم العرفية والمقصلة على المسرح السياسي . حتى الليبراليون المعتدلون الذين كانوا منذ وقت قصير يأملون الوصول الى تسوية مع القيصر ضُربوا وأُهينوا ، مما أدى الى تذمر ميليوكوف من ذلك بمرارة : « طلبوا منا أن نشارك في الحكومة طالما كانوا يعتقدون ان القوى الحمراء وراءنا . . . احترمونا طالما ظهرنا بمظهر الثوريين . لكن مذ غدونا حزباً دستورياً بحتاً ، أصبحوا يعتبروننا دون جدوى » .

كان نفوذ الاشتراكية ، الذي بدا على جانب كبير من الأهمية قبل وقت قصير للغاية ، يتراجع ويقل . ففي عام ١٩٠٥ ، كان الناس اجمعين يعبرون عن تعاطفهم مع الاشتراكية ، بينما اصبح كل الناس ، أو معظمهم يجحدونها الآن . ولم يبق صامداً غير حفنة قليلة ، علماً أن هذه الحفنة بالذات لم تكن قادرة على المقاومة في وجه الاحباط والارتباك العامين . واضطر الاشتراكيون للعودة الى تلك السرية التي كانوا خرجوا منها مفعمين بالأمل . قبل عام ١٩٠٥ كان يسهل عليهم نسبياً ان يجتمعوا في حلقات سرية صغيرة ، إلا انه كان عليهم العودة الى الظل وتحت أضراسهم مرارة الهزيمة . بدا كما لو انهم عادوا الى نقطة الانطلاق ، لكن من دون الايمان والشجاعة اللذين كانا يغمران نفوسهم من قبل . وقد رفض البعض العودة الى النضال السري ، وكانوا يأملون ان يتمكنوا من العمل في وضح النهار ضمن الحدود التي يفرضها النظام المنبثق من الثالث من حزيران / يونيو . وكان آخرون ، ممن يرفضون ان يأخذوا بالاعتبار الوضع الجديد الذي خلقه انتصار الثورة المضادة ، يسعون يائسين لمواصلة حرب مغالى بها ، في ظروف السرية ، وكان معظمهم يريدون مقاطعة المؤسسات السياسية والاجتماعية القليلة التي كان القانون يسمح

بها في ذلك الحين . اما الموقف الاول ، او موقف « التصفويين » ، كما جرت تسميتهم ، فكان يُصادَف لدى المناشفة مع ان بعض قادتهم ، ولا سيما مارتوف وبليخانوف ، اعتقدوا بضرورة منظمة سرية . بينما اصطدم « المقاطعون » ، وكانوا كثيرين في صفوف البلاشفة ، بلينين الذي كان يريد الجمع بين العمل السري والعمل الشرعي .

بالنسبة لتروتسكي ، لم تكن انتعاشة القيصرية غير فاصل بين ثورتين . ولم يكن يختلف عن لينين في الاعتقاد بضرورة اعادة بناء المنظمة السرية ، وكان يسأل المناضلين السريين ان يتسللوا الى كل المؤسسات الشرعية ، من الدوما الى النقابات ، لينشروا فيها أفكارهم . وفي الوقت الذي عارض فيه التصفويين والمقاطعين في آن معاً ، انطلق ينشر نظريته حول الثورة الدائمة بتفاؤل وحماس نادرين خلال سنوات الاحباط تلك[1] .

الا ان الحقبة المتراوحة بين ١٩٠٧ و ١٩١٤ تشكل في حياته فصلاً فارغاً من كل عمل سياسي . وقد كتب فيها بعد : « خلال سنوات الردة ، كان عملي مقتصراً في قسم كبير منه على شروحات لثورة ١٩٠٥ ، واعداد نظري للثورة اللاحقة[2] » . شرح في الواقع ثورة ١٩٠٥ ، أو كرر شروحه السابقة . اما الاعمال « النظرية » فلا أثر لها في كتاباته : كتب مقالات صحفية ممتازة ونقداً أدبياً ، لكن عبثاً نبحث عن دراسة سياسية ذات اهمية . حتى في هذه السطور المتضمنة بعض المراعاة للذات ، لا يذكر تروتسكي أي عمل ثوري فعلي مارسه أو قام به . إلا أنه في تلك الفترة بالذات بنى لينين والمتعاونون معه الحزب ، واتخذ رجال من مثل زينوفييف وكامينيف وبوخارين ، ومن ثم ستالين ، قواماً سمح لهم بأن يلعبوا داخل الحزب ، في عام ١٩١٧ ، أدواراً من الدرجة الاولى . لكن الحقبة المذكورة اضافت القليل - أو لم تضف شيئاً - الى القوام الذي كان بلغه تروتسكي بين ١٩٠٤ و ١٩٠٦ .

وفي فترة لم يكن ستالين بدأ فيها بعد حملته الافترائية المجنونة ضد تروتسكي ، أعطى ملاحظة عنه يمكن أن توضع في اعلى هذا الفصل ، يقول فيها : « ان قوة تروتسكي تظهر في الفترات التي تسجل فيها الثورة نقاطاً وتتقدم ، بينما يبدو ضعفه حين تتراجع الثورة وتضطر الى الخمود »[3] . وليس هذا الكلام خطأ . فتروتسكي كان معداً على هذا

---

(١) انظر افتتاحياته في البرافدا الصادرة في فيينا ، العدد ١ ، ٤ ، ٥ ، « رسالة الى العمال الروس - فيفوس فوكو » العدد ٦ ، وشتو - زي - دالش ؟، ملحق العدد ١٧ من البرافدا .

(٢) تروتسكي ، حياتي ، ج١ ، ص ٢٥١ .

(٣) ستالين ، سوش . ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ - ٣٣١ .

المنوال ، من الناحيتين الأدبية والمعنوية ، بحيث يستطيع تعبئة طاقته واظهار ميزاته بأفضل ما يكون تحت تأثير هزة عظيمة وفي غمرة التوتر الذي تحدثه . وعلى مسرح جبار حيث يبدو الآخرون اقزاماً يغدو هو عملاقاً . وفي صخب المعركة وقرقعتها بالذات يبلغ صوته أقصى قوته ، وبمواجهة حشود متمردة ، يتغذى ـ اذا شئنا ـ من بؤسها وآمالها ويبث فيها حماسه وايمانه : حينذاك يعرف كيف يسيطر على الناس ، والى حد ما على الاحداث . وحين تخمد الثورة وتخبو ، تزل قدمه ويخبو هو الآخر . لم يكن يعرف ان ينجز إلا اعمال هرقل ، لا الأعمال الأخرى .

* * *

لدى عودة تروتسكي من الشمال البعيد ، توقف بضعة أيام في بطرسبورغ ، ثم انتقل الى فنلندا قبل أن تبدأ الشرطة ملاحقته . كانت الهجرة الثورية تتجه الى الغرب وكانت فنلندا المرحلة الأولى منها . وكان قائد شرطة هلسنكي ، وهو وطني فنلندي ، سعيداً باستقبال اعداء القيصر . وقد استقبل لينين ومارتوف ، اللذان وصلا قبل قليل ، استقبلا تروتسكي بحرارة وهنآه على موقفه خلال المحاكمة ، اما هو فلم يقم في فنلندا إلا بضعة اسابيع ، حيث كتب قصة فراره وسلمها لأحد الناشرين . وفي نهاية نيسان / ابريل ، وصل الى لندن لحضور مؤتمر للحزب .

كان ذلك المؤتمر غريباً من عدة نواح . فهو المؤتمر الأخير للحزب الموحد ، وقد ضم ٣٥٠ مندوباً ، أي قرابة عشرة أضعاف عدد المندوبين في عام ١٩٠٣ . لم يكن المندوبون يدركون بوضوح ان الثورة انهزمت لا بل كانوا يعتقدون ان الحزب في اوج قوته . كان عدد اعضائه لا يزال كبيراً : فالبلاشفة والمناشفة اجتمعوا في صفوفه ، وكان الحزبان البولوني والليتواني قد عادا الى المنظمة الروسية الأم ، التي بقيا متمايزين عنها حتى ذلك الحين لئلا يمتزجا بأي من جناحيها . الا ان الحزب كان فقيراً لدرجة استلاف المال من رجل أعمال انكليزي ليبرالي ليتمكن المؤتمر من الانعقاد في كنيسة جمعية دينية في لندن .

كانت المشكلات الكبرى للثورة ، والتيارات الاقتصادية ، وتحديد الفواصل بين الطبقات ، وآفاق المستقبل ، كانت كلها مجالاً لنقاشات عامة ومعمقة استمرت ثلاثة أسابيع . « كانت عروض القادة تطول ساعات عديدة . . . بحيث يعتقد المرء أنه في اجتماع لأكاديميين . . . »[٤] . وللمرة الأولى تمكن تروتسكي من عرض نظريته عن الثورة الدائمة امام حضور مختار . انتقد المناشفة بشدة لميلهم الى التحالف مع الدستوريين ـ

(٤) أ . بالابانوف ، حياتي كثائر ، ص ٨٨ .

الديمقراطيين ، ونادى بتكوين كتلة تجمع العمال والفلاحين(٥) . وقد اعلنت روزا لوكسمبورغ التي مثلت الحزب الاشتراكي - الديمقراطي البولوني دعمها لنظرية الثورة الدائمة . واعترف لينين مرتين بأن تروتسكي يلتقي مع البلاشفة اذ يدافع عن التحالف بين العمال والفلاحين : فمرة أخرى ، كان لينين يأمل كسب تروتسكي ، ومرة أخرى فشل في ذلك ، فتروتسكي كان في ذلك الحين على مسافة واحدة من الجناحين ، وكان يكرز بالوحدة . لقد قال : « ويصل مارتوف . . . ويهدد بأن يرفع بين البلاشفة والمناشفة سوراً مشكوكاً بالمدافع . . . » ويجيب البلاشفة : « لسنا بخائفين » ويهددون بالانسحاب الى خندق عميق . ايها الرفيق مارتوف ، مم ستصنع سورك ؟ من الورق ، ومن الأدب الجدالي ! من أي شيء آخر يمكن ان تبني هذا السور ؟(٦) » الا ان تروتسكي كان مخدوعاً ، فـ « السور » الذي كان يفصل بين الجناحين كان من مواد أصلب بكثير مما يدور في خلده . وكان مارتوف ولينين يعرفان ، من جانبيهما ، ان خلافاتهما السياسية لا بد ان تصل في الاخير الى انفصال لا عودة عنه . وقد صاح تروتسكي : « اذا كنتم تعتقدون ان الانشقاق محتوم ، انتظروا على الأقل ان تفصل بينكم الاحداث . لا تصنعوه بناء على تصريحات بحتة . لا تستبقوا الاحداث » .

كان هنالك في موقف تروتسكي من جناحي الحزب نوع من التسامي الفكري . فلقد كان ينظر اليهما معاً عبر موشورة نظريته حول الثورة الدائمة . انه يقول ان لينين ومارتوف يعتقدان كلاهما ان الثورة الروسية ستكون بورجوازية وحسب ، وهما مخطئان في ذلك معاً ، والاحداث ستظهر انهما على غير حق(٧) . وقد كان كلام تروتسكي صحيحاً من وجهة النظر النظرية الخالصة . إلا ان وجهة النظر النظرية الخالصة لم تكن الأقرب الى الحقيقة بالضرورة . فثمة شيء أكيد هو ان حزب الثورة كان ينتظم تحت راية لينين ، والحزب الاصلاحي القادم تحت راية مارتوف . وتروتسكي الذي كان يتأمل الآفاق البعيدة لم ير الاختلاف الذي كان ينمو عند قدميه ؛ ولقد كان يمكن لموقفه النظري ان يقربه من

---

(٥) بياتيي سييزد ، .R.S.D.R.P ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، ١١٧ - ١١٨ ، ٤٢٠ - ٤٢٤ .

(٦) المرجع ذاته ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٧) بعد المؤتمر بقليل ، كتب تروتسكي في البرز غلادسوسيال - ديمكراتيكزني (الصحيفة البولونية التي كانت تصدرها روزا لوكسمبورغ) : « اذا كانت الوجوه المضادة للثورة في المنشفية غدت ظاهرة بكاملها ، فالملامح المضادة للثورة الكامنة في البلشفية ، يمكن ان لا يسلط عليها الضوء إلا انتصار ثوري » . إلا أن تروتسكي كان يامل بأن تجبر ثورة جديدة كلا الجناحين على اعادة النظر في مواقفهما وتقربهما الواحد من الآخر ، كما فعلت احداث ١٩٠٥ . انظر داي روسيسشي ريفولوسيون ١٩٠٥ ، ص ٢٣١ .

البلاشفة ، إلا ان بعض الصداقات وذكرى خصامه القديم مع لينين جعلته يبقى بجانب المناشفة .

خلال مؤتمر لندن هذا انعشت مشكلة جديدة نار العداء القديم . فلقد درس المندوبون ، في لجنة خاصة ، اعمال الغوار و « المصادرات » التي قامت بها مجموعات القتال البلشفية ، لا سيما في القوقاز ، وندد المناشفة بقوة بشكل العمل هذا كرجوع الى الارهاب النارودني القديم ، لا بل الى اللصوصية البحتة . وأقنعوا المؤتمر ، الذي كانت اكثريته لصالح لينين ، بحظر تلك الأعمال . أما موقف لينين طوال المناقشة فكان ملتبساً . ويبدو أنه كان لا يزال يفكر بأن على مجموعات القتال أن تقوم ببعض الهجمات ضد عمليات نقل اموال الدولة ، مما يقدم للحزب المال الضروري لمواصلة عمله في ظل ارهاب الثورة المضادة . وطوال المؤتمر بقي مندوب قوقازي مغمور ، على علاقة وثيقة بمجموعات القتال البلشفية ، يدعى دجوغاشفيلي ـ ايفانوفيتش (لم يكن اتخذ بعد اسم ستالين) ، بقي صامتاً ، منتظراً نتيجة النقاش وتوجيهات الساعة . ونحن لا نمتلك عن ذلك إلا ذكريات متقطعة ، كتبت بعد ذلك بوقت طويل . لكن من المؤكد ان تروتسكي كان ، الى جانب مارتوف ، بين الذين هاجموا البلاشفة بعنف ، لا بل مضى بعد المؤتمر بوقت قصير يكرر هجماته على صفحات صحيفة اشتراكية في اوروبا الغربية . ومن المؤكد انه فجر غضبه في مماشي المؤتمر وفي جلسات اللجان . ان شهادات لينين حول التقارب الايديولوجي مع تروتسكي ، وتكرار جهوده لكسبه الى صفوف البلشفية ، لم تؤد الى أي شيء ، إلا الى تبادل بعض الشتائم المقذعة في الأيام الاخيرة من المؤتمر . وكان تروتسكي يصوت تارة مع البلاشفة ، وطوراً مع المناشفة ، لكنه انفجر مرات ضد لينين بعنف لا يمكن للمحاضر أن تسمح بتفسيره[٨] .

حل محل المخاصمة حول مجموعات القتال نقاش اكثر عمومية حول طابع الحركة . وحاول « التصفويون » ان يبرروا معارضتهم للنضال السري بضرورة تحويل الاشتراكية الروسية بروح اوروبية . قالوا ان الأحزاب الاشتراكية الاوروبية تعمل في وضح النهار وعلى الحزب الروسي ان يحذو حذوها . وهذه الحجة كانت تذكّر بشعور كان في السابق قوياً جداً في كل فروع الحزب : ففي فترة النضال ضد النارودنيين حدد كل الماركسيين مهمتهم

---

(٨) بعد المؤتمر بقليل ، كتب لينين الى غوركي (الذي حضر المؤتمر وحاول مصالحة لينين وتروتسكي) ان تروتسكي يتصرف « كمدَّعٍ » . لينين ، سوش ، ج ٣٤ ، ص ٣٣٥ . انظر كذلك بياتي سييزد .R.S.D.R.P ، ص ٥٠٦ ، ٦٠٢ ، ٦١٩ ، وميديم ، المرجع المذكور ، ج ٢ ، ص ١٨٧ ـ ١٨٩ .

بأنها اضفاء الطابع الاوروبي على الاشتراكية الروسية ، لكن كان كل من الجناحين يفهم اليوم الموضوع بمعنى آخر ؛ فبالنسبة للتصفويين ، كان جوهر الاشتراكية الاوروبية يكمن في منظماتها الجماهيرية الديمقراطية ، وفي العمل الرسمي لفريق برلماني متزايد العدد باستمرار ، وفي المساومة السلمية التي تتولاها النقابات ، وباختصار ، في الوجه الاصلاحي الصرف لنشاطها . اما البلاشفة ، فكانوا يرون ان اضفاء الطابع الاوروبي احتفظ بالمعنى الذي اعطاه اياه مجمل الحزب في البدء : غرس الاشتراكية العمالية الماركسية في روسيا ، التي تؤلف بين الفلسفة الالمانية والاشتراكية الفرنسية والاقتصاد السياسي الانكليزي . لكنهم كانوا يرفضون المضي أبعد من ذلك وتقليد الطرائق الشرعية والرسمية التي تلجأ اليها الاشتراكية الاوروبية. فالوضع البوليسي في روسيا ، لا سيما في ظل ستوليبين ، لم يكن يسمح حتى بوجود حزب ليبرالي ، فكيف بوجود حزب اشتراكي ؛ فاذا بقيت الاشتراكية في حدود الشرعية ، شرعية الحكم المطلق المنتصر ، فهي تحكم على نفسها بالزوال .

أما تروتسكي فحيّا بطولة المناضلين السريين وشهادتهم، بمسحة الغنائية تلك التي كانت تميزه . الا انه كان حساساً للغاية ، تجاه شعار اضفاء الطابع الاوروبي . وهو لم يفسر ابداً بشكل كامل ما كان يعنيه بذلك ، فذلك التعبير كان يمتلك بالنسبة اليه مضموناً عاطفياً وثقافياً اكثر مما كان له معنى سياسي دقيق . وكان تروتسكي يستخدمه ليعبر عن نفوره الشديد من « جفاف وقساوة » التنظيم السري ، كما كان يتصوره لينين . كان يعرف ان حركة عمالية واسعة في ظل القيصرية أمر طوباوي . لكن لما كان يريد ان يحتفظ بما هو افضل في العالمين ، كان يعتقد بضرورة بث روح التسامح والديمقراطية ، التي تتميز بها الاحزاب العمالية الغربية ، في النضال السري الروسي . وكان يرى ان على التنظيم السري أن يمنح مناضلي القاعدة حرية العمل التي كانت قائمة في الأحزاب العمالية الغربية . لكن حركة سرية هي بالضرورة ضيقة وقاسية اذا قورنت بحركة شرعية . لا يمكن ان تكون لها قاعدة واسعة ولا يسعها ان تخفف من الانضباط الحتمي الذي تفرضه قيادتها على اعضائها ، كما لا يمكنها ان تترك لمناضلي القاعدة المبادرة وحرية العمل اللتين توجدان (أو يبدو انهما توجدان) في حزب عادي . لقد كان لينين على حق ، بلا جدال ، حين اكد ان أوربة (اضفاء الطابع الاوروبي) الحزب الروسي ، حتى بالمعنى الذي كان يفهمه تروتسكي ، لكي لا نتكلم على التصفويين ، تكون نتيجتها تدمير الحزب .

* * *

لم يكن في وسع احد ان يطالب بالأوربةبشكل طبيعي اكثر من تروتسكي ، لأنه كان « اوروبياً » اكثر من أي مهاجر آخر ، فمعظم المهاجرين كانوا يعيشون في حلقات صغيرة مغلقة ، ولم يكونوا يهتمون إلا بالقضايا الروسية ، غير مبالين بأحداث البلاد المنفيين فيها ، إلا تروتسكي ، فقد كان يحس بنفسه في بيته في معظم بلدان أوروبا ، وذلك بمرانة اليهودي التائه وقدرته على التمثل ، اللتين ليستا في كل حال صفتين يهوديتين بوجه الحصر . كان يهتم بقضايا تلك البلدان بشغف وحماس ، ويتكلم لغاتها ويكتبها ويشارك في نشاطات حركاتها العمالية .

وفي صيف ١٩٠٧ ، وما ان انتهى المؤتمر ، غادر لندن الى برلين حيث كانت تنتظره سيدوڤا مع ولده . وقد خصصت له النخبة الفكرية في الاشتراكية الالمانية استقبالاً حاراً ، اذ كانت شهرته سبقته الى المانيا . اثار عمله داخل السوفييت وسلوكه خلال المحاكمة الاعجاب ؛ تمت ترجمة مؤلفاته الى الالمانية ونشرت في مجلات . وقدمه بارفوس ، الذي هرب هو الآخر من سيبيريا ، الى كارل كاوتسكي الذي كان معترفاً به ، في تلك الفترة ، كالموجه الروحي للاشتراكية الاوروبية ، أو « بابا الماركسية » . وغالباً ما تذكر تروتسكي بأي انفعال وأي فرح تعرف الى ذلك الرجل « ذي الشعر الابيض والعينين البراقتين » الذي بدا كما لو كان « ينتمي لعالم آخر » . لم يكن بوسعه ان يتخيل في ذلك الحين ان كاوتسكي سيكون الخصم الأشد شراسة لثورة اوكتوبر ، وسيغدو هدفاً لهجماته المدمرة . سوف يبقى تروتسكي ، مثله مثل كل الاشتراكيين ، عند قدمي كاوتسكي رغم خيبة الأمل التي سرعان ما سببتها الروح « الجافة ، والوعرة » الخاصة بالمعلم ، وتفاهة هذا الأخيروافتقاده للرهافة . غدت دار كاوتسكي مرساه في برلين وشارك في الاجتماعات الحميمة التي كان تنعقد في منتدى « البابا » . هناك التقى بيبل ، الرائد القديم ، الذي جابه بيسمارك ، وقاد الاشتراكية الالمانية عبر سنوات الاضطهاد وصولاً الى عصرها الذهبي او ما بدا كذلك . والتقى كذلك لدى كاوتسكي هاز وليديبور وشخصيات اشتراكية اخرى . وقد عرف كيف يستفيد من تلك الصداقات ومن تلك الصلات . ففي **النيوزايت** ، مجلة **كاوتسكي** الشهرية ، وفي **فوفارتس** الجريدة اليومية الاشتراكية النافذة ، عرض خصوصيات الاشتراكية الروسية باستمرار ، وشرح من وجهة نظره الخاصة به خلافاتها الداخلية وانقساماتها[٩] . وكونه لا ينتمي الى اي من الجناحين لعب لصالحه لدى الجمهور الالماني الذي كان يضيع في تفاصيل الخصومة الروسية وينفر من الانحياز لطرف أو

---

(٩) في رسالة بعث بها لينين الى انصاره ، كتب مرة ان « تروتسكي وشركاه يكتبون والألمان يصدقونهم . وعموماً ، تروتسكي هو السيد في فورفارتس » . لينين ، سوش . ج ٣٥ ، ص ١١ .

لآخر(١٠) . ان اسلوب تروتسكي الخالص من الدوغمائية ، والأخاذ ، والاوروبي ، كان يؤثر في القراء الالمان اكثر بكثير من اسلوب سائر الاشتراكيين الروس . وقد ساعد اصدقاء تروتسكي الالمان ، من جهة اخرى ، صحيفة الهجرة الروسية عند الاقتضاء ، وروّجوها . كان الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الالماني لا يزال « الأم والمعلم والمثل الحي » لكل الاشتراكيين الروس .

ومن قبيل المفارقة أن تروتسكي لم يرتبط أوثق الارتباط باليسار الراديكالي في الاشتراكية الالمانية ، بقيادة روزا لوكسمبورغ ، وكارل ليبنخت وفرانز مهرينغ ، مؤسسي الحزب الشيوعي الالماني فيما بعد ، بل بفريق الوسط الذي في حين كان يحافظ على مظاهر الاور ثوذكسية الماركسية قاد الحزب في الواقع الى الاستسلام ازاء مطامع آل هوهنزلرن الامبريالية . وهذا اكثر غرابة لا سيما ان الراديكاليين لم يكونوا بأي شكل من الاشكال بلاشفة الاشتراكية الالمانية . ففي معظم المشكلات الجوهرية كان موقفهم يلتقي مع موقف تروتسكي ، فهم ايضاً كانوا يتوقون قبل كل شيء الى وحدة الحزب ، وهم ايضاً كانوا يمثلون فرعاً فكرياً وثورياً في الماركسية في مواجهة التجريبية الاصلاحية الخاصة بالنقابات . ومن بين كل الممثلين الكبار للاشتراكية الاوروبية لم يكن ثمة من هو اقرب الى تروتسكي من روزا لوكسمبورغ ، فكل شيء كان يقرب بينهما : اصلهما ، مزاجهما ، مواهبهما الادبية والسياسية (ليس صدفة ان ستالين ندد بروزا لوكسمبورغ عام ١٩٣٢ ، بعد موتها بسنوات ، على اساس انها تروتسكية) . وروزا اتخذت المواقف ذاتها التي اتخذها تروتسكي في مؤتمر لندن وفي مؤتمر اممية شتوتغارت ، حيث كانت تمثل الجناح اليساري المناهض للعسكرية : وكتروتسكي ، نبذت مفهوم المناشفة للثورة وصاغت الكثير من التحفظات حول عمل البلاشفة ؛ وكتروتسكي ، كانت تعتقد ان على الاشتراكية الروسية أن تتأورب ، مضيفة انه ينبغي بث شيء من المثال الاعلى الثوري الروسي في الحزب الالماني . وقد التقيا مراراً لدى كاوتسكي ، وربما كان تجاذبهما الشديد هو الذي جعلهما يبقيان بعيدين الواحد عن الآخر . كانا متفقين الى حد بعيد بحيث لم يكن لديهما شيء كثير يقولانه الواحد للآخر . كما ان مثالية كارل ليبكنخت المحمومة والصادقة والطبيعية للغاية لم تجتذب تروتسكي زيادة ، وهو ما أسف له فيما بعد ؛ اما فرانز مهرنغ الذي ستظهر ميزاته السياسية بالكثير من السطوع خلال الحرب الكبرى فكان غائصاً في ذلك الحين في مشاغل

(١٠) كان ذلك هو موقف كل الاشتراكيين الاوروبيين تقريباً . فقد طلب جوريس مثلاً من محرري الاومانيتيه الا ينشروا أي نص عن الحزب الروسي أو صادر عنه ، لأنه ، بغير ذلك ، ستغرق الصحيفة في سيل من التصريحات الغامضة والتي لا تنتهي ، الصادرة عن كلا الجناحين . أ . موريزيه ، لدى لينين وتروتسكي ، ص ١٠١ .

تاريخية وفلسفية لم تكن على اكثر من علاقة بعيدة بالمشكلات التي كانت تشغل اهتمام تروتسكي .

خلال سبع سنوات ، اي حتى الحرب الكبرى ، عاش تروتسكي في فيينا . ويصف اشتراكي روسي - اميركي زار تروتسكي عام ١٩١٢ مكان اقامته بالتعابير التالية : « كان بيته في فيينا بيت رجل فقير ، افقر من عامل متوسط . . . فالغرف الثلاث . . . في تلك الضاحية العمالية لم تكن تضم اثاثاً كافياً لراحة متواضعة . وكان تروتسكي يرتدي ثياباً رخيصة لا يمكن لأي بورجوازي في فيينا ان يعتبرها « لائقة » . لدى وصولي كانت السيدة تروتسكي منشغلة بمشاغل بيتية ، وحولها ولدان اشقران رائعان يساعدانها بشكل اساسي . كانت اكوام كتب في كل الزوايا الزينة الوحيدة لذلك المسكن »[١١] . . وعلى الارجح ان الزائر بالغ في وصف المكان بالفقر ، فآل تروتسكي كانوا يعيشون حياة افضل من حياة الكثير من المهاجرين ، لكن من الثابت ان شروط حياتهم كانت متواضعة : وسنرى انهم عانوا في بعض الاحيان من حالة ضيق . خلال تلك الحقبة بكاملها ، كان تروتسكي يراسل من فيينا جريدة يومية ليبرالية يسارية مقروءة جداً ، هي **فكر كييف** (**كييفسكايا ميسل**) ، وذلك باسمه المستعار القديم **آنتيد أوتو** ، كما تعاون كذلك باستمرار مع نصف دزينة ، على الأقل ، من الجرائد الروسية والالمانية والبلجيكية[١٢] . اما ابواه اللذان كانا ثريين ويساعدانه في تربية ابنتيه من زواجه الأول ، فقد أتيا مراراً من روسيا لرؤيته ، ولا شك انهما كانا يقدمان له ما يحتاج من المال . والولدان اللذان يتكلم عليهما الزائر الاميركي هما ليف ، ابن سيدوفا البكر ، المولود عام ١٩٠٦ في حين كان تروتسكي في السجن ، وسرج (سيريوشا) الذي ولد في فيينا عام ١٩٠٨ .

ولما كانت عائلة تروتسكي تزن كل شيء كما يجب فقد عاشت حياة هادئة وسعيدة . فالأسد الثوري كان كذلك زوجاً متيقظاً وأباً ودوداً . فلكي تتمكن امرأته من متابعة أعمالها الفنية والمساهمة في الحياة السياسية للجالية الروسية ، كان يساعدها في انجاز الاعمال البيتية وفي تربية الأطفال . وحين ذهب ولداه الى المدرسة ، راقب عملهما بانتظام . وحتى في حمّى سنوات الحرب ، حين انتقلت العائلة الى باريس ، وجد الوقت للاهتمام بدروسهما[١٣] . أما سيدوفا فعادت ، من جانبها ، تهتم بثقافة زوجها الفنية ، في فيينا ،

---

(١١) انظر « الملاحظات السيرية » للسيد ج . اولجين في الطبعة الاميركية من كتاب ثورتنا لتروتسكي ، ص ١٨ .
(١٢) دون الكلام على كييفسكايا ميسل ، تعاون تروتسكي ، بغير انتظام ، خلال تلك السنوات مع الصحف التالية : لوش ، دن ، اودسكي ، نوفوستي ، (التي كان يصدرها عمه سبنتزر) ، بوردا ، نيوزايت ، فورفارتس ، الشعب (في بروكسل) .
(١٣) أ . روسمر « تروتسكي ، خلال الحرب العالمية الاولى » . الأممية ، الجديدة ، سبتمبر - اوكتوبر ١٩٥٠

تلك الثقافة التي كانت بدأتها في باريس ، في عام ١٩٠٢ ، لكن دون نجاح يومذاك . وقد أمضيا أياماً بكاملها يزوران مجموعات بورغشلوس ومُتحفات فيينا ، وحقق فضول تروتسكي الفني تقدماً سريعاً . وخلال رحلاته المتكررة الى باريس ، أو لندن ، أو ميونيخ ، كان يتخلص من الاجتماعات السياسية ليقصد اللوفر أو التايت غاليري ، أو البيناكوتيك . وتظهر المقالات التي كتبها في تلك الفترة ، لا سيما انتقاداته لمعارض فيينا السنوية ، التي نشرت في فكر كييف فهماً للفن الاوروبي لا يصدر عن هاوٍ محض . لم تكن السياسة والكتابة الصحفية تستنفدان كامل وقته ، لذا تمكن من تعميق معرفته للرواية الروسية والفرنسية وللشعر الالماني . وان كتاباته الأدبية في تلك الفترة تشهد على ذلك .

ولقد أقام في فيينا على مضض ولأن الشرطة الألمانية لم توافق على مجيئه الى برلين . كان يود ان يكون في مركز الاشتراكية الالمانية ، ولم تكن فيينا تحتل من هذه الزاوية غير المحل الثاني . ومن فيينا استطاع مراقبة تصادم القوميتين الالمانية والسلافية في البلقان . وفي نهاية ملك فرانسوا ـ جوزف ، كانت فيينا لا تزال احد المراكز الفكرية في اوروبا ، مع أنه كان لها طابع ريفي الى حد ما . على الصعيد السياسي ، كانت تعتز بالماركسية النمساوية التي حطمت الطغيان الأكيد للنزعة الكهنوتية في اكثر الامبراطوريات كثلكة . وعلى الصعيد الأدبي ، كان أرثور شنيتزلر ، وبيير التنبرغ ، وكارل كراوس يمثلون مدرسة نهاية القرن : حساسية مفرطة الشعور بالموت ، وبالحيوية الجنسية : اما في الميدان الفني فكانت فيينا تقف على الحياد ، في وضع تمرد رخو ضد النزعة الأكاديمية المحافظة والواقعية البورجوازية . ولم يكن ينقص الانتلليجنسيا الفيينوية وطليعتها التقدمية تكوين أو ذوق . ان ما كان يضرُّ بها انما هو افتقادها الحزم وقوة الارادة . بيد أن الميدان الوحيد الذي برزت فيه فيينا ذلك العصر دون جدال هو ميدان علم النفس : كانت الفرويدية بدأت تنتشر وتفرض نفسها . اما البلاط ، والبرلمان ، وهيئات تحرير الصحف ، والاجتماعات الاشتراكية ، والمنتديات الادبية والفنية ، فلم تكن الا انعكاساً للحركة والثرثرة في مقاهي فيينا الرخيّة ، لتلك الحياة الاجتماعية المحترمة والمرهفة للغاية ، والتافهة بشكل غريب .

لقد وصف تروتسكي في كتابه حياتي الأوساط الفيينوية بسخرية متعالية . الا ان كتاباته في تلك الفترة تكاد تجبرنا على التفكير بأن الغليان المحبَّب للحياة في فيينا اعجبه كثيراً . جعل من اهتمامات سكان فيينا اهتمامات له ، وعاشر الاشتراكيين ـ الديمقراطيين النمساويين ، وتردد على نواديهم واجتماعاتهم ، وكتب للجرائد الاشتراكية ، وتحمس للاحداث الفنية والادبية ، لا بل ترك جو المقاهي يجتذبه عند الاقتضاء . وفيما بعد ، حين غدا تروتسكي احد قادة الثورة الظافرة وعدو الاصلاحية الحازم ، رسم للماركسيين

النمساويين صورة لا هوادة فيها . الا انه اثناء إقامته في فيينا اظهر الكثير من المراعاة حيالهم ؛ كان يقدر يومذاك الصداقة التي يعبرون له عنها . وقد أحس بإعجاب شديد حيال فيكتور أدلر ، مؤسس الحزب ، الذي فتح له باب بيته بالشهامة التي ابداها كاوتسكي في برلين ، والذي تكلم عليه الى قرائه الروس بحماس ومودة في العديد العديد من المرار[١٤] . وارتبط بابن فيكتور ادلر ، فريتز ، ولد الحزب المدلل المتمرد ومدير **كامف** ، الذي سوف يغتال فيها بعد الوزير الاول النمساوي ، البارون ستورخ ، احتجاجاً على الحرب العالمية[١٥] . وكان كذلك صديقاً لرودولف هيلفردنغ معلم الماركسيين النمساويين على المستوى الفكري . وفي الفترة التي كان تروتسكي يقيم اثناءها في ضاحية فيينا ، في هوتلدورف ، كان هيلفردنغ على وشك انجاز مؤلفه العظيم ، **فينانز كابيتال** ، الذي يمثل عملياً المحاولة الوحيدة المهمة ، منذ وفاة ماركس ،لإعادة ابراز نظرية **رأس المال** . وقد استعان لينين بمؤلف هيلفردنغ لتبرير سياسته الثورية في الوقت الذي كان فيه هذا وزيراً للمال في جمهورية فايمار . وهيلفردنغ هو الذي قدم تروتسكي لكارل رينر ، الذي سيغدو فيما بعد مستشاراً ، فرئيساً للجمهورية في النمسا ، ولأوتو باور المنظر الكبير للماركسية النمساوية ، المتخصص في مسألة الأقليات القومية ، وزير الخارجية لاحقاً ، ولكل النخبة الماركسية النمساوية تقريباً . وقد كتب تروتسكي : « كان هؤلاء رجالاً مثقفين للغاية ، ذوي معارف اوسع بكثير من معارفي يومذاك . وكنت اصغي اليهم بالكثير من الاهتمام ، لا بل باحترام ، حين رأيتهم للمرة الأولى يناقشون في المقهى المركزي »[١٦] . الا انه سرعان ما ادرك تروتسكي الفرق الكبير بين ماركسيتهم وماركسيته . فهؤلاء الناس كانوا مثقفين خالصين ، متجمدين في تشككية مرهفة ، وكان تروتسكي يكتشف خلف تصرفاتهم اللبقة للغاية التعالي الذي كان يولده لديهم حماسه الثوري . وقد سنحت الفرصة لتروتسكي كي يلتقي « كتيبة من السياسيين النمساويين الشباب الذين انضموا للحزب وهم مقتنعون بحزم بأن قانوناً رومانياً ما يعطيهم حقاً لا يمكن انتزاعه منهم في التصرف بمصير الطبقة العاملة »[١٧] . الا ان تروتسكي بقي مقتنعاً بأن قوة الفكرة الاشتراكية ستنتصر في الظروف الحرجة على تشكك قادة الحزب وانتهازية

---

(١٤) تروتسكي ، سوش ، ج ٨ ، ص ١٠ ، وما بعدها .

(١٥) خلال الحرب ، قال تروتسكي عن ف . ادلر انه « رفيق على صعيد الافكار وصديق » (سوش . ، ج ٣ ، ص ٣٣ - ٣٦) . وفي عام ١٩١٩ ، عيّن لينين وتروتسكي ف . ادلر سكرتيراً شرفياً للأممية الثالثة . إلا أنهما أُحبطا شديد الاحباط حين لاحظا ان ادلر يدير لهما ظهره . وقد اصبح ادلر فيما بعد اميناً عاماً للأممية الثانية .

(١٦) تروتسكي، حياتي ، ج ١ ، ص ٢٣٧ .

(١٧) تروتسكي ، سوش . ، ج ٨ ، ص ١٢ - ١٣ .

بيروقراطييه ، وان المد الثوري سيجرف معه الماركسيين النمساويين ، كما فعل في روسيا بالمناشفة . كان يعتبر اصدقاءه ثوريين ، مثلما كان هؤلاء يعتقدون انه في الحقيقة اصلاحي معتدل[18] .

ولما كان لتروتسكي كل تلك الصلات ، فقد نطق في الغالب بلسان الاشتراكية الروسية ابان مؤتمرات الحزبين الالماني والنمساوي . غدا كذلك شخصاً مألوفاً في اجتماعات الاممية حيث كان كل الرواد : جوريس وغيسد ، كاير هاردي وماكدونالد ، فاندرفلد وتوراتي . وقد اجتذبته شخصية جوريس رغم ميوله الاصلاحية ، فهو يتحدث عن « سذاجة حماسه شبه العبقرية » ، وعن « بركانية حماسه الأدبي وقدرة غيظه المحتدم وشدته » ، وعن بلاغته التي لا تقاوم ، الاكثر كلاسيكية والأقل غنائية من بلاغته هو ، لكن القريبة مع ذلك منها قرباً شديداً . ولاحظ تروتسكي ، بين ما لاحظ ، أسلوب شيوخ الاشتراكية الاوروبية ومواهبهم الخطابية ، حين كانوا يشاركون في اجتماعات الأممية : ففاندر فيلد، الذي سخر فيها بعد من رداءته ، « كان يمتلك أسلوباً بالغ الرهافة ، ممتلئاً بالنضارة ، وكانت حركته أنيقة » ، أما فيكتور أدلر الذي لم يكن يبخل بالتأثيرات الخطابية الكبرى ، « فلم يتوصل أبداً لتوفير صوته (وكان ضعيفاً) ، وكان يبذر سريعاً كل احتياطيه منه ، بحيث كان في نهاية خطبه يبح ويسعل » . الا ان تروتسكي كان يصغي لجوريس « في كل مرة ، كما لو كان ذلك للمرة الاولى » ، سواء في مؤتمر ، أو في اجتماع لجنة ، أو في اجتماع عام ؛ كان يقذف بالصخور ، يتفجر ، يدوّي كالرعد ، لكن دون أن يخفت صوته أبداً . كان يستطيع حين يشاء أن يحطم صخرة ، مثل مطرقة آلية ، أو أن ينجز عمل صائغ على الاناء الذهبي الأكثر سهولة عطب »[19] . وحين كان يصف تروتسكي الخطيب الشعبي الفرنسي الكبير ، أورد في احدى المرار هذه الملاحظة المميّزة : « ان الروسي القادم من فيافينا السوداء ربما يقول احياناً ان خطب جوريس ليست غير فصاحة خطابية مصطنعة ، زائفة الكلاسيكية . وهكذا لا يفعل غير الشهادة على فقر ثقافتنا الروسية » .

وكلما غاص في مناخ أوروبا ما قبل ١٩١٤ ، كلما صدمه « فقر وجفاف » الثقافة الروسية ، وكلما ردد بإلحاح ان رسالة الاشتراكية ، ولا شيء غير الاشتراكية ، هي التي

(١٨) يقدم الحادث التالي مثالاً مسلياً على ذلك : حين استعد الكونت كزرنين ، وزير خارجية النمسا ، في نهاية عام ١٩١٧ ، للذهاب الى بريست ـ ليتوفسك حيث كان عليه ان يدخل في مفاوضات السلام مع تروتسكي ، اجرى حديثاً مع فيكتور ادلر . « قال لي ادلر في فيينا : سوف تتفاهم مع تروتسكي بشكل جيد للغاية دون ادنى شك . وحين سألته لماذا ، اجابني :أنت وانا، الا يفهم واحدنا الآخر؟ اذاً . . . » كونت كزرنين ، في الحرب العالمية ، ص ٢٣٤ .

(١٩) تروتسكي ، سوش . ، ص ١٣ ، ١٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

ستحول السيتي(*) الى « اوروبي جيد » ولقد صاغ تروتسكي هذه الاطروحة بالشكل الأكمل في دراسة ممتازة حول الانتلليجنسيا الروسية ، كتبها لفكر كييف في عام ١٩١٢ ، بما تتضمنه من أمور قيّمة واخرى قابلة للنقاش . اما مدير الجريدة فتردد طويلاً قبل أن ينشرها : فتحليلات تروتسكي كانت تخاطر بأن تجرح بالكثير من العنف الكبرياء القومية لدى جمهور الجريدة الراديكالي . وكانت دراسة تروتسكي رداً على كتاب ايفان رازومنيك الذي لقي نجاحاً باهراً ، وحيث جرى تمجيد الفضائل الروسية الاستثنائية والرسالة التاريخية للانتلليجنسيا الروسية . رد تروتسكي مفصلاً بعض وجهات نظره السابقة حول تاريخ روسيا ، ومفسراً أنه لا يمكن فهم دور الانتلليجنسيا الخاص إلا انطلاقاً من الوضع التاريخي العام .

« نحن فقراء ، فقراء تراكم فقرنا طوال آلاف السنين . . . زرعنا التاريخُ على أرض عقوق ، وفرّقنا على سهل فسيح » . كانت ثمة حاجة لدولة ـ لوياثان(**) تدافع عن هذا السهل ضد الغزوات الآسيوية وتقاوم اندفاع أوروبا الغنية والقوية ؛ ولكي يقتات لوياثان جوّع الأمة وشل تطور طبقاتها الاجتماعية ومؤسساتها ، وضمّر حضارتها . « لم تضطهد طبقة النبلاء والكنيسة الشعب في روسيا اضطهاداً أخف من ذلك الذي عانته الشعوب الاوروبية المجاورة . إلا أن هذه الحضارة المعقدة والممدنة التي ولدت في أوروبا في ظل النظام الاقطاعي ، تلك الدانتيلا القوطية للاقطاع ، لم تنبت على أرضنا . كانت تنقصها المادة الحية ولم يكن باستطاعتنا الحصول عليها . . . طوال قرون عشنا في اكواخ من جذوع الصنوبر كنا نسد ثقوبها بالطحلب ! أين كان سيمكننا العثور على ما يجعلنا نحلم بالأقواس والسهام القوطية ؟ » .

« كم كانت بائسة . . . طبقة نبلائنا ! اين كانت قصورها ، ما كانت مبارياتها وحملاتها الصليبية ؟ ما كان اذاً مروِّضو جيادها ، ومغنوها الجوّالون ، وغلمانها ؟ هل عرفت نسخة خاصة بها من الحب المتغزل اللطيف ؟ كانت طبقة النبلاء الروسية فظة وغليظة ومبتذلة . لم تعرف تجربة الاصلاح الديني المطهّرة ، ولذا فقد جهلت حتى مفهوم « الشخصية الانسانية » الخاص بالبورجوازية الغربية ، الذي يميل الى اقامة علاقات اوثق بين الانسان والله . لقد ولّدت المدينة القروسطية (***) في أوروبا، وهي مهد الطبقة الثالثة

(*) المنتسب الى شعب سيتيا ، وكان يسكن جنوب روسيا الحالية (م)

(**) اللوياثان هو مسخ في الميثولوجية الفينيقية ، مرّ الحديث عنه ايضاً في التوراة ، ولا سيما في سفر أيوب ، وورد في رؤ يا اشعيا كالقدرة الوثنية التي يجب ان تخضع ليهوه (م).

(***) نسبة الى القرون الوسطى (م).

الحجري ، تنوعاً لا يصدق من النماذج الثقافية وهيأت لمجيء عهد جديد تماماً . « فالاتحادات المهنية ، والجمعيات التجارية ، والبلديات ، والجامعات ، والجمعيات الاكاديمية ، والانتخابات ، والزّياحات ، والاعياد ، وحتى المشاغبات علمت الشعب شيئاً فشيئاً كيف يتدبر أموره بنفسه . تمكنت الشخصية الانسانية من النمو في جو كهذا ، شخصية بورجوازية بالتأكيد ، لكن شخصية رغم كل شيء ، ولم يكن الانسان ذلك الكلب الذي يروضه أول دركي قادم برفسات من رجله أو بضربات هراوة . » . لم يكن على الطبقة الثالثة ، فيما تنمو وتتعاظم ، إلا ان تمد الى الأمة والدولة كلها العلاقات الانسانية والعادات الديمقراطية على مستوى الاتحادات المهنية . ان شيئاً من ذلك لم يحدث في روسيا ، فالمدن ، وهي « زوائد فطرية حقيقية ، عسكرية واقطاعية ، في الريف الروسي » ، لم تخلق أية بيئة مولدة للتقدم البورجوازي . ففي ظل بطرس الاكبر ، كانت الشرطة هي التي تتولى الاهتمام بالاتحادات المهنية ، ولا نرى كيف يمكن لحضارة مدينية أصيلة ان تولد تحت هذه الوصاية . وبالاضافة الى طبقة نبلاء اقطاعية بقيت متخلفة ، لم يكن في روسيا اذاً غير بورجوازية بائسة ، لم تتوصل بعد لتكون جديرة بالديمقراطية .

إلا ان الدولة كانت بحاجة لأناس متعلمين ، مثقفين ، إذاً متأوربين ، لكنها كانت تخشاهم . هكذا عمم القياصرة على الانتلليجنسيا تعليماً اجبارياً ، الا انهم ما انفكوا يهددونها بالسوط . « لم تكد العناصر الشابة من الفئات الاجتماعية القديمة . . . تدخل الى عالم الثقافة الاوروبية المشمس ، حتى قطعت صلاتها بالاقطاع والتراث ، من دون مقاومة داخلية تقريباً ، وبشكل جارف » . وأدى ذلك بالانتلليجنسيا الروسية الى الدفاع عن ابسط حقوقها بالوسائل الاكثر تطرفاً والأكثر ايذاء . « كانت تلك دعوتها التاريخية . . . أن تستخدم الساعات لتدق مسامير في الجدران » . كان على الروسي ان يغدو داروينياً ليبرر ارادته الزواج بامرأة يختارها ، وأن يتذرع بمثل أعلى ثوري ليبرر شغفه بالعلم ، وبالاشتراكية اذا أراد الدستور . الا انه رغم تطرف الانتلليجنسيا الروسية لم تفعل اكثر من تقليد الغرب ، فتبنت انظمته ومذاهبه وبرامجه الجاهزة . وفي مقطع يجور كثيراً على الفكر والادب الروسيين في القرن الحادي عشر ، اللذين يصفهما تروتسكي بالبدائل العفنة ، يخلص الى القول : « لقد فشل الفكر الاجتماعي الروسي الى الآن في أن يدخل ، ولو من الباب الصغير ، تاريخ الفكر البشري الشامل . ويا لها من تعزية ضئيلة لعزتنا القومية . . . ليست الحقيقة التاريخية رفيقة الكبرياء القومية . . . فلتوظف عزتنا المستقبل عوضاً عن الماضي ! » .

ان الانتلليجنسيا الروسية المكرهة على صراع مرير بقيت منعزلة وسط الأمة ، ولم

تتلق أي عون من الطبقات الاجتماعية الرئيسية. ولقد كيفتها عزلتها. ردت « على توترها الأدبي الرهيب بزهد مفرط » ؛ ولم تحصل على رباطة الجأش والاستقرار إلا لقاء الكفاف الفكري ، « والتعصب الايديولوجي ، بالانحصار في حدود عديمة الشفقة وضيقة ، بالانقطاع عن الناس في الحذر والشك ، وفي النقاوة الأكثر توسوساً . . . » ، أي لقاء امتثالية في التمرد لم تكن في يوم من الأيام غير قفا الامتثالية الرسمية . هكذا كبر « ذلك الحماس للحَرْفية ، الذي نعثر عليه احياناً لدى اكثر المثقفين تطرفاً » . وكان من سوء حظ الانتلليجنسيا انها وجدت نفسها تعمل دائماً كوكيل للشرائح الاجتماعية الجامدة والمتخلفة . ويحلل تروتسكي عند ذلك ، ضمن منظور تاريخي واسع ، ظاهرة « الاستبدالية » (تبادل الأدوار) التي سبق وتكلم عليها ابان مجادلته ضد لينين في عام ١٩٠٤[٢٠] . غدا يقول الآن ان « الاستبدالية » ظاهرة ثابتة في التاريخ الروسي . فقادة الانتفاضة الديسمبرية(*) عام ١٨٢٥ كانوا يدافعون عن ايديولوجيا بورجوازية لا تزال جنينية ، وأراد النارودنيون الكلام باسم طبقة فلاحين صماء ، بكماء ، وفي الاخير طرح المثقفون الماركسيون أنفسهم كلسان حال بروليتاريا صناعية ضعيفة كانت لا تزال تحبو . وبالنسبة لكل اولئك المثقفين ، كانت فكرة الطبقة تهم اكثر من الطبقة بالذات . هذه اللوحة القاتمة كانت تنتهي بنغمة أقل تشاؤماً . فثورة ١٩٠٥ - يقول تروتسكي - سجلت نهاية « الاستبدالية » ، لأنها حركت الطبقة العاملة ، ولأن هذه الاخيرة لم تعد منذ ذلك الحين بحاجة لأن يعمل احد باسمها[٢١] .

وسنرى لاحقاً ، اذا كان لهذه الخلاصة المتفائلة ما يبررها ، او الى أي حد لها ما يبررها . ولقد عاثت الاستبدالية من جديد فساداً ، وبقوة لا سابقة لها بعد الثورة ، وأصبحت فكرة الطبقة تهم عندئذٍ اكثر بكثير من الطبقة بحد ذاتها ، وذلك لزمن طويل . ومن جديد ستظهر بعد الثورة ، بصورة لا تقاوم ، ثوابت اخرى في التاريخ الروسي ، حددها تروتسكي بالكثير من التحكم . وما يهم أن نشير اليه ، في النقطة التي وصلنا اليها من سيرتنا ، انما هي الحدة القصوى التي عارض تروتسكي بها « عالم الثقافة الاوروبية المشمس ، « الاقواس والسهام القوطية » ، « دانتيلا » « الحضارة الغربية بـ « الكوخ من جذوع الصنوبر » الخاص بالتاريخ الروسي . كانت المفارقة عنيفة للغاية ، واذا كان للتاريخ ان يبررها ، فالماضي القريب والحاضر يظهران تطرفها . ان دانتيلا الحضارة

(٢٠) انظر الفصل ٣ .

(*) الحركة الديسمبرية حركة ثورية روسية نشأت في الربع الأول من القرن الماضي في مواجهة الاستبداد القيصري (م)

(٢١) تروتسكي ، سوش . ، ج ٢٠ ، ص ٣٢٧ - ٣٤٢

الاوروبية لما قبل ١٩١٤ كانت تخفي في الواقع بذوراً مشؤومة من التفكك سوف تؤدي الى الحروب العالمية ، وانفجارات الفاشية والنازية ، وفساد الحركات العمالية الاوروبية الغربية وشللها . من جهة اخرى ، لا يعطي القوى الخلاقة ، التي كانت تفعل فعلها في روسيا القرن الحاضر والقرن الذي سبقه ، حقها ، مع أن هذه القوى بالذات هي التي شكلت شخصيته وكانت مادة عمله الاولية . ويبدو أن تروتسكي نظر احياناً الى روسيا الحاضر والماضي كفراغ كبير . وهنا يكمن ضعف دعوته الى الأوربة ، ومن هنالك يأتي خلل موقفه حيال البلشفية . ان قوة لينين تكمن في انه كان يأخذ الواقع الروسي على حقيقته ، وفي ان ذلك الواقع بالذات هو ما كان يريد تغييره . كان لحزب لينين جذور عميقة في الأرض الروسية ، وقد اخذ من تلك الأرض كل ما يمكن ان تنطوي عليه من القدرة والحدة الثوريين ، من القوة الفجة والفظة ، كل تلك الشجاعة العظيمة القادرة على هز العالم . لقد كان للبلشفية مفكروها ، لينينوها وبوخارينوها وغيرهم ممن استمدوا من الاشتراكية الاوروبية كل الجوهر الذي يمكن لروسياهم - كما كانت في الواقع - ان تستفيد منه ، وكان لها كذلك رجال لجانها ، ولجانيوها ، وستالينوها ، الذين اشتغلوا في اعماق بروليتاريا نصف اوروبية ، نصف آسيوية ، ولم تكن الأوربة تعني لهم شيئاً كثيراً .

* * *

لم يكن في وسع تروتسكي ان يتخلى عن « الكوخ من جذوع الصنوبر » المتواضع العائد لشعبه ، وهو لم يتخل عنه . ففي تشرين الاول / اكتوبر ١٩٠٨ تولى ادارة صحيفة صدرت في فيينا بعنوان البرافدا . كانت تلك جريدة صغيرة اصدرها منذ عام ١٩٠٥ رهط صغير من المناشفة الاوكرانيين ، يحملون اسم سبيلكا . وكانت الصحيفة تنهار ، فانعقدت الآمال على تروتسكي ليعيدها الى الحياة . وقد حملت الاعداد الاولى التي ظهرت بادارة تروتسكي اسم المجموعة الاوكرانية ، لكن حين تفتتت المجموعة في نهاية عام ١٩٠٨ بقي تروتسكي المتحكم الوحيد بالبرافدا . لكن لما كان ينقصه المال ، لم تكن الجريدة تصدر بانتظام ، فخلال السنة الاولى لم تظهر غير اعداد خمسة وحسب[٢٢] . لكن كان أسهل بكثير اصدار جريدة من نقلها سراً الى روسيا . وغالباً ما كانت هيئة التحرير توجه النداء الى كرم قرائها ، شارحة كيف أن « احمالا ثقيلة » من الجريدة تنتظر على الحدود ، ولا يمكن

(٢٢) كان ذلك قدر كل منشورات المهاجرين في تلك الفترة ، التي كان معظمها يظهر بصورة اكثر ندرة . ن . بونوف . التاريخ العام للحزب الشيوعي السوفياتي ، ج ١ ، ص ٢٢٣ . ويشار الى برافدا تروتسكي عموماً باسم البرافدا الفيينوية ، تمييزاً لها عن البرافدا البلشفية التي تأسست بعد ذلك بزمن طويل ؛ فلقد ظهرت الاولى في لفوف ، في البدء ، في غاليسيا النمساوية ، ولم يظهر العدد السادس منها ، الذي نشر في فيينا ، الا في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٩ .

تسييرها بسبب الحاجة الى ٥٠ روبلاً ، وأن مخطوطات العدد القادم تنتظر على مكتبها ولا يمكن ارسالها الى الطابع لقلة المال ؛ وأن البرافدا تجد نفسها مكرهة على وقف مراسلتها لقرائها في روسيا لعجزها عن تغطية تكاليف الطوابع[٢٣] . كان تروتسكي يضع في صندوق صحيفته كل ما تعود عليه به اعماله الصحفية الاخرى ؛ ولقد باع كتبه ، واضطرت امرأته للجوء الى مُقرض لقاء رهون من اجل ان تتمكن اعداد البرافدا من اجتياز الحدود . أو كانت تقدم اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الالماني القوي ألفاً من الروبلات فيغدو بالامكان دفع بعض الديون ، وتستعيد السيدة تروتسكي الاغراض التي رهنتها ، ويؤمن نشر الجريدة نصف الشهري . ثم عادت المسافات بين الاعداد تطول ، وأصبح نصف الشهري شهرياً ، ثم شبه فصلي . ومن جديد تحسن الوضع المالي ، مؤقتاً ، بفضل هبة متواضعة من الاشتراكيين الليتوانيين ، وبعض الدفعات من قراء أمناء . وعبثاً حاول تروتسكي طوال عام ١٩٠٩ ان يحصل على مساعدة من اللجنة المركزية الروسية التي كان البلاشفة فيها اكثرية . فلقد وافق لينين ، لكن شرط ان يشارك في ادارة الصحيفة مندوب من اللجنة المركزية ، وهو ما رفضه تروتسكي . وحظر لينين على المطبعة البلشفية في جنيف ان تطبع الصحيفة إلا على اسس تجارية بحتة[٢٤] . ورغم كل تلك الصعوبات المالية ، وعدم انتظام ظهور البرافدا ، فقد لقيت تجاوباً في روسيا ، وتتحدث تقارير للأوخرانا عن « سعة انتشارها »[٢٥] .

أما محررو البرافدا فكانوا يشكلون فريقاً مثيراً . فسكوبيليف ، وهو طالب شاب كان يومذاك تلميذ تروتسكي المفضل ، كان يعمل كسكرتير للجريدة ، وقد اصبح فيما بعد نائباً منشفياً في الدوما الرابعة وشغل في عام ١٩١٧ منصب وزير للعمل في حكومة كيرنسكي . وكان ذراع تروتسكي الايمن سيمكوفسكي ، المنشفي هو الآخر ، الذي غالباً ما ظهر اسمه يومذاك بمناسبة المجادلات ، داخل الحزب . وقد تعاون مع الجريدة ايضاً ريازانوف ، المؤسس اللاحق لمعهد ماركس ـ انجلز ، المتمرد بشراسة على كل سلطة والذي لم يكن ينتمي لأي من الجناحين ؛ وكان صديقاً حميماً لتروتسكي . وكان اورينسكي يؤمن الاتصال السري بروسيا ، وهو منشفي قديم شهرته شجاعته البالغة في السجون القيصرية ؛ وفي عام ١٩١٧ كان اوريتسكي بين المنظمين الرئيسيين لانتفاضة اوكتوبر ، وهو الذي صرف الجمعية التأسيسية بصفته مفوضاً خاصاً . وكان يضم الفريق كذلك

(٢٣) برافدا ، العددان ٣ و ٥ .

(٢٤) لينين ، سوش ، ج ٣٤ ، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .

(٢٥) بولشفيكي ، دوكومنتي اوكرانوفو او تديلينيا ،ج ١ ، ص ٤٢ .

المنشفي فيكتور كوب الذي اشتهر فيما بعد كدبلوماسي داهية ومغامر : فهو الذي فاوض في عام ١٩٢٢ ، وراء الكواليس بخصوص معاهدة راباللو الجرمانية ـ الروسية ، وتحرى لستالين ، سراً ، في الثلاثينات حظوظ اتفاقية مع هتلر .

إلا ان الوجه الاكثر فرادة في هذه الثريا فكان أدولف يوفي . وكان يوفي شاباً ومثقفاً لامعاً من أصل كارايتي[٢٦]، يعاني من اصابة عصبية ، فيقسم وقته بين اعماله الجامعية وتحريره في البرافدا ومتابعته للاستشفاء النفسي . وقد قدم يوفي تروتسكي لمحلله النفسي ، الفرد ادلر . وهكذا تآلف تروتسكي مع التحليل النفسي وتوصل الى استنتاج أن ماركس وفرويد لم يكونا متباعدين الواحد عن الآخر بقدر ما كان يميل الماركسيون للاعتقاد[٢٧] . وفي فيينا ، خاض يوفي صراعاً يائساً ضد نوبات متكررة من النوراستينيا ، وكانت المقالات التي يكتبها وهو يبذل جهداً أليماً تعيد كتابتها بعمق هيئة تحرير الجريدة . وقد بذل تروتسكي كل ما في وسعه ليحيط يوفي بصداقته ويعيد ثقته بذاته . وفي عام ١٩١٧ ، كان يوفي بين قادة ثورة اوكتوبر ، ولعب دوراً اساسياً في المفاوضات التي ادت الى سلم برست ـ ليتوفسك . وقد اشار تروتسكي في اوراقه الخاصة الى ان الثورة « فعلت اكثر بكثير مما فعله التحليل النفسي لتحرير يوفي من عقده »[٢٨] . وقد رد يوفي على صداقة تروتسكي بإخلاص ومودة لا حدود لهما . وحين انتحر في عام ١٩٢٧ ، كان ذلك احتجاجاً على طرد تروتسكي من الحزب البلشفي .

وحاصل الكلام ، أن البرافدا لم تكن واحداً من مشاريع تروتسكي الصحفية الكبرى . كانت تزعم أنها تتوجه لـ « العمال البسطاء » اكثر مما لرجال الحزب المكونين سياسياً . كانت تقول انها تريد « أن تخدم لا أن تقود » قراءها[٢٩] . ان لغة **البرافدا** البسيطة ، ودعواتها لوحدة الحزب أمنت لها نوعاً من الشعبية ، لكن لم تضمن لها نفوذاً سياسياً دائماً . فمن يدافعون عن تكتل أو مجموعة ينساقون عموماً للجوء لمحاجّة معقدة الى هذا الحد أو ذاك ، مخصصة للكادرات الوسطى والعليا في الحركة أكثر مما لمناضلي القاعدة . اما اولئك الذين يقولون ان على الحزب تخطي انقساماته الداخلية وإعادة رص صفوفه ، فإنما يدافعون ـ كما كانت الحال مع تروتسكي ـ عن قضية شرحها اسهل وتأثيرها أضمن ـ

(٢٦) كان الكارايتيون بدعة انفصلت عن اليهودية الحاخامية في العصر الوسيط لتعود الى التراث الانجيلي الصرف .

(٢٧) بعد الثورة ، طلب تروتسكي من الباحثين البلاشفة ان يبقوا منفتحين على ما يمكن ان يكون هنالك من جديد وغني في الفرويدية . سوش . ، ج ٢١ ، ص ٤٢٣ ـ ٤٣٢ .

(٢٨) محفوظات تروتسكي .

(٢٩) برافدا ، العدد ١ .

الا ان نجاحهم هو في معظم الوقت سطحي . بينما لكون معارضيهم عرفوا كيف يكسبون كادرات الحزب بمحاجّتهم الاكثر تعقيداً ، لديهم حظ كبير بأن يتوصلوا لكسب جمهور المناضلين أيضاً ، ذلك ان الكادرات تكيّف المحاجة وتبّسطها فتمكن هكذا من نشرها في صفوف القاعدة . ان ندءات تروتسكي لوحدة كل الاشتراكيين صفق لها في لحظة توجيهها الكثيرون . وفي بطرسبورغ ، حتى البلاشفة اعادوا طبع البرافدا . لكن هؤلاء بالذات الذين كانوا يصفقون لها اليوم ، كان يمكن ان يتخلوا عنها فيما بعد ليتبعوا هذا الجناح أو ذاك ، بحيث يغدو بطل الوحدة متوحداً . ومهما يكن ، فقد كان في موقف تروتسكي ، وفي اهتمامه بـ « اللغة البسيطة » ، وفي تعهده بأن « يخدم لا أن يقود » ، اكثر من شبهة ديماغوجية ؛ ذلك ان قائداً سياسياً ، لا بل قائداً ثورياً ، « يخدم » من يصغون اليه افضل حين « يقودهم » .

كان تروتسكي يعبر اكثر من أي شخص آخر عن عاطفة شائعة جداً في الحزب ، ربما كان افضل تحديد لها انها استهوال الانشقاق الذي لا دواء له . وفي كانون الثاني / يناير ١٩١٠ ، اجتمع قادة التكتلين في باريس وحاولوا للمرة الاخيرة ان يتجاوزوا خلافاتهم . ومن الجانبين كان هنالك اناس عازمون على المضي الى النهاية ، اي الى حد القطيعة ، لكن كان المعتدلون ، في الجانبين ، هم الذين انتصروا للوهلة الاولى . كان رجال الساعة في صفوف البلاشفة ، يدعون ريكوف ، سوكولنيكوف ، لوزوفسكي ، كامينيف[٣٠] . ومن الجانب الآخر ، جعل تروتسكي من نفسه بطل الوحدة وأفشل مارتوف ، الذي شرح فيما بعد ظروف انصياعه قائلاً انه اذا حدث ذلك فلأن المناشفة كانوا ضعيفين جداً بحيث ما كان في وسعهم المغامرة بقطيعة فورية[٣١] . وتم التوصل الى اتفاق جميل جداً فلا يمكن ان يكون حقيقياً . وافق التكتلان على حل منظماتهما الخاصة بهما ، وعلى الاندماج ، بحيث يتخلص كل منهما من متطرفيه ، المناشفة من تصفوييهم ، والبلاشفة من مقاطيعهم ؛ والتزم التكتلان ايضاً بإيقاف منشوراتهما المنفصلة وجعل مواردهما المالية مشتركة ووضعها بادارة لجنة من ثلاثة اشتراكيين المان هم كارل كاوتسكي وفرانز مهرينغ وكلارا زتكين . وقد استحق تروتسكي المدائح التي تخصص في مناسبة مماثلة للوسيط السعيد . واعترفت اللجنة المركزية رسمياً بالخدمات التي قدمتها جريدته ، **البرافدا** ، للحزب بمجمله « بغض النظر عن التكتلات » ، وقررت بأن تغطي الجريدة بما لها من سلطة ، وتصرف لتروتسكي معونة منتظمة (١٥٠ روبلاً في الشهر) وتقدم له دعمها الكامل في كل الحقول . جرى تعيين

(٣٠) ن . بوبوف ، المرجع المذكور ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .
(٣١) مارتوف ، سباسيتلي ايلي اوبرازدنيتلي ، ص ١٦ .

البلشفي كامينيف ، قريب تروتسكي بالمصاهرة ، ممثلاً للجنة المركزية لدى البرافدا . وقد توخت بهذا الخيار تسهيل التعاون لأن كامينيف كان من اولئك الذين جاهدوا بإخلاص لإنجاح وحدة الحزب .

ويمكن ان نتخيل بسهولة بأي فرح نشر تروتسكي كل تلك الانباء في البرافدا[٣٢] . الا انه لم تمر اسابيع حتى كان عليه ان يعلن فشل محاولة المصالحة ، نتيجة لخطأ المناشفة (وقد اعترف بذلك) الذين رفضوا حل تكتلهم . ولم يكن في وسعه ان يفاجأ بذلك ، لأنه استطاع ادراك نفور المناشفة العميق من التفاهم مع البلاشفة الذين اوقفوا ، من جانبهم ، اصدار صحفهم . وقد كان يمكن ان نفكر بأن تروتسكي بطل الوحدة ، انتفض بالمناسبة ضد اولئك الذين كانوا يجعلونها مستحيلة . الا انه « علق حكمه » في البرافدا واكتفى بالتلميح بأنه يستنكر سلوك المناشفة[٣٣] . وعبثاً حاول كامينيف دفعه لتبني موقف اكثر حزماً . فلقد اعتبر تروتسكي ان هذا التدخل يسيء الى استقلاله كرئيس تحرير ، ويهدف الى تسخير البرافدا للمصالح البلشفية . تبع ذلك انفجار خصومات حتمية ، واضطربت كل جالية المهاجرين بالمكائد في الحال .

وكان تقرر في مؤتمر باريس التداولي(*) التخلص من الجناحين المتطرفين في الحزب ، أي من التصفويين والمقاطعين فالتزم المناشفة بطرد الأولين ، والبلاشفة بنبذ الآخرين . وقد تمكن لينين من الوفاء بالتزاماته بسهولة ، عن طريق طرد المقاطعين الرئسيين ، بوغدانوف ولوناتشارسكي . أما المناشفة فاعتبروا من المستحيل الوفاء بتعهداتهم ، ذلك ان موقف التصفويين كان شائعاً للغاية في صفوفهم فلا يمكن التنصل منه جدياً . فطرد الذين وقفوا في وجه النضال السري كان يعني القضاء ببساطة على نفوذهم الخاص بهم وتشجيع صعود البلاشفة ، وهو ما رفضوه ، فانطرحت المشكلة حينذاك بالشكل التالي : من عارضوا العمل السري ـ قال البلاشفة ـ لا مكان لهم في حزب يتوقف مستقبله على هذا النوع من العمل ، أما المناشفة ـ وعلى الأقل من كانوا مناهضين للتصفوية ـ فكانوا يجيبون بأن على الحزب أن يسمح ببقاء خلافات في الرأي في داخله . ولم يعد لينين النظر في المبدأ العام القائل بوجود معارضة داخل الحزب ، لكنه رد فقط بأن هذا الخلاف الخاص لا يمكن التساهل حياله ، لأن معارضي العمل السري لا يمكن ان يكونوا مناضلين سريين

---

(٣٢) البرافدا ، العدد ١٠ .

(٣٣) البرافدا ، العدد ١٢ .

(*) المؤتمر التداولي ، أو الكونفرنس اجتماع واسع يشبه المؤتمر الحزبي ، لكن لا تصدر عنه قرارات الزامية تتعلق بخط الحزب (م) .

جيدين . ولأن هذا النزاع كان يمكن اعتباره ، بمعنى ما ، نزاعاً بين انصار الانضباط والمدافعين عن حق المعارضة ، فقد انحاز تروتسكي ضد الأولين ، وهو ما ساقه على طريق الانعدام الواضح للمنطق . فلقد أغمض عينيه ، هو، بطل الوحدة ، عن الانقسام الجديد في الحزب الذي يتحمل المناشفة تبعته ؛ وذلك باسم حرية المعارضة . هو الذي كان يمجد السرية بحماس جدير ببلشفي ، مد اليد لمن كانوا ينوون التخلص من العمل السري كما من رزمة مربكة وخطرة . وفي الاخير ، ان العدو اللدود لليبرالية البورجوازية وقف في الخندق ذاته الذي كان يقف فيه المنادون بالتحالف مع الليبرالية ضد المعارضين الشرسين لتحالف من هذا النوع .

ان موقفاً مشحوناً بالتناقضات الى هذا الحد لم يحمل الى تروتسكي سوى الكبت وخيبة الأمل . فمرة أخرى بدا للبلاشفة اكثر من معارض ، بدا عدواً غير شريف ، بينما المناشفة ، الذين اغتبطوا بمواجهة لينين برجل له ماضي تروتسكي ، كانوا يعتبرونه حليفاً غير موثوق . ان ارتباطه القديم والوثيق بمارتوف جعله يغلق عينيه ، اكثر من مرة ، على بعض الضربات الصادرة عن المناشفة والتي لم يكن يمكن الا ان يرى البشاعة فيها والمقت . ان خصومته القديمة والحادة مع لينين كانت تجعله يتفحص السياسة البلشفية بدقة بالغة ويضع اصبعه على كل نقاط الضعف . وكان ينفجر ضد اللينينية علانية بسخريته الجارحة كالعادة . أما مآخذه على المناشفة فكان يكشفها بوجه خاص في النقاشات الجانبية أو في رسائل « التقريع » ، التي كان يقصف بها مارتوف وأكسلرود . وكان ينتج عن ذلك ان موقفه الجانبي كان يختلف بشكل محسوس عن موقفه العام . وكلما كان هذا الوضع يطول كلما كان تروتسكي يصبح اسيراً لمارتوف . ومراسلة مارتوف معبرة بهذا الصدد ، فلقد كتب بصدد نزاع ما :

« أجبته (الضمير عائد لتروتسكي) في رسالة يتراجع الغضب فيها لصالح السخرية ، مع اني لم أوفّر اعتداده بنفسه . قلت له ان من المستحيل التخلي عن التصفويين والتخلي عنا نحن ، لأنه لا يدافع عن حق التصفويين بالبقاء في الحزب بدافع من الشهامة . . . ، بل انطلاقاً من حساب ، حساب صحيح ، لأن لينين ينوي ابتلاع كل الاشخاص المستقلين ، وتروتسكي من بينهم ، مثله مثل التصفويين »[٣٤] .

وكتب مارتوف لآخر : « ان منطق الاشياء يسوق تروتسكي الى طريق البلشفية ، رغم كل مرافعاته المعللة لصالح الجمع بين المنشفية والبلشفية . . . وهو لم يجد نفسه في

---

(٣٤) بيسما أكسلرود اي مارتوف ، ص ٢٣٠ .

معسكر التصفويين وحسب ، بل اكثر من ذلك ، لقد انساق الى ان يتبنى ضد لينين الموقف الاكثر « عدوانية » . ان تلامذته . . . يأسفون لذلك اشد الأسف »[٣٥] .

وفي صيف ١٩١٠ ، قطع تروتسكي كل علاقة له باللجنة المركزية . كان كامينيف غادر البرافدا بعد أن طلب تروتسكي الى اللجنة المركزية تعيين ممثل آخر . فسحبت اللجنة المركزية التزامها بمساعدة الجريدة مالياً[٣٦] . وكان لينين ، لا مارتوف ، هو الذي يبادر الآن الى تحطيم وحدة الحركة . وقد ندد تروتسكي بـ « مؤامرة زمرة المهاجرين (البلاشفة) ضد الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الروسي » ، مضيفاً ان « حلقة لينين التي تسعى لتضع نفسها فوق الحزب ستنتهي بحيث تجد نفسها خارجه »[٣٧] . وشن تروتسكي حملة في الصحافة الاشتراكية الالمانية ، حيث اكد انه ما من قائد بين القادة المهاجرين يمثل حقاً الحركة الروسية التي كانت ترغب في الوحدة بحرارة وتغتاظ من خصوماتهم . وكان ذلك هو الرأي العام لدى المناضلين السريين في ذلك الحين . فستالين كان يعرض في القوقاز وجهة نظر شبيهة للغاية[٣٨] . إلا أن مقالات تروتسكي أحدثت جلبة بين مندوبي الحزب الذين اجتمعوا في كوبنهاغن في تشرين الاول/ اوكتوبر ١٩١٠ للمشاركة في مؤتمر الأممية . طالب بليخانوف ، يدعمه لينين ، بعقوبة ضد تروتسكي ، الذي دافع عنه لوناتشارسكي وريازانوف . وقد نجا المتهم من أي ادانة . حتى موجهو الاتهام اليه وجدوا من العسير التنديد به بسبب رأي عبر عنه في الصحف الالمانية « الشقيقة » .

وقد أدت الخصومة الى حوادث هزلية ، ومن بينها واحد يستحق ان نرويه . حاول التكتلان استعادة الاموال التي سلماها للوكلاء الألمان ، لكن لا هذا ولا ذاك كان قادراً ، لسبب من الأسباب ، على تقديم حجة مناسبة . وخلال صيف ١٩١١ ، ذهب اكسلرود وتروتسكي الى يينا حيث كان ينعقد مؤتمر للاشتراكيين ـ الديمقراطيين الألمان ، للقيام بمسعى باسم المناشفة لدى المديرين الثلاثة للأموال[٣٩] . وكان تروتسكي يأمل طبعاً بإنهاض مالية البرافدا ، حتى لو اضطر لأجل ذلك لأن يساعد المناشفة على انهاض

---

(٣٥) المرجع ذاته ، ص ٢٣٣ .

(٣٦) البرافدا ، العدد ٢٠ ، لينين ، سوش . ، ج ١٦ ، ص ٣٦٠ .

(٣٧) البرافدا ، العدد ٢١ .

(٣٨) ستالين ، سوش . ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ـ ١٥٨ ، إ . دويشتر ، ستالين ، ص ١٠٤ ـ ١٠٦ .

(٣٩) في حياتي ، يروي تروتسكي انه كان سيتكلم في المؤتمر على القمع القيصري ضد الفنلنديين . لكن خلال المؤتمر وصل نبأ اغتيال ستوليبين في كييف على يد باغروف ، وهو عميل استفزازي . وقد خاف الألمان أن يؤدي حضور الثوريين الروس الى تعقيدات دبلوماسية وتدابير قمع ، وطلب بيبل من تروتسكي التراجع عن القاء خطابه .

ماليتهم . وقد نظر كاوتسكي بعطف ظاهر الى التماسهم ، إلا ان موقف الآخرين كان متردداً ، ولا سيما موقف كلارا زتكين التي كانت استعداداتها تجاه البلاشفة ودية للغاية . فالتقى أكسلرود وتروتسكي كاوتسكي في سر مطبق . وكتب أكسلرود لمارتوف : « انتظر كـ (اوتسكي) حتى الثلاثاء ليجد مناسبة يبلغنا فيها ، ت (روتسكي) وأنا ؛ أن علينا الاجتماع نحن الثلاثة في لقاء خاص تمهيدي . . . » وقد اختار هاز مكاناً للقاء ، مطعماً يصعب التقاء مندوبين آخرين فيه ، لا سيما من على علاقة وثيقة بزتكين ولوكمسبورغ . . . وفي الغد ، بعد ان تكلم كـ (اوتسكي) مع ز (تكين) عن اجتماع معنا ، طلب هو وهاز منا ألا نشير امام ز (تكين) الى حديثنا . . .[٤٠] ومن سخرية القدر ان الجزء الأكبر من المال كان مصدره عمليات السطو والمصادرات البلشفية ، أي الأعمال التي أدانها تروتسكي والمناشفة بقدر كبير من الاستنكار . الا ان المناورة الدقيقة الهادفة لمصادرة اموال البلاشفة بمساعدة المدير الالماني الرئيسي فشلت كلياً وغادر صاحبانا المانيا من دون الجزّة الذهبية .

وفي بداية عام ١٩١٢ بالذات حصل الانشقاق النهائي ، أعلن لينين في مؤتمر براغ التداولي ان التكتل البلشفي هو الحزب[٤١] . وقد تجمع المناشفة وبعض الجزر الصغيرة المتناثرة من البلاشفة في لجنة تنظيمية بغية افشاله . وفي البرافدا ندد تروتسكي بالكثير من الضجة والغضب بمناورة لينين[٤٢] . ولم يعد سخطه يعرف حدوداً حين بدأ البلاشفة في نيسان / أبريل ينشرون في بطرسبورغ جريدة يومية باسم البرافدا . كان ذلك انتحالاً مكشوفاً ، يستهدف بشكل واضح تحويل قراء جريدة تروتسكي لصالح البلاشفة . وقد أرغى الاخير وأزبد ضد « السرقة » و « الاغتصاب » اللذين اقترفتهما « الحلقة التي تتعارض مصالحها مع حاجات الحزب الحيوية ، الحلقة التي لا تعيش وتزدهر إلا في الخواء والتشويش » . وأنذر الناشر البلشفي بتبديل اسم جريدته قبل تاريخ محدد ، وكان الطلب مشحوناً بالتهديدات : « اننا ننتظر الجواب بهدوء ، قبل المبادرة الى اجراءات أخرى »[٤٣] . ويبدو انه ارسل انذاراً مشابهاً مباشرة الى هيئة تحرير الجريدة البلشفية . ولم يكن يشتبه اطلاقاً بأن الرجل الذي اطلق في بطرسبورغ الجريدة المنافسة واصدر عددها الاول كان بلشفياً ، لا يزال مغموراً ، يحمل اسم جوزف دجوغاشفيلي . هذا الاخير سوف يسلبه بطريقة مماثلة ، لكن القاباً أهم بكثير من لقب مدير للبرافدا ، من مثل لقب قائد للثورة ومؤسس للجيش الاحمر .

---

(٤٠) بيسما اكسلرودا أي مارتوفا ، ص ٢١٧ ، لينين ، سوش . ج ١٨ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٤١) شارك في المؤتمر التداولي تجمع منشفي صغير بقيادة بليخانوف ، علاوة على البلاشفة .

(٤٢) البرافدا ، العدد ٢٤ .

(٤٣) البرافدا ، العدد ٤٥ ، (منذ الآن ، تعني الاستشهادات بالبرافدا الجريدة البلشفية ، الا في حال الاشارة الى العكس) .

لكن من الخطأ تحميل ستالين وحده مسؤ ولية الانتحال ، فلينين أيده دون تحفظ . كتب الى بطرسبورغ يقول : « انصحكم بأن تردوا على تروتسكي كالتالي ، في زاوية : اجوبة عن اسئلة القراء : « الى تروتسكي في فيينا : لن نرد على رسائلك المتضمنة مماحكات سافلة »(٤٤) . ويمكن ان نحزر بسهولة كيف برر لينين لنفسه هذا الانتحال . فاللجنة المركزية كانت قد قدمت العون المالي للبرافدا ، لذا اصبح اسم الجريدة وزبائنها للحزب لا لتروتسكي ، وبما أن البلاشفة هم الحزب ، فهو مخوّل استعادة اسم الجريدة . وكان ذلك عذراً هزيلاً ، لا سيما ان خصومات مماثلة كانت تتم في كل مجموعات المهاجرين . اما تروتسكي فهدد باتخاذ تدابير ثأرية ، لكن يبدو انه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وتوقف عن نشر البرافدا ، الخاصة به ، بينما انطلقت جريدة البلاشفة ، باسمها المسروق ، في مسيرة طويلة ومهيبة . وفي عام ١٩٢٢ حين مرت عشر سنوات على اصدار البرافدا ، احتفل تروتسكي بهذه الذكرى السنوية وكتب مقالاً لم يلمّح فيه اطلاقاً الى اصل الجريدة .

* * *

اذا كان غدا بإمكان الاشتراكيين ان ينشروا الآن بشكل مكشوف جرائد في بطرسبورغ (كان المناشفة يصدرون **لوش ـ الشعلة ـ** التي كان تروتسكي بين المتعاونين معها)، فلأن الوضع السياسي في روسيا تبدل الى حد بعيد . فسنوات الردة انتهت ومات الارهاب من الانهاك . كانت الحركة العمالية في ذروة الانبعاث وكان على القيصرية أن تتلاءم مع هذا الواقع شاءت أو أبت . فجيل جديد من الثوريين كان يدخل الحلبة ويلتحق بشكل كثيف بنوادي العمال والنقابات المسموح بها ، كما بالمنظمات السرية . وقدم تطور الوضع للقياديين حججاً جديدة . أكد التصفويون ان تسامح الحكومة المتنامي كان برهاناً على امكانية أوربة الحزب واخراجه من اقبية العمل السري . وطالما كان الارهاب مهيمناً بدا موقفهم طوباوياً ، بينما كان يستند الآن الى وقائع . إلا ان الانبعاث السياسي بث كذلك قوة جديدة في التنظيم السري وكان الثوريون الشباب ينخرطون فيه يومذاك لأنهم كانوا يعتبرون مظاهر المعارضة الحذرة ، التي كانت الشرطة تسمح بها على صعيد الجمعيات والنقابات الشرعية ، غير كافية . أما الحكومة فكانت مستعدة لاحترام أشكال المعارضة الشرعية بقدر ما كانت تخشى الأشكال غير الشرعية . وهذا الوضع كان يقدم للبلاشفة حجة قوية . فكانوا يقولون : علينا تكثيف عملنا السري ، إن لم يكن لشيء فللتصرف بحرية على صعيد العمل الشرعي(٤٥) .

(٤٤) لينين ، سوش . ، ج ٣٥ ، ص ١٧ .

(٤٥) ف . دان ، برويسخوزدني بولتسفيسما ، ص ٤٤٠ ـ ٤٤٢ .

ضمن هذا الوضع انطلق تروتسكي مجدداً يلاحق خرافة الوحدة ، فأقنع لجنة التنظيم بأن تدعو في فيينا الى مؤتمر تداولي لكل الاشتراكيين - الديمقراطيين ينعقد في شهر آب / أغسطس ١٩١٢ . كان يأمل أن يشجع انبعاث الشعور الثوري في روسيا نوعاً من المصالحة ، كما حدث في عام ١٩٠٥ . الا ان ذلك لم يكن وارداً . ففي عام ١٩٠٥ ، تمكن سيل الاحداث الثورية من ايقاف انشقاق مبتدئ أو تأجيله ، لكن في عام ١٩١٢ ، كان الفصل واضحاً جداً بحيث لم يكن للانبعاث السياسي نتيجة اخرى غير توسيعه . من جهة اخرى ، كان لينين يحصد ثمرة اتعابه : فتلامذته يمسكون بكل التنظيم السري الاشتراكي - الديمقراطي ، بينما كانت المنشفية تقتصر على مجموعة متباينة من الجماعات الضعيفة والمنعزلة . وقد رفض اللينينيون حضور مؤتمر تداولي في فيينا ؛ حينئذٍ اجتمع المناشفة ، والبلاشفة من أقصى اليسار، والمقاطعون، والبوند، ومجموعة تروتسكي ، ليشكلوا اتحاداً عرف في حوليات الاشتراكية الروسية باسم كتلة آب . وكان تروتسكي الناطق الرئيسي بلسان الكتلة وقد عمل جهده لتقريع لينين و « عمله الانقسامي » . ولا شيء يسمح بالشك بصدق أعذار تروتسكي الذي أكدّ أنه لم يفكر ابداً بأن يجعل من المؤتمر التداولي آلة حرب ضد البلاشفة . وأن رفض لينين حضوره وتشجيع كل محاولة لإعادة الوحدة ، هذا الرفض وحده هو الذي جعله يتخذ موقفاً مناهضاً للبلشفية . وهذا التفسير تعززه الى حد بعيد مراسلات القادة المناشفة الخاصة . وهو يظهر بالتأكيد الى أي حد أخطأ تروتسكي في الحكم على ما أدت اليه عشر سنوات من الخصومات .

ولم يكن أصدقاؤه المناشفة يشاطرونه أوهامه . لقد وجدوا من المناسب تكتيكياً أن يلقوا على لينين - يساعدهم في ذلك تروتسكي مرة أخرى - عبء مبادرة الانشقاق الكريهة التي لم يكونوا أقل استعداداً من لينين لجعلها لا رجعة فيها . بيد أن الفرق يكمن في أن لينين كان يقر بنيّته بشكل مكشوف وينادي بها على كل السطوح ، بينما كان مارتوف وأكسلرود ودان يلقون على المخططات التي يحاولون تنفيذها بفضل تكتيك دقيق ستاراً من السرية . تكفي مقارنة تصريحات لينين والمراسلات السرية بين القادة المناشفة لنلاحظ أن قادة الجناحين كانوا يتفقون تماماً ، كل من وجهة نظره ، على التفكير بأن القطيعة كانت حتمية ومتمناة في الوقت ذاته ، وعلى السخرية من جهود تروتسكي للحيلولة دونها أو العودة الى الوراء ، وذلك بالتعابير ذاتها تقريباً[٤٦] .

* * *

(٤٦) كان تروتسكي يقيم في تلك الفترة علاقات ودية للغاية مع الشلل البلشفية المتطرفة والمقاطعين و « الباحثين عن الله » . ففي صيف ١٩١١ القى محاضرات في مدرستهم الحزبية في بولونيا ، تلك المدرسة التي أسسها لوناتشارسكي بمساعدة غوركي .

تركت تجربة كتلة آب تروتسكي شاعراً بالمرارة ومجروحاً رغم « القتالية » التي أظهرها لصالحها ، أو ربما بسببها . هكذا حين طلب منه مدير **فكر كييف** في أيلول / سبتمبر ١٩١٢ ان يمضي مراسلاً للجريدة في البلقان ، تشبث بالفرصة سعيداً بالهرب من حلقات المهاجرين السياسية ، وبأن يتحول من ممثل يلعب دوراً عقوقاً الى مشاهد لأحد المراكز المضطربة للسياسة العالمية . غادر فيينا في بداية تشرين الاول / اوكتوبر ، وعلم في سيارة الاجرة التي نقلته الى المحطة بانفجار الحرب البلقانية الاولى حيث وحّد سلافيو الجنوب قواتهم ضد السلطنة العثمانية .

من فيينا ، كان تابع احداث البلقان وانخرط في علاقة مع الاشتراكيين البلقانيين . وقبل ذلك التاريخ بعامين ، في تموز / يوليو ١٩١٠ ، ذهب الى صوفيا ليفضح مكائد مؤتمر سلافي كبير انعقد تحت اشراف ميليوكوف . وكان تكلم امام جمعية التيسنياكيين البلغاريين (الاشتراكيين الذين لا يقهرون) التي كانت تجتمع في الوقت ذاته الذي اجتمع فيه المؤتمر السلافي الكبير . وقد قدم كولاروف ، رئيس بلغاريا الستاليني لاحقاً ، قدم تروتسكي للجمعية والجماهير ، في الشوارع وفي الساحات ، كالبطل الاسطوري لسوفييت بطرسبورغ ، وحيت الجماهير تروتسكي بالتصفيق الحماسي . فحذر سلافيي الجنوب من الدبلوماسية القيصرية التي كانت تستخدمهم كرهائن ، ومن الليبراليين الروس الذين لم يكونوا يشجعون النزعة السلافية الكبرى إلا لأنهم يبحثون عن ارضية وفاق مع القيصرية في السياسة الخارجية ، بينما يستسلمون لها في روسيا(٤٧) . وفيما بعد ، قام تروتسكي غالباً بسفرات قصيرة الى بلغراد وصوفيا ، وتابع دائماً عن كثب الاحداث التي كانت تجري فيهما . ومنذ كانون الثاني / يناير ١٩٠٩ ، كتب في **فكر كييف** ان البلقان هي علبة باندور(*) أوروبا(٤٨) .

ونجد وصفاً حيّاً جداً لتلك المدرسة في تقرير لعميل استفزازي للأوخرانا . يقول التقرير ، بين ما يقوله ، ان المحاضرين (لونا تشارسكي ، منجينسكي ، كولونتاي ، بوكروفسكي) كانوا يعاملون تلامذتهم ، وهم عمال سريون قادمون من روسيا ، بعليائية وأبوية ، وأن تروتسكي ، وحده ، كان يقيم مع تلامذته علاقات ودية وشخصية . . بولشفيكي دوكومنتي أو خرانوفو أو تديلينيا ، ج ١ ، ص ٤٠ .

(٤٧) تروتسكي ، سوش ، ج ٢ ، ك ١ ، ص ٢٠٧ ـ ٢٢٣ ، ج ٦ ، ص ٣٤ ، ٤٦ .

(٤٨) كتب تروتسكي : « ان دولة موحدة، وحدها ، تضم كل القوميات البلقانية ، وتستند الى قاعدة ديمقراطية ، اتحادية ـ على طريقة سويسرا أو الولايات المتحدة ـ يمكن ان تحمل السلام الى البلقان وتخلق شروط تطور قوي لقوى الانتاج » . المرجع ذاته ، ج ٦ ، ص ١٠ .

(*) باندور هي المرأة الأولى في الميثولوجيا اليونانية ، وقد ادى بها فضولها الى فتح جرة مغلقة كانت الشرور محفوظة فيها فانتشرت في العالم (المعرب) .

لكن من علبة باندور ، بدأت تفلت الآن آهوال كان مراها يصدم تروتسكي . فلقد فكر من قبل بصورة مجردة بحقائق الحرب ، الا انه كان يرى الآن قصر بلغراد تضيئه انوار الكشافات النمساوية الموضوعة في الجانب الآخر من الحدود ، وكان يتأمل الجموع التي لا تنتهي من الاحتياطيين المستدعين للخدمة ، ويعلم ان معظم اصدقائه من رجال سياسة وصحفيين وأساتذة جامعة أصبحوا في الجبهة حيث كانوا أول من يَقتل أو يُقتل . حينئذٍ أدرك المأساة التي تُمثَّل فصولها ، واكتسحه « شعور بالعجز ازاء القدر . . . وألم عظيم حيال كل الجرادات البشرية المجروفة نحو دمارها[٤٩] . . . » . « ان الفهم المجرد ، المتوخي خير البشرية ، والاخلاقي للتاريخ هو فهم عقيم ، وأنا اعرف ذلك تماماً . الا ان هذه الكتلة الخوائية من الكنوز المادية ، ومن العادات والتقاليد والافكار المسبقة التي نسميها حضارة قد نوّمتنا تنويماً مغناطيسياً ، حين اعطتنا الاحساس الزائف بأننا بلغنا ما هو جوهري . الا ان الحرب امامنا تثبت لنا اننا لم نخرج بعد زاحفين من المرحلة الهمجية من تاريخنا[٥٠] . » .

ان وعي المأساة يظهر هكذا في كل مراسلته البلقانية ، التي تنطبع في كل حال بطابع الكتابة الصحفية الراديكالية ـ الليبرالية ، في روسيا ما قبل الثورية . كانت كل مقالة ، لوحدها ، دراسة صغيرة حقيقية تتميز بدقة توثيقها ومعلوماتها ، وبغنى الانطباعات واللون المحلي ، وبجودة لوحاتها وتحليلاتها ، واخيراً ، وبوجه خاص ، بأسلوبها المصوّر والحسي . هذه الدراسات التي جمعت في كتاباته تشكل الى الآن تأريخاً لا يقدر بثمن لأحداث البلقان قبل عام ١٩١٤ . ان تروتسكي الموهوب ككاتب دراسات ، يتكشف كذلك كصحفي حقيقي ، قادر على الاهتمام شخصياً بالاشياء ، وعلى مساءلة الناس في كل ظروف حياتهم ، وتقديم مادة مفعمة بالحرارة والحياة والحالية الى قرائه . كان يحب حمّى مطاردة الاخبار لكن كذلك أعباء تلك المطاردة ؛ كان يختلط بسهولة بزملائه في الصحافة الاوروبية ـ وقد عمل بوجه خاص متعاوناً اوثق التعاون مع مراسلي **الفرانكفورتر زيتونغ** **والـ دايلي تلغراف** ـ بحيث تراجع رجل السياسة الطموح والخطيب الشعبي الثوري مؤقتاً امام رجل الصحافة[٥١] . فهو ما كاد يصل الى بلغراد حتى مضى يقابل كل اعضاء الحكومة الصربية تقريباً ، الذين رسم لهم صوراً كلها دعابة وموهبة ، مبيناً كيف ان هؤلاء الاشخاص يعكسون في الوقت ذاته التاريخ الحديث وذهنية أمة فلاحية صغيرة . وقد تعمّق في مشكلات التموين والتكوين العسكري والتكتيك ، وكشف شراسة الحرب

(٤٩) المرجع ذاته ، ص ٦٦ .

(٥٠) المرجع ذاته ، ص ١٤١ .

(٥١) المرجع ذاته ، ص ٢٨٣ ـ ٢٩٢ .

ووحشيتها . زار كنائس صوفيا ووصفها بالحميّة ذاتها ، تلك الكنائس التي كان يُحتفل فيها بقداسات شكر على انتصارات مختلفة لحاجات الدعاوة ؛ وزار المستشفيات حيث كان يحاور الجرحى ، والزنزانات القذرة والمزدحمة حيث كان المشاة الاتراك الاسرى يروون لتروتسكي تجاربهم ، والفنادق الكبرى المستخدمة سجوناً للضباط الاتراك ، والمقاهي العصرية في الاحياء الاوروبية المصطنعة ، قلب العواصم البلقانية ، وفي الضواحي البائسة ، شبه الآسيوية ، مراكز الفقر والتعاسة والانحطاط .

كان تروتسكي نظر في البدء الى حرب سلافيي الجنوب ضد السلطنة العثمانية بنوع من التعاطف ، لأنه لاحظ ان ذكرى الاضطهاد التركي كانت لا تزال اكثر حيوية في البلقان من ذكرى القنانة في روسيا[٥٢] . كان تمرد السلافيين يذكّره من بعض النواحي بالحركة الالحاقية الايطالية لعام ١٨٥٩ . الا انه كان يخشى ان تقوم القوى العظمى ، ولا سيما روسيا القيصرية ، باستخدام مطالب السلافيين وجعلها ذريعة لشن حرب اوروبية . وقد كتب تروتسكي شارحاً تصريحاً لبسمارك : « اذا كانت احزاب البلقان الكبرى . . . لا تجد طريقاً لتسوية أمور البلقانيين الا عبر تدخل اوروبي جديد . . . فمشاريعها السياسية جمعاء لا تساوي جلد جندي مشاة واحد من مقاطعة كورسك . . . وهذا يمكن ان يبدو قاسياً ، لكن ليس من طريقة اخرى ، بالنسبة لديمقراطي شريف ، لطرح هذه المشكلة المأساوية[٥٣] . ان القادة الفلاحين للبلقان ، الذين انطبعوا في شبابهم بالروح الثورية الروسية ، كانوا يومذاك يضعون كل آمالهم في القيصر . وكان ذلك كافياً لتبدو قضيتهم لتروتسكي اقل جدارة بكثير بالاهتمام والتعاطف . ان المفارقات العنيفة بين الترف والبؤس ، وفساد القادة ، والقساوات غير المجدية التي مورست ضد الجنود والمدنيين الاتراك ، وعربدة الشوفينية ، وخدائع الدعاوة ونزق الرقابة ، كل ذلك ولّد لدى تروتسكي الغضب والقرف ، فمضى يدافع عن الضعفاء والمهزومين ، أي عن الأتراك .

وانهالت الرقابة البلغارية عليه ، صادرت مقالاته ومنعته من زيارة الجبهة . ومن المثير أن مدير الرقابة ، كان الشاعر الراديكالي بيتكو تودورف ، الذي تكلم قبل عامين فقط ، الى جانب تروتسكي ، خلال الاجتماعات المنظمة ضد النزعة السلافية الكبرى . وقد اجاب تروتسكي في « رسالة مفتوحة الى الرقابة » بتحليل لاذع للسفسطات والأعذار التي تتذرع بها الرقابة العسكرية عادة لتبرر نفسها ، وبمرافعة بليغة لصالح حرية الاعلام .

(٥٢) - المرجع ذاته ص ١٤٢ - ١٤٣ ، ١٨٦ .
(٥٣) المرجع ذاته ، ص ١٤٤ .

ولقد كان للرسالة ، التي لم تكن تتناسب لهجتها الصاخبة مع هزال النزاع ، دويّ لا بأس به[٥٤] . وسرعان ما ظهر سبب اكثر جدارة بصنفات تروتسكي الجدالية ، فلقد جاء ميليوكوف الى صوفيا كرسول للسلافية الكبرى ، فتملق البلغاريين وسكت عن الفظاعات التي كانوا يقترفونها . حينئذٍ كتب تروتسكي « رسالة مفتوحة » الى ميليوكوف نشرت في احدى صحف بطرسبورغ[٥٥] . وافتتحت نزاعاً ملأ اعمدة الصحافة الروسية طوال اشهر عديدة . وقد شكك ميليوكوف بصحة الفظاعات التي نقل اخبارها تروتسكي وحذا حذوه مراسلو الصحافة الروس المتعاطفون مع السلافية الكبرى . فقدم تروتسكي اذاك وثيقة لا يمكن دحضها ، حصل عليها هو ومراسلو الدايلي تلغراف والفرانكفورتر زيتونغ . هذه الضربات المتبادلة كانت تتواصل بعدوانية لا تضعف ، حين تغير مجمل الوضع فجأة : انتهت الحرب البلقانية الاولى بانتصار السلافيين . وتنازع المنتصرون الصربيون والبلغاريون الغنائم ، فتعاطفت روسيا الرسمية والليبرالية مع الصربيين ؛ وبينما كان البلغاريون يُمجّدون حتى البارحة كأبطال ، غدوا في اليوم التالي همجاً مخيفين ، وذلك حتى في صحيفة ميليوكوف بالذات .

قاد تروتسكي قسماً من هذه الحملة الصحفية من فيينا ، حيث ذهب ليدرس انعكاسات الحرب البلقانية الأولى على السياسة الاوروبية . وعبر موشورة البلقانيين حزر كيف ستتجمع القوى العظمى في عام ١٩١٤ . وحزر ذلك بوضوح كامل ، إلا أنه أراد الاعتقاد بشغف بأن الاشتراكيين الفرنسيين والنمساويين والألمان ، ولا سيما هؤلاء الأخيرين بجرائدهم الـ ٨٦ والملايين التي تقرأها ، سيدافعون الى النهاية عن « قضية الثقافة والسلم ضد اندفاع الهجمة الشوفينية »[٥٦] .

وحين عاد الى فيينا غاص مجدداً وسريعاً في مشاكل الحزب ، محتجاً في رسائله الشخصية ضد الارتياح الساخر الذي كان يشعر به اصدقاؤه المناشفة لانفصالهم عن البلاشفة ، وضد نفوذ التصفويين المتنامي داخل كتلة آب . وقد استقال بصمت من صحيفة منشفية وابدى استياءه من صحيفة اخرى بقي يتعاون معها . كان شديد الارتباط بالمناشفة بحيث يصعب عليه الانفصال عنهم ، لكنه شديد الجموح بحيث لا يمكن ان يبقى معهم . وقد كتب مارتوف هازئاً في احدى رسائله الشخصية : « لم يكن تروتسكي

(٥٤) تروتسكي ، سوش ، ص ٢٦٣ - ٢٧٣ .
(٥٥) لوش . ، ١٣ كانون الثاني / يناير ١٩١٣ ؛ سوش ؛ ج ٦ ، ص ٢٧٣ - ٢٩٢ .
(٥٦) تروتسكي ، سوش . ، ج ٦ ، ص ٣٠٢ .

يتابع تطور كامل الكتلة (كتلة آب) ، حين كان في البلقان » . كان المناشفةوضعوا حداً في غضون ذلك للنقاشات حول الوحدة ولـ « نزعة المصالحة الفارغة واللفظية » التي كانت رائجة في ايام شباب كتلة آب الملتبسة . وقد اضاف مارتوف ، مكرراً رأيه هنا وهناك : « أعتقد ان علينا ان نكشّر في وجهه (أي تروتسكي) ، بلطف وتهذيب ، بالطبع[٥٧] .

لذا غادر تروتسكي فيينا من جديد الى البلقان حيث اندلعت حرب ثانية ، لكن من دون أسف . في هذه المرة هزم الصربيون واليونانيون البلغاريين ، اما تروتسكي ، العدو المفترض للبلغاريين ، فقد اصبح المدافع عنهم . روى عمليات النهب والتفظيع التي ارتكبها المنتصرون الجدد ، وزار المناطق المضمومة ، ووصف التشوش السياسي والبؤس والسخافات الأتنية التي احدثتها حروب « خيضت مثلما في ايام حرب الثلاثين عاماً » ، والتغيير العنيف للحدود والسكان . كتب دراسة عن رومانيا ، نموذجاً للوصف الصحفي الحي ، اعيدت طباعتها عدة مرات بعد عام ١٩١٧ . وقال في الختام : « بينما شكلت بلغاريا والصرب ، بعد خلاصهما من السيطرة التركية ، ديمقراطيتين فلاحيتين بدائيتين ، لا أثر فيهما للعبودية أو الاقطاع ، فإن رومانيا تبقي فلاحيها تحت سيطرة اقطاعية صارمة ، رغم عشرات السنين من النظام الدستوري الزائف[٥٨] . كانت رومانيا « ثعلب » تلك الحرب ، فهي اخذت حصتها من مغانم النصر دون ان تطلق رصاصة واحدة ، وألحقت دوبرودجا الجنوبية بأراضيها . وقد تجول تروتسكي في تلك المقاطعة التي اكتسح أريافها وباء الكوليرا ، ونهْبُ العسكر ، دون ادنى مبالاة من جانب الاسياد الرومانيين الجدد . روى كيف كانت قرى بكاملها تموت من الجوع والمرض ، وكيف ان الاطباء المنتمين الى عائلات الارستقراطية كانوا يفحصون من بعيد ، أي بالمنظار المقرب ، الفلاحين المصابين بالكوليرا ، ولا يتنازلون فيقتربون منهم .

كانت تعبر روايات تروتسكي ومضات حنين روسي ، فالريف الذي كان يراه من عربته ، خلال رحلاته ، كان يشبه الفيفاء التي ولد فيها شبهاً شديداً ، ففلاحو دوبرودجا الذين تحصدهم نسائم البحر الاسود ، والقبور المنثورة هنا وهناك في السهب ، والحرارة ، وايقاع الرحلة الناعس ، كل ذلك كان يحرك ذكريات من طفولته في غرومولكا ويانوفكا وصورة أمه التي ماتت قبل وقت قصير .

« الطريق روسية الى حد بعيد ، ومغبّرة مثل طريقنا في خرسون . تهرول الدجاجات

---

(٥٧) بيسيا اكسلرودا اي مارتوفا ، ص ٢٦٢ ، و ٢٧٤ .

(٥٨) تروتسكي ، سوش . ج ٦ ، ص ٣٤٨ .

من تحت أقدام الجياد ، تماماً كالدجاجات الروسية ، وتلك أعنة وسروج روسية نجدها على أعناق جياد روسية صغيرة ، حتى ظهر كوزلنكو (الحوذي) روسي . . . كم يمكن ان يكون ظهره روسياً ، لن تجدوا مثيلاً له ، حتى لو درتم حول العالم . . . الليل يهبط . رائحة العشب ، رائحة غبار الطريق ، ظهر كوزلنكو الذي يربدّ ، والهدوء في كل مكان . . نتلاصق ، ننعس ، . . . . فرزر . . . يوقف كوزلنكو جياده ، ينتظر بصبر ، ثم يبدأ يصفر وهو يحلم . هدوء . وخز الدم في القدمين ، أكاد أعتقد أننا نسافر مغتبطين من محطة نوفي بوغ الى بلدة فيبانوفكا »[٥٩] .

واصبح حنينه لبلاده اكثر حدة حين زار الجاليات الروسية في دوبرودجا . كانت جاليات من السكوبتسي . وقد اجتاز نهر اللينا نزولاً على احد المراكب خلال نفيه الاول الى سيبيريا في عام ١٩٠١ ، مع اعضاء من هذه الطائفة الغريبة ، طائفة « الخصيان القديسين » . كانت المساكن والبساتين واضحة ، وتلمع من النظافة . إلا أن تروتسكي دوّن ملاحظة تشير الى أن جواً من الملل ، والاسترخاء والحزن كان يهيمن على المكان : « ينقص شيء ما ، تنقص الحياة ، ينقص أطفال ، تنقص امهات . الوجوه محتقنة ، ومهما تكن النظرات شريفة ، فهي مكربة » . استعاد لحسابه ملاحظة « صديق طبيب » كان يفيده كدليل في الدوبرودجا : « وأنت تلاحظ حياة السكوبتسي ، تنتهي الى الاقتناع . . . . بأن الحياة الجنسية مبدأ اجتماعي ، ينبوع الايثار وكل ما هو نبيل في الانسان »[٦٠] .

« الصديق الطبيب » الذي كان يفيده كدليل كان كريستيان راكوفسكي الذي التقاه تروتسكي من قبل اكثر من مرة في اوروبا الغربية وفي البلقان . وقد بلغت صداقتهما في تلك الفترة من العمق والصلابة درجة ستقاوم معها الحرب والثورة والانتصار والهزيمة والمنفى وحتى التطهيرات . ربما كانت الصداقة الوحيدة الحميمة وطويلة الأمد في كل حياة تروتسكي . ان راكوفسكي الذي كان يكبر تروتسكي ست سنوات أو سبعاً سيلعب في الثورة الروسية دوراً مماثلاً لدور آناكارزيس كلوتس في الثورة الفرنسية . فمثل كلوتس ، كان راكوفسكي ارستقراطياً ومفكراً ، ومواطناً عالمياً ، ومثل كلوتس أيضاً تبنى بلد الثورة وطناً له واصطف مع الثوريين الأكثر ثورية . في تلك الفترة ، عام ١٩١٧ ، كانت قد أصبحت خلفه مسيرة مدهشة . فمن ابن لعائلة كبرى من الملاكين العقاريين في دوبرودجا

(٥٩) المرجع ذاته ، ص ٤١٥ ـ ٤٢٠ .
(٦٠) الاستشهاد ذاته .

الشمالية أصبح مواطناً رومانياً حين ألحقته مقاطعته التي ولد فيها برومانيا في عام ١٨٧٨ . وفي الخامسة عشرة من عمره تم طرده من مدرسته بسبب أفكاره الاشتراكية وحظّر عليه دخول أي من مؤسسات التعليم البلغارية . فأرسلته عائلته الى الخارج ليتابع دروساً في الطب . وبعد أن حصل على الديبلوم من جامعة مونبلييه ، كتب ، أطروحة دكتوراه حول « أسباب الجريمة والانحطاط » شهرته في الاوساط الطبية . ثم درس الحقوق في جامعة فرنسية اخرى . وفي عام ١٨٩٣ ، حين أصبح في العشرين من عمره ، مثّل الاشتراكيين البلغار في مؤتمر الأممية في زوريخ ، حيث تأثر ببليخانوف وارتبط بجول غيسد ، الماركسي الفرنسي المرموق ، وبروزا لوكسمبورغ . وفي السنة اللاحقة عمل مع الاشتراكيين البرلينيين في المناخ الذي ولّدته قوانين بيسمارك ، المعادية للاشتراكية ، والصارمة . وتم طرده من المانيا . وفيما بعد ، شارك في كل الاجتماعات المهمة للحركة العمالية في القارة . وفي عام ١٩٠٥ ، عاد الى رومانيا . ولما كان نصيراً للفلاحين فقد اجتذب حقد ملاّكي الأراضي ولوحق ثم طرد من البلاد بحجة انه كان مواطناً بلغارياً ، مع انه خدم كطبيب عسكري في الجيش الروماني . وطوال خمس سنوات ، شن الحزب الاشتراكي والنقابات حملة لإلغاء تدبير الطرد المتخذ بحقه ، إلا ان الحكومة رفضت مدعية تارة انه عميل لهيئة الاركان الروسية وطوراً انه متآمر خطير مناهض للقيصرية .

وقد نشر راكوفسكي خلال نفيه عدة كتب ، ولا سيما روسيا في الشرق ، الذي يعالج موضوع التوسع القيصري في آسيا ، ورومانيا البويارد . وفي ساعات الفراغ ، كان الهَجّاء والدعاوي والطبيب يكرس نفسه للبحث التاريخي ، وقد كتب مؤلّفاً حول ميترنيخ وعصره . ولما كان يكتب بالسهولة نفسها في البلغارية والفرنسية والروسيةوالالمانية والرومانية ، فقد تعاون في هذه اللغات المتنوعة مع مجلات سياسية وطبية وتاريخية . وكان يعود دائماً الى بوخارست ، لكن في كل مرة كان يتعرض لتدبير طرد جديد ، رغم التدخلات البرلمانية والمظاهرات في الشوارع . وفي احدى المرار تدخلت الحكومة الفرنسية بطلب من جوريس لإخراجه من احد سجون البلقان ، فراكوفسكي كان مراسلاً في البلقان لجريدة الأومانيتيه التي كان يصدرها جوريس . وعشية حرب البلقان الاولى ، حصل على الاذن بالعودة الى بوخارست . وكقيادي رسمي للحزب الاشتراكي الروماني ، ومدير لجريدته ، دافع عن مشروع الاتحاد البلقاني وكان المحامي ، المسموع اكثر من الجميع ، لمناهضة العسكرية في البلقان . وكان يهتم في الوقت ذاته بأرض عائلته في دوبرودجا . وقد حرر فلاحيه من القنانة الاقطاعية وعمل في تطبيبهم . هذا الرجل المهرول من البرلمان الى قيادة الحزب ، او الى تحرير الصحيفة ، ثم المغادر بوخارست الى املاكه في الريف ،

والمناضل دائماً ضد ظلم ما ، كبير أو صغير ، هذا الرجل الذي كان بالامكان رؤيته خلف محراث ، أو بالردنغوت(*) الذي لم يتسنّ له الوقت لخلعه بعد وصوله الى العاصمة ، كان يبدو موهوباً قوة لا تتعب ولا تكل . وعلى هذا المنوال في كل حال ، كان يكشف لتروتسكي كل اسرار السياسة والاقتصاد الرومانيين ، في الوقت ذاته الذي كان يراقب فيه حقوله ، بينما تتلاعب الريح بأطراف ردنغوته ، أو بين محادثتين مع فلاحين ، أو بين زيارتين لبعض المرضى .

وخلال اقامة تروتسكي في رومانيا ، ارتبط ايضاً بدوبروجانو غيريا ، المؤسس القديم للاشتراكية الرومانية ، الذي أعقبه راكوفسكي في قيادة الحزب . وكان غيريا وجهاً مثيراً وساحراً . كان يهودياً روسياً (واسمه الحقيقي كاتز) ، انتمى الى النارودنيين ، ثم هرب من روسيا ليقيم في رومانيا في نهاية المطاف . كشف للرومانيين تاريخهم الخاص بهم ، وغدا ناقدهم الادبي وأهم مؤرخيهم ، وفي الأخير كان هو ملهم ما جرت تسميته النهضة الأدبية الرومانية . جيل كامل من المثقفين الرومانيين يدين بتكوينه السياسي لكتابه ، **القنانة الجديدة** ، ونجد تلامذته في قيادة كل الاحزاب ، محافظة كانت ، أو ليبرالية ، أو اشتراكية . وكان دوبريجانو غيريا يدير في محطة پلويستي مطعماً أصبح محجة لرجال السياسة والكتّاب الرومانيين . وقد أمضى تروتسكي اوقاتاً طويلة في مكتب محاسبة هذا المطعم يجمع أفكار هذا « الشيخ الحكيم غريب الأطوار »(٦١) .

* * *

في نهاية كانون الثاني / يناير ، أو في بداية شباط / فبراير ١٩١٣ ، خلال اقامة تروتسكي القصيرة في فيينا ، بين الحربين البلقانيتين ، لمح للمرة الاولى خيال ستالين ، كظل يظهر على شاشة . ومن الغريب ان تروتسكي لم يرو المشهد بالتفصيل إلا في السنة الأخيرة من حياته(٦٢) . كان تروتسكي يزور المنشفي سكوبيليف ، معاونه القديم في البرافدا ، الذي كان قد تم انتخابه نائباً في الدوما . كانا يتكلمان حول سمّاور(*) ، حين دخل شخص فجأة آتياً من غرفة اخرى دون ان يدق على الباب : كان رجلاً ذا قامة

(*) سترة طويلة (م)

(٦١) تروتسكي ، سوش . ، ج ٦ ، ص ٣٨٦ - ٤٠٢ .

(٦٢) ان مصدر هذا الوصف للقاء ستالين وتروتسكي هو ذكرى لتروتسكي (كتبها في ٢٢ ايلول / سبتمبر ١٩٣٩) ، وجدتها في المحفوظات ، في هارفارد . وفي كتابي ، ستالين ، اخطأت في التأكيد بأن « لا تروتسكي ولا ستالين تحدثا يوما عن لقائهما في فيينا » . في كل حال ، لقد تكلم تروتسكي على ذلك اللقاء ، للمرة الاولى ، في السنة الاخيرة من حياته .

(*) غلاّية روسية للشاي (م) .

متوسطة ، وبشرة سمراء ، ووجه ناحل ، عليه آثار الجدري . الرجل الغريب الذي بدا كما لو فوجئ بوجود تروتسكي توقف لحظة عند عتبة الباب ، وأطلق دمدمة حلقية يمكن اعتبارها نوعاً من التحية ، ثم تقدم بقدحه الفارغ الذي كان يمسكه بيده الى السمّاور فصب لنفسه الشاي . وخرج دون أن ينبس ببنت شفة . وقد شرح سكوبيليف لتروتسكي ان هذا الشخص هو دجوغاشفيلي ، قوقازي أصبح عضواً في اللجنة المركزية وكان يبدو أنه يتخذ فيها بعض الأهمية . ويقول تروتسكي ذاته انه احتفظ بذكرى حادة عن ذلك الظهور الأول والعابر لخصمه لاحقاً ، وعن الشعور بالانزعاج الذي تركه لديه . لاحظ المظهر « الكامد لكن غير التافه » للقوقازي ، و « الاهتمام الحزين » البادي على الوجه ، والتعبير العدائي بوضوح في العينين « الصفراوين » . ان صمت الشخص ومظهره المثير للقلق انحفرا بقوة في ذاكرة تروتسكي لدرجة أن هذا الاخير ، روى المشهد بعد مرور ٢٧ عاماً في رعشة استذكارية .

ان نقداً داخلياً يسمح بالاعتقاد ان رواية تروتسكي صحيحة وأن الأمر لا يتعلق بذكرى مُعاد النظر فيها ومصححة . فالبلشفي المرتبك ذو الوجه الناحل والممتلئ باهتمام عابس يتطابق مع الشخص الحقيقي : انه ستالين الأيام الخوالي ، ستالين الخارج من سنوات عديدة من العمل السري ، ذلك الذي اختبأ في باكو بين عمال النفط التتار بعد عدة مرات دخل فيها السجن أو نُفي او تمكن من الفرار . والعداء الواضح الذي يقول تروتسكي انه رآه في نظرة ستالين ليس مفاجئاً أبداً : إنه عداء بلشفي من اللجنة المركزية حيال ملهم كتلة آب . لقد سبق ورأى ستالين تروتسكي سابقاً في مؤتمر الحزب ، في كنيسة الأخوّة في لندن ، لكن تروتسكي لم يلاحظ ، من جانبه ، ستالين. وهذا الاخير كان يتذكر ، بالتأكيد ، تصريحات لتروتسكي ضد عمليات السطو والمصادرة التي كان يتولاها البلاشفة ، وهي عمليات تعنيه عن كثب ، زد على ذلك ان ستالين كان تكلم في تقريره حول المؤتمر ، عام ١٩٠٧ ، على « اللاجدوى الباهرة » لشخص كتروتسكي . وكان تروتسكي يجهل من أصدر العدد الأول من الجريدة البلشفية التي صادرت اسم **البرافدا** . أما ستالين فكان يعرف ذلك . وقبل خمسة عشر يوماً تقريباً من هذا اللقاء الصامت ، وصف تروتسكي في نشرة الاشتراكي ـ الديمقراطي ، بـ « البطل الصاخب ذي العضلات المصطنعة » ، وتحت هذه الكلمات بالذات وقّع للمرة الاولى باسم ستالين[٦٣] .

ان الدمدمة الجافة التي حيّا بها تروتسكي كانت تنبع بصورة ما من أعماق « الكوخ من جذوع الصنوبر » الخاص بالشعب الروسي .

---

(٦٣) ستالين ، سوش ، ج٧ ، ص ٢١٨ ـ ٢٨٤ ؛ انظر ايضاً الفصل ٤ من كتاب دويتشر المذكور سابقاً .

الفصـــل الثـــامـــن

الحرب والأممية

فجأة وضعت الحرب العالمية الاولى حداً للعصر الذهبي الخاص بالرأسمالية والبرلمانية والاشتراكية الاصلاحية في اوروبا الليبرالية ، التي ازدهرت معاً خلال ما يقرب من نصف قرن من السلم ، لم تعكره غير الحروب الصغيرة الكولونيالية ونزاعات الحدود البلقانية . لقد كبر جيلان من الاوروبيين وهما يحملان اعتقاداً متفائلاً بأن الانسان حقق ما يكفي من التقدم لضمان التحكم بالطبيعة ، وتبديل المحيط الاجتماعي وتحسينه ، بواسطة النقاشات والمساومات والانتخابات . وكان ثمة ميل أيضاً لاعتبار الحرب أثراً من مخلفات الماضي الهمجي ، لن تعود اليه البشرية ، بالتأكيد . كان تراكم الثروات في اوروبا كلها كبيراً وسريعاً لدرجة انه بدا كما لو يضمن الازدهار المتنامي لكل الطبقات ويبعد احتمال قيام نزاعات اجتماعية عنيفة .

كل هذه الأوهام لم تكن متأصلة بعمق في أي مكان كتأصلها في الحركة العمالية ، ولا سيما في الأممية الثانية . فلقد ورثت الأممية ايديولوجيتها وشعاراتها ورموزها من الفترات الثورية في القرن الماضي ، من انتفاضات ١٨٤٨ وكومونة باريس ومن النضال السري الذي خاضته الاشتراكية الالمانية ضد بيسمارك . كانت الشعارات والرموز تتكلم على تضامن العمال الأممي ، وصراع الطبقات التناحري الذي سيؤدي الى إطاحة الحكومة البورجوازية . إلا أن النشاط العملي للأجزاب الاشتراكية كان قد قطع كل علاقة بهذه التقاليد منذ زمن طويل وحلت محل صراع الطبقات التناحري المساومة السلمية والاصلاحية البرلمانية . وكلما بدت هذه الطرائق الجديدة مثمرة ، كلما كانت الأحزاب الاشتراكية والنقابات ، التي اعتبرت في السابق خارجة على القانون ، ترتبط بشكل وثيق بالحكومة وجمعيات أرباب العمل ؛ وكان يترتب على ذلك أن المصالح ووجهات النظر القومية كانت تتغلب اكثر فأكثر على الشعارات الموروثة من النزعة الأممية . وحتى عام ١٩١٤ ، تدبرت الأحزاب الاشتراكية الأمر اجمالاً لتفسير عملها الاصلاحي بتعابير ثورية وتبرره . استمر قادتها يدّعون انهم ماركسيون وامميون ومناهضون للعسكرية حتى اليوم الأول من الحرب الذي كرس انهيار الأممية .

ومن بين كل الأمم الاوروبية الكبرى ، كانت روسيا هي الوحيدة التي لم تشارك إلا قليلاً في التقدم السلمي الذي وفرته المرحلة السابقة . فتطورها الاقتصادي ، مهما يكن فعلياً ، بقي ضئيلاً اذا قورن بمراكمة الثروات في اوروبا الغربية . ولم يكن كافياً ، في كل حال ، لتنغرس في البلاد الطرق السلمية القائمة على المساومة والتسوية وليتمكن من الولادة الايمان بتقدم متواصل تحصد ثماره كل طبقات المجتمع . فالبرلمانية وكل مؤسسات التحكيم والمصالحة الاجتماعية التي تلازمها عموماً لم تمد جذورها في ارض روسيا . وكان صراع الطبقات بشكله الاكثر عنفاً وفجاجة يتفاقم من طرف لآخر في الامبراطورية ، لا بل لم تترك القيصرية للعمال والفلاحين قدرة على توهُّم ان من المسموح لهم ممارسة أي تأثير على مصير الأمة . وفي الأممية الاشتراكية ، كان الحزب الروسي هو الوحيد تقريباً الذي ينظر بجدية وحماس الى التقاليد والشعارات الثورية ويرى فيها شيئاً آخر غير زخارف بحتة .

وفي عام ١٩١٤ ، لاحظ المهاجرون الروس ، ما عدا القليل القليل منهم ، لاحظوا مصدومين الكارثة التي كانت تنحدر الأممية في مهاويها . ما كان بامكانهم أن يصدقوا أعينهم ، وهم يرون قادة الاشتراكية الأوروبية يضربون صفحاً بقراراتهم الاحتفالية التي تعلن العداء للعسكرية ، ويجحدون أيمانهم الأممية ونداءاتهم للطبقات العاملة كي تناضل ضد أباطرتها وللحقد على « العدو » وقتله . وفي البدء ، تولى معظم المهاجرين الروس ، بلاشفة ومناشفة وحتى اشتراكيين ثوريين ، فضح ذلك الموقف كخيانة للاشتراكية . وعدَّل عدد كبير حكمهم فيما بعد ، إلا ان الكثيرين ذهبوا حتى أبعد : علمتهم مجزرة السنوات الأربع اللاحقة ، التي مات خلالها ملايين الناس ليمكن انتزاع بعض المساحات من الأرض من العدو ، ان يفضحوا الواجهة الانسانية والادعاءات الكاذبة التي تتميز بها السياسة الاوروبية ، وان يكرهوها . واستنتجوا من ذلك انه اذا كانت حكومة تدعي التمدن لا تتردد في قتل الملايين وجرح عشرات الملايين من اجل انجاح سياسة السيطرة التي تمارسها ، فمن واجب الاشتراكيين الا يتراجعوا أمام أي تضحية لضمان انتصار نظام اجتماعي جديد يخلص البشرية من هذا الجنون المخيف . كان النظام القديم يعطيهم درساً في الفظاظة ، فـ « الدنتيلا القوطية » الخاصة بالحضارة الاوروبية تمزقت إرباً ، وديست بالأرجل في وحل الخنادق ودمها .

* * *

كان تروتسكي في فيينا حين انفجرت الحرب ، لقد عاد من بروكسل حيث طلب هو

ومارتوف وبليخانوف للمرة الاخيرة من مكتب الأممية التدخل في الخلاف داخل الحزب الروسي . وفي صباح ٣ آب / أغسطس ، قصد هيئة تحرير جريدة أربايتر زايتونغ التي تصدر في فيينا . كان نبأ اغتيال جوريس بيد فرنسي قومي وصل لتوّه الى فيينا ، وكانت المستشاريّات تتبادل الملاحظات الاخيرة ملقيةً مسؤولية الحرب الواحدة على الأخرى . وقد تقررت التعبئة العامة . وفيما تروتسكي ماضٍ الى مكتب هيئة التحرير التقى الجماهير تسير في موكب طويل تحفزها هستيريا الحرب فتتظاهر في الاحياء الجميلة الواقعة في وسط المدينة . حين وصل إلى الأربايتر زايتونغ ، وقعت عيناه على الفوضى المعممة . كان بعض المحررين مستعدين لدعم الحرب ، أما صديقه فريدريك أدلر فكان يتكلم بقرف على مد الشوفينية الصاعد . وعلى مكتب أدلر كانت تتجاور كدسة من الأهاجي المشحونة بالحقد على الأجانب وكدسة رسوم معدة لمؤتمر للأممية الاشتراكية كان سينعقد في فيينا بدءاً من ١٥ آب / أغسطس ، (كانت الأممية ستحتفل في الواقع بالذكرى الخامسة والعشرين لتأسيسها) . كان المؤتمر قد ألغي الآن وكان أمين خزانة الحزب النمساوي يتفجع بسبب العشرين الف كورون(*) التي أنفقها لإعداده . اما العجوز فيكتور أدلر فكان مذعوراً وهو يرى الشوفينية المسيطرة على محيطه ، إلا انه كان متشككاً للغاية بحيث لم يكن وارداً أن يقاوم . وقد مضى بتروتسكي لرؤية قائد الشرطة السياسية ليسأله عن المعاملة التي سيلقاها المهاجرون الروس نظراً للحرب الوشيكة بين النمسا ـ المجر وروسيا ، فأجاب قائد الشرطة بأنه يستعد لاحتجازهم . بعد ذلك بساعات كان تروتسكي يستقل القطار ، هووعائلته ، باتجاه زوريخ .

وغدت سويسرا ، وهي بلد حيادي ، ملجأ الثوريين الروس الذين كانوا يقيمون في المانيا والنمسا . وهكذا كنت تجد في زوريخ كلاً من كارل راديك المطرود من المانيا بسبب دعاوته المعادية للعسكرية ، وبوخارين الذي تم احتجازه لبعض الوقت في فيينا ، ولينين الذي لم يصل ، من ناحيته ، إلا بعد ذلك بقليل ، حين خرج من سجون غاليسيا النمساوية . كان حياد البلد يسمح للحزب الاشتراكي الروسي بأن يستقبل دعاوة الروس الأممية بتسامح ، لا بل برعاية وعطف . وقد لقي تروتسكي في جمعية ثقافية عمالية حضوراً متجاوباً كل التجاوب مع نقده اللاذع للحرب وللاشتراكيين الذين يدعمونها . وقد كتب مؤلف سويسري مشهور : « بوصول تروتسكي الى زوريخ ، عادت الحياة الى الحركة العمالية ، وعلى الأقل لقطاع من تلك الحركة . كان تروتسكي يؤكد ان الثورة ستولد من

(*) وحدة نقدية (م) .

هذه الحرب . . . ولم يكن الامر يتعلق لديه ببند انشائي بل بقناعة في غاية العمق »[1] . ولقد قابله سامعوه بالموافقة الى حد انتخابه ، للحال تقريباً ، منتدباً للحزب الاشتراكي السويسري الى مؤتمر قومي . وشق على قادة الحزب ان يشرحوا لمناضلي القاعدة انه ليس من السياسة بمكان اعطاء حق التصويت في المؤتمر لأجنبي ومواطن بلد في حالة حرب .

خلال اقامة تروتسكي في زوريخ ، التي لم تطل اكثر من شهرين ، كتب **الحرب والأممية** ، وكان هذا النص أول موقف مهم يتخذه اشتراكي روسي ضد الحرب . كان يضم جزءاً هجائياً موجهاً بوجه خاص ضد الاشتراكيين ـ الديمقراطيين الالمان الذين زعموا بأن آل هوهنزلرن الالمان ، بقتالهم القيصرية ، « دركي أوروبا » ، كانوا ينجزون رسالة تاريخية تقدمية . ردَّ تروتسكي على تلك المزاعم بقوله : « في نضالنا ضد القيصرية ، وهو نضال لا يعرف المهادنة ، لم نسع وراء مساعدة نزعة آل هابسبورغ ، أو آل هوهنزلرن ، العسكرية ولا نسعى وراءها ابدا . في عنقنا دين مهم تجاه الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الألماني ، فلقد مررنا جميعاً في مدرسته ، واستخلصنا دروساً من نجاحاته واخفاقاته . لم يكن بالنسبة الينا احد احزاب الأممية ، بل الحزب » . أما الآن فكان يطرح بعيداً موقف الاشتراكيين ـ الديمقراطيين الالمان باشمئزاز ونفور لا يماثلهما حيوية غير تقديره لهم بالأمس . وقد أكد ان من واجب الاشتراكيين النضال لأجل السلام ، لكن ليس من اجل سلام يعني العودة الى الوضع السابق أو الى توازن جديد بين القوى الامبريالية العظمى . على الاشتراكيين ان يحددوا هدفاً لأنفسهم سلاماً ديمقراطياً من دون الحاق ولا تعويضات ، سلاماً يعترف بحق تقرير المصير للأمم الخاضعة ؛ وهذا السلام لا يمكن ان تنتزعه إلا انتفاضة الشعوب المتحاربة ضد قادتها . وفي هذا القسم من الطرح ، كان تروتسكي يلخص النقاط الأربع عشرة الخاصة بالرئيس ويلسون متقدماً إياه ثلاث سنوات . وقد كان لمقالته تأثير مباشر على ويلسون حين نُشرت في الولايات المتحدة . إلا ان « حق الشعوب في تقرير مصيرها » ، كما كان يفهمه تروتسكي ، لم يكن له الا القليل من العلاقة بالتفسير الذي اعطاه اياه ويلسون . فتروتسكي لم يكن يتصور اطلاقاً خلق دول قومية جديدة ، ونحن نعرف انه كان يعتبر الدولة القومية ، منذ زمن بعيد ، مفارقة تاريخية . فالأمم الصغيرة المضطهدة ينبغي أن تكون قادرة على كسب استقلالها لتتمكن من المشاركة بملء ارادتها في بناء كلٍّ سياسي اشتراكي دولي . ولقد كتب : « ليس من مصلحة البروليتاريا ، ضمن الشروط التاريخية الراهنة ، أن تدافع عن « وطن » قومي مغلوط

---

(١) ف . بروبباشر ، ٦٠ جاهري كيتزر ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

تاريخياً أصبح الحائل الرئيسي دون التقدم الاقتصادي ، بل تكمن مصلحتها في حفز تكوين وطن جديد أقوى وأكثر استقراراً ، هو جمهورية الولايات المتحدة الاوروبية . وإزاء المأزق الامبريالي الذي تقدمه الرأسمالية ، لا يمكن للبروليتاريا ان تقدم اليوم كبرنامج عمل غير التنظيم الاشتراكي للاقتصاد العالمي[٢] . » . هذه الخلاصة الجريئة بدت طوباوية للكثيرين . ويروي تروتسكي ان راديك انتقدها حالاً مؤكداً ان قوى الانتاج في العالم ، أو حتى في اوروبا ، لم تكن متطورة كفاية بحيث يمكن تنظيمها على قاعدة اشتراكية عالمية . وحين وصل لينين الى سويسرا انتقد صيغة « الولايات المتحدة الاوروبية » لأنها بدت كما لو كانت تُظهر أن تروتسكي لا يتصور الثورة الروسية إلا كعنصر في انتفاضة تعم كل اوروبا . وسوف نعود لهذه النقطة لاحقاً .

في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٤ ، تُرجم كتاب **الحرب والأممية** الى الألمانية وأُرسل الى المانيا بفضل الاشتراكيين السويسريين . وقد لوحق اعداء العسكرية الالمان الذين وزعوه ، واتهم تروتسكي بالمس بالجلالة وحكمت عليه محكمة المانية غيابياً بالسجن عدة أشهر ، وعرف بذلك عن طريق الصحف الفرنسية . أما الاشتراكيون الديمقراطيون الالمان فأوحوا بأنه كتب كراسه لخدمة مصلحة روسيا وحلفائها . لكن لما لم يتردد في انتقاد الاشتراكيين الحلفاء الذين كانوا يدعمون الحرب ، فقد اتهمه هؤلاء بدورهم بأنه أراد تبييض صفحة « الاشتراكيين ـ الوطنيين الالمان »[٣] .

وفي نهاية تشرين الثاني / نوفمبر ، غادر تروتسكي سويسرا الى فرنسا . كانت **فكر كييف** قد عينته مراسلاً لها في باريس ، واغتنم هو الفرصة لمعاينة الحرب من مركز مراقبة من ذلك النوع . وكان مسروراً ايضاً ازاء فكرة الانضمام الى مارتوف الذي كان ينشر يومذاك في باريس جريدة روسية باسم **غولوس** (الصوت) كانت تعبر عن معارضة صارمة للحرب . كان رأى مارتوف للمرة الاخيرة في بروكسل ، في اواسط تموز / يوليو ، حين قاما معاً بمسعى لدى اللجنة التنفيذية للأممية للحصول على ادانة لمناورات لينين الانشقاقية ، وكتبا مع بليخانوف بياناً للاشتراكيين الروس . كم كان ذلك يبدو بعيداً وتافهاً ، مع أنه على مسافة شهرين فقط ! فقادة الأممية الذين طالبهم بالتدخل ضد لينين كما لو كانوا السلطات العليا للاشتراكية ، كان يصفهم مارتوف وتروتسكي الآن بـ « الاشتراكيين

---

(٢) نشر نص الحرب والأممية في البدء على حلقات في جريدة غولوس الروسية الصادرة في باريس ، وظهرت الحلقة الاولى في العدد ٥٩ الصادر في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٤ .

(٣) غولوس ، العدد ٦٣ ، ٢٥ نوفمبر ، ١٩١٤ .

الشوفينيين والخونة » ، تماماً كما يصفهم لينين . أما بليخانوف فمجّد منذ ذلك التاريخ الحرب تمجيداً وطنياً ، بحجة أن آل هوهنزلن وآل هابسبورغ هم الذين كانوا الأعداء المعلنين للتقدم والاشتراكية ، لا آل رومانوف . بدا أن الخلافات القديمة امّحت ، وحلت محلها خلافات جديدة . فلينين الذي احتفظ دائماً برغبة سرية في ان يتصالح سياسياً مع مارتوف ، صديق شبابه ، كتب يقول : « ان **غولوس** الصادرة في باريس هي الآن أفضل جريدة اشتراكية في اوروبا . واذا كنت وقفت في وجه مارتوف احياناً كثيرة جداً ، وبعنف شديد ، فعليّ أن أقول بالشكل الأكثر جزماً انه يفعل اليوم ما على اشتراكي ـ ديمقراطي أن يفعله بالضبط »[٤] . وقد أجاب مؤسس المنشفية بالحرارة ذاتها : حيًّا ظهور جريدة الاشتراكي ـ الديمقراطي التي كان يصدرها لينين ، ووافق على ان النزاعات القديمة فقدت أي معنى[٥] . الا ان الأحداث سوف تظهر ان ذلك لم يكن صحيحاً تماماً وان المصالحة كانت امراً مستحيلاً . لكن تروتسكي اغتبط للوهلة الأولى .

في باريس ، كان يقسم وقته بين تعاونه مع جريدة مارتوف ومع **فكر كييف** ، وعلاقاته مع المجموعات المعادية للعسكرية في الحزب الاشتراكي وفي النقابات الفرنسية . ومنذ وصوله تقريباً ، كان عليه ان يدافع عن نفسه في وجه الاتهامات بمشايعة الجرمان التي كان يطلقها ضده ألكسنسكي بوجه خاص ، وهو نائب بلشفي سابق في الدوما اصبح اليوم عدواً ألد للبلشفية ونصيراً للحرب . (وهو البلشفي السابق ذاته الذي سيتهم لينين في عام ١٩١٧ بالتجسس لحساب الالمان) . ولقد عززت التلميحات مصادفة مثيرة : فقد كان رجل يدعى نقولا تروتسكي يقود اتحاداً لتحرير اوكرانيا ، تحت رعاية النمسا ، كان نموذجاً لتلك البؤر الاوكرانية التي نشرتها المانيا فيما بعد . وكان سهلاً ان تحوّل لحساب تروتسكي التصريحات الممالئة للنمسا والممالئة لألمانيا التي كان يطلقها سميّه ، حتى حين أقدم مؤلف **الحرب والأممية** ، بعد اصدار محكمة المانية الحكم عليه ، على توضيح أصل البلبلة توضيحاً علنياً[٦] .

واصلت **غولوس** ظهورها طوال ستة أسابيع أو سبعة بعد وصول تروتسكي الى باريس . الا انه لما كانت الرقابة تلاحقها ، فقد أوقف مارتوف اصدارها في اواسط شهر كانون الثاني / يناير ١٩١٥ . الا انه تسنى في تلك الاسابيع الوقت لتروتسكي ليصوغ

(٤) لينين ، سوش . ، ج ٢١ ، ص ٢١ ، وغولوس ، العدد ٣٨ ، ٢٧ ، تشرين الاول / اوكتوبر ١٩١٤ .

(٥) غولوس ، العدد ٥٢ ، ١٢ ، تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٤ .

(٦) المرجع ذاته ، العددان ٦٢ و٦٣ ، ٢٤ و٢٥ نوفمبر ١٩١٤ . ولنشر عابرين الى ان تروتسكي كان يوقع مقالاته في ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤ باسم ن . تروتسكي .

تصوراته بشكل ادق . قال ان المستقبل لا يقدم لنا الا خياراً واحداً : « إما الحرب الدائمة أو الثورة البروليتارية » . كانت الحرب « تمرداً أعمى » لقوى الانتاج بالغة التطور في اوروبا ضد البنى المتحجرة حقاً للدول القومية الرأسمالية . ان الامبريالية الرأسمالية لا تستطيع الغاء الحواجز القومية إلا بالقوة ، لذا تعجز عن الغائها جدياً ، ولهذا أيضاً طالما تسيطر على العالم فهي ستجر البشرية من حرب لحرب ، ومن مجزرة لمجزرة ، وتقود الحضارة الى الهاوية . ليس للاصلاحية الاشتراكية مستقبل ، لأنها اضحت جزءاً لا يتجزأ من النظام القديم وشريكة له في جرائمه . ومن يأملون اعادة بناء الأممية القديمة ، معتقدين أن قادتها يمكن ان يمحوا خيانة الأممية ، عن طريق غفران متبادل ، يعملون على الحؤ ول دون انبعاث الحركة العمالية[7] .

وفي أحد أعداد **غولوس** الأخيرة ، ذهب تروتسكي ابعد أيضاً حين أكد ان النضال ضد « مزيفي الماركسية الشوفينيين » ليس سوى الوجه السلبي للعمل الذي ينبغي انجازه . اما الوجه الايجابي ، البنَّاء ، فكان يكمن في « تجميع قوى الأممية الثالثة » . وكان ذلك موقفاً قريباً جداً من موقف لينين ، وبإيحاء منه على الأرجح ، لأنه عبَّر عن الفكرة ذاتها قبل ذلك بوقت غير بعيد[8] .

في البدء دعم مارتوف هذه الاطروحات بحماس ، لكن حتى قبل احتجاب **غولوس** ، بدأ يشك ويتردد . فالمهاجرون المناشفة الذين أبدوا مثله عداءهم للحرب كانوا ينفرون من استخلاص نتائج بهذا القدر من الجذرية . كانوا يعتقدون أن الأحزاب الاشتراكية التي دعمت الحرب اقترفت خطأ خطيراً ، لكنهم اعتقدوا كذلك أن من الممكن اصلاح ذلك الخطأ ، وأن الطبقات العاملة ، مثلها مثل قياداتها ، انساقت وراء ايديولوجية الاشتراكية الوطنية . وقد زعموا ان اممية جديدة ، «.مطهرة » ، ليس لها أي حظ في ان تكسب الى صفوفها الطبقات العاملة ، وأنها لن تكون يوماً غير بدعة عاجزة عن الحلول محل المنظمة القديمة . وبعض المناشفة كانوا ضد الحرب بدافع الروح المسالمة لا القناعة الثورية . وكان معظمهم معادين للقيصر الذي يخوض الحرب باسم بلادهم ، لا للحرب بحد ذاتها . وفي روسيا بالذات ، تبنى بعض المناشفة موقفاً وطنياً بشكل اكثر صراحة . ولم يكن يمكن لكل ذلك إلا أن يفعل فعله في مارتوف . كان ممزقاً بين قناعاته الخاصة به والضغط الذي كان يمارسه عليه الحزب الذي تولى تأسيسه . كان موقفه

---

(٧) ـ المرجع ذاته ، العدد ٦٦ ، ٢٨ نوفمبر ١٩١٤ ، عدد ٧٩ ، ١٣ ديسمبر ١٩١٤ .

(٨) ـ المرجع ذاته ، العدد ١٠٠ ، ٨ يناير ١٩١٥ ؛ لينين ، سوش . ، ج ٢١ ، ٢٤ .

متردداً ، حائراً . حاول أن يذلل التباينات وسعى في جو مقاهي باريس المهدىء وراء مخرج من مأزقه .

وقبل نهاية عام ١٩١٤ ، كانت انقسامات ما قبل الحرب تهدد من جديد « تضامن الأمميين » المستجد . أكد لينين ان الحزب بمجمله بقي وفياً للروح الأممية ، لكن من كان يحذو حذوه من المناشفة ، كأكسلرود ومارتوف ، كانوا على خلاف مع مناضلي حزبهم . وقد باح مارتوف لأكسلرود بعد قليل بأن تروتسكي أيضاً يتهمه (أي مارتوف) بالماكيافللية ويأخذ عليه خدمة المصالح المنشفية . ولجأ مارتوف يومذاك الى حيلة مجرَّبة : حاول ـ كما يقول هو بالذات ـ أن « يخيف تروتسكي بأن صوّر له انه اذا قطع علاقته بالمناشفة يصبح عندئذٍ تحت رحمة البلاشفة و « يستسلم هو ذاته لغريشا زينوفييف » ، الذي غدا الآن الثاني بعد لينين في سويسرا . إلا أن الفزّاعة لم تفعل فعلها المعتاد ، ويروي مارتوف انه اضطر لمقاربة تروتسكي بالكثير من الديبلوماسية ومعاملته « كتمثال من البورسلين »[(٩)] .

اما تروتسكي الذي لم يكن مستعجلاً لـ « الاستسلام لغريشا زينوفييف » فكان يرغب مع ذلك في التخلص من الموقف الذي يعود الى ايام كتلة آب . وفي ١٤ شباط / فبراير ١٩١٥ نشر في **ناشي سلوفو** (**كلامنا**) ، الجريدة التي تلت **غولوس** مقالاً روى فيه علانية ، للمرة الاولى ، قصة خلافاته الداخلية مع المناشفة : كشف انه رفض قبل عامين ان يتعاون مع صحفهم وان يتكلم باسمهم في مكتب الأممية الاشتراكية ، وانه يرفض اليوم ان يمثلهم في الكونفرنس القادم للاشتراكيين المتحالفين في لندن . وهذا التطليق لكتلة آب هو الخطوة الحاسمة الأولى التي خطاها تروتسكي على الطريق التي ستقوده الى الحزب البلشفي[(١٠)] .

وانقطعت كذلك صداقات سياسية ، أو شخصية ، قديمة أخرى . أما القطيعة التي كانت الأكثر ايلاماً بالنسبة لتروتسكي ، على الصعيد الشخصي ، فكانت قطيعته مع بارفوس . فهذا كان اعلن تضامنه مع القادة الاشتراكيين الالمان الكبار الذين دعموا الحرب ، وانطلق علاوة على ذلك في عمليات تجارية واسعة في البلقان لحسابه ولحساب الحكومة الالمانية . ان تحول هذا الكاتب الماركسي ، الذي حلل بشكل بارع بطلان الدولة

---

(٩) بيسما أكسلرود مارتوف ، ص ٣٠٩ . كتب مارتوف هذه الرسالة الى اكسلرود في ٩ يناير ١٩١٥ .

(١٠) ناشي سلوفو ، العدد ١٣ ، ١٤ شباط / فبراير ١٩١٥ ، بيسما اكسلرودا اي مارتوفا ، ص ٣١٥ ـ ٣١٧ . ادلى تروتسكي بتلك التصريحات بمناسبة خطاب القاه لارين ، الذي كان لا يزال منشفياً ، أمام الجمعية القومية للحزب الاشتراكي السويدي . تكلم فيه لارين على تروتسكي وبليخانوف وأكسلرود على أساس أنهم القادة الثلاثة لـ « لجنة التنظيم » .

القومية وعَرَض النزعة الأممية بالبراعة ذاتها ، الى « اشتراكي هوهنزلرني » والى مستفيد سافل من الحرب ، هو في الحقيقة احد التغيرات الأكثر اذهالاً التي حصلت لأناس تلك الحقبة . أما تروتسكي ، فكان ذلك بالنسبة اليه صدمة قاسية ، فاسمه واسم بارفوس كانا مرتبطين بنظرية « الثورة الدائمة » ؛ ومنذ عام ١٩٠٤ ، شارك بارفوس في معظم مغامرات تروتسكي السياسية والصحفية . وقد بنى تروتسكي عليه آماله الأعز ، قدّر أن بارفوس سيتحدى ، مع روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت ، الشوفينية المنتصرة في الحزب الالماني .

وقد كتب تروتسكي بألم اكثر مما بغضب « إعلاناً أمواتياً nécrologique لصديق حي » ، حيث أدى تحية حزينة لعظمة بارفوس الضائعة ، رغم الهوة التي غدت تفصل بين الاثنين .

« ان كاتب هذه السطور ، مشيحاً بوجهه لبرهة عن الشخص الذي يعرّف نفسه الآن في البلقان باسم مستعار يناسبه تماماً ، يعتبر أن عليه واجب شرف يتمثل بأداء ما يستحقه رجل بذل اكثر من أي شخص آخر من الجيل القديم للاشتراكيين ـ الديمقراطيين الاوروبيين لتكوينه (أي تروتسكي) الثقافي وتطور فكره . . . حتى اليوم ، أجد أقل من أي وقت آخر مبرراً لنبذ هذا التشخيص وهذا التنبؤ اللذين ترجع حصة الأسد فيهما الى بارفوس » .

وأعاد تروتسكي بشهامة الى الأذهان كم تعلّم هو وآخرون من بارفوس ، وكم كانوا فخورين به . قال ان بارفوس علّمه بين ما علمه ، أن « يعبر بتعابير بسيطة عن الافكار البسيطة » . بيد أن « بارفوس قد انتهى . ان فالستاف(*) سياسياً يبحر الآن في البلقان ، ويثلب صنوه الذي مات »[١١]. لكن حين اطلق بارفوس في كوبنهاغن معهداً سوسيولوجياً مشبوهاً بكونه وكالةدعاوة المانية ، طلب تروتسكي علانية إلى الاشتراكيين أن يمتنعوا عن القيام بأي اتصال بذلك المعهد[١٢] . وحين أرسل بارفوس « رسالة الى المدير » ، ليبرر

---

(١١) ناشي سلوفو ، العدد ١٥ ، ٤ ، شباط / فبراير ١٩١٥ .

(١٢) المرجع ذاته ، العدد ٢٠٨ ، ٥ أوكتوبر ١٩١٥ . ومع ذلك ، حين استخدم الكسينسكي تحذير تروتسكي ليتهم بارفوس بأنه عميل استفزازي لالمانيا ، كتب تروتسكي في لومانتيه قائلاً انه اذا كان اتهم بارفوس بأنه اشتراكي ـ وطني ، فهو لا يعتقد ان هذا الاخير عميل استفزازي . المرجع ذاته .

(*) فالستاف شخصية مسرحية في قطعتين لشكسبير هما « هنري الرابع » و « ثرثارات وندسور المرحات » ، وهو سمين وجبان وسكير ، يلاحق النساء دون جدوى . (م) .

موقفه ، رفض تروتسكي نشرها ، مع أن رد فعله الأول كان لصالح نشرها[١٣] . وضع حداً نهائياً لعلاقاته بصديقه القديم ، وحين أراد بارفوس ان يراه بعد الثورة ليقدم خدماته للحكومة السوفياتية لم يكلف تروتسكي نفسه حتى عناء الرد عليه ، الا ان ذكرى تلك العلاقة عذبته اكثر من مرة : في تموز / يوليو ١٩١٧ « شهر النميمة الكبرى » ، ثم خلال صراعه ضد ستالين ، ابان سنوات النميمة الكبرى[١٤] .

ظهرت **ناشي سلوفو** للمرة الأولى في **٢٩** كانون الثاني / يناير **١٩١٥** . كانت صحيفة متواضعة من صفحتين ، ونادراً من ٤ صفحات ، تكثر فيها فسحات البياض ، التي تفرضها الرقابة ، لكنها محشوة بالاخبار والتعليقات . وكانت الجريدة تعيش تحت التهديد المميت المزدوج والثابت الناجم عن الرقابة وعن الفقر . فالمحررون والمتعاونون لم يكونوا يتلقون رواتب أو أتعاباً ، أما الصافّون والطبّاعون ، فغالباً ما كانوا يقبضون بعد اشهر من التأخر ؛ إلا ان العمال الجائعين ، وهم من المهاجرين السياسيين ، تماماً كالمحررين ، كانوا يواصلون مع ذلك اصدار الصحيفة يومياً من دون احتجاج . ومن وقت لآخر ، كانت تنظّم عمليات جمع تبرعات في مراكز المهاجرين البائسة ، كمكتبة غوبلين لروسية ونادي المهاجرين الروس في مونمارتر ، أو مكتبة العمال اليهود في شارع فرديناند ـ دوفال ، وكانت العطايا تعد بالسنتيمات والقروش لا بالفرنكات . وكان المال يستخدم لدفع الحاجات الهزيلة للجريدة ، ومع ذلك كانت **ناشي سلوفو** حائزة على فريق مرموق من المتعاونين سوف يتركون جميعهم تقريباً اسماً مهيباً في سجلات الثورة ، وهي تمثل بالتأكيد فتحاً صحفياً أهم من فتح البرافدا الفيينوية ، وكان تأثيرها اكبر بكثير . ولو قيل لرجل سياسة أو صحفي باريسي ان تلك الجريدة الروسية المغمورة كان لها وزن سياسي اعظم بكثير من وزن كل صحافة الجادّات الفرنسية ، لاعتقد بأن ذلك لا اكثر من مزاح . ومع ذلك ، لن تمضي ثلاث سنوات حتى تدوي الأفكار المطروحة على صفحات **ناشي سلوفو** من بتروغراد وبرست ـ ليتوفسك في العالم اجمع .

وكان المنظم الرئيسي للجريدة آنتونوف ـ أوفسينكو ، وهو منشفي منذ زمن بعيد ، وضابط سابق في جيش القيصر ، تمرد على رأس زمرته في عام ١٩٠٥ وحُكم عليه بالموت

(١٣) كشف مارتوف ذلك حين استقال من ناشي سلوفو . مارتوف ، « رسالة الى رئيس التحرير » ، ناشي سلوفو ، العدد ٢٣٥ ، ٩ نوفمبر ١٩١٥ .

(١٤) ان بارفوس الذي كان غنياً والذي كان يتمتع بنفوذ كبير في جمهورية فايمار ، شعر بالخيبة وعاود عرض خدماته على البلاشفة الى ان اجابه لينين بجفاف قائلاً : « ان السوفياتات بحاجة بالطبع لأدمغة جيدة ، لكنها بحاجة قبل كل شيء لأيد نظيفة » . م . بير ، خمسون عاماً من الاشتراكية العالمية ، ص ١٩٧ .

لكنه هرب وانضم الى المنظمة السرية ، وفي تشرين الاول / اوكتوبر ١٩١٧ قاد هجوم الحراس الحمر على قصر الشتاء ، وأوقف وزراء كيرنسكي وسمح هكذا بنجاح الانتفاضة البلشفية . ان المفوض القادم ، صغير القامة ، والهزيل ، وقصير النظر ، والعصبي ، وذا الخيال الخصب ، كان يبذل في ذلك الحين كل وسائل فكره الخلاق ليضمن في وجه الرياح والتقلبات بقاء الجريدة ، و« برهن عن صلابة وتفاؤ ل أدهشا حتى تروتسكي الذي لم يكن ينقصه شيء من تلك الصفات »[١٥] . وقد حمل تروتسكي لأنتونوف ـ أوفسينكو صداقة من نوع تلك التي حلت في حياته محل الصداقات القديمة . ومن ١٩٢٣ الى ١٩٢٥ ، كان انتونوف ـ أوفسينكو أحد قادة المعارضة التروتسكية .

ويبدو أنه هو الذي طلب إلى مارتوف وتروتسكي ان يديرا الجريدة معا . وقد رفض تروتسكي في البدء ، متخوفاً من أن تكون الجريدة معدة لخدمة مصالح منشقية ضيقة[١٦] ، الا انه خلص الى القبول بالمشاركة في قيادتها ؛ ولما كان على خلاف دائم مع مارتوف ، فقد طبع **ناشي سلوفو** بطابعه لدرجة ان الجريدة انتهت الى ان يتم اعتبارها حقله الشخصي . وكان لوناتشارسكي ، البلشفي ، « الباحث عن الله » الذي قطع صلته بلينين والذي سيصبح المفوض الكبير للتربية بعد انتصار الثورة ، كان يعمل للجريدة ويلعب احياناً دور الوسيط بين تروتسكي ومارتوف . وكان ريازانوف الذي غادر هو الآخر فيينا الى باريس ، احد اعمدة **ناشي سلوفو** . أما لوزوفسكي ، القائد اللاحق لأممية النقابات الحمراء التي كانت تقود في ذلك الحين نقابة يهودية صغيرة لعمال القبعات في باريس ، فكان يتابع السياسة الفرنسية والحركة النقابية . وكان مانويلسكي ، المقاطع البلشفي ، والقائد اللاحق للكومنترن الستالينية ووزير خارجية اوكرانيا ، يتعاون مع الجريدة باسم بزرا بوتنيي (العاطل عن العمل) ، وكان عمله الوحيد في ذلك الحين هو ان يكون مدير **ناشي سلوفو** المسؤ ول ، أي الشخص المسؤ ول قانونياً عن الجريدة أمام السلطات . وكان يتحف هيئة التحرير بنكات يخترعها ويرويها بفنّ كوميدي من الطراز الرفيع . وقد فضحت انجليكا بالابانوف ، الاشتراكية نصف الروسية نصف الايطالية ، في **ناشي سلوفو** صديقها القديم ومحميّها موسوليني ، الذي كانت اخرجته من العدم ورفعته الى موقع مهم في الحزب الايطالي ، والذي كان يحث الآن ايطاليا الحيادية على الانخراط في الحرب . وكانت بالابانوف تترجم كذلك الى لغات عدة ، لكن للايطالية بوجه خاص ، مقالات

---

(١٥) أ . روسمر ، الحركة العماليةخلال الحرب ، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٩ .

(١٦) بيسيا اكسلرودا اي مارتوفا ، ص ٣١٩ .

تروتسكي المهمة ، مساعدة في ذلك على ابقاء جمهور الحزب الاشتراكي الايطالي في معسكر معارضة الحزب ؛ وكانت هيئة التحرير تضم كذلك رجالاً مثل سوكولنيكوف الذي سيغدو احد المنظمين الرئيسيين لانتفاضة اوكتوبر ، والمفاوض لاحقاً من اجل السلم في بريست ـ ليتوفسك ، ومفوض الشؤون المالية والديبلوماسي ، وبوكروفسكي المؤرخ ، وعدة اشتراكيين بولونيين مرموقين .

وبين المتعاونين من الخارج ، كان هنالك تشيتشرين ، مراسل الجريدة في لندن . ويتحدر من احدى كبرى العائلات الارستقراطية الروسية ، وكان سكرتيراً سابقاً لإحدى سفارات القيصر فترك العمل الدبلوماسي ليمارس في الظلمة الاهواء الكبرى التي شغفته في حياته : الثورة والموسيقى والتاريخ . وطوال سنين كان في باريس وجهاً مألوفاً في فرع مونبارناس للحزب الاشتراكي الفرنسي . وكان يظهر عادة في هذا الحي قبل منتصف الليل ، متلفعاً بدثار اسباني واسع ، حشيت جيوبه بعدد ضخم من الكتب والكراسات والصحف ، وخلال ساعات كان يعرض افكاره بهدوء دون ان يتعجل ، مدعماً حججه باستشهادات ومراجع يبحث عنها في مكتبة جيبه . ان عاداته الوطواطية وتذوقه للنقاش الدقيق ، لكن البطيء ، سوف تلازمه بعد ان غدا وزير الخارجية في جمهورية السوفييتات . وفي باريس ، كان تشيتشرين لا يزال منشفياً ، لكنه كان متحفظاً جداً وغريباً جداً فلا يغوص في الشؤون السياسية الخاصة بالهجرة ، لذا لم ينتبه احد للمواهب التي كانت تختبىء فيه . وقد فاجأته الحرب في لندن. يقول تروتسكي ، في مقال لا يبدو أنه تم نشره في يوم من الأيام ، ان الأوراق التي كان تشيتشرين يرسلها من لندن كانت تعكس روحاً اشتراكية ـ وطنية غامضة ، لكنها كانت مفعمة بالفرادة والرهافة بحيث كان يسره (أي تروتسكي) ان تنشر في الجريدة[١٧] . فيما بعد ، اتهم الانكليز تشيتشرين بالدعاوة ضد الحرب وسجنوه .

أما المراسلان المنتظمان الى هذا الحد أو ذاك في السويد والدانمارك فكانا الكسندرا كولونتاي ومويس اوريتسكي . كان الاثنان منشفيين قديمين ، لكنهما استفظعا الاشتراكية ـ الوطنيةوتطورا سريعاً نحو البلشفية . فكولونتاي سوف تصبح مفوضة للشؤون الاجتماعية في حكومة لينين الاولى ، اما أوريتسكي الذي عمل سابقاً في البرافدا الفيينوية ، فأصبح هو الآخر احد القادة البلاشفة الرئيسيين في عام ١٩١٧ . وكانت لائحة المتعاونين تضم كذلك تيودور روتستاين ، المؤرخ الانكليزي الروسي للشارتية والسفير اللاحق ،

---

(١٧) محفوظات تروتسكي .

ومايسكي ، السفير السوفياتي في لندن لاحقاً . نادراً ما تمكنت جريدة من ان تجمع فريقاً من المتعاونين بهذه الدرجة من الأهمية والهيبة .

كان اعضاء هيئة التحرير موحدين في معارضتهم للحرب وللاشتراكية ـ الوطنية ، لكن في ما عدا ذلك كانوا يمثلون اختلافات متنوعة في الرأي . وكانت اجتماعات هيئة التحرير التي تتم كل صباح في المطبعة مجالاً لنقاشات محتدمة تنعكس في اعمدة الجريدة . وكما يحصل في حال كانت الوحدة الظاهرية تخفي اختلافات في التوجه والطريقة ، كانت موضوعات النزاع معقدة وتنقصها الملاءمة واللباقة ؛ فالنقاشات كانت تتحول الى خصومات تقطر سمّاً . وكان في وسعنا ان نهمل تلك الخصومات لو لم تكن تكشف لنا المواقع الجديدة لمجموعات وافراد سيقودون فيما بعد إحزاباً كبيرة وحركات جماهيرية . والى جانب جريدة **الاشتراكي ـ الديمقراطي** التي كان يديرها لينين ، كانت جريدة تروتسكي ، في تلك المرحلة الحرجة ، أهم مختبر للثورة ، وكان الموضوع الذي يدور حوله الجدل بحرارة وحماس يتعلق بخط الفصل بين الأمميين والاشتراكيين الوطنيين . أين يجب ان يمر ذلك الخطر ، وبأي حزم ينبغي رسمه ، وعند أية نقطة يصبح نهائياً ؟ في الاجابات عن هذه الاسئلة ، كانت التكتلات والافراد تتقارب أو تتباعد ، وكان بعض الذين اعتقدوا في البدء أنهم من الرأي ذاته يقفون في مواقع متعارضة .

وباختصار ، كانت مجموعات ثلاث تحاول التأثير على **ناشي سلوفو** ، فمارتوف كان يبذل جهده للمصالحة بين اخلاصه للأممية الاشتراكية ووفائه للمنشفية ، وقد بدأ حذره القديم من البلشفية يهاجم شيئاً فشيئاً الأممية « الجافة » ، الحاسمة ، التي كان يدافع عنها لينين . وفي الطرف الآخر ، كان الأبناء الشاطرون للبلشفية ، مانويلسكي ولوزوفسكي ، وبدرجة أقل ، لوناتشارسكي ، الذين كانوا يتوجهون من جديد ، تحت دفع الحرب ، نحو لينين . أما تروتسكي فكان يحتل موقعاً وسيطاً ؛ كان يبذل جهده لاحتواء المجموعة المشايعة للبلشفية ولإقناع مارتوف بالانفصال عن الاشتراكيين ـ الوطنيين المناشفة في آن معاً . وقد كتب لوناتشارسكي : « كانت اجتماعات التحرير تستفيض في نقاشات لا تنتهي ، وينجح مارتوف دائماً في عدم اعطاء اجابة واضحة ، مستخدماً في ذلك مرانته الذهنية المدهشة ومهارته السفسطائية . . . وغالباً ما كان تروتسكي يهاجمه بعنف شديد ! »[١٨] في العدد الاول من الجريدة ، كان مارتوف قد فضح عدداً من انصاره[١٩] ، الا انه بعد مرور عدة اسابيع اعلن انه ليس من المناسب اتهام

---

(١٨) لوناتشارسكي ، ريفولوتسيوني ، سيلويتي ، ص ٢٣ - ٢٦ ، ٦٨ .

(١٩) ناشي سلوفو ، العدد ١ ، ٢٩ يناير ١٩١٥ ، كان مارتوف يدين فيه النشرة المنشفية ، ناشازاريا ، التي تصدر في بتروغراد .

« الاشتراكيين ـ الوطنيين » بخيانة الاشتراكية[٢٠] ، فانقلبت المجموعة المشايعة للبلشفية ضد مارتوف بنفور واستنكار . الا ان تروتسكي امتنع مرة أخرى عن قطع الجسور معه ، رغم كل الغضب الذي أبداه .

الا ان الأحداث الجديدة والكارثة المستمرة التي كانت تسقط في مهاويها الاشتراكية الاوروبية دفعته الى اعادة النظر في الخصومات الماضية ، وكما قال هو بذاته : « الى رؤية لينين من منظار جديد » . ويمكن ان نتابع خطوة فخطوة مراحل اعادة النظر تلك في **ناشي سلوفو** . في تموز / يوليو ١٩١٥ ، مثلاً ، اعترف بأن انقسام الحزب الروسي قبل الحرب كان على علاقة وثيقة بالمجادلة الحالية ، وأن البلاشفة كانوا قلب القطاع الأممي في الاشتراكية الروسية ، لكنه كان لا يزال يخشى ان يحاول هؤلاء السيطرة على الأمميين غير البلاشفة[٢١] . وقد احتج مارتوف على هذا الموقف ومواقف مماثلة اخرى ، ورفض تحمل مسؤولية التوجه الذي كان تروتسكي يعطيه للجريدة وهدد بالاستقالة . وفي الفترة ذاتها ، اخضع لينين تروتسكي لنقد لا هوادة فيه ، قائلاً أن أمميته لفظية محضة لأنها لم تكن تمنعه من التعاون مع الاشتراكيين ـ الوطنيين المناشفة .

وسط هذه المنازعة بالذات حصل الحدث الكبير في تلك الحقبة الذي لعب فيه تروتسكي الدور الرئيسي . ففي ٥ أيلول / سبتمبر ١٩١٥ ، افتتح في زيمرفالد ، وهي بلدة سويسرية جبلية صغيرة غير بعيدة عن برن ، مؤتمر تداولي أممي للاشتراكيين ، هو الأول منذ بداية الحرب . كانت المبادرة من طرف الاشتراكيين الايطاليين ، الذين لم يكونوا ينوون أبداً تحدي اممية ما قبل الحرب عن طريق الدعوة لمؤتمر تداولي . ففي ربيع ١٩١٥ ، جاء أوردينو مورغاري ، وكان نائباً اشتراكياً ايطالياً ، الى باريس ليطلب الى رئيس الأممية ، الاشتراكي البلجيكي فاندرفلد ، ان يجمع اعضاء الهيئة التنفيذية . وقد اجاب فاندرفلد : « طالما يسكن جنود المان لدى عمال بلجيكيين ، لا يمكن جمع الهيئة التنفيذية » ، فسأل مورغاري : « هل الأممية رهينة بين يدي التحالف ؟ »(*) فأجاب فاندرفلد : « رهينة ، بالضبط » . فاقترح مورغاري حينذاك ان تجتمع على الأقل الأحزاب الاشتراكية في البلدان الحيادية ، فرفض فاندرفلد الاقتراح ، مما دعا الايطالي الى الالتفات نحو مارتوف وتروتسكي والاشتراكيين السويسريين ، والايحاء بتنظيم مؤتمر تداولي بالاستقلال عن

---

(٢٠) المرجع ذاته ، العدد ٣١ ، ٥ آذار / مارس ١٩١٥ .

(٢١) المرجع ذاته ، العدد ١٤٦ ، ٢٣ تموز / يوليو ١٩١٥ .

(*) المقصود التحالف الذي انعقد بين فرنسا وانكلترا وروسيا ضد المانيا في عام ١٩١٤ .

الأممية القديمة . هكذا ولدت الحركة التي ستغدو خطوة رائدة على طريق الأممية الثالثة(٢٢) .

وفي زيمرفالد ، التقى ٣٨ مندوباً من ١١ بلداً ، متحارباً وحيادياً ، ليعيدوا تأكيد تضامنهم الأممي(٢٣) . وقد حملت البعثة الالمانية ، بقيادة العديد من النواب المؤتمرين في الرايخستاغ ، تحية كارل ليبكنخت الملقى به في السجن . وكان الوفد الفرنسي أقل أهمية ، لأن المجموعات المعادية للعسكرية في الحزب الفرنسي كانت ضعيفة ، ولم يكن حاضراً غير بعض القادة النقابيين . أما لينين فكان يمثل البلاشفة وكان أكسلرود يمثل المناشفة ، بينما اتى راكوفسكي وكولاروف من البلقان . كان هنالك بولونيون ، وسويسريون ، وهولنديون ، وايطاليون ، وآخرون ايضاً . وفي الأحوال العادية ، ما كانت جمعية من هذا النوع لتعتبر تمثيلية تماماً . لكن في أيام كان يعد فيها الاتصال بمواطن من بلد يشارك في الحرب في الخندق المعادي جريمة ، فإن واقع قيام قادة عماليين معروفين بـ « المجيء ليصافحوا بعضهم بعضاً من فوق الأسلاك الشائكة والخنادق المليئة دماً » ، هذا الواقع وحده كان يشكل تحدياً ، ينطوي على جسارة لا تصدّق ، في وجه كل الحكومات المتحاربة .

إلا ان اعضاء المؤتمر التداولي كانوا أقل توحداً في هدفهم مما كانت تفترضه قراراتهم . كان معظمهم من أنصار السلم ، مستعدين كلياً لإعادة تأكيد أيمانهم ، لكن غير راغبين اطلاقاً في المضي أبعد من ذلك . اما الاقلية المتحلقة حول لينين ، الذي كان يظهر للمرة الأولى كبطل اتجاه أممي ، لا روسي وحسب ، في الاشتراكية ، فطالبت المؤتمر بتبني موقف انهزامي تجاه كل الحكومات المتحاربة ، وبدعوة الشعوب « لتحويل الحرب الامبريالية الى حرب اهلية » وبإعلان الحاجة لأممية جديدة . ورفضت الأغلبية هذا البرنامج ، وكان تروتسكي متفقاً مع الاقلية حول معظم النقاط ، مع أنه لم يرد الموافقة على انهزامية لينين الثورية . (لقد كتب : « من مصلحة الاشتراكية ان تنتهي الحرب بلا غالبين ولا مغلوبين ») . وقد أكد ، علاوة على ذلك ، ان من الضروري تخطي الخلافات ليتمكن المؤتمر من ادانة الحرب بالاجماع . . . واتفق الجميع على هذه النقطة وطلبوا الى تروتسكي ان ينص مشروع اعلان سوف يشتهر سريعاً باسم بيان زيمرفالد . وصف فيه تروتسكي حالة اوروبا المتحاربة ، والقى مسؤولية ذلك على النظام الرأسمالي والحكومات والاحزاب

---

(٢٢) وصف تروتسكي الخطوات التمهيدية لمؤتمر زيمرفالد التداولي في ناشي سلوفو ، العدد ١٠٩ ، ١٠ أيار / مايو ١٩١٦ .

(٢٣) قبل افتتاح المؤتمر ، اجتمع الروس ليناقشوا تأليف وفدهم . ارسلت ناشي سلوفو ثلاثة مندوبين ، هم مارتوف وتروتسكي ومانويلسكي ، الذين كانوا يمثلون الاتجاهات الثلاثة في هيئة التحرير . ولما انكر لينين عليهم حق التمثل في الوفد ، انسحب مارتوف ومانويلسكي لصالح تروتسكي . وقد وافق المؤتمر التداولي على تروتسكي واعترف له بحقه الكامل في التصويت رغم احتجاجات لينين . وقد روى تروتسكي التفاصيل في ناشي سلوفو بنوع من الحرارة (العدد ٢١٢ ، ٩ اوكتوبر ١٩١٥) .

الاشتراكية التي خانت مثلها الأعلى ، وطالب الطبقة العاملة بأن تشفى من تسممها بالنزعة الشوفينية وتضع حداً للمجزرة . وقد بقي البيان مبهماً في استنتاجاته ، مهما يكن مؤثراً . فهو لم يدعُ الى الحرب الاهلية ، كوسيلة لوضع حد للحرب الامبريالية ، ولم يكن يتصور تأسيس اممية جديدة . وقد تبنى المؤتمر التداولي البيان بالاجماع ، الا ان مجموعة لينين سجلت تحفظاتها في المحضر ؛ وفي الاخير ، تم انتخاب لجنة اممية لم تكن تتعارض نظرياً في شيء مع الأممية الثانية ، لكنها اصبحت مع ذلك نواة للأممية الثالثة .

لم يسمح لتروتسكي بالعودة بسهولة الى فرنسا غير الحظ وحده . فحقيبته التي كانت تضم كل وثائق المؤتمر التداولي فُتحت وفتشت عند الحدود . اخذ احد المفتشين الوثائق ، لكنه حين رأى ورقة تحمل العبارة الجذابة والوطنية التي تقول : **عاش القيصر** ، اعتبر أن من غير المفيد مواصلة التفتيش . ففي زيمر فالد دوّن تروتسكي اثناء الجلسات ملاحظات على اوراق ونسخ هذه الجملة التي وجدها في مقال لغوستاف هرفي ، الفوضوي الفرنسي الذي غدا وطنياً . وفي باريس ، ألغت الرقابة التقارير عن المؤتمر التداولي . فكتب تروتسكي في **ناشي سلوفو** : « لقد انعقد المؤتمر رغم كل شيء وهذه مسألة جوهرية ، أيها السيد الرقيب . . . كتبت الصحافة الفرنسية أكثر من مرة أن كارل ليبكنخت أنقذ شرف المانيا . ان مؤتمر زيمرفالد أنقذ شرف أوروبا » . وتابع تروتسكي : « كتب استاذ بليو في **لوجورنال دي ديبا**(*) أنه لم يكن للمؤتمر أية أهمية وأنه كان موضوع تشديد لعزم المانيا ؛ وكتب من الجانب الآخر من الراين أستاذ له البلادة ذاتها ، كتب أيضاً أنه لم يكن للمؤتمر أية أهمية وأنه كان موضوع تشديد لعزيمة التحالف . واذا كان المؤتمر التداولي على هذه الدرجة من انعدام الأهمية والتفاهة ، لماذا منع رؤساؤكم أي تلميح إليه ؟ ولماذا اضطررتم رغم هذا المنع ، الى أن تبدأوا النقاش حوله ؟ وسوف تناقشون حوله أيضاً وأيضاً أيها السادة . . . . ما من قوة ستتمكن من محوه من حياة أوروبا السياسية »[٢٤] . وقد تم تشطيب المقال بالأسود اكثر من المعتاد : كان البياض يحتل مكاناً اكبر من النص المطبوع .

منذ بداية اقامة تروتسكي في باريس تقريباً ، تردد في البدء مع مارتوف ، ثم منفرداً ، على مجموعات صغيرة من المعادين للعسكرية الفرنسية ، وبصورة رئيسية النقابيين ، لا سيما الفرد روسمر وبيير مونات وبوردرون ومرهايم ، الذين سيؤسسون فيما بعد الحزب الشيوعي الفرنسي . كان تروتسكي يحضر بانتظام الاجتماعات اليومية لتلك

(*) جريدة المناقشات (م) .

(٢٤) ناشي سلوفو ، العدد ٢١٨ ، ١٩ اوكتوبر ١٩١٥ .

المجموعات التي كانت الشرطة تراقبها عن كثب . وقد جعلها تروتسكي تفيد من تجربته السياسية ، وشرح لها خلفية الحرب وانعكاساتها على الحركات العمالية الأجنبية ، ألهم سياستها وخرطها في حركة زيمرفالد . وكان هكذا ، الى حد ما ، عرّاب الحزب الشيوعي الفرنسي الذي احتفظ بعلاقات وثيقة معه في السنوات اللاحقة .

علاوة على تلك النشاطات ، كان تروتسكي ينجز عمله كمراسل لـ **فكر كييف** ، الذي كان يسمح له بكسب معيشته . كانت **فكر كييف** تدعم الحرب ، لذا كان على تروتسكي ان يتحايل في مقالاته بحذر ليتجنب استغناء الجريدة عنه . كان مدير الجريدة مغتبطاً جداً بنشر التنديدات بالامبريالية الألمانية ، التي يوجهها مراسلها في باريس ، إلا أن انتقاداته للتحالف لم تكن تُستقبل بالاغتباط ذاته . لم يكن باستطاعة تروتسكي أن يقول لقرائه في روسيا ، إلا نصف الحقيقة كما كان يتصورها ، النصف الذي يمكن للسياسة الرسمية الروسية أن تتكيف معه . وكان يحاول حين تسنح الفرصة ان يعبر بالشكل الذي يسمح للقارئ الفطن بأن يحزر النصف الذي لم يتطرق اليه . وبالنسبة لكاتب بيان زيمرفالد كان ذلك من المواقف الاشد إرباكاً ، لذا اقتصر اكثر فأكثر على الريبورتاج والتقارير العسكرية البحتة .

ان الرجل الذي تحدى من زيمرفالد قوى العالم العظمى والذي كان بيانه يدوّي عبر اوروبا لم يتخلّ مع ذلك عن مهامه الصحافية بازدراء . مضى الى مرافئ جنوبي فرنسا والمانش ليطّلع على انطباعات اولئك الموجودين خلف الجبهة ويقدّر معنوياتهم . وكما فعل أثناء حرب البلقان ، زار المستشفيات ليحادث الجرحى واختلط بالجنود الفرنسيين والانكليز في المقاهي ، وفي ميادين العرض بأسواق مدن فرنسا الصغيرة . وكان يستمع بفضول متيقظ دائماً الى القصص الممزقة التي يرويها اللاجئون البلجيكيون والفرنسيون والصربيون ، ويملأ دفتره الصغير بالملاحظات . وحين كان يعود الى باريس ، كان يقرأ حوالى عشرين جريدة اوروبية يومياً ، جالساً في مقهى **لاروتوند** ، حيث من المؤكد مصادفة مارتوف في أي ساعة من النهار . وكان يغادر **لاروتوند** مهرولاً الى مكتبة يغوص فيها في مجلات عسكرية جدية ، وفي صفحات الآداب الفرنسية والانكليزية والايطالية والالمانية والنمساوية والسويسرية . وكان يجد في تلك الرحلات والأيام المطبوعة بالاجتهاد الراحة والانشراح ، ويعد نفسه ايضاً لمهمة كبيرة . ومثلما سهلت تجربة نقيب نخبة مقاتلي هامبشاير عمل جيبون ، مؤرخ الامبراطورية الرومانية ، فإن تجربةمراسل حرب حي الضمير ستكون في يوم من الايام مفيدة لمؤسس الجيش الأحمر .

ان ريبورتاجاته العسكرية ، التي اعيد نشرها في كتاباته ، تم نسيانها تماماً منذ كسوفه السياسي . الا انها اذا اضيفت لدراساته التي يعود تاريخها الى الحرب الأهلية ، يمكن ان تؤمن له مكانة في تاريخ الفن العسكري . ومثل معظم الماركسيين الذين تعمقوا في درس المشكلات العسكرية تأثر تأثراً شديداً بنظريات كلوزفيتز الاستراتيجية . ومع انه كان هاوياً على صعيد هذه المادة ، الا انه كان يتميز عن الخبراء العسكريين المعاصرين ، أكانوا انصاراً لكلوزفيتز أو لا ، بأنه يرى خلف قرقعة السلاح نزاعاً بين القوى الاقتصادية والأنظمة السياسية ، ويهتم بمعنويات الأمم المتحاربة ، بالكثير من الفطنة ونفاذ البصر .

ومنذ الأسابيع الأولى للعمليات العدائية تقريباً ، تنبأ بالركود طويل الأمد والدامي لحرب الخنادق ، معارضاً في ذلك الرأي السائد لدى الخبراء ، وسخر من الآمال التي كان يعلقها ورثة كلوزفيتز الالمان على قوة جيشهم الهجومية[٢٥] . وفضح كذلك الوهم ، الفرنسي بشكل خاص ، حول استراتيجية دفاعية بحتة وحرب استنزاف ، وأوضح ان مفهوماً من هذا النوع للدفاع سيؤدي بالفرنسيين الى المبادرة باستمرار للقيام بالهجمات الأكثر كلفة والاكثر انعدام جدوى ، وان حرب استنزاف ستكون دموية اكثر بكثير من حرب عادية ، لا العكس . لقد قال ان ضجيج اقدام الجيوش هو ناتج توازن بين الموارد الاقتصادية الخاصة بالقوى المتقاتلة . وهذه الاطروحات التي لا نستطيع إلا ان نلخصها هنا باقتضاب سمحت لتروتسكي في السنوات الثلاث الاولى من الحرب بأن يتوقع بدقة نادرة مجرى العمليات العسكرية المختلفة . ان الجمودية الاستراتيجية المحتومة كانت تفتح آفاقاً للثورة ، لأن حرب الخنادق ـ حسبما قال ـ كلما طالت وتواصلت تهدم أسس المجتمع القديم . وفي بعض الاحيان ايضاً ، كان تروتسكي يتوقع تقدماً استراتيجياً حين تطول الحرب كثيراً ، ولم يكن بعيداً عن الحدس باختراع الدبابة[٢٦] . لكن بشكل اجمالي ، اضفى الكابوس ، الحقيقي جداً لمدى طويل ، المتعلق بالمجزرة المتبادلة والمكررة باستمرار على يد جيشين لهما القدرة ذاتها ، أضفى الغموضَ والابهامَ على تأملاته حول الفن

---

(٢٥) تروتسكي ـ سوش . ج ٩ ، ص ٧ ـ ١٥ .

(٢٦) توقع في احدى المرار ، ان القادة العسكريين سيهملون بعد الحرب ، او يتناسون هذا السلاح الجديد الذي سيحسم نتيجة الحرب . وهو توقع هكذا تقريباً ان تهمل هيئتا الاركان الفرنسية والانكليزية سلاح المصفحات عشية الحرب العالمية الثانية ، المرجع ذاته ص ١٩٠ . وفي استطراد ساخر ، فضح مسبقاً وهم وجود خط ماجينو ، كما كان بدأ يظهر لدى الفرنسيين في تلك الحقبة . « ان انتصار الفرنسيين (في الدفاع) واضح جداً بحيث لا يرى الخبراءالعسكريون وحدهم فيه ترياقاً بل كذلك . . . انصار السلام . وقد توصل احدهم الى هذه الخلاصة السعيدة القائلة انه يمكن الغاء الحرب كلياً عن طريق تعزيز الحدود بخنادق متصلة والدفاع عنها بتيار كهربائي قوي . يا له من نصير للسلام بائس ومتقيح يبحث عن ملجأ في الخنادق » . الاستشهاد المذكور .

العسكري ، وأربك احكامه في السنة الاخيرة من الحرب ، بحيث سنرى انه اقترف اخطاء خطيرة في التقدير .

لكن اذا كان تابع بقدر من التجرد مجرى الأعمال العدوانية وشغف بالنظريات العسكرية ، فلقد كان في الوقت ذاته مأخوذاً بمأساة اوروبا ، الدامية والمضطربة . ان هذا الاهتمام بـ « العامل البشري » يرتفع بتأريخه ليوميات الحرب فوق المستوى الصحفي البحت بكثير . ان مقال « اسلاك شائكة ومقصات » ، مثلاً ، الذي هو تحليل تقني لحرب الخنادق يتخيل ، في الوقت ذاته ، بحدس نادر ، نتائجها النفسية بالنسبة للفرق التي تخوضها ، ويصعب ان نصدق بأن كاتب هذه الدراسة ، التي جرى فيها تحليل الجو الغريب المسيطر على حياة الخنادق تحليلاً حمياً ، لم ير في يوم من الأيام خندقاً . وتروتسكي يتفوق في هذا المجال على الكثير من الادباء ، من مثل رومارك ، وزفايغ ، وهاسيك ، وشيريف ، وباربوس ، وغلازر وآخرين ، الذين كتبوا مسرحيات وروايات ، من نوع السيرة الذاتية ، حول هذا الموضوع .

ولنكرر أنه لو لم يكن نجاح مؤلفات تروتسكي ومصيرها مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بقدر مؤلفها وطالعه السياسيين وبردود الفعل المتعاطفة او النافرة التي يثيرها اسمه لوحده ، لكانت تلك المؤلفات ضمنت لوحدها لتروتسكي مكانة مرموقة في الأدب . فأخباره الوصفية روائع صغيرة حقيقية ، يروي لنا فيها في اغلب الاحيان قصة جندي واحد ، ويستخلص من المغامرات التي مر بها وجهاً معبراً وخاصاً من وجوه الحرب. ففي « فوج المشاة السابع في الملحمة البلجيكية » ، مثلاً ، الذي كتبه في كاليه خلال شباط / فبراير ١٩١٥ ، يروي قصة دوباير ، طالب الحقوق في جامعة لوفان ، هذه القصة التي تتلخص فيها كل دراما بلجيكا المكتسحة والمحتلة . يبدأ مع الطالب الشاب منذ اعلان الحرب ويتابعه عبر تشوش التعبئة ، ووسط المعارك ، والانسحابات ، والتطويقات ، وحالات الهرب ، في سلسلة من المشاهد الغريبة لكن العادية جداً مع ذلك ، يرينا فيها رعشة الوطنية العميقة لدى الشعوب المغزوة ، وآلامها ، وبطولتها اللاواعية ، التي هي في الغالب ثمرة الصدفة ، حيث يتداخل المأساوي والهزلي بشكل وثيق ، وفي الأخير وبوجه خاص عبث الحرب الذي لا حدود له . يعاني دوباير وساوس رهيبة في الخنادق ويدافع عن رفاقه الجنود ببطولة ، دون ان يكون اراد ذلك ، ويعود الى الخنادق ، ومن دون ان يريد ، يتصرف ببطولة في احدى المعارك ، فيستحق بذلك تعليق وسام له بالكثير من الأبهة . بعد ذلك تطوّق وحدته ، ويخرج وحده ، تقريباً ، على قيد الحياة ، من دون خدش واحد، ومن دون ان يفقد في المعركة غير نظارتيه . وبعد ارساله الى مستشفى في فرنسا ، يعتبره الاطباء

حسير النظر للغاية ، بحيث لا يصلح ليكون جندياً ، ويجري تسريحه . ولما كان الجهاز العسكري قد القى به في بلد أجنبي ، يجد نفسه عاطلاً عن العمل ، وحين يلتقيه تروتسكي يكون شبيهاً بمتشرد جائع . هذه القصة المكتوبة بواقعية وببساطة لا مزيد عليهما تُقرأ كمقطع من حرب وسلام(*) حديثة . والمؤلف لا يقوم بدعاوة ايديولوجية ، فبطله ليس بروليتارياً . ان وطنية البلجيكيين في مواجهة الغزاة ، المتناقضة مع ذلك مع مواقف المؤلف السياسية ، مُصوَّرة بمودة حارة لدرجة ان القصة يمكن ان تكون جزءاً من أنطولوجيا وطنية لآلام البلجيكيين ، وهذا لا يمنعها من ان تفضح بشكل اكثر فعالية عبثية الحرب .

القريحة ذاتها ، وراء « على دفتر ملاحظات أحد الصربيين » . هنا ملحمة أمة صغيرة اخرى ، تُقابَل بالغزل في البدء ، ثم بالاستغلال ، ثم بالسحق اخيراً من جانب القوى العظمى . هذه الملحمة تبدو عبر مغامرات تودور تودوروفيتش ، وهو فلاح صربي أصله من مقاطعة تحت السيطرة النمساوية ، فر من الجيش النمساوي . يسير تودور تودوروفيتش بصعوبة مع الجيش الصربي المتقهقر ، ويجتاز القرى المحروقة والجبال المغطاة بالجليد . يتعرض في الغالب لخطر اطلاق النمساويين النار عليه ، إما كفار من الجندية أو كخائن صربي ، أو اطلاق الصربيين النار عليه كجاسوس نمساوي . فينجح في التخلص في كل مرة بصورة مأسا - هزلية ، يهرب جاراً قدميه ليشهد مشاهد هول مرعبة ، وينتهي بأن يصبح رمز الانسان المتروك في عالم قصفت فيه الوحشية البدائية قشرة الحضارة الرقيقة(٢٧) .

وفي دراسات أخرى مثل « الألغاز النفسية للحرب » ، يحاول تروتسكي ان يتخيل الوضع الذي ستخرج به الروح الاوروبية من هذه التضحية البشرية العملاقة . ويتوقع ألا يتمكن انسان الخنادق من التكيف مجدداً بسهولة مع حياة اجتماعية « عادية » :

« . . . ان الكارثة الحالية سترسل في السنوات والعقود والقرون القادمة إشعاعاً دامياً ، ستتأمل على ضوئه الاجيال اللاحقة قدرها الخاص بها ، مثلما شعرت اوروبا الى الآن باشعاع الثورة الفرنسية الكبرى والحروب النابوليونية . ومع ذلك ، كم هي تافهة احداث الماضي الكبرى تلك . . . اذا قورنت بالمغامرات التي نحياها ، ونجتازها ، ولا

(*) المقصود رواية تولتسوي ، الحرب والسلام (م) .

(٢٧) المرجع المذكور ، ص ٨٧ - ١١٢ . « اين هو السويفت المعاصر الذي سيمد لأوروبا البورجوازية مرآته الهجائية ؟ » - هكذا تساءل تروتسكي في ناشي سلوفو ، في ١٦ أيار / مايو ١٩١٦ ، وصوّر بسخرية كيف كانت السفارات وهيئات الأركان والاكاديميات الفرنسية والالمانية تستغل ، كل لأهدافنا الوطنية الخاصة بها ، ذكرى ميلاد سرفانتس .

سيما تلك التي نسير نحوها . ان للروح الانسانية ميلاً الى التفاهة ، وهي لا ترتفع الا ببطء ، ومع الشعور بالأسف ، الى مستوى هذه الاحداث العملاقة . انها تبذل جهدها غير الواعي لتقزيمها من اجل التمكن من هضمها بسهولة اكبر . ليست روحنا هي التي تسيطر على الاحداث الكبيرة ؛ على العكس ، فالأحداث التي تنتج عن مزج لقوى تاريخية موضوعية كبيرة وتداخلٍ فيما بينها ، وتسلسلٍ لها ، تُكرَه روحنا على التكيف بفظاظة وبصورة عرجاء . هذه الحقيقة التي يستكرهها جنون عظمتنا كثيراً ، والتي هي عندنا طبيعة ثانية ، تهتف من فوق قرقعة السلاح والمدافع ، بالمصير الحالي للأمم المتمدنة »[٢٨] .

* * *

حوالى نهاية عام ١٩١٥ ، تفاقم الانشقاق داخل حركة زيمرفالد . كانت الأقلية التي يقودها لينين تتباعد بوضوح أكبر فأكبر عن الاشتراكيين المسالمين و « الوسطيين » ، انصار البقاء في الوسط . واحتدمت الخصومة حين بدأت حكومات البلدان المتحاربة ، يدعمها الاشتراكيون ـ الوطنيون ، تضطهد حركة زيمرفالد وتسجن قيادييها والمنضمين اليها او ترسلهم الى الخنادق في الجبهة . وكان المهاجرون الروس مغتاظين من سلوك النواب المناشفة في الدوما ، اما النواب البلاشفة فصدرت الاحكام بحقهم ونفوا الى سيبيريا . تكلم قائد المجموعة المنشفية ، الجيورجي تشخيدزه ، في الدوما على حركة زيمرفالد ، لكنه دافع عنها برخاوة وبصورة ملتبسة بحيث كان خطابه يعادل ادانة . وقد ندد لينين بتشخيدزه في الحال وطلب الى كل الاعضاء الروس في حركة زيمرفالد ان يحذوا حذوه في ذلك .

وتفاقم الخصام أكثر حين بدأ في روسيا كل من فيرا زاسوليتش وبوتريسوف ، يسيران على خطى بليخانوف في دعم الحرب . وكان ذلك بالنسبة لتروتسكي ضربة جديدة وخيبة جديدة . ففي البدء قاده احترامه لشيوخ الحزب الى التخاصم مع لينين . ومع انه تخطى اولئك الشيوخ منذ ذلك الحين وابتعد عنهم ، الا انه احتفظ بكامل احترامه لهم . اما الآن فكان يراهم جميعاً ـ باستثناء اكسلرود المهاجر ـ « يهجرون القضية » . وكان تروتسكي ارتبط قبل الحرب بعلاقة سياسية بتشخيدزه ايضاً . وفي رسالة الى تشخيدزه بالذات ، كان وصف لينين في عام ١٩١٣ بـ « المعلم في الشجارات هذا . . . هذا المستغل المحترف لتأخر الحركة العمالية الروسية . . . »[٢٩] . وقد حاول تروتسكي في تلك الفترة

(٢٨) تروتسكي ، سوش . ، ج ٩ ، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٨ . كتبت هذه الكلمات في سبتمبر ١٩١٥ .

(٢٩) وجدت هذه الرسالة في محفوظات الشرطة الروسية في عام ١٩٢١ . ان اولمينسكي الذي كان مسؤولاً عن محفوظات الحزب كتب لتروتسكي طالباً اليه اعلامه اذا كان ينبغي نشر تلك الرسالة ، فعارض تروتسكي ذلك شارحا ان ثمة ضرراً سياسياً

ان يجد ظروفاً مخففة لسلوك تشخيدزه ، لكنه قطع صلته بفيرا زاسوليتش بقلب حزين ، كما فعل مع بارفوس(٣٠) . وفي اكثر من مرة ، يتساءل لماذا جحد الحرس القديم مبادئه ، واذا لم يكن لينين محقاً منذ البدء في نبذهم والتقدم الى الامام .

ويصف تروتسكي في سيرته الذاتية تطوره نحو البلشفية كسيرورة قرّبته ، بكامل اختياره ، اكثر فأكثر إلى لينين ، إلا أنه لا يعترف بتأثير بعض المتعاونين مع الجريدة عليه . والحقيقة التي تنبع من صفحات ناشي سلوفو هي انه انساق في هذا الطريق واندفع فيه تحت تأثير انصار البلشفية في فريقه الذين كانوا اسرع من تروتسكي ، رغم انه لم تكن لهم اهميته ، في ادراك توجه الخطر الجديد ، وحثّوه على التخلي عن ولاءاته القديمة واستخلاص الاستنتاجات التي يفرضها الوضع الجديد(٣١) .

وقد كتب احدهم : «لا ينبغي مشاطرة (مجموعة لينين) عصبويتها الضيقة ، ولا حاجة للقيام بذلك . . . لكن لا يمكن ان ننكر ان . . . ما يدعى اللينينية في روسيا ، في قلب العمل السياسي بالذات ، يتخلص من ملامحه العصبوية . . . وأن مجموعات العمال المرتبطين بالاشتراكي ـ الديمقراطي (جريدة لينين) هي اليوم ، في روسيا ، القوة الأممية النشطة والمتماسكة الوحيدة . . . بالنسبة لهؤلاء الأمميين ، الذين لا يدخلون في أي تكتل ، لا مخرج آخر غير الاتحاد مع اللينينيين ، وهذا يعني في معظم الاحوال الدخول في المنظمة اللينينية . . . وبالطبع ، فباندماجنا باللينينيين سوف نتعرض لخطر خسارة بعض ميزاتنا الخاصة بنا وهي ميزات لا تخلو من القيمة . . . الا ان روح صراع الطبقات ، التي لا تعيش في مختبراتنا الأدبية ، بل في غبار الصراعات السياسية وحمّاها ، سوف تتنشط وتحقق انطلاقة جريئة »(٣٢) .

وقد حاول آخر ، هو منشفي قديم بدوره ، ان يشرح لماذا غدا قدامى مؤسسي الاشتراكية الروسية « انتهازيين اشتراكيين وطنيين » . بدأوا مسيرتهم السياسية والأدبية بنقد طوبى النارودنيين الارادية وهو ما أعطاهم وجهاً لم يسعهم في يوم من الايام ان يتخلصوا منه . وفي مجادلاتهم ضد النارودنيين ، اهتموا بشكل حصري بـ « الشروط

يترتب على بعث جدالات قديمة ، بمقدار ما لم يكن يعتقد انه اخطأ دائماً في الانتقادات التي وجهها للبلاشفة . انظر رسالة تروتسكي الى اولمينسكي ، في ٦ ديسمبر ١٩٢١ ، في محفوظات تروتسكي .

(٣٠) ناشي سلوفو ، العدد ٥٩ ، ٩ آذار / مارس ١٩١٦ .

(٣١) في الفترة التي كتب فيها تروتسكي سيرته الذاتية ، عام ١٩٢٩ ، كان معظم مساعديه القدامى في ناشي سلوفوا قد اصطفوا الى جانب ستالين بمواجهته .

(٣٢) ناشي سلوفو ، العدد ١٥ ، ١٩ ، يناير ١٩١٦ .

الموضوعية » ، بما كان ممكناً في روسيا من الناحية التي سلطوا عليها الاضواء . لقد كان للمناشفة فضل لا جدال فيه في تحليل الظروف الاجتماعية الخاصة بروسيا ، وفي توخي أوْربة الحركة العمالية ، وهو فضل ـ يضيف المؤلف ـ كان كذلك للبرافدا التي اشرف عليها تروتسكي إلا أنهم اهملوا كلياً ان يُنَمُّوا الارادة الثورية التي تعدل الشروط الاجتماعية الخاصة بالوسط الذي تظهر فيه ؛ فالارادة والعمل الانسانيان يتساويان من حيث الجوهر في النظرية الماركسية مع الحتمية . ويخلص المؤلف الى القول ان مجموعة لينين هي التي تجسدهما . وهذا ما يفسر كيف ان موجة الاشتراكية ـ الوطنية جرفت في طريقها المناشفة ، وهذا ما يفسر ايضاً كيف تمكن البلاشفة من مقاومتها(٣٣) .

وقد استخدم مانويلسكي (بوجه خاص) ولوزوفسكي المحاجَّة ذاتها ؛ فإذا رفض مانويلسكي القبول باللينينية على اساس انها « النموذج الجاهز للأممية الجديدة » ، وانتقد كذلك « تبسيطيتها الضيقة والفظة » ، الا انه أكد أن البلشفية أصبحت ، بحقٍ ، قلبَ الحركة الثوريةالروسية ، بسبب الأهميةالتي كانت توليها للارادة والعمل. كتب يقول : « لقد وضع التاريخ الطبقة العاملة الروسية في وضع اكثر ملاءمة للمبادرة الثورية من الوضع الذي وجدت فيه البروليتاريا الغربية . انه يفرض علينا واجبات والتزامات اسمى من تلك التي يفرضها على الحركة العمالية الاوروبية » . الا انه كان اكثر الحاحاً ايجاد ارضية وفاق مع مجموعة لينين . وقد انتقد مانويلسكي تروتسكي ، باحتشام ودون تسميته ، لأنه حاول ايجاد الاعذار للسلوك الملتبس الخاص بتشخيدزه والنواب المناشفة الآخرين(٣٤) .

خضع تروتسكي لهذه التأثيرات المختلفة بصورة واضحة للغاية . ان الكره الذي كان يمكن لرجل كمانويلسكي ان يشعر به تجاه « العصبوية » والجانب الروسي بشكل خاص في البلشفية كان اقوى بكثير لدى تروتسكي . الا انه كان ينادي ، هو الآخر ، بتعاون وثيق مع « مجموعات اللينينيين النشيطة جداً والمؤثرة جداً » ، مع انه كان لا يزال يخاف ان يبقى وجهاً لوجه معها (٣٥) . وحين قرر أن يجعل من التقارب مع البلاشفة مبدأ لسياسة الجريدة ، استقال مارتوف من **ناشي سلوفو** ، بعد الكثير من التحذيرات

---

(٣٣) كان مؤلف هذا المقال ك . زاليفسكي ، وهو اشتراكي بولوني دعم قبل الحرب التصفويين المناشفة . ناشي سلوفو ، العددان ٣٥ و ٣٦ ، في ١١ و ١٢ شباط / افبراير ١٩١٦ .

(٣٤) ناشي سلوفو ، الاعداد ٧٥ ـ ٧٨ ، ٢٩ آذار / مارس ـ اول نيسان / ابريل ١٩١٦ . وفي الأعداد ذاتها واصل تروتسكي الدفاع عن تشخيدزه في افتتاحيات غير موقعة .

(٣٥) المرجع ذاته ، العدد ٨٩ ، ١٤ نيسان / ابريل ١٩١٦ .

والتحذيرات المضادة ، ممتلئاً بالضغينة[٣٦] . وهكذا انتهت صداقة قديمة اخرى ، في الوقت الذي كان تروتسكي يخطو فيه خطوة جديدة باتجاه لينين والأممية الثالثة .

إلا أنه لا تروتسكي ، ولا حتى لينين ، كانا قد قررا قطع العلاقة بالأممية الثانية ، فوراً وللأبد . وفي ربيع ١٩١٦ ، وبعد أن ذعر قادة هذه الأخيرة من رد الفعل الذي أحدثته حركة زيمرفالد ، عقدوا في الأخير اجتماعاً في لاهاي لمكتب الأممية . وقد طلب لوزوفسكي الى الاشتراكيين ، عبر صفحات **ناشي سلوفو** ، أن يقاطعوا المؤتمر التداولي أو ألا يحضروه إلا ليعلنوا عالياً انهم ينسحبون من منظمة ما قبل الحرب . وفي اجابة بالغة الأهمية بالنسبة لمؤرخ الأممية الثالثة ، اقترح تروتسكي موقفاً أكثر حذراً : « من الممكن ان نكون ، نحن اليسار ، قادرين ، على مقاطعة مؤتمر لاهاي التداولي اذا كانت الجماهير تدعمنا . يمكننا حينذاك ألا نذهب إلا للتظاهر . . . كما ينصحنا لوزوفسكي بأن نفعل ، حاكماً مسبقاً على القضية ، ومن دون أن يقدم لنا امكانية أخرى . لكن من الممكن أيضاً ان تجبرنا مواقف الحركة العمالية لفترة من الزمن على ان نكون يسار **أمميتهم** (الثانية) »[٣٧] . وأعاد الى الأذهان أن حركة زيمرفالد لم تظهر كمحاولة صريحة لخلق أممية جديدة . ان موقف تروتسكي في هذا الموضوع كان موقف لينين لكن بصورة أقل جزماً . وفي نهاية نيسان / ابريل ١٩١٦ ، جذب لينين خلفه المؤتمر التداولي الثاني لحركة زيمرفالد الذي انعقد في كيينتال في سويسرا . ولم يستطع تروتسكي حضوره لأن السلطات الفرنسية منعته هذه المرة من اجتياز الحدود ، ورغم أنف الرقابة الصارمة ، أعلن في **ناشي سلوفو** عن تضامنه مع من كانوا في كيينتال وعن تأييده لقراراتهم[٣٨] .

كانت مسائل اكثر اهمية لا تزال تفصل تروتسكي عن لينين . كان هنالك قبل كل شيء مشكلة الانهزامية الثورية ، فقد كتب تروتسكي : « لا تكسب الثورة شيئاً من مراكمة أكبر للهزائم » ، فيما كان يؤكد لينين ان هزيمة عسكرية تنزل بروسيا تسهّل الثورة . وللوهلة الاولى ، يتعلق الأمر بأطروحات متعارضة جذرياً ولا يمكن المصالحة فيما بينها ؛ هكذا يصور المؤرخون الستالينيون الموضوع . وفي الواقع أن الخلاف لم يكن سياسياً ، بل كان يتناول طريقة الدعاوة . فلينين وتروتسكي كانا ينصحان الاشتراكيين بتحويل الحرب الى ثورة ، وبنشر أفكارهم ومفاهيمهم في صفوف العمال والجيش ، حتى لو أدى ذلك الى

---

(٣٦) المرجع ذاته ، العدد ٩٣ ، ١٩ ابريل ١٩١٦ .

(٣٧) المرجع ذاته ، العدد ٩٧ ، ٢٣ نيسان / ابريل ١٩١٦ . وقد استشهد تروتسكي دعماً لموقفه بجريدة الشيوعي ، وهي جريدة بلشفية كان يديرها بوخارين الذي صاغ فكرة مشابهة .

(٣٨) المرجع ذاته ، العددان ١١١ ، و ١١٥ ، في ١٢ و ١٧ أيار / مايو ١٩١٦ . انظر ايضاً عدد ٢ ايلول / سبتمبر ١٩١٦ .

اضعاف بلادهم عسكرياً . وكانا يعتبران معاً أن الخوف من الهزيمة القومية ينبغي ألا يحرف الاشتراكيين عن واجبهم . ورغم الاصرار الاستفزازي الذي كان يتكلم به لينين على الانهزامية ، فهو لم يكن يطالب المناضلين بأن ينخرطوا في أعمال انهزامية بوجه الدقة أو بأن يشجعوا الآخرين على القيام بتلك الأعمال ، من مثل التخريب والفرار من الجيش ؛ كان يشرح فقط أن من واجب الاشتراكيين الروس المقدس ان يقوموا بالتحريض الثوري ، حتى لو انطوى هذا التحريض على خطر اضعاف قوة روسيا العسكرية ، وذلك بأمل أن يفعل الثوريون الالمان الأمر ذاته ، بحيث تسقط كل الحكومات الامبريالية في نهاية المطاف تحت ضربات الأمميين مجتمعة . ان هزيمة أحد البلدان لن تكون هكذا غير حادث عرضي في مسيرة الثورة من بلد الى آخر . أما تروتسكي ، ومعه عدد كبير من انصار لينين بالذات ، فكانوا يرفضون ان يربطوا نجاح الثورة بالهزيمة هذا الربط الحصري(٣٩) . فكان تروتسكي يقول إنه تكفي المناداة بالثورة واعدادها دون حسبان الوضع العسكري ؛ وكان للموقفين ، من وجهتي نظر المدافعين عنهما ، منافعهما ومساوئهما . فقد كانت لا ـ انهزامية تروتسكي تتميز بكونها لا تعرض الامميين مسبقاً للاتهام بتقديم الدعم والمساعدة للعدو . أما موقف لينين فرغم المساوئ التكتيكية كان يسمح بشكل أفضل بتحصين الأمميين ضد الوطنية المحاربة ، وبوضع حاجز منيع بينها وبين خصومها . وفي عام ١٩١٧ كان هذان الشكلان المتباينان من النضال ضد الحرب يتعايشان في سياسة الحزب البلشفي دون احداث خصومة أو خلاف .

وكانت الولايات المتحدةالاوروبيةتشكل موضوع تباين آخر. هذه الولايات المتحدة الاوروبية ، التي اعتبرت فيها بعد تروتسكية من حيث الجوهر ، أدخلها لينين في اطروحاته الخاصة حول سياسة الحرب الاشتراكية منذ أيلول / سبتمبر ١٩١٤(٤٠) . كانت ترمز الى أمل لينين وتروتسكي الذي لا يتزعزع بأن تهز الثورة البروليتارية أوروبا جمعاء في نهاية الحرب . إلا ان لينين كان يصوغ اعتراضات بما يخص الطريقة التي كان يدافع بها تروتسكي عن وجهة نظره ، لأنه بدا في احدى اللحظات ان تروتسكي يوحي بأن الثورة لن تتمكن من الاندلاع في روسيا ، إلا اذا تلازمت مع هزة اوروبية شاملة . وكان لينين يقول ان موقفاً كهذا يمكن ان يقود الى الطمأنينيَّة(*) ويدفع اشتراكيي أي بلد الى ان ينتظروا بهدوء ان يبدأ الآخرون » . ومن جهة اخرى ، فهو لم يكن يستبعد الوهم المسالم القائل بأنه

(٣٩) ناشي سلوفو ، العدد ٦٨ ، ٢١ آذار / مارس ١٩١٦ ، سوتسيال ديموكرات ، العدد ٥١ .

(٤٠) لينين ، سوش . ، ج ٢١ ، ص ٤ .

(*) نزعة صوفية تجعل من الكمال حالة طمأنينة واتحاد بالله ، وهنا المقصود نزعة للانتظار والامتناع عن المبادرة والعمل (م) .

يمكن للولايات المتحدة الاوروبية ان تقوم على قاعدة غير اشتراكية ، اي على قاعدة رأسمالية . كان يقول لينين أن باستطاعة الثورة ان تنتصر في روسيا قبل ان يتحرك سائر اوروبا ، لأن « التطور الاقتصادي والسياسي غير المتساوي قانون محتّم من قوانين الرأسمالية » . وقد تعرض تروتسكي لهذا النقد حين اندفع وراء الرؤيا الرائعة لقارة اشتراكية موحدة فزعم أن الحرب « بتحطيمها الدولة القومية ستدمر كذلك القاعدة القومية للثورة »[٤١] . فاذا نظرنا الى الفحوى العامة لاستدلال تروتسكي يبدو التفسير الذي أعطاه لينين للكلمات المستشهد بها عندئذٍ غير سليم ، لأن تروتسكي ما انفك يؤكد ان الثورة الروسية ستكون الاولى التي ستنتصر ، وستحفز ثورات جديدة في كل مكان .

ردّ تروتسكي على لينين بالطريقة الآتية : « ليس على اي بلد أن ينتظر بكسل ، من أجل خوض النضال ، أن يكون ابتدأ الآخرون . إنها حقيقة أولية من المفيد ترددادها . . . علينا خوض النضال على أرضنا القومية ، من دون انتظار الآخرين ، متأكدين من أن مبادرتنا ستكون مهمازاً للبلدان الأخرى[٤٢] » . وكان تروتسكي يواصل محاجته بتحليل ينطوي على بذور خصومة ، لا مع لينين بل مع خليفته ، وهو يقول : صحيح ان الرأسمالية تطورت بصورة « غير متساوية » . وهذا هو السبب في ان الثورة لن تنتصر في البدء إلا في بلد واحد ، إلا أن « لا تكافؤ التطور هو بحد ذاته غير متكافىء » . ان بعض البلدان الأوروبية أكثر تقدماً من الناحيتين الاقتصادية والثقافية من بلدان أخرى ، إلا أن أوروبا ، منظوراً اليها بمجملها ، هي اكثر تقدماً من افريقيا أو آسيا ، واكثر نضجاً بالنسبة لثورة اشتراكية . ليس ضرورياً ، بالتالي ، تصوُّر أن الثورة ستبقى معزولة ، بشكل دائم أو خلال زمن طويل ، في بلد واحد . ليس ثمة إذاً حاجة للوقوع في « مسّيانية (*) ثورية قومية تجعلنا نعتبر دولتنا القومية الخاصة بنا كالمسيح المعد لقيادة البشرية الى الاشتراكية . اذا كان بإمكاننا ان نتصور حقاً ان ثورة اجتماعية تنتصر داخل بلد واحد ، فسيكون اذاك للموقف المسّياني . . . تبريره التاريخي النسبي » . « ان النضال للحفاظ على القاعدة القومية للثورة الاجتماعية بطرائق تهدد بتحطيم تضامن البروليتاريا الأممي ، انما يعني تهديم أسس الثورة بالذات . على الثورة أن تبدأ على قاعدة قومية ، لكن اذا أخذنا بالاعتبار التداخل الاقتصادي والسياسي ـ العسكري للدول الاوروبية ، فهذه الثورة لا يمكن ان تنجز على هذه القاعدة[٤٣] » .

---

(٤١) ناشي سلوفو ، العدد ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٤ شباط / فبراير ١٩١٥ .
(٤٢) المرجع ذاته ، العدد ٨٧ ، ١٣ نيسان / ابريل ١٩١٦ .
(*) اعتقاد يرى ان مسيحاً شخصياً سيأتي ليحرر الناس من الخطيئة ويقيم مملكة الله على الأرض (م) .
(٤٣) الاستشهاد ذاته .

لم يصغ لينين اعتراضاً على هذا الكلام . اما ما يسترعي انتباهنا الآن لدى تروتسكي فإنما هو حدسه ، المعبر عنه بصورة سلبية ، في الـ « مسّيانية الثورية القومية » التي تجعل أمة تعتبر نفسها « كالمسيح المعد لقيادة البشرية الى الاشتراكية » . هذه المسيانية ، سيصبح ستالين في سنواته الاخيرة هو المعبر عنها[٤٤]

***

كان تروتسكي قد أمضى في باريس حوالى سنتين حين حظرت الشرطة الفرنسية **ناشي سلوفو** في ١٥ أيلول / سبتمبر ١٩١٦ . وفي صباح اليوم التالي تلقى تروتسكي الامر بمغادرة البلاد ، فاحتج النواب الاشتراكيون لدى رئيس المجلس ؛ أريستيد بريان ، وجرى تأجيل تطبيق قرار الطرد . ومن الناحية القانونية ، لم يكن هنالك أي سبب مبرر للطرد ، **فناشي سلوفو** لم تتمكن من أن تقول أكثر مما سمحت به الرقابة ، واذا كان تروتسكي هاجم في الغالب الرقابة وسخر منها ، إلا أنه كان ينصاع بدقة لمتطلباتها . والحكومة الفرنسية لم تستهول علاقات تروتسكي بالمجموعات الصغيرة الفرنسية المعادية للعسكرية . إلا أن سفارة روسيا حاكت الدسائس ضد الثوريين المهاجرين ، وانصاع الفرنسيون لرغبات حلفائهم ، طوعاً أو كرهاً . وسهلت الصدفة مخططات السفارة الروسية . فقد حدث تمرد بين الجنود الروس الذين نزلوا في مرسيليا ، تسبب به جزئياً عميل سري للشرطة الروسية . وادعت السفارة ان المتمردين تأثروا **بناشي سلوفو** ، فخاف تروتسكي ان يتم تسليمه للسلطات الروسية . وخلال ستة أسابيع حاول عبثاً أن يحصل على تأشيرة الى سويسرا أو الى ايطاليا ، أو على ترخيص بالذهاب الى اسكندينافيا تعطيه المراجع الانكليزية . وفي نهاية المطاف ، في ٣٠ تشرين الاول / اوكتوبر ، جاء مفتشان واصطحباه الى الحدود الاسبانية .

قبل طرده ، وجه « رسالة مفتوحة » الى جول غيسد ، رائد الماركسية الفرنسية الذي اصبح وزيراً للحرب ، يقول فيها : « هل يمكن لاشتراكي شريف أن يمتنع عن النضال ضدكم ؟ وفي عصر كشف فيه المجتمع البورجوازي الذي كنت ، في الماضي ، أنت جول غيسد ، عدوه اللدود ، كشف القناع كلياً عن أسسه وطبيعته ، ، جعلت من الحزب الاشتراكي جوقة مطيعة لنداءات رؤساء زمر اللصوصية الرأسمالية . . ان اشتراكية

(٤٤) كان تروتسكي يفترض ، بالطبع ، ان فرضية الولايات المتحدة الاوروبية الرأسمالية طوباوية . وقد كتب ان الامبريالية الالمانية تجتهد لتوحيد القارة القديمة تحت سيطرتها ، لكن حتى لو توصلت لذلك ، لن تكون نجحت الا في أن تولّد نظام تحالفات عسكرية قسرية ووحدة جمركية ، « تحريفاً ساخراً لولايات متحدة أوروبية ، كتبته العسكرية الالمانية بحد السيف » . ان ثورة اشتراكية هي وحدها التي يمكن ان تولّد وحدة ارادية للأمم . ناشي سلوفو ، العدد ٢٩ ، ٤ شباط ، / فبراير ١٩١٦ .

بابوف ، وسان سيمون ، وفورييه ، وبلانكي ، اشتراكية الكومونة ، وجوريس ، وجول غيسد ، نعم جول غيسد ايضاً ، وقعت اخيراً على ألبر توماس يخصها من اجل مفاوضة القيصر حول أوثق وسيلة للاستيلاء على القسطنطينية . . . انزل من سيارتك العسكرية يا جول غيسد ، واخرج من القفص الذي سجنتك فيه الدولة الرأسمالية ، والق نظرة حولك . ربما يشفق القدر ، لمرة تكون الاخيرة ، على بؤس آخرتك ، ربما ستسمع الضجة المخنوقة للأحداث التي تقترب . اننا ننتظرها ، اننا نناديها ، اننا نعد العدة لها »[٤٥] .

دخل تروتسكي الى اسبانيا ، آملاً أن ينتقل من هناك الى ايطاليا وسويسرا ؛ وقد حاول أصدقاؤه الايطاليون ، مرة اخرى ، أن يحصلوا له على تأشيرة . إلا أن الشرطة الفرنسية التي أجبرته على اجتياز الحدود الاسبانية حذرت الشرطة الاسبانية ، في الوقت ذاته ، من أن « فوضوياً خطيراً » يدخل البلاد . وقد بقي تروتسكي يوماً في سان سيباستيان حيث تمكن من أن يتأمل في غرفته داخل الفندق ، بسخرية كئيبة ، لوحة معلقة فوق سريره تمثل موت الخاطئ . ثم مضى الى مدريد حيث انتظر طيلة عشرة أيام اخباراً من ايطاليا ، أمضى وقته يختلط بالجمهور المرح والصاخب ، ويتردد على المعارض ، ويدوّن الملاحظات . لم يكن يعرف الاسبانية ، كما لم يكن يعرف أي شخص في مدريد ، ما عدا اشتراكياً فرنسياً كان يدير هناك الفرع الاسباني لشركة تأمين فرنسية . وفي السابع من تشرين الثاني / نوفمبر (بعد هذا التاريخ بعام واحد ، لا اكثر ولا أقل ، سيقود الانتفاضة البلشفية) مضى الى متحف برادو ودوّن على دفتر صغير بعض التأملات حول « العنصر الخالد » في الرسم الكلاسيكي الاسباني ، الذي يتناقض مع السحر الأقل فخامة ، لكن الاكثر حمامة ورهافة ، الذي يتميز به الانطباعيون الفرنسيون .

بعد ذلك بيومين ، تعرف اليه عميل للشرطة وأوقفه ، فيما كان يحضر حفلة رياضية . ومخافة أن تضعه الشرطة الاسبانية بالقوة على مركب متجه الى روسيا ، بعث برسائل احتجاج وبرقيات ذات اليمين وذات اليسار . وفي رسالة الى وزير الداخلية الاسباني ، استخدم لهجته وسخريته المشهورتين ليحتج قائلاً انه لا يعرف الاسبانية ، ولم يقابل مواطناً اسبانياً واحداً ، ولم ينشر مذ دخل البلاد سطراً واحداً ، مقتصراً على زيارة المُتحفات والكنائس . أما المبرر الوحيد لتوقيفه ، الذي أعطاه اياه قائد شرطة مدريد ، فهو أن « أفكاره متقدمة بعض الشيء بالنسبة لاسبانيا » . وقد شرعت الصحافة الجمهورية والاشتراكية تطالب بإطلاق سراحه . ولم تمر ثلاثة ايام حتى تلقى الأمر بالذهاب

(٤٥) اورد هذا النص ألفرد روسمر في « تروتسكي خلال الحرب العالمية الاولى » ، الأممية الجديدة ، سبتمبر ـ اوكتوبر ١٩٥٠ .

الى كاديكس تحت الحراسة . هنالك تُرك ينتظر بحرية ، لكن تحت رقابة بوليسية لطيفة وشبه مضحكة ، وصول اول مركب يتيح له مغادرة البلاد[٤٦] .

أمضى تروتسكي ستة اسابيع في كاديكس ، قاصفاً الحكومة الاسبانية بالاحتجاجات وقاتلاً الوقت بصحبة شرطي في مكتبة قديمة حيث ، وسط صمت « يسمع معه المرء الديدان تلتهم أوراق الكتب » كان يغوص في كتب قديمة فرنسية وانكليزية ، ويدوّن ملاحظات ، ويعيد نسخ استشهادات حول الثورات والثورات المضادة الاسبانية وانعكاساتها على سباقات الثيران ، ويدوّن ملاحظات ايضاً حول اخفاقات الليبرالية الاسبانية ودسائس القوى العظمى في شبه الجزيرة[٤٧] . وفي الاخير ، رسا في المرفأ مركب متجه الى كوبا ، فرفض الصعود اليه . وبعد احتجاجات جديدة وبعض لحظات القلق سمح له بأن ينتظر وصول مركب ذاهب الى الولايات المتحدة . أما أصدقاؤه الايطاليون فكتبوا اليه آنذاك بأنهم يأملون الحصول في وقت غير بعيد على تأشيرتين الى ايطاليا وسويسرا . وقد لاحظ تروتسكي : « في حين أصبحت في كاديكس ، تعرض أوروبا بكاملها استضافتي » . وفي ٢٠ كانون الأول / ديسمبر ، حصل على رخصة للمضي الى برشلونة ، بحراسة الشرطة ، للانضمام الى امرأته وولديه الذين وصلوا من باريس . ومن برشلونة ، أبحر مع عائلته على متن باخرة اسبانية قديمة ، مزدحمة بهاربين اغنياء وبـ « غير مرغوب فيهم » لا موارد لديهم من كل بلدان اوروبا . وقد كان علم المركب الحيادي يحميه على الأقل من الغواصات الالمانية . وفي اليوم الاخير من العام ، عبر المركب مضيق جبل طارق .

كتب تروتسكي الى الفرد روسمر : « انها المرة الاخيرة التي القي فيها نظرة على اوروبا القديمة السافلة هذه » .

* * *

في صباح يوم أحد ، بارد وممطر ، واقع في ١٣ كانون الثاني / يناير ١٩١٧ ، نزل

---

(٤٦) يصف مطولاً في دفتر مذكراته سجن مدريد . يصور بدعابة مصلحة السجون ، والموقوفين ، ونزاعاته مع سجانيه . كان بين الموقوفين « ملك للصوص » عمل في نصف العالم وكان السجناء والحراس يعاملونه بتقدير . سأل هذا « الملك » تروتسكي أي آفاق تقدمها كندا للص جسور . وقد فكر بأن في وسع فوضوي ومسالم متعدد اللغات أن يجيب ، فأجاب بعد تردد : « كندا ؟ هناك كثير من اصحاب المزارع ، وبورجوازية شابة ايضاً ، لديها حس متطور جداً بالملكية ، تماماً كالبورجوازية السويسرية ! » .

(٤٧) بعد أن زار مرفأ كاديكس القديم ، حيث شاهد مشاجرة ، دوّن في دفتر يومياته : « ثمة حاجة لرافعات عملاقة للارتفاع بثقافة الجماهير . . » .

تروتسكي في مرفأ نيويورك . وقد اعدت جالية الاشتراكيين الروس استقبالاً حماسياً لمؤلف بيان زيمرفالد ، الذي قوبل بالهتافات الطويلة والتهاني [٤٨] .

كان لتروتسكي « مظهر تائه » . لقد شاخ وكان التعب بادياً على وجهه ، حسبما يقول الشيوعي الروسي ـ الأميركي م . أولجين ، الذي كان زاره في فيينا ، قبل خمس سنوات . « كان حديثه يدور حول انهيار الاشتراكية الأممية » . كان ذلك ايضاً موضوع المحاضرات ، التي ألقاها بعد وصوله بوقت قصير بحضور الاشتراكيين الروس ، والفنلنديين ، والليتوانيين ، والالمان واليهود في نيويورك وفيلادلفيا ، ومدن اخرى .

وقد استقر مع عائلته في مسكن (استأجره بـ ١٨ دولاراً في الشهر) في برونكس ، شارع ١٦٤ . كانت الشقة الرخيصة تقدم لآل تروتسكي رفاهاً لم يعتادوه من قبل : للمرة الأولى في حياة قائد الثورة لاحقاً يكون تحت تصرفه جهاز هاتف . ولقد وصف العديد من الكّتاب الاميركيين بصورة مفعمة بالخيال حياة تروتسكي في نيويورك : فأحدهم جعل منه خياطاً جائعاً ، وآخر غاسل أوان في أحد المطاعم ، وآخر ممثلاً سينمائياً . وقد كذّب تروتسكي تلك الروايات ، وليس في ذكريات أناس مثل زيف وأولجين ، اللذين كانا جد قريبين من تروتسكي ، أي أساس لتأكيدات من هذا النوع ، فتروتسكي كسب معيشته كصحفي وكمحاضر[٤٩] .

كان المهاجرون الروس ينشرون في نيويورك جريدة باسم نوفيي مير (العالم الجديد) ، بإدارة بوخارين وكولونتاي وفولودارسكي . وعلى الفور غدا تروتسكي دعامة الجريدة ، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يعمل فيها بارتباط وثيق بحلقة بلشفية . كان بوخارين يقيم في فيينا حين كان تروتسكي يدير فيها جريدته البرافدا ، إلا أن حدة الصراع بين الجناحين باعدت بينهما . أما الآن فكانا يرتبطان معاً بصداقة، لن تفسد إلا بعد ثماني سنوات من ذلك التاريخ ـ وبصورة غير كاملة في كل حال ـ حين سيغدو بوخارين شريكاً لستالين . أما كولونتاي ، المنشفية القديمة ، فكانت قد اصبحت من اكثر انصار لينين تعصباً ، وكان فولودارسكي ، الروسي ـ الاميركي الذي يقدم نفسه كـ « عامل اميركي من حيث الأصل ونمط الحياة » ، منجذباً كلياً الى البلشفية ؛ وسوف يحمل بعض الدينامية

---

(٤٨) أ . زيف . المرجع المذكور ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٤٩) تظهر لنا « ذكرى » مسلية ، ظهرت في نيويورك هيرالد تريبيون (١٤ فبراير ١٩٧٢) ، تظهر لنا تروتسكي وهو يلعب دور رئيس محطة في فيلم بعنوان « امرأتي الموظفة » . تخبرنا أن تروتسكي كان ممثلاً « فاشلاً » ، لا شخصية لديه ولا جاذبية جنسية ، « رجلاً خجولاً ومتحفظاً » ، لم يكن يتكلم لا على السياسة ولا على الثورة .

وحس التنظيم الاميركي الى الثورة البلشفية . واذا لم يكن تروتسكي قد تماثل يومذاك مع الحزب البلشفي ، فقد تماثل على الأقل ، مع تلك المجموعة .

خلال اقامة تروتسكي في الولايات المتحدة التي دامت اكثر بقليل من شهرين ، لم تتسنَّ له فرصة التآلف مع الحياة الأميركية ، وقد تمكن فقط ـ كما يقول هو ذاته ـ من القاء « نظرة خاطفة على داخل محل الحدادة الذي سيهيأ فيه مستقبل البشرية » . أدهشته نيويورك وأذهلته الاحصائيات التي تثبت ان الثروة الاميركية حققت تقدماً سريعاً منذ بداية الحرب . الا ان روحه وقلبه بقيا بجانب « اوروبا القديمة السافلة » تلك . وقد قال خلال احد الاجتماعات : « ثمة واقع يتمثل في أن حياة اوروبا الاقتصادية قد اهتزت حتى الاعماق ، بينما تثري أميركا . في الوقت الذي أتأمل فيه نيويورك بغيرة ، أتساءل انا الذي ما انفككت أحس بنفسي أوروبياً ، أتساءل بقلق شديد : هل ستتمكن اوروبا من الوقوف على قدميها ؟ هل هذا هو انحطاطها وهل ستغدو شيئاً آخر غير مقبرة جميلة ؟ هل سيغدو مركز الثقل الاقتصادي والثقافي في العالم اميركياً ؟ »[٥٠] .

انطلاقاً من تلك الفترة ، وطيلة ما بقي من حياة تروتسكي ، سيحلم بالاسهام العظيم والفريد الذي يمكن للولايات المتحدة ان تحمله الى الماركسية والاشتراكية ، اسهام يفوق من حيث الاهمية والقدرة ذلك الذي قدمته للرأسمالية . لكن المجموعات الاشتراكية الاميركية بدت له في تلك الفترة ضيقة ، وخائفة ، ورعوّية بشكل مضحك ، تقودها تشكيلة اشتراكية غريبة « تضيف الى نشاطاتها التجارية خلال الاسبوع تأملات ربّانية واهنة حول مستقبل البشرية » . وقد رأى تروتسكي في هيلكيت ، احد قيادييها ، « هذا المثل الأعلى للقائد الاشتراكي لأطباء أسنان أعمالهم مزدهرة » . ولم يستثن غير أوجين ديبس ، الرائد والشهيد ، الذي احس فيه ، رغم فقر ماركسيته ، بـ« النار التي لا تنطفىء للمثالية الاشتراكية . . . في كل مرة كنا نلتقي فيها ، كان يشدني بين ذراعيه ويعانقني »[٥١] .

في الاسبوعين الأولين من آذار / مارس وصلت الأخبار الأولى ، المشوشة في كل حال ، حول « اضطرابات » في العاصمة الروسية ؛ وبسبب انقطاع في الاتصالات ، لم تكن برقيات الوكالات تتكلم بعد إلا على « هياجات شعبية ناجمة عن الجوع » . لكن منذ ١٣ آذار / مارس ، كتب تروتسكي في نوفيي مير : « نحن ازاء بداية ثورة ثانية في روسيا . فلنأمل ان يشارك فيها كثيرون من بيننا . » . استولت على الجالية الروسية اثارة محمومة ،

---

(٥٠) تروتسكي ، حياتي ، ج ١ ، ص ٣٠٨

(٥١) المرجع ذاته ، ج ١ ، ص ٣١٣ .

وتتالت الاجتماعات . وكتب زيف ، الذي غدا منشفياً واشتراكياً ـ وطنياً : « في كل تلك الاجتماعات ، كان حديث تروتسكي هو الحدث المنتظر واللحظة المهمة . كانت تتأخر احياناً عدة ساعات لأنه على تروتسكي ان يتكلم في عدة اجتماعات في الوقت ذاته . . . الا ان الجمهور كان ينتظره بصبر ، متعطشاً لسماع الكلمات التي توضح الاحداث الجارية في روسيا »[٥٢] . ويروي زيف ، بغضب ، أن تروتسكي هاجم منذ البدء حكومة الأمير لفوف المؤقتة التي تشكلت قبل قليل . فهو قد صاح : « أليس من المخجل ان يكون وزير خارجية الثورة هو هذا الميليوكوف الذي وصف العلم الأحمر بالخرقة الحمراء ، وأن يكون وزير الحربية هو هذا الغوتشكوف الذي تذلل أمام ستوليبين ؟ ان كيرنسكي ، الرجل اليساري الوحيد في هذه الحكومة ، ليس أكثر من رهينة » . وكان أصدقاء زيف يتساءلون : « ما الذي حدث لتروتسكي ؟ ما الذي يريده ؟ »

يجب العودة الى مقالات نوفيي مير لنفهم كيف استقبل تروتسكي الثورة وما كان ينتظره منها . خلال الخمسة عشر يوماً التي انصرمت بين الاخبار الأولى عن « هياجات الجوع » في بتروغراد ورحيل تروتسكي من نيويورك ، صاغ هذا بوضوح وبشكل كامل تلك الأفكار الرئيسية التي سيفصّلها خلال العام . فحين عرف تروتسكي ممن تتألف حكومة الأمير لفوف ، وحين اشترطت تلك الحكومة عودة النظام ، كتب تروتسكي : « ان جرف الثورة القوي بدأ بالاهتزاز ، ولن تستطيع قوة بشرية ان توقفه » . كان الليبراليون يخافون ان تسحقهم الحركة الشعبية التي حملتهم الى السلطة ، لذا كانوا يسعون لإيقاف الثورة ، « كما لو كانت مكنستها الحديدية ، قد أكملت تنظيف كل الزبل الرجعي الذي تراكم طوال قرون » ، حول عرش القيصر . « الأمة تنهض اليوم بكاملها ، شريحة بعد شريحة ، كل اولئك الذين جرى اضطهادهم وحرمانهم وخداعهم . . . وعلى رأس الجماهير الشعبية في روسيا ، ستكمل البروليتاريا الثورية رسالتها التاريخية ، ستطرد الرجعيةَ الملكيةَ من كل الزوايا التي تحاول الاختباء فيها ، وستمد يدها لبروليتاريا المانيا واوروبا جمعاء . ينبغي عدم الاكتفاء بتصفية القيصرية ، بل تصفية الحرب ذاتها ايضاً »[٥٣] .

وقد اتهم الحكومة الأولى للثورة بكونها استعادت لحسابها امبريالية القيصر ومطامعه في البلقان والدردنيل ، وحيّا بأمل ولادة سوفييت بتروغراد الذي كان يرى فيه الحكومة

---

(٥٢) أ . زيف ، المرجع المذكور ، ص ٨٠ .

(٥٣) تروتسكي ، سوش ، ج ٣ ، القسم الأول ، ص ٥ ـ ٧ .

المعدة لتفرض نفسها على الادارة القديمة ، التي كانت الآن بين يـدي الكاديت الديمقراطيين ـ الدستوريين(*) . وحين بدا واضحاً ان السوفييت ، بقيادة المناشفة ورئاسة شخيدزه ، قدم دعمه لحكومة الامير لفوف وساند سياسته الخارجية ، هاجم تروتسكي بعنف تشخيدزه الذي كان قد دافع عنه منذ وقت غير بعيد في وجه انتقادات البلاشفة ، وكيرنسكي ، هذا « الحقوقي الشاب من ساراتوف . . . الذي لا يزن كثيراً في ميزان الثورة » . وقد تذرع المناشفة والاشتراكيون الثوريون بوطنية الفلاحين ليبرروا قبولهم بالحرب . ولكن تروتسكي أجابهم قائلاً ان ما يهم حقاً انما هو تعطش الفلاحين للأرض ، لا وطنيتهم المزعومة . فالقيصرية والارستقراطية الأرضية والبورجوازية فعلت كل ما في وسعها لحرف الفلاحين عن الثورة الزراعية وجعلهم يهتمون بالحرب الامبريالية ، ومن واجب الاشتراكيين افهام الفلاحين ان المشكلة الحقيقية هي الثورة الزراعية ، لا الحرب ، أرض السادة لا القسطنطينية ، هذا ما ينبغي ان يقوله الجندي ـ البروليتاري للجندي ـ الفلاح[٥٤] . وفي دراسة نشرت في **زوكونفت** ، وهي نشرة دورية اشتراكية اميركية ـ يهودية ، أوضح تروتسكي فكرته هذه بقوله : « سوف تنتفض الجماهير الفلاحية في القرى ، ومن دون ان تنتظر قراراً من الجمعية التأسيسية ، ستشرع تطرد المالكين الكبار من أراضيهم ، وكل الجهود لوضع حد للحرب الطبقية . . . ستكون بلا جدوى . ليس ثمة غير الجهلة يفكرون ان الثوريين هم الذين يصنعون الثورة ، وان في وسعهم ايقافها حين يشاؤ ون »[٥٥] .

هكذا ، رغم أن محيطاً وقارة كانا يفصلان تروتسكي عن مسرح الاحداث ، ورغم الحيرة التي كانت تسببها له اخبار مشوشة ومتناقضة في الغالب ، ادرك بوضوح اي طريق تنخرط فيها بلاده ، وصاغ مشكلات الثورة ، ولم يتردد في تحديد اولئك الذين كان يرى فيهم الآن اعداء لهذه الثورة ، حتى لو كانوا بالأمس أصدقاءه الشخصيين . بقي عليه ان يجيب عن هذا السؤال : أي حزب هو حزب الثورة ، أي حزب هو حزبه ؟ .

بعد ان رسم ببعد نظر ودقة صورة الثورة، اضاف اليها غلالة من الحلم والخيال . كان يتوله في مداعبة الأمل بأن تنتفض كل البروليتاريا الأوروبية . لم تكن انتفاضة بتروغراد بالنسبة اليه غير مقدمة لانتفاضة معممة في اوروبا ، وهذا الأمل كان يحفز كل فكره .

(*) كان حزب الكاديت هذا يمثل مصالح البورجوازية (م) .

(٥٤) المرجع المذكور ، ص ١٧ ـ ٢٠

(٥٥) المرجع المذكور ، ص ٢٧ ـ ٢١

أعطاه أجنحة في صعوده ، مثلما سوف يؤدي فقدان ذلك الأمل ، فيما بعد ، الى تحطيمه والقضاء عليه . فعبر صفحات نوفيي مير ، نرى تروتسكي للمرة الأولى ـ في سلسلة طويلة ـ في صراع مع الوهم . وقد حاول قبل ان يغادر نيويورك مباشرة ان يرد على بعض الذين كانوا يؤكدون بورع انه حتى في ظل حكم الامير لفوف لروسيا ، ينبغي الدفاع عنها في وجه غزو قوات القيصر(*) Kaisar . أما تروتسكي ، فكان مستمراً ، حتى في ذلك الحين ، في معارضة الحرب ، وقد أجاب : « تمثل الثورة الروسية خطراً أعظم بكثير ، بالنسبة لآل هوهنزلرن ، من شهوات روسيا الامبريالية ومطامعها . وكلما أسرعت الثورة اكثر في القاء القناع الشوفيني الذي أجبرها أمثال غوتشكوف وميليوكرف على وضعه ، كلما اسرع اكثر الى السفور وجهها البروليتاري الحقيقي ، وكلما كان الاستقبال الذي ستلقاه في المانيا اكثر حماساً واكثر حزماً ، كلما كانت رغبة آل هوهنزلرن في خنق الثورة الروسية أخف ، وكانت قدرتهم على ذلك أقل ، لأنه سيكون عليهم ان يواجهوا اكثر مشاكلهم المحلية الخاصة بهم .

ـ لكن ما الذي سيحدث ـ أجاب المحاور ـ اذا لم تنتفض البروليتاريا الالمانية ؟ ما الذي ستفعلون حينذاك ؟ .

ـ انت تفترض إذاً انه يمكن للثورة ان تتم في روسيا دون أن تتأثر المانيا . . . ؟ لكن هذا أمر بعيد الاحتمال تماماً .

ـ ربما . لكن اذا كانت تلك هي الحال مع ذلك ؟ .

ـ بصراحة ، لسنا بحاجة أبداً لتعذيب انفسنا في دراسة احتمال بهذه الدرجة من الاستبعاد . لقد حولت الحرب أوروبا جمعاء الى مخزن بارود للثورة الاجتماعية . والبروليتاريا الروسية تلقي الآن مشعلاً ملتهباً في هذا المخزن . وافتراض ان لا يحصل أي انفجار يساوي الوقوف في وجه قوانين المنطق التاريخي وعلم النفس . أما اذا تم ما هو بعيد الاحتمال ، اذا حالت المنظمات المحافظة ، والاشتراكية ـ الوطنية ، بين الطبقة العاملة الالمانية والانتفاض ضد طبقتها الحاكمة في مستقبل قريب ، لا شك ان الطبقة العاملة الروسية ستدافع عن الثورة حينذاك والسلاح في يدها . . . وتشهر الحرب على آل هوهنزلرن وتدعو البروليتاريا الالمانية للانتفاض ضد العدو المشترك . . . سيكون واجبها عندئذٍ ان تدافع عن الثورة لا عن الوطن ، وأن تحمل تلك الثورة الى بلدان أخرى »(٥٦) .

(*) المقصود هنا أمبراطور المانيا ، المشار اليه بكلمة Kaisar تمييزاً عن كلمة Tsar التي تشير الى القيصر الروسي (م) .
(٥٦) المرجع المذكور ، ص ١٧ ـ ٢٠ .

كان يجيب هكذا بالقرب ، كلما طرح عليه السؤال : ما الذي سيحدث اذا لم تتم الثورة في المانيا ؟ بدا أنه لا يخرج من حلمه إلا ليغوص فيه ثانية ، ولا يستبعد أمله إلا ليعانقه من جديد . لم يكن هنالك بالنسبة اليه مستقبل ، أو أمل ، أو حياة ، من دون الثورة الأوروبية .

❊ ❊ ❊

في السابع والعشرين من آذار / مارس ، حضر تروتسكي وعائلته ومجموعة من المهاجرين الآخرين اجتماعاً جاء يقول لهم فيه اشتراكيون الوداع بكل اللغات ، وفي الغد ، أبحروا الى نيويورك على متن مركب نرويجي يدعى « كريستانيا فجورد » . وللمرة الأولى في حياة تروتسكي ، كان يسافر بصورة « جديرة بالاحترام » . حصل دون صعوبة على كل الوثائق الضرورية ، على الترخيص بالدخول الى روسيا كما على تأشيرة العبور عن طريق انكلترا ؛ كان ينتظر رحلة من دون مشكلات . الا انه فوجئ كثيراً حين انزلته الشرطة البحرية الانكليزية من المركب بالقوة ، هو وعائلته ـ بعد ان توقف الـ « كريستيانيا فجورد » بتاريخ ٣ نيسان / ابريل في هاليفاكس ، في اسكوتلندا ـ الجديدة ـ وقادته الى معسكر اسرى حرب المان في أمهرست ، ووضعت امرأته وولديه تحت الرقابة الشديدة . وقد مُنع المهاجرون الروس الآخرون الذين كانوا مسافرين مع تروتسكي من مواصلة رحلتهم . كانوا قد رفضوا كلهم ان يردُّوا على الضابط الانكليزي الذي سألهم عن افكارهم السياسية وما ينوون فعله في روسيا . فلقد أجاب الروس بأجمعهم ان هذا لا يعني الشرطة البحرية البريطانية .

أرسل تروتسكي من المعسكر برقيات احتجاج الى الحكومة الروسية والى الوزير الأول الانكليزي ، إلا ان البرقيات صودرت ولم تصل ابداً الى المرسلة اليهم . إلا أن هذا الاحتجاز انتهى مع ذلك بإثارة فضيحة سياسية ، فطلبت الهيئة التنفيذية المنشفية لسوفييت بتروغراد اطلاق سراح تروتسكي . كان اعلان الهيئة التنفيذية يقول : « ان الديمقراطية الثورية في روسيا تنتظر بفارغ الصبر عودة ابنائها الذين كافحوا من أجل الحرية ، وتدعو الى الاستظلال برايتها كل الذين ناضلوا طيلة حياتهم ليهيئوا اطاحة القيصرية . إلا ان السلطات الانكليزية تسمح مع ذلك لبعض المهاجرين بالعبور وتحتجز بعضهم الآخر . . . ان الحكومة الانكليزية تقترف هكذا تدخلاً لا يحتمل في شؤون روسيا الداخلية وتهين الثورة الروسية حين تسرق منها أبناءها الأكثر اخلاصاً » . تمت اجتماعات الاحتجاج في كل انحاء روسيا ، فما كان من ميليوكوف ، وزير الخارجية ، إلا أن طلب الى سفير بريطانيا

اطلاق سراح تروتسكي . لكنه سحب مطالبته بعد ذلك بيومين ، مدركاً أنه لا يستطيع ان ينتظر من تروتسكي غير العداء[٥٧] . في غضون ذلك ، وفي حين كان مر على احتجاز تروتسكي قرابة شهر ، كان هذا يرغي ويزبد ويحتج وينهال بالشتائم على ادارة المعسكر . وكان في أمهرست ٨٠٠ أسير الماني ، هم بحارة غواصات تم اغراقها ، وقد كلمهم تروتسكي وشرح لهم افكار زيمرفالد ، وحدثهم عن النضال ضد الامبراطور وعن الحرب التي خاضها كارل ليبكخنت في المانيا . وسرعان ما دوّى المعسكر بخطبه وما عتم ان اصبح يشبه « اجتماعاً سياسياً دائماً »[٥٨]. وبناء على طلب الضباط الالمان ، حظر قائد المعسكر على تروتسكي التوجه للأسرى . فرد تروتسكي ساخراً : « هكذا إذاً يصطف العقيد الانكليزي فوراً الى جانب الوطنيين الهوهنزلرنيين » . وقد وقع اكثر من ٥٠٠ بحار احتجاجاً ضد هذا الحظر . وفي الأخير ، وبعد الكثير من الأعمال الرعناء والدسائس من جانب الحكم الجديد اضطر ميليوكوف لأن يجدد طلبه الى سفارة بريطانيا العظمى . وفي ٢٩ نيسان / ابريل غادر تروتسكي امهرست ، تصحبه حتى ابواب المعسكر هتافات البحارة الالمان ، بينما كانت تعزف النشيد الأممي أوركسترا مرتجلة .

بعد رحلة في البحر دامت ما يقرب من ثلاثة أسابيع ، وصل تروتسكي في ١٧ أيار / مايو (٤ أيار / مايو وفقاً للتقويم الروسي) الى فنلندا ، واستقل القطار باتجاه بتروغراد . وفي القطار ذاته والمقصورة ذاتها اللذين كان فيهما كان يسافر فاندرفلد ، رئيس الأممية الثانية ، ودومان ، وهو اشتراكي بلجيكي مرموق آخر ، وكانا ينويان ان يبثا روحاً محاربة ووطنية في رفاقهم الروس . وقد قدم تروتسكي وفاندرفلد روايتين مختلفتين عن هذا اللقاء حيث زعم الأول أنه رفض الكلام مع اشتراكيين وطنيين ، بينما قال الثاني إن الحديث كان طويلاً ، ولبقاً ، ولكن غير ودي [٥٩] . ومهما يكن ، فالامميتان الثانية والثالثة ، مع كل ما كان يفصل بينهما ، سافرتا معاً طوال ساعات في مقصورة قطارحديدي.

عند الحدود الروسية ، كان قد أتى وفد من أمميي بطرسبورغ يستقبل تروتسكي . وقد أرادت اللجنة المركزية البلشفية هي الأخرى ان تحييه ، لكن مع بعض التحفظ : لم يكن المندوب البلشفي الذي أتى الى الحدود احد قادة الحزب المعروفين . وفي بتروغراد ، استقبل جمهور يحمل الرايات الحمراء تروتسكي لدى نزوله من القطار وحمله على الأكتاف . وللحال شرع تروتسكي يخطب في الجمهور ، ودعاه للقيام بثورة جديدة .

---

(٥٧) السير جورج بوشانام ، رسالتي الى روسيا ، ج ٢ ، ص ١٢١ ، تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ٣٥
(٥٨) روى تروتسكي مغامرته في كراس ف بليتو أو انجليشان الذي نشره فورا بعد عودته الى بتروغراد (سوش . ج ٣)
(٥٩) تروتسكي ، حياتي ، ج ٢ ، ص ٥ - ٦ ، فاندرفلد ، ذكريات مناضل اشتراكي ، ص ٢٣٠ .

تروتسكي إبان ثورة اكتوبر

وصل تروتسكي الى بتروغراد في الرابع من أيار/ مايو . كان قد مضى على اندلاع الثورة ستة أسابيع : خلال تلك الاسابيع تسارعت الأحداث بحيث بدت العاصمة صورة من صور الحلم ، حتى بالنسبة لرجل احتفظ منذ عام ١٩٠٥ بذكرى شوارعنا وجماهيرنا ، ذكرى مفعمة بالمحبة[١] . كانت الثورة قد بدأت حيث توقفت عام ١٩٠٥ ، لكنها تركت نقطة انطلاقها بعيداً جداً الى الخلف ، فالقيصر ووزراؤه كانوا لا يزالون سجناء دولة ، لكن معظم رعاياهم القدامى كانوا يرون فيهم اشباح ماض لن يعود . وأبهة الزمن القديم وارهاب الملكية وأصنامها ، كل ذلك بدا كما لو انه توارى مع ثلج الشتاء الأخير .

ان لينين الذي عاد الى روسيا قبل تروتسكي بشهر كامل ، وصفها ، حسبما وجدها يومذاك ، كالبلد الأكثر حرية في العالم[٢] . وفي الحقيقة انحريتها تلك اقتصرت على حرية التعبير ، إلا ان الشعب كان يستفيد من هذه الحرية كثيراً ، كما لو كان يأمل ان يكتشف في نقاشات محمومة نمط حياة جديداً لأن القديم قاد البلاد الى حافة الهاوية . هذا السعي المتحمس خلف مبادىء جديدة ، وأشكال جديدة ومضمون جديد للحياة الاجتماعية - سعي كان جمهور المهانين والمضطهدين يشارك فيه بعنفوان مثير - كان يميز مناخ بتروغراد الأدبي في ذلك الربيع من عام ١٩١٧ . ما من سلطة وما من حقيقة كانتا لا تزالان تعتبران من الأمور المسلّم بها . لم يبق قائماً غير الاعتقاد الغامض بأن الخيرهوما يمكن ان يحفز الثورة ويساعد على احقاق العدالة تجاه المضطهدين . كان طابع الانتفاضة الاجتماعية ينعكس حتى على مظهر المدينة ، فالشوارع وساحات الأحياء الأنيقة في وسطها اكتسحا سكان الضواحي البائسة المعذبة . كان العمال والجنود يحضرون جماعات جماعات تلك الاجتماعات التي تتواصل ليلاً ونهاراً في الساحات وفي المصانع وفي الثكنات القائمة في المناطق المحيطة . والعلم الأحمر ، شعار التمرد والثورة الذي كان محظراً في الماضي كان يرفرف الآن على المباني الكلاسيكية الجديدة على ضفاف النيفا . كان يمكن ان تدرك ، كيفما

(١) تروتسكي ، حياتي ، ج ٢ ، ص ٧ .

(٢) لينين ، سوش . ، ج ٢٤ ، ص ٤ .

تحركت في الشوارع ، في كل مشهد وفي كل حادث صغير ، دور العمال والجنود المهيمن في الثورة . يكفي القادم الجديد ان يلقي نظرة عابرة على العاصمة ليشعر بأن حضور الأمير لفوف كوزير اول للثورة هو أمر من الفظاظة بمكان .

ما كاد تروتسكي يودع عائلته ومتاعه القليل في فندق مؤثث حتى مضى الى معهد سمولني ، مركز سوفييت بتروغراد[٣] . في ذلك الوقت بالذات ، كانت لجنته التنفيذية ، التي خلفت اللجنة التي كان تروتسكي محركها في عام ١٩٠٥ ، تعقد اجتماعاً لها . كان الرجل الذي يرأسه يومذاك هو تشخيدزه ، رفيقه القديم ، الذي هاجمه قبل قليل في نفويي مير . نهض تشخيدزه ليستقبل تروتسكي لكن استقباله كان فاتراً[٤] . وقد تلت ذلك لحظة ضيق ، فالمناشفة والاشتراكيون الثوريون ، الذين كانوا يشكلون أغلبية ، ما كانوا يعرفون اذا كان القادم الجديد صديقاً لهم أو عدواً ـ بدا انه تحول من صديق قديم الى عدو . وقد أبدى الاعضاء البلاشفة في اللجنة التنفيذية ملاحظة مفادها ضرورة دعوة رئيس سوفييت عام ١٩٠٥ لاتخاذ مقعد له بينهم خلال ذلك الاجتماع . فوقع المناشفة والاشتراكيون الثوريون في الحيرة وتهامسوا فيما بينهم ، واتفقوا على قبول تروتسكي كمراقب ، من دون حق التصويت . اما هو فلم يكن يطلب شيئاً آخر ، اذ ليس المهم بالنسبة اليه امتلاكه لحق التصويت ، بل اسماع صوته من على منبر الثورة هذا .

إلا ان الاستقبال البارد الذي لقيه بدا له ممضاً وقد كتبت انجليكا بالابانوف ، سكرتيرة حركة زيمرفالد ، انه رأى في عدم تدخل قادة الحزب بفعالية أشد من أجل تحريره من احتجازه في بريطانيا دليلاً على انهم لم يكونوا متحمسين لرؤيته يعود الى المسرح السياسي . « كان المناشفة والبلاشفة ينظرون اليه بمزيج من الضغينة والحذر . . . وذلك عائد جزئياً لكونهم كانوا يخشون منافسته . . . »[٥] . ومهما تكن الحقيقة ، فثمة واقع أكيد هو أن المواقع السياسية قد توضحت بين شهر شباط/ فبراير وشهر أيار/ مايو ، كانت الاحزاب والمجموعات قد جمعت شتاتها وحددت موقفها ، واضطلع القادة بمسؤولياتهم واختاروا مواقعهم . وفي عام ١٩٠٥ ، كان تروتسكي اول مهاجر يعود ، بينما كان في هذه المرة آخر من عاد الى البلاد ، وما من مركز شاغر يناسب رجلاً يتميز بكفاءاته وبطموحه كان يمكن ان يقدم له .

كان الوضع في ذلك الحين يشير الى أن جميع الاحزاب ـ باستثناء البلاشفة ـ كان لها ما

(٣) منذ الآن ، ستدل لفظة « السوفييت » بالمفرد) على سوفييت بتروغراد ، الا عند ايضاح معاكس .

(٤) ل . تروتسكي ، حياتي ، ن . سوخانوف ، زاپيسكي او ريفولوتسيي ، ج ٣ ، ص ٤٤٠ ـ ٤٤١ .

(٥) أ . بالابانوف ، حياتي كتمردة ، ص ١٧٦ .

يبرر خشيتها من أي تأثير جديد وغير متوقع ، فللمرة الاولى فقد النظام الناجم عن ثورة شباط/ فبراير توازنه العابر الهزيل . وكان يحاول استعادته عن طريق تدابير ومناورات دقيقة ، وقد توارت عن الساحة اول حكومة للأمير لفوف ، تلك الحكومة التي لم يكن يتمثل فيها غير طبقة النبلاء والطبقة البورجوازية الكبرى ، الاولى عن طريق المحافظين الذين دعموا غوتشكوف ، والثانية عن طريق حزب الكاديت بقيادة ميليوكوف . اما المناشفة والاشتراكيون فوعدوا بدعم الحكومة لكن دون المشاركة فيها . مع ذلك ، فهذه الحكومة ما كان يمكن ان تستمر يوماً واحداً ، من دون مساندة السوفييت ، الذي كان يمثل سلطة فعلية خلقتها الثورة . كان قد تم الآن بلوغ اللحظة التي لم يعد يمكن فيها للاشتراكيين المعتدلين ان يقدموا دعمهم للحكومة من دون المشاركة فيها .

كانت الأحزاب التي شكلت اول حكومة للأمير لفوف تحاول قصر الثورة على اطاحة القيصر نقولا الثاني ، وانقاذ الملكية في حال أمكن ذلك . كانت تتمنى أيضاً مواصلة الحرب ، واعادة الانضباط الاجتماعي والعسكري الذي كان يستحيل من دونه مواصلتها[٦] . اما العمال والجنود الذين كانوا يساندون السوفييتات فكانوا يأملون على العكس « تعميق » الثورة والمسارعة الى عقد « صلح ديمقراطي ، من دون ضم ولا تعويضات » . وكان الاشتراكيون المعتدلون يحاولون التوفيق بين تلك السياسات وتلك المطالب المتناقضة ، وكانوا يدخلون حتماً في دوّامة تناقضات صارخة ، محاولين مساعدة الحكومة لمواصلة الحرب ، والضرب في الوقت ذاته على وتر الرغبات الشعبية في السلام . يقولون لانصارهم ان الحكومة استبعدت الأهداف الامبريالية التي كان يسعى اليها القيصر من خلال الحرب ـ الهيمنة الروسية في البلقان واحتلال غاليسيا والقسطنطينية ـ غير ساعية إلا لهدف واحد يتمثل بعقد سلام عادل وديمقراطي[٧] . وكان الامير لفوف يحاول ان يعيد الى الحركة الآلة الادارية القديمة الموروثة عن القيصرية ، بينما يرى العمال والجنود ان السوفييتات هي التي تشكل الادارة الحقيقية ، وكان المناشفة والاشتراكيون الثوريون يأملون بأن يسمح نظام الحكم الجديد بالجمع بين الادارة القديمة والسوفييتات . وقد بذلت الحكومة جهدها لاعادة الانضباط الى جيش اتعبته الحرب وهزته الثورة ، جيش كان جنوده يرفضون اطاعة ضباطهم ولا يصغون إلا للجان التي انتخبوها بذاتهم . وكان الاشتراكيون المعتدلون يلتزمون بمساعدة الحكومة لاعادة الانضباط ، الا انهم كانوا يدعون مع ذلك

---

(٦) ب . ميليوكوف ، ايستوريا روسكوي ريفولوتسيي ، ج ١ ، ك ١ ، ص ٥٤ ـ ٧٦ . . . .

(٧) ك « كان ميليوكوف . . . يؤكد أن الاستيلاء على القسطنطينية أمر حيوي لروسيا » ، هذا ما كتبه السير جورج بوشانان ، سفير بريطانيا في روسيا ، في « مهمتي في روسيا » ج ٢ ، ص ١٠٨ .

الجنود للدفاع عن الحقوق التي اكتسبوها مؤخراً ، والتي صيغت في القرار المشهور رقم ١ الذي أصدره السوفييت ضد الضباط والجنرالات القيصريين . كانت الحكومة تتمنى ضمان أمن الملكية الارضية ، بينما يطالب الفلاحون بتوزيع ممتلكات طبقة النبلاء . وكان المناشفة والاشتراكيون الثوريون يحاولون تأجيل حل تلك المشكلة الاساسية حتى دعوة جمعية تأسيسية كانت تؤجل بدورها الى اجل غير معروف[٨] .

هذا البناء الفسيح ، القائم على الالتباس والكذب ، كان لابد له أن ينهار في أحد الايام على رأس من تولوا بناءه . وقد حدث الانقصاف الاول في شهر نيسان/ ابريل ، فغوتشكول العاجز عن اعادة الانضباط الى الجيش قدم استقالته كوزير للحرب ، ثم تبعه بعد وقت قصير ميليوكوف ، الذي استقال بدوره من وزارة الخارجية . ففي مذكرة موجهة الى حلفاء روسيا الغربيين ، اعلن ان الحكومة الجديدة ستواصل السعي بأمانة وراء تحقيق اهداف الحرب التي حددتها الحكومة القيصرية التي سبقتها ، وقد أحدث ذلك حركة استنكار شعبي بلغت ضخامتها درجة لم يستطع الامير لفوف معها الاستمرار في السلطة وقتاً أطول .

ان المنطق العنيد الخاص بالثورة بدأ يعبر عن نفسه ، ففي مدى شهرين ، أفقدت حكومتها الأولى والاحزاب التي شكلتها حظوتها واعتبارها ، واستهلكتها تماماً . قبل ذلك بوقت قصير ، في الأيام الأخيرة من النظام القيصري ، كان غاستون دومرغ ، رئيس الجمهورية الفرنسية ، أتى الى بتروغراد في زيارة رسمية . حث يومذاك زعماء حزب الكاديت على اللجوء الى الصبر لتذليل خلافاتهم مع القيصر ، « وقد انفجر ميليوكوف وماكلاكوف ازاء كلمة « الصبر » ، تلك ، قائلين : « كفى صبراً ! لقد استنفدنا كل ما لدينا من صبر ! في كل حال ، اذا لم نسارع الى العمل ، سوف تتوقف الجماهير عن الاصغاء الينا ! »[٩] هذه الكلمات أصبحت لازمة من اللازمات المفضلة لدى الثورة ، وكان ميليوكوف ضحيتها الأولى . لم تكن الاغلبية الاشتراكية المعتدلة داخل السوفييت تنوي المطالبة باستقالته ، لكن حين الزم الحكومة والبلاد جهاراً بمتابعة الاهداف القيصرية للحرب ، احتج المناشفة والاشتراكيون الثوريون هاتفين : « كفى صبراً ، لقد استنفدنا كل ما لدينا من صبر ! في كل حال ، اذا لم نسارع الى العمل ، سوف تتوقف الجماهير عن الاصغاء الينا . . . » إلا أن الجماهير ما كانت ستتبعهم بعد لو تركوا كل مسؤولية الحكم

(٨) ميليوكوف ، المرجع ذاته ، ج ١ ، ك ١ ، ص ١٠١ - ١١٥ ، ١٢٥ - ١٣٨ . . . ل . تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ، ج ١ ، الفصل ١١ - ١٣ .

(٩) م . باليولوغ ، روسيا القياصرة خلال الحرب الكبرى ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

لقادة الطبقات التي استفادت من ثورة شباط/ فبراير ، لكنها لم تصنعها .

هكذا تحقق أول تحالف بين الكاديت والاشتراكيين المعتدلين . وحين ظهر تروتسكي في دورة اللجنة التنفيذية للسوفييت ، كان الشركاء الجدد يتقاسمون بالضبط مقاعد الحكومة ، وتم الاتفاق على ان تضم عشرة وزراء رأسماليين وستة وزراء اشتراكيين » . كان الكاديت هم الشركاء الرئيسيون ، لذا فإن برنامج الحكومة الجديدة كان مماثلاً من حيث الجوهر لبرنامج الحكومة السابقة ، وكان في وسع الوزراء الاشتراكيين الستة ان يعدلوه فقط تعديلاً طفيفاً ليجعلوه مقبولاً اكثر من جانب السوفييت . وقد حل كيرنسكي ، الذي كان على علاقة بالحزب الاشتراكي الثوري ، محل غوتشكوف كوزير للحرب ، وغدا تسيريتللي ، القائد المنشفي الاكثر بروزاً في تلك الفترة ، والنائب السابق المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، غدا وزيراً للبرق والبريد والهاتف . اما تشيرنوف ، زعيم الاشتراكيين الثوريين الذي شارك في مؤتمر زيمرفالد ، فتم تعيينه وزيراً للزراعة ، وأصبح سكوبيليف ، تلميذ تروتسكي ومساعده القديم ، وزيراً للعمل .

في ٥ أيار/ مايو ، أي غداة وصول تروتسكي ، مثل الوزراء الاشتراكيون أمام السوفييت طالبين اليه دعم حكومة التحالف . وحين ظهر تروتسكي ، استقبل بتصفيق حار وحياه سكوبيليف داعياً إياه « المعلم العزيز والمحبوب » . وقد طالبه البعض من القاعة بالادلاء برأيه حول حدث الساعة . وكان القلق بادياً عليه ازاء ذلك الاحتكاك الأول ، تحت . . . الأنظار الفضولية لجماعة من المجهولين والنظرات العدائية من جانب « الاشتراكيين ـ الخونة »[١٠] . ولما كان متيقظاً فقد تكلم بحذر . بدأ يمجد عظمة الثورة ، ووصف التأثير بالغ القوة الذي أحدثته عبر العالم بحيث قزّم حدث الساعة الى حدود حجم متواضع ، قال انهم لو استطاعوا ان يروا انعكاسات الثورة في العالم ، وأن يقيسوها كما تسنى له أن يفعل حين كان في الخارج ، لكانوا فهموا ان روسيا « افتتحت عهداً جديداً ، عهد حديد ودم ، لا صراعاً بين الأمم بل صراع الطبقات البائسة والمضطهدة ضد أسيادها »[١١] . وقد صدمت تلك الكلمات آذان الوزراء الاشتراكيين الذين التزموا بمواصلة الحرب وبتهدئة « مسعوري » الثورة . وتابع تروتسكي يقول « لا اخفي انني استنكر بشدة ما يحدث هنا ، اذ اعتقد ان هذه المشاركة في الحكومة خطيرة . . . فحكومة التحالف لن تخلصنا من الازدواجية الحالية للسلطة ، كل ما ستفعله هو أنها ستنقل هذه الازدواجية الى داخل الوزارة بالذات » كان ذلك هو بالضبط

(١٠) ن . سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٤٠ ـ ٤٤٢ .

(١١) ل . تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

ما يؤكده البلاشفة : فهم أيضاً كانوا يلحون على انقسام السلطة هذا بين السوفييتات والحكومة . وكيما لتحاشي جرح الاصدقاء القدامى ، خفف تروتسكي من لهجته ، التي غدت اكثر تسامحاً ، وقال : « لن تموت الثورة من جراء وزارة تحالف . لكن علينا ان نتذكر ثلاث ضرورات جازمة : ان نحذر البورجوازية ، ان نراقب قادتنا الخاصين بنا ، وألا نعتمد إلا على قوتنا الثورية بالذات . . . » كان يتحدث بصيغة جمع المتكلم « علينا » ، « قوتنا » - كيما للتماثل ، على طريقته ، مع رفاقه القدامى . الا انه اظهر تصلباً حاسماً بخصوص الموضوعة الاساسية في مداخلته : « اعتقد ان العمل القادم الذي ينبغي ان نبادر اليه هو نقل كل السلطة الى ايدي السوفييتات . ان سلطة موحدة هي وحدها التي يمكن ان تنقذ روسيا » . كانت تلك الكلمات تدوي كشعار للينين . وختم تروتسكي محاجّته الطويلة والباهرة وهو يهتف : « عاشت الثورة الروسية ، فاتحة الثورة العالمية » ، واذا لم يقع الحضور اجمعين تحت سحر افكاره ، فقد فتنهم على الأقل الصدق والبلاغة اللذان عرض بهما تلك الافكار[١٢] .

وقد وقف الوزراء ، الواحد بعد الآخر ، للاجابة . وعد تشيرنوف بأن يستخدم الاشتراكيون تأثيرهم داخل الحكومة ، لكنه اشار الى حاجتهم من اجل ذلك لدعم السوفييت غير المشروط . والح تسيريتللي على الاخطار التي يمكن ان تتعرض لها السوفييتات اذا رفضت تقاسم السلطة مع البورجوازية . اما سكوبيليف فأنّب « معلمه العزيز » قائلاً : « ان العقل البارد ضروري بقدر ما هو القلب الحار ضروري ايضاً » وسط ثورة من الثورات . وقد صوّت السوفييت مولياً ثقته للوزارة الجديدة ، ولم يصوّت بحجب الثقة غير الاقلية في اقصى اليسار .

ان المجموعة السياسية التي حيّت تروتسكي على اساس انه قائدها كانت منظمة ما بين المقاطعات ، المزهرايونكا . وقد حرك تروتسكي هذه المجموعة من الخارج منذ تكوينها في عام ١٩١٣ وساهم في منشوراتها ، ولم تكن المجموعة تتطلع الى تشكيل حزب ، بل كانت تجمعاً مؤقتاً لمناضلين ، لا هم بلاشفة ولا هم مناشفة ، ظلوا حازمين في معارضتهم للحرب ، وللأمير لفوف ، وللـ « اشتراكيين - الوطنيين » . أما تأثيرها فاقتصر على بعض عمال بتروغراد ، وحتى هناك ، كان يتخطاها تطور البلشفية السريع ، الا انه كان يلتحق بهذه المجموعة اناس كانوا في الماضي عناصر لامعة في الحزب البلشفي أو في الحزب المنشفي ، وسوف يلعبون فيها بعد ادوارا مهمة . ومعظمهم ، من امثال

(١٢) سوخانوف ، المرجع ذاته .

لوناتشارسكي وريازانوف ومانويلسكي وبوكروفسكي ، ويوفي واوروويتسكي وفولودارسكي ، كانوا قد كتبوا في صحف تروتسكي . وأصبح آخرون ، ككاراخان ، ويورينييف ، ديبلوماسيين سوفياتيين من الطراز الأول فيما بعد . كانوا يشكلون نخبة سياسية لامعة ، لكن منظمتهم كانت ضعيفة جداً ومحدودة جداً . بحيث لا يمكن ان تشكل قاعدة عمل مستقل . وحين وصل تروتسكي ، كانت المجموعة تتناقش حول مستقبلها وتدرس امكانية اندماجها مع البلاشفة والتجمعات اليسارية الاخرى ، ففي الاجتماعات العامة ، كان يسأل محركوها بالحاح بم يتميزون عن البلاشفة ولماذا لا يلتحقون بهم ، فلا يجدون جواباً مرضياً في الحقيقة . ان انفصالهم عن البلاشفة كان ناجماً عن تعارض طويل ومعقد داخل الحزب القديم : يعكس الخلافات الماضية لا الحاضرة(١٣) .

في ٧ أيار/ مايو ، نظم البلاشفة ومنظمة ما بين المقاطعات حفلة استقبال لتروتسكي ، وفي العاشر من أيار/ مايو ، اجتمعوا لدرس مشروع الاندماج . وصل لينين يرافقه زينوفييف وكامينيف ، وكانت تلك هي المرة الاولى التي يراه فيها لينين بعد لقائهما غير الودي في زيمرفالد . ونحن لا نمتلك عن هذا المؤتمر غير تقرير متشذر ، لكن جد مفيد ، في ملاحظات لينين الشخصية . وقد كرر تروتسكي ما سبق وقاله خلال الاجتماع الذي تم تنظيمه على شرفه : لقد تخلى عن موقفه القديم ولم يعد يدافع عن الوحدة بين البلاشفة والمناشفة ، فهو يرى ان الذين قطعوا أي صلة لهم بالاشتراكية - الوطنية ، ولا أحد غيرهم ، ينبغي ان يصطفوا منذ ذلك الحين تحت راية أممية جديدة . ثم تظاهر بالسؤال اذا كان لا يزال لينين يؤكد ان الثورة الروسية هي من حيث الجوهر ثورة من النموذج البورجوازي ، مؤداها « ديكتاتورية ديمقراطية للعمال والفلاحين » لا ديكتاتورية البروليتاريا(١٤) . ويبدو ان تروتسكي لم يكن على علم واضح تماماً بالتبدل الجذري في التوجه الذي احدثه لينين في الحزب البلشفي . فلقد امضى لينين الشهر الذي سبق وصول تروتسكي في جدال حاد مع الجناح اليميني في حزبه ، بقيادة كامينيف ، وأقنع الحزب بالتخلي عن الاطروحة « البلشفية القديمة » حول آفاق الثورة ، ويمكن الافتراض ان تروتسكي سمع شيئاً عن ذلك ، هنا أو هناك . فاذا لم يخبره مناضلون غير كامينيف، فمن المفروض أن يكون أخبره هذا ، وكان قريباً له بالمصاهرة ،

---

(١٣) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٤ ، ص ٣٦٥ ، تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ٤٧ ، انظر كذلك يورينييف ، ٦ سييزد R.S.D.R.P.

(١٤) لينينسكي سبورنيك ، ج ٤ ، ص ٣٠٠ - ٣٠٣ .

ان البلاشفة من خصوم لينين ، وهو بالذات (كامينيف) أخذوا على فلاديمير ايليتش تبنيه الكامل لنظرية « الثورة الدائمة » ، وتخليه هكذا عن البلشفية لصالح التروتسكية .

وفي الحقيقة أن طرق لينين وتروتسكي ، التي تباعدت طويلاً جداً ، عادت فتلاقت أخيراً . وصل كل منهما الى استنتاجات كان الآخر وصل إليها قبل زمن طويل ، استنتاجات طالما عارضها بحدة . الا أنه لا هذا ولا ذاك كان يعي بوضوح انه تبنى وجهة نظر الآخر . فلقد انطلقا من نقاط متباينة ، لكنهما انتهيا الآن الى الالتقاء ، بعد أن اجتازا معارج متباينة . فلقد رأينا ان احداث الحرب أدت بتروتسكي ببطء الى التسليم باستحالة اعادة وحدة الحركة العمالية ، وبأنه خطأ ، وخطأ خطير أن تحاول اعادة تلك الوحدة ، وبأن من واجب الامميين الثوريين تشكيل أحزاب جديدة . اما لينين فكان توصل الى هذا الاستنتاج قبل الحرب بزمن طويل ، لكن بما يخص الحزب الروسي وحده ، بينما قادته الحرب الى تعميم هذا الاستنتاج وتطبيقه على الحركة العمالية العالمية . ومع أنه لم يكن الوحيد وراء تحديد موقفه هذا ، فالعامل الرئيسي في استدلاله وفي ردود فعله الغريزية كان تجربته الروسية . هذا في حين انطلق تروتسكي ، على العكس ، من منظور أعم ، منظور أممي ، طبق مبدأه على روسيا . ومهما كانت الطرق التي توصلا عبرها الى استنتاج مشترك ، فلقد كانت النتائج العملية هي ذاتها .

ان الاختلاف ذاته في طريقتيهما لمواجهة الاشياء والتماثل ذاته في استنتاجاتهما يطبعان تقويمهما للمنظورات الثورية . ففي عام ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ توقع تروتسكي دمج الثورتين المعادية للاقطاع والمعادية للرأسمالية في روسيا وصوّر الانتفاضة الروسية كمقدمة لثورة اشتراكية عالمية ، اما لينين فرفض يومذاك ان يرى في روسيا رائدة الاشتراكية الجماعية . لقد استنتج طابع الثورة وآفاقها من النقطة التي بلغتها روسيا في تطورها التاريخي ، ومن بنيتها الاجتماعية التي كانت طبقة الفلاحين الفردية عنصرها الأهم ، إلا أنه توصل في فترة الحرب الى ان يأخذ بالحسبان الثورة الاشتراكية في بلدان أوروبا المتقدمة ، ويحدد للثورة الروسية موقعاً ضمن هذا المنظور الأممي . ان ما كان يبدو له الآن حاسماً ليس كون روسيا لم تصبح بعد ناضجة للاشتراكية ، بل كونها جزءاً من اوروبا ينبغي ـ وفقاً لاعتقاده أن تعد نفسها للاشتراكية . لم يعد يرى اذا اي مبرر لاقتصار الثورة الروسية على المهام البورجوازية المزعومة ، وقد برهنت له تجربة نظام شباط/ فبراير ، عن استحالة تحطيم قدرة كبار الملاكين من دون تحطيم الطبقة الرأسمالية

ونزع ملكيتها نهائياً : وهذا كان يعني « ديكتاتورية البروليتاريا »[١٥] .

ومع ان الخلافات القديمة بين لينين وتروتسكي قد زالت ، إلا أن موقع كل من الرجلين بقي مختلفاً جداً عن موقع الآخر . فلينين كان الزعيم المعترف به لحزب كبير ، حزب غدا قاعدة تحالف كل المعارضة البروليتارية لنظام شباط/ فبراير ، رغم كونه يمثل اقلية في السوفييتات . أما تروتسكي وأصدقاؤه فكانوا يشكلون كوكبة من الجنرالات اللامعين لكن من دون جيش . كان في وسع تروتسكي ان يوصل صوته الى الاسماع ، فردياً ، من على منابر الثورة ، إلا أنه لم يكن يمكن إلا لحزب جماهيري منظم جيداً ان يحول الكلمات الى وقائع دائمة . كان هناك حاجة من كل جهة للجهة الاخرى ، وان بدرجات متفاوتة ، وما كان شيء يناسب لينين أفضل من ان يستطيع ان يدمج بهيئة أركان حزبه كوكبة الدعاويين اللامعين ، والمحرضين ، والمخططين والخطباء ، التي كان يقودها تروتسكي . الا أنه كان فخوراً بالحزب الذي خلقه وواعياً للميزات التي كان يتمتع بها . كان قد قرر ضم تروتسكي واصدقائه الى حزبه ، وكان عازماً على منحهم داخل الحزب كل الحقوق الديمقراطية ، وعلى أن يقاسمهم سلطته ، ويقبل بأن يصبح في مواقع الأقلية في ظروف حرجة ، كما سوف تظهر الاحداث . لكنه لم يكن مستعداً للتضحية بحزبه لدمجه مع مجموعات صغيرة أخرى في حزب جديد . فمن أجل القيام بذلك كان سيضطر للجوء الى الحيلة أو لدفع ضريبة لا جدوى منها لحساب غرور الآخرين .

في اجتماع ١٠ أيار/ مايو طلب الى تروتسكي وأصدقاء تروتسكي الدخول فوراً الى الحزب البلشفي ، وعرض عليهم مواقع في الأجهزة القيادبة وفي هيئة تحرير البرافدا[١٦] ، ، من دون أي شروط . لم يطالب تروتسكي بجحد ماضيه ، لا بل لم يشر اطلاقاً الى مجادلاتهما القديمة . لقد طردها من فكره وكان يتوقع ان يحذو تروتسكي حذوه ، لأنه كان يصر على الاتحاد مع كل من يستطيع المساعدة في انتصار القضية المشتركة . لا بل كان يأمل في تلك اللحظة التحالف مع مارتوف الذي انفصل عن المناشفة وبقي مخلصاً لبرنامج زيمر فالد ومعارضاً لحكومة التحالف[١٧] .

---

(١٥) لينين ، سوش ، ج ٢٤ ، ص ٢١٤ - ٢١٦ ، ٢٧٤ - ٢٧٥ ، ٢٧٦ - ٢٧٩ .

(١٦) كان لينين قد اقترح على اللجنة المركزية البلشفية ان تعرض على تروتسكي المشاركة في تحرير جريدة الحزب ، لكن اللجنة ردت هذا الاقتراح ، كراسنايا ليتوبيس ، العدد ٣ ، ١٩٢٣ .

(١٧) كتب لوناتشارسكي (ريفولوتسيونيي سيلويتي ، ص ٦٩) : « في ايار / مايو ، وحزيران / يونيو ١٩١٧ ، كان لينين يرغب في التحالف مع مارتوف » . وكان لوناتشارسكي بالذات لا يزال يأمل ، بعد ذلك بوقت طويل ، أن يصبح مارتوف قائد الجناح اليميني في الحزب البلشفي ، وعبر عن هذا الأمل في كتابه المنشور في عام ١٩٢٣ ، المرجع ذاته ، ص ٧٠ .

كان يحتاج تروتسكي لقدر أقل من الاعتزاز كي يقبل مقترحات لينين فوراً . كان عليه أن يأخذ كذلك بالاعتبار اعتراضات أثارها بعض رفاقه الذين كانوا يلفتون النظر الى غياب الديمقراطية في حزب لينين و « الممارسات العصبوية » في اللجان والجمعيات البلشفية . اما تروتسكي الذي طالما انتقد حزب لينين بالتعابير ذاتها ، فكان يعتبر هذه المخاوف دون أساس . وفي رده على لينين ، ألح على التحول الحديث في الحزب البلشفي الذي « اكتسب » ـ حسبما قال ـ « منظوراً امميا » و « تخلص من تبلشفه » . وجد نفسه اذا متفقاً تمام الاتفاق مع لينين على المستوى السياسي ، ووافق كذلك على معظم مقترحات العملية بهدف تعاون فوري ، لكن بما أن الحزب البلشفي تبدل الى تلك الدرجة ، لم يكن ينبغي مطالبة تروتسكي وأصدقائه بحمل اسم بلاشفة . « لا أستطيع ان احدد نفسي كبلشفي ، اذ ليس أمراً مرغوباً فيه ان يلصق المرء بنفسه سمات قديمة ! » ينبغي الالتقاء في حزب جديد ، يحمل اسماً جديداً ، من خلال مؤتمر مشترك للمجموعات السياسية التي تزمع الاندماج . ولقد كان يجب أن يدرك تروتسكي أن مؤتمراً من هذا النوع سيتمتع البلاشفة فيه بتفوق مطلق في مختلف الاحوال : لذا فالفرق كان سيقتصر على تبديل في السمة أو العنوان[18] ! ولم تكن تلك مسألة بالأهمية التي تبرر لتروتسكي وصحبه الانغلاق في عزلتهم السياسية . لكن لم يكن هنالك أي حل في متناول النظر في ذلك الحين .

وحين سئل لينين في تلك الفترة عن السبب الذي يجعله يبقى منفصلاً عن تروتسكي رغم اتفاقهما الكامل ، أجاب : « حقاً ألا تعرفون ؟ إنه الطموح ، الطموح ، الطموح »[19] . كان اعتبار تروتسكي نفسه بلشفياً ، فيما لو فعل ذلك سيظهر كاستسلام ضمني ، لا للينين الحالي ، بل للينين الماضي ، وهوما كان يرفضه . الا أن هذا الاستسلام كان الى حد ما حتمياً ، فلينين الماضي ، المهاجر هو الذي كان مهندس ما غدا حزب الثورة. من جهةاخرى ، فالبرنامج الحالي للحزب كان يجسد افكار تروتسكي أكثر مما يجسد افكار لينين . إلا أن هذا كان واقعاً لا يفطن له أحد . ولا شك أن لينين كان يجهل تقريباً امكانية ان يكون هذا التجاهل جرح تروتسكي . زد على ذلك أنه كان يستحيل عملياً ، بالنسبة اليه ، فيما لو أراد ، أن يقدم اثباتاً بهذا الشأن الى تروتسكي ، بأي شكل من الاشكال . فليس لدى حزب ثوري يخوض غمار ثورة محتدمة متوفر من الوقت لاعطاء البرهان على الدقة والرهافة بما يخص « حقوق نشر » الافكار السياسية . إلا أن لينين حيّا

(١٨) لينينسكي سبورنيك ، ج ٤ ، المرجع المذكور .
(١٩) بالابانوف ، المرجع المذكور ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

تروتسكي بعد مرور فترة قصيرة من ذلك العام ، من دون أي مرارة ، قائلاً أنه لما كان قطع أي علاقة بالمناشفة فليس هنالك بلشفي أفضل منه[٢٠] . أما تروتسكي فكان لديه حس سياسي مرهف للغاية بحيث لا يمكن إلا أن يرى من المضحك الاصرار في مثل ذلك الحين على نفاذ بصره . بالنسبة اليه ايضاً ، كانت الانجازات السياسية للثورة أهم من التشخيصات النظرية ، ولم يكن تردده غير الرعشة الأخيرة لمعارضته للينين .

لقد بقي مؤقتاً خارج أي حزب سياسي ، وكان يحاول اقامة اتصالات : توقف في مكاتب هيئة تحرير جريدة غوركي ، نوفايا جيزن (الحياة الجديدة) . كان يعرف غوركي ويعرفه هذا الاخير منذ زمن طويل ، وكانا يكنّان الواحد للآخر تقديراً متبادلاً . الا ان الفروق في السن والمزاج وانماط التفكير كانت تحول دون صداقة حميمة ، إلا أنهما تعاونا ، عند الحاجة ، لا سيما حين ابتعد غوركي عن لينين . كان يقف غوركي في تلك الفترة في منتصف الطريق بين البلاشفة والمناشفة يوجه انتقادات الى الفريقين في جريدته الكبرى داعياً اياهما لاتخاذ موقف ثوري . وكان يأمل نجاح تروتسكي لأنه كان يعتقد أنه سيحاول مثله ان يصالح الخصوم داخل المعسكر الاشتراكي . إلا أن التصريحات الاولى التي ادلى بها تروتسكي في بتروغراد أوحت اليه بمشاعر داخلية مزعجة وكان يتمتم المتعاونون معه أن « تروتسكي أسوأ من لينين » . الا أن غوركي نظم مع ذلك اجتماعاً بين فريق التحرير في جريدته وتروتسكي . وسرعان ما بدا انهما على خلاف . أضف الى ذلك ان تأثير غوركي كان أدبياً وحسب ، فالبرغم من كل ما امتاز به ، لم يكن لجريدته علاقات جدية مع مجموعات الرأي المختلفة ولا مع المنظمات المدعوة للعب دور مهم في الثورة . أما بصدد السياسة الماركسية ، فلقد كان الروائي الكبير يتصف بسذاجة طفل ، إلا أنه كان يرسل التنبؤات السياسية ، بقلة التواضع التي يتميز بها العصامي الذي بلغ الشهرة . لم يكن يمكن لشيء ان يكون اكثر رعونة ، في حالة تروتسكي ، من الارتباط بغوركي والقبول به كموجه سياسي . وكان تروتسكي يفتش عن اطار تنظيمي صلب ، عن نقطة ثابتة ، للانخراط في حقائق الثورة ، وهو ما لم يكن في وسع غوركي أن يقدمه اليه . كان تبادل وجهات النظر فيما بينهما خشناً ، وخرج تروتسكي من ذلك باستنتاج انه لم يبق له غير التحالف مع لينين[٢١] .

في الفترة ذاتها ، أسس فبريود (الى الأمام) ، جريدة منظمة ما بين المناطق . ومع أنه كان يكتب في فبريود كتّاب لامعون ، إلا أنها منيت بالفشل . ففي تلك الحقبة ، لم يكن

(٢٠) تروتسكي ، مدرسة ستالين للتزوير ، ص ١٠٥ .

(٢١) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٤ ، ص ١٩١ ؛ تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ، ج ١ ، ص ٤٨٦ - ٤٨٧ .

ثمة امكانية لتحقيق انتشار واسع إلا للصحف التي تستطيع الاعتماد على دعم مالي قوي ، أو على الخدمات المنزّهة لمنظمة واسعة ، والامران لم يكونا واردين بالنسبة لفبريود . كانت في البدء أسبوعية ، إلا أنها كانت تصدر بصورة غير منتظمة ، ولم يصدر منها إلا ستة عشر عدداً قبل اندماج منظمة ما بين المناطق والحزب البلشفي .

مارس تروتسكي تأثيره على الحياة السياسية في العاصمة بخطبه اكثر مما بمقالاته . تكلم في عدد لا يحصى من اللقاءات ، بصحبة لونا تشارسكي بوجه عام ، ولم يمر اسبوعان أو ثلاثة على وصوله حتى كان حقق شعبية واسعة ، هو ولوناتشارسكي : كانا يعتبران المحرضين الأكثر بلاغة للجناح اليساري في السوفييت[٢٢] . وكانت القاعدة البحرية في كرونشتادت ، المجاورة للعاصمة ، المكان المفضل الذي يختار الكلام فيه ، وبدا ان كرونشتادت ذات اهمية اساسية في شكلها السياسي اللاحق . فالبحرية كانت في حالة تمرد مكشوف ، وكانت القاعدة تشكل نوعاً من الجمهورية الحمراء التي لا تعترف بأية سلطة . كان البحّارة يواجهون كل المحاولات لاعادة فرض الانضباط عليهم بمقاومة عنيفة . وقد عيّنت الوزارة مفوضين كان بعضهم فقد حظوته بسبب ارتباطه بالنظام القديم ، لا بل بالمئة السود ، فرفض البحارة السماح لهم بالصعود الى متن مراكبهم وأساؤ وا معاملة بعض منهم ، أما تروتسكي فحث البحارة على كظم غيظهم وكبح رغبتهم في الانتقام ، بيد أنه بذل كل ما في وسعه لتأجيج حميتهم الثورية .

حوالى نهاية شهر أيار / مايو ، اختصم الوزراء الاشتراكيون البحارة أمام السوفييت وتقدم تروتسكي للدفاع عنهم . لم يعذر مبالغاتهم ، الا انه أكد أنه كان يمكن تحاشي تلك المبالغات لو لم تعين الحكومة أناساً فاقدي الاعتبار ومكروهين كمفوضين ، قال : « يرفض وزراؤ نا الاشتراكيون النضال ضد خطر المئة السود . زد على ذلك أنهم يشهرون الحرب على البحارة والجنود في كرونشتادت ، بيد أنه اذا كانت الرجعية تستيقظ واذا كان جنرال معادٍ للثورة يحاول عقد انشوطة متحركة حول عنق الثورة ، فمفوضوكم المتواطئون مع المئة السود سيصوبنون الحبل لنا جميعاً . بينما سيأتي بحارة كرونشتادت ليقاتلوا ويموتوا معنا »[٢٣] . هذه الجملة غالباً ما رددت فيما بعد حين دافع بحارة كرونشتادت عملياً عن حكومة كيرنسكي في وجه عصيان الجنرال كورنيلوف . وكتب تروتسكي للبحارة ايضاً البيان الذي يؤ لبون فيه البلاد على وزارة الحرب ـ كان ذلك فشل كيرنسكي الاول منذ تولي

---

(٢٢) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٤ ، ص ١٦٤ ـ ١٦٧ .

(٢٣) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ص ٥٢ .

الوزارة المذكورة . منذ ذلك الحين ، تبع البحارة تروتسكي باخلاص ودافعوا عنه وجعلوا منه شبه معبود ، وكانوا يطيعونه ، سواء دعاهم الى العمل أو حثهم على الصبر(٢٤) .

في تلك الحقبة بالذات ، جعل كذلك من السيرك الحديث منبره المعتاد ، حيث كان يبادر الى الكلام كل مساء تقريباً امام جماهير حاشدة . كان المدرّج يزدحم بالناس لدرجة كان ينبغي معها حمل تروتسكي عموماً الى المنبر من فوق رؤوس الجمهور ، تحت النظرات المشغوفة لابنتيه من زواجه الاول اللتين تحضران الاجتماعات . كان يتكلم على قضايا وأهداف الثورة بمنطقة المعتاد المقنع للغاية ، إلا أنه عرف كذلك كيف يفهم الاستعداد النفسي لدى الجماهير ، وحسها الحاد بالعدالة ، ورغبتها في فهم الاحداث بخطوطها العريضة بوضوح ، وانتظارها وآمالها الكبيرة .

وقد روى فيما بعد كيف ان الكلمات والبراهين التي كان يعدها كانت تتبخر حالما يرى الجمهور ، لتحل محلها كلمات أخرى وحجج أخرى تنبثق من شعوره الباطني ، لا يكون توقعها لكنها تجيب عن حاجة سامعيه . كان يصغي حينذاك الى نغم صوته الخاص به كما لو كان صادراً عن شخص آخر ، محاولاً ان يتابع الحركة المتماوجة لافكاره وجمله ، لأنه كان يخشى الاستيقاظ فجأة كمروبص(*) ، وألا يتمكن من المتابعة . كانت سياسته تتوقف عن التعبير عن تفكير فردي أو عن مناقشات حلقة صغيرة من محترفي السياسة ، وكان يتوحد مع مشاعر الجمهور الذي لا اسم له والمشغوف المتواجد إزاءه ، كان يغدو وسيطه ، وقد انتهى للتماثل مع السيرك الحديث الى حد أنه حين كان يعود الى قصر توريد أو الى معهد سمولني ، كان يصيح به خصومه : « لست في السيرك الحديث » ، أو : « انت لا تتكلم هكذا في السيرك الحديث »(٢٥) .

* * *

انعقد مؤتمر السوفييتات الاول لعموم روسيا في بتروغراد في بداية شهر حزيران يونيو ، وقد دامت الدورة ثلاثة أسابيع . للمرة الاولى كانت الاحزاب وقياداتها وجهاً لوجه ، في جمعيةوطنية هي الهيئة الوحيدة القائمة في روسيا يومذاك ، التي تكتسب صفتها تلك من انتخاب الأمة لها . وكان الاشتراكيون المعتدلون يحوزون خمسة أسداس الأصوات ؛ يقودهم مثقفون مدنيون ؛ إلا أنه كان في صفوفهم عدد من اصحاب البزّات

---

(٢٤) ف . ف . راسكولنيكوف ، كرونشتادت أي بيتر ٥ ، ١٩١٧ ، غرودو ، ص ٧٧ .

(*) المروبص هو الذي يسير في أثناء نومه (م) .

(٢٥) تروتسكي ، حياتي ، ج ٢ ، ص ١٥ - ١٦ ، ؛ جون ريد ، عشرة ايام هزت العالم ، ص ١٧ .

العسكرية وآخرون يرتدون ملابس الفلاحين ، بحيث لم يكن يمكن إلا ملاحظة وجودهم . أما في اقصى اليسار فكانت اكثرية الـ ١٢٠ عضواً من اعضاء المعارضة من عمال المراكز الصناعية الكبرى . وكان المؤتمر يعكس التوزع بين العناصر العسكرية والريفية الآتية من المقاطعات والعناصر البروليتارية الخاصة بالمدن الكبرى . وقبل أيام من ذلك الحين ، كشف انتخاب بلدي في بتروغراد تغييراً معبراً ، فالكاديت الحائزون على أغلبية مقاعد الحكومة مُنوا بهزيمة ساحقة في مناطقهم الانتخابية « المضمونة » اكثر من غيرها ؛ وحاز المناشفة نصف الأصوات . أما الضواحي العمالية فصوتت للبلاشفة بشكل حازم . وقد وصل المناشفة الى المؤتمر يحدوهم أمل وطيد بأنهم المنتصرون ، وكان البلاشفة يحملون معهم ثقة جديدة بنصرهم القادم[٢٦] .

استغل الناطقون بلسان المعارضة اليسارية نجاحهم الأخير ضد الاكثرية ، وقالوا إن الأمير لفوف والكاديت لا يحوزون إلا عدداً قليلاً من الأنصار . كان الاشتراكيون المعتدلون يمثلون الأكثرية الساحقة من أفراد الأمة . فلماذا اكتفوا بتقديم المساعدة للكاديت ؟ . لماذا لا يشكلون حكومتهم الخاصة بهم طالما حصلوا ديمقراطياً على الحق في ذلك ، لا بل على واجب القيام بذلك ؟ تلك كانت موضوعة خطاب لينين[٢٧] . تلك كانت كذلك وجهة النظر التي فصّلها تروتسكي[٢٨] . ومع أن محاجّته كانت اكثر حسماً في بعض اللحظات، فقد وجه النداء إلى الأكثرية بلهجة ودية ، مشيراً إلى المصالح المشتركة والمصير المشترك . حاول أن يُشعر المناشفة والاشتراكيين الثوريين بأنهم في حالة مهينة ، وأن يقنعهم بقطع صلتهم بالأحزاب البورجوازية . قال إن من العبث محاولة تحويل الحكومة الى مجلس مصالحة بين الطبقات « إن مجلس مصالحة لا يمكن ان يمارس السلطة في حقبة ثورية » . وكان الأمير لفوف وأصدقاؤه يمثلون الطبقات المعتادة على الحكم والسيطرة ؛ وكان الوزراء الاشتراكيون ، ضحايا الشعور بالدونية ، يقبلون بسهولة زائدة أن يُعامَلوا باحتقار . إلا أن تروتسكي قام بعدة تلميحات ودية تجاه بيشيخونوف ، الأقل شهرة بين الوزراء الاشتراكيين ، وهو ما أثار التصفيق في مقاعد الأكثرية . أكد أن حكومة مؤلفة من أناس من طراز بيشيخونوف بوجه الحصر تشكل « خطوة كبيرة الى الأمام » . « ترون أيها الرفاق أني لا أدافع في هذه الخاتمة عن أية عصبة أو أي حزب ، بل أتبنى وجهة نظر أوسع بكثير . . . » . وقد اتفق مع الوزراء الاشتراكيين حين أعلن ضرورة فرض نوع من

(٢٦) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢٧) لينين ، سوش . ، ج ٢٥ ، ص ٣ - ١٤ .

(٢٨) برفيي فسيروي سييزد سوفييتوف ، ج ١ ، ص ١٤٢ - ١٤٩ . إن ملخّص مداخلة تروتسكي يستند الى هذا المصدر - وفي الطبعات الأخرى ، جرى تصحيح الاشارات الودية تجاه المناشفة .

الانضباط على الطبقة العاملة ؛ إلا أنه انضباط لا يمكن ان يفرضه وزير رأسمالي ، دفاعاً عن سياسة رأسمالية .وهنا أصل كل تحريض أقصى اليسار الذي كانت الأكثرية تتذمر منه .

وقد ألح تروتسكي على القول : « إن من يقال عنهم انهم محرضو اليسار يهيئون مستقبل الثورة الروسية . وأجرؤ على القول اننا بعملنا لا ندمر سلطتكم إطلاقاً ، بل نحن عنصر لا غنى عنه لبناء المستقبل » . « أيها الرفاق ، لا آمل ان أقنعكم اليوم ، فذلك مطمح مبالغ به . ما أود أن تفهموه اليوم هو أننا إذا عارضناكم فليس . . لعدائنا لكم أو بفعل أنانية عصبوية ، بل لأننا نعاني معكم من كل آلام الثورة وهمومها . إننا نستشف حلولاً مختلفة عن حلولكم ونحن مقتنعون بحزم بأنه إذا كنتم تعززون حاضر الثورة فنحن نعد مستقبلها لأجلكم »[٢٩] . أما لينين ، فلم يكن يولي خصومه ، في تلك الفترة ، الثقة ذاتها التي يمنحهم إياها تروتسكي ، مع أنه كان متفقاً مع تروتسكي حول كون « وزارة من اثني عشر بيشيخونوف » تشكل خطوة متقدمة اذا قورنت بالتحالف الحالي .

وقد جاءت « حادثة غريم » لتسمم النقاش . كان غريم برلمانياً سويسرياً ، اشتراكياً ، ومحباً للسلام ، شارك في مؤتمر زيمرفالد ، كان ينتمي في ذلك الحين الى « الوسط » ولم يكن يوافق على التكتيك الثوري الخاص بلينين . ثم ساعد في تنظيم سفر لينين من سويسرا الى روسيا ، مروراً بألمانيا . وفي أيار / مايو أوصل الى زعيم الأحزاب الحاكمة في بتروغراد رسالة من الحكومة الالمانية تستكشف مدى استعداد روسيا للسلام . وقد طردته الحكومة الروسية كعميل الماني ، لكن دون تعيين الأسباب التي تحملها على هكذا اعتبار .

لم يكن غريم عميلاً المانياً ، بالمعنى الحقيقي للكلمة . كل ما هنالك أنه وجد من الطبيعي جداً أن يكلف نفسه إطلاق بالون الاختبار هذا . علاوة على ذلك ، لما كان غير خبير بتعقيد السياسة الثورية الروسية ، لم يكن في وسعه أن يفهم لماذا قد يعترض الاشتراكيون الروس عمله[٣٠] ، سواء اولئك الذين كانوا يطالبون بالسلام بصوت عال - كالبلاشفة وتروتسكي - ، أو اولئك الذين ظلوا فقط يعدونه بسلم وشيك ، كالمناشفة . ولم يكن لينين وتروتسكي ، في كل حال ، مطّلعين على مساعيه ، ومع ذلك ، فواقع كون الحكومة اتهمت غريم بالعمالة لالمانيا تم استخدامه في الحال لتوجيه الاتهام للروس الذين

---

(٢٩) برفيي فسيروس ، سييزد سوفييتوف ، ج ١ ، ص ١٤٩ .
(٣٠) بالابانوف ، المرجع ذاته ، ص ١٧٨ .

شاركوا في حركة زيمرفالد . فبعض الشهود يؤكدون أن ميليوكوف اتهم لينين وتروتسكي بأنهما ، هما أيضاً ، عميلان لألمانيا . وقد تكلم تروتسكي في المؤتمر مدافعاً عن غريم . ولم يكن يعتقد بأن الحكومة محقة في طرده ورأى في الحادثة مناورة من جانب ميليوكوف تفتقر الى الشرف . وحين أتى على ذكر اتهامات ميليوكوف ضد لينين وضده اعلن وهو يستدير نحو مقاعد الصحافيين : « من هذا المنبر الخاص بالديمقراطية الثورية أسأل الصحف الشريفة في روسيا أن تنقل ما سأقوله : طالما امتنع ميليوكوف عن سحب اتهاماته ، سوف يُعامَل كهاتك أعراض مبتذل »[٣١] .

وقد كتبت جريدة غوركي أن « تصريح تروتسكي المدلى به بالكثير من الاندفاع[٣٢] والكرامة استثار تصفيق الجميع في الجمعية بأسرها . فلقد هتف المؤتمر كله ، دون تمييز بين الانتماءات ، هتف لتروتسكي بالكثير من الصخب طوال دقائق عديدة »[٣٣] . وفي صبيحة اليوم التالي ، اعلن ميليوكوف أنه لم يتهم لينين وتروتسكي بالعمالة للالمان . لكنه صرح فقط بأن على الحكومة أن تضعهما في السجن بسبب نشاطهما التخريبي[٣٤] .

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي يهتف فيها المؤتمر لتروتسكي بهذا الإجماع ، فخلال تتمة المناقشات ، تعمقت الهوة بين الأحزاب . احتدم الجدال إبان النقاش حول الدوما الأخيرة ، التي تم انتخابها في عام ١٩١٢ بأكثرية محدودة جداً . هذه الدوما لعبت دور جمعية استشارية للقيصر لا كبرلمان حقيقي ، وكانت تتألف بمعظمها من أشخاص مرتبطين بالقيصر . كان الكاديت يصرون على ضرورة إعادة تكوين الدوما التي كانوا يأملون استخدامها كقاعدة شبه برلمانية لحكومتهم . وقد سلّم المناشفة والاشتراكيون الثوريون مكتب السوفييت مشروع قرار غامضاً ، شرحه مارتوف ساخراً بالشكل التالي : « لم تعد الدوما موجودة ، لكن يحذرون هنا من أية محاولة لإلغائها »[٣٥] . واقترح لوناتشارسكي دفن الدوما ، الباقية من ماضٍ مخجل ؛ وساند تروتسكي لوناتشارسكي في تصريح عنيف جداً . وحين نهض خلال إحدى الجلسات اللاحقة للكلام وبدأ كالمعتاد بكلمة « أيها الرفاق » ، قاطعته صيحات : « أي نوع من الرفاق تعتبرنا ؟ » . و « توقف عن تسميتنا بالرفاق ! » وقد توقف ، واقترب من البلاشفة[٣٦] .

(٣١) برفي فسيروس ، سييزد سوفييتوف ، ص ١٥٨ .
(٣٢) بالفرنسية في النص .
(٣٣) نوفايا جيزن ، ٦ حزيران / يونيو ١٩١٧ .
(٣٤) ريش ، ٧ حزيران / يونيو ١٩١٧ .
(٣٥) برفي فسيروس ، سييزد سوفييتوف ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٨ .
(٣٦) المرجع ذاته ، ص ٣٥٢ .

كان وضع الجيش هو المسألة الرئيسية التي ناقشها المؤتمر ، فمنذ سقوط القيصرية ، بقيت الجبهات الروسية جامدة . وتحت ضغط الحلفاء الغربيين ، بدأت الحكومة وهيئة الاركان العامة تعدان هجوماً جديداً كانتا تصران على الحصول على موافقة السوفييت لوضعه موضع التنفيذ . وكانت هيئة الأركان تطلب كذلك بإلحاح إعادة النظر بـ « القرار رقم ١ » المشهور ، المتضمن الميثاق الكبير لحرية الجنود . خلال تلك المناقشة بالذات ، ألقى تروتسكي خطابه الأهم : حذر الحكومة من كون الجيش لم يعد قادراً على مواصلة القتال ، بعد الخسائر الفادحة التي لحقت به وتوقف مصالح تموينه عن العمل بسبب انعدام الكفاءة والتجاوزات والفساد . إن المبادرة الى الهجوم ستنتهي حتماً الى الكارثة ، ومحاولة إعادة الانضباط القديم لن تؤدي الى أي شيء . « من حسن حظ تاريخ روسيا أن جيشنا الثوري نبذ الموقف القديم للجيش الروسي ، موقف الجرادة . . حين كان مئات الألوف من الرجال يقبلون بالموت من دون مقاومة . . حتى من دون معرفة معنى تضحيتهم . . اللعنة على تلك الفترة من تاريخنا التي تركناها خلفنا ! منذ الآن ، لن نعوّل على البطولة البدائية ، اللاواعية ، التي تصدر عن الجمهور ، بل على البطولة التي تمر عبر كل وعي فردي »(٣٧) . ليس للجيش اليوم اية فكرة يدافع عنها . « أكرر : في هذا الجيش المنبثق من الثورة . . ثمة الآن ، وسيكون هنالك ، أفكار ، وشعارات ، وأهداف قادرة على جمعه وإعطائه هكذا الوحدة والحماس . . لقد استجاب جيش الثورة الفرنسية العظمى استجابة طوعية للدعوات الى الهجوم . أما عقدة الموضوع فهي التالية : لا يوجد الآن هدف قادر على جمع الجيش . . كل جندي يفكر يطرح على نفسه السؤال التالي : من نقط الدم الخمس التي سأهرقها اليوم ، ألن يكون ثمة واحدة وحسب للثورة الروسية ، وأربع للبورصة الفرنسية والامبريالية الانكليزية ؟ »(٣٨) . لو أن روسيا فكت تضامنها مع السياسات الامبريالية ، لو تم تدمير قوة الطبقات القيادية القديمة ، لو أرست السوفييتات حكومة ديمقراطية جديدة ، « لكان بإمكاننا أن ننادي كل الشعوب الأوروبية ونقول لها إن قلعة الثورة قد انتصبت على خارطة اوروبا »(٣٩) .

ثم استعاد تروتسكي حواره مع المتشككين الذين لم يكونوا يؤمنون بأن « الثورة ستمتد ، وبأن الجيش الثوري الروسي ، والديمقراطية الروسية سيجدان لهما حلفاء في أوروبا » : « أجيب بأن التاريخ لم يقدم لنا أية ضمانة ـ سواء لنا نحن أو للثورة الروسية ـ

---

(٣٧) برفيي فسيروس ، سييزد سوفييتوف ، ص ٣٥٣ .

(٣٨) المرجع ذاته ، ص ٣٥٤ .

(٣٩) المرجع ذاته ، ص ٣٥٦ .

بأننا لن نتعرض للسحق الكامل ، وبأن الرأسمال العالمي لن يخنق ارادتنا الثورية ، وبأن الامبريالية العالمية لن تصلبنا » . كانت الثورة الروسية تمثل للطبقات المالكة في كل البلدان خطراً محدقاً ، بحيث ستحاول تدميرها وتحويل روسيا الى مستعمرة للرأسمال الاوروبي ، أو للرأسمال الاميركي على الارجح . إلا أن امتحان القوة هذا كان لا يزال امراً مؤجلاً . وكان من واجب السوفييتات أن تعد نفسها له . « إذا . . لم تنتفض المانيا (الثورية) ، أو إذا لم تنتفض بما يكفي من القوة ، سندفع بقواتنا . . . لا للدفاع عنا ، بل لبدء هجوم ثوري » . وهنا قاطع خاتمة كلامه صوت غُفْل آتٍ من القاعة : « سيكون الأوان قد فات حينذاك » . وقبل نهاية العام ، أعطت الأحداث الحق لهذا الصوت المجهول . لكن يمكننا أن نميز بوضوح في تروتسكي الذي كان يتوجه الى المؤتمر وجه رجل لن يواجه فقط ديبلوماسية آل هوهنزلرن وآل هابسبورغ ، من دون اي جيش خلفه ، بل سيخلق كذلك الجيش الأحمر .

في هذا المؤتمر ، أجرى نقاشه الأخير مع بليخانوف . كلّما أحدهما الآخر بلهجة باردة للغاية ، متنادين بكلمة « مواطن » ، لا بكلمة « رفيق » . كان مزاج بليخانوف الصدامي في ذروته ، وحتى المناشفة كانوا منزعجين من شوفينيته إلى درجة أبقوه معها بعيداً عنهم . إلا أن المؤتمر حيّا أفضاله السابقة بحماس ، فرد على ذلك بموعظة وطنية طالما تم اجترارها . وقد أنبه تروتسكي بسببها بعنف ، فأجاب بليخانوف بعليائية ، مقارناً نفسه حيناً بدانتون وحيناً آخر بلاسال ، ومشدداً على التضاد بين جيوش الثورة الروسية المحبطة وفاقدة المعنويات ، وجيوش كرومويل واليعاقبة « التي كانت تحفز شجاعته بشرب نسغ الثورة » . هذا الشيخ المتقزز لم يكن يستطيع ان يتصور ان هذا الخصم الذي يصغره سناً والذي كان يعامله بالكثير من الازدراء سيكون مدعواً في يوم من الأيام للعب دور دانتون روسي وجعل الجيوش السوفياتية تشرب « نسغ الثورة » .

خلال القسم الأكبر من المناقشات ، عاملت الأكثرية البلاشفة وأصدقاءهم ككمية مهملة . دافع تسيريتللي عن حكومة التحالف وتحدى المندوبين أن يقولوا إذا كان في روسيا حزب واحد مستعد ليضطلع لوحده بمسؤولية الحكم . وقد قاطعه لينين ، من القاعة ، قائلاً له إن حزبه مستعد لهكذا مهمة ، فاستقبلت الاكثرية هذه الكلمات بقهقهة صاخبة .

لم يكن مندوبو المقاطعات يعرفون أن نفوذ المعارضة في بتروغراد يتضخم كجرف ثلجي . كان لينين يريد التأثير فيهم ، وأن يُظهر لهم أن بتروغراد تطالب بإنهاء التحالف وبتأليف وزارة اشتراكية ، أي وزارة مكونة بوجه الحصر من اشتراكيين معتدلين . وبالرغم من تصريحه الذي ادلى به من قاعدة المؤتمر ـ الذي لم يكن غير إعلان مبدئي لا يستهدف

التحقيق الفوري - فهو لم يكن ينوي ، حتى ذلك الحين ، إطاحة الحكومة . كما لم يكن يريد تشجيع ائتلاف بين الاشتراكيين المعتدلين وحزبه الخاص به . فطالما كان البلاشفة لا يزالون أقلية في السوفييتات ، نصح أنصاره بألا يحاولوا الاستيلاء على السلطة ، وبأن « يشرحوا موقفهم للجماهير بأناة » ، وذلك حتى يحصلوا على الأكثرية . كان هذا مبدأ « دستوريته » السوفياتية ، وبانتظار ذلك لم يعد الشعار البلشفي هو « لتسقط الحكومة ! » بل « ليسقط الوزراء الرأسماليون ! » . وبعد أن انتصر لينين على مخاوف لجنته المركزية ، بدأ يعد ، في سرية مطبقة ، لمظاهرة هائلة ، تتم في ١٠ حزيران / يونيو . وقد أزال تروتسكي مخاوف اصدقائه ودفع منظمة ما بين المناطق للمشاركة في هذه التظاهرة إلا أنه حين اطلقت البرافدا في ٩ حزيران / يونيو نداء عاماً للعمال والحامية ، حظرت هيئة المؤتمر التنفيذية المظاهرة .

لا لينين ولا تروتسكي أرادا تجاوز هذا القرار . لقد قررا الخضوع لقرار الأكثرية والغاء المظاهرة وشرح موقفهما في بيان خاص . وكانت هناك فترة من القلق : هل يأخذ العمال والجنود الالغاء بالاعتبار ؟ وحتى في حالة كهذه ، ألن يخطئوا في تفسير موقف الحزب ؟ ألن تخمد رغبتهم في العمل ؟ لقد حرر لينين مسودة إعلان تبريري ، لكن لما لم يكن راضياً هو عنه ولا أعجب أصدقاءه ، فقد قبل بطيبة خاطر نصاً آخر كتبه تروتسكي : هذا النص تمت قراءته أمام المؤتمر باسم المعارضة جمعاء . كما أن تروتسكي ، الذي لم يكن بعد عضواً في الحزب البلشفي ، كتب كذلك للجنته المركزية بياناً في الموضوع ذاته[٤٠] .

في ١٠ حزيران / يونيو ، بقيت بتروغراد هادئة .إلا أن قادة الأكثرية في السوفييت قرروا تنظيم مظاهرة جماهيرية اخرى ، يكون موعدها ١٨ حزيران / يونيو ، بأمل أن يجعلوا منها مظاهرة تأييد لسياستهم . وفي اليوم المحدد ، مر ٥٠٠ ألف عامل وجندي أمام المنصّات التي استقر فيها المؤتمر in corpore (*) . ويا لفزع الاشتراكيين المعتدلين حين رأوا كل الرايات تحمل شعارات بلشفية : « فليسقط الوزراء الرأسماليون العشرة ! » « سحقاً للحرب ! » و « كل السلطة للسوفييتات ! » وقد انتهى العرض من دون أي حادث . لم يكن هناك هياج ولا شغب ، لكن للمرة الأولى ، تمكنت الأحزاب المناهضة للبلشفية من تقدير مدى نفوذ السياسة والشعارات البلشفية وتأثيرها على الجماهير .

منذ بداية فترة العمل تلك ، اكتسبت شخصية تروتسكي (الذي لم يمر اكثر من شهرين على عودته) شهرة جديدة وواسعة . وقد كتب لوناتشارسكي أنه « إزاء النجاح

---

(٤٠) لينين ، سوش . ، ج ٢٥ ، ص ٦٠ - ٦١ ؛ تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ١٣٧ ؛ ولينين ، ص ٦٦ - ٦٩ .

(*) باللاتينية في النص (م) .

المدهش الذي لقيه تروتسكي وأهمية شخصيته ، مال الكثير من الناس المحيطين به إلى أن يروا فيه الزعيم الشرعي الأول للثورة الروسية . قال لي أوريتسكي في يوم من الأيام ، ويبدو أنه قال كذلك لمانويلسكي : « الثورة الكبرى وصلت ، وكما ترى ، فإن لينين بدأ يشحب رغم كل ما لديه من تجربة خلف عبقرية تروتسكي » . وتابع لوناتشارسكي قائلاً إن أوريتسكي كان على خطأ ، لا لأنه بالغ في تقدير مواهب تروتسكي وقدرته ، لكن لأن عبقرية لينين لم تكن تجلت بعد بكامل بريقها « صحيح أن لينين كان في تلك الفترة . . . منكسفاً بعض الشيء . لم يكن يتكلم علانية في أغلب الاحيان ولم يكن يكتب كثيراً . كان يهتم بوجه خاص بالتنظيم الداخلي للحزب البلشفي ، بينما كان تروتسكي يدوّي في اللقاءات الجماهيرية » . إلا أن الثورة في عام ١٩١٧ ، تمت في الاجتماعات الجماهيرية بقدر ما تمت في حدود الحزب الأكثر ضيقاً[٤١] .

حدد البلاشفة بداية تموز / يوليو ، موعداً لافتتاح المؤتمر القومي السادس لحزبهم ، وكانت تلك مناسبة لمنظمة ما بين المناطق كي تنضم الى صفوفهم . لم يعد يدور الكلام على تغيير « سمة » الحزب . إلا أن اكثرية منظمة ما بين المناطق بقيت تعارض لفترة من الوقت هذا الاندماج ؛ وباسم الاكثرية ، حذر يورينييف الأعضاء من « طرائق التنظيم الرديئة » لدى البلاشفة ، ومن ميلهم للعمل في لجان سرية صغيرة ؛ بينما قاد تروتسكي الأقلية المتلهفة لتحقيق الاندماج . أكد أن البلاشفة تخلصوا الى حد بعيد من عاداتهم القديمة ، بخروجهم من غسق السرية وإيقاظهم حركة شعبية واسعة . وما تبقى من تلك العادات يمكن التغلب عليه بشكل افضل بكثير بعد الاندماج ، داخل حزب يعمل في وضح النهار . وبدعم من لوناتشارسكي ، تمكن تروتسكي من كسب الاكثرية الى جانب وجهات نظره[٤٢] ؛ لكن قبل أن يتحقق الاندماج ، هزت البلاد أزمة أيام تموز / يوليو .

كانت تلك واحدة من التشنجات العنيفة التي تحدث بصورة غير متوقعة في كل الثورات ، فتقلب خطط القادة جميعاً رأساً على عقب ، وتسرّع وتيرة الاحداث وتحفز تقاطب القوى المتعادية عند حدودها القصوى . كان صبر الحامية والعمال في بتروغراد قد نفد ، فالصفوف من اجل الحصول على الخبز لا تنتهي ، والعملة التي تضاعف تداولها عشر مرات منذ الحرب هبطت قيمتها ، وبلغت المضاربة أوجها . أما الجماهير فكانت تلاحظ أن شروط المعيشة اليومية تفاقمت منذ الثورة ، وبدأت تشعر بأنها تعرضت للخداع . زد على ذلك كله أن الهجوم المكلف تطور في تلك الفترة بالذات . إلا أنه كان هنالك ايضاً

---

(٤١) لوناتشارسكي ، المرجع ذاته ، ص ٢٥ ـ ٢٨ .

(٤٢) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ١٤٥ .

تفاوت في الاستعداد النفسي والموقف بين العاصمة والمقاطعات . فبتروغراد كانت تطالب بتبديل فوري وباستقالة حكومة الأمير لفوف الثانية ، بينما لم يكن نظام شباط / فبراير فقد حظوته في المقاطعات .

كان تروتسكي ولينين ينظران إلى توازن القوى في البلاد بمجملها ، وكانا يعرفان أنه لم تأزف بالنسبة اليهما ساعة الضرب . إلا أن انصارهما ، في العاصمة كانوا هائجين بلا انقطاع ، وقد بدأوا يشعرون بالحذر تجاه تكتيكهما . كان الفوضويون يفضحون لعبة الانتظار ويتهمون البلاشفة بالنفاق ، مثلما فضح البلاشفة تردد المناشفة والاشتراكيين الثوريين ونفاقهم . وفي النهاية ، وضع عدد من الفصائل هيئة الاركان البلشفية أمام الأمر الواقع عن طريق الاعداد لمظاهرة مسلحة تتم في الثالث من تموز / يوليو . وقد لبى بحارة كرونشتادت وعمال العاصمة المدنيون النداء بحماس ، تحت تأثير المحرضين البلاشفة ، من الدرجة الثانية . وكما يحدث في اكثر الاحيان خلال ظروف من هذا النوع ، حين تتم مبادرة سياسية مغامرة تحت التأثير المباشر لانفجار غضب الجماهير ، لم يكن هدف التحرك واضحاً . فأولئك الذين كانوا يعدّون للمظاهرة لم يكونوا يعرفون إذا كان عليهم النزول الى الشارع لإطاحة الحكومة ، أو للاقتصار على مظاهرة سلمية . وقد حاولت هيئة الاركان البلشفية أن تلغي المظاهرة كما فعلت في ١٠ حزيران / يونيو ، إلا أنه لم يكن بالامكان كظم الغضب الشعبي في هذه المرة(٤٣) .

حاول لينين حينذاك أن يضع حزبه على رأس الحركة لإبقائها ضمن حدود مظاهرة سلمية لا تستهدف اكثر من إجبار الاشتراكيين المعتدلين على تشكيل وزارة متجانسة تدعمها السوفييتات . عند سماع هذا الشعار ، ظهرت جماهير حاشدة في وسط المدينة فملأت الشوارع ، ومرت مواكب مواكب ، وعقدت لقاءات ، طوال يومين وليلتين . وقد تكلم فيها خطباء بلاشفة ، من بينهم لينين ، أدانوا التحالف الحاكم ، لكن أطلقوا كذلك نداء الى الهدوء والانضباط .

أما الكتلة البشرية الأعظم عدداً والأكثر هياجاً فحاصرت قصر توريد حيث مكاتب الهيئة التنفيذية المركزية للسوفييتات . أرسل المتظاهرون وفوداً الى القصر تبلغ من فيه أن

---

(٤٣) تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ، ج ٢ ، ف ١ ـ ٣ ؛ زينوفييف ، سوش . ، ج ١٥ ، ص ٤١ ؛ لينين ، سوش . ، ج ٢٥ ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ . أما ستالين الذي أبدى نشاطاً كثيفاً في الطور الأول من احداث تموز / يوليو ، فقد قدم تقريراً مفصلاً عن ذلك للمؤتمر السادس للحزب . ستالين ، سوش . ، ج ٣ ، ص ١٥٦ ـ ١٦٨ ، (انظر الملخص الوارد في كتاب دويتشر ، ستالين ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩) . راسكولنيكوف ، المرجع ذاته ، ص ١١٦ ، وما بعدها .

الجموع لن تتفرق قبل أن يفك الاشتراكيون المعتدلون تحالفهم مع الكاديت . وكان بعض المناشفة والاشتراكيين المعتدلين مقتنعين بأن المشهد بأكمله من اخراج لينين ، وبأن لينين يخطط لانتفاضة مسلحة . والحقيقة أنه لم يكن موقف البلاشفة يدل على أنهم يقودون انتفاضة : كانوا يخطبون في الجماهير محاولين كبح جموحها والحيلولة دون قيامها بأي عمل من أعمال العنف . إلا أن بعض العلامات كان يمكن أن تعطي الانطباع بعمل متعمّد من جانبهم . فالمعلوم أن عرفاء بلاشفة خاضوا حملة التحريض وقادوها وان بحارة كرونشتادت كانوا العناصر الأكثر نشاطاً في الانتفاضة[٤٤] . أما الاشتراكيون المعتدلون فكانوا يعقدون جلسة في القصر المحاصر ، مرتعدين خوفاً على حياتهم . وقد وجهوا النداء الى هيئة اركان الجيش طالبين المساعدة ، لكن لما كانت الحامية بأسرها مع البلاشفة ظهرت الحاجة لاستقدام قوات موثوق بها من الجبهة . وبينما كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون ينتظرون الهرع لنجدتهم انتشرت شائعة تقول إن الجمهور ، في الشارع ، القى القبض على تشيرنوف ، وزير الزراعة ، وكان على وشك إعدامه . أما تروتسكي الذي أمضى الليل بطوله وساعات الفجر في القصر ، يناقش المتظاهرين في الخارج ، تارة ، والهيئة التنفيذية في الداخل طوراً ، فقد هرع إلى مكان الهياج .

غالباً ما أُعطي وصف لما تبع ذلك ، لكن أفضل وصف هو ذلك الذي قدمه سوخانوف في مذكرات حول الثورة :

« على امتداد النظر ، كانت الجماهير ثائرة متدافعة ، كانت جماعة من البحارة ، بوجوه مقلقة ، تتظاهر حول سيارة بالكثير من الصخب . كان تشيرنوف جالساً على مقعدها الخلفي ، وقد فقد كل تحكّم بذاته . وكانت كرونشتادت كلها تعرف تروتسكي وتثق به ، حسبما يبدو ، إلا أنه حين خطب لم يهدأ الجمهور . ولو أطلق عميل استفزازي حينذاك رصاصة بين الجمع لحدث حمام دم رهيب : كانت مزقتنا جميعاً ، دون ان تستثني تروتسكي . كان تروتسكي مبلبلاً ، يكاد يجد الكلمات . . . إلا أنه نجح في جذب انتباه من كانوا اكثر قرباً منه . [بدأ يمجد الفضائل الثورية الخاصة بكرونشتادت ، بصورة

(٤٤) بعد ذلك بخمسة وثلاثين عاماً ، كتب ر. أبراموفيتش ، الزعيم المنشفي : « بدأ التيار المعادي للحرب ينمو بقوة بعد الانطلاقة السيئة لهجوم حزيران / يونيو . إن العداء لهذه المحاولة الرامية لانعاش حرب كانت تعتبرها الجماهير منتهية كان قوياً لدرجة أنني فكرت في تلك الفترة انه كان باستطاعة البلاشفة ان يستولوا على السلطة في أيام يوليو لو أظهر لينين وأصدقاؤه تصميماً أكبر ».(سوتسيا ليستيشسكي فستنيك ، آذار / مارس ١٩٥٢ : « مأساة ثورة مؤجلة » . خلال تلك الاحداث ، لا بل بعدها بوقت طويل أيضاً ، اتهم أبراموفيتش مع ذلك البلاشفة بأنهم تآمروا لأخذ السلطة . تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

بدت لسوخانوف مبالغاً بها .] « لقد أتيتم الى هنا ، انتم ، رجال كرونشتادت الحمر مذ سمعتم بأن الثورة في خطر . . . عاشت كرونشتادت الحمراء ، مجد الثورة وكبرياؤها ! » .

إلا أنهم كانوا يصغون الى تروتسكي بمزاج سيىء . وحين حاول ان يكلمهم على تشيرنوف ، عادت المجموعة المحيطة بالسيارة إلى الصياح .

« جئتم إلى هنا لتثبتوا إرادتكم ولتبيّنوا للسوفييت أن الطبقة العاملة لا تريد أن ترى البورجوازية في السلطة . لكن لماذا تسيئون لقضيتكم الخاصة بكم ؟ لماذا تكدرون أمجادكم السابقة وتمحونها ، عن طريق مهاجمة شخص وقع في متناول أيديكم ؟ . . . كل منكم أبدى إخلاصه للثورة . كل منكم مستعد لتقديم حياته للثورة . أنا أعرف ذلك . . . أعطني يدك أيها الرفيق ! أعطني يدك يا أخي . . . » .

مد تروتسكي يده نحو بحار كان يحتج على خطابه ، فقبض البحار على بندقية بيد ورفض مد الأخرى لتروتسكي . وقد تولد لديّ انطباع بأنه سمع تروتسكي في كرونشتادت اكثر من مرة ، وأنه كان يشعر الآن بأن تروتسكي خان القضية »(٤٥) .

في الاخير ، تحدى تروتسكي الجمهور ، طالباً إلى من يريدون قتل تشيرنوف أن يرفعوا يدهم بصراحة ، فلم ترتفع يد واحدة . ووسط الصمت العميق ، أمسك بذراع تشيرنوف شبه المغمى عليه ، وقاده الى القصر . وحين دخل تروتسكي مصطحباً عدوه الناجي من الموت ، كان وجهه شاحباً شحوب الموت والعرق البارد يرشح منه .

وفي مختلف أحياء المدينة حدثت اضطرابات ومشادّات أقل أهمية ، ولكن كان يمكن أن تؤدي بسهولة إلى اهراق الكثير من الدماء لولا تأثير البلاشفة المهدىء . وبمرور الوقت ، تعب المتظاهرون ، وتراخت حميتهم . كانوا على وشك التفرق حين وصلت القوات الآتية من الجبهة ، فحدث للحال رد فعل عنيف . ذلك أن منظمات يمينية سرية أو نصف سرية ، بقيت حتى ذلك الحين مكتوفة الأيدي ، نزلت الى الشارع . وبعد صدامات عديدة ، تفرق الجمهور المؤيد للبلاشفة ، الذي لم يكن يتطلع إلا الى النوم والراحة . في تلك الفترة بالذات اعلنت الصحف فشل الهجوم على الجبهة ، فأجج هذا النبأ رد الفعل

(٤٥) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٤ ، ص ٤٢٣ - ٤٢٥ . انظر ايضاً ف . تشيرنوف ، الثورة الروسية الكبرى ، ص ٤٢٢ - ٤٢٦ . واكد تروتسكي فيما بعد ان اولئك الذين قبضوا على تشيرنوف كانوا عملاء استفزازيين لا علاقة لهم بالبحارة (سوش . ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ١٩٣ وما بعدها) . إلا أن رواية سوخانوف تبدو اكثر قابلية للتصديق ، وهي تشبه رواية راسكولنيكوف ، قائد كرونشتادت (المرجع ذاته ، ص ١٢٨ - ١٣٠) .

الرجعي المعادي للبلشفية ، واتهمت أحزاب اليمين والجنرالات ، وجمعياتُ الضباط البلاشفة قائلة إن تحريضهم هو الذي ثبّط معنويات الجيش وتسبب بالهزيمة(٤٦) .

كان هذا الاتهام كافياً لوحده لاستمطار صواعق الغضب على رأس الحزب البلشفي . إلا أن اتهاماً آخر اكثر تأجيجاً للنار أضيف اليه ، إذ نشرت جريدة شعبية يمينية « وثائق » تزعم أن لينين عميل لهيئة الاركان العامة الالمانية ، وصدرت مذكرات توقيف بحق لينين وزينوفييف وكامينيف . إلا أنه كان يمكن ان يدرك المرء من نظرة واحدة أن تلك الوثائق تنطوي على تزوير فظ . فالشاهد الذي قدمها ، ويدعى يرمولنكو ، انكشفت حقيقته كمخبر قديم كان يعمل في الماضي في مصلحة مقاومة الجاسوسية العسكرية(٤٧) . إلا أن الانطباع الأول الذي استثاره ذلك الاتهام كان كارثياً ، فالمظاهر كانت تدين لينين ، والمظاهر تلعب الآن دوراً حاسماً . فالمواطن الغريب عن السياسة ، ذلك الذي يجهل التاريخ وعادات الأحزاب الثورية كان يتساءل : « ألم يعد لينين ، في الحقيقة ، إلى البلاد عن طريق المانيا وبموافقة الحكومة الالمانية ؟ ألم يقد حملة تحريض ضد الحرب ؟ ألم يغذِّ الانتفاضة ؟ » كان من العبث الاجابة بأن لينين لم يقرر السفر عن طريق المانيا إلا لأن كل الطرق الأخرى ، عبر فرنسا وانكلترا ، سُدّت في وجهه ؛ وبأن عدداً كبيراً من خصومه المناشفة عادوا معه ، أو بعده بقليل ، سالكين الطريق ذاتها(٤٨) . كما كان من غير المفيد أيضاً الاشارة الى ان لينين كان يأمل أن يرى الثورة تطيح آل هوهنزلرن وآل هابسبورغ كما أطاحت آل رومانوف . ففي خضم حالة الذعر التي اعقبت أيام تموز / يوليو لم يكن الناس يتوقفون عند هذه التفاصيل . كانت الطبقات العليا تجن خوفاً من الثورة وحقداً عليها . وكانت الطبقات الوسطى عمياء من اليأس . أما هيئة الاركان العامة فكانت بحاجة لتفسير يحفظ لها ماء الوجه بعد الكارثة العسكرية الاخيرة . وكان الاشتراكيون المعتدلون يحسون بالأرض تنفتح تحت أقدامهم . لذا كانت الحاجة لكبش فداء وذبيحة تكفير هي التي ستنتصر .

---

(٤٦) في ٢٨ حزيران / يونيو ، أي بعد تلك الاحداث باسبوع ، كتب تروتسكي في فبريود : « وإذا لم يكن كل الجنود مقتنعين ، بعد ثلاث سنوات من الحرب واربعة اشهر من الثورة ، بالقرار الغامض والحذر الذي اتخذه المؤتمر (مؤتمر السوفييتات الذي ايد الهجوم) وبالخطب المتشدقة لنصف وزراء اشتراكيين مزعومين ، يمكن إذاك للصحافة « الموالية » أن تلجأ لطريقة مجرَّبة : دعوة « المجتمع » لحملة صليبية ضد الاشتراكيين الثوريين عموماً ، وضد البلاشفة بوجه خاص » .

(٤٧) سوف أورد تقريراً وتحليلاً مفصلاً عن هذه القضية في كتابي حياة لينين .انظر رواية كيرنسكي في صلب الحرية ، ص ٢٨٥ ـ ٢٩٤ ، ودحضها في اوكتيا برسكايا ريفولوتسيا ، لبوكروفسكي ، ص ١١٥ ـ ١٣٦ . انظر كذلك تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ، ج ٢ ، ص ٩٦ ـ ١٢٣ .

(٤٨) اثبت التحقيق الرسمي حول ايام تموز / يوليو أن حوالى ٥٠٠ مهاجر روسي عادوا من سويسرا عن طريق المانيا . كان ٤٠٠ منهم « معادين للبلاشفة » و « اشتراكيين ـ وطنيين » . بوكروفسكي ، المرجع ذاته ، ص ١٢٣ .

في أوج هذا الغليان التقى تروتسكي لينين . قال هذا الاخير : « لقد اختاروا هذه اللحظة ليقضوا علينا جميعاً »(٤٩) . كان يحسب حساباً لانتصار مرجح للثورة المضادة ، ويعتقد أن السوفييتات التي خصاها المناشفة والاشتراكيون الثوريون خرجت من اللعبة ؛ وكان يعد العدة لعودة حزبه إلى السرية . وبعد تردد ، قرر الحيلولة دون إدخاله الى السجن ، والاختباء هو وزينوفييف . أما تروتسكي فلم يكن يقدر أن الوضع بهذه الدرجة من الخطورة واعتبر قرار لينين قراراً بائساً ، فسلوك من هذا النوع كان يتعارض تماماً مع « طريقة » تروتسكي . كان يعتقد أنه لم يكن لدى لينين ما يخفيه ، لا بل ان مصلحته تقضي ، على العكس ، بعرض روايته للأحداث على الجمهور ، وأنه يخدم هكذا قضيته بشكل افضل مما لو توارى عن الأنظار ، لأن فراره سيعزز المظاهر غير المؤاتية التي يمكن الاستناد اليها للحكم عليه(٥٠) . وكان كامينيف يشارك تروتسكي رأيه وقرر أن يتيح الفرصة لسجنه ، إلا أن لينين أصر على قراره . فهو لم يكن يأمل بمحاكمة عادلة من حكومة تراكم ضده اتهامات كاذبة وتقدم للصحف وثائق مزورة . كان الجو متوتراً ، وكان الحزب البلشفي ، عملياً ، في حالة عزلة إجبارية . فالبرافدا حُظّرت وجرى تخريب مكاتبها . وفي العديد من المناطق ، تعرضت مراكز الحزب البلشفي للنهب . ولم يكن ما هو أسهل بالنسبة لقتلة الأوخرانا القديمة ، الذين كانوا لا يزالون يتمتعون بحماية بعض أوساط الشرطة ، أو بالنسبة لمتعصبي الثورة المضادة ، من اغتيال قائد ثوري مكروه خلال نقله الى السجن أو خروجه منه . وكان لينين يعرف مدى أهميته في الحزب فلم يقبل بهذه المخاطرة ، ومضى الى حيث يختبىء ضارباً عرض الحائط بكل الاعتبارات التقليدية(٥١) .

وغالباً ما قُرن اسم تروتسكي في الهجمات العلنية باسم لينين ، لكن لم يصدر أي أمر بتوقيفه . أما تفسير ذلك فبديهي : لم يكن عضواً في الحزب البلشفي ، وكانت ظروف عودته الى روسيا مختلفة تماماً عن ظروف عودة لينين ، بحيث ما كان من السهل الصاق تهمة العمالة لالمانيا به ؛ زد على ذلك ان حادثة تشيرنوف ، العدو السياسي الذي قام بإنقاذه بشجاعة فائقة ، كانت لا تزال ماثلة في ذاكرة الجميع . إلا أن تروتسكي لم يبق بمنجى من الملاحقة زمناً طويلاً ، فلقد نشرت جريدة ميليوكوف، رييش Ryech ، رواية تقول إنه تلقى

---

(٤٩) تروتسكي ، لينين ، ص ٦٩ .

(٥٠) انظر الشهادة التي أعطاها تروتسكي في السجن فيما بعد ، سوش ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ١٩٣ وما يليها : تاريخ الثورة الروسية ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٥١) اربك هذا القرار بعض انصار لينين . ولم يبد سلوك لينين مبرراً كلياً بالنسبة لمن ادانوه في البدء إلا بعد مرور زمن طويل ، وبالتحديد بعد اغتيال روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت إبان الثورة الالمانية .

قبل رحيله من نيويورك مبلغ عشرة آلاف دولار من الاميركيين الالمان ، الذين كلفوه بأن يدعم بهذا المال التحريض الانهزامي في روسيا . وكتبت صحف أقل أهمية أن هذا المال دفعته هيئة الاركان العامة الالمانية . وللحال أجاب تروتسكي برسالة مفتوحة ظهرت في جريدته وكانت تسخر من إيحاءات ميليوكوف . لفت الانظار ، هازئاً ، إلى أن الاميركيين الالمان ، أو هيئة الاركان العامة الالمانية ، كانوا يعتبرون في الظاهر إطاحة النظام في بلدٍ معادٍ مسألة رخيصة الى أبعد الحدود لا تساوي اكثر من عشرة آلاف دولار . وقد هاجم مصادر هذا الخبر قائلاً إنه صادر عن السير جورج بوشانان ، سفير بريطانيا العظمى . ورد السفير الاتهام ، إلا أن ذلك لم يمنع ميليوكوف من التأكيد بأنه أخذ الخبر من بوشانان . وروى تروتسكي فيما بعد ما حدث بالفعل قبل سفره من نيويورك : فالاشتراكيون الروس والاميركيون والليتونيون واليهود والفنلنديون نظموا اجتماعاً وداعيّاً على شرفه وشرف ثلاثة مهاجرين روس كانوا سيرتحلون معه . وقد جرى جمع تبرعات وصل مقدارها الى ٣١٠ دولارات ، من بينها مئة دولار من اميركيين المان . وهذا المبلغ تم تسليمه لتروتسكي الذي تقاسمه مع المهاجرين الذين عادوا الى البلاد معه . وتحدثت جرائد اميركية عن هذا الاجتماع وما تخلله من جمع تبرعات . واختتم تروتسكي باعتراف مليء بالدعابة سوف يفقده حظوته لدى الجمهور البورجوازي ـ وهو ما كان يعرفه مسبقاً ـ اكثر بكثير مما لو كان حقاً عميلاً لهيئة الاركان الالمانية العامة : كتب يقول إنه لم يملك في يوم من الأيام مبلغ عشرة آلاف دولار ، أو حتى عشر هذا المبلغ[٥٢] .

وفي رسالة مفتوحة أخرى ، روى قصة الصداقة التي شدته إلى بارفوس ، ثم قطعه لكل علاقة له به ، وذلك رداً على الذين اخذوا عليه صلاته به . وقد فضح الكسنسكي ، النائب البلشفي السابق الذي أصبح مرتداً ، على اساس أنه المسؤول الرئيسي عن ذلك الافتراء . وكان ألكسنسكي تعرض للطرد لأنه ثلب جمعية الصحفيين الاجانب في باريس ، ورفض المناشفة قبوله في سوفييت بتروغراد ، لأسباب اخلاقية . هذا الرجل هو الذي كانوا يصنعون منه الآن حارساً للأخلاق الوطنية ![٥٣] .

ولما كانت تلك المحاولة لإدانة تروتسكي فشلت . فقد هوجم من ناحية اخرى . كانت الصحف محشوة بالقصص التي تؤكد أن تروتسكي ، قطع علاقته بلينين ، عميل المانيا . وفي ١٠ تموز / يوليو ، أي بعد اربعة أيام من تواري لينين عن الأنظار ، وجه تروتسكي الرسالة المفتوحة التالية الى الحكومة المؤقتة :

(٥٢) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ١٥٠ ـ ١٥٤ .
(٥٣) المرجع ذاته ، ص ١٥٥ ـ ١٥٩ .

« أيها الوزراء المواطنون ـ حسب علمي أنكم قررتم توقيف . . . الرفاق لينين ، وزينوفييف وكامينيف ، لكن هذا التدبير لا يتناولني . لذا أرى من الضروري أن أعلمكم بالوقائع التالية : ١ ـ إني أتبنى مبدئياً آراء لينين وزينوفييف وكامينيف ، وقد عبرت عنها في جريدة فبريود ، وفي كل تصريحاتي العلنية ؛ ٢ ـ كان موقفي إزاء أحداث ٣ و ٤ تموز / يوليو هو بالضبط الموقف ذاته الذي اتخذه الرفاق المذكورون أعلاه »(٥٤)

وأعطى ملخَّصاً لتلك الأحداث ثم أعلن أنه إذا لم يكن ينتمي الى الحزب البلشفي فبسبب خلافات جرى تخطيها وأصبحت بلا معنى بعد الآن .

« ليس لديكم أي مبرر إذاً ، من الناحية المنطقية ، لتمتنعوا عن تطبيق تدبير التوقيف الذي اتخذتموه بحق لينين وزينوفييف وكامينيف . . . ليس لديكم أي مبرر للشك في أني خصم لدود للسياسة العامة التي تنتهجها الحكومة المؤقتة ، تماماً كما هي الحال بالنسبة للرفاق المشار إليهم أعلاه . أما كون هذا التدبير لا يتناولني فلا يمكن إلا أن يؤكد الطابع المضاد للثورة وغير المبرَّر الذي يميّز القرار الذي اتخذتموه ضدهم »(٥٥) .

وفي حين كان يستشري الإرهاب المعادي للبلشفية ، بقي تروتسكي يومين أو ثلاثة ممتنعاً عن الظهور في السوفييت . أمضى لياليه لدى لارين ، المنشفي القديم الذي كان على وشك الانضمام الى البلاشفة . لكن بعد نشر « الرسالة المفتوحة الى الحكومة المؤقتة » ، عاد للظهور على المسرح متعالياً ومستعداً للقتال . دافع عن لينين والحزب البلشفي في السوفييت ، وأمام الهيئة التنفيذية للسوفييتات والهيئة التنفيذية لسوفييتات الفلاحين . وفي كل مكان خطب فيه ، كان يُستقبل بصخب لا ينقطع . كان ينادي بأعلى صوته : « لقد ناضل لينين طوال ثلاثين عاماً من أجل الثورة ، أما أنا فأكافح منذ عشرين عاماً في وجه اضطهاد الجماهير الشعبية . لا يسعنا إلا أن نكره العسكرية الألمانية ، ولا يمكن أن يقول العكس إلا اولئك الذين لا يعرفون ما هو الثوري . . . لا تسمحوا لأحد في هذه القاعة أن يقول اننا مرتزقة في خدمة المانيا ، لأن هذا صوت السفالة والدناءة »(٥٦) . وقد حذر المناشفة الذين كانوا يغسلون اليدين من هذه القضية بأنهم يسيرون إلى حتفهم . لقد اضطر تشيرنوف ، « الاشتراكي ـ الوطني » ، للاستقالة من الوزارة لأنه شارك في حركة

---

(٥٤) المرجع ذاته ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٥٥) المرجع ذاته . كتب تروتسكي رسالة الى غوركي في الوقت ذاته . أما غوركي الذي كان صديق لينين الحميم ، فكان موقفه متردداً (بعكس مارتوف الذي دافع عن لينين) . كان تروتسكي يحثه على الدفاع بقوة عن لينين وذكّره بدور زولا في قضية درايفوس . إن الرسالة التي لم يودعها تروتسكي البريد ، وردت في سوش . ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ .

(٥٦) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٥ ، ص ٥٢ ، ٥٩ ـ ٦٢ .

زيمرفالد . واذا كانت الثورة المضادة اختارت البلاشفة هدفاً أولاً ، فسيكون الاشتراكيون المعتدلون ضحاياها اللاحقين .

حتى في أيام الأزمة والذعر تلك ، كان يُصغى إلى تروتسكي بانتباه واحترام ، إلا أنه لم يكن لنداءاته غير القليل من التأثير . وإذا كان من العبث اتهام لينين وزينوفييف بالعمالة لألمانيا ، فهذا ما كان الاشتراكيون المعتدلون يعرفونه تماماً ، إلا أنهم كانوا يعتقدون أن التحريض البلشفي ضد الحرب ذهب بعيداً جداً . كانوا يشتبهون بأن لينين ـ وربما لينين وتروتسكي ـ أراد الاستيلاء على السلطة في أيام تموز / يوليو ، ويرفضون القيام بأية بادرة لإعادة الاعتبار له . ولم يدافع غير مارتوف عن شرف خصمه القديم[٥٧] .

ظل تروتسكي طليقاً ما لا يزيد عن خمسة عشر يوماً . كانت الوزارة جد متضايقة بعد التحدي الذي اطلقه في وجهها . لم يكن هنالك مبرر لتوقيفه ، إلا إذا تم اعتبار المبادىء التي يستلهمها السوفييت بكامله ـ والاكثرية المعتدلة من ضمنه ـ غير شرعية ، فعلى تلك المبادىء بالذات اعتمد تروتسكي في نشاطه الخاص به . من جهة اخرى ، لم يكن في وسع الوزارة ان تبقيه طليقاً وتسمح بأن يسفّه حملتها المعادية للبلشفية . هكذا أوقف تروتسكي ولوناتشارسكي في ليل ٢٣ تموز / يوليو ونقلا الى سجن كريستي . وقد صوّر سوخانوف الصدمة التي احدثها ذلك الاعتقال في بتروغراد . في اليوم التالي ، تكلم هو خلال اجتماع منشفي في السيرك الحديث . « ووجه تصريحي حول توقيف تروتسكي ولوناتشارسكي . . . بعاصفة من الاستنكار بحيث توجب ايقاف الاجتماع طوال ربع ساعة تقريباً . كان الجمهور ، الذي قُدِّر بعدة آلاف من الأشخاص ، يصيح داعياً الى التحرك فوراً للتعبير عن الاحتجاج للسلطات . وقد لقي مارتوف الكثير من الصعوبة كي يقنع الحضور بالاقتصار على كتابة مذكرة احتجاج »[٥٨] .

هكذا وسط ثورة حملت الى السلطة أصدقاء تروتسكي القدامى ، وحتى تلميذاً قديماً له ، وجد تروتسكي نفسه في السجن الذي احتجزته فيه الحكومة القيصرية في عام ١٩٠٥ . إلا أن شروط الحياة كانت أسوأ في هذه المرة . كانت الزنزانات مزدحمة بالسجناء ، إذ لم تتوقف مطاردة المشتبه بهم ، وكان يؤتى في كل يوم بمجموعات من

---

(٥٧) بين الروايات العديدة عن احداث تموز ، كانت إحداها تؤكد أنه كان هنالك مشروع ديكتاتورية ثورية يقودها ثلاثة : لينين وتروتسكي ولوناتشارسكي . هذه الرواية حظيت برصيد واسع من الثقة لدرجة ان سوخانوف بالذات كاد يصدقها . سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٤ ، ص ٥١١ .

(٥٨) سوخانوف ، ج ٥ ، ص ١٢١ .

السجناء الجدد . كان الموقوفون السياسيون والموقوفون بجرائم عادية محتجزين معاً ، بينما كان الاولون يتمتعون في ظل النظام القديم بامتياز فصلهم عن الآخرين . كان يخضع الجميع لنظام غذائي يقترب بهم من المجاعة . وكانت تتم إثارة « مجرمي الحق العام » ضد « العملاء الألمان » فيسرق الأولون طعام الثانين ويسيئون معاملتهم . ومن الملفت للنظر أن النواب العامين والمحققين والسجّانين هم ذاتهم الذين كانوا أيام القيصر . وكان التضاد بين ادعاءات الحكام الجدد والآلية الداخلية للجهاز القضائي مشهوداً ، بحيث حين لاحظ تروتسكي ذلك قال في نفسه إن لينين لم يخطىء كثيراً إذ قرر الاختباء . إلا أنه في هذا الكون الخوائي حيث حياة الموقوف مهددة أحياناً ، كان لا يزال للسجناء ـ تماماً كما كانت الحال في ظل النظام القديم ـ ما يكفي من الفراغ لينصرفوا للنشاط السياسي أو الأدبي . . وكانت النقاشات تصل الى أوج الاحتدام إزاء محاورين من مثل كامينيف ولوناتشارسكي وأنطونوف ـ أوفسينكو وكريلنكو . وكان ديبنكو وراسكولنيكوف ، قائدا كرونشتادت ، بين المحتجزين . لقد اجتمع في ذلك السجن أولئك الذين سيكونون الصانعين الرئيسيين لثورة اوكتوبر ، وكل المفوضية البلشفية الأولى في الحرب تقريباً .

أمسك تروتسكي ذاته بالقلم ونجح مرة أخرى في أن ينشر في الخارج سيل مقالاته وأهاجيه . إن بعضها ، ومن بينها وصف دقيق جداً لحياة السجن ، ظهرت باسم ب . تاناس المستعار في الصحف البلشفية أو في جريدة غوركي . وفي احدى **الرسائل المفتوحة إلى الحكومة المؤقتة** ، فاض تروتسكي سخريةً من طرائق القضاء . فقد كشف أنه اتُّهم بالعودة الى روسيا مع لينين ، عن طريق المانيا ، وبأنه كان عضواً في اللجنة المركزية البلشفية . وهذه المآخذ كانت تثبت ما يتميز به الاتهام من تعسف وكسل نزق[٥٩] . ولنشر عابرين الى أنه مرت أسابيع عديدة على توقيف تروتسكي قبل أن تندمج منظمة ما بين المناطق بالحزب البلشفي ويصبح تروتسكي عضواً في اللجنة المركزية البلشفية . لقد كان من نتائج عرضه حول الاجراءات القضائية وطرائقها أن استقال النائب العام . إلا أن التحقيق في القضية لم يتوقف . « ليست قضية درايفوس وقضية بايليس شيئاً إذا قورنتا بهذه المحاولة المتعمدة للاغتيال الأدبي » ، هذا ما كتبه تروتسكي لزارودني ، وزير العدل ، الذي كان محامي الدفاع ـ ويا للصدفة الغريبة ! ـ في قضية السوفييت عام ١٩٠٦[٦٠] .

مع مرور الاسابيع ، اتخذت الأحداث ، بصورة غير متوقعة ، شكلاً أكثر ملاءمة ،

---

(٥٩) نوفايا جيزن ، ٣٠ تموز / يوليو ١٩١٧.

(٦٠) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ٢٠٣ : راسكولنيكوف ، المرجع ذاته ، ص ١٧٠ ـ ١٧٩ .

وفي الوقت ذاته ، أكثر خطورة بالنسبة للمتهمين وقضيتهم . فرد الفعل الرجعي ضد « انتفاضة » تموز / يوليو توسع ليصبح حركة جبارة ضد كل المؤسسات والأطر التي انبثقت من ثورة شباط / فبراير : ضد السوفييتات ولجان الجيش ، ولجان المصانع ، واللجان الاقليمية وكل الأجهزة المشابهة التي تتجاوز سلطة الآلة الادارية القديمة . وكانت الردة تهاجم الآن الاشتراكيين المعتدلين . أما قادة اليمين فكانوا يؤكدون ، محقين ، أن البلاشفة ليسوا سوى الأنصار المنطقيين اكثر من غيرهم لوضع لم يكن الاشتراكيون المعتدلون أقل انخراطاً فيه ، وإنْ وفقاً لدرجات متفاوتة[٦١] . إن الشعار البلشفي « كل السلطة للسوفييتات ! » لن يختفي طالما استمرت السوفييتات موجودة ؛ والمناشفة ، مثلهم مثل الاشتراكيين الثوريين ، كانوا يصرون على استمرارها . واذا كان البلاشفة يفعلون كل ما في وسعهم لتغذية معارضة الجنود للضباط ، فالاشتراكيون المعتدلون ، الناطقون الاولون باسم هذه المعارضة ، كانوا يصرون على الأقل على ألا يستعيد الضباط امتيازاتهم القديمة . لقد كان أمل قادة الطبقات الوسطى إذاً هو أن يحبطوا الثورة بفضل الاشتراكيين المعتدلين ، وكانوا يحاولون الآن إرساء ديكتاتورية عسكرية قادرة على قهر الاشتراكيين المعتدلين ، كما البلاشفة ، وسحقهم . بهذه الطريقة وحسب ، كان اليمين الذي غدا يضم من الآن وصاعداً قدامى الليبراليين يأمل أن يختم ما اعتبره الفصل الأكثر خزياً في تاريخ روسيا .

لقد أثبتت أيام تموز / يوليو انه إذا كان لا يزال هنالك قوة معادية للبلاشفة في روسيا فهي سلك الضباط . لم يكن قد نسي أحد بعد هيئة هؤلاء القادة المعتدلين للسوفييت المحاصرين في قصر توريد ، مرتجفين خوفاً على حياتهم وصارخين طلباً لنجدة القوات الشرعية ضد الجماهير البلشفية . إلا أن آلية نظام شباط / فبراير غير المنطقية كانت تتمثل في أن الطبيعة الحقيقية للسلطة اختفت اكثر من اي وقت آخر خلف الواجهة السياسية . وقد تألفت حالاً بعد أيام تموز / يوليو حكومة ائتلاف ثانية برئاسة كيرنسكي ، كان الاشتراكيون المعتدلون يضطلعون نظرياً بقيادتها . في الفترة التي كانوا فيها قوة ، لم يكونوا غير شركاء ثانويين في حكومة ائتلاف ؛ والآن بعد ان تجلى ضعفهم بصورة كارثية ، غدوا ، في الظاهر على الأقل ، الأعضاء الرئيسيين في الائتلاف . هذه المفارقة ما كان يمكن أن تدوم .

---

(٦١) ميليوكوف ، المرجع ذاته ، ج١ ، ك٢ ، ص ٥٨ - ٧٢ ؛ أ . إي . دنيكين ، أوشيركي روسكوي سموتي ، ج ١ ، ك ٢ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٨ .

كانت القوى المحافظة والمعادية للثورة تضع آمالها في الجنرال كورنيلوف الذي عينه كيرنسكي قائداً للجيش . وكورنيلوف ، الذي هتفت له الطبقات الوسطى والعليا واحتفلت به ، بدأ يعتبر نفسه رجل العناية الآلهية ، ويتصرف على هذا الأساس . وقد أصبح موقفه حيال كيرنسكي ملتبساً واستفزازياً . وفي الأخير ، في ٢٤ آب / اغسطس ، أعلن الحرب على الحكومة بشكل مكشوف وأمر قواته بالتقدم نحو العاصمة . ولما كان واثقاً بالنصر ، فقد تباهى سلفاً بأنه سيضع نهاية للثورة .

في سجن كريستي ، استقبل تروتسكي وأصدقاؤه هذه الأنباء بخليط من المشاعر . فكيرنسكي يحتجزهم في السجن ، وإذا انتصر كورنيلوف سوف يُسلَّمون كرهائن حقيقية للطغمة العسكرية المنتصرة . وفي هذه الحال لم يكن لديهم شك في أنهم سيُذبحون ذبح النعاج ؛ولم يكن ذلك بالطبع كابوس تخيلات مجنونة . إلا أن الوضع كان يقدم لهم كذلك أملاً جديداً ، فالاشتراكيون المعتدلون لن يستطيعوا التخلص من تهديد كورنيلوف من دون مساعدة البلاشفة ، تماماً كما لم يستطيعوا الافلات من البلاشفة في أيام تموز / يوليو من دون دعم الجنرالات . ولم يطل الانتظار ، فالحكومة ذاتها وضعت البنادق بين أيدي الحراس الحمر الذين كانت نزعت سلاحهم قبل قليل . كانت تضرع إلى المحرضين البلاشفة الذين حمّلتهم مسؤولية كل الكوارث العسكرية كي يستخدموا نفوذهم لدى قوات كورنيلوف فيقنعوها بالعصيان وبالتخلي عن ضباطها . وخلص كيرنسكي الى التوسل لبحّارة كرونشتادت ، « قبيحي » تموز / يوليو ، كي يتوحدوا للدفاع عنه .

ولقد حصل مشهد مفعم بالفكاهة في زنزانة تروتسكي ، إذ أرسل بحارة كرونشتادت وفداً يسأله إذا كان عليهم الاستجابة لنداء كيرنسكي والدفاع عنه ضد كورنيلوف ، أو محاولة تصفية حساباتهم مع الاثنين في آن معاً ؟ . وبالطبع كان البحارة الملتهبون غيظاً وحماساً يميلون إلى الحل الثاني . إلا أن تروتسكي ناقشهم ، مذكراً إياهم بدفاعه عنهم في أيار / مايو أمام السوفييت ، وكيف قال يومذاك إنه إذا حاول جنرال معادٍ للثورة أن يعقد انشوطة حول عنق الثورة « فسيأتي حينئذٍ بحارة كرونشتادت للقتال والموت معنا » . واليوم ، على البحارة أن يشرّفوا هذه الشهادة ويؤجلوا تصفية حسابهم مع كيرنسكي الذي لن يبقى طويلاً في كل حال . وانصاع البحارة لرأيه ، بينما كانت الآلة القضائية تتابع إجراءاتها . فالتحقيق تواصل ، وكان على تروتسكي أن يجيب عن أسئلة حول علاقاته بهيئة الاركان الالمانية العامة وبالبلاشفة . أما انطونوف ـ أوفسينكو وكريلنكو اللذان لم يواجها بأي اتهام بعد مرور ستة أسابيع على توقيفهما ، فهددا بالاضراب عن الطعام ، إلا أن تروتسكي حاول اقناعهما بالعدول عن ذلك . وفي الاخير قرر وقف

مشاركته في هرجة الاستجوابات ، ورفض الاجابة عن اسئلة المحقق ، محدداً أسباب ذلك في رسالة للهيئة التنفيذية المركزية للسوفييتات . ولم تمر ثلاثة أيام على ذلك حتى أُطلق سراحه بكفالة ، وذلك في الرابع من ايلول / سبتمبر .

ومن السجن انتقل مباشرة الى معهد سمولني ليشارك في دورة لجنة النضال ضد الثورة المضادة ، التي شكلها السوفييت بمباركة من كيرنسكي . وكانت تلك اللجنة النموذج الأصلي للجنة العسكرية الثورية التي قادت ثورة اوكتوبر .

وانهزم كورنيلوف . لكن ليس بقوة السلاح بل بقوة التحريض البلشفي . تخلت عنه قواته دون أن تطلق رصاصة واحدة ، وقد فجرت هزيمة كورنيلوف سلسلة جديدة من الأحداث أدت مباشرة الى انتفاضة اوكتوبر . وكما رجّحت ثورة ٣ و ٤ تموز / يوليو الجهيض كفة الميزان لصالح الثورة المضادة ، أمال إخفاق الثورة المضادة هذه الكفة ، بقوة أشد ، في الاتجاه المعاكس . استقال الوزراء الكاديت لأنهم لم يكونوا يريدون دعم كيرنسكي ضد كورنيلوف ، وانسحب الوزراء الاشتراكيون لأنهم اشتبهوا بتآمر كيرنسكي في البدء مع كورنيلوف ضد السوفييت وبتشجيعه هكذا طموحاته . ولما كان كيرنسكي عاجزاً عن إعادة جمع عناصر الائتلاف المتفكك ، فقد حكم طيلة شهر بواسطة مديرية مزعومة ، لجنة صغيرة لم تكن تمثل شيئاً على الاطلاق .

وطلب تروتسكي الى السوفييت فتح تحقيق حول الأحداث التي أدت الى انقلاب كورنيلوف وحول دور كيرنسكي في الاعداد لتلك الأحداث . وحثّ الاشتراكيين المعتدلين ، بالمزيد من الالحاح ، على قطع علاقتهم نهائياً بالكاديت الذين دعم الكثيرون منهم كورنيلوف . هكذا ، بعد قضية كورنيلوف ، بدت الحجج لصالح حكومة اشتراكية متجانسة غير قابلة للدحض . كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون لا يزالون يضاعفون مع ذلك جهودهم لاحياء الائتلاف ، إلا أن أنصارهم كانوا يتخلون عنهم جماعات جماعات . هكذا لم تمر أيام قليلة حتى كانت الأكثرية في السوفييت قد تفككت . وفي ٩ أيلول / سبتمبر ، ألقى تروتسكي خطاباً مدوياً طلب فيه إعادة الاعتبار اليه وإلى القادة البلاشفة . وطلب كذلك التقرير الحكومي حول أحداث تموز / يوليو ، الذي كان يجب ان يكون جاهزاً منذ زمن طويل ، كما اقترح مشروع قرار بسحب الثقة من مجلس الرئاسة (بريزيديوم) المنشفي للسوفييت . ويا لدهشة الجميع حين تم التصويت بالموافقة على المشروع المشار اليه . للمرة الأولى ، حصل البلاشفة على الاكثرية في السوفييت : لقد

اجتازت الثورة طوراً جديداً[٦٢] .

ولما كان المناشفة وحلفاؤهم يفقدون مواقعهم في السوفييت ، فقد حاولوا الحصول على الانصار خارج السوفييت . دعوا إلى مؤتمر ديمقراطي مزعوم ينعقد في ١٤ أيلول / سبتمبر ؛ لم يكن الأمر يتعلق ابداً بجمعية منتخبة ، إذ كان المؤتمر المدعو اليه مؤلفاً بطريقة تضمن سلفاً اكثرية مضادة للبلاشفة . كان على تجمع غير متجانس من مندوبي مؤسسات متنوعة غير سياسية ، كالتعاونيات والزمستفوات ما قبل الثورية ، أن يتخذ قراراته حول المسائل السياسية التي تتطلب حسماً سريعاً . كان الوضع ، عند تلك المرحلة ، قد اصبح مفعماً بالمفارقات ، حتى لو غضضنا النظر عن الأحداث اللاحقة : كان البلاشفة هم الذين يظهرون كمدافعين صلبين عن مبدأ حكومة تمثيلية منتخبة ، بينما يحاول الاشتراكيون المعتدلون إنكار هذا المبدأ . إن السوفييتات ، المنتخبة في المصانع والثكنات لم تكن تمثل البورجوازية ، إلا أنها كانت تمثل بشكل كامل طبقة العمال ، والجيش ، وأجزاء مهمة من الفلاحين ، كانت سلطتها والحظوة التي تتمتع بها في أوساط الشعب ناجمتين جزئياً عن غياب مؤسسات برلمانية حقيقية على المستوى القومي . ويبدو أن خلق مؤسسات من هذا النوع ذو أهمية حيوية بالنسبة للأحزاب المعادية للبلشفية . إلا أن الحكومات الائتلافية بقيت مع ذلك تؤجل الانتخابات الموعودة للجمعية التأسيسية ، بينما كان البلاشفة يطالبون بها بصوت عالٍ . إلا أنهم لم يكونوا يرون مع ذلك بوضوح ما يمكن أن تكون العلاقات اللاحقة بين جمعية تأسيسية والسوفييتات . لم يكونوا يجزرون أنهم بتحويل السلطة بكاملها إلى السوفييتات يجعلون من المستحيل قيام جمعية تأسيسية ، وأنهم ، أنفسهم ، لن يستطيعوا دعوة هكذا جمعية إلا ليحلوها في الحال . من جهة أخرى ، كان الاشتراكيون المعتدلون يقبلون تكرار تأجيل الانتخابات مراعاة لخاطر الكاديت الذين كانوا يخافون أن يؤدي إدلاء الأمة الفوري برأيها إلى مجيء هيئة تشريعية راديكالية للغاية[٦٣] . في الفترة ذاتها ، كان الاشتراكيون المعتدلون يحاولون إرساء بديل للبرلمان ، يتخذ شكل المؤتمر الديمقراطي ، وشبه البرلمان المزعوم الذي ينبثق منه .

اظهر المؤتمر اضطراب المجموعات القيادية ، فقد وصل الاشتراكيون المعتدلون اليه

---

(٦٢) في الاجتماع ذاته ، اقترح تروتسكي انتخاب بريزيديوم جديد ، على اساس التمثيل النسبي ، وهو ما أثار غضب لينين الذي شدد على ان المناشفة والاشتراكيين الثوريين لم يتبنوا التمثيل النسبي حين كانوا اكثرية ، فلماذا على البلاشفة أن يمنحوهم هذا الامتياز ؟ واستقبل المناشفة بالذات بادرة تروتسكي الوفاقية بالرفض ، ولم يوافقوا على اتخاذ موقع لهم في البريزيديوم الى جانب البلاشفة .

(٦٣) ميليوكوف ، المرجع ذاته ، ج ١ ، ك ٢ ، ص ٩١ - ٩٢ .

ولديهم مآخذ مريرة على الكاديت . أعلن انصار كيرسكي الخاصون به جهاراً أنهم لا يثقون به : كانوا يقولون إن دوره في قضية كورنيلوف كان ملتبساً وأنه حاول وضع نفسه فوق الأحزاب التي رفعته الى الحكم ، متوخياً إقامة سلطته الشخصية . وقد حاول كيرنسكي دحض هذه الاتهامات وإقناع المؤتمر بأن إعادةالائتلافالحكومي أمر ملحّ . إلا أن الدور الذي أداه بدا ميلودرامياً ساخراً لدرجة أنه ملأ قلوب أصدقائه يأساً ولم يبلغ أيّاً من أهدافه . في تلك المناسبة بالذات ، ظهر تروتسكي للمرة الأولى كالناطق الأكثر تألقاً بلسان البلاشفة . أنظروا كيف وصف مؤرخ منشفي لوقائع الثورة وَقْعَ خطابه[٦٤] :

« لا أدنى شك في أن ذلك الخطاب كان الخطاب الأكثر سطوعاً الذي ألقاه ذلك الخطيب المذهل ، ولا يسعني أن أقاوم الرغبة في إيراد تلك القطعة الرائعة بكاملها في كتابي . وإذا ظل كتابي يجد فيا بعد من يقرأه ، كما يحدث حتى الآن لعمل لامرتين الرتيب ، فليحكم هذا القارىء انطلاقاً من هذا المثال على فن عصرنا الخطابي وفكره السياسي . سوف يتوصل الى استنتاج ان البشرية لم تعش سوى هذه المئة والخمسين سنة الاخيرة ، وأن ابطال ثورتنا يُبقون خلفهم بأشواط بعيدة قادة ثورة ١٧٨٩ الأمجاد .

« لقد تملّك الحماس كل الحاضرين في مسرح ألكسندر ينسكي لمجرد سماعهم باسم تروتسكي . . . كان تروتسكي قد أعد نفسه تماماً . ومن مكاني على المنبر ، حيث كنت واقفاً على بعد خطوات منه ، كنت ألاحظ على مِقْرئه ورقة مغطاة بكتابات متزاحمة ، وقد وضعت خطوط تحت بعض الجمل ، وكثرت الهوامش والأسهم المرسومة بالأزرق . . . . تكلم ببساطة كلية ، من دون مغالاة ، (مع انه كان قادراً على رفع نبرته عند الحاجة) ، ومن دون أي تصنع أو إخراج . كان يناقش الحضور في تلك المرة ، متقدماً احياناً خطوة أو خطوتين ، ثم يأتي فيستند بمرفقه إلى المِقرأ ؛ في ذلك اليوم ، كان صفاء الخطاب الرنان ، والجملة المصنوعة المنقحة ، اللذان يميزان تروتسكي ، غائبين كلياً » .

يضيق المجال هنا بهذا الخطاب الذي كان يرسم الخطوط العريضة للسياسة البلشفية ؛ وتكفي امثلة قليلة لإبراز طريقته الجدالية . لقد بدأ كلامه بهدوء كامل ، قائلاً : « ايها الرفاق والمواطنون ـ منذ قليل كلمكم الوزراء الاشتراكيون ، ومن المفترض أن يَمْثُل الوزراء أمام هيئات تمثيلية ليقدموا بياناً عن عملهم . لكن وزراءنا آثروا إعطاءنا النصائح عوضاً عن تقديم حساباتهم . نشكرهم على تلك النصائح ، لكننا مصرون على

(٦٤) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٥ ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ . انظر كذلك تشيرنوف ، المرجع ذاته ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ .

كشف الحسابات . لا نصائح ، بل حسابات ، ايها الوزراء المواطنون » ، ردد الخطيب بهدوء تام وهو يضرب على مقرئه . وبعد أن لخص النقاشات السابقة ، لفت النظر إلى أنه لم يدافع خطيب واحد عن كيرنسكي ، وان الوزير الأول لقي هكذا الادانة من أصدقائه وانصاره بالذات . وقد اصابت هذه الملاحظة خصومه في أضعف نقطة ، فهزت القاعة موجة غضب . كان أحد الموضوعات التي ووجهت بأعنف المجادلات هو مرسوم حديث يعيد عقوبة الاعدام . وقد صاح كيرنسكي ، الذي كان مهتماً بتهدئة استياء انصاره : « لكم الحق في أن تلعنوني لو وقّعت حكماً واحداً بالموت » . فأجاب تروتسكي : « إذا كان الحكم بالاعدام ضرورياً ، كيف يمكن لكيرنسكي أن يتعهد بعدم تطبيقه ؟ اذا كان يعتقد بأن في وسعه إلزام نفسه بهكذا تعهد أمام كل الرأي العام الديمقراطي والقول إنه لن يطبق عقوبة الاعدام ، فأنا أقول لكم إنه يجعل من إعادة إقرار هذه العقوبة عملاً طائشاً يتجاوز حدود الإجرام » .

كان أنصار الائتلاف قد قالوا إنه لا ينبغي تحميل كل حزب الكاديت مسؤولية عصيان كورنيلوف ، وإن البلاشفة الذين كانوا يحتجون حين تُلقى على حزبهم مسؤولية ايام تموز / يوليو ينبغي ان يكونوا آخر من يلوم حزب الكاديت بأكمله . ورد تروتسكي بأن « هذه المقارنة ليست صحيحة تماماً . فحين جرى اتهام البلاشفة . . . بأنهم أعدوا لحركة تموز / يوليو أو تسببوا بها ، لم يكن وارداً أن تدعوهم للدخول الى الوزارة ، بل تمت دعوتهم الى سجن كريستي . وهنا ، أيها الرفاق ، قدر من الاختلاف . . . . اننا نقول : إذا أردتم إلقاء الكاديت في السجن بسبب عمل كورنيلوف ، فنرجوكم ألا تفعلوا ذلك من دون تمييز . تفحصوا حالة كل عضو في حزب الكاديت على انفراد ، تفحصوا كل حالة من كل الجوانب الممكنة ! » وقد ضج الحاضرون المعادون بضحكة صاخبة ؛ وحتى كل الوزراء وكل القادة الجالسين على المنصة ، الأكثر رصانة والأكثر رسمية ، لم يستطيعوا الامتناع عن الضحك . إلا أنه سرعان ما حل محل تلك اللحظة من المرح جو من الرصانة والوقار . كان تروتسكي يصر على تسليح الحرس الأحمر ، فتعالت صيحات من المقاعد المنشقية : « لأية غاية ؟ لأية غاية ؟ » وأجاب تروتسكي : « قبل كل شيء لكي نتمكن من نصب متراس حقيقي في مواجهة الثورة المضادة ، وضد حركة كورنيلوفية جديدة أشد بأساً . وفيما بعد ، إذا أرست الديمقراطية الثورية ديكتاتورية حقيقية للبروليتاريا ، واذا عرضت هذه الحكومة الجديدة سلاماً مشرّفاً ، وجرى رفض هذا العرض ، عند ذلك ـ وأقول لكم هذا باسم حزبنا ـ سوف يتولى العمال المسلحون في بتروغراد وفي كل روسيا الدفاع عن بلد الثورة ضد قوات الامبريالية ببطولة لم يشهد مثلها تاريخ روسيا عبر الأزمان » . وختم كلامه

بفضح طابع المؤتمر المفتقر الى القوة التمثيلية ؛ ثم غادر الاجتماع يتبعه المندوبون البلاشفة[٦٥] .

لم يستجب المؤتمر لما ينتظره كيرنسكي ، حتى بعد خروج تروتسكي ورفاقه ؛ وقد انتهى كما بدأ في حالة فوضى وارتباك . ولم توجد غير أقلية ضعيفة أيدت قيام ائتلاف جديد ؛ إلا أن أغلبية كبرى عبرت من ثم عن رفضها لكل مساومة مع الكاديت ، الشركاء الوحيدين المتوفرين لائتلاف من هذا النوع . وحين شكل كيرنسكي في ٢١ ايلول / سبتمبر حكومة جديدة يشارك فيها الكاديت ، متجاهلاً رأي برلمانه المزيف ، سرعان ما بدت تلك الحكومة في غاية الهزل والعطب . كانت الحكومةَ الخامسةَ ، في مدى سبعة أشهر ؛ حكومةً لن يمهلها تروتسكي ولينين اكثر من شهر واحد .

كان البلاشفة يعززون مواقعهم داخل السوفييتات بصورة تدريجية . ولم تحل بداية ايلول / سبتمبر حتى كانوا حائزين على الاكثرية في بتروغراد ، وموسكو ومدن صناعية اخرى . وكانوا يتوقعون ، واثقين ، أن يظهروا كحزب الاكثرية في المؤتمر القومي اللاحق للسوفييتات . كان يعود للهيئة التنفيذية المركزية الخاصة بالسوفييتات ، التي تم انتخابها في حزيران / يونيو ، وكان لا يزال يشرف عليها الاشتراكيون المعتدلون ، أن توجه الدعوة لهذا المؤتمر . وكان هؤلاء الأخيرون يفعلون ما في وسعهم لتأجيل ما كان يمثل بالنسبة اليهم قفزة في المجهول ، بينما كان البلاشفة يصرون بالطبع على الاسراع في دعوة المؤتمر الى الانعقاد . وقد ناقش تروتسكي الموضوع مع القادة المعتدلين، وهددهم قائلاً : « لا تتلاعبوا بموضوع هذا المؤتمر ، فالسوفييتات المحلية ، بدءاً بسوفييتـي بتروغراد وموسكو ، تصر عليه ؛ وإذا لم تدعوا لانعقاده وفقاً للشروط الدستورية ، فسوف تتم الدعوة إليه بطريقة ثورية »[٦٦] .

في ٢٣ أيلول / سبتمبر انتخب سوفييت بتروغراد تروتسكي رئيساً له . وحين صعد الى المنصة : « استقبلته عاصفة من التصفيق . . . لقد تبدل كل شيء في السوفييت ! » . ويا للتضاد مع الجمعية المحبطة وفاقدة الحماس في أيام تموز / يوليو : « كان من جديد ، جيشاً ثورياً . . . كان منذ ذلك الحين حرس تروتسكي ، المستعد لدى إشارة منه لتكنيس الائتلاف والاستيلاء على قصر الشتاء وكل قلاع البورجوازية . . إلا أن سؤالاً واحداً كان ينطرح : هل سيعطيهم تروتسكي الأمر بذلك ؟ »[٦٧] كلا . لقد ذكّر في خطابه الرئـاسي

(٦٥) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ٢٨٧ - ٢٩٣ .

(٦٦) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ٣٢٠ .

(٦٧) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٦ ، ص ١٨٨ وما بعدها .

بتجربة ١٩٠٥ ، وعبر عن أمله في قيادة السوفييت في هذه المرة نحو مصير جديد . ثم قطع بعد ذلك تعهداً جازماً ورسمياً سوف تلقي عليه الاحداث اللاحقة خماراً من الكآبة : « نحن جميعاً رجال حزبيون وسوف نتصادم مراراً . إلا أننا سنواصل عمل سوفييت بتروغراد محترمين الشرعية والحرية الكاملة للاحزاب كافة . إن قيادة البريزيديوم لن تستسلم يوماً لإغراء إلغاء الأقلية »[٦٨] . وباسم السوفييت الجديد أطلق النداءات الاولى الى ثورة ثانية ، طالباً استقالة كيرنسكي وتحويل السلطة الحكومية الى مؤتمر السوفييتات . هاجم المناشفة والاشتراكيين الثوريين بالقساوة المعتادة ذاتها ، لكن من دون مزاج سيىء ، ومن دون أي أثر للرغبة في الانتقام التي يمكن توقعها من زعيم حزبي كان لا يزال منذ زمن قريب جداً تحت وطأة الحرم والإبعاد[٦٩] .

ورغم اعتراضات لينين ، حصلت كل الأحزاب على تمثيل يتناسب مع اهمية كل منها في مجلس رئاسة السوفييت، الجديد[٧٠] . ألم تكن تلك الشهادة التفاخرية على احترام دقيق جداً لحقوق الاقلية أكثر من حيلة تكتيكية معدة لخداع احتراس الأقلية وحذرها ؟ . طبعاً لا . يروي سوخانوف أنه بعد مرور ثلاث سنوات ، حين صفى البلاشفة كل احزاب المعارضة ، ذكّر تروتسكي بالتعهد الذي قطعه بعدم الاستسلام لإغراء إلغاء كل أقلية . فبقي تروتسكي صامتاً لبرهة ، متأملاً ، ثم قال وهو شارد بتفكيره : « كان ذلك في الزمن الجيد »[٧١] . وفي الواقع ان الثورة كانت لا تزال تأخذ على محمل الجد تعهدها بتوسيع تلك الحريات ، وجعلها حقيقية ، تلك الحريات التي اكتفت الديمقراطية البورجوازية بالوعد بها ، أو التي لم تكن تمنحها إلا بالتقتير .

منذ ذلك الحين لم يكن تروتسكي يتردد في التحدث عن نفسه ، أمام الجميع ، كبلشفي . أصبح يقبل هذه السمة التي طالما اعتبرها شتيمة ؛ وقد تم انتخابه عضواً في لجنة الحزب المركزية وهو لا يزال قابعاً في السجن . وخلال الاسابيع السبعة التي انصرمت بين اطلاق سراحه وانتفاضة اوكتوبر ، لم يصبح اسمه مرادفاً للبلشفية وحسب ، بل كذلك في الخارج رمزاً لكل تطلعات البلشفية اكثر بكثير مما كان اسم لينين الذي انسحب من المسرح العلني[٧٢] . وكانت تلك الأسابيع مثقلة بالتاريخ بحيث محت من ذاكرة الناس احداث

---

(٦٨) المرجع ذاته . ، العبارة الواردة .

(٦٩) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٦ ، ص ١٩٤ .

(٧٠) حتى مجموعة صغيرة ، كمجموعة غوركي ، صغيرة جداً بحيث لا يمكن ان تطالب بتمثيلها ، حصلت على مقاعد .

(٧١) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ص ١٩٠ .

(٧٢) كتب جاك سادول الذي أصبح فيما بعد ستالينياً متحمساً ، كتب يومذاك : « ان تروتسكي هو الروح الفولاذية للانتفاضة ، بينما يبقى لينين منظرُها » ملاحظات عن الثورة ، ص ٧٦ .

السنوات والأشهر السابقة . بدت خصومات تروتسكي ولينين خلال السنوات الخمس عشرة الاخيرة تافهة إذا قورنت بما كان يفعله تروتسكي الآن للحزب البلشفي في خمس عشرة دقيقة . ومع ذلك ، كان لا يزال في الحزب أناس لا يمكن لشيء في نظرهم أن يمحو ذكرى الصراعات الماضية . كانوا ينظرون الى صعود تروتسكي المفاجىء في الحزب بمزاج سيىء يحاولون إخفاءه . كان عليهم ان يعترفوا بالشجاعة العظيمة التي دافع بها عن حزبهم في لحظات صعبة ، في وقت لم يكن غدا فيه من اعضائه . كما لم يكن بامكانهم أن ينكروا أنه ، في غياب لينين ، ما كان بإمكان أي منهم أن يتكلم باسم الحزب بحزم تروتسكي ووضوحه وسلطته ؛ وأنه ما كان بإمكان لينين بالذات أن ينطق بلسانهم بذلك القدر من التألق .

كان صعود تروتسكي في الحزب إذاً أمراً لا جدال فيه . لكن يكفي أن نتفحص تقارير اللجنة المركزية لنلاحظ المشاعر الحقيقية خلف المظاهر . فلقد حاول لينين في بداية العام أن يقنع زملاءه بإيلاء تروتسكي دوراً أساسياً في إدارة الصحافة البلشفية ، لكن عبثاً . وحتى في ٤ آب / أغسطس ، عينت اللجنة المركزية لجنة إدارة للصحف البلشفية ، تألفت من ستالين وسوكولنيكوف وميليوتين . وقد سقط مشروع قرار يقترح انضمام تروتسكي الى اللجنة ما أن يخرج من السجن ، إذ صوت ضده ١١ عضواً مقابل ١٠ وافقوا عليه[٧٣] . إلا أنه في ٦ أيلول / سبتمبر ، بعد يومين من اخلاء سبيله ، حين ظهر للمرة الاولى في اللجنة المركزية ، تم انتخابه من دون معارضة أحد كواحد من رؤساء تحرير الصحافة البلشفية[٧٤] . وكانت اللجنة المركزية مؤلفة يومذاك من ٢١ عضواً دائماً و ٨ اعضاء احتياطيين . وكان عدد منهم وجوهاً مألوفة في الجاليات المهاجرة ، بينما كان آخرون قادمين من منظمة ما بين المناطق . وكان آخرون ايضاً ، مثل ميليوتين ونوجين وريكوف وسفردلوف وستالين وشوميان ، رجال لجان ، تكونوا في داخل الحزب ولم يعرفوا حياة اخرى غير حياته السرية القاسية ؛ هؤلاء الذين كان لديهم شعور بأنهم اعمدة الثورة ، كانوا ينظرون بحذر غريزي إلى المهاجرين القدامى ولا سيما الى الاكثر اعتزازاً والأكثر فرادة والاكثر بلاغة بين الجميع . إلا أن هذا التضاد كان يختفي في أعماق اللاوعي .

في البدء ، تصرف تروتسكي في اللجنة المركزية بفطنة قادم جديد ورصانته . وقد

---

(٧٣) بروتوكولي تسينتر النوفو كوميتيتا ، ص ٥ .

(٧٤) المرجع ذاته ، ص ٥٦ .

ظهرت تباينات في الرأي بين البلاشفة القدامى ، في اليوم الأول الذي حضر فيه اجتماعات اللجنة ، وكانت تلك التباينات تتعلق بالموقف الاساسي للحزب . كانت تلك بداية الجدال الكبير حول الانتفاضة : اكتفى لينين ، من مخبئه بطرح المشكلة على اللجنة المركزية . أما زينوفييف ، الذي كان منسحباً كلينين من الحياة العلنية ، فكان قد طلب من اللجنة السماح له بالعودة إلى العلنية وفك تضامنه مع لينين . إلا أن اللجنة رفضت ذلك ، لكن صعب عليها أن تستمر في إخفاء زعيميها فكلفت كامينيف بالتفاوض مع الاشتراكيين المعتدلين حول تسوية تسمح للقائدين بالخروج من عزلتهما . وفي بداية هذا الجدال حول الانتفاضة ، وطوال فترة من الوقت ، امتنع تروتسكي تقريباً عن التدخل مع أنه كانت لديه أفكار دقيقة جداً حول الموضوع .

كان لينين بدأ يدفع حزبه باتجاه الانتفاضة . ففي رسائله إلى اللجنة المركزية ، كان يلح على تبدل المزاج في السوفييتات ، والمد الصاعد للتمرد الفلّاحي ، ونفاد صبر الجيش ، ليحث الحزب على الانتقال فوراً من الاعلانات والوعود الثورية الى العمل المسلح . كان يعتقد بحزم أنه إذا استنح الحزب الفرصة فسيحصل على دعم الاكثرية الواسعة من ابناء الشعب . إلا أن التاريخ لا يقدم إلا فرصة عابرة ، فإذا أخطأها البلاشفة سيكون كورنيلوف آخر على أهبة الاستعداد عما قريب لعصيان يسحق به السوفييتات والثورة . وقد كتب لينين أنه إزاء هذا الخطر ، لم يعد هناك مجال للتفاصيل الدستورية ، حتى تلك التي تتعلق بالسوفييتات ، وان على الحزب تفجير الانتفاضة باسمه الخاص وعلى مسؤوليته . هذه الانتفاضة ليس محتماً أن تنطلق من بتروغراد ، بل يمكن أن تبدأ من موسكو أو حتى في فنلندا ، ثم في وسعها الانطلاق من هناك بحيث تتلاقى فيما بعد في العاصمة[٧٥] . وفي ١٥ أيلول / سبتمبر ، ناقشت اللجنة المركزية هذه الاقتراحات للمرة الأولى ، فعارضها كامينيف بصورة مطلقة وطلب إلى اللجنة بأن تحذر كل المنظمات الحزبية من أي حركة ذات طابع انتفاضي . إلا أن اللجنة رفضت نصيحة كامينيف ، ورفضت معها اقتراحات لينين[٧٦] .

في الوقت ذاته كان تروتسكي يتصدى لهذه المشكلة معززاً موقفه بالامتياز الجديد الذي يمنحه إياه موقعه كرئيس لسوفييت بتروغراد . كان متفقاً مع لينين حول حظوظ الانتفاضة وإلحاحها . ولكنه لم يكن متفقاً معه على الطريقة ، ولا سيما على فكرة أن من

(٧٥) لينين ، سوش . ، ج ٢٦ ، ص ١ ـ ٩ .

(٧٦) بروتوكولي تسن . كوم . ، ص ٦٥ .

واجب الحزب تفجير الانتفاضة باسمه وعلى مسؤوليته كما لم يكن يأخذ على محمل الجد خطر ثورة مضادة وشيكة بالقدر الذي كان يفعله لينين[٧٧] . كان يعتقد ، بحزم ، أن ضغط الاكثرية البلشفية داخل السوفييتات لن يسمح للهيئة التنفيذية المركزية القديمة بأن تؤجل المؤتمر الروسي الكبير زمناً طويلاً ، على عكس ما كان مقتنعاً به لينين . أما الحجة الأخرى التي قدمها تروتسكي فهي التالية : بما أن البلاشفة خاضوا كل حملتهم التحريضية تحت شعار « كل السلطة للسوفييتات ! » فعليهم أن يفجروا انتفاضة ضمن شروط يظهر معها للجميع كما لو انها نتيجة مباشرة لذلك التحريض . ينبغي اذا ان يحدد موعد الانتفاضة بحيث يتطابق مع مؤتمر السوفييتات أو يسبقه بقليل : يسلم المنتفضون عندئذٍ لهذا الاخير السلطة التي استولوا عليها . كان تروتسكي يتمنى أيضاً ان تخاض الانتفاضة باسم سوفييت بتروغراد وبواسطة جهازه : كان البلاشفة يمسكون فيه بكل رافعات التوجيه والقيادة ، وكان هو ، تروتسكي ، يقوده مباشرة . ستظهر الانتفاضة هكذا للعالم ، لا كعمل من اعمال حزب ، بل كحركة اوسع بكثير[٧٨] .

ومن الخطأ ان نرى في هذه الاختلافات في وجهات النظر نزاعاً على المبادىء ، والخروج من ذلك بنتيجة مفادها أن تروتسكي كان يريد الاستيلاء على السلطة باسم السوفييتات بينما كان لينين يرغب في وضعها بين يدي حزبه وحده . فالاثنان كانا « دستوريين سوفياتيين » ، بمعنى ما ، وكان لينين يفكر أيضاً بأن يدعو المنتفضون إلى مؤتمر للسوفييتات لعامة روسيا يسلمونه السلطة . إلا أنه كان يرفض تأجيل الانتفاضة حتى الدعوة لهذا المؤتمر ، لأنه كان مقتنعاً بأن الهيئة التنفيذية المنشفية ستؤجل المؤتمر الى زمن لا وجود له ، وأن الانتفاضة لن تتم على هذا الاساس ابداً ، لأنه ستسبقها ثورة مضادة ظافرة . إلا أنه كان يرى هو أيضاً في مؤتمر السوفييتات المصدر الدستوري للسلطة . من جهة أخرى ، كان تروتسكي يعتبر من المفروغ منه أن البلاشفة الحائزين على الاكثرية في السوفييتات سيكونون بالفعل الحزب القائد . لا تروتسكي ولا لينين كانا يتصوران في تلك الفترة نزاعاً ما بين الدستورية السوفياتية وديكتاتورية بلشفية ، مثلما لا يرى أي ديمقراطي بريطاني مجالاً لنزاع بين سيادة البرلمان ، ونظام حكم قائم على حزب الاكثرية .

كان الخلاف بين لينين وتروتسكي يقتصر على مسألة أقل أهمية بكثير : مسألة ما إذا كان ينبغي تصور الانتفاضة بالذات بتعابير الدستورية السوفياتية .كانت المجازفة التكتيكية

---

(٧٧) هذا الاختلاف في التقدير يعود الى ايام تموز / يوليو . راسكولنيكوف ، المرجع ذاته ، ص ١٧١ : تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ، ج ٢ ، ص ٣١٥ - ٣١٩

(٧٨) المرجع ذاته ، ج ٣ ، الفصلان ٥ و ٦ .

في موقف تروتسكي تتمثل في تأخير وضع خطة العمل موضع التنفيذ ، بينما كان الضرر السياسي الذي ينطوي عليه طرح لينين يتمثل بخطر خفض الدعوة الشعبية الى الانتفاضة . لم يكن لينين يأخذ بالحسبان إلا الهدف الذي ينبغي بلوغه ، بينما كان تروتسكي يولي اهتماماً اكبر لسياقه السياسي ، ولاستعداد الجماهير النفسي ولضرورة كسب العناصر المترددة التي يمكن أن تستجيب لنداء السوفييتات بينما لا تستجيب لنداء الحزب . كان الاول يرى السلطة ، من مُعتَزَله ، في حقيقتها العارية والمتحركة ، بينما كان يحسب الثاني الحساب ايضاً للدقائق الاخلاقية والسياسية ـ ، بجسارة من يوجد في قلب الاحداث ويسيطر عليها .

لم يكن هذا التباين في وجهات النظر إلا وجهاً ثانوياً للجدال الكبير بين انصار الانتفاضة وخصومها . وكان زينوفييف وكامينيف يؤكدان أن لينين وتروتسكي يقودان الحزب والثورة إلى الانتحار . كانت تلك إحدى اهم المنازعات التي حدث أن مزقت الحزب في يوم من الأيام ، وأشدها عنفاً ؛ منازعة سوف تعود « حسناتها » و« سيئاتها » ، إلى الظهور مجدداً ، متجمعةً بطرق مختلفة ، في منازعات لاحقة لا تحصى ؛ منازعة ربما لم يقل التاريخ فيها الى الآن كلمته الاخيرة ، إذا غضضنا النظر عن خاتمتها المباشرة . فبعد الحدث ، من السهل والطبيعي القول إن أنصار الانتفاضة كانوا على حق ، وكان اخصامها مخطئين . وفي الواقع أن كل طرف كان يدافع عن موقفه بطريقة يختلط معها الصواب والخطأ بصورة غريبة ، وتوازن وجهات النظر الواقعية حول المنظورات التاريخية أخطاء خطيرة . كان لينين وتروتسكي يقدران وضع روسيا القومي وتوازن القوى داخل البلاد بالكثير من نفاذ البصيرة ، وكانا يميزان الوهم الذي تنطوي عليه القوة الظاهرة التي يتمتع بها نظام كيرنسكي بفعل وجوده وحسب : كانا يسندان تفاؤ لهما بمصير الانتفاضة إلى تقويم شبه حسابي للقوى المتواجهة . وبمواجهة هذا التفاؤ ل ، كان زينوفييف وكامينيف يطلقان هذا التحذير : « أمام التا ريخ ، أمام البروليتاريا العالمية ، أمام الثورة الروسية والطبقة العاملة الروسية ، ليس من حقنا أن نلعب بكل المستقبل استناداً الى ورقة الانتفاضة المسلحة بوجه الحصر . . . ثمة أوضاع تاريخية حيث ينبغي لطبقة مضطهَدة أن تسلّم بأن من الأفضل أن تمضي إلى حيث الهزيمة عوضاً عن الانسحاب من دون قتال . فهل الطبقة العاملة السوفييتية الآن في وضع من هذا النوع ؟ لا وألف لا !!! »(٧٩) .

لم يكن يرى زينوفييف وكامينيف في المستقبل غير الهزيمة ؛ وسوف يحمّران خجلاً

(٧٩) بروتوكولي تسن . كوم . ، ص ١٠٢ ـ ١٠٨ . يوجد النص الانكليزي لهذا الاعلان في اعمال لينين المجموعة ، ج ٢١ ، ك ٢ ، ص ٣٢٨ ـ ٣٢ .

خلال ما تبقى من حياتيهما الدراميتين في كل مرة يتم تذكيرهما بتلك الكلمات . إلا أن أنصار الانتفاضة ، ولا سيما لينين وتروتسكي ، لم يكونا يكتفيان بتركيز محاجّتهما على حساب ميزان القوى في روسيا ، وحسب ، بل كانا يلحان اكثر ايضاً على ثورة أوروبية وشيكة ستكون الانتفاضة الروسية فاتحتها ، تماماً كما كان يؤكد تروتسكي منذ ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ . وفي مشروع القرار الذي عرضه لينين في ١٠ تشرين الاول / اوكتوبر على اللجنة المركزية ، كانت الحجة الأولى التي يبرر بها الانتفاضة هي « موقع الثورة الروسية العالمي (العصيان في البحرية الالمانية) ، وهو تجلٍّ أقصى ويائس لتقدم الثورة الاشتراكية العالمية عبر اوروبا »[٨٠] . وقد ردد هذا المثل في كل التصريحات العلنية او الخاصة التي أعطاها فيما بعد . « لا يمكن التشكيك في نضج الثورة الاشتراكية العالمية ، أو في طابعها المحتوم »[٨١] . « نحن على عتبة الثورة البروليتارية العالمية »[٨٢] وقد كتب الى العديد من اعضاء الحزب يقول : « سنخون الأممية حقاً إذا لم نردّ في وقت كهذا ، وفي شروط ملائمة كهذه الشروط ، إلا بقرارات لفظية على نداءات الثوريين الألمان (أي على تمرد البحارة الألمان) »[٨٣] . وقد أكد في مرة اخرى : « أن الوضع العالمي يقدم لنا عدداً من المعطيات الموضوعية التي تبرهن لنا بأننا إذا تحركنا الآن ستكون إلى جانبنا كل البروليتاريا الاوروبية »[٨٤] . وكان لينين يشاطر تروتسكي ثقته ، ويطالب بإلحاح بأن تتهيأ حكومة سوفياتية لخوض حرب ثورية تساعد البروليتاريا الالمانية على الانتفاض .

أما زينوفييف وكامينيف فكانا يعلنان ما يلي : « إذا كان علينا أن نتوصل الى استنتاج . . . ضرورة القيام بحرب ثورية ، فسوف يتخلى الجنود عنا بصورة جماعية » . كان ذلك توقعاً دقيقاً للتطورات التي ستؤدي الى صلح برست ـ ليتوفسك . ويتابع زينوفييف وكامينيف : « فلننتقل الآن إلى هذا التأكيد الآخر الذي يعتبر أن الجزء الأكبر من البروليتاريا العالمية اصبح معنا . للأسف ، فهذا غير صحيح ، وتمرد البحرية الالمانية دلالة معبرة ومهمة . . . إلا أنه ليس دعوة لدعم عملي للثورة البروليتارية في روسيا ، التي تتحدى الآن كل العالم البورجوازي . إنه لخطر عظيم أن نسيء تقدير قوانا » .

هكذا فإن من بدوا الأكثر واقعية حين يحددون الوضع الروسي ، كانوا ينسجون

---

(٨٠) لينين ، سوش . ، ج ٢٦ ، ص ١٦٢ .
(٨١) المرجع ذاته ، ص ٢١ .
(٨٢) المرجع ذاته ، ص ٥٥ .
(٨٣) المرجع ذاته ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .
(٨٤) المرجع ذاته ، ص ١٦٤ .

الاوهام حين يتطرقون الى الوضع العالمي ؛ ومن كانوا يسيئون النظر الى روسيا ، عبر ضباب تشككهم الخائف ، كانوا يبدون ، على العكس ، واقعيين إزاء الوضع الخارجي . وبالتأكيد ، كان أنصار الانتفاضة يجسدون قوة الثورة وشجاعتها المحتدمة ، بينما كان خصومهم يعبرون عن حياء ثورة غير واثقة من نفسها . إلا أنه يمكننا أن نتساءل إذا كان أمكن لينين وتروتسكي أن يتصرفا كما تصرفا ، أو إذا كانا تصرفا بالتصميم والعزم ذاتيهما ، لو كانت لديهما رؤ ية أدق للثورة العالمية ، ولو اتضح لهما أنه لن يحذو حذوهما أي بلد آخر على امتداد عقود . إلا أن هذه فرضية صرف ، إذ تستحيل الإجابة عن سؤ ال من هذا النوع . فالواقع أن كل دينامية التاريخ الروسي كانت تدفعهما هما ، وحزبهما ، وبلادهما ، للقيام بتلك الثورة ، وأنهما كانا بحاجة لأمل على المستوى العالمي كي ينجزا العمل الذي سيهز العالم . لقد خلق التاريخ هذا الوهم الكبير وطوره ومارسه في ذهن القادة السياسيين الأكثر واقعية ، حين احتاج لقوة الوهم المحركة كي ينجز عمله . وهو ألهم ، بالصورة نفسها في الماضي ، قادة الثورة الفرنسية الإيمان بالانجاز القادم لجمهورية الشعوب العالمية .

طالما كان ذلك الخلاف يستمر في قسمة اللجنة المركزية ، كان الحزب بالطبع امام استحالة اتخاذ اية مبادرة . وفي نهاية ايلول / سبتمبر تقريباً ، افتتح كيرنسكي البرلمان التمهيدي ، الجهاز الجديد الذي يحل محل جمعية منتخبة . كان على البلاشفة أن يقرروا هل سيشاركون فيه أو لا . وكانت المسألة مرتبطة بمسألة الانتفاضة . فخصوم الانتفاضة ، والمترددون ، حتى ذلك الحين ، كانوا يؤ يدون المشاركة ، متمنين أن يلعب الحزب البلشفي دور المعارضة داخل البرلمان التمهيدي ، مع أنه لم يكن من حق ذلك الجهاز ادعاء تمثيل الأمة . وكان أنصار الانتفاضة يجزمون بأن الوقت الذي كان يمكن لحزبهم ان يلعب فيه دور المعارضة قد ولّى ، وإلا ما كانوا تصوروا الاطاحة الفورية للحكومة القائمة . كانوا يؤ كدون أنه طالما كان البلاشفة اقلية في السوفييتات ، لم يكن في وسعهم إلا أن يحثوا الاكثرية المعتدلة على تحويل كل السلطة الى السوفييتات ، إذ لم يكونوا قادرين ، هم ، على تنفيذ هذا التحويل . إلا أنه كان عليهم الآن ، بعد أن كسبوا الأكثرية ، أن ينقلوا السلطة بكاملها الى السوفييتات ، تحت طائلة الظهور بمظهر أصحاب الجمل الجوفاء . إن دخولهم الى البرلمان التمهيدي كان سيضفي عليه مظهر برلمان حقيقي ويحرف قواهم عن القيام بعمل مباشر .

في هذا الجدال ، كان تروتسكي وستالين متفقين على مقاطعة البرلمان التمهيدي ؛ وكانت تلك هي المرة الاولى التي يظهران فيها معاً . أما كامينيف وريكوف فكانا يدافعان

عن فكرة المشاركة ، وصوّت المندوبون البلاشفة الواصلون من كل انحاء البلاد بمناسبة افتتاح البرلمان التمهيدي ، صوتوا بأكثريتهم لصالح المشاركة . وأصر لينين على أن يعيدوا النظر بموقفهم ، فكتب رسالة الى اللجنة المركزية يقول فيها : « هـا ساند تروتسكي المقاطعة- مرحى أيها الرفيق تروتسكي! ولقيت المقاطعةالرفض داخل مجموعةالمندوبين البلاشفة . . . إلا أننا نبقى نؤيد المقاطعة »[٨٥] . وهذه الحادثة كانت تُظهر أن الحزب لم يكن قد أصبح مستعداً بعد ، من الناحية المعنوية ، لقيادة ثورة .

لقد كتب لينين برضى واضح هذه الكلمات : « ها ساند تروتسكي المقاطعة - مرحى أيها الرفيق تروتسكي ! » فهوكان يتطلع بقلق الى رأي تروتسكي اي الانتفاضة ، لا بل بحذر . ويتساءل إذا كان تروتسكي ، بإلحاحه على ربط الانتفاضة بانعقاد مؤتمر السوفييتات ، يؤجل ساعتها ، ويتدبر الأمور بحيث يتم تأخير مباشرة العمل الى حين يكون فات الأوان . ولو كان ذلك صحيحاً لكان تروتسكي ، بنظر لينين ، خصماً أخطر من كامينيف وزينوفييف ، اللذين يتميز موقفهما بميزة سلبية ، على الأقل ، هي ميزة الوضوح والتناقض الجلي مع وجهة السياسة البلشفية . أما موقف تروتسكي فبدا ، على العكس ، متفرعاً من سياسة الحزب ، وكان يكسب إذاً ، بسهولة أكبر ، موافقة البلاشفة ؛ وهكذا كانت اللجنة المركزية مستعدة لتبني وجهة النظر هذه . وكان لينين يناقش إذاً ، في رسائله ، رأي تروتسكي ، بالقساوة ذاتها ، أحياناً ، التي يناقش بها رأي زينوفييف وكامينيف ، لكن دون ذكر اسم تروتسكي . فقد كتب أن تأجيل الانتفاضة حتى انعقاد مؤتمر السوفييتات لا يقل خيانة عن انتظار دعوة كيرنسكي للجمعية التأسيسية ، كما يتمنى زينوفييف وكامينيف .

بعد ذلك بوقت طويل ، عذر تروتسكي موقف لينين بالعبارات التالية : « من دون قلق لينين ، من دون نفوذه ، وحسه النقدي ، من دون هذا الحذر الثوري المحموم واليقظ على الدوام ، لم يكن في وسع الحزب أن يعزز مواقعه في اللحظة الحاسمة ، لأن المقاومة في القمة كانت قوية جداً . . . »[٨٦] . ويمكن أن نضيف أنه كان طبيعياً ان يستهدف ذلك الحذر الثوري ، المحموم والقلِق على الدوام ، تروتسكي ذاته ، هو الذي كان يحب الكلمات والمواقف ، « الجرس الفارغ » والعازف على بالالايكا الماضي ، رفيق المناشفة سابقاً ، الذي لم ينضم الى الحزب البلشفي إلا منذ وقت قصير ، ولم يجد نفسه على رأسه إلا

---

(٨٥) لينين ، سوش . ، ج ٢٦ ، ص ٣٧ .

(٨٦) انظر اوروكي اوكتيابريا ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

بسبب ظرف عارض ، هو غياب لينين . وبالطبع ، لقد برهن في أيام تموز / يوليو عن شهامة وشجاعة نادرتين ، إلا أن لينين لم يضع شرف تروتسكي وشجاعته موضع شك في يوم من الأيام ، حتى حين كانا يتجابهان بعنف . ومارتوف ، ايضاً ، دافع عن لينين بشجاعة في تموز / يوليو . إلا أن الدفاع عن رفيق ، أو حتى عن خصم يهدده اعداء الثورة ، شيء ، وقيادة الثورة شيء آخر . فهل يكون تروتسكي على مستوى هذه المهمة ؟ هل كان يعرف الوقت الملائم للانتقال من الكلمات الى الافعال ؟ لقد بقي الشك يعذب لينين حتى لحظة الانتفاضة ، لا بل خلالها أيضاً .

إلا أن تروتسكي كان يعمل على تهيئة الانتفاضة . كان يتصرف برهافة سيكولوجية ودقة تكتيكية بالغتين ، حتى أن غايته بقيت خافية على اصدقائه كما على أعدائه ، مع أنه عمل في وضح النهار . لم يكن يحاول أن يفرض على الاحداث مخططاً جاهزاً للانتفاضة ، بل كان يميل بالأحداث ، مثلما تقدم نفسها ، باتجاه الانتفاضة . وكان في وسعه هكذا أن يبرر كلاً من التدابير التي يتخذها بدواع ملحة ـ وبمعنى ما ، حقيقية ـ راهنة ، دواع لم يكن لها في الظاهر اية علاقة بالانتفاضة . كأن لكل من أعماله مظهر البراءة ، ومع أن كلاً منها كان مرتبطاً بالآخر ، نحو هدف واحد ، فلقد كان ترابطها مخفياً بشكل كامل . ما من واحد من المراقبين السياسيين والعسكريين المختصين الذين كانوا يراقبون الاحداث لحساب الحكومة ، وهيئة الأركان ، والسفارات والبعثات العسكرية الحليفة ، تمكن من اكتشاف التمويه . حتى ان لينين ذاته انخدع جزئياً بحقيقة ما يجري .

حوالى بداية تشرين الاول / اوكتوبر ، بلغت الأزمة نقطة حرجة جديدة ؛ فقد كانت الفوضى الاقتصادية تزداد ، وينفد تموين المدن . وفي مناطق شاسعة من البلاد ، كان الفلاحون يستولون على املاك النبلاء ويحرقون المساكن ، ويمنى الجيش بهزائم جديدة . وقد تدخل الاسطول الالماني في خليج فنلندا ، وبدت بتروغراد ذاتها ، خلال فترة من الوقت ، تحت تهديد الهجوم الالماني . وكانت الوزارات وأوساط رجال الأعمال والمراكز العسكرية تناقش مسألة إخلاء العاصمة ونقل الحكومة إلى موسكو . في ذلك الحين حدث قلبٌ للآراء يمكن أن نجد مثيلاً له في سجلات الحرب والثورة . فالبعض ، من اولئك الذين يتمنون قيام ثورة مضادة لكنهم ضعفاء جداً بحيث يعجزون عن التسبب بها ، توصلوا للنظر برضى إلى غزو محتمل معادٍ يتولى عنهم هذه المهمة ، رغم ادعاءاتهم المعتادة للوطنية . حتى ان رودزيانكو ، رئيس الدوما سابقاً ، أعلن جهاراً ، في لحظة تغافل ، أنه يتطلع بفرح إلى قيام الجيش الالماني بإعادة النظام والشرعية في بتروغراد . وكان الإحباط ينتقل إلى الطبقة العاملة والسوفييت « الانهزامي » . وفي ٦ تشرين الاول /

اوكتوبر ، وبحضور مندوبي كل الفصائل المتوقفة في العاصمة ، توجه تروتسكي إلى فصيلة جنود السوفييت مقترحاً مشروع القرار التالي :

« إذا كانت الحكومة المؤقتة عاجزة عن الدفاع عن بتروغراد ، عليها إما أن توقّع على معاهدة سلام أو أن تخلي المكان لحكومة أخرى . إن نقل الحكومة إلى موسكو يعني إخلاء موقع قتالي ملائم »(٨٧) . وقد جرى تبني المشروع بالإجماع . وأعلنت الحامية عن موافقتها ، بتنظيم الدفاع عن المدينة من دون الحكومة لا بل ضدها عند الاقتضاء .

وفي الغد ، قرع تروتسكي جرس الإنذار من على منبر البرلمان التمهيدي . قال : « إن فكرة تسليم العاصمة الثورية الى القوات الالمانية لم تكن غير عنصر ينخرط في خط سياسي عام مُعدّ لتشجيع التآمر المعادي للثورة »(٨٨) . وقد استقبل الخطيب سيل من الشتائم ، إلا أنها كانت المرة الاخيرة التي يتكلم فيها في البرلمان التمهيدي ، فبناء على إلحاح لينين ، قرر الحزب في الاخير مقاطعة الجمعية . هكذا بعد أن سيطر تروتسكي على الجلبة ، أعلن رحيل البلاشفة : « ليس ثمة ما يجمعنا إلى هذه الحكومة الخائنة للشعب ، ولا إلى هذا المجلس المتواطىء مع الثورة المضادة . . . وبانسحابنا من المجلس ، نحذر العمال والجنود والفلاحين في كل روسيا كي يحترسوا ويبرهنوا عن الشجاعة . . إن بتروغراد في خطر ! الثورة في خطر ! الشعب في خطر ! » . منذ تلك اللحظة ، كان المتمردون يتقدمون في كل يوم تقريباً ، بخطى جبارة نحو هدفهم .

كان كيرنسكي وهيئة أركانه من جهة ، وتروتسكي والسوفييت من الجهة الاخرى ، ينخرطون في سلسلة من العمليات التي تعد العدة للحرب الأهلية . إلا أن الجميع كانوا يدعون العمل لمصلحة الدفاع القومي العليا . كان كيرنسكي يهيىء إعادة توزيع للقوات ، معدة ، كما ادعى ، لتعزيز الجبهة . وفي إطار هذه الحركة ، كان على الفصائل الأكثر ثورية أن تغادر بتروغراد ، وهو ما كان يمهد لآمتحان قوة مع السوفييت . وكان على تروتسكي أن يحبط خطة كيرنسكي ويحول دون رحيل الفصائل المؤيدة للبلاشفة ، وقد توصل الى ذلك بتأكيد أن إضعاف الحامية يعرض العاصمة للغزو الالماني ، وهو تحليل صحيح في كل حال . إلا أن الحكومة أنكرت انها خططت لإخلاء بتروغراد . لكن كان هناك حذر من مشاريعها ، وحين وصل نبأ يفيد بأن كيرنسكي يدرس خطة لإعادة توزيع القوات ، تأيّد ذلك الحذر وتعزز . وفي ٩ تشرين الاول / اوكتوبر ، كان السوفييت في حالة هياج عظيم ،

---

(٨٧) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ٣٢١ .

(٨٨) المرجع ذاته ، ص ٣٢١ - ٣٢٣ .

وكان تروتسكي يحث الدورة المنعقدة بكامل هيئتها والفروع على التدخل في قضية حركة القوات . وبما أن السوفييت اضطلع بمسؤ ولية الدفاع عن بتروغراد ، فهو لم يكن يستطيع الوقوف مكتوف الأيدي إزاء تفكيك الحامية . بيد أن تروتسكي لم يقترح على السوفييت ، بشكل مكشوف ، مسألة مواجهة خطة كيرنسكي ، بل دعاه في البدء لفهم المعنى الحقيقي لتلك الخطة . وأكد أنه ينبغي أن يكون للسوفييت حق الرقابة على وضع الحامية . إلا أن تروتسكي كان طرح ، ضمنياً ، مسألة معرفة من ينبغي أن يوجه الأوامر لتلك الحامية[٨٩] .

في اليوم ذاته ، تأسست اللجنة العسكرية الثورية خلال جلسة لهيئة السوفييت التنفيذية . هذه اللجنة التي اصبحت فيما بعد أداة الانتفاضة العليا ، بدت في ذلك الحين كما لو أن لا دور لها غير الاضطلاع باسم السوفييت بمسؤ ولية حماية المدينة . وتعود المبادرة لتشكيلها إلى فتى في الثامنة عشرة من عمره ، يدعى لازيمير ، كان اشتراكياً ثورياً يسارياً ، ولم يكن يتوقع إطلاقاً نتائج ذلك . وقد وقف اعضاء الهيئة التنفيذية للمناشفة في وجه تلك الفكرة ، لكن حين أظهر لهم ان هذه اللجنة ستكون النسخة المطابقة لجهاز شكلوه هم ذاتهم اثناء انقلاب كورنيلوف ، وما يشبه الوريث لذلك الجهاز ، لم يجدوا ما يجيبون به . وخلال المرحلة المنشفية من حياة السوفييت ، وقف هذا اكثر من مرة في وجه تدابير فكرت بها الحكومة ـ كانت هذه الممارسة تلازم « ازدواجية السلطة » في نظام شباط ـ وقد نزع التذكير بالسابقات سلاح المعارضة . وهكذا تسلم تروتسكي ، آلياً ، قيادة اللجنة العسكرية الثورية . وكانت مهمة هذه اللجنة تحديد عدد افراد الحامية الضروري للدفاع عن العاصمة ، والبقاء على اتصال بقادة الجبهة الشمالية واسطول البلطيق وحامية فنلندا ، الخ ؛ وتقدير الاحتياطي المتوفر من الرجال والعتاد ؛ ووضع خطة للدفاع ؛ وحفظ النظام والانضباط على صعيد السكان المدنيين . وكان من بين اعضائها ـ بالاضافة الى مطلق فكرتها الشاب والبريء ـ كل من بودفويسكي وأنطونوف ـ أوفسينكو ولاتيفيتش ، قادة الانتفاضة العسكريين فيما بعد . وقد انقسمت اللجنة إلى سبعة فروع كلفت ، على التوالي ، بالدفاع والتموين والعلاقات والاعلام والميليشيات العمالية ، الخ . وهي كسابقتها أيضاً ، عينت مفوضين يمثلونها لدى كل فصائل الحامية[٩٠] .

هكذا كان تروتسكي يصنع آلة الانتفاضة ، تارة عمداً ، وطوراً تحت دفع احداث كبرى وحوادث ثانوية ؛ بيد أن لجنة الحزب المركزية لم تكن اخذت بعد أي قرار نهائي .

(٨٩) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ٣٤٤ ، وما بعدها .

(٩٠) انظر ذكريات المشاركين المنشورة بمناسبة عيد الثورة الثالث في بروليتار سكايا ريفولوتسيا ، العدد ١٠ ، ١٩٢٢ .

وفي ٣ تشرين الأول / أوكتوبر ، أصغت إلى تقرير رسول من موسكو ، هو لوبوف ـ او بوكوف ، دعا للانتفاضة ، وألح على أن تضع اللجنة المركزية حداً لترددها . ويقول محضر اللجنة المركزية : « لقد تقرر عدم مناقشة ذلك التقرير ، لكن الطلب إلى لينين أن يأتي إلى بتروغراد فيعرض حججه أمام اللجنة المركزية »(٩١) . وفي ٧ تشرين الأول / اوكتوبر جرى تعيين مكتب يتولى « جمع المعلومات التي تتعلق بالنضال ضد الثورة المضادة » ، وقد تشكل من تروتسكي وسفردلوف وبوبنوف(٩٢) . وسوف ننتظر حتى ١٠ تشرين الأول / اوكتوبر ، غداة تشكيل اللجنة العسكرية الثورية ، لتنعقد الدورة التاريخية التي حضرها لينين ، والتي صوّت فيها قادة الحزب ، بعد نقاش جدي ، بأغلبية عشرة أصوات لصالح الانتفاضة ضد اثنين . خلال تلك الجلسة ايضاً جرى انتخاب اول مكتب سياسي ، ضم كلاًّ من لينين وزينوفييف وكامينيف وتروتسكي وستالين وسوكولنيكوف وبوبنوف ، كي يسمح للحزب بأن يضطلع ، يوماً فيوماً ، بقيادة الانتفاضة(٩٣) . لكن في الغد ، راجع زينوفييف وكامينيف الدرجات الدنيا في التنظيم ضد قرار اللجنة المركزية ، وعاد موقف الحزب متردداً . في كل حال ، كان المكتب السياسي المنتخب حديثاً عاجزاً عن الاضطلاع بالقيادة . فلينين عاد الى مخبئه في فنلندا ، وكان زينوفييف وكامينيف يعارضان الانتفاضة ، بينما كان ستالين منشغلاً حتى رأسه بعمله كرئيس تحرير . وكان رأي سوكولنيكوف اكثر حذراً بقليل من رأي تروتسكي . ولينين ، الذي كان لا يزال حذراً تجاه مشاريع تروتسكي ، كان يحث الحزب مع ذلك على ان يتخذ بذاته المبادرة إلى عمل مسلح . لكن كل اعضاء المكتب السياسي ، غير المعارضين مبدئياً عملاً من هذا النوع ، كانوا يفضلون ان يقود السوفييت الانتفاضة .

خلال الأسبوع التالي ، أعاد تروتسكي تجميع قوى الثورة ، يدعمه المحرضون الأكثر فعالية ، لوناتشارسكي ، وكولونتاي ، وفولودارسكي . وفي ١٠ تشرين الأول / أوكتوبر، تكلم أمام المؤتمر التداولي للجان المصانع في المدينة . وفي ١١و١٢ تشرين الأول اوكتوبر، دعا المؤتمر التداولي لسوفييتات روسيا الشماليةكي يكون مستعداً لأحداث عظيمة . لقد أعلن : « في وسع حكومتنا أن تهرب من بتروغراد ، ، إلا أن الشعب الثوري لن يغادر المدينة أبداً ، وسوف يدافع عنها حتى النهاية »(٩٤) . وفي الوقت ذاته ،

(٩١) بروتوكولي تسن ـ كوم ، ص ٨٧ .

(٩٢) المرجع ذاته ، ص ٩٤ .

(٩٣) المرجع ذاته ، ص ٩٨ ـ ١٠١ .

(٩٤) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ٥ .

كان يبذل كل ما في وسعه لاجبار الهيئة التنفيذية المركزية المنشفية على الدعوة لانعقاد مؤتمر ثان للسوفييتات . وفي ١٣ تشرين الاول / اوكتوبر ، تجاوز هذه الهيئة التنفيذية وأرسل رسالة لاسلكية باسم سوفييتات روسيا الشمالية « الى الجميع ، الى الجميع ، الى الجميع » ، داعياً الجيش وكل السوفييتات لإرسال مندوبين الى المؤتمر . وقد كتب سوخانوف : « على أبواب السيرك الحديث المشهور ، حيث كان تروتسكي ولوناتشارسكي وفولودارسكي يحتلون المنصة ، كانت تنتظر صفوف لا تنتهي وجماهير غفيرة لم يكن يستطيع المدرّج الكبير أن يسعها . . . . كان تروتسكي يترك عمله في القيادة العامة الثورية ، ويركض من مصنع أوبوخوفسكي إلى تروبوشنيي ، ومن بوتيلوفسكي إلى بلطييسكي [المنشآت الصناعية الكبرى] ، ومن مدرسة الفروسية الى الحامية ، حتى ليخيل للمرء أنه يتكلم في آن معاً في كل مكان . كان كل جندي وكل عامل في بتروغراد يعرفه ويصغي إليه ، وكان تأثيره على الجماهير وحتى على القادة لا يقاوَم . كان الشخصية المركزية في تلك الأيام المجيدة والبطل الرئيسي لذلك الفصل من التاريخ »[٩٥] .

في ١٦ تشرين الأول / اوكتوبر ، أعلنت أفواج الحامية أنها لن تنصاع لأوامر كيرنسكي بالمسير وستبقى في بتروغراد . كان ذلك التمرد الصامت ، ـ كما أظهر تروتسكي فيما بعد ـ هو الذي حسم سلفاً نهاية الصراع[٩٦] . حتى ذلك الحين كان تروتسكي ذاته قلقاً بعض الشيء بسبب مجازفته حين ربط الانتفاضة بمؤتمر السوفييتات . أما الآن فقد اطمأن نهائياً : لن يستطيع كيرنسكي على المدى القريب أن يميل بتوازن القوى لصالحه . في اليوم ذاته ، وقّع تروتسكي أمراً الى مستودعات الأسلحة كي يتم تسليم ٥٠٠٠ بندقية إلى الحراس الحمر المدنيين . كانت تلك طريقة للتأكد من اعتراف الحامية بسلطة اللجنة العسكرية الثورية ، وقد تم ذلك الاعتراف .

خلال ذلك « التمرد الصامت » ، اجتمعت اللجنة المركزية ، مرة أخرى ، بحضور قادة بلاشفة محليين مهمين[٩٧] . أما لينين ، الذي كان قد وصل ، متنكراً بحذق ، فقد دفع المؤتمر التداولي لتصديق القرارات حول الانتفاضة ودعا اللجنة المركزية لتنشر في الحال دعوة إلى العمل . تكلم ممثل لجنة بتروغراد على خمود الجماهير ، لكنه أعلن أنه إذا صدرت الدعوة للانتفاضة عن السوفييت ، لا عن الحزب ، فستوقظ الجماهير وتلاقي صدى

(٩٥) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٧ ، ص ٤٤ ـ ٧٦ .
(٩٦) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ١ .
(٩٧) بروتوكولي تسن كوم . ، ص ١١٠ ـ ١٢٥ .

لديها . وأعلن كيريلنكو، قائد الفرع العسكري في الحزب ، الذي كان يتوقف عليه كلياً تنفيذ خطة لينين ، أن أقلية فقط في ذلك الفرع كانت تؤيد الانتفاضة ، لكن حتى تلك الاقلية كانت تتمنى أن تأتي المبادرة من السوفييت ، لا من الحزب . وتكلم فولودارسكي بالمعنى ذاته . أما زينوفييف وكامينيف فجددا بإلحاح اعتراضهما على العمل المسلح، أيّاً يكن شكله . وقد وبخهما ستالين لقلة ثقتهما بالثورة الاوروبية وأضاف أنه في حين ينصرف قادة الحزب الى نقاش مرتبك ، أصبح السوفييت « على طريق الانتفاضة » . وأدلى ميليوتين ، مندوب موسكو ، ببيان ملتبس ، بينما أكد سوكولنيكوف ضرورة عدم تفجير الانتفاضة قبل افتتاح مؤتمر السوفييتات . ومن كل الجهات ، كانت ترتفع أصوات قلقة بسبب خمود الجماهير وضعفها ، فأعاد لينين ذكر حججه ، لكنه قدم تنازلاً لأنصار خطة تروتسكي ، وأوحى بأن « اللجنة المركزية والسوفييت سيحددان ، حين يحين الأوان ، الموعد المناسب وطرائق الهجوم العملية »[٩٨] . ومن قبيل التجربة ، تم اختيار ٢٠ تشرين الاول / اوكتوبر ليكون يوم المعركة .

حددت اللجنة المركزية ذلك التاريخ لأنه كان عشية اليوم المتوقع لافتتاح المؤتمر . ولم يكن باقياً غير ثلاثة أيام أو أربعة للإعدادات . إلا أنه ما أن ثبتت اللجنة المركزية قرارها حتى كان زينوفييف وكامينيف يقومان بمحاولة عنيفة لإحباطه ؛ فلقد فضحا الخطة ، لا داخل المجموعة البلشفية هذه المرة بل في أعمدة صحيفة غوركي . هكذا عرف العالم الخارجي ما يحاك عن طريق الرجلين اللذين كان يفترض فيهما أن يعملا كعضوين في هيئة أركان الانتفاضة . واستشاط لينين غضباً ، وخرج عن طوره ، مطالباً بأن يُطرد من الحزب على الفور « كاسرا إضراب الثورة » . إلا أن اقتراحه لم يُستجب . وحاول ستالين ، من على صفحات الجريدة البلشفية ، ان يصالح الخصوم ، مع ان المصالحة ، كانت مستحيلة بصدد موضوع من هذا النوع : فالانتفاضة تُصنع أو لا تُصنع[٩٩] .

وليواصل تروتسكي تحقيق خطته ، استفاد من ذلك الارتباك الذي سيطر على القادة البلاشفة . وفي ١٧ تشرين الاول / اوكتوبر ، علم ـ بارتياح بذل جهداً ليخفيه تماماً ـ أن الهيئة التنفيذية المركزية المنشفية اجلت من جديد مؤتمر السوفييتات . كان ذلك يعطيه

---

(٩٨) لينين ، سوش . ، ج ٢٦ ، ص ١٦٥ . في ذلك الاجتماع ، تم تعيين « مركز عسكري » مؤلف من سفردلوف ، وستالين ، وبولنوف ، واوريتسكي ، ودزرجينسكي . كان عليه أن « يشكل ، جزئياً ، لجنة السوفييت العسكرية الثورية » . أي انه كان تابعاً لتروتسكي . لكن ستالين والمؤرخين الستالينيين اعلنوا فيما بعد أن ستالين كان قائد الانتفاضة الحقيقي مستندين إلى أنه كان عضواً في ذلك « المركز » ـ الذي لم يتدخل أبداً كهيئة منفصلة خلال الانتفاضة .

(٩٩) بروتوكولي تسن كوم . ، ص ١٢٧ ـ ١٢٩ .

مزيداً من الوقت من أجل اللمسات الأخيرة . إلا أنه كان في وسع المعسكر الآخر أن يستفيد هو ايضاً من ذلك التأخير ؛ وكانت الأمور التي كشفها زينوفييف وكامينيف تهدد بايقاظ حذر خصومه . وفي ١٨ تشرين الاول / اوكتوبر ، طُرح في السوفييت سؤالان مزعجان على تروتسكي : احدهما حول الاشاعات المنتشرة بخصوص انتفاضة وشيكة ، والآخر حول الأمر الذي اعطاه لمستودعات الاسلحة بغية تسليم اسلحة للحراس الحمر . لكن رده كان رائعة من روائع التمويه الدبلوماسي ؛ فقد قال : « تم نشر قرارات سوفييت بتروغراد ، والسوفييت جهاز منتخب ؛ وكل نائب مسؤول تجاه العمال والجنود الذين انتخبوه ؛ هذا البرلمان الثوري . . لا يمكن أن يتخذ أي قرار دون إبلاغه للعمال . ونحن لا نخفي شيئاً ، فأنا أعلن باسم السوفييت : لم نتخذ قراراً بأي عمل مسلح » . ومن الناحية الحرفية ، كان ذلك صحيحاً : فالسوفييت لم يتخذ أي قرار من هذا النوع . وبصفته رئيساً للسوفييت ، لم يكن عليه ان يعرض إلا اعمال السوفييت . لم يكن مضطراً للقيام باعتراف علني ولكشف قرار سري اتخذته جمعية خاصة كلجنة الحزب المركزية .

لكنه لم يتوقف عند هذا التكذيب ، الذي كان يمكن أن يبلبل الاصدقاء كما الأعداء ، بل اهتم بأن تبقى يداه طليقتين ، فأضاف : « إذا دفع مجرى الأحداث السوفييت ليقرر عملاً مسلحاً ، فسيستجيب العمال والجنود لندائنا كرجل واحد » . واعترف أنه دفع باتجاه تسليم البنادق للحراس الحمر ، لكنه احتمى خلف سابقة حاضرة في كل ذاكرة : فالسوفييت المنشفي فعل الشيء ذاته . اضاف بلهجة تحدٍّ : « سوف يستمر سوفييت بتروغراد ينظم الميليشيات العمالية ويسلحها . . . علينا ان نكون مستعدين . لقد دخلنا حقبة سيكون النضال اصعب فيها . علينا أن نكون مستعدين في كل لحظة لمواجهة هجوم للثورة المضادة . وسنرد على أول محاولة معادية للثورة لحل مؤتمر السوفييتات ، على أول محاولة لمهاجمتنا ، بهجوم معاكس لا يرحم ، وسوف نذهب به إلى أبعد الحدود »[١٠٠] ، كان ينعش هكذا حماس المناضلين الثوريين وأصدقائهم ، ويربك في الوقت ذاته اعداءهم . وقد اهتم كثيراً بالتشديد على الطابع الدفاعي الصرف لنشاط الانتفاضيين ، وبإبقاء طابعه الهجومي في الظل . وللحال نهض كامينيف فأكد تضامنه الكامل مع تروتسكي ، وفعل زينوفييف الشيء ذاته في رسالة إلى رئيس تحرير رابوشيي بوت . كان خصما الانتفاضة يأملان هكذا إبقاء حزبهما في وضع دفاعي بحت ودفعه للتراجع عن الانتفاضة بطريقة محروفة . إلا أنه كان لإظهار تضامنهما مع تروتسكي تأثير مختلف كلياً ، فالأحزاب المعادية للبلشفية ، التي رأت ان الخصمين المعروفين للانقلاب

---

(١٠٠) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ٣١ - ٣٢ .

يعلنان اتفاقهما مع تروتسكي ، استنتجت أنه كان ، هو الآخر ، متفقاً معهما . فاطمأن المناشفة والاشتراكيون الثوريون وقالوا في سرهم : « لن تكون هنالك انتفاضة إذاً » .

بعد تلك الحادثة مباشرة ، تمت مقابلة سرية بين تروتسكي ولينين ، الوحيدة - كما يبدو - التي جرت بينهما طوال تلك الأسابيع . كان تروتسكي يتساءل إذا لم ينخدع لينين بتصريحه وبالاتفاق الظاهري بينه وبين زينوفييف وكامينيف ، وكان مصراً على تبديد سوء فهم محتمل[١٠١] . لكن مخاوفه كانت من دون أساس ، بصدد هذه النقطة على الأقل . فلقد كتب لينين الى اللجنة المركزية : « إن مناورة كامينيف في جلسة سوفييت بتروغراد ساذجة بما فيه الكفاية . فأنتم ترون أنه يعلن عن اتفاقه التام مع تروتسكي لكن هل من الصعب أن نفهم أنه لم يكن في وسع تروتسكي - ولم يكن عليه - أن يقول اكثر مما قال بحضور أعداء ؟ »[١٠٢] وكتب تروتسكي : « « خلال لقائنا ، بدا لينين اكثر هدوءاً وأكثر ثقة ، والاصح أقل حذراً . . . ورغم كل شيء ، كان يهز رأسه أحياناً ويسأل : « ألن يسبقونا ؟ ألن يأخذونا على حين غرة ؟ وقد أثبتُّ له أن كل شيء سيتم بعد ذلك الحين بصورة شبه آلية »[١٠٣] .

لم يكن لينين مطمئناً بشكل كامل ، فلقد أنعش حذره رفض تروتسكي واللجنة المركزية بكاملها الاستجابة لطلبه المكرر بطرد زينوفييف وكامينيف فوراً . فأي حزب آخر كان اعتبر سلوك زينوفييف وكامينيف الخالي من الرزانة والكتمان خيانة ، في ظروف مماثلة . لذا كان لينين يرى في رفق اللجنة المركزية بهما علامة تردد بصدد الانتفاضة[١٠٤] .

---

(١٠١) تروتسكي ، لينين ، ص ٨٦ .

(١٠٢) لينين ، سوش . ، ج ٢٦ ، ص ١٩٢ .

(١٠٣) تروتسكي ، لينين ، عبارة مذكورة .

(١٠٤) إن كون صوت واحد لم يرتفع لدعم اقتراح لينين في اللجنة المركزية إنما هو امر مميز جداً للعلاقات داخل الحزب البلشفي . في تلك اللحظة ، عرض كامينيف استقالته من اللجنة بشكل تلقائي . أما لينين فلم يكن يطلب اقل من طرده وطرد زينوفييف كعقوبة نموذجية ، لا بسبب الاختلاف في الرأي ، بل بسبب الاساءة الى الانضباط التي ارتكباها . إن قراءة محضر اجتماع اللجنة المركزية في ٢٠ تشرين الأول / اوكتوبر قراءة معبرة . فقد اعلن دزرجنسكي أنه ينبغي نصح كامينيف بالانسحاب من الحياة السياسية ؛ لكنه لم يطالب بطرده . وأضاف : لا حاجة للقلق بصدد زينوفييف ، فهو مختفٍ في كل حال . ونصح ستالين وميليوتين بوضع المسألة جانباً حتى دورة اللجنة المركزية بكامل اعضائها . وفي جريدة الحزب ، دعم ستالين وجهة نظر كامينيف وزينوفييف ، ومنذ ذلك الحين اصبح مستهدفاً شخصياً . وكان اوريتسكي مع تأجيل الموضوع ، وهاجم سفردلوف كامينيف بعنف ، لكنه اكد ان اللجنة المركزية لا تملك الحق بطرد اي كان . اما تروتسكي فكان مع قبول استقالة كامينيف ، لكنه بقي ضد طرده . وقد انتقد الوجهة التي اعطاها ستالين لجريدة الحزب ، التي خلقت « وضعاً لا يحتمل » ، وتكلم يوفي ضمن الخط ذاته . لكن ستالين دافع مجدداً عن زينوفييف وكامينيف قائلاً بضرورة بقائهما في اللجنة المركزية : « ليس الطرد علاجاً ، إذ ينبغي الحفاظ على وحدة الحزب » . وتم قبول استقالة كامينيف بـ ٥ أصوات ضد ٣ ، فأعلن ستالين أنه يستقيل من رئاسة تحرير صحيفة الحزب ، لكن لم تقبل هذه الاستقالة . ان هذه الحادثة واخرى مشابهة تناقض من يؤكدون ان الحزب البلشفي كان منذ ولادته كليانياً وأحادي الاتجاه . بروتوكولي تسن كوم . ، ص ١٢٧ - ١٢٩ .

كانت المرحلة الاعدادية لهذه الانتفاضة تقارب نهايتها حين الزم السوفييت الحامية بألا تنفذ غير الأوامر الرسمية التي تصادق على توقيعها اللجنة العسكرية الثورية أو مفوضوها . ونقل تروتسكي هذا الأمر ، في ٢١ تشرين الاول / اوكتوبر ، الى اجتماع عام للجان الفوج ؛ ووجه النداء الى القوزاق ، حرس القياصرة البريتوري(*) القديم ، كي يدعموا الثورة . وقد تبنت لجان الفوج اقتراح تروتسكي الذي كان ينص بوجه خاص على ما يلي :

« إن الحامية التي أيدت كل قرارات سوفييت بتروغراد السياسية تعلن التالي : لقد انتهى وقت الكلام ؛ والجيش يطالب بالسلم ، ويطالب الفلاحون بالأرض ، بينما يطلب العمال عملاً وخبزاً . إن حكومة الائتلاف ضد الشعب ، وهي أداة في يد اعداء الشعب . لم يعد الأوان أوان الثرثرة ، وعلى مؤتمر السوفييتات لعامة روسيا أن يأخذ السلطة ويضمن للشعب السلم والأرض والخبز . . . وحامية بتروغراد تتعهد رسمياً بأن تضع كل قواها بتصرف مؤتمر عامة روسيا ، حتى الرجل الاخير ، دفاعاً عن هذه المطالب . اعتمدوا علينا . . . نحن في مواقعنا ، مستعدون للنصر أو الموت »(١٠٥) .

لكن الأحداث اظهرت أن هذا التعهد الأخير كان احتفالياً اكثر مما كان صادقاً . فالعمال المدنيون كانوا حقاً « مستعدين للنصر أو الموت » ؛ لكن الحامية وعدت بدعم السوفييت لأنها كانت تعتقد بانتصار سهل على كيرنسكي ، وهو انتصار كانت تأمل أن يضع حداً للحرب . مع ذلك ، ومهما كانت أسباب الحامية ، فلقد وضعت نفسها تحت أوامر السوفييت .

كان لا بد لنزاع أن يلي ذلك بين القيادة العسكرية النظامية ، واللجنة العسكرية الثورية . فتروتسكي لم يطالب في الحال بحق اللجنة في الحلول محل القيادة العسكرية ، بل جرى الحاق مفوضي اللجنة بهيئة الأركان العامة ، لتنسيق النشاطات رسمياً والحيلولة دون الاحتكاكات . وكان تروتسكي ، في يوم الانتفاضة بالذات ، يوحي بتقارير تؤكد أن المفاوضات تتقدم بصورة مُرضية(١٠٦) . وفي الوقت ذاته الذي كان يقوم فيه تروتسكي بالاعدادات العسكرية ، كان يضع الحراس الحمر والمنظمات المدنية في حالة التأهب . وفي ٢٢ تشرين الأول / أوكتوبر تكلم في لقاء ضخم للغاية انعقد في نارودنيي دوم (دار

(*) نسبة الى البريتور وهو الحاكم لدى الرومان القدامى (م) .

(١٠٥) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ٣٧ .

(١٠٦) تروتسكي ، لينين ، ص ٨٧ .

الشعب) ؛ ويكتب شاهد العيان الذي استشهدنا به غالباً (سوخانوف) : « كان الجمهور حولي في حالة إثارة شديدة » كان تروتسكي يطلب الى الحاضرين أن يرددوا خلفه عبارات قَسَم . « كان حشد غفير يرفع يده ، ويطلق تروتسكي جمله بقوة : « فليكن تصويتكم تعهداً لكامل ارادتكم ، ولكل مالديكم من قدرة على التضحية ، التعهد بدعم السوفييت الذي يضطلع بالعبء الثقيل ، عبء قيادة الثورة الى النصر ، وإعطاء الشعب الخبز والأرض والسلم » . ورفع الحشد الغفيريده ، فهوموافق . إنه يردد القَسَم . . . لقد أنهى تروتسكي مهمته . وصعد آخر إلى المنبر ، لكن لا حاجة للانتظار والنظر أكثر »[١٠٧] .

إن الطابع المسرحي لظهورات تروتسكي ونبل خطبه شبه الشعري قد ساهما ـ بمقدار ما ساهمت حيله الحربية ـ في تضليل القادة المعادين للبلشفية . فهؤلاء اعتادوا كثيراً على أسهم فصاحته النارية الباهرة ، بحيث لم يراودهم الشك في أن النار الآن نار حقيقية . كان يبدو تروتسكي لهم ـ ولغيرهم أيضاً ـ ثرثاراً جداً بحيث لا يمكن أن يكون قائد انتفاضة ظافرة . لكن في هذه الثورة ، كانت الكلمات ، الكلمات المثالية الكبرى أكثر فعالية من الفيالق أو الفرق ، وكانت الخطب الملهَمة ، تحقق الانتصارات التي تحققها معارك مخططة . وهي قد أعفت الثورة ، حتىٰ لحظة معينة ، من مهمة خوض أية معركة مخططة . كانت الثورة تتقدم في البدء بفضل قدرته الجبارة على الإقناع ، وبدا انها ركزت في رجل واحد أكبر قدر من تلك القدرة .

في ٢٣ تشرين الاول / اوكتوبر ، كان بين يدي اللجنة العسكرية الثورية خطة عمليات مفصلة ، بسيطة بقدر ما هي متصوَّرة بعناية . كانت تنص على الاحتلال السريع لكل النقاط الاستراتيجية في العاصمة ، بواسطة مفارز يجري اختيارها بدقة بالغة . وكان الارتباط بين قيادة المتنفضين العامة والحامية يعمل بشكل جيد ، بينما كانت الوحدات المختارة مستعدة للاجابة عند الاشارة الاولى . كان تفوق العناصر المصطفة خلف السوفييت ساحقاً بحيث حين استعرض اعضاء اللجنة العسكرية الثورية توزيع القوى للمرة الأخيرة ، لم يشكّوا في القدرة على قلب الحكومة بسهولة بالغة . لكن كان هناك موقع مهم واحد مشكوك فيه : قلعة بطرس وبولس ، على نهر النيفا ، التي قيل إن حاميتها قد تدعم كيرنسكي ، أو إنها ، على الأقل ، حائرة ومترددة . وقد أعد أنطونوف ـ أوفسينكو خطة هجوم على القلعة : كان ذلك هو الاشتباك الوحيد المتوقع . إلا أن تروتسكي قرر محاولة تحقيق النصر عن طريق الكلمات . وبعد ظهر ٢٣ الأول / اوكتوبر ، مضى في

---

(١٠٧) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٧ ، ٩١ .

إحدى الشاحنات ، يصحبه قائد غير بلشفي لحرس السوفييت ، متوجهاً إلى ما جرى اعتباره المعسكر المعادي . هناك خاطب حامية القلعة ونجح في إقناعها بأن تردد خلفه قسم الإخلاص للسوفييت [(١٠٨)] .

لم يكن ينتظر تروتسكي الآن اكثر من استفزاز من جانب كيرنسكي يسمح له بإظهار الانتفاضة كعملية دفاعية . وهو ما كان يشك في أن كيرنسكي سيضطر الى القيام باستفزازٍ ما ، فلقد دفعه هو ذاته بما فيه الكفاية ، في هذا الطريق[(١٠٩)] . وبالفعل ، حاول كيرنسكي ، في ٢٣ تشرين الأول/اوكتوبر ، ان يضرب ضربة ليخرج من الفراغ الذي كان معلقاً فيه هو وحكومته ، فحظر رابوشيي بوت (صوت الشغيلة) التي كانت تحمل منذ أيام تموز / يوليو عنواناً فرعياً هو البرافدا ، وأمر علاوة على ذلك بإغلاق مكاتب التحرير والمطبعة . وللحال مضت عاملة طباعة بصحبة زميل لها الى اللجنة العسكرية الثورية ، وقد ابديا استعدادهما لنزع الأختام الموضوعة على أبواب رابوتشيي بوت ، وإصدار الجريدة إذا تأمنت لهما حراسة عسكرية كافية . هذا الاقتراح ، الذي قدمته امرأةٌ مجهولة بالكثير من الحماس ، كان بالنسبة لتروتسكي نوعاً من الالهام . وقد كتب فيها بعد : « ان قطعة من الشمع المستخدم للختم الرسمي على باب قاعة التحرير البلشفية ليس شيئاً كثيراً ، في الحسابات العسكرية ، لكنها إشارة رائعة لبدء المعركة ! »[(١١٠)] . وللحال ، وقّع أمراً بإرسال مجموعة من حملة الكارابينات[(*)] وعدة مفارز من سلاح الهندسة لحراسة المكاتب البلشفية ومطبعتها ، وهو ما تم تنفيذه فوراً .

كانت تلك تجربة أولى ، تم تنفيذها فجر الرابع والعشرين من تشرين الأول / اوكتوبر . ولم يأت صباح اليوم التالي حتى كانت كل الصحف تنشر مقالات عن خطة كيرنسكي للقضاء على السوفييت والحزب البلشفي . أما اللجنة العسكرية الثورية فكانت تضبط التفاصيل الاخيرة للانتفاضة التي لم يعد يمكن دحرها في يوم واحد . وبسرعة

---

(١٠٨) بروليتارسكايا ريفولوتسيا ، العدد ١٠ ، ١٩٢٢؛ سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٧ ، ص ١١٣ .

(١٠٩) ما من شك مع ذلك في أن كيرنسكي طالما اعتبر السوفييتات اشياء مزعجة ينبغي التخلص منها ، وذلك حتى حين كان النفوذ البلشفي لا يزال ضعيفاً جداً داخل السوفييتات ، وفي الوقت الذي وصل فيه الى منصبه على اكتافها . وقد كتب السير جورج بوشانان في ٢٧ آذار / مارس (٩ نيسان / ابريل وفقاً للتقويم الجديد) ، في جريدته : « إن كيرنسكي ، الذي كان في حوار طويل معه بالأمس ، لا يؤيد تدابير صارمة ضد سوفييت الدعوة الاشتراكية في الجيش . وحين قلت له ان الحكومة لن تتمكن من التحكم بالوضع طالما تقبل بالدفاع عن منظمة منافسة ، اجابني بان السوفييت سيموت موتاً طبيعياً . . . » السير جورج بوشانان ، مهمتي في روسيا ، ج ٢ ، ص ٢ .

(١١٠) تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ، الجزء ٣ ، ص ٢٠٥ .

(*) الكارابين نوع من البنادق (م)

خاطفة ، تحول معهد سمولني ، الذي كانت تتم حراسته حتى ذلك الحين بإهمال مفعم باللامبالاة ، إلى قلعة حقيقية ، مدججة بالرشاشات والمدافع . وعند بزوغ الفجر ، اجتمعت لجنة الحزب المركزية للمرة الأخيرة قبل الأحداث الحاسمة . كان كل الاعضاء الموجودين في بتروغراد قد وصلوا ، باستثناء لينين وزينوفييف ، اللذين لم يكونا قد ظهرا بعد علانية ، وستالين الذي كان غائباً خلافاً للعادة(١١١) . أما كامينيف ، الذي كان قدم استقالته من اللجنة تعبيراً عن عدائه للانتفاضة ، فوضع نفسه في خدمة المتمردين منذ بداية العمليات ، وبرهن عن مبادرة مذهلة . فهو الذي اقترح ، بين ما اقترح ، ألا يغادر أي عضو من اعضاء اللجنة معهد سمولني طيلة النهار . وبمبادرة من تروتسكي ، أُعطي لكل واحد دور واضح في الاتصالات والتنظيم . كُلّف دزرجنسكي بالعلاقة مع مراكز البريد والبرق ، وبوبنوف بالعلاقة مع عمال سكة الحديد ، ونوجين ولوموف بالعلاقة مع موسكو . وكان على سفردلوف أن يراقب حركات الحكومة المؤقتة ، بينما اهتم ميليوتين بتموين المدينة . واهتم كامينيف وبرزين بكسب الاشتراكيين الثوريين اليساريين الذين انفصلوا عن حزبهم . وفي الاخير ، اقترح تروتسكي أنه في حال تم طرد البلاشفة من معهد سمولني ، يجري نقل القيادة العامة للانتفاضة الى قلعة بطرس وبولس التي كسب حاميتها قبل قليل لصالح القضية الثورية(١١٢) .

في غضون ذلك ، كان كيرنسكي يتكلم أمام البرلمان التمهيدي ويسمح لنفسه بتوجيه تهديدات فات أوانها . وقد أعلن أنه أمر بمطاردة كل اعضاء اللجنة العسكرية الثورية ، وبالبحث عن لينين وتوقيف تروتسكي ، وكل القادة البلاشفة المخلى سبيلهم بكفالة ، وأنه اتخذ تدابير ضد بحارة كرونشتادت(١١٣) . أما تروتسكي فدعا سوفييت بتروغراد لدورة استثنائية ونشر القرارات التي اتخذتها اللجنة العسكرية . وحتى حينذاك ، لم يعلن الانتفاضة :

« نحن لا نخشى الاضطلاع بمسؤولية حفظ النظام الثوري في المدينة . . . ويتلخص مبدأنا بشعار : كل السلطة للسوفييتات . . . وهذا المبدأ ينبغي ان ينتقل في

(١١١) بروتوكولي تسن كوم . ، ص ١٤١ ـ ١٤٣ .

(١١٢) اقترح كامينيف ان تتمركز القيادة العامة على متن الطراد « اورورا » هي ورجال الطراد والانشاءات اللاسلكية لإبقاء الاتصال .

(١١٣) كان الملحق العسكري البريطاني ، الميجور جنرال السير الفرد كنوكس على علم بذلك منذ المساء السابق . فنحن نقرأ في دفتر ملاحظاته : « قال لي باغراتوني ، اليوم ، ان كيرنسكي قرر توقيف تروتسكي واعضاء اللجنة العسكرية الثورية » . وقد سألت إذا كان ذلك ممكناً ، فأجابني باغراتوني بالايجاب . أما بـو دريبلوف فقال : « في وسعنا أن نقوم بهذه المجازفة » . مع الجيش الروسي ، ج ٢ ، ص ٧٠٥ .

الجلسات القادمة لمؤتمر السوفييتات لعموم روسيا إلى حيّز التنفيذ . وأن تؤدي هذه الإرادة الى الانتفاضة ، أو إلى أي شكل آخر من اشكال العمل ، إنما يتوقف على اولئك الذين ينوون الاحتفاظ بالسلطة ضاربين عرض الحائط بإرادة الشعب الاجماعية ، لا على السوفييتات وحسب ، بل هو يتوقف أقل على السوفييتات . ثم أشار الى حادثة **رابوتشيي بوت** وتساءل : هل هذه انتفاضة ؟ إن لدينا نصف ـ حكومة لا يوليها الشعب أية ثقة ، لأنها مشلولـة من الداخـل . هذه النصف ـ حكـومة لا تنتـظر غير أن يكنسهـا التاريخ . . . . » .

ثم أعلن أنه ألغى تدابير كيرنسكي ضد بحارة كرونشتادت وأمر الطراد **أورورا** بالبقاء في حالة تأهب على نهر النيفا :

« غداً يتم افتتاح مؤتمر السوفييتات . إن واجب الحامية والبروليتاريا يكمن في أن تضعا بتصرفها القوى التي جمعتاها ، القوى التي سيتحطم على صخرتها كل استفزاز حكومي . إن واجبنا هو تسليم تلك القوى للمؤتمر سليمة وغير منقوصة. وإذا غامرت حكومة الظل فقامت بأية محاولة للانبعاث من الرماد ، سوف تشن الجماهير الشعبية هجوماً مضاداً حاسماً . وإن حاولت الحكومة ان تستفيد من الأربع والعشرين ساعة ، أو الثماني والأربعين ساعة التي لا تزال بمتناولها ، من أجل طعن الثورة ، فسنعلن حينئذٍ أن طليعة هذه الثورة سترد على الهجوم بالهجوم ، وعلى الحديد بالفولاذ »[(١١٤)] .

وحين جاء وفد من لجنة المدينة يسأله عن نوايا السوفييت ، أجاب بشكل مبهم قائلاً : إن السوفييت يتهيأ لتنسيق مسألة الدفاع عن النظام الثوري مع لجنة المدينة المذكورة . ثم دعاها ، ليس من دون سخرية ، للمشاركة في اللجنة العسكرية الثورية .

وفي ساعة متأخرة من المساء ، دعت الهيئة التنفيذية المنشفية المركزية إلى اجتماع للمندوبين الذين وصلوا بهدف حضور المؤتمر . وللمرة الأخيرة ، تكلم دان باسم قيادة السوفييتات القديمة ، وحذر المندوبين من خطر اهراق الدم . قال : « إن الثورة المضادة لا تنتظر اكثر من شيء واحد ، هو أن يبدأ البلاشفة الفتن والمذابح . سيكون ذلك نهاية الثورة . إن الجماهير متعبة وقرفة ، وهي لا تشعر بأي تعاطف مع الثورة . . . ومن غير المقبول . . . ألا تخضع حامية بتروغراد لأوامر هيئة الاركان . . . إن شعار « كل السلطة للسوفييتات » يعني الموت . . . نحن لا نخاف من الحراب . . . وستجعل الهيئة التنفيذية

---

(١١٤) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ٥١ ـ ٥٣ .

القديمة من جسدها متراساً للثورة . . . . »[115] . ووسط الصخب والهزء ، وعد دان باجراء مفاوضات سلام وبتحقيق الاصلاح الزراعي ، مسلماً هكذا رغماً عنه بأن المطالب البلشفية لم تتوقف لحظة عن أن تكون عادلة (أعلن « ان روسيا لم تعد قادرة على مواصلة الحرب ») . وتعالت من القاعة صيحات : « لقد تأخرتم كثيراً ! » .

عند ذلك اعتلى تروتسكي المنصة ، يواكبه حماس جمعية هبت واقفة ، وهي تصفق تصفيقاً مدوّياً . كان وجهه الدقيق والحاد ، الموسوم بسخرية لاذعة ، يشبه وجه ميفيستو فيليس(*) :

« لقد أثبتت حجج دان أن الجماهير ـ هذه الجماهير الواسعة ، البلهاء ، اللامبالية ـ تشد إزره دون تحفظ ! » . (قهقهة شاملة) . ثم استدار نحو الرئيس وقال بلهجة درامية : « حين كنا نتحدث عن إعطاء الأرض للفلاحين ، لم تكونوا توافقوننا الرأي . أما نحن فقلنا للفلاحين : « إذا رفضوا إعطاءكم إياها ، خذوها بأنفسكم ! » وتبع الفلاحون نصيحتنا . والآن ، تجعلون من أنفسكم المدافعين عما فعلناه قبل ستة أشهر . . . وربما سيحين الوقت الذي سيقول لنا دان فيه ان زهرة الثورة شاركت في انتفاضة ايام تموز / يوليو . . . كلا . إن تاريخ الأشهر السبعة الاخيرة يثبت أن الجماهير تخلت عن المناشفة . . . يقول لكم دان إنه ليس من حقكم القيام بثورة . لكن الثورة هي الحق الأكثر دقة وحصراً لكل الثوريين ! والجماهير المضطهدة تمارس حقها حين تثور . . . واذا أبقيتم ثقتكم كاملة ، فلن تكون هناك حرب اهلية ، سوف يستسلم اعداؤنا فوراً وتأخذون المكانة التي تخصكم ، مكانة أسياد الأرض الروسية »[116] .

وقد انخدع دان بالطريقة التلميحية التي ظل تروتسكي يتكلم بها على الانتفاضة ، آملاً ، ربما أيضاً ، ألاّ يحصل البلاشفة على اكثرية المؤتمر ، فهرع يقول لكيرنسكي انه لن يقوم البلاشفة بـ « انقلاب » ويرجوه الامتناع عن أي عمل قمعي »[117] .

إلا أن الانتفاضة كانت قد بدأت مسيرتها ، ونشر تروتسكي أمره المشهور رقم واحد : « سوفييت بتروغراد في خطر . في الليلة الماضية ، حاول المتآمرون المعادون للثورة ان يستنفروا اليونكرز وأفواج الصدام داخل بتروغراد . لذا نأمركم بوضع فيلقكم على أهبة العمل . انتظروا الأوامر اللاحقة . كل تأخر أو تردد سوف يُعتبر خيانة للثورة » . وقد

(*) الشيطان في رائعة غوته « فاوست » . (م) .

(115) جون ريد ـ عشرة أيام هزت العالم ، ص ٥٨ ـ ٦٠ .

(116) Loc. cit

(117) كيرنسكي ، إيزداليكا ، ص ١٩٧ ـ ٩ ؛ صَلْب الحرية ، ص ٣٤٦ .

منحت اللهجة الحازمة المتمردين رباطة الجأش والثقة بالنفس . وفي ليل ٢٤ ـ ٢٥ تشرين الأول / أوكتوبر ، احتل الحراس الحمر وفيالق القوات النظامية ، بسرعة البرق وبصمت شبه تام ، قصر توريد ومكاتب البريد ومحطات سكة الحديد ، والمصرف القومي ، والمراكز الهاتفية ومحطات الكهرباء وكل النقاط الاستراتيجية الاخرى . وإذا كانت ثمة حاجة في شباط / فبراير لما يقارب الاسبوع من اجل إطاحة القيصرية ، فقد كفت ساعات قليلة لإطاحة حكومة كيرنسكي . ولم يأت صباح ٢٥ تشرين الأول / اوكتوبر حتى كان كيرنسكي يغادر العاصمة في سيارة سفارة أجنبية . كان وزراؤه ينتظرونه عبثاً في قصر الشتاء حين وجدوا انفسهم عند الظهر محاطين من كل جانب ، تماماً كما كانت الحال مع الحكومة القيصرية في نهاية ثورة شباط / فبراير . هكذا أصبح البلاشفة سادة العاصمة دون إهراق دم(١١٨) . وعندما حلت الظهيرة ، قدم تروتسكي تقريراً عن الأحداث الاخيرة أمام سوفييت بتروغراد المذهول والعاجز تقريباً عن التصديق : تم توقيف عدد من الوزراء ، وحل البرلمان التمهيدي ؛ الثائرون يشرفون على المدينة بكاملها ، والعدو لا يحتفظ بغير قصر الشتاء الذي يستعد انطونوف ـ أوفسينكو للاستيلاء عليه .

أما لينين الذي كان لا يزال متنكراً بعناية فوصل في مساء ٢٤ إلى معهد سمولني . كانت بعض مقالات الصحف التي تشير إلى مفاوضات ودية بين هيئة الاركان العامة واللجنة العسكرية الثورية قد أثارت حذره ، وكان لا يزال يخشى أن تتعرض الثورة للتخريب . وحين انتقل خفية من ضاحية فيبورغ حيث كان يختفي منذ عدة أيام إلى معهد سمولني ، لم يفهم أن المدينة التي كان يعبرها كانت عملياً تحت سلطة حزبه . وقد أمطر تروتسكي والقادة البلاشفة الآخرين بالأسئلة : هل كانوا حقاً على وشك عقد اتفاق مع هيئة الاركان العامة ؟ ولماذا كانت المدينة هادئة الى ذلك الحد (١١٩) ؟ . لكن حين سمع الاجوبة ، ولاحظ الرجال الذين كانوا يعملون بشكل محموم في قاعة اللجنة العسكرية الثورية ، ورأى التقارير تصل بلا انقطاع والأوامر تصدر ، وتأمل قادة الانتفاضة ، شبه منهكين ، غير حليقين ، قذرين ، واعينهم محمرة من قلة النوم ، استعاد ثقته وهدوءه ، وفهم أنهم اجتازوا من دونه نهر روبيكون ، واختفى حذره . وقد قال لهم ، شبه منخجل وكما لو كان يعتذر ، إن بأمكانهم قيادة الثورة على طريقتهم ، فالمهم أن تنجح .

---

(١١٨) احصى الميجور جنرال ، السير الفرد كنوكس ، الذي كان يراقب نجاح البلاشفة بعداء ، احصى « عشرة جرحى تقريباً » . مع الجيش الروسي ، ج ٢ ، ص ٧١١ .

(١١٩) بروليتارسكايا ريفولوتسيا ، العدد ١٠ ، ١٩٢٢

كان يتصرف كقائد اعلى . لما كان يشاهد من بعيد المعركة الحاسمة ويعرف أن لقائد العمليات أفكاراً مختلفة عن افكاره ، فقد كان يميل لتضخيم أهمية خلافاتها ويخاف أن تسوء الأمور إذا لم يتدخل بنفسه ؛ كان يتصرف كقائد أعلى يهرع إلى مكان المعركة فيها هي في ذروتها ، ويؤيد هناك التكتيك الذي يتبعه معاونه ويحيي نجاحه ، دون ابداء ادنى تأثر في كبريائه . ومع أن تروتسكي كان يتولى العملية ويقودها كلياً وفقاً لأفكاره الخاصة به ، فقد كان تأثير لينين عاملاً حاسماً في النجاح . كان تروتسكي قد كيّف اكثر من أي قائد آخر موقف الجمهور الواسع من العمال والجنود الذين كان يتوقف عليهم النصر النهائي ، إلا أن العناصر الفاعلة في الانتفاضة كانت تأتي من كوادر الحزب البلشفي وصفوفه ؛ وبالنسبة لهؤلاء ، كان لينين مؤسس الحزب وقائده الذي لا جدال فيه ، وقد ظل يمارس عليهم تأثيراً عظيماً ، حتى خلال تخفّيه . ومن دون تحريضه المتكرر والمستبسل ، من دون تحذيراته ، ربما ما كانوا تبعوا أوامر تروتسكي وتعليماته كما فعلوا . لقد جعلهم يسلمون بمبدأ الانتفاضة قبل أن يضعوا موضع التنفيذ خطة تروتسكي الانتفاضية . لكن لينين ظل متحفظاً حتى رأى الثورة تتقدم حقاً الى الأمام ، فتخلى عن تحفظه واعترف بتروتسكي كشريكه العملاق في تلك المبادرة العملاقة .

في مساء ٢٥ تشرين الأول / اوكتوبر ، استراح الرجلان قليلاً على أرض غرفة مظلمة وفارغة ، تحاذي قاعة سمولني الكبرى ، حيث كان مؤتمر السوفييتات على وشك الانعقاد . ففي الليلة السابقة ، كان تروتسكي قد أغمي عليه من التعب ، وكان الآن يسعى وراء القليل من النوم ، إلا أن النوم لا يقاربه . فالهاتف لا يتوقف عن الرنين في الغرفة المجاورة ، والمساعدون والرسل يقرعون الأبواب . وقد اشارت إحدى الرسائل إلى صعوبة تعيق الهجوم على قصر الشتاء ، فأمر تروتسكي الطراد أورورا ببدء العمل ، والرمي على القصر رمياً خُلَّباً ـ فذلك كافٍ لجعل الحكومة تستسلم . ثم عاد يتمدد على الأرض قرب لينين : كانت هناك لحظات عابرة من الرقاد ، لكن كذلك رسائل جديدة واجتماعات قصيرة على الأرض . بعد قليل ، كانوا سيدخلون الى القاعة الكبرى المضاءة ويواجهون مؤتمر السوفييتات . سيعلنون طبعاً ان المؤتمر هو مصدر السلطة الوحيد ، وأن الأرض للفلاحين ، وسيقدمون سلاماً فورياً لروسيا والعالم ؛ وغداً سيقدمون للعالم حكومة جديدة . بدا للينين أن من غير اللائق أن يتخذ هو ، أو أي من رفاقه ، الثوريين المحترفين ، لقب وزير . كانت ذكريات تاريخية ـ مصدرها الثورة الفرنسية الكبرى ، كما هي الحال دائماً ـ تطفو في رأس تروتسكي الذي يغالب النعاس ؛ وفجأة ومضت فكرة :

لماذا لا يأخذون اسم مفوضين ، مفوضي الشعب ـ مجلس مفوضي الشعب ؟[١٢٠] .

وافتُتح المؤتمر ، مصحوباً ، بدوي مدافع الأورورا وهي ترمي (رمياً خُلَّباً) على قصر الشتاء . كان البلاشفة يحوزون وحدهم اكثرية الثلثين تقريباً . فإذا أضيفت أصواتهم ، إلى أصوات الاشتراكيين الثوريين اليساريين ، كان ذلك يعني ثلاثة أرباع الأصوات تقريباً . وقد استقر على طاولة « البريزيديوم » الجديد أربعة عشر بلشفياً ، وسبعة اشتراكيين ثوريين ، وثلاثة مناشفة ، وممثل واحد لمجموعة غوركي . وللحال ارتفع صياح الاستنكارمن جانب الاحزاب المهزومة ضد الانتفاضة والاستيلاء على قصر الشتاء . وباسم مجموعة المناشفة الأكثر عداء ، تكلم خينتشوك ، سفير ستالين في برلين لاحقاً ، فأعلن أنه ، وأصدقاءه ، لن يشاركوا في المؤتمر . وبالفعل غادرت المجموعة القاعة وسط صيحات : « أيها الفارون ! اذهبوا الى كورنيلوف ! » إلا أن المناشفة الوسطيين واليساريين ظلوا في أمكنتهم وطلبوا تشكيل حكومة ائتلاف تضم البلاشفة والمناشفة والاشتراكيين الثوريين . وقد رفض البلاشفة هذا الطلب ، فأعلنت المجموعتان بدورهما مقاطعة المؤتمر وقراراته . وحين رآهما تروتسكي تخرجان ، بقيادة مارتوف وآبراموفيتش ، ربما استعاد في ذاكرته تلك اللحظة من مؤتمر الحزب الثاني ، عام ١٩٠٣ ، حين قرر مارتوف مقاطعة اللجنة المركزية البلشفية . كان تروتسكي ذاته ، يومذاك ، بين « المقاطعين » . كم كان ذانك المشهدان متماثلين ، بمعنى ما : كان القادة هم ذاتهم ، « المائعون » والـ « متصلبون » : كانت معظم مآخذ عام ١٩٠٣ تتكرر في التصريح الذي أدلى به مارتوف للتو : حتى الكلمات ذاتها ـ « تآمر » ، « اغتصاب » ، « حالة طوارىء » . لكن كم كان الفرق عظيماً على مستوى الرهان وفي حدة الصراع ! وأي فرق في موقعه هو بوجه خاص ، بعد كل سنوات التعرجات والتشرد تلك ، التي خرج منها في الاخير ليعود الى لينين !

حين نهض تروتسكي للرد على مارتوف الذي كان لا يزال يواجهه على المنصة ، لم يتمكن من أن يجد في نفسه الهدوء ، أو الشفقة ، أو حتى الرأفة حيال المهزوم ـ لم يجد غير الصرامة والنقمة وغيظاً يخالطه الاحتقار . بدأ قائلاً : « ليست انتفاضة الجماهير الشعبية بحاجة للتبرير ، وما تم ليس تآمراً بل ثورة . لقد استثرنا الطاقة الثورية لدى عمال بتروغراد وجنودها ، وأعددنا إرادة الجماهير بشكل مكشوف بهدف انتفاضة لا بهدف مؤامرة . . . » وقد كان على حق من الناحية السياسية ، مع ان الانتفاضة قيدت من الناحية العسكرية كمؤامرة في الواقع ، وهو أمر لم يكن يمكن ان يتم إلا بتلك الطريقة في كل حال . ثم أضاف : « لقد انتصرت ثورتنا . لكن هؤلاء الناس يقولون لنا الآن : تخلوا

(١٢٠) اقترح تروتسكي هذه التسمية في الغداة أثناء دورة اللجنة المركزية، حياتي ، ج ٢ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ؛ ٥٩ ـ ٦٠ .

عن نصركم ، اخضعوا ، اقبلوا بمساومة . مع من ؟ أسألكم مع من علينا أن نقوم بهذه المساومة ؟ مع هذه المجموعة الصغيرة البائسة التي خرجت قبل قليل أو من يعرضون تلك المساومة ؟ لكننا حددنا قيمتهم الحقيقية . لم يعد ثمة أحد في روسيا يتبعهم ، ومع ذلك على ملايين العمال والفلاحين أن يعقدوا اتفاقاً معهم على قدم المساواة ؟ . . . . أنتم افراد بائسون ، معزولون . لقد أفلستم وانتهى دوركم . اذهبوا إذاً ، إلى المكان الذي يليق بكم : إلى مزابل التاريخ ! » هذه الـ vae victis! (*) وصلت الى اذني مارتوف وصحبه فيما كانوا يشقون طريقاً للخروج ، عبر الصفوف المزدحمة للعمال والجنود الذين كانوا يرمون في وجوههم كل جرائم الحكومة المؤقتة ، جوع الشعب وبرده ، الهجمات الدامية والتي لا طائل تحتها ، أيام تموز / يوليو وإلقاء الحُرْم على البلاشفة ورغبة الفلاحين التي لا تقاوَم بامتلاك الأرض . لقد انفجر انفعال المنتصرين ، الذي احتُبس طويلاً .

كانت نيميزيس(*) تتقدم خلسة في قاعات سمولني . لم تكن فعلت بعد غير بدء عملها .

لم يحدث في التاريخ أن قدمت مجموعة من الرجال ، فيما تستولي على السلطة ، تعهدات بتلك الضخامة ، وبذلك الوزن ، اللذين اتصفت بهما تعهدات القادة البلشفيين حين قرأوا في المؤتمر مراسيمهم الاولى والمكتوبة بسرعة . لقد وعدوا الشعب بالسلم والأرض والخبز . وكانت المسافة عظيمة بين الوعد والتحقيق ، فالسلم يجب ان يكون عادلاً ، وديمقراطياً ، يستبعد أي ضم أو تعويضات ، ويرفض أي إذلال أو إهانات يوجهها المنتصرون إلى المهزومين . كان لينين وتروتسكي قد قالا - وكررا - أنه لا يمكن انتظار سلام من هذا النوع من حكومات استبدادية أو حتى من ديمقراطيات بورجوازية ، وأنه ينبغي من أجل بلوغ ذلك أن تقوم ثورات بروليتارية في البلدان المتحاربة . إلا أن جيوش آل هوهنزلرن وآل هابسبورغ كانت تعسكر على الأراضي المقتطعة من الامبراطورية الروسية ؛ وطالما لم تكنس اباطرتها وحكامها ، طالما لم تندد بمطامعهم الجشعة ، سيجد البلاشفة أنفسهم مجبرين ، بمعنى ما ، على شن الحرب ، الحرب الثورية من اجل سلام عادل . لكنهم تعهدوا أيضاً - وحتى بصورة أعمق في الذهن الشعبي - بعقد سلم فوري لم يكن يمكن ان يكون عادلاً ، ولا ديمقراطياً . كان ذلك هو مأزقهم الأول . أما حله فسيمليه عليهم إنهاك الجنود - الفلاحين الذين كانوا مستعجلين

(*) باللاتينية في النص ، ومعناها « الويل للمهزوم » (م) .
(*) الهة الانتقام عند اليونان (م) .

للتخلي عن بنادقهم من أجل المحاريث ، لا سيما أن كل الأرض القابلة للحراثة اصبحت ملكهم في الاخير . إلا أن السلم سريع العطب المعقود بضغط منهم لن يخلص روسيا من التجربة الطويلة المتمثلة بالتدخل الأجنبي والحرب الأهلية .

وزع البلاشفة الارض بين الفلاحين ، أو بالأحرى صادقوا على التوزيع الذي تولاه الفلاحون أنفسهم . وما من بلدٍ كبير يمكنه أن يحقق ثورة زراعية بتلك السرعة وذلك الاتساع من دون أن يتزعزع اقتصاده بسببها ويضعف ، مؤقتاً على الأقل . كانت الروابط بين المدينة والريف قد تراخت ، أو حتى تحطمت ؛ وكانت الدوائر التجارية القديمة تضيق وتنسدّ . والطريقة القديمة في إدارة الجسم السياسي ، وهي طريقة بالية وغير ملائمة ، لكنها تتميز على الأقل بالعمل من تلقاء ذاتها ، وبكونها فعالة على طريقتها ، غدت مستحيلة . فضمن الظروف الأكثر ملاءمة ، وحتى من دون حرب اهلية ، كان يلزم قدرمن الوقت لخلق روابط جديدة ودورات جديدة وطريقة جديدة لادارة حياة الأمة . وقبل الوصول إلى هنا ، تعرضت دورة بدائية ، كتلك التي تتعلق بتسيير التموين من الريف باتجاه المدينة ، تعرضت لاختلال التنظيم . والخبز والأرض ، هاتان الضرورتان لم تكونا تنسجمان تماماً : فبعد تجزئة الملكيات الكبرى ، لم يزدد الخبز المتوفر لعمال المدن ، بل نقص، على العكس. وبالنسبة للفلاحين ، كانت الثورة الزراعية في البدء مسألة رابحة ، فهي لم تكن تقدم لهم الأرض وحسب ، بل كانت تريحهم كذلك من ثقل العبودية ومن اتاوات النظا م القديم . لكن الافاق كانت أقل ملاءمة بالنسبة لمجمل الأمة . إن روسيا الريفية كانت قد تقسمت إلى ٢٥ مليون ملكية صغيرة ، معظمها صغير جداً ويتم استثماره بوسائل بدائية جداً . وهذا كان يعني مع طول الزمن الركود الاقتصادي والاجتماعي ، وهو ما كان يعرفه البلاشفة . كانوا مضطرين لأن يشجعوا تقسيم الأراضي ، ثم يصادقوا على ذلك التقسيم ، لأنه كان افضل من نظام المزارعة نصف الاقطاعي القديم ، ولأنه لولا ذلك لتعرضوا لمصير سابقيهم في الحكم . لكنهم كانوا عازمين منذ البدء على التوجه نحو الملكية الجماعية للأرض ، وإعادة تجميع الـ ٢٥ مليون ملكية صغيرة وتذويبها في عدد محدود نسبياً من المزارع الكبرى الحديثة والفعالة . وما كان في وسعهم أن يقولوا متى سيتمكنون من تحقيق مشروعهم وكيف ، وبأية وسائل صناعية . كانوا يعرفون فقط أنهم انخرطوا في عملية معقدة ومتناقضة وخطيرة : لقد قاموا بثورة زراعية وهم مصممون بحزم على أن ينقضوها بطريقة أو بأخرى .

إن شعار « الخبز » للعمال وابناء المدن عموماً يعني تنمية الصناعة وتطويرها . وبالنسبة للعامل الروسي في عام ١٩١٧ كان يعني ذلك أيضاً إزالة الرقابة الخاصة والملكية

الخاصة في الصناعة . إن تأميم الملكية (وتدويلها INTERNATIONALISATION في الاخير) ،وفكرة تخطيط مركزي للانتاج والتوزيع ،كانا في قلب مفهوم الاشتراكية النظري ، الذي انطبع به قادة الثورة منذ نعومة اظفارهم . وكانت الصناعة الروسية ، كما وجدها البلاشفة ، فقيرة جداً وقليلة التطور جداً بحيث لا تصلح قاعدة للاشتراكية ، حتى لو لم نأخذ بالحسبان التدميرات اللاحقة الناجمة عن الحرب الأهلية . لم تكن تقدم غير نقطة انطلاق لتطور نحو الاشتراكية . ومع ان البلاشفة نادوا بتوجه ثورتهم الاشتراكي ، فقد كان يصعب عليهم ان يسمحوا لأنفسهم بوضع الصناعة الروسية فوراً تحت إشراف الدولة . فهم لم يكونوا حائزين على الموارد ، ولا على المنظمين ، ولا على التقنيين ، ولا على التقنيات الضرورية . وكانوا يأملون أن يتمكنوا من العثور على حل للمشكلة ، عن طريق التلمس والاستقصاء ، وكانوا في البداية غير مستعدين لمصادرة ملكيات الصناعيين والتجار بقدر ما كانوا متعجلين لمصادرة ملكيات اصحاب الأرض .

لكن خلال عام ١٩١٧ ، قام في المنشآت بصورة عفوية وضع أصبح معه مالكو المصانع منزوعي الملكية بشكل اكثر من نصفي . فكما أن لجان الجنود المنتخبة في الثكنات انتزعت من الضباط كل سلطة وكل وظيفة ، حتى قبل انتزاع كتفياتهم(*) منهم ، كذلك قامت لجان العمال المنتخبة في المصانع والمناجم بانتزاع معظم حقوق المالكين والمدراء أو امتيازاتهم منهم ، قبل مصادرة ملكياتهم أو صرفهم . إن ازدواجية السلطة التي طبعت نظام الحكم في روسيا من شباط / فبراير الى تشرين الأول / اوكتوبر انعكست كذلك على الصناعة حتى بعد تشرين الاول / اوكتوبر . كانت الغريزة الشعبية من النوع الفوضوي أو الاشتراكي . وكان الشعب يتجه إلى تحطيم تماسك الصناعة القومي ، هذا التماسك الذي لا يمكن بـدونه أن يكون هنالك تقدم نحو الاشتراكية ، وكان هذا التوجه عائداً في جانب منه إلى ميل طبيعي ، وفي جانب آخر إلى الفوضى السائدة آنذاك . كانت كل لجنة مصنع تنزع إلى أن تصبح جماعة مغلقة تسن قانونها بذاتها . وهكذا لم يكن الرأسماليون وحدهم مهددين ، بالحرمان من مواردهم الصناعية بل كذلك الأمة بأسرها .

هذا الوضع ضغط على البلاشفة ، إن الحكومة الثورية التي استولت على السلطة باسم الطبقة العاملة كانت عاجزة عن إعادة سلطة الصناعيين القدامى حتى لو ارادت ذلك لأسباب اقتصادية . ولقد اضطرت لوضع حد لهذه السلطة المزدوجة في المصانع كما فعلت ذلك في أمكنة اخرى ، أي عن طريق تدمير السلطة القديمة . وفقط بعد ذاك ، ستتمكن

(*) نسيج مقصب على كتف الضباط (م) .

من بذل جهد للانتصار على النزعات نابذة المركز في الاقتصاد القومي . أما البورجوازية ، منزوعة الملكية نصفياً ، والعارفة أنه ليس في وسعها أن تنتظر أي شيء يناسبها من جانب الثورة ، فعملت على الدفاع عن نفسها بالوسيلتين الوحيدتين اللتين في متناولها مباشرة : المقاومة الاقتصادية والتخريب ، وقد كان هذا الموقف سبباً آخر لدى البلاشفة لإكمال المصادرات بسرعة . وحين تحول الصراع الاقتصادي والسياسي الى حرب أهلية ، ادت هذه النزعات الى التأميم الفظ والمبكر لكل الصناعة ، الذي صدر بمرسوم في حزيران / يونيو ١٩١٨ . كانت الثورة دائمة ، وفقاً لتوقعات الشخصية الرئيسية في هذا الكتاب . لقد عوّل تروتسكي على هذا الطابع ، بشكل اكثر حزماً مما فعل البلاشفة الآخرون . لكن كان يعني ذلك ، على صعيد الوقائع ، أنه كان على الثورة الروسية ، منذ البدء ، ان تبني على أسس اقتصادية هزيلة للغاية . أما نتيجة ذلك فكانت التالية : خلال سنوات ، سينهار جزء من البناء تارة ، والجزء الآخر طوراً على رأس الشعب الروسي أو يجري إسقاطه فجأة .

إلا أن البلاشفة كانوا يعتقدون بقدرتهم على الوفاء بوعودهم الثلاثة الكبيرة والبسيطة : السلم ، والأرض ، والخبز ، تلك الوعود التي يدينون لها بانتصارهم . وكانوا يعتقدون حازمين بأن الشعوب الاوروبية النازفة والممزقة سرعان ما ستتبع المثال الروسي وتساعد الثورة على حل مشكلاتها الصعبة . وستدخل روسيا إذّاك في الجماعة الاشتراكية العالمية ، وستعوض الثروة والحضارة الغربيتان هكذا الفقر والتخلف الروسيين ، مثلما سيوازن ملايين البروليتاريين المستنيرين في فرنسا والمانيا ، وربما في انكلترا ، ايضاً ، ملايين الموجيك الباقين في ليل الجهالة ، هذا إذا لم يتجاوزوهم . لقد فتحت روسيا للغرب طريق الثورة الاشتراكية ؛ أما الغرب فسيشد روسيا الآن على تلك الطريق ، ويساعدها على بلوغ خيرات الحضارة الحقيقية . ما من جملة لدى البلاشفة لا تنضح منها هذه القناعة المحمومة ، شبه المسّيانية (*) . كان الألق الباهر لتلك الرؤ يا يضيء أمام اعينهم حتى أكثر وجوه الإرث الذي وقع بين ايديهم قتامةً .

كان أمل مماثل يحر ك مفاهيمهم على صعيد الحكم . فلقد تخيلوا دولة من دون جيش دائم ، أو شرطة ، أو بيروقراطية . للمرة الاولى في التاريخ ، كان على الوظيفة الحكومية ان تتوقف عن ان تكون السر المهني والامتياز الخاصين بجماعات ضيقة ، ترتفع فوق المجتمع ، لتصبح العمل اليومي للمواطن العادي . فبعد أيام تموز / يوليو ، حين

(*) نسبة إلى المسّي Messie أو المسيح (م) .

كانت تجري مطاردة لينين كجاسوس الماني ، وحين كـان ينتظر في كل لحظة أن يتم اغتياله ، كتب **الدولة والثورة** ، وهو نوع من الوصية السياسية حيث يستعيد الفكرة الماركسية ، نصف المنسية ، حول زوال الدولة ، فكرة حكومة تتوقف في مجتمع خالٍ من الطبقات عن ان تكون حكومة ، لأنها ستدير « الاشياء » بدل أن تحكم الناس وتتخلى هكذا عن كل ادوات القمع (سجون ، محاكم ، الخ .) . وبالطبع ، كانت تلك دولة المستقبل المثالية ، لا الدولة الروسية في عام ١٩١٧ . إلا أن جمهورية السوفييتات ، كما كانت تطفو فوق امواج الثورة ، كانت « على اتصال » مباشر بهذا المثل الاعلى . وكان لتروتسكي تصور عن الدولة أقل دقة من تصور لينين ، إلا أن هذا لم يمنعه من تبنيه مذ اصبح مألوفاً لديه . أما افكارهما حول تنظيم الجمهورية السوفييتية، التي كانت لها نتائج اكثر مباشرة ، فلم تكن تعبر عن أي خلاف فيها بينهما .

لم تكن الطبقات المالكة ممثلة في السوفييتات : لقد تم حرمانها من حقوقها المدنية ، كما يحدث في كل ثورة ، بالنسبة للطبقات الحاكمة القديمة . (وهو ما لا يستتبع بالضرورة حرمانها ايضاً من حرية التعبير) . كانت السوفييتات ستجمع بين يديها السلطتين التنفيذية والتشريعية ، بينما تكون الحكومة مسؤولة أمامها . وكان من حق الناخبين أن يُقصوا نوابهم ويستبدلوهم بآخرين في أية لحظة ، لا خلال الفترات الانتخابية وحسب؛ وكان بإمكان السوفييتات ، في أية لحظة ، أن تقيل الحكومة عن طريق سحب الثقة بها . وكان وجود معارضة ومواصلة الجدال السياسي بين الاحزاب الممثلة في السوفييتات أمرين مضمونين ، ولم يكن قد تبادر بعد إلى ذهن أحد أن الحزب القائد سيكون مخولاً وحده تكوين الرأي العام . وبالطبع كان ينبغي ان تكون الجمهورية السوفياتية « ديكتاتورية للبروليتاريا » ، ـ وهو ما يعني رجحان الطبقة العاملة السياسي والاجتماعي ؛ الا ان اشكال هذا الرجحان العملية لم تكن محددة سلفاً . كان من عادة البلاشفة ، كما الاشتراكيين من الاتجاهات الأخرى ، ان يصفوا الديمقراطيات البرلمانية الغربية كـ « ديكتاتوريات بورجوازية » ، ـ وهذا لا يعني انها كانت محكومة حقاً بطريقة ديكتاتورية ، لكنـها كانت تضمن رجحان البورجوازية الاجتماعي . أما نظام حكم البلاشفة ، فقد وصفه هؤلاء في البدء كديكتاتورية بهذا المعنى الواسع ، مقدرين بكل صدق ان جمهورية السوفييتات ، إذا قورنت بالديمقراطيات البورجوازية ، تضمن حرية اكبر ـ لا أقل ـ للغالبية العظمى من ابناء الأمة ؛ حرية اكبر ، ايضاً ، على صعيدي التعبير والتجمع .

لم تكن الديمقراطية العامية للسوفييتات تعتبر نفسها في البدء دولة أحادية الاتجاه أو كليانية ، إذ كان قادتها مقتنعين بأن جمهور الشعب الروسي يقاسمهم تطلعاتهم . ظلوا

يتساءلون مدة طويلة من الزمن ما الذي يمكن أن يفعلوه اذا ظهر أن هذه الرؤية المتفائلة خاطئة . كانوا يعتبرون من البديهي أن يحكم عليهم بالموت والزوال ، هم وحزبهم وثورتهم ، لو حدث أن أصبحوا في صراع مع غالبية الأمة ، وأن لا يبقى لهم إلا أن يضمحلوا بشرف . لكن هذا الخطر لم يكن يبدو لهم في عام ١٩١٧ أكثر واقعية ، من خطر كارثة كونية .

كيف كان الشعب الروسي ينظر الى البلاشفة ، وأهدافهم ؟ إن حفنة قليلة شاركت لوحدها ، مباشرة ، في ثورة اوكتوبر ، حفنة لا تتعدى « ٢٥ أو ٣٠ ألفاً في حدها الأعلى » ، وفقاً لما أورده تروتسكي[١٢١] . وبهذا المعنى ، كانت الثورة عمل أقلية ضئيلة ، بعكس ثورة شباط / فبراير ، التي شهدت طاقة الجماهير العظيمة ، الفيّاضة والعفوية ، تكنس الملكية . لكن خلال الخمسة عشر يوماً التي سبقت انتفاضة تشرين الاول / اوكتوبر ، شارك في بتروغراد وحدها « مئات آلاف العمال والجنود في عمل دفاعي من حيث الشكل ، هجومي من حيث الجوهر »[١٢٢] . وسهّل عدد اكبر ايضاً انتصار البلاشفة بتعاطفه العملي والسلبي ؛ وكثيرون آخرون بتبنيهم كل انواع الحياد الممكنة . وكان مؤتمر السوفييتات الثاني يمثل حوالى عشرين مليون ناخب ، وربما أقل من هذا العدد بقليل . وقد صوتت غالبيتهم الكبرى لصالح البلاشفة . وخلال انتخابات الجمعية التأسيسية بالذات ، التي تمت بعد الثورة ، اقترع ما يقرب من عشرة ملايين لصالح البلاشفة ، وحدهم ، بمعزل عن حلفائهم الاشتراكيين الثوريين اليساريين . هؤلاء العشرة ملايين كانوا يضمون جمهور الطبقة العاملة المدينية ، والعناصر المبلترة من الفلاحين وجزءاً مهماً جداً من الجيش ، ـ باختصار ، العناصر الأكثر دينامية بين السكان : كان مستقبل الثورة يتوقف على استمرار دعمهم . إلا أن الجسم الانتخابي المتمثل في الجمعية التأسيسية كان أكبر بمرتين تقريباً ـ من ذلك الذي كان يتمثل في السوفييتات ؛ وفي الانتخابات إلى الجمعية ، لم يحصل البلاشفة على أكثر من أقلية مهمة من الأصوات .

كانت روسيا الريفية ، الواسعة ، والأمية ، والتي تغلي تمردا وروح انتقام ، تسيء فهم النزاعات المعقدة بين الاحزاب المدينية . هذه الروسيا ، من العبث محاولة إعطاء وصف واضح لموقفها : كانت مرتبكة ، ومتبدلة ، ومتناقضة ، ولا يمكن أن يحدد طابعها أفضل من هذا المشهد الذي وصفه المؤرخون . ففي إحدى المقاطعات الريفية ، اختتمت مجموعة مهمة من الفلاحين لقاء جماهيرياً بقسم احتفالي : لن ينتظروا الثورة الزراعية زمناً

(١٢١) تروتسكي ، تاريخ الثورة الروسية ، ج ٣ ، ص ٢٩٠ .

(١٢٢) Loc. cit

أطول ؛ سيستولون حالاً على الاراضي ويطردون السادة ؛ وسيناصبون ألد العداء كل من يحاول أن يقنعهم بعكس ذلك . وهم يقسمون بألا يجدوا الراحة طالما لا تعقد الحكومة صلحاً فورياً ، وتسرّح ابناءهم ـ وطالما لا يكون « هذا الجاسوس الألماني المجـرم » المدعو لينين تلقى عقاباً نموذجياً . هكذا فلاحون صوتوا دون أدنى شك خلال الانتخابات الى الجمعية التأسيسية لصالح اشتراكي ثوري : وذلك لأنهم كانوا ينسبون للاشتراكيين الثوريين ـ الذين يمدون جذورهم في الأرياف ـ النية الحازمة لتنفيذ البرنامج الذي كان البلاشفة ، وحدهم ، مصممين على وضعه حقاً موضع التنفيذ . ولهذا السبب كان كل من الحزبين ، وهما التشكيلتان اليساريتان الكبريان الوحيدتان الباقيتان بعد هزيمة الكاديت والمناشفة ، يستطيع أن يدعي بأنه يحظى بدعم الفلاحين ، وذلك ليس من دون سبب . كان الاشتراكيون الثوريون يقولون وهم يشعرون بالرضى : « ألا يكره الفلاحون لينين ، الجاسوس الالماني ؟ » فيجيب البلاشفة بلهجة الظفر : « لكن ألا يعتبرون أعداءهم الألداء اولئك الذين يؤجلون ، على غراركم ، مصادرة املاك السادة ويطيلون أمد الحرب ؟ » .

إذا كان ذلك القدر من الفلاحين يكره البلاشفة ، فلأن هؤلاء كانوا اعداء المُلكية المعلنين . لكن هذه الفكرة اختفت الى حد بعيد مذ ظهر البلاشفة كالحزب القائد ، واعلنوا نهاية الحرب ، وكفلوا قسمة الأراضي أو نظموها . وخلال الحرب الأهلية ، اكتشف الفلاحون ان وجود الجيش الاحمر وحده كان يحول دون عودة ملاكي الاراضي . هكذا حصل البلاشفة على دعم الغالبية الساحقة من الأمة ، كالخصوم الفعالين الوحيدين لعودة النظام السابق ، وكالمدافعين عن الثورة الزراعية . إلا أن هذا الدعم ، في الريف ، بقي حذراً في الغالب ، وتحول إلى عكس ذلك ، مذ توقف خطر عودة الأسياد عن إقلاق النفوس ، وبدأ الفدائيون البلاشفة ينقبون القرى بحثاً عن المؤن . وحتى في ذروة شعبية البلاشفة ، لم تتبن غير البروليتاريا المدينية الأقلية قضية الثورة من دون تحفظ . هذه الأقلية هي التي كان البلاشفة يستنجدون بها لدى كل صعوبة . وهي التي كانوا يعلّمونها مُثلهم العليا . ومن صفوفها اختاروا الاداريين الجدد ، والقادة العسكريين والسياسيين الجدد .

إن الطبقة العاملة الروسية لعام ١٩١٧ كانت إحدى معجزات التاريخ . فإذا كانت ضعيفة عددياً ، وشابة ، ولا خبرة لديها ولا ثقافة ، فقد كانت تشتعل حماساً سياسياً ، وشهامة ، ومثالية ، وصفات بطولية خارقة . لقد تسنى لها أن تبني احلاماً مستقبلية عظيمة ، وأن تموت ميتة رواقية في ساحات المعارك . كانت نصف أمية ، ومع ذلك فقد اعتنقت فكرة جمهورية الفلاسفة ، لا بنسختها الافلاطونية ، حيث تحكم القطيع

أوليغارشية من النبلاء ، بل على اساس جمهورية غنية وحكيمة بما فيه الكفاية لتجعل من كل مواطن فيلسوفاً وشغّيلاً . كانت الطبقة العاملة الروسية تنهض من عمق بؤسها لتبني تلك الجمهورية .

لكن ، إلى جانب الحالم والبطل ، كان في كل عامل روسي عبد أيضاً ؛ العبد الكسول ، الشحيح ، المجدف ، المدموغ بندوب ماضية . وكان قادة الثورة يتوجهون إلى الحالم والبطل ، لكن العبد كان يذكرهم بحضوره بفظاظة . هكذا خلال الحرب الاهلية ، وبعدها أيضاً ، كان تروتسكي يتأسف دائماً في خطبه العسكرية أن يكون الشيوعي الروسي والجندي في الجيش الأحمر اكثر استعداداً للتضحية بحياته في سبيل القضية الثورية مما لتنظيف بندقيته أو تلميع حذائه . هذه المفارقة كانت تعبر لدى الشعب الروسي عن غياب تلك العادات الصغيرة التي لا تحصى الخاصة بالانضباط الذاتي ، التي تتكون منها الحياة المتمدنة ، والتي أملت الاشتراكية أن تبني صرحها فوقها . تلك كانت المواد البشرية التي بادر البلاشفة على اساسها لبناء دولتهم الجديدة ، تلك الديمقراطية البروليتارية حيث كل طباخ سيكون قادراً فيها على الحكم . ومن بين كل التناقضات الخطيرة التي كان على الثورة ان تواجهها ، ربما كان هذا التناقض هو الأكثر إثارة للقلق .

لقد اطلق التاريخ تحذيره الأول الى القادة البلاشفة ، للحال تقريباً بعد أن كافأهم ببسمته الأكثر روعة ؛ وقد فعل ذلك بالذوق الخبيث الذي يبديه في الغالب تجاه العلامات الموسيقية المزيفة . إن التتمة الهزلية لانتفاضة اوكتوبر ، وهي تتمة نادراً ما تثير انتباه المؤرخين ، كانت عربدة ضخمة ، وسكْراً جماعياً ، بدائياً ، احتفل المضطَهَد عبره بانتصاره . ودامت العربدة عدة اسابيع ، مهددة في لحظة ما بإيقاف سفينة الثورة وبشلها . ولقد بلغت ذروتها في اللحظة ذاتها التي اصطدمت فيها الحكومة الجديدة بمقاطعة الادارة بكاملها وبأولى اضطرابات الحرب الأهلية ، في حين لم تكن تلك الحكومة تستحوذ على أي جهاز إداري ، وكان قدرها يرتكز كلياً على احتراس انصارها ويقظتهم وانضباطهم ، وطاقتهم . وقد لعبت العربدة كذلك دوراً في الأحداث التي سبقت مباشرة صلح بريست ـ ليتوفسك ، لأن قسماً كبيراً من الجيش الروسي القديم انعدم فيها كلياً . والمصادر المعاصرة تستفيض في وصف اعياد الخلاعة الغريبة تلك . وإحدى الروايات الأكثر إذهالاً واردة في مذكرات انطونوف ـ اوفسينكو الذي كان يومذاك مفوضاً ثانياً في الجيش وقائداً لحامية بتروغراد :

« إن الحامية التي كانت تتفكك كلياً ، أثارت لديّ شخصياً هموماً اكثر بكثير من تلك

التي تسبب بها أنصار الجمعية التأسيسية . . . . فلقد تدفقت على بتروغراد عربدة وحشية ولا مثيل لها ؛ ولم يكن أصبح ممكناً أن نتثبت إلى هذا الحد أو ذاك مما إذا كانت نتيجة استفزاز خفي أو لم تكن . هنا وهناك ، كانت تظهر زمر من الناس الهائجين ، وعموماً من الجنود ، فتكتسح الأقبية وبيوت المؤن ، وتذهب احياناً الى حد نهب المقاهي . اما الجنود النادرون الذين ظلوا منضبطين فكانوا ينهكون أنفسهم ، مثل الحراس الحمر ، في مهام المراقبة . ولم يكن للنصح والارشاد اية نتيجة .

« وقد شكلت أقبية قصر الشتاء (مقام القيصر سابقاً) المشكلة الأكثر إزعاجاً . . . ففيلق بريو براجنسكي الذي احتفظ بانضباطه حتى ذلك الحين ، سكر كلياً حين كان في حراسة القصر . ولم يقاوم فيلق بافلوفسكي ، درعنا الثوري ، التجربة وقتاً أطول . جرى إرسال حراس من أصول مختلفة ، اختيروا من وحدات متنوعة ، فسكروا هم أيضاً . عندئذٍ تم تكليف اعضاء اللجان (لجان الفيلق : أي قادة الحامية الثوريين) ليتولوا الحراسة ، فوقعوا هم أيضاً في التجربة . وصدرت الأوامر الى جنود المفارز المدرعة كي يفرقوا الجمهور ، فتبختروا قليلاً في كل اتجاه ، ثم بدأوا يترنحون بشكل خطير .

« عند الغسق ، كانت المَفْسَقَة المجنونة في أوجها . « فلنقضِ على آثار القيصرية هذه ! » كان هذا الشعار المرح يشيع بين الجمهور . وقد حاولنا إيقافه عن طريق سد الابواب ، فدخل عبر النوافذ ، واقتلع القضبان واستولى على المخزونات . وأردنا إمطار الأقبية بسهام حارقة ، فسكرت مفارز الاطفائيين كالآخرين .

« ولم ينجح غير بحارة هلسنغفورز في التغلب على أقبية قصر الشتاء . وكان ذلك ، في نوعه ، صراعاً جباراً . إلا أن البحارة صمدوا ، لأنهم كانوا مرتبطين بنذر صارم : « الموت لمن يخون قسَمَه » ؛ ومع أنهم كانوا في مناسبات أخرى سِكيِّرين بامتياز ، إلا أنهم خرجوا من هذه العقبة وراياتهم مرفوعة .

« بيد أن المعركة لم تنته ، فالمدينة بأسرها وصل اليها جنون الشرب . في الاخير ، عيّن مجلس مفوضي الشعب مفوضاً خاصاً ، مزوداً بسلطات استثنائية ، وبحراسة قوية . إلا أن المفوض ، هو ايضاً ، بدا عرضة للخطأ . . . وقد جرى صراع شديد في جزيرة فاسيليفسكي . أعلن الفيلق الفنلندي ، الذي كان قادته يميلون الى الفوضوية ـ النقابية ـ حالة الطوارىء في قطاعه ، ثم أبلغ بأنه سيفجر أقبية الخمر ، ويصرع كل من تسول له نفسه النهب ما أن يقع تحت بصره . ولم يجر التحكم بذلك الجنون الخمري إلا بعد جهود مضنية . . . (١٢٣) .

(١٢٣) أنطونوف ـ اوفسينكو ، زاييسكي او غاز دانسكوي فوينبي ، ج ١ ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

وقد تدخل تروتسكي مراراً في السوفييت بهذا الخصوص ؛ في المرة الاولى في ٢٩ تشرين الاول / اوكتوبر ، بعد اربعة أيام من الانتفاضة ، وفي المرة الاخيرة في ٢ كانون الاول / ديسمبر . قال : « إن الفودكا عامل سياسي بأهمية الكلمة . فالكلمة الثورية توقظ الشعب وتزجه في النضال ضد مضطهديه ؛ أما الفودكا ... فتدعوه للعودة إلى النوم »[١٢٤] . اكثر من أي قيادي آخر ، توجه تروتسكي إلى الحالم والبطل في اعماق كل شغّيل ، واستحضر امام عينيه الرؤى العظيمة للاشتراكية . هذه الرؤى كانت تبدو الآن وقد غشّتها أبخرة الكحول . وفي الأخير ، أمر مجلس مفوضي الشعب بأن تُسكب احتياطيات الأقبية في مياه النيفا .

وفي حمّى العربدة ، انتهت حامية بتروغراد الكبرى ، التي لعبت دوراً بالغ الأهمية في ثورتي شباط / فبراير ، وتشرين الأول / اوكتوبر ، انتهت الى التفكك والزوال . وبعد بتروغراد جاء دور المقاطعات . فأنطونوف أوفسينكو يكتب كذلك في مذكراته : « ان الرفيق برزين (عضو معروف في اللجنة المركزية) يبلغ عن الصعوبات العظيمة التي يواجهها . يتكلم ايضاً على الشحنات الضخمة من الخمور والمشروبات الكحولية عن طريق السكة الحديدية ... وتكتسح مفارز من الجند المقطورات وتسكر . تتفكك الوحدات . ويصل من يتولى النهب ... »[١٢٥] .

تحت هذا الطالع المضحك ، الذي بدا تحدياً لتطلعات جمهورية السوفييتات السامية والنبيلة ، دخلت هذه الجمهورية عامها الأول .

---

(١٢٤) تروتسكي ، ، سوش . ، ج ٣ ، ك٢ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(١٢٥) انطونوف - اوفسينكو ، المرجع ذاته ، ج ١ ، ص ٣١ . ونجد في قلب روسيا الأحمر ، لبيسي بيتي ، وصفاً حياً لهذه المشاهد من العربدة ولنتائجها المأساوية - الهزلية كما يراها شاهد أجنبي .

الفصل العاشر

مفوض الشعب

لم تكن تضم الحكومة السوفياتية الأولى غير بلاشفة . فلم يكن وارداً أن تشارك في الحكم الأحزاب التي رفضت أن تعترف بمؤتمر السوفييتات كالمصدر الدستوري الوحيد للسلطة ، وقررت أن تقاطعه . ولم يكن هنالك من غير البلاشفة ، غير الاشتراكيين الثوريين اليساريين الذين انفصلوا عن الحزب الأم من هم على استعداد ليشاطروا البلاشفة مسؤوليات السلطة . وقد قدم لهم لينين مقاعد في مجلس مفوضي الشعب ؛ إلا أن الاشتراكيين الثوريين اليساريين فضلوا البقاء خارج الحكومة ، لأنهم كانوا لا يزالون يأملون أن يلعبوا دور الوسطاء بين البلاشفة وخصومهم ، ولأجل أن يحتفظوا بكل فرصهم للعب ذلك الدور[1] .

ويروي تروتسكي أنه أثناء النقاشات الأولى حول تشكيل الحكومة ، عرض عليه لينين رئاستها على أساس انه الرجل الذي قاد الانتفاضة التي انبثقت منها تلك الحكومة ، إلا أن تروتسكي رفض ذلك مراعاة للينين ولأقدميته السياسية[2] . وهذا تفصيل لم يكذبه أحد في يوم من الأيام وقد ثبت بصورة غير مباشرة بما نقله لونا تشارسكي ، العضو في تلك الحكومة ، إلى سوخانوف صديقه الحميم . يقول لونا تشارسكي إن لينين لم يكن يرغب في ترؤس مجلس مفوضي الشعب أو حتى في أن يكون عضواً فيه بل كان يفضل تكريس كل اهتمامه لقيادة الحزب . إلا أن القادة البلاشفة الذين عارضوا الانتفاضة ، أو الذين ضعفوا ، بما فيهم لونا تشارسكي ، اعتبروا أن لينين كان يريد التهرب من مسؤولياته وألحوا كي يقبل رئاسة الحكومة . ولينين الذي كان أقل الرجال استعداداً للتملص من نتائج اعماله ، قبل رئاسة السوفناركوم[3] .

واقترح آنذاك أن يتسلم تروتسكي مفوضية الداخلية[4] . وكانت مهمة تلك

(١) جون ريد ، المرجع ذاته ، ص ١١٦ .

(٢)تروتسكي ، حياتي ، ج ٢ .(٣) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٧ ، ص ٢٦٦ . السوفناركوم اختصار لمجلس مفوضي الشعب .

(٤) تروتسكي ، المرجع ذاته ، ج ٢ ، ص ٦٢ - ٦٣ .

المفوضية قمع الثورة المضادة ، وهو ما يتطلب الشدة والحزم . فرفض تروتسكي ، لأنه ، من جهة ، كان منهكاً بنتيجة الجهود التي بذلها في الاشهر الاخيرة ، ومن جهة أخرى كان يخشى أن يشكل اصله اليهودي بالنسبة إليه عائقاً في ذلك المنصب . قال إن الثورة المضادة تستطيع اللجوء إلى اللاسامية واستخدامها ضد البلاشفة . وقد اعتبر لينين الاعتراض غير مناسب ، إلا أن سفردلوف ، وكان قائداً بلشفياً من أصل يهودي هو الآخر ، شارك تروتسكي مخاوفه ، فلم يصر لينين .

إن هذه الحادثة مثيرة للفضول ، ففي الأحزاب الاشتراكية والسوفييتات ، لم تكن القَبْليّات العرقية رائجة في يوم من الأيام ، وما كان بإمكانها أن تجد فيها أرضاً ملائمة . كان اليهود والبولونيون والجيورجيون دوماً كثيري العدد في الحركات المتطرفة والثورية ، لسبب بسيط هو أنهم كانوا ينتمون إلى اقليات تتعرض للاضطهاد . وكان اليهود اكبر عدداً لدى المناشفة والاشتراكيين الثوريين مما لدى البلاشفة . ورغم أصل تروتسكي ، فقد كان قائد الانتفاضة . لكن حتى ذلك الحين كانت الثورة من عمل المدن ، وكانت مدن روسيا الكبري مسارحها الرئيسية . واليوم ، كان على البلاشفة أن يضطلعوا بأدوار جديدة هي أدوار قادة روسيا الريفية الغارقة حتى ذلك الحين في ديانتها الاورثوذكسية اليونانية ، وفي حذرها تجاه المدن وقبلياتها العرقية . ولن تمر اكثر من عدة أشهر حين سيدعو تروتسكي كل ابناء روسيا هذه للدفاع عن الثورة على دزينة من الجبهات ، ولن يضايقه أصله في مهمته تلك على الاطلاق ، لكن النظام السوفياتي كان قد اكتسب آنذاك وعياً ما لاستقراره ، وأصبح قادراً على تحدي القبليّات القديمة . أما غداة الانتفاضة ، فيمكن ان يكون تروتسكي وجد غير حذر أن يقوم المنتصرون ببادرة يمكن أن يتم اعتبارها استفزازاً واضحاً .

إلا أنه يمكن أن يكون لرفضه أسباب اخرى غير معترف بها ، فعمل قائد شرطة الثورة لا يناسب على الارجح ميوله أو ذوقه . وفي الواقع ، سوف يبرهن عن أنه أحد اشرس انصار تدابير القمع حيال الثورة المضادة الوليد ، ولن يرفض الارهاب الأحمر حين تأزف ساعته . لكن ثمة فرق بين تأييد الارهاب الأحمر ، لا بل قيادته في المناخ المأساوي لحرب أهلية ، وقبول منصب الشرطي الأول ، في يوم قيام الثورة . لا بد أن ذلك ظهر له كسقوط مريع ، فالأممي الذي مثّله ما كان يمكن أن يجتذبه منصب يكون عليه أن يهتم بأمور بيتية .

مهما يكن ، لقد قبل مجاملةً بأن يصبح المفوض الأول للشؤون الخارجية . فبمبادرة

من سفردلوف ، طُلب إليه أن يقبل هذا المنصب ، وهو الأهم بعد منصب رئيس السوفييت . وقد احتله تروتسكي بنوع من الخفة . فالثورة ـ حسبما قال ـ ليست بحاجة الى دبلوماسيين : « سأطلق بعض التصريحات الثورية ثم أقفل الدكان » . كان هناك نوع من التصنع في تلك الطريقة للقول إنه يحتل مقعداً خلفياً . أما سفردلوف فاقترحه لهذا المنصب ، موضحاً أن تروتسكي هو الرجل المطلوب لـ « مواجهة اوروبا » باسم الثورة ؛ وهذا المنصب كان مهماً بقدر ما هو مناسب لكفاءات تروتسكي . إلا أنه صحيح ان هذا الاخير لم يكن ينوي مواجهة أوروبا على طريقة دبلوماسي تقليدي[٥] .

لقد تألفت الحكومة ، لكن القليلين كانوا يعتقدون أنها ستدوم . فبالنسبة للمعادين للبلشفية ، كما للكثير من البلاشفة ، كانت الانتفاضة ونتيجتها لا تزالان تبدوان خياليتين تماماً ، وكانت الأغلبية تنتظر قمعاً دامياً . وغداة تشكيل الحكومة ، سرت شائعات في العاصمة تقول إن لينين وتروتسكي بادرا الى الفرار[٦] . ومن غاتشينا ، على بعد أقل من ثلاثين كيلومتراً جنوبيً غربيً بتروغراد ، أعلن كيرنسكي ، مفعماً بالثقة ، عن عودته الوشيكة على رأس قوزاقيي الجنرال كراسنوف المخلصين . وقد اضطر المفوّض للشؤ ون الخارجية ، الذي استعاد وظائفه كقائد للجنة الثورية العسكرية أن يجمع فرقة مسلحة ليوقف جيش كيرنسكي ، وهو ما بدا أصعب ، من بعض النواحي ، من تنظيم الانتفاضة . فالحامية لم تكن تتحلى بمزاج قتالي . وهي ساعدت تروتسكي طوعاً في اطاحة كيرنسكي حين كان هذا الاخير يهدد بإرسال الفيالق المتمردة الى الجبهة . لكن حين أمر تروتسكي هذه الفيالق ذاتها بمغادرة ثكناتها ، واتخاذ مواقع على المرتفعات التي تحيط بالعاصمة ، أطاعت لكن وسط حشد من الاحتجاجات والهمهمات . لم يكونوا يتوقعون أن يكون عليهم القتال ، وحين وجدوا أنفسهم فجأة يواجهون إطلاق النار عليهم ضعفوا . أما القوة الوحيدة المقاتلة حقاً فكانت الحراس الحمر ، المؤلفين من عمال مدنيين . لكنهم ، ككل ميليشيا من هذا النوع ، كانوا يعرفون أن يبرهنوا عن رباطة جأش وجسارة طالما هم داخل مدينتهم التي كانوا يعرفون كل شارع فيها ، وكل ممر ، وكل زاوية ، لكنهم كانوا أقل استعداداً لمواجهة العدو في أرض مكشوفة[٧] .

في ذلك الحين ، لو جمع كيرنسكي عدة مفارز موثوقة ومنضبطة لأمكنه الدخول مجدداً الى بتروغراد ، مع أنه كان قليل الترجيح ان يتمكن من إعادة سلطته . لكن لم تكن حال

(٥) تروتسكي ، Loc. cit ؛ برولیتارسكايا ريفولوتسيا ، العدد ١٠ ، ١٩٢٢ .

(٦) سادول ، هوامش على الثورة ، ص ٦٣ .

(٧) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ٨٦ ـ ٩٠ .

قوزاقييه تختلف عن حال القوات التي أرسلها تروتسكي لمواجهته ، فهي لم تكن مستعدة إطلاقاً لإهراق دمها . لقد قيل لهم أن الأمر يتعلق بقمع تمرد نظمته حفنة من الجواسيس الألمان ، فكم كانت دهشتهم عظيمة حين رأوا فيالق العاصمة والحراس الحمر يتقدمون نحوهم . في غضون ردح من الزمن ، توقف مصير بلد كبير ، لا بل مصير العالم ، على نتيجة معركة بين بعض الكتائب مثبطة العزم . إن النصر سيكون لمن من المعسكرين يستطيع ان يقدح في قواته شرارة الشجاعة ، من في وسعه العمل بتصميم اكبر وسرعة أشد . كان النصر يتوقف على هامش تفوق ضيق ، كما يحدث احياناً حين يتقاتل جيشان لجبان ، مجهزان جيداً ، يصارعان بإصرار ، لكنهما يتعادلان من حيث القوة .

كان تروتسكي مقتنعاً بأن كلمات مقنعة يمكن أن تشتت قوزاقيي كراسنوف اكثر من الرصاص(٨) . لكن قبل أن يتمكن الدعاويون البلاشفة من الاقتراب من القوزاق ، زعزعت المدافع رباطة جأشهم . كان تروتسكي احتاج من قبل لإحاطة نفسه بقادة ماهرين وذوي تجربة . وغداة الانتفاضة ، مضى هو ولينين يطلبان تعاون ضباط الجيش النظامي الذين كانوا تعرضوا لتهجم البلاشفة عليهم . إلا أن الضباط الذين جرى التوصل لإقناعهم بالظهور في سمولني باحتراس ، رفضوا التعاون . ولم يقبل غير بعض اليائسين وبعض المغامرين بالخدمة في ظل الحكومة « غير الشرعية » . وواحد منهم ، هو الكولونيل مورافييف ، الذي اختير لقيادة العمليات على مرتفعات بولكوفو ، لعب فيها بعد دوراً مهماً في المرحلة الاولى من الحرب الأهلية . كان متبجحاً ، يحاول أن يظهر كاشتراكي ثوري يساري ، ويبدو أنه لم يكن يدفعه تعاطفه مع البلاشفة بقدر ما حقده الشرس على كيرنسكي . وقد استقبله تروتسكي في البدء بحذر ، إلا أنه بدا ممتلئاً حمية واندفاعاً ، مفعماً بالدهاء ،ومصمماًعلى الانتصار في وضع كان يبدو خاسراً سلفاً . ففتن تروتسكي بتصميمه وشجاعته . أما الكولونيل فالدن ، وهو ضابط آخر في تلك المجموعة الصغيرة ، فقاد المدفعية التي أعطت النصر للبلاشفة في معركة بولكوفو .

أثار استخدام هذين الضابطين استنكاراً واسعاً داخل السوفييت . فالبلاشفة والاشتراكيون الثوريون اليساريون كانوا يستهولون رؤية مصير الثورة وقد عُهد به لوصوليين ذوي شهرة بتلك الكراهة ، حسبما خيِّل اليهم . ألم يُقَل ان مورافييف ابدى حماساً خاصاً أثناء القمع المعادي للبلاشفة في تموز / يوليو ؟ لكن البلاشفة ، الذين ووجهوا بمقاطعة كل الضباط ، ما كان بإمكانهم أن يكونوا مدققين للغاية وهم يتفحصون

(٨) سادول ، المرجع المذكور ، ص ٦٨ - ٦٩ .

أوراق اعتماد من يودون خدمتهم حقاً . فإذا كان في القطاع العسكري (الخاص بالحزب) اناس ماهرون في فن خوض انتفاضة ، فلم يكن هنالك أحد بينهم يملك الكفاءة لقيادة حرب نظامية . كانت الحامية في حالة ارتباك شديد ، ولم يكن يتوصل تروتسكي حتى إلى معرفة وضع المخزون من الذخيرة والمؤ ن . كان مستعداً في تلك اللحظة ليستخدم الشيطان ذاته لو أمكنه أن يلقي القبض عليه ويوجه الى صدغه فوهة مسدس . ونجد في هذه الارتجالات بذور العناصر الرئيسية في سياسة تروتسكي العسكرية خلال الحرب الأهلية .

في ٢٨ تشرين الاول / اوكتوبر ، وصل تروتسكي على رأس الحراس الحمر الى غاتشينا ، حيث كانت تدور رحى المعركة للدفاع عن منافذ المدينة . وفي غاتشينا تعرضت قوات كيرنسكي لهزيمتها الأولى . وكان تروتسكي يأمل أن يصطحب الوزير الاول السابق كأسير للسوفييت ، إلا أن المذكور تمكن من الفرار[٩] .

فيما كانت المعارك تتواصل خارج بتروغراد ، تمرد طلاب مدارس الضباط داخل المدينة . وقد حققوا في البداية بعض النجاح ، وأسروا أنطونوف ـ أوفسينكو ، المفوّض لشؤ ون الحرب . تكلم تروتسكي في السوفييت على التدابير المتخذة لقمع التمرد وأعلن بوجه خاص ما يلي : « إن الأسرى الذين بحوزتنا هم رهائن . فإذا حدث أن وقع بين يدي اعدائنا أسرى أيضاً ، فليعرفوا أننا سنبادل كل عامل وكل فلاح بخمسة تلاميذ ضباط . . . لقد اظهرنا اليوم أن عهد التردد قد ولى ، فنحن لا نمزح حين تتعرض مصالح العمال والفلاحين الاساسية للخطر . ونحن نعرف كيف يقاتل السادة والرأسماليون . . . ، كيف يعاملون الجنود المتمردين ، العمال والفلاحين ، وكم من الدم قد اهرقوا ، وكم من النفوس قد أزهقوا . . . »[١٠] .

هذه الكلمات القابلة لأن تُفهم كإشارة لإعدامات جماعية ، أثارت احتجاجات غاضبة[١١] . وخلال جلسة لاحقة ، استنج تروتسكي فرصة سؤ ال طرحه عليه احدهم في

---

(٩) سوخانوف ، المرجع المذكور ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ . إن الجو الذي كان سائداً في السوفييت ، صوره تصويراً جيداً مشهد في كتاب جون ريد (المرجع ذاته ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩) : كان تروتسكي ينقل اخبار المعركة .

قال : « إن الطرادات أوليّغ ، واورورا، وريبوبليكا ، ترسو في النيفا ، ومدافعها موجهة الى منافذ المدينة . . . » .

ـ لماذا لست هناك مع الحراس الحمر؟ صاح به صوت أجش .

ـ انا ماض في الحال ، اجاب تروتسكي ، وغادر المنصة .

إن غضب الجماهير الشعبية العارم لم يكن يوفّر حتى قادة الثورة الذين كان يملي عليهم سلوكهم في الغالب .

(١٠) تروتسكي ، المرجع ذاته ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ٧١ .

(١١) اخذ لوزوفسكي ، مثلاً ، على تروتسكي ، انه « يقلد طرائق هيندنبورغ » .

القاعة ، ليشرح ما أراد قوله . قال إن من البديهي أن حياة الاسرى مقدسة ، وذلك « لأسباب انسانية ، وفي الوقت ذاته ، لأن الأحياء يساوون بالنسبة الينا اكثر من الأموات » . وأضاف أنه تكلم في السابق على « تبادل » الأسرى ، لا على اعدامهم (١٢) . إلا أن هذه الحادثة تعطي شعوراً مسبّقاً بشراسة الحرب الاهلية . وخلال الجلسة ذاتها ، تكلم تروتسكي على صعوبات تموين الحراس الحمر ، فأعلن أن السوفييت لن يحترم الملكية الخاصة : « يمكن لمنظمات العمال والجنود ان تحصل من اللجنة الثورية العسكرية على تصريحات بالمصادرة » . وأعلن أيضاً أن الحكومة تعد مرسوماً يعطيها سلطة حظر الصحف التي تدعم اعداءها في الحرب الاهلية .

في ٣١ تشرين الاول / اوكتوبر ، استسلم قوزاقيو كيرنسكي في بولكوفو . اما قائدهم ، الجنرال كراسنوف ، فوقع أسيراً ، إلا أن كيرنسكي تمكن مرة اخرى من الفرار . ومن ميدان المعركة ، بعث تروتسكي برسالة انتصار بليغة . أطلق سراح كراسنوف على أساس وعد شرف ، إلا أن ذلك لم يمنع هذا الأخير من حمل السلاح مجدداً ضد السوفييتات ، بعد فترة قصيرة . وبعد معركة طويلة ودامية ، ضمن البلاشفة في الوقت ذاته الاشراف على موسكو . ووصلت الاخبار في الفترة ذاتها ، مؤكدة ان السوفييتات تفرض نفسها في معظم المدن الاخرى . وتوقفت حكومة لينين ، مذّاك ، عن الانعزال في بتروغراد ، وقد مر بعض الوقت قبل أن تشتعل الحرب الاهلية مجدداً بصورة جدية

كانت حكومة لينين قد تخلصت لتوّها من أول تهديد مسلح حين تعرضت لخطر الانهزام بفعل وساوس اعضائها ، وترددهم . كان البلاشفة المعتدلون يرغبون في مصالحة المناشفة والاشتراكيين الثوريين ، ودعوتهم للمشاركة في الحكومة . وقد هدد قادة نقابة سكك الحديد بإيقاف النقل بواسطة القطارات إذا لم تشكل حكومة ائتلاف تضم كل الأحزاب الاشتراكية . وفي ٢٩ تشرين الأول / اوكتوبر قررت اللجنة المركزية البلشفية ، في غياب لينين وتروتسكي وستالين ، أن تبدأ المفاوضات مع الأحزاب الأخرى(١٣) . وأعلن المناشفة والاشتراكيون الثوريون حينذاك انهم يوافقون على الدخول في الائتلاف على اساس الشروط التالية : مسؤولية الحكومة ، لا أمام السوفييتات ، بل « امام الدوائر الواسعة للديمقراطية الثورية » ؛ نزع سلاح الأفواج البلشفية ؛ رحيل لينين

---

(١٢) Loc . cit

(١٣) بروتوكولي تسن . كوم . ص ١٤٤ ـ ١٤٧ .

وتروتسكي[١٤] . وكان ذلك يعني عملياً مطالبة البلاشفة بإلغاء ثورة اوكتوبر ، وبإلقاء السلاح إزاء اعدائهم ، وبأن يتولوا بأنفسهم إبعاد ملهم الانتفاضة وقائدها . وحين تأتي تلك الشروط من احزاب مهزومة في ثورة ، تتوجه إلى المنتصرين عليها الساعين وراء المصالحة ، تكون شروطاً متجاسرة . أما المفاوضون البلاشفة ، كامينيف ، وريازانوف ، وسوكولنيكوف ، والأولان بوجه خاص اللذان كانا ينتميان الى الجناح اليميني في الحزب ، فلم يكونوا يرغبون في شيء كرغبتهم في العودة بمشروع مساومة مقبول يصعب على لينين وتروتسكي ان يرفضاه . وكان المفاوضون البلاشفة يرغبون في إلتقاء المناشفة والاشتراكيين الثوريين في منتصف الطريق لدرجة انهم ، في حين كانت نتيجة معركة بولكوفو لا تزال غير اكيدة ، وقعّوا نداءً مشتركاً يطالب بوقف النار ، وهو نداء موجه ضمنياً ضد حزبهم وضد الحكومة . إلا أنه حتى اكثر البلاشفة اعتدالاً لم يكونوا قادرين على القبول بشروط المناشفة . ما كان في وسعهم أن يعودوا الى حزبهم لينصحوه بالانتحار .

غادر تروتسكي على جناح السرعة ساحة المعركة في بولكوفو ليهرع الى مؤتمر تداولي يضم اللجنة المركزية ولجنة بتروغراد وقادة القسم العسكري ، كان سيتخذ قراراً يتعلق بالمفاوضات . كان اول من هاجم كامينيف وريازانوف ، وقد قال : « لم نكن بحاجة لتنظيم الانتفاضة ، لو لم يكن ذلك للحصول على الاغلبية في الحكومة . . . علينا ان نحصل على ثلاثة ارباع المقاعد » وأضاف أنه مهما حصل ، يجب أن يبقى لينين في رئاسة الحكومة [١٥] . أما لينين فذهب ابعد من ذلك وطلب وقف المفاوضات . في الطرف الآخر ، أعلن ريازانوف (ولونا تشارسكي) انهما مستعدان للموافقة على رحيل لينين وتروتسكي ، موضحين ان على الحزب دعم المبادىء لا الأشخاص . وقد قرر المؤتمر التداولي مواصلة المفاوضات ، لكن فقط مقابل شروط تضمن هيمنة الحزب في الائتلاف المطروح .

لم يكن هذا الجدال غير استمرار لذلك الذي سبق الانتفاضة . فكل البلاشفة كانوا متفقين على أنه ينبغي أن تشكل السوفييتات القاعدة الدستورية للحكومة وعمادها . وبدا أن الجميع متفقون على ملاءمة تحالف مع أي حزب أو تجمع مستعد للاعتراف بهذا المبدأ . وفي الثاني من تشرين الثاني / نوفمبر ، اعادت اللجنة المركزية التأكيد بشكل رسمي بأنها لا تزال توافق على تشكيل حكومة تدخلها الاحزاب التي سبق ان قررت مقاطعة

---

(١٤) المرجع ذاته ، ص ١٥٦ .

(١٥) المرجع ذاته ، ص ١٤٩ .

السوفييتات ، شريطة أن تتراجع تلك الاحزاب عن موقفها هذا وتعترف بالقيمة الدستورية للسوفييتات . لكن المناشفة والاشتراكيين الثوريين كانوا عاجزين عن القبول بذلك ، إذ يشكل تنصلاً من كل ما فعلوه منذ شباط / فبراير . وإذا كانت الشروط التي يطرحها المناشفة ، غير ممكن قبولها إلا مقابل انتحار البلاشفة سياسياً ، فشروط حزب لينين كانت تعني بالنسبة للشركاء المزعومين امحاء معنوياً كاملاً . ولينين ، الذي لم يكن لديه شك في انهم سيرفضون ، رأى من غير المفيد مواصلة المفاوضات . وقد قال إن تلك المفاوضات تخدم ، في افضل الأحوال ، **كحيلة حرب** ، إذ تسمح بنزع القناع عن انصار كيرنسكي ، في الوقت الذي يتواصل فيه النضال ضد المذكور .

لم يكن لينين وتروتسكي يريان لماذا لا يشكل الحزب حكومة مؤلفة من اعضائه بوجه الحصر ، فلا شيء ، في رأيهما ، يحول دون ان تضطلع غالبية السوفييت لوحدها بمسؤولية السلطة ؛ وفي أي نظام ديمقراطي ، لا يمكن للأقلية أن تطالب بحق المشاركة في الحكم . فما هو حيوي بالنسبة للأقلية ، هو ان تستطيع العمل بحرية كمعارضة ، شرط أن ينخرط نشاطها في الاطار الدستوري الذي تقبل به الحكومة والمعارضة في آن معاً . وفي الحقيقة انه لم يكن يوجد بعد ثورة اوكتوبر ذلك الاطار الدستوري . لقد نادى احد الاحزاب بمبدأ دستوري جديد اعتبرته كل الاحزاب الاخرى ، تقريباً ، غير دستوري . فالمناشفة وشركاؤهم ، الذين رفضوا سيادة السوفييتات رفضاً جازماً ، ما كان بإمكانهم حتى ان يصبحوا معارضة شرعية داخل السوفييتات (مع أن بعض المجموعات حاولت ان تفعل ذلك هنا أو هناك) ؛ وكان أصعب ايضاً ، بالنسبة إليهم ، أن يصيروا شركاء البلاشفة . إن الأحزاب التي كان يعارض بعضها بعضاً كانت تدعى كلها اشتراكية ، لكن لم يكن هناك رابط بينها غير الذكريات المختلطة لماض مشترك . هذه الذكريات هي التي كانت ، جزئياً ، وراء محاولة المجموعة الواسعة والمؤثرة من القادة البلاشفة ، إعادة صلات حقيقية معها . كان لدى الكثير من المصالحين البلاشفة الانطباع بأن حزبهم دخل في مأزق ، عليه للخروج منه أن يضع يده في يد خصومه الممدودة اليه . كان كامينيف وزينوفييف وريكوف ، وآخرون أيضاً ، في حالة ذعر ، قائلين إن بتروغراد تفتقر إلى الاحتياطي من الغذاء ، وان البلاشفة لن يتمكنوا من قيادة البلاد إذا توقفت القطارات ، وانه ليس لهم أي حظ في البقاء إثر حرب أهلية طويلة الأمد . أما لينين وتروتسكي ، اللذان كان يدعمهما سفردلوف ودزرجنسكي بحماس ، فكانا يعتقدان بإمكانية الصمود إذا تم العمل بحزم وإصرار ، دون أن ينكرا المجازفات والأخطار . إن المطالبة بائتلاف هي إظهار للضعف ، وفي كل حال ، إذا كان الشركاء المزعومون قد مدوا

أيديهم ، فليس بهدف المساعدة ، بل بهدف الخنق .

وفي ٢ تشرين الثاني / نوفمبر ، تم نقاش المشكلة في المكتب التنفيذي للسوفييت ، وقد صوت « المصالحون » البلشفيون ، علاوة على الأعضاء المعادين للبلشفية ، ضد الحزب . وكانت القطيعة المكشوفة من أكثر الأمور إزعاجاً وإرباكاً ، لا سيما أنه كان على رأس المصالحين كامينيف الذي بالرغم من نزاعه الحديث مع الحزب جرى انتخابه رئيساً للهيئة التنفيذية المركزية للسوفييتات ، وهي وظيفة تعادل وظيفة رئيس للجمهورية . وباختصار ، كان الرئيس البلشفي يطالب جهاراً بإقصاء الحكومة البلشفية واستبدالها بحكومة ائتلاف . وكان يدعم كامينيف معظم الاعضاء المهمين في الحكومة : ريكوف ، المفوض لشؤون الداخلية ، وميليوتين ، المفوض للزراعة ، ونوغين ، المفوض للصناعة والتجارة ، ولونا تشارسكي ، المفوض للتربية ، وتيودوروفيتش ، المفوض لشؤون التموين : وكان يدعمه من خارج الحكومة كل من زينوفييف ولوزوفسكي ، وريازانوف ، ويورينييف ؛ وقد اقتصرنا على ذكر الأكثر نفوذاً .

وما كان للحكومة والحزب أن يشهدا أزمة أخطر من تلك الأزمة . إن القاعدة التي تقول بان على اعضاء الحزب أن ينصاعوا في وظائفهم لتعليمات الحزب والخضوع لنظامه لم يكن يقبلها عموماً البلاشفة وحسب ، بل معظم الاحزاب الروسية ، وحتى الاوروبية . إلا أن هذه القاعدة كانت تُنتهك في أغلب الأحيان اكثر مما يجري التقيد بها . وقد شن لينين وتروتسكي حملة من اجل فرض احترامها ، فأقنعا اللجنة المركزية بإعادة تأكيد موقفها ؛ إن الاستسلام لإنذارات أقلية داخل السوفييتات ولتهديداتها ، لا يعادل بالنسبة إلينا التخلي كلياً عن الحكومة المرتكزة على السوفييتات وحسب ، بل كذلك التخلي عن كل سلوك ديمقراطي ، إن استسلاماً من هذا النوع يعني أن الأكثرية تخاف الاستفادة من موقعها الاكثري . وهو ما يعادل استسلاماً للفوضى ويشجع كل أقلية على أن ترسل إلينا بإنذارات نهائية كلما حلا لها ذلك »[١٦] . وفي ٣ تشرين الثاني / نوفمبر ، وجهت اغلبية اللجنة المركزية للمصالحين « إنذار »ها الخاص بها ، الذي كان يدعو للانصياع للانضباط التنظيمي ويهدد بالدعوة إلى مؤتمر استثنائي للحزب ، يكون عليه إما أن يؤيد سياسة المصالحين أو أن يطردهم[١٧] . ورد المصالحون بالاستقالة جميعاً من اللجنة المركزية ومن الحكومة . وقد برروا قرارهم عن طريق الاحتجاج بعبارات عنيفة على إصرار الحزب على

(١٦) بروتوكولي تسن . كوم . ص ١٦١ .

(١٧) المرجع ذاته ، ص ١٦٢ - ١٦٤ .

تشكيل حكومة بلشفية خالصة . وأعلن نوغين ، باسمهم ، ان حكومة من هذا النوع « لا يمكن ان تبقى في السلطة إلا عن طريق الارهاب السياسي » ، وهي ستؤدي إلى « نظام غير مسؤول » و « تزيل من قيادة الحياة السياسية المنظمات الجماهيرية الخاصة بالبروليتاريا »(١٨) .

وكان الصحيح والخطأ يختلطان بطريقة معقدة ، كما في المنازعات بين تروتسكي ولينين في عام ١٩٠٤ ، وكما في وجه النقاشات الحديثة حول الانتفاضة . ومن وجهة النظر البلشفية ، كانت الحجج التي قدمها لينين وتروتسكي لتبرير سياستهما غير قابلة للدحض ؛ فمن السخافة التفاوض لتشكيل ائتلاف واسع ، إذ كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون اليمينيون يحاولون بكل بساطة ان ينتزعوا السلطة من البلاشفة، بطريقة مداورة ، لا أن يشاركوهم إياها . ومهما يكن كامينيف حار الرغبة في الوصول الى اتفاق مع المناشفة ، إلا أنه لم يتمكن من قبول شروطهم . وفي ذلك الاجتماع بالذات الذي عقده المكتب التنفيذي المركزي للسوفييتات ، الذي طلب كامينيف فيه عملياً أن ينسحب لينين من الحكومة ، أعلن كذلك أن الحزب ، من دون لينين وتروتسكي ، سيكون « مقطوع الرأس »(١٩) . وكان الآخرون يشترطون « قطع الرأس » هذا لأنه لم يكن في وسعهم تصفية سلطة البلاشفة ، ومن دون تحطيم استقلالهم أولاً . لهذه الغاية ، لم يكن هنالك ما هو أكثر حذقاً من مطالبة الحزب البلشفي بترك غرباء عنه يحددون له من يجب أن ينتدب إلى الحكم ويشترطون أن يجحد زعيميه .

وكما حصل في تشرين الأول / اكتوبر ، لم يجادل لينين في حق كامينيف واصدقائه بالمعارضة . إلا أنه كان يرفض التسليم لهم بحق العمل ضد سياسة الحزب الرسمية ، خارج حدود الحزب . وحين استقالوا متباهين ، وصفهم لينين مرة أخرى بالـ « فارين » . وقد انتهى كامينيف وأصدقاؤه إلى الخضوع ، كما فعلوا في اوكتوبر من قبل . لم يعد لدورهم من معنى حين تبين ان اياً من الأحزاب المعارضة لا يرغب حقاً في المصالحة . وكان زينوفييف أول من بدل موقفه وأعلن ان المناشفة جعلوا أية تسوية مستحيلة(٢٠) . وبتعابير تعلن عن استسلامه الأقصى والأكثر مأساوية ، وجه النداء التالي لأصدقائه : « إننا باقون في الحزب ؛ نفضل أن نتيه مع ملايين الشغيلة ونموت معهم على أن نبقى على الحياد في هذه اللحظة التاريخية الحاسمة » . ولم تمض أيام عديدة حتى كان المصالحون يندحرون . وقد

(١٨) المرجع ذاته ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

(١٩) المرجع ذاته ، ص ١٦٦ .

(٢٠) المرجع ذاته ، ص ١٧٧ .

أزيح كامينيف من وظيفته العليا في المكتب التنفيذي للسوفييتات ؛ وفي إحدى جلسات هذا المكتب ، دعم تروتسكي ترشيح سفردلوف للحلول محل كامينيف . وكانت النتيجة الايجابية الوحيدة للمفاوضات سخط الاشتراكيين الثوريين اليساريين على سلوك المناهضين للبلشفية وانضمامهم لحكومة لينين .

إلا أن معارضي لينين وتروتسكي في الحزب لم يكونوا مخطئين بقدر ما غدوا يعترفون بذلك الآن . لقد توقعوا ألا تتمكن حكومة بلشفية خالصة من البقاء إلا عبر الارهاب السياسي ، وأنه سينجم عن ذلك « نظام غير مسؤول » . وسوف يبين المستقبل أنهم كانوا على حق . كان لينين وتروتسكي يرفضان الآن هذه النبوءة باستياء صادق ، معيدين التأكيد بأن في وسع السوفييتات إطاحة الحكومة بتصويت اكثري بسيط[٢١] . إلا أن التاريخ سيبرر هذا التحذير الذي لم يكن يبدو مرتكزاً في الظاهر على أساس ، في الفترة التي جرى إطلاقه فيها . ولا شك أنه كان في نية لينين وتروتسكي والقادة البلاشفة الآخرين ان يحكموا البلاد بروح مسؤولية أصيلة أمام السوفييتات . لكن لما كان حزبهم هو الحزب الوحيد الذي يوافق من دون تحفظ على الأساس الدستوري الذي تشكله السوفييتات ، توصلوا إلى مماثلة سياسة الحزب مع الدستورية السوفياتية ، ثم إلى اعتبار تمنيات الحزب ورغباته مبادئ لتلك الدستورية ، فإلى التخلي في الأخير عن تلك المبادئ بالذات . بتعابير أخرى ، لما كان البلاشفة حزب الثورة ، فقد دفعهم ذلك في البدء الى مماثلة الثورة مع الحزب ، ثم إلى اعتبار أن الثورة قضية حزبهم على وجه الحصر . وبعد ذلك التاريخ بإحدى عشرة سنة ، وجد بوخارين ، وهو يتأمل تعاقب الأحداث التي أدت الى إفساد الديمقراطية السوفياتية وصعود ستالين ، أن أصل تلك « الكوارث » يكمن في « خطأ » واحد هو مماثلة الحزب مع الدولة[٢٢] . إن قوة الظروف منذ الأسبوع الأول للثورة بدأت تدفع الحزب في هذه الطريق ، وقد عبر البلاشفة المعتدلون آنذاك عن رعب غريزي . لكن لم يكن احد يتخيل يومئذٍ كم ستكون تلك الطريق طويلة ، وما سيكون اتجاهها وطابعها المأساوي .

كان تروتسكي ، بعد لينين ، المناصر الأكثر مجاهرة ، والأكثر حزماً لحكومة بلشفية بوجه الحصر ، أو ذات رجحان بلشفي . كان قد أرسل المناشفة والاشتراكيين الثوريين ، بكل عليائية ، إلى « مزبلة التاريخ » ، ولم يكن مزاجه يتفق مع استدعائهم لجعلهم شركاء أو حلفاء . إلا أنه لا هو ، ولا أي من زملائه ، كان ينوي إزالة ذينك الحزبين . وحين عاد

---

(٢١) المرجع ذاته ، ص ١٧١ - ١٧٥ .

(٢٢) الاستشهادات مأخوذة من محادثة بين بوخارين وكامينيف ، تعود لعام ١٩٢٨ ، نجد نصها الكامل في محفوظات تروتسكي .

مارتوف ، غداة انسحاب المناشفة من مؤتمر السوفييتات ، فتدخل لدى البلاشفة لصالح الوزراء الاشتراكيين الموقوفين ، كما كان فعل في تموز / يوليو لدى هؤلاء الاخيرين لصالح البلاشفة المسجونين ، لان البلاشفة . أخلى تروتسكي سبيل الوزراء ، ووضعهم تحت الرقابة ثم أطلق سراحهم كلياً بعد ذلك . وكانت هذه المعاملة في كل حال اكثر شهامة من معاملة أولئك الوزراء للينين وتروتسكي قبل أمد قصير[٢٣] . وفي السوفييتات ترك البلاشفة الأبواب مفتوحة على مصراعيها من اجل عودة المناشفة والاشتراكيين الثوريين ؛ وفي المكتب التنفيذي المركزي ، تركوا عدداً من المقاعد فارغاً ، يتناسب مع قوة خصومهم في المؤتمر . وإذا كان لينين وتروتسكي لم يرغبا في تقاسم الحكومة مع المناشفة والاشتراكيين الثوريين ، فقد كانا يرغبان في رؤيتهم يتمثلون في « البرلمان البرولبتاري » وفي اجهزته الملحقة .

لقد ناضل تروتسكي ضد المصالحين البلاشفة دون أدنى تردد ، إلا أننا نعرف مع ذلك ، استناداً إلى شاهد موثوق ، أنه لم يفعل ذلك من دون قلق شديد . فقد ذكر سادول أن تروتسكي أسرَّ له بعد ثلاثة أيام من الانتفاضة مدى انزعاجه من المناشفة الذين كانوا يخاطرون ، بادعاءاتهم ومناوراتهم المعرقلة ، في دفع البلاشفة لمعاملتهم بفظاظة ، مما يؤدي إلى توسيع الشقة بين الحزبين . وكان تروتسكي يقول إن ذلك يسبب له هموماً أكبر من تلك التي يسببها له تقدم قوزاقيي كراسنوف ونبأ تشكيل الحراس البيض[٢٤] . وقد أوضح لسادول بعد ذلك بقليل بأنه يأمل أن يدعو البلاشفة المناشفة للدخول في الحكومة ما ان يطبقوا النقاط الرئيسية في برنامجهم .

وقد توقفت المباحثات حول حكومة ائتلاف فجأة ، ونهائياً ، في ٣ تشرين الثاني / نوفمبر ، حين أعلن مارتوف وأبراموفيتش عن رفضهما أية مفاوضة طالما تتواصل التوقيفات ولا يُسمح للصحف المعلقة بمعاودة الصدور[٢٥] . فقد كان البلاشفة أوقفوا عدة سياسيين يمينيين وعلقوا صدور عدة صحف دعت جهاراً للمقاومة المسلحة . وقد برر تروتسكي في السوفييت هذه التدابير بالصورة التالية : « إن طلب وضع حد لكل قمع في فترة الحرب الأهلية يعادل المطالبة بوضع حد للحرب الاهلية . . . لم يعرض خصومنا السلم علينا . . . وفي فترة الحرب الاهلية ، من الشرعي حظر صدور صحف العدو »[٢٦] .

(٢٣) سوخانوف ، المرجع ذاته ، ج ٧ ، ص ٢٤٣ .

(٢٤) سادول ، المرجع ذاته ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٢٥) بروتوكولي تسن . كوم . ، ص ١٧٤ .

(٢٦) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

وأكد تروتسكي في السوفييت ، بصورة رسمية ، ان الحكومة لا تنوي فرض احتكارها للصحافة ، لكن من واجبها ، مع ذلك ، أن تلغي احتكار المالكين الطبقي للصحافة ، وهو ما التزم به كل حزب اشتراكي.وقال إنه ما ان يتم تأميم الحكومة للمطابع ، ومصانع الورق ، حتى توضع في متناول الاحزاب والمجموعات ، تبعاً للنجاح الذي ستحرزه هذه في الانتخابات . ستكون تلك هي المرة الأولى في التاريخ التي توجد فيها حرية صحافة أصيلة . سيكون للناس هكذا سلطة نشر افكارهم ، بالتناسب مع أهميتهم في الحياة الاجتماعية والسياسية ، لا بالتناسب مع مواردهم المالية[٢٧] .

بعد مرور شهر على الثورة ، بدأ الحراس البيض الأولون ، بقيادة كورنيلوف وكاليدين وأليكسييف ودنيكين عملهم على نهر الدون ، وانتفض قوزاقيو أورنبورغ استجابةً لنداء هتمانهم[*] ، دوتوف . ولم يعلن الجنرالات البيض حتى النضال لأجل إعادة حكومة كيرنسكي ، بل جهاراً لإعادة القيصرية ، أو إقامة ديكتاتوريتهم الخاصة . وفي الوقت ذاته الذي بدأت فيه حرب اهلية حقيقية في المقاطعات البعيدة ، كان الكاديت وبعض الاشتراكيين الثوريين ينظمون شبه انتفاضة في العاصمة . وفي ٢٨ تشرين الثاني / نوفمبر اعلن تروتسكي تحظير حزب الكاديت ، قائلاً إن لجنة هذا الحزب المركزية كانت مركز قيادة الحرس الأبيض السياسية ، وفي هذا المركز كان يُنظَّم تطويع ضباط لصالح كورنيلوف وكاليدين[٢٨] . وبالتالي ، فسوف يطرد الكاديت من الجمعية التأسيسية التي كانت الحكومة تستعد للدعوة إليها . وأضاف تروتسكي : « ليست هذه غير بداية متواضعة . فلقد أوقفنا قادة الكاديت ، وأمرنا بمراقبة أنصارهم في المقاطعات . وفي فترة الثورة الفرنسية ، كان اليعقوبيون يقطعون رؤوس الذين فعلوا أقل مما يفعل هؤلاء لمعارضة إرادة الشعب . أما نحن فلم نعدم احداً ، وليس في نيتنا أن نفعل ذلك . إلا أن غضب الشعب يثور في بعض الاحيان ، والكاديت أثاروا هذا الغضب بذاتهم »[٢٩] .

---

(٢٧) بعد ذلك بفترة ، ألقى تروتسكي خطاباً حول الموضوع ذاته في فوج رماة القنابل : « ماذا يفهم محامو البورجوازية من حرية الصحافة ؟ الشيء نفسه الذي يفهمونه من حرية التجارة . كل رجل يملك رأسمالاً معيناً يحق له ، طالما لديه الوسائل اللازمة ، ان يفتح مصنعاً أو حانوتاً أو يخلق صحيفة ، وفقاً لذوقه الشخصي . . . إلا أنه هل يتمتع ملايين الفلاحين والعمال والجنود بحرية الصحافة ؟ ليس لديهم الشرط الاساسي لممارسة هذه الحرية ، ليست لديهم الوسائل الفعلية والحقيقية لإصدار صحيفة » . وقد دافع تروتسكي في تلك المناسبة عن مبدأ التخصيص النسبي لورق الصحف والوسائل الاخرى للاحزاب السياسية . المرجع ذاته ، ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

(*) المتمان هو الزعيم القوقازي في فترة الاستقلال (م) .

(٢٨) كان هذا صحيحاً تماماً ، ويكفي للاقتناع به ان نعود إلى مرجع صالح كدنيكين بالذات ، الذي يَصف بالكثير من التفاصيل العلاقات ما بين الحرس الابيض ومركز قيادة الكاديت . أوشيركي روسكوي سموتي ، ج ٢ ، ص ٣٥ ، ١٨٦ ـ ٩٤ .

(٢٩) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ١٣٨ .

كانت عبارة « ليست هذه غير بداية متواضعة » ، نبوءة مشؤومة . فالبلاشفة الذين صنعوا الثورة ، لن يتمكنوا من التخلي عن الارهاب الثوري . وللإرهاب حركته الخاصة به ، فكل حزب ثوري يتخيل في البدء أن مهمته بسيطة : قمع نشاطات « حفنة » من الطغاة والمستغلين . وصحيحٌ تماماً أن الطغاة والمستغلين لا يشكلون عموماً غير اقلية تافهة ، إلا أن الطبقة الحاكمة القديمة لم تعش معزولة عن باقي المجتمع . فخلال سيطرتها الطويلة ، أحاطت نفسها بشبكة مؤسسات دخلت فيها جماعات وأفراد من عدد لا بأس به من الطبقات ، وعرفت كيف تخلق لنفسها روابط وعلاقات كثيرة لا تدمرها الثورة كلياً . إن جسم مجتمع من المجتمعات ليس بسيطاً أبداً بحيث نستطيع ان ننتزع منه عبر عملية جراحية عضواً ما من دون اصابة باقي الأعضاء . وكل شريحة اجتماعية ترتبط بجارتها المباشرة ، ويتم المرور من هذه لتلك عبر درجات غير ملحوظة . والشريحة الدنيا من الارستقراطية تختلط بالشريحة العليا من البورجوازية ، وتختلط هذه الأخيرة بالشريحة العليا من البورجوازية الصغيرة ؛ وتختلط الشرائح الدنيا من البورجوازية الصغيرة بالطبقة العاملة ؛ بينما للبروليتاريا ، وبوجه خاص في روسيا ، وشائج عديدة مع الفلاحين . والعلاقات بين الاحزاب السياسية ليست أقل تعقيداً ؛ ولا يمكن للثورة ان توجه ضربة للحزب الذي تعتبره عدوها الألد دون ان تضطر ، لا هذا الحزب وحسب ، بل كذلك جاره المباشر ، للرد بهجوم مضاد . ينتج عن ذلك ان الثورة تعامل الجار المباشر لعدوها على اساس انه عدو . لكن حين تضرب هذا العدو الثانوي ، ينتفض الجار المباشر لهذا الاخير ويدخل في الصراع هو ايضاً . ثمة هنا نوع من رد الفعل المتسلسل : ان حزب الثورة يثير ضده الأحزاب التي كانت تحتل في السابق المسرح السياسي ويخلص إلى إلغائها .

كان الجنرالات الذين يقودون الحرس الأبيض من أنصار المَلَكية ، فلقد تدربوا على أن يكونوا خدم الاستبدادية القيصرية ، ولم تستثر الثورة في أي وقت من الأوقات لديهم غير الحقد الأسود والرغبة في الانتقام ، سواء كانت بلشفية أو قَبْ-بلشفية - pré bolchévique . اما الكاديت فكانوا ملكيين دستوريين . وفي ظل القيصر ، كانت المجموعة الرئيسية من المدافعين عن الحكم المطلق والمجموعة الرئيسية من الملكيين الدستوريين قد واجهتا الواحدة الأخرى بعداء وازدراء متبادلين ، إلا أنه كان للجانبين كذلك نقاط مشتركة . ومنذ سقوط الملكية فقدت خلافاتها الكثير من مبررات وجودها ، في الوقت ذاته الذي اكتشفتا فيه هدفاً مشتركاً : إطاحة « الجمهورية الاشتراكية » . وبعد ثورة اوكتوبر أسقط الفريقان الفروقات بينها وقاتلا تحت الراية ذاتها ، إلا أن قسماً مهماً من الملكيين الدستوريين كان مرتبطاً بشكل وثيق بأنصاف الجمهوريين الاشتراكيين الذين كانوا

دعائم نظام شباط / فبراير ، وكانت توجد في الحزبين المنشفي والاشتراكي ـ الثوري كل تلاوين الرأي ، انطلاقاً من النزعة الجمهورية البورجوازية ووصولاً إلى شبه الاشتراكية الثورية ، وكان أقصى يسارهما يختلط مع البلاشفة . ولو أن البلاشفة استطاعوا عزل الحراس البيض ، أعدائهم الأكثر نشاطاً والأكثر خطراً ، وأن يجعلوا منهم الهدف الوحيد لهجومهم ، لكان أمكن الثورة والحرب الأهلية أن تتخذا مجرى آخر . لكن التحالف الطبيعي بين الملكيين الدستوريين والحراس البيض حال بينهم وبين التصرف على هذا الأساس . فلأجل حرمان الحراس البيض من دعاماتهم السياسية ، اضطر البلاشفة لمعاملة الكاديت كخارجين على القانون . وما كانت غالبية المناشفة والاشتراكيين الثوريين تستطيع ان تتخيل الدفاع في يوم من الأيام عن كورنيلوف أو دنيكين أو كولتشاك ، إلا أنها لم تستطع البقاء لامبالية حين تم إعلان الكاديت « أعداء للشعب » ، إذا لم يكن لشيء فلأن جناحها الأيمن عاش مع هؤلاء في نوع من الاتحاد الوثيق على المستوى السياسي ، يحوك معهم الدسائس والمؤامرات . إن منشفياً يسارياً كمارتوف كان صَعُب عليه ان يدافع عن الكاديت لو كانوا مستهدفين وحدهم ، لكنه كان يعرف تماماً أن ضربات الثورة ستنصب ، بعد انهيالها على الكاديت ، على الجناح الأيمن للاشتراكيين الثوريين ، ولحزبه هو . وهو كان يريد تلافي تلك الضربات .

وحين أكد تروتسكي ان البلاشفة لا ينوون نصب المقصلة ، أظهر أنه يعي تماماً أن الارهاب ، يمكن أن يودي بالثورة . وكانت لدى البلاشفة رغبة عامة تقريباً بتحاشي ذلك ، فغداة الانتفاضة جرى الغاء عقوبة الاعدام ، ولم يحتجّ على ذلك غير لينين[30] . لكن حتى لينين ، حين كان يشرح وجهة نظره للبلاشفة المعتدلين كان يقتصر على القول : « في باريس ، كانوا (اليعاقبة) يستخدمون المقصلة ؛ بينما نحن ننتزع بطاقات التموين من أولئك الذين لا يمكنهم الحصول عليها من نقاباتهم »[31] . كان الحزب بمجمله يحاول بشكل نصف غريزي نصف واعٍ تحاشي ذلك المنحدر الدموي الذي هوى فيه اليعاقبة . وإذا كان اضطر الى وضع قدم على أعلى المنحدر ، فقد قاوم طويلاً ، وبصلابة ، القوة التي كانت تحاول أن تجره إليه . لقد اعتبرت الحكومة الكاديت خارجين على القانون ، لكن ليس الاشتراكيين الثوريين اليمينيين الذين شاركوا في الانتفاضة النصفية في ٢٨ تشرين الثاني / نوفمبر . وقررت اجراء انتخاب لجمعية تأسيسية ، غير متوقعة إلا نصفياً أن تدخل السوفييتات والجمعية التأسيسية حتماً في حالة صراع . وحوالى نهاية تشرين الثاني /

(٣٠) تروتسكي ، لينين ، ص ١١٦ - ١١٧ .

(٣١) تروتسكي ، المدرسة الستالينية في التزوير ، ص ١١٠ .

نوفمبر ، كان بوخارين لا يزال يطلب الى اللجنة المركزية تأجيل تصفية الحسابات مع الكاديت حتى افتتاح الجمعية التأسيسية . واستناداً إلى سابقات من تاريخي فرنسا وانكلترا ، اقترح أن تكون الجمعية هي التي ستطرد الكاديت ، وأن يعلن ما تبقى من الجمعية عن نفسه بعد ذلك « جمعية ثورية » . كان يأمل أن يشكل البلاشفة والاشتراكيون الثوريون اليساريون في الجمعية اكثرية ساحقة ، وهو ما يقدم للثورة مزية شرعية دامغة . وقد دعم تروتسكي خطة بوخارين بحزم ، بينما بدا ان ستالين هو الوحيد الذي كانت لديه في تلك الفترة فكرة واضحة عن وجهة الأحداث ، على الأرجح لأنه لم يكن يعتقد أن الاشتراكيين الثوريين اليساريين والبلاشفة يستحوذون على اغلبية في البلاد . فقد قال إن اقتراح بوخارين يأتي في وقت متأخر جداً ، فتصفية الكاديت قد بدأت ، وما كان بالامكان تأجيلها . وكان يتوقع انفجار الجمعية وصراعاً بين الجمعيتين المتنافستين . وحتى ذلك الحين ، لم يكن احد يتصور تشتيت شمل الجمعية التأسيسية . وحتى في أخبار النقاشات الأكثر سرية وصميمية ، لا نقع على أثر لأي تلميح يتعلق بتصفية الأحزاب الأخرى[٣٢] .

* * *

كان قد مر أكثر من شهرين على انضمام تروتسكي للحزب البلشفي ، وكان موقعه القيادي في المجالس الداخلية للحزب وطيداً . إن المكتب السياسي الذي تم انتخابه قبل الانتفاضة لم يبصر النور أبداً ، بل جرى استبداله بجهاز أضيق ، هو « مكتب اللجنة المركزية » ، الهيئة التنفيذية الدائمة ، المؤلفة من أربعة أعضاء : لينين ، تروتسكي ، ستالين ، سفردلوف[٣٣] . وحين اصبح ائتلاف البلاشفة والاشتراكيين الثوريين اليساريين فعلياً ، انتخب مجلس مفوضي الشعب مكتباً داخلياً تمثل فيه البلاشفة بالأشخاص ذاتهم ما عدا سفردلوف الذي لم يكن يشغل أية وزارة . وكان معترفاً عموماً بلينين وتروتسكي كالقائدين السياسيين للحزب وكالسلطة العليا ، بما يخص العقيدة والمذهب . أما ستالين وسفردلوف ، فكانا المنظمين الكبيرين .

كانت العلاقات بين لينين وتروتسكي تتميز بالثقة المتبادلة ، والود والاحترام ، لكنها لم تكن ذات طابع حميم . إن نضالهما المشترك ضد البلاشفة المعتدلين قبل الانتفاضة ، ولا سيما بعدها ، والضغينة التي كان اعداؤهما يشرّفونهما بها ، اثنيهما - سبق أن طالبوا باستبعادهما من أي ائتلاف حكومي ، - واتفاقهما حول كل المشكلات الكبرى ، كل ذلك

(٣٢) بروتوكولي تسن . كوم . ص ١٨٠ - ١٩١ .

(٣٣) المرجع ذاته ، ص ١٨٩ .

لم يكن يمكن إلا أن يشد الوثاق فيما بينهما . هذا التفاهم لم يكن يخلو من فروق كبرى في الطبع والعادات ، فتصرفات لينين كانت بسيطة ، شبه غير شخصية ، حتى في ممارسة السلطة ، وكان يحذر الاثارة في السلوك كما في الكلام . منذ عشرين سنة تقريباً ، وهو محاط بالعديد من الانصار المخلصين الذين فرض نفسه عليهم بقوة ذكائه وطبعه وحسب . لقد اكتسب تحكماً عظيماً في فن كشف مزايا زملائه الملحقين به وعيوبهم ، وفي فن استخدامهم بما يحقق أقصى منفعة للحزب . وإذا كان خشناً ، لا بل فظاً ، في المجادلات الجدية ، فقد كان في مواضع أخرى بالغ التحفظ والرهافة ، مهتماً بمراعاة حساسية انصاره ونقاط ضعفهم ، شديد الانفتاح على افكارهم وإيحاءاتهم .

أما مزاج تروتسكي البركاني ، وبلاغته العظيمة فكانا يحركان الناس بشكل مختلف تماماً عما يفعله نثر لينين التعليمي القاطع . وحين كانا يتوجدان في الدفاع عن القضية ذاتها ، كان لينين يصغي إلى خطب تروتسكي الطويلة الفيّاضة مؤيداً لا بل معجباً ، لكن كذلك ببعض الضيق الذي يشعر به الموجيك أمام فصاحة ابن المدينة . وكان التضاد بين مزاجيهما يظهر كذلك في حقول أخرى . فالسنوات العديدة من العمل السياسي المتوحد تركت بعض الآثار على تروتسكي . لم تكن لديه تلك الحرية وتلك السهولة في العمل الجماعي اللتين تخلقان قوة القادة الحقيقيين . فحتى في الفترة التي كان لونا تشارسكي لا يزال ينظر فيها الى تروتسكي بإعجاب شديد ، كان يشير الى ضعف هذا الاخير قائلاً : إنه لم ينجح يوماً في إرساء مجموعة صلبة من الأنصار[٣٤] . كان متصلفاً ، تغلفه شخصيته الخاصة به . لذا يصبح ملحوظاً أكثر أن يكون بدا في السنوات اللاحقة ادارياً بتلك الدرجة من اللمعان ، ومن الفعالية . ذلك ان عمله الاداري ليس ناجماً عن ميزاته القيادية ، بل عن وضوح مشاريعه ودقتها ، وعن طاقته وإرادته وروحه المنهجية . إن قدرته على العمل المنهجي ، التي تفوق قدرة لينين ، كانت امراً نادراً في بلد يعلق فيه الناس القليل من الأهمية على الوقت وعلى الثبات في الجهد . كان تعاونه الوثيق مع لينين يرتكز على نوع من التوفيق بين شخصيتيهما وعلى وحدة اهدافهما . كان تروتسكي يعترف بسلطة لينين ، بصدق لا جدال فيه ، ويقبل تلك السلطة . يفعل ذلك من دون ذرة من التزلف ومن دون التخلي عن استقلاله ، لكن متأسفاً بصراحة لكونه اساء في الماضي تقدير الثوري والقائد في شخص لينين . وكان لينين يفعل ، من جانبه ، كل ما في وسعه ليشعر تروتسكي بأن الحزب حزبه ، كما لو كان فيه منذ البدء . وخلال السنوات الست التي دام فيها تعاونهما ، الذي لم

---

(٣٤) لونا تشارسكي ، بوليتيشسكي سيلويتي ، ص ٢٥ - ٣٠ .

يمر من دون عدد من المخاصمات الجديدة ، لم يلمّح لينين مرة واحدة إلى خصوماتها القديمة ، إلا ليقول في مجالسه الخاصة إن تروتسكي كان مصيباً في بعض النواحي ، وليحذر الحزب من أن يأخذ أحد على تروتسكي ماضيه غير البلشفي .

أما العضوان الآخران في « مكتب اللجنة المركزية » فكانا رجلين من نوع آخر كلياً . كان سفردلوف عملياً سابق ستالين في منصب الامين العام للحزب ، لكن هذا المنصب لم يكن قد وجد بعد رسمياً في تلك الفترة . وكستالين ، أمضى سفردلوف كل حياته السياسية في العمل السري . كانت لديه المواهب التنظيمية ذاتها ، والحدس ذاته في تحريك الناس ، والروح التجريبية ذاتها ، وصلابة الطبع ذاتها[٣٥] . وإذا كان سفردلوف اكثر توفيقاً من ستالين في وظائفه كمنظم ، ولم يطمح الى أن يلمع كمرجع في قضايا العقيدة ، فقد كان يملك على الأقل فهماً أوسع ، وكان اكثر ثقافة ومرانة من فهم ستالين ، وبوجه خاص اكثر وضوحاً وصفاء ، إذا انطلقنا من الخطابات والكتابات العديدة الخاصة به[٣٦] . إنه هو الذي أطلع تروتسكي ، بغياب لينين ، على حياة الحزب الداخلية ، وتنظيمه العسكري ، وسهّل تعاونه مع مختلف مستويات جهاز الحزب . ونحن نعرف ، كما رأينا ، ان سفردلوف هو الذي اقترح تعيين تروتسكي مفوضاً للشؤون الخارجية . وإذا كانت علاقات تروتسكي بسفردلوف اتسمت برفاقية سهلة ، فقد كانت صلاته المباشرة الأولى بستالين مختلفة تماماً . وهو كتب بذاته ، فيما بعد ، مشيراً إلى أنه لم يلاحظ عملياً وجود ستالين قبل نهاية ثورة اوكتوبر[٣٧] . كان ستالين ، مع ذلك ، مديراً لجريدة الحزب وأحد الأعضاء الأهم في اللجنة المركزية . وإذا كان صحيحاً ان تروتسكي لم يلاحظه ـ كما يقول ـ فهذا لا يثبت أبداً تفاهة دور ستالين ، كما يود تروتسكي ان يبرهن ، بقدر ما يثبت عدم اهتمام هذا الاخير بالتأثيرات الشخصية التي كانت تفعل فعلها في الحزب الذي انضم إليه . لم يكن لستالين شخصية مشهدية ؛ كان متحفظاً ، قليل الثرثرة ، مبتذلاً أحياناً ، فلم يثر انتباه تروتسكي لأن تروتسكي كان يميل إلى البحث لدى الآخرين عن الصفات التي تميزه هو بالذات . وربما كانت لديه أعذار أكثر ليسقط في الخطأ ذاته الذي اقترفه بصدد لينين : لقد حالت « قتامة » ستالين دون إدراك قوته . وهكذا ظل يعامل خصمه المقبل بعليائية جارحة بقدر ما هي غير مقصودة ، حتى حين غدا ستالين زميله داخل الفريق الصغير الذي كان

---

(٣٥) يقول سادول إن البلاشفة لقبوا سفردلوف بـ « الشدق الحازم » ، المرجع ذاته ، ص ٢٦٦ .

(٣٦) يظهر هذا بوضوح من مراسلات سفردلوف الخاصة المنشورة في بيشات اي ريفو لوتسيا ، ج ٢ ، ١٩٢٤ .

(٣٧) تروتسكي ، ستالين ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ . وصفحات اخرى .

يقود الحزب وأمور الحكومة . ويصعب علينا أن ندهش إذا كان عنفوان ستالين قد انجرح .

لم يكن للعواطف الشخصية والغيرة اية اهمية حتى ذلك الحين ، وكانت لا تزال في بداياتها . فالقادة البلاشفة المأخوذون في الزوبعة الخيالية لتلك الأشهر الاخيرة ، كانوا يعيشون كما في حلم يمكن ان تكون نهايته فظة ومأساوية . كانوا يتولون مراكز سلطة يحاولون تعزيزها ، مراكز لم يكن يبدو حتى ذلك الحين أنها تخفي أية سلطة . وكانوا يتوقعون إلى هذا الحد أو ذاك أن تجرفهم ، هم أنفسهم ، الحركة ،وأن تمر الثورة على اجسادهم لتسير إلى النصر النهائي . وقد سأل لينين تروتسكي يوماً : « إذا قتلنا ، نحن الاثنين ، الحراس البيض ، فهل تعتقد أن سفردلوف وبوخارين سيفيان بالمراد ؟ »[٣٨] . بالانتظار ، كانوا يصدرون إعلانات ومراسيم وقوانين معدة للتاريخ اكثر مما للتطبيق الفوري . وكانوا يقولون ـ ويفكرون ـ انه إذا خرج الأسوأ من الأسوأ سيكونون أورثوا ، على الأقل ، خلفاءهم جملة من الأفكار وإعادة تأكيد للسياسة الثورية ستلهم آخرين ، مثلما ألهمت رسالة كومونة باريس جيلين من الاشتراكيين . بهذه الطريقة غير الملموسة كثيراً في الظاهر ، كان القادة البلاشفة يرسون فعلياً أسس الجمهورية السوفياتية .

إن الظروف الخارجية التي أنجزوا في ظلها هذه المهمة كانت تعكس مثالية انشغالاتهم وتجردها . وقليل إذا قلنا إن مؤسسي الدولة الجديدة ما كانوا يحيطون أنفسهم بجهاز السلطة ، ولا ببذخها . لم يكونوا يستحوذون حتى على أدوات العمل الأكثر ضرورة التي يمكن أن نجدها في أكثر المكاتب تواضعاً . ففي سمولني ، كانت آلة كاتبة من الأمور النادرة ، وآلة الستينو اسطورة ، وجهاز الهاتف ذروة التقدم التقني التي لا يمكن الوصول اليها . كان الأسياد الجدد يكتبون بيدهم بياناتهم ومراسيمهم الأكثر أهمية ، ويركضون من مكتب لآخر عبر متاهة من المماشي ، ويتناولون الغداء والعشاء ، في مطعم سمولني ، مؤلَّفين من شورباء خضار وخبز أسود . وكان معظمهم يعيشون وينامون في مكاتبهم الصغيرة جداً ، وسط صخب لا ينتهي ، وذهاب رسل ومحرضين وإيابهم ، وضجة الأحذية الضخمة ، وصرير المنبهات ، وحالات الهلع والحماس ، وفي قرقعة العوالم المحتضرة والوليد . وكان يحرس المكاتب متطوعو الحرس الأحمر ، إلا أنه كان في وسع العامل والبحار والصحفي الأكثر تواضعاً أن يدخلوها . وقد ترك لنا تروتسكي فترة

(٣٨) تروتسكي ، حياتي ، ج ٢ ، ص ٦٠ .

سمولني ما لا يحصى من الكتابات التي تصف هذا الوضع . هوذا وصف مميّز كتبه صحفي أميركي :

« في الايام الأولى التي تلت الانتفاضة البلشفية ، كنت معتاداً على الذهاب صباح كل يوم الى سمولني ساعياً وراء آخر الأخبار . كان تروتسكي ، وزوجه الصغيرة الجميلة ، التي لم تكن تتكلم تقريباً غير الفرنسية (مع الصحفيين الاجانب) ، يعيشان في غرفة واحدة في الطابق الأخير . وكانت الغرفة مقسومة إلى قسمين مثل ستوديوات الفنانين الفقراء . وفي جانب من الغرفة ، كان ثمة سريران للأطفال وصوان صغير رخيص ، بينما كان في الجانب الآخر مكتب وكرسيان أو ثلاث خشباً . . . وقد شغل تروتسكي هذا المكتب طالما كان وزيراً للشؤون الخارجية ، وكان العديد من ذوي الرتب العليا يعتبرون من الضروري المجيء الى هناك طالبين عونه . . . فأدنى صعوبة تُعرض عليه . كان يعمل كثيراً ويقارب في الغالب الانهيار العصبي : يصبح سريع الغضب ، ويصاب بنوبات غيظ . . . »[٣٩] .

وكان تروتسكي استأجر قبل الانتفاضة شقة في مبنى سكني بورجوازي ، حيث كان موضوع حقد شديد هو وعائلته . وقد كتب سادول : « يبدو تروتسكي متعباً . فمنذ ٢٠ تشرين الاول / اوكتوبر ، لم يعد الى بيته . وتقول زوجه ، الجميلة ، و صغيرة القامة ، والممتلئة حياةً وسحراً ، ودائمة النشاط ، إن الجيران يهددون بقتله ! . . أليس ممتعاً أن يفكر المرء بأن هذا الديكتاتور عديم الشفقة ، هذا السيد لعموم روسيا ، لا يجرؤ على النوم في بيته خشية مكنسة البوّابة ؟ »[٤٠] .

---

(٣٩) لويز بريان ، ستة شهور حمراء في روسيا ، ص ١٤٥ .

(٤٠) سادول ، المرجع ذاته ، ص ٩٤ .

دراما بريست ـ ليتوفسك

« هذه الحكومة ترى كأكبر جريمة ضد البشرية مواصلة الحرب لغاية وحيدة هي تقرير مَنْ من الأمم الغنية والقوية سيسيطر على الأمم الضعيفة . . . وتعلن هذه الحكومة على الملأ قرارها عقد السلم فوراً . . السلم العادل بصورة متكافئة بالنسبة لكل الأمم والقوميات ، بلا استثناء »[1] . بهذه التعابير يحدد مرسوم السلام ، الذي كتبه لينين وتبناه مؤتمر السوفييتات في ٢٦ تشرين الأول / اوكتوبر ، جوهر السياسة البلشفية الخارجية . ولن يكون عادلاً غير السلم الذي يسمح للأمم المغزوّة والخاضعة في اوروبا وسائر القارات بأن تقرر مصيرها بحرية بواسطة انتخابات تتم بعد انسحاب كل جيوش الاحتلال . وبعد أن حدد لينين شروط السلام الجريئة هذه ، التي لم تكن تعني أقل من إطاحة كل الامبراطوريات الاستعمارية ، أضاف بحذر أن السوفييتات مستعدة للمشاركة في مفاوضات سلام ، حتى لو لم تتم الموافقة على برنامجها ، وأنها تود أن تأخذ بالاعتبار شروطاً أخرى . والحكومة البلشفية ، لا تقر ، بما يخصها ، بشرعية اية معاهدات غير المعاهدات العلنية المتفاوض عليها في وضح النهار : لذا فسوف تنشر المعاهدات الامبريالية السرية التي وقعتها الحكومات الروسية السابقة ، وتعتبرها باطلة ولاغية . هذه الرسالة ـ كما فسرها لينين في المؤتمر ـ موجهة للحكومة ، لكن كذلك لشعوب الأمم المتحاربة . وكانت تدعو الشعوب ، ضمنياً ، للانتفاض ضد الحكومات القائمة ، وتحث تلك الحكومات جهاراً على توقيع فوري للهدنة . وكان المأزق الأساسي للسياسة البلشفية الخارجية وبذرة مأساة بريست ـ ليتوفسك كامنين في هذا النداء المزدوج .

إن روسيا ، التي أنهكتها الحرب ، استقبلت مرسوم السلم بتنهدة ارتياح . وقد ردت حكومتا فرنسا وانكلترا ، والرأي العام الوطني هناك بصيحة استنكار . كان السفراء وقادة البعثات العسكرية الحليفة في روسيا غدوا يعرفون الى هذا الحد أو ذاك أن هذه الاخيرة عاجزة عن مواصلة الحرب[2] . ويشير مراقب اميركي إلى أن دعاوة البلاشفة السلمية :

(١) لينين ، سوش . ، ج ٢٦ ، ص ٢١٨ .

(٢) م . باليولوغ ، روسيا القياصرة ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ ، ٢٨٠ ، وصفحات اخرى . ومنذ اول نيسان ١٩١٧ ، أي قبل وصول

« كانت بالطبع ضاغطة وفعالة ، لكن . . . كانت تجعلك تفكر قليلاً بهذا الرجل الذي ينفخ بكل قواه في الاتجاه ذاته الذي تتخذه عاصفة عنيفة »[٣] . وفي حالة نفاد الصبر للحيلولة ، دون « ارتداد » روسيا ، اقتنع مبعوثو الحلفاء تقريباً بأن العاصفة قد تهدأ إذا توقف البلاشفة عن النفخ . ومنذ بداية ثورة شباط / فبراير حث سفيرا فرنسا وانكلترا الأمير لفوف ، وميليوكوف ، وكيرنسكي على تحظير حزب لينين[٥] ، وشجع قادة البعثات العسكرية كورنيلوف على تدبير مؤامرته ضد كيرنسكي ، والسوفييتات المنشفية[٥] . وقبل يومين من انتفاضة اوكتوبر ، استخدم السفير الانكليزي لغة لا علاقة لها بالدبلوماسية ليحث الوزراء الروس على توقيف تروتسكي فوراً[٦] . وحين استولى البلاشفة على السلطة ، جاءت بياناتهم الثورية ، واحتقارهم للأعراف الدبلوماسية ، وتهديداتهم بنشر المعاهدات السرية واعلان بطلانها ، فرفعت إلى الذروة عداء الحلفاء . كان رسلهم قد أذعرتهم الانتفاضة التي شهدوها أيما ذعر ، وأربكهم كيف يفسرونها أيما إرباك ، بحيث كانوا على اتم الاستعداد لتصديق أية قصة بوليسية ، شرط أن تقدم مظهر تفسير . هكذا اقتنعوا نصفياً بأن لينين وتروتسكي عميلان مأجوران لألمانيا ، وبأن ضباطاً المانا هم الذين قادوا بذلك القدر المتساوي من الكفاءة والسهولة انتفاضة اوكتوبر[٧] . بقيت لهم تعزية واحدة : سوف تتم إطاحة البلاشفة في وقت قريب . وإن واجب القوى العظمى المتحالفة يكمن في تسريع سقوطهم[٨] .

ورغم بيانات البلاشفة الثورية ، فقد كانوا يرغبون في اقامة علاقات دبلوماسية مع

لينين الى روسيا ، حضر باليولوغ استعراضاً لم تشارك به غير القوات الأقل تجاوباً مع الفكرة الثورية ، ولاحظ انه حتى تلك الافواج الاكثر ولاء للشرعية القائمة كانت تنفر كلياً من القتال . وفي آذار / مارس ١٩١٧ ، ارسل باليولوغ الى ريبو ، وزير خارجية فرنسا تقريراً ينتهي بهذه الصيغة المعبرة : « في الطور الحالي من الثورة ، لا يمكن لروسيا أن تصنع السلام ولا الحرب » . إن سفيرَ فرنسا كان يعلن هكذا قبل عام تقريباً الصيغة التي سيتبناها تروتسكي .

(٣) و . هارد ، قصة ريمون روبينز ، ص ٢٩ . وفيما بعد ، حين اصبح قادة الاحزاب المعادية للبلشفية في المنفى ، اتفق معظمهم على ان هذا ما كان عليهم أن يفعلوه .

(٤) باليولوغ ، المرجع ذاته ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ ، وصفحات اخرى : بوشانان ، المرجع ذاته ، ج ٢ ، ص ١١ ، ١١١ ، وصفحات اخرى .

(٥) الميجور جنرال السير ألفرد كنوكس ، مع الجيش الروسي ، ١٩١٤ ـ ١٩١٧ ، ج٢ ، ص ٦٩٢ ؛ أ. كيرنسكي ، صَلْب الحرية ، ص ٢٩٥ ـ ٣١٩ .

(٦) بوشانان ، المرجع ذاته ، ص ٢٠٣ .

(٧) ذكر السير جورج بوشانان في يومياته : « وفقاً لنبأ لا استطيع ضمان صحته ، ثمة ستة من ضباطهم (أي من الضباط الالمان) يلتحقون بفريق لينين في معهد سمولني » . المرجع ذاته . ص ٢٣٢ . كنوكس ، المرجع ذاته ، ج ٢ ، ص ٧١٨ .

(٨) يؤكد سادول انه بإيحاء من الدوائر الدبلوماسية المتحالفة حول المناشفة من إقصاء لينين وتروتسكي شرطاً لتشكيل حكومة ائتلاف ، المرجع ذاته ، ص ٧٤ .

الحلفاء . فما كادت تهزم قوات كيرنسكي حتى لمح تروتسكي إلى الرغبة في إعادة العلاقات الطبيعية مع فرنسا وانكلترا(٩) . لقد كان البلاشفة ، ولا سيما تروتسكي ، يعتبرون أن في وسع المانيا ، بصياغتها شروط سلام لا يمكن قبولها ، أن تجبر روسيا على مواصلة الحرب والعودة مجدداً إلى التحالف . وقد تم تجاهل إيحاءات تروتسكي ، ولم تهتم بها سفارات الحلفاء . سفير واحد ، هو سفير بلجيكا ، جاء إليه في الحجرة الصغيرة ، المقسومة قسمين ، في معهد سمولني . كان سلوك تروتسكي ، في حين كان يشرح أهداف السلام التي تتوخاها حكومته لزائره غير المصدِّق ، ينطوي على « القليل من الحزم ، والقليل من التعالي » ، لكنه كان ودياً . ومضى البلجيكي ، وقد أذهلته شخصية تروتسكي وصدقه ، لكن مقتنعاً أيضاً بأن المفوض للشؤون الخارجية للثورة منظرٌ وحالم ينبغي ألا يؤخذ على محمل الجد . هكذا وصفه لزملائه(١٠) .

لم تقاطع السفارات الاجنبية وحدها تروتسكي ، بل كذلك المِلاك الروسي الخاص بوزارته . وقد بقي أسبوعاً بعد تعيينه ، اسبوعاً أمضاه في قتال قوات كيرنسكي ، قبل أن يأتي للمرة الأولى الى الوزارة ، يصحبه ماركين ، وكان بحاراً من كرونشتادت . كان مستعجلاً فوق كل شيء ليضع يده على المعاهدات السرية ومراسلات سابقيه الدبلوماسية . إلا أن مكاتب الوزارة وماشيها كانت مقفرة ، ولم يكن هنالك أحد ليجيب عن أسئلته . وتوصل صديقه البحار في نهاية المطاف ، للعثور على مدير الوزارة الدائم ، الكونت تاتيشتشيف ، المتحدر من سلالة دبلوماسيين طويلة . وقد اعلن الكونت ان مستخدمي الوزارة لم يأتوا للعمل ، فأمره تروتسكي ، شافعاً أمره بتهديدات كثيرة ، بأن يجمع المِلاك كله فوراً . ولم يمر وقت قصير حتى كانت جمهرة من الموظفين تهرع لمقابلته . فقدم تروتسكي نفسه كرئيسهم الجديد ، وقال لهم أنه ما من قوة في العالم تستطيع أن تهزم الثورة ، وان باستطاعة اولئك الذين يودون خدمة الحكومة الجديدة بشرف أن يفعلوا ذلك . إلا أن الموظفين رفضوا ان يسلموه الوثائق السرية ومفاتيح الصناديق التي تحويها ، فغادر تروتسكي الوزارة ليعود البحار بعد قليل ويأمر تاتيشتشيف ورؤساء المصالح بأن يتبعوه ؛ وقد ذهب بهم الى سمولني حيث أوقفوا . ولم يمر يومان حتى كان الكونت يقود تروتسكي الى داخل الوزارة ويفتح الصناديق ويستخرج منها الأوراق ويسلم تروتسكي المعاهدات السرية والمراسلات الدبلوماسية . وسرعان ما طبعت المعاهدات ونشرت ، مثيرة هلع المستشاريات . كانت تثبت الاتهامات البلشفية بكل وضوح ، فلقد دخلت

(٩) سادول ، المرجع ذاته ، ص ٧٧ .

(١٠) المرجع ذاته ، ص ٧٧ - ٨٠ .

روسيا الحرب لاحتلال غاليسيا والقسطنطينية والسيطرة على البلقان[١١] .

في ٧ تشرين الثاني / نوفمبر ، أمر ستالين وكريلنكو الجنرال دوخونين ، آخر قائد لهيئة اركان كيرنسكي باقتراح وقف فوري للنار على القيادة الالمانية . وأرسل تروتسكي رسالته الرسمية الأولى إلى سفراء البلدان الحليفة : طلب اليهم اعتبار مرسوم السلم الذي ضمه للرسالة عرضاً رسمياً لافتتاح مفاوضات سلام فورية . وختم رسالته كما يلي : « واقبل أيها السيد السفير تأكيد الاحترام العميق الذي تكنه الحكومة السوفياتية لشعب بلادك ، الذي لا يمكن ان يريد غير السلم ، مثل كل الشعوب الأخرى التي انهكتها مذبحة لا مثيل لها ، واستنزفت قواها »[١٢] . وفي اليوم ذاته ، قدم تحليلاً للوضع الدبلوماسي ، للمرة الأولى ، أمام الهيئة التنفيذية المركزية للسوفييتات . « إن أوروبا البورجوازية التي أفسدها جمودها » هلعت من مرسوم السلم الذي اعتبرته تعبيراً عن سياسة حزب أكثر مما عن عمل حكومي ، وكان أول رد فعل من جانب الالمان متناقضاً : فبما هم المان سرّهم عرض السلام ؛ وبما هم محافظون ، خافوا من الثورة التي قدمت هذا العرض . وكان عداء انكلترا من دون تحفظ ، أما الفرنسيون فقد أنهكتهم الحرب ، لكن « البورجوازية الصغيرة الفرنسية تعتقد أن حكومتنا متحالفة مع القيصر الالماني » . بدا الايطاليون متحمسين ، والاميركيون متسامحين . وقد امتنع تروتسكي عن وضع ردود فعل الدول العظمى الأجنبية كلها في كيس واحد ، مميزاً إياها الواحد من الآخر بعناية ، ومحدداً سمات كل منها . ثم أعلن فيما بعد نشر المعاهدات السرية . قال إنه يعرف ان الدول المركزية ستحاول الاستفادة من هذه الإفشاءات ، لكن كان على السوفييتات أن تُظهر للشعوب ، ولا سيما للطبقة العاملة الالمانية ، كيف ينبغي معاملة الصفقات والاتفاقات السرية التي تعقدها طبقاتها الحاكمة . وأضاف أنه يأمل أن يدرك العالم ، عندما يفتح الاشتراكيون الديمقراطيون الالمان الصناديق الدبلوماسية الخاصة بحكومتهم وينشرون معاهداتها السرية ، أن « الامبريالية الالمانية ليس عندها ما تحسد عليه امبريالية الحلفاء ، على صعيد الوقاحة واللصوصية »[١٣] . وقد قال ، في اليوم التالي ، وهو يعلن نشر المعاهدات السرية : « إن شعوب اوروبا قد دفعت ثمن حقها في معرفة الحقيقة تضحيات لا تحصى ، وإفقاراً شاملاً . وإلغاء الديبلوماسية السرية هو الشرط الأول لسياسة خارجية شريفة ، وشعبية ، وديمقراطية أصيلة »[١٤] .

(١١) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ٩٧ - ٩٩ .

(١٢) المرجع ذاته ، ص ١٥٧ .

(١٣) تروتسكي ، سوش ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ١٦١ .

(١٤) المرجع ذاته ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

عقد سفراء الدول المتحالفة مؤتمراً تداولياً قرروا فيه تجاهل رسالة تروتسكي ونصح حكوماتهم بعدم الاجابة عنها ، بحجة ان النظام السوفياتي غير شرعي . وقد تبعت الحكومات المتحالفة هذه النصيحة وقررت ألا تقيم علاقات رسمية إلا مع القيادة العليا للجيش الروسي ، أي مع الجنرال دوخونين الذي كان مركز قيادته العامة في موغيلييف . وبذلك كانت ترفع القيادة العامة للجيش إلى مستوى حكومة منافسة . وحذرت كذلك دوخونين من أية مفاوضات بشأن وقف للنار وأفهمته بوضوح كاف بأنه إذا انسحبت روسيا من النزاع يمكن لليابانيين أن يردوا بمهاجمة سيبيريا(١٥) . وللحال احتج تروتسكي على تلك المساعي وهدد بتوقيف كل الدبلوماسيين الحلفاء الذين يحاولون مغادرة بتروغراد للالتحاق بالقوى المعادية للبلاشفة في المقاطعات وتقديم الدعم لها . وطلب الى دبلوماسيي البلدان المحايدة استخدام نفوذهم لصالح السلم . وفي اليوم ذاته ، اقيل الجنرال دوخونين الذي رفض تطبيق الأمر بوقف النار رفضاً باتاً ؛ وقد اغتاله جنوده بفظاظة بعد أيام من تلك الحادثة حين علموا بأنه مصمم على مواصلة الحرب . وهكذا تم تعيين البلشفي كريلنكو ، وكان ملازماً في الجيش القيصري ، وأحد قادة الفرع العسكري في الحزب ، قائداً عاماً .

فجأة أخذت العلاقات بين روسيا والحلفاء طابع العداء الصريح الذي كان ينذر بحروب تدخل . وما كان يمكن ان يحصل شيء آخر . كانت الدول المتحالفة مصممة على مواصلة الحرب ؛ وما كان يمكن لسفرائها إلا أن يعملوا ضد الحكومة الروسية التي هددت بالانسحاب من النزاع . وكان محتماً بالتالي أن يؤدي بهم ذلك الى التدخل في شؤون روسيا الداخلية . إن العداء الجذري من جانب ديبلوماسيي المدرسة القديمة وجنودها حيال الثورة جعل من ذلك التدخل تدخلاً سيىء النية بمقدار ما هو عديم الحياء . والحالة هذه ، مالت السفارات والبعثات العسكرية الخاصة بالحلفاء إلى الاشتراك منذ البدء في الحرب الاهلية الروسية(١٦) . حاول تروتسكي التصدي لهذا الميل بمنع الانكليز والفرنسيين والاميركيين من التورط النهائي . وبتأييد من لينين ، فعل كل ما وسعه ليقنع الحلفاء بأن من مصلحتهم ألا تشعر روسيا بأنها متروكة كلياً ، إذ سيدفعها ذلك إلى توقيع صلح منفصل مع المانيا ، مهما تكن شروطه . إلا أن التحالف لم يول هذا التحذير إلا القليل من الاهتمام أو لم يوله

---

(١٥) ج . تولنز ، مهمتي كسفير في الاتحاد السوفياتي ، ج ١ ، ص ١٤٥ ؛ جون و . ويلر - بينيت ، السلم المنسي ، ص ٧١

(١٦) خلال الحرب العالمية الثانية ، تدخلت الدول الغربية أيضاً ، إزاء ارتداد فرنسا ، في الشؤون الداخلية الفرنسية . وفي حين كان تخلي روسيا في عام ١٩١٧ - ١٩١٨ ناجماً عن عناصر ثورية ، انسحبت فرنسا من الصراع في عام ١٩٤٠ في ظل حكومة يمينية محافظة . إن دراسة مقارنة لسياسة الحلفاء في هاتين الحالتين تكشف نقاط تماثل ونقاط اختلاف مذهلة . وهي تظهر ايضاً ، بصورة اوضح ، إلى أي حد كانت سياسة التحالف المعادية للبلشفية رد فعل على ارتداد حليف والى اي حد وجهها التضاد بين الطبقات .

أي اهتمام . وبقي السفراء على اتصال غير رسمي مع تروتسكي ، بواسطة أعضاء ثانويين في مِلاك سفاراتهم ، كالكابتن سادول ، من البعثة العسكرية الفرنسية ، وبروس لوكهارت ، من سفارة بريطانيا العظمى . وقد وجه تروتسكي عروضه واحتجاجاته إلى هذين الموظفين ، كما إلى الكولونيل روبينز التابع للصليب الأحمر الاميركي ؛ وعبرهم أعلم الحلفاء بالمفاوضات الاولية المتعلقة بالهدنة . والموظفون التابعون للحلفاء الذين كانوا على اتصال بتروتسكي تأثروا جميعاً بوجهة نظره وكانوا يأملون كثيراً أن يقنعوا بها رؤساءهم ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . لقد كتب سادول ، الذي كان في تلك الفترة اشتراكياً ـ وطنياً سادراً ، إلى البرتوماس ، أحد الممثلين الرئيسيين للاشتراكية ـ الوطنية الفرنسية ، كتب يقول : « ما زلنا نصر على إنكار أن الأرض تدور ؛ ونحن نواصل الاعلان بأن الحكومة البلشفية غير موجودة » . وقد لامت لندن بروس لوكهارت لأنه عامل تروتسكي بجدية كما لو كان « تاليران آخر »[١٧] .

وفي ١٤ تشرين الثاني / نوفمبر ، وافقت القيادة العليا الألمانية على التفاوض من أجل هدنة ، فأمر كريلنكو بوقف النار ودعا إلى « التآخي على الجبهات » ، آملاً أن يتأثر الجيش الألماني بالروح الثورية لدى احتكاكه بالقوات الروسية . في اليوم ذاته ، وجه تروتسكي المذكرة التالية إلى الدول الغربية :

« لقد اقترح الملازم كريلنكو ، القائد الأعلى لقوات الجمهورية ، تأجيل افتتاح مفاوضات الهدنة خمسة أيام ، حتى ١٨ تشرين الثاني / نوفمبر ـ اول كانون الاول / ديسمبر ، بما يسمح مرة اخرى للحكومات المتحالفة بأن تحدد موقفها . . . نحن ، مجلس مفوضي الشعب ، نطرح السؤال التالي على حكومات حلفائنا . . . نسألها علانية ، أمام شعوبها ، وفي وجه العالم بأسره ، إذا كانت تقبل الانضمام الينا في اول كانون الاول / ديسمبر من اجل مفاوضات السلام ؟ إننا . . . نناشد كل الأمم المتحالفة ، ولا سيما طبقاتها العاملة : هل تقبل أن تطيل هذه المجزرة العبثية وغير المجدية ، وان تدفع بالحضارة الأوروبية الى الهاوية بصورة عمياء ؟ . . . واليوم بالذات ينبغي الاجابة ، بأفعال وليس بأقوال . إن الجيش الروسي والشعب الروسي لا يستطيعان ـ ولا يريدان الانتظار مدة أطول . . . إذا لم ترسل الأمم المتحالفة ممثليها ، فسوف نفاوض الالمان لوحدنا . إننا نرغب السلام الشامل ، لكن إذا اجبرتنا بورجوازية البلدان المتحالفة على توقيع سلام منفصل ، فالمسؤولية تقع بكاملها على كاهل البورجوازية . وفي الختام ، نناشد جنود

(١٧) سادول ، المرجع ذاته ، ص ١٢٧ ؛ لوكهارت ، مذكرات مأمور انكليزي ، ص ١٩٧ ، ٢٢٦ ـ ٢٣١ .

البلدان المتحالفة العمل وعدم إضاعة ساعة واحدة . سحقاً لحملة الشتاء ولتسقط الحرب »[١٨] .

وفي تقرير للسوفييت ، أضاف تروتسكي : « ليس علينا في أي حال من الأحوال ان نسمح بتشويه مبادىء السلام الشامل التي نادت بها الثورة الروسية . . . وتحت الضغط الشعبي ، قبلت حكومتا المانيا والنمسا أن تظهرا بمظهر المتهمتين . يمكنكم ان تثقوا بأن القائم بالاتهام بشخص الوفد الثوري الروسي ، سيكون على مستوى مهمته ، وسوف يتلو قرار الاتهام في اللحظة المناسبة ضد دبلوماسية كل الامبرياليين »[١٩] .

بهذا الأسلوب الذي لا مثيل له دخل تروتسكي إلى عالم الدبلوماسية . وحتى في مركزه كمفوض للشؤ ون الخارجية بقي المحرض الأكبر للثورة . كان يراهن بكل شيء تقريباً على التناقض الفرضي أو الحقيقي بين المضطهدين والمضطَهدين . يكلم الأولين بحيث يسمعه كذلك الثانون . لكن لما لم يكن يستبعد امكانية الوصول الى تسوية مع الحكومات القائمة ، كان يضع في نداءاته الثورية مقداراً من الدبلوماسية المرنة والدقيقة إلى ابعد الحدود . وإذا كان جموحاً وذا عدوانية لاذعة حين يقابل العداء ، فقد كان يرد على ادنى بادرة تصالح بذوق وتهذيب . وحين تحدى الجنرال جودسون ، رئيس البعثة العسكرية الاميركية،مقاطعة الحلفاء فأتى يزوره ويعبر له عن الأمل بأن يتوقف الحلفاء في المستقبل عن استخدام التهديد ضد السوفييتات ، اجابه تروتسكي بأنه لا يرغب بالمخاصمة بصدد الماضي ، وبأنه راض تماماً عن تصريح الجنرال ، وأعاد التأكيد بأنه سيجري المفاوضات من اجل السلام جهاراً وعلى الملأ لكي يتمكن الحلفاء من متابعة تفاصيلها والمجيء فيما بعد للمشاركة فيها إذا رغبوا في ذلك[٢٠] . لكن حين دخل الجنرال نيسل ، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية ، المعتاد الكلام من عل مع الوزراء والجنرالات الروس في مكاتبهم الفخمة ـ كانت فرنسا الدائن الكبير لروسيا ومستشارها السياسي الكبير ـ حين دخل إلى سقيفة الفنان الصغيرة في سمولني ، واعتقد أن في وسعه التعالي أكثر أيضاً بمواجهة تروتسكي ، طلب إليه بطريقة غير بروتوكولية أبداً أن يغادر المكان . وأمر تروتسكي سفارة فرنسا بإغلاق مكتبها الصحافي الذي كان ينشر انباء مهينة بالنسبة للحكومة السوفياتية[٢١] . وحين جاء نولنز ، سفير فرنسا إلى معهد سمولني لتلطيف النزاع ، كان

(١٨) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ١٧٣ ـ ١٧٥ .
(١٩) المرجع ذاته ، ص ١٧٩
(٢٠) المرجع ذاته ، ص ١٨٥ .
(٢١) نولنز ، المرجع ذاته ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

تروتسكي كله لطف ومراعاة . وكانت اتصالاته الاولى مع الانكليز بهدف الطلب اليهم أن يطلقوا فوراً سراح تشيتشيرين ، مراسل ناشي سلوفو سابقاً ، وثوريين روس آخرين تم احتجازهم في انكلترا لكونهم قاموا بدعاوة من اجل السلام . ولما لم يتم إطلاق سراح تشيتشيرين أعلم سفارة انكلترا بأنه إذا لم تتم الاستجابة لطلبه فلن يسمح لأي مواطن انكليزي بمغادرة روسيا[٢٢] . وقد أصر تروتسكي ، بحزم وكرامة لم تكن تعرفهما الحكومات الروسية السابقة ، على ان تجري معاملة الدول الاخرى لروسيا على قدم المساواة ؛ ورد على الاهانة بالاهانة ، حتى لو اتخذت الإهانة شكل محاجة عقلانية .

وفي ١٩ تشرين الثاني / نوفمبر تلاقى وفدا الهدنة واقترح الالمان حالاً هدنة اولية لمدة شهر . وقد رفضت البعثة السوفياتية وطلبت تمديد وقف النار لمدة اسبوع فقط ، بحيث يعطي ذلك الدول الغربية الوقت لدراسة الوضع . ومرة اخرى ، خاطب تروتسكي سفارات الحلفاء ، ومرة أخرى ووجه مسعاه بصمت عميق . إلا أنه اعطى المفاوضين السوفيات التعليمات بعدم التوقيع على اية هدنة ، إلا إذا التزمت الدول المركزية بألا تنقل أية قوة من الجبهة الروسية الى الجبهات الغربية ، ومن جهة اخرى ـ وهذا شرط خارق تماماً ـ بأن تسمح بصراحة للسوفييتات بأن تقوم بالتحريض الثوري في صفوف القوات الالمانية والنمساوية . وقد رفض الجنرال هوفمان ، القائد الأعلى للجيوش الالمانية على الجبهة الروسية ، الشرطين معاً . وأمكن الاعتقاد لبعض الوقت بأن المفاوضات ستنقطع وبأن روسيا ستتورط من جديد في الحرب . وقد أعلن تروتسكي أمام جمهوره المألوف في السيرك الحديث ان السوفييتات ستستمر في طلب الهدنة على كل الجبهات . « لكن إذا اضطررنا لأن نوقع الهدنة منفردين ، سنقول عندئذٍ لألمانيا ان نقل القوات من الجبهة الروسية الى الجبهات الأخرى ليس أمراً مسموحاً به ، لأننا نعرض هدنة شريفة ولأنه لا يجب سحق فرنسا وانكلترا . . واذا رفض القيصر الالماني توقيع السلام بسبب هذه التصريحات المكشوفة والمباشرة والشريفة . . . سترى الشعوب من هو محق و . . . سوف نشعر بأننا منتصرون لا مهزومون ، لأن ثمة انتصارات غير الانتصارات العسكرية . . . وإذا امتنعت فرنسا وانكلترا . . . عن الانضمام الينا في المفاوضات ، فسوف يجبر الشعبان الفرنسي والانكليزي حكومتيهما على الانضمام الينا ، سوف يجبرانهما بضرب العِصيّ »[٢٣] .

---

(٢٢) كتب السفير الانكليزي في يومياته : « ثمة شيء متماسك في محاجة تروتسكي ، بعد كل حساب . واذا طالبنا بحق توقيف الروس الذين يقومون بالدعاوة السلمية في بلد يريد مواصلة الحرب، فله حق معادل في توقيف الرعايا الانكليز الذين يقومون بالدعاوة من اجل الحرب في بلد يريد السلام » . بوشانان ، المرجع ذاته ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٢٣) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٩ .

وفي اليوم ذاته ، في الثالث من كانون الاول / ديسمبر ، شرح امام مؤتمر سوفييتات الفلاحين لعموم روسيا ما يلي : « ثمة نقطة اخرى تثير نزاعاً جدياً ، هي الشرط بألا يجري تحويل أية قوة الى الجبهة الغربية ؛ وقد اعلن الجنرال هوفمان أن هذا الشرط غير مقبول . إن السلم في حالة توازن على حد سكين ، وسبق أن قلنا لمندوبينا ليلاً : لا تقدموا أي تنازل . آه ، لن أنسى أبداً تلك الليلة . فيما بعد ، رضخت المانيا وتعهدت بألا تحوّل أية فرقة ، باستثناء تلك التي أصبحت على الطريق . . . إن لنا ممثلين في هيئة الاركان الالمانية سيحرصون على أن يتم احترام التعهدات » . ثم نشر تروتسكي خارطة اشير عليها إلى حركات الفرق الالمانية في الشهرين اللذين سبقا الثورة ، ثم تابع قائلاً : « حين كان كيرنسكي ممسكاً بزمام السلطة ، عاملاً على إطالة أمد الحرب ، تمكنت هيئة الاركان من السماح لنفسها بسحب قوات . . . أما الآن فالحلفاء في وضع أفضل ، وذلك بفضلنا نحن »[٢٤] . ولا ريب ان القيادة الالمانية لم تقبل ذلك الشرط إلا تصنُّعاً ولم تكن لديها النية لاحترامه أبداً . إلا أن المستقبل قد اثبت ان كلمات تروتسكي لم تكن من قبيل التبجح الفارغ[٢٥] .

حتى ذلك الحين ، بقيت كل المسائل الكبرى التي طرحتها الهدنة معلقة . فالبلاشفة والاشتراكيون الثوريون اليساريون وطدوا العزم على اجراء مفاوضات سلام منفصلة ، لكن ليس على اجراء صلح منفصل . لكن حتى الذين كانوا يميلون ، كلينين ، لصالح سلم منفصل ، لم يكونوا مستعدين للحصول عليه بأي ثمن . كان الهدف الرئيسي للحكومة السوفياتية هو كسب الوقت ، والمناداة عالياً بأهدافها السلمية في هدوء الجبهة المفاجئ ، وسبر مدى قوة الخميرة الثورية في اوروبا ، وامتحان سلوك الحكومات الحليفة والمعادية .

لم يكن البلاشفة يشكّون في أن اوروبا على عتبة هزة اجتماعية عنيفة . إلا أنهم بدأوا يتساءلون إذا كان طريق السلام يمر بالثورة . أو إذا كان طريق الثورة يمر ، على العكس ، بالسلام . ففي الحالة الاولى ، تتولى حكومات ثورية إنهاء الحرب ، اما في الثانية فيكون على الثورة الروسية ان تتفاهم لفترة من الوقت مع السادة الرأسماليين . ويكون بمقدور

(٢٤) المرجع ذاته ، ص ١٩٩ .

(٢٥) ان السيد ويلر ـ بينيت ، في قصة صلح بريست ـ ليتوفسك الممتازة ، التي كتبها من وجهة نظر الحلفاء ، يلخص نتائجه بالشكل التالي : « إلا أنه ينبغي وضع صلح منتصرين موضع التنفيذ . لقد كانت تعبئة مليون جندي هي الثمن الذي دفعته المانيا من أجل توسعها ، وكان يكفي المانيا خمسمئة الف جندي لترجيح كفة الميزان لصالحها في بدايات معركة العمالقة التي كانت تتفاقم في الغرب » . المرجع ذاته ، ص ٣٢٧ .

الزمن وحده أن يظهر أي اتجاه ستتخذه الاحداث ، والى اي حد سيكون دفع الثورة الروسية هو الذي وجه تلك الأحداث . وحتى ذلك الحين ، لم تكن الاستقصاءات قد اعطت أية إشارة دقيقة . كانت الطبقتان العاملتان الالمانية والنمساوية في حالة غليان ظاهر ، لكن هل كان ذلك الغليان يبشر بانهيار فوري للعدو ، أو كان يتنبأ فقط بأزمة في مستقبل اكثر بعداً ؟ لقد رضخت وفود الدول المركزية بسهولة مذهلة ، وكان يمكن ان يكون ذلك نتيجة وضعها اليائس ، لكن كان يمكن ايضاً ان يخبىء فخاً منصوباً . زد على ذلك ان عداوة الحلفاء بدت متراخية آنذاك ، ففي حين كانوا يواصلون رفض الاعتراف بالسوفييتات ، وافقوا في أوائل كانون الاول / ديسمبر على منحها بعض الامتيازات الدبلوماسية التي يُحتفظ بها عموماً للحكومات المعترف بها رسمياً . هكذا أمكن لبريد السوفييتات الدبلوماسي أن ينتقل بين روسيا واوروبا الغربية ، وجرى الاعتراف بجوازات سفر دبلوماسية من الجانبين ، وأطلق سراح تشيتشيرين ، وعاد إلى روسيا ، وتبادل تروتسكي زيارات دبلوماسية مع بعض المبعوثين الغربيين . فهل بدل الحلفاء رأيهم بخصوص السلام ؟ لقد شرح تروتسكي في البرافدا تلك الأحداث ، التي قد تكون « دلائل على امكانية هدنة عامة ، وسلام شامل »[٢٦] .

وإذا كان بحث بعيداً جداً عن تفسيرات لما لم يكن،بعد كل حساب ، غير تفاصيل للعبة الدبلوماسية ، فذلك يفسره خطأ اساسي في طريقته بحل رموز المنظورات الاستراتيجية . ففي بداية الحرب ، حين كانت نظرية الحكومات وهيئات الاركان تقول إن الأعمال العدوانية لن تدوم طويلاً ، توقع تروتسكي ، ببعد بصيرة ، الركود طويل الأمد لحرب الخنادق[٢٧] . وكان يميل الى الاعتقاد أن أياً من المعسكرين لن يتمكن من تجاوز ذلك الركود الناجم عن توازن القوى المتصارعة . وقد أثبتت أحداث السنوات الثلاث اللاحقة تماماً صحة وجهات نظره التي ظل يؤكدها ، حتى حين كان أساسها ممعناً في الزوال . لقد دخلت الولايات المتحدة الحرب ، لكن تروتسكي لم يعدّل مع ذلك رأيه ، وبعد الثورة ، كما قبلها ، ظل يعتقد ان اياً من المعسكرين لن يتمكن من الانتصار . والنتيجة المنطقية لهكذا استدلال تتلخص في ان الحكومات المتقاتلة ستفهم مع الوقت أن من غير المجدي مواصلة القتال ، وستعترف بأن الرهان باطل وتتفق على الشروع بمفاوضات . وعلى أساس محاجّة من هذا النوع كان يتصور بجرأةٍ الامكانية الوشيكة لـ « هدنة عامة وسلام شامل » .

لكن البلاشفة كانوا يخافون ، في الوقت ذاته ، أن يوقع الحلفاء صلحاً منفصلاً مع

---

(٢٦) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ٢١٠ ـ ٢١١ .

(٢٧) انظر الفصل الثامن .

المانيا والنمسا ، ويرتدوا مع اعدائهم ضد الثورة الروسية . وكان لينين ، أكثر من أي شخص آخر ، يعبر سراً وجهاراً عن خوفه من ذلك الاحتمال . وحين انكشفت القصة السرية للحرب ، امكنت ملاحظة ان ذلك الخوف كان له ما يبرره ، فالمانيا والنمسا عمدتا سراً ومراراً ، معاً أو كل على حدة ، إلى جس نبض اعدائهما الغربيين ومدى استعدادهم للسلام[٢٨] . كان الخوف من الثورة يتصاعد في اوساط الطبقات الحاكمة في فرنسا وانكلترا ، وما كان يمكن أن تُستبعد سلفاً إمكانية اتفاق بين الحلفاء والدول المركزية تحت ضغط ذلك الخوف . لم يكن هنالك غير مخاطرة ، غير تهديد ، لكن ذلك كان كافياً ليدفع لينين للاعتقاد بأن صلحاً منفصلاً في الشرق هو وحده الذي يمكن أن يحول دون صلح منفصل في الغرب .

وباختصار ، كان البلاشفة متورطين في مآزق بالغة التعقيد : هل عليهم أن ينتظروا من أجل عقد السلام ان تكون الثورة قد انتشرت ، أو عليهم محاولة نشر الثورة عن طريق السلام ؟ وإذا كان طريق الثورة الاوروبية يمر بالسلام ، فهل ينبغي ان يكون هذا السلم عاماً أو منفصلاً ؟ . وإذا كانت شروط سلم منفصل مجحفة جداً ومهينة جداً بحيث لا يمكن القبول بها ، فهل في وسع البلاشفة ان يخوضوا حرباً ثوريةً ضد المانيا ؟ . واذا انخرطوا في تلك الحرب فهل يمكنهم من زاوية المبادئ ان يقبلوا مساعدة الحلفاء ؟ وهل سيكون الحلفاء مستعدين لمساعدتهم ؟ وفي حال جواب سلبي ، هل سيحاول هؤلاء الاخيرون توقيع صلح منفصل بأي ثمن ؟ واخيراً ، أليس من وسيلة للخروج من تلك المآزق ؟ .

وفي ٨ كانون الاول / ديسمبر ، عشية افتتاح مفاوضات سلم بريست ـ ليتوفسك ، تكلم تروتسكي أمام جمهور يضم اعضاء الحكومة ، والهيئة التنفيذية المركزية للسوفييتات ، وسوفييت بتروغراد ، ومجلس مدينة بتروغراد وقادة النقابات . وقد ألقى في ذلك اليوم إحدى خطبه الأكثر تميّزاً ، ليس فقط بكمالها الخطابي وسمو نزعتها الانسانية الثورية ، بل كذلك لأنها كانت تنطوي على التعبير المؤثر عن همومه الداخلية :

« لقد برهنت هذه الحرب حقاً عن قوة الانسان ومقاومته ، وعن قدرته على تحمل آلام لا مثيل لها . لكنها برهنت أيضاً عن الهمجية الباقية في قلب الانسان المعاصر . . . هو ، ملك الطبيعة هذا ، قد نزل الى اعماق الخندق من حيث يتربص بأخيه الانسان ، فريسته المقبلة ، عبر كُوى رمي ضيقة ، شبيهاً بسجين في زنزانته . . . لقد هوت البشرية إلى أسفل سافلين . . . ويخنقنا شعور بالخجل حيال الانسان ، ولحمه ، وروحه، ودمه ،

(٢٨) د . لويد جورج ، مذكرات الحرب . ج ٢ ، فصل ٧٠ ، ريشار فون كوهلمان ، ايرينيرونجن ، ص ٤٨٥ ـ ٤٨٧ .

حين نفكر ان شعوباً مرت بكل أطوار الحضارة ، بالمسيحية ، والاستبدادية ، والديمقراطية البرلمانية ، شعوباً تشبعت بالافكار الاشتراكية تتبادل القتل مثل عبيد بائسين تحت سياط الطبقات الحاكمة . وإذا قيض للحرب أن تكون لها هذه العاقبة المتمثلة بأن تعود الشعوب إلى معالفها لتلتهم فيها الفتات البائس الساقط من مائدة الطبقات المالكة ، إذا انتهت الحرب بانتصار الامبريالية ، ستظهر البشرية غير جديرة بآلامها الخاصة بها وبالجهود العملاقة لتلك الارادة التي دعمتها طوال آلاف السنين . إلا أن هذا لن يتم أبداً ، لا يمكن لهذا أن يتم أبداً .

« إن الشعب الروسي الذي انتفض على أرض دركي اوروبا القديم ، يعلن أنه يرغب في التكلم إلى اخوته الواقفين تحت السلاح . . . لا بلغة البندق بل بلغة تضامن الشغيلة الأممي . . . وهذه واقعة لا يمكن محوها من ذهن الجماهير الشعبية في كل البلدان . عاجلاً أو آجلاً ، ستسمع صوتنا ، وستأتي الينا وتمد نحونا يداً صديقة . وحتى لو . . . كان لأعداء الشعوب أن يغزوا بلادنا ، ولو قيض لنا أن نضمحل . . . سوف تنتقل ذكرانا من جيل لجيل ، وتوقظ الأجيال القادمة على نضال جديد . وبالطبع ، كان موقفنا بدا أسهل بكثير لو انتفضت شعوب اوروبا في اللحظة التي انتفضنا فيها ، لو كان لنا أن نتناقش ، لا مع الجنرال هوفمان والكونت كزرنين ، بل مع كارل ليبكنخت وكلارا زتكين وروزا لوكسمبورغ . إن هذا لم يحصل ، ولا ملامة علينا بسبب ذلك . لا يسع إخوتنا في المانيا ان يتهمونا بأننا دخلنا في مباحثات مع القيصر الالماني ، عدوهم اللدود، من وراء ظهرهم ؛ فنحن نكلمه ، نكلمه ، لكن كعدو . إن عداءنا الذي لا يلين للطاغية لا يتراخى ابداً .

« لقد أوقفت الهدنة الأعمال العدوانية . توقفت قرقعة المدافع وكل واحد ينتظر بقلق عله يعرف بأية لهجة ستكلم الحكومة السوفياتية آل هوهنزلرن وآل هابسبورغ . يمكنكم أن تمضوا فتقولوا في كل مكان أننا سنكلمهم على أساس أنهم اعداء الحرية . . . وأنه لن تجري التضحية بذرة واحدة من الحرية لصالح الامبريالية . عند ذلك فقط ، سينفذ المعنى الحقيقي لجهودنا إلى عمق وعي الشعبين الالماني والنمساوي » .

أعقب هذا النداء مقطع مثير للفضول ، حيث يفكر تروتسكي بصوتٍ عالٍ أمام سامعيه الكثر ، مفلتاً العنان لتردده وحيرته : « إذا حصل لصوت الطبقة العاملة الالمانية . . . أن لم يمارس تأثيراً قوياً وحاسماً بما فيه الكفاية . . . سيكون السلام مستحيلاً » . هذا ما أعلنه بفظاظة . ثم بدا كما لو كان يفكر : « لكن إذا اتضح أننا خدعنا ، إذا ساد صمت الموت هذا زمناً أطول في أوروبا ، إذا سوّل هذا الصمت للقيصر

ان يهاجمنا ويملي علينا شروطاً مهينة للكرامة الثورية لبلادنا ، لا أعرف ، نظراً للاهتزازات الاقتصادية والفوضى التي ولدتها الحرب والتشنجات الداخلية ، لا أعرف إذا كان في وسعنا الاستمرار في القتال » . ثم استدرك فجأة ، كما لو أنه أحس بأن سامعيه رزحوا تحت ثقل صيحة يأسه ، فهتف : « بلى ، سوف نتمكن من ذلك » . فقوبل بعاصفة من التصفيق الهادر . وانجرف في رد فعل جمهوره ، فأضاف : « لأجل حياتنا ، لأجل شرفنا الثوري ، سوف نقاتل حتى آخر نقطة من دمنا » . وقد ورد في محضر الجلسة هنا : « تصفيق جديد في غاية الحدة والكثافة » . إن الجمهور المؤلف من الزمر القيادية في الحزبين الحكوميين كان يبدي هكذا معارضته العاطفية لسلم منفصل .

وواصل تروتسكي كلامه قائلاً : « سوف يمضي المتعبون والعجزة . . . وسنخلق جيشاً قوياً من الجنود والحراس الحمر ، الذين يعزز بأسهم كل ما لديهم من الحماس الثوري . . . نحن لم نطح القيصر الروسي والبورجوازية لنركع أمام القيصر الالماني » . إذا عرض الالمان سلاماً غير عادل وغير ديمقراطي « سوف نذهب عندئذٍ إلى الجمعية التأسيسية ونقول لها : هذه هي الشروط التي يراد فرضها علينا ، فما رأيك ؟ فإذا قبلت الجمعية التأسيسية تلك الشروط ، سوف ينسحب الحزب البلشفي وهو يقول : ابحثوا عن حزب آخر يوقع سلماً بهذه الشروط . نحن البلاشفة ، والاشتراكيين الثوريين ايضاً ـ كما آمل ـ ، ندعو كل الشعوب للحرب المقدسة ضد عسكريي كل البلدان » . ولقد كان سيصاب بالغم لو تخيل ان الاشتراكيين الثوريين اليساريين سوف ينتفضون في تاريخ لاحق ضد البلاشفة باسم تلك « الحرب المقدسة » وانه سوف يتولى بنفسه قمعهم . واختتم بقوله : « اذا لم نكن قادرين على القتال ، بسبب الفوضى الاقتصادية . . . لن ينتهي الصراع مع ذلك ، بل سيؤجل فقط ، كما كانت الحال عام ١٩٠٥ ؛ لقد سحقتنا القيصرية يومذاك ، لكننا عشنا ننتظر يوم معاودة النضال . لذا مضينا إلى مفاوضات السلم من دون تشاؤم وبلا أفكار سوداء . . . »[٢٩] . وقد تركت كلماته الجمهور في حالة من الاثارة شبيهة بحالة جماهير بتروغراد قبل الانتفاضة ، حين كانت تردد خلفه عبارات القَسَم الثوري .

بدأت مفاوضات بريست ليتوفسك في ٩ كانون الاول / ديسمبر . سمح ممثلو الدول المركزية بالاعتقاد بأنهم موافقون « على عقد سلم فوري عام ، من دون ضم أو تعويضات »[٣٠] . وقد طلب يوفي الذي كان يقود الوفد السوفياتي هدنة اضافية لعشرة أيام من أجل إعطاء الدول الغربية الوقت لتعديل موقفها . خلال الهدنة ، لم تجتمع غير لجان

(٢٩) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ٢١١ ـ ٢١٧ .
(٣٠) ميرنيي بيريغوفوري ف بريست ليتوفسك ، ص ٩ .

مؤتمر السلم التداولي ، وكانت اعمالها تتم في مناخ من الدماثة الغريبة . أما المفاوضات الحقيقية فلم تبدأ إلا في ٢٧ كانون الأول / ديسمبر ، لدى وصول تروتسكي . في غضون ذلك ، بادر مجلس مفوضي الشعب إلى عدد من المساعي المثيرة . كثف دعاوته ضد الامبريالية الالمانية ؛ وبمعاونة كارل رادك الذي وصل الى روسيا منذ قليل ، اصدر تروتسكي داي فاكيل (الشعلة) ، التي جرى توزيعها في الخنادق الألمانية . وفي ١٣ كانون الاول / ديسمبر ، صوتت الحكومة على مبلغ مليوني روبل يرصد للدعاوة الثورية في الخارج ووفرت كل ما تتطلبه تلك البادرة من إمكانات اعلامية . وفي ١٩ ، بدأتسريح الجيش الروسي ، وألغت الحكومة الاشغال الشاقة بالنسبة لأسرى الحرب الالمان والنمساويين ، وسمحت لهم بمغادرة المعسكرات وتنظيم أنفسهم والعمل مثل مواطنين احرار . واعتبرت المعاهدة الانكليزية ـ الروسية لعام ١٩٠٧ لاغية ، تلك المعاهدة التي تقسم بموجبها بلاد فارس بين الدولتين الموقعتين . وفي ٢٣ كانون الاول / ديسمبر أمرت الجيوش الروسية بالانسحاب من شمالي فارس . وفي الاخير ، أوعز تروتسكي إلى يوفي كي يطلب نقل مؤتمر السلام من بريست ـ ليتوفسك الى ستوكهولم ، أو أي مكان آخر في بلد محايد .

بعد الانتفاضة بشهرين فقط ، في ٢٤ أو ٢٥ كانون الاول / ديسمبر ، مضى تروتسكي إلى بريست ـ ليتوفسك . في الطريق ، وخصوصاً في محيط الجبهة ، استقبلته وفود السوفييتات والنقابات المحلية مشجعة إياه على تسريع المفاوضات والعودة بمعاهدة سلام . وقد ذهل حين لاحظ أن الخنادق الروسية شبه فارغة ، فالجنود الذين كانوا يحتلونها تفرقوا أيدي سبأ . وضابط الارتباط الألماني الذي اجتاز معه الجبهة نقل إلى رؤسائه أن تروتسكي « يزداد إحباطاً »[٣١] . كان يدرك بقوة وألم أنه سيكون عليه ان يواجه العدو من دون قوة مسلحة خلفه . إلا أن هذا زاده إصراراً على استخدام « أسلحة النقد » . كان يسافر معه أيضاً كارل رادك الذي كانت أمتعته تمتلئ بالأهاجي الثورية . ولم يكد يتوقف القطار في بريست ـ ليتوفسك حتى بدأ رادك يوزع منشوراته على الجنود الالمان ، على مرأى من الدبلوماسيين والضباط المتجمعين على رصيف المحطة لاستقبالهما . إن رادك ، اليهودي البولوني ، والمواطن النمساوي ـ المجري رسمياً ، كان قد غدا مشهوراً في الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الالماني بسبب اهاجيه اللاذعة والعنيفة . إن وجوده في بريست كعضو في الوفد الروسي لم يكن يمكن إلا أن يثير استنكار الدبلوماسيين الالمان والنمساويين . وكان معداً لإظهار ان الثورة تدافع عن قضية طبقة لا عن قضية أمة ، وأنه

(٣١) كونت اوتوكار كزرنين ، في الحرب العالمية ، ص ٢٣٢ .

حتى مفهوم « العدو القومي » غريب عنها . لقد اوضح تروتسكي لسادول انه طلب الى رادك ان يرافقه لأنه « يثق بذكائه الحاد وصدقه السياسي ، ولأنه مقتنع بأن تصلب هذا الرجل النشيط والمتحمس وديناميته سينشطان يوفي وكامينيف والمندوبين الروس الآخرين متناهي النعومة »(٣٢) .

كان مكان الاجتماع مشؤوماً ومقفراً . فمدينة بريست ـ ليتوفسك قد احرقتها القوات الروسية المنسحبة ودمرتها في بداية الحرب . ولم يبق سليماً غير القلعة العسكرية القديمة حيث استقرت القيادة العامة لجيوش الشرق الالمانية . وقد اقامت الوفود في أكواخ صارمة داخل القلعة ، واستخدمت قاعة طعام الضباط قاعة للاجتماعات . انتقل هكذا مظهر ثكنة بروسية وجوّها إلى السهل البولوني ـ الاوكراني ، وشعر المندوبون الروس قليلاً بأنهم يشبهون أسرى في معسكر اعتقال ، إذ كانت تحيط بهم الاسلاك الشائكة ، وعلى مقربة منهم الحراس ، وسط الرواح والمجيء اليوميين في مركز عسكري . كان الالمان قد أصروا على أن تتم المفاوضات في ذلك المكان ، لأنهم كانوا يجدونه ، من جهة ، مناسباً ، ولأنهم كانوا يبغون ، من جهة اخرى ، إذلال المندوبين السوفيات . إلا أنهم اهتموا كذلك بوضع قفازات مخملية . وقبل وصول تروتسكي ، كانت الوفود تتعشى وتتغدى معاً ، وقد خيب آمالها الامير ليوبولد دو بافيير الذي كان قائداً عاماً ، وانصرفت لاجتماعيات اخرى مختلفة . ومن سخرية القدر أن الذين كانوا يتحمسون هكذا لأعمال اللياقة واللطف ، كانوا ، من جهة ، اسماء كبيرة من الارستقراطيتين الالمانية والنمساوية ، ومن الأخرى ، محرضين محترفين ، وسجناء قدامى ، ولا سيما امرأة إرهابية ، اشتراكية ثورية يسارية ، اسمها بيتسنكو ، كانت قد اغتالت وزير حرب قيصرياً وحكم عليها بالاشغال الشاقة . إن روح الالمان والنمساويين الاجتماعية النفّاذة بلبلت قادة الوفد البلشفي ، وقد برهن كلّ من يوفي وكامينيف وبوكروفسكي وكاراخان ، وكانوا ثوريين معتدلين ومهذبين ، عن بعض الارتباك في المناقشات ، وهو أمر يمكن فهمه لدى الدبلوماسيين المبتدئين . وخلال كل المرحلة الاولى من المباحثات ، التي قاد فيها يوفي الوفد السوفياتي ، هيمن كلياً على المؤتمر وزير الخارجية الالماني كوهلمان .

وحين وصل تروتسكي أعلن عن استيائه من هذا الوضع . فبناء على إلحاح لينين ، قبل المجيء ليغير وجهة المؤتمر جذرياً . بدأ يرفض بجفاف لقاء الامير ليوبولد دو بافيير ، وقرر أن التآخي الاجتماعي قد طال بما فيه الكفاية . وقد كتب الجنرال هوفمان يقول :

(٣٢) سادول ، المرجع ذاته ، ص ١٧٦ .

« إن وصول تروتسكي وضع حداً للعلاقات الودية التي قامت بين جلسة واخرى من جلسات المؤتمر . فقد طلب تروتسكي أن تتناول الوفود طعامها منفصلة ، ومنع عموماً ، أي احتكاك وأي تسلية شبه رسمية »(٣٣). أما كزرنين ، وزير خارجية النمسا ، فكتب في يومياته : « يبدو أن الريح تهب في اتجاه غير الاتجاه السابق »(٣٤) . كان يكفي أن يبادر دبومالسي معادٍ تروتسكي بمجاملة ودية أو بحركة فيها نوع من الدالّة حتى يتوتر ويظهر جفافه . فالمظاهر ينبغي أن تتطابق مع الواقع ، حيث ان المفاوضات تتم مع أعداء لا مع أصدقاء .

أول جلسة حل فيها تروتسكي محل يوفي على رأس الوفد الروسي تمت في ٢٧ كانون الأول / ديسمبر . افتتحها كوهلمان معلناً أن المبدأ الذي قبلته الدول المركزية ـ سلم من دون ضم ولا تعويضات ـ لا يمكن تطبيقه إلا في حالة سلام عام . ولما كانت الدول الغربية قد رفضت أن تشارك في المفاوضات ، ولما لم يكن وارداً ، بالتالي ، غير صلح منفصل ، فإن المانيا وحليفاتها لا تشعر بأنها مرتبطة بهذا المبدأ(٣٥) . ورفض الطلب السوفياتي بنقل مركز المؤتمر الى بلد حيادي وهاجم الدعاوة السوفياتية ضد الامبريالية الالمانية التي قال انها تثير الشكوك حول صدق رغبات روسيا السوفياتية في السلام . إلا أن كوهلمان ألقى خطابه بلهجة سترضائية . حينئذٍ احتج الجنرال هوفمان الذي كانت أمامه رزمة من البيانات السوفياتية الموجهة للجنود الالمان ، احتج بدوره باسم القيادة الالمانية العليا . وانضم اليه الدبلوماسيون النمساويون وَالأتراك والبلغاريون . أما تروتسكي ، الذي راز خصومه ، فأصغى إليهم بابتسامة ساخرة قليلاً ، ثم طلب تعليق المفاوضات يوماً واحداً ، من دون أن يرد على الاتهامات .

بين خصومه ، تبرز ثلاثة وجوه بوضوح . فكوهلمان ، البافاري الكاثوليكي والتقليدي ، كان الدبلوماسي الأكثر فطنة في المانيا الامبريالية ، ولم تكن تنقصه لا الفتنة الشخصية ، ولا سعة النظر ، ولا الشجاعة . لقد أدرك قبل أي من خدام القيصر الالماني الآخرين ان المانيا ستخسر الحرب على الجبهتين وكان نافد الصبر ليوقع في الشرق سلاماً لصالح حكومته لا يكون مفروضاً بشكل شديد الوضوح على روسيا . ربما كان الوحيد بين القادة الالمان الذي فهم أن سلماً مفروضاً يعادل هزيمة بالنسبة لالمانيا : إن سلماً من هذا

(٣٣) داي اوفريشنونجن دس جنرالما جورز ماكس هوفمان ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .
(٣٤) كزرنين ، المرجع ذاته ، ص ٢٣٢ .
(٣٥) ميرنيي بيريغوفوري ، ص ٤٥ .

النوع يدل الأمم الأخرى سلفاً على ما يمكنها أن تنتظره من المانيا ظافرة ويدفعها الى تشديد مقاومتها . إلا أن القيادة العليا عارضت سياسة كوهلمان بشراسة . وفي نظر هيندنبرغ ولودندورف اللذين فعلا كل ما في وسعهما لإفقاده اعتباره ، لم يكن أفضل من خائن. كان على كوهلمان ان يدافع عن نفسه من وراء الستار ، بالتالي ، ضد العسكريين . وفي حين كان يتنازع علناً مع تروتسكي ، لجأ العسكريون والدبلوماسيون إلى التحكيم الأعلى للقيصر ، الذي دعم الأولين تارة والآخرين طوراً ، لكنه كان قلبياً مع الأولين فسمح لهم هكذا بفرض أنفسهم على الحكومة المدنية . وكان لكوهلمان ما يكفي من الصلابة ، لا لتحدي لودندورف وحسب ، بل حتى ليتجاوز في إحدى المناسبات ، أمر القيصر الفظ ، القاضي بقطع المفاوضات . إلا أن خلافاته مع العسكريين كانت تتناول الشكل اكثر مما تتناول المضمون : فمثلهم كان يرغب في إعطاء المانيا المناطق البولونية والبلطيقية التي تم انتزاعها من روسيا . إلا أنه كان يريد الحصول على ظاهر موافقة من روسيا ، ويكمن ضعفه ، كما اعترف فيما بعد ، في كونه لم ينجح في ذلك ابداً . كان يريد كذلك أن يموّه ضم المانيا لتلك الأقاليم بحيث يبدو كما لو كان تحريراً . أما الجنرالات فما كان لديهم الوقت ولا الصبر للانصراف إلى أمور مرهفة من هذا النوع .

كان من المفترض أن يكون الجنرال هوفمان عين القيادة العليا وأذنها وذراعها القوي في المؤتمر . وكان مكلفاً بالوصول بالمفاوضات لنتيجة سريعة لتتمكن الدول المركزية من سحب قواتها من الجبهة الشرقية واطلاقها في هجوم حاسم واسع النطاق على الجبهة الغربية . ومن وقت لآخر ، كان يبدي غضبه ونفاد صبره حيال طرائق كوهلمان . إلا أنه لما كان اكثر دهاء من رؤسائه واكثر إدراكاً لقوة الثورة ، فلم يكن يتجاهل ما لطرائق كوهلمان من المزايا . لذا كان يرضخ احياناً امام كوهلمان فتنصب عليه بالتالي صواعق لودندورف[٣٦] .

أما الكونت كزرنين ، وزير خارجية النمسا ، فكان المعاون اللامع لكوهلمان . كان لديه وعي اكثر حدة ايضاً من وعي زميله الالماني للكارثة التي كانت تهدد الدول المركزية. فانطلاقاً من المعاهدات السرية التي نشرها تروتسكي ، كان يعرف أن الحلفاء يطمحون إلى تفكيك الامبراطورية النمساوية ـ المجرية . كانت المجاعة تسود فيينا ، ويهز التمرد الأمم التابعة ، وكانت الامبراطورية قد بدأت تنهار ؛ وقد فكر كزرنين بأنه لن

(٣٦) اعتقد تروتسكي ، عن خطأ ، ان الجنرال هوفمان هو الناطق الشرعي بلسان القيادة الالمانية العليا . وهذا ما يمكن أن يفسر أنه اساء تقدير مدى عزم المانيا على معاودة الأعمال العدوانية ضد روسيا .

يستطيع إطالة عمرها إلا إذا استعار من المانيا بعض قـوتها . لذا كان يصاب حقاً بالذعر كلما بدا له أن فظاظة هوفمان تقلل من حظوظ السلام . وقد هدد في البدء زملاءه الالمان بعقد سلام منفصل ، ثم لما كانت حكومته تزداد ارتهاناً للمساعدة الالمانية يوماً بعد يوم فقد تخلى عن تهويله . وحاول كذلك أن يلعب بلطف دور الوسيط مع انه لم يكن قليل الخوف من « الخصم الماهر وشديد الخطر ، كما يصف تروتسكي ، الموهوب بصورة خارقة . . . سرعة رد وحذقاً نادراً ما وقعت عليهما»[٣٧]. وفي ساعات الفراغ كان كزرنين يقرأ مذكرات الثوريين الفرنسيين محاولاً أن يجد فيهاقياساً قديماً يقيس به « خصمه الخطير » ومتسائلاً إذا لم تكن ثمة شارلوت كورداي[*] روسية تتربص الدوائر بتروتسكي .

ويبدو أن كزرنين كان الوحيد الذي انصرف الى تأملات من هذا النوع وبحث في التاريخ عن مقارنات معزّية . فبعض زملائه لم يجد بادئ ذي بدء في تروتسكي ورفاقه غير مغامرين صغار ، ومحدثي نعمة غامضين ، وفي أفضل الأحوال دون كيشوتيين دفعت بهم نزوة من نزوات القدر الى المسرح ليلعبوا عليه فصلاً قصيراً ومضحكاً من فصول المأساة العالمية التي كانوا هم ، الخدام الكبار لسلالتين مجيدتين، ممثليها الرئيسيين . ولم يكونوا يشكّون في امكانية شراء المندوبين الروس ببعض الخطوات التافهة ، إلا أنهم كانوا يريدون إعادتهم بادئ ذي بدء الى مقامهم الفعلي . وهذا ما حاولوا القيام به إبان أول جلسة عمل مع تروتسكي ، وتبنوا الموقف ذاته في الجلسة اللاحقة . وقد واجهوا الوفد السوفياتي بالأوكرانيين الذين كانوا يزعمون تمثيل اوكرانيا المستقلة وانكروا على بتروغراد حق الكلام باسم كل روسيا .

تلك كانت المصالح والشخصيات والمطامح الداخلة في اللعبة حين قام تروتسكي في ٢٨ كانون الاول / ديسمبر بمداخلته الأولى . وقد تخلص من قضية اوكرانيا ، إذ اعلن ان السوفييتات لا تعارض مشاركة اوكرانيا في المفاوضات : فالسوفييتات اعترفت بحق كل القوميات بتقرير مصيرها ، وهي تنوي احترام هذا الحق . ولم يطرح للمناقشة اوراق اعتماد المندوبين الاوكرانيين الذين كانوا يمثلون الرادا ، وهي جمهورية اقليمية ، أو بالأحرى كاريكاتور لنظام كيرنسكي . وحاول كوهلمان مرة أخرى ان يثير صراعاً مكشوفاً بين الروس والأوكرانيين ، بحيث يسمح له ذلك بأن يلعب دور المستفيد من خصومة الطرفين ، إلا أن تروتسكي تحاشى الفخ مرة اخرى . وحين عرّج على الاتهامات

---

(٣٧) كزرنين ، المرجع ذاته ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

(*) فتاة فرنسية اغتالت الثوري الفرنسي المشهور مارا عام ١٧٩٣ .

والاعتراضات المدلى بها في اليوم السابق ، رفض تقديم أدنى اعتذار عن الدعاوة الثورية التي تتولاها السوفييتات في صفوف القوات الالمانية . قال انه أتى لمناقشة شروط سلام ، لا حدود حرية حكومته في عرض أفكارها . والسوفييتات لا تثير أي اعتراض على الدعاوة المناهضة للثورة التي يقوم بها الالمان في صفوف المواطنين الروس ، فالثورة واثقة بشكل كافٍ بنفسها وبقيمة مثلها العليا بحيث لا تبدي استياءها من أية مناقشة مفتوحة . وينتج عن ذلك أن الألمان لم يكن لديهم أي مبرر للتشكيك بصدق رغبة روسيا في السلام . أما ما يمكن توجيه الاتهام له فهو مدى صدق المانيا ، لا سيما حين يرى المرء الوفد الالماني يصرح انه لم يعد يعتبر نفسه مرتبطاً بمبدأ سلم من دون إلحاق أو تعويض « أما نحن ، فنعتبر من الضروري التأكيد بأن مبدأ السلم الديمقراطي ، المبدأ الذي نادينا به ، لم يصبح في نظرنا لاغياً بمرور عشرة أيام . . . هذا المبدأ يبقى بالنسبة الينا القاعدة الملائمة لتعايش الشعوب وتعاونها » .

واحتج من جديد على الانعزال المصطنع لبريست التي تتم فيها المفاوضات . كان المستشار الالماني قد قال في الرايخستاغ ان المؤتمر قد يتعرض ، إذا تم في بلد حيادي ، لمكائد الحلفاء . وأعلن تروتسكي : « إن حماية الحكومة الروسية من المكائد المعادية هي من اختصاص حكومة روسيا ذاتها بوجه الحصر » . علينا أن نجيب عن انذار : إما مفاوضات في بريست ـ ليتوفسك ، أو لا مفاوضات على الاطلاق » ، إنذار يعيدنا إلى الشعور بالقوة الذي تحس به المانيا ، وإلى اقتناعها بأن روسيا ضعيفة . « لا يمكننا ـ ولا نريد ـ أن نحاول إنكار أن السياسة التي اعتمدتها الطبقات الحاكمة في بلادنا حديثاً قد أضعفتها . إلا أن موقع بلد في العالم لا يحدده الوضع الحالي لجهازه التقني وحسب ؛ ينبغي أن تؤخذ بالحسبان أيضاً الطاقات الكامنة فيه » . لا يمكن قياس القدرة الاقتصادية لالمانيا ، التي يموت سكانها من الجوع ، انطلاقاً من الوضع الراهن لتموينها . إن الدول المركزية تميل إلى عقد سلم « لا يستند إلى اتفاق بين الشعوب ، بل إلى خارطة حرب مزعومة . وهذا ميل يؤذي بالدرجة ذاتها الأمتين الروسية والالمانية ، لأنه إذا كانت خرائط الحرب تتغير فالأمم باقية » . وقال تروتسكي ايضاً ، نحن هنا في بريست ـ ليتوفسك « لكي لا ندع فرصة سلام واحدة تفوتنا . . . لنعرف هنا في القيادة العليا للجبهة الشرقية، بصورة واضحة ودقيقة ، إذا كان سلام . . . ممكناً حالياً ، من دون عنف تجاه البولونيين واللّيتوانيين والليتونيين والاستونيين والارمن وشعوب اخرى ضمنت لها الثورة الروسية حقها الكامل في تقرير مصيرها » . إلا أنه لم يكن في وسع المؤتمر أن يستمر إلا بشرط واحد هو ان تكون المفاوضات علنية بشكل كامل . وقد رفض تروتسكي خوض مباحثات خاصة ، وهو ما

كان كوهلمان طالب به ، معتقداً ان التصريح الاستفزازي الذي ادلى به تروتسكي لم يكن معداً إلا لإنقاذ ماء الوجه[٣٨]

وبعد يومين ، ناقشت الوفود المشروع الالماني لمعاهدة السلام . وفي البدء ، اعطت حادثة صغيرة دبلوماسيي الدول المركزية المتزنين انطباعا بأنهم يلعبون كوميديا لشو[*] . فمقدمة المعاهدة تنص على روشم[**] محترم مفاده أن الأطراف المتعاقدة ترغب في العيش بصداقة وسلام . ولم يكن كاتبو المشروع يتخيلون أن صيغة كهذه قد تثير اعتراضات ، إلا أنهم كانوا مخدوعين ، فقد قال تروتسكي : « سأمارس حقي في اقتراح إلغاء الجملة الثانية التي تتحدث عن الصداقة بين الأطراف المتعاقدة . فأسلوبها الزخرفي والتقليدي لا يتناسب ، حسبما يبدو ، مع المضمون الجاف والعملي للنص »[٣٩] . ولم يتوصل الدبلوماسيون المحترفون ، نصف المستمتعين ، نصف المستنكرين ، إلى أن يفهموا : هل يتكلم تروتسكي بجدية ؟ وكيف يمكنه أن يلغي بكل تلك العجرفة صيغة زخرفية وتقليدية إلى ذلك الحد ؟ وأضاف تروتسكي بجسارة : « إلا أن هكذا إعلانات ، تجر نفسها من وثيقة دبلوماسية لأخرى ، لم تميز إلى الآن العلاقات الحقيقية بين الدول » ؛ وقال إنه لا يمكنه إلا أن يأمل أن تتولى عوامل اكثر جدية تسوية تلك العلاقات في المستقبل . وللحال شعر الدبلوماسيون كما لو أنه قيل لهم إنهم وأباطرتهم أيضاً عراة . ما عساها تكون تلك « العوامل الأكثر جدية » ؟ وأية صيغة كان تروتسكي يود اقتراحها ؟ فأجاب هذا أن في وسعه أن يحددها لهم ، لكنه متأكد أنهم لن يوافقوا عليها . وقد تواصلت الردود الهازلة فترة من الوقت ، لكن العبارات التي تتحدث عن الصداقة توارت من المشروع .

ثم تلت مناقشة درامية حول مبدأ حق تقرير المصير ، كان يتقرر فيها مصير الأمم الواقعة بين روسيا والمانيا . وقد احتل النقاش الذي كان بطلاه تروتسكي وكوهلمان عدداً كبيراً من الجلسات ، واتخذ شكل نزاع بين تفسيرين لتقرير المصير . ومن الجانبين خيضت المناقشة دون حماس ظاهري ، كما لو كان الأمر يتعلق بجدال أكاديمي حول مشكلات حقوقية وسوسيولوجية وتاريخية ؛ لكن خلف تلك المشكلات كانت ترتسم جانبياً حقائق الحرب والجمهورية ، والاحتلال والالحاق . ولما كان كوهلمان مقتنعاً بأن تروتسكي لم يكن يحاول اكثر من اضفاء ثوب ملائم على استسلام روسيا ، فقد اندفع يزود تروتسكي ،

---

(٣٨) ميرنيي بيريغوفوري ، ص ٥٢ ـ ٦٠ .

(*) المقصود الكاتب المسرحي الانكليزي جورج برنارد شو (م) .

(**) الروشم هو الكليشيه (م).

(٣٩) المرجع ذاته ، ص ٦٦ .

ونفسه أيضاً ، بصيغ باذخة حيث يجري اظهار إلحاق بولونيا والدول البلطيقية بالمانيا كما لو كان تكريساً لحق تلك الدول في تقرير مصيرها . لذا فوجئ حين أصر تروتسكي على تسمية الإلحاق إلحاقاً ، مسقطاً كل الأقنعة والأعذار الكاذبة . وقد دافع كوهلمان عن قضيته بمنطق منهجي ، صارم ، لكن دقيق ، كان عيبه الوحيد يتمثل في أنه يختصر حكمة رجل دولة محافظ إزاء ظاهرة الثورة التي لا يمكن التحكم بها . كان تروتسكي تجسيداً لهذه الظاهرة في المؤتمر ، تجسيداً مزوداً بمنطق اكثر صراحة واكثر دقة ، أيضاً ، وبحيوية ذهنية لا تجارى . كان تروتسكي يتسلى بشكل ظاهر بسخريته وبتهكمه الخاصّين به اللذين كانا يثيران تذمر الجنرال هوفمان ، ويجعلانه يغتاظ من دون داع ، بينما كان المندوبون الآخرون يكظمون ضحكاتهم بصعوبة شديدة . ومرة ، رجا تروتسكي الجنرال أن يتذكر أن خلافاتهما لم تكن ناجمة عن اختلافات بسيطة في الرأي بل عن تباينات اساسية : فهو ، رئيس الوفد الروسي ، كان لا يزال تحت طائلة عقوبة حبس حكمت عليه بها محكمة ألمانية بسبب قيامه بدعاوة سلمية . وفجأة رأى الجنرال نفسه شريكاً لشخص يستحق الشنق ؛ كان ذلك كما لو أنه انتزعت منه كل أوسمة بزته ، فانسحب من النقاش . وحين سأله كوهلمان إذا كان يريد إضافة شيء ، أجاب ، وهو يدمدم : « كلا ! كفى ! » .

كانت كل فقرة تقريباً من مشروع المعاهدة تضم تأكيد مبدأ نبيل ، ونفيه ايضاً . فأحد البنود الاولى كان ينص على ضرورة الجلاء عن الاراضي المحتلة ؛ وهو ما لم يمنع كوهلمان ابداً من التصريح بأن المانيا تنوي احتلال الاراضي المنتزعة من روسيا ، حتى توقيع سلم شامل ، لا بل إلى ما لا نهاية له بعد السلم . وزعم كوهلمان أيضاً ان بولونيا والبلدان الاخرى التي احتلها الالمان مارست حقها في تقرير مصيرها ، لأن الالمان أقاموا فيها حكومات قومية . فأجاب تروتسكي قائلاً إنه ما من بلد يتمكن من تقرير مصيره طالما تحتله قوات أجنبية . « الشرط الأولي هو أن تغادر القوات الأجنبية تلك الأراضي » . وبكل تهذيب ، ودون ذكر أحد باسمه ، لكن بطريقة تجعل الجميع يفهمون ، أكد تروتسكي أن الحكومات التي نصّبها الالمان لم تكن غير حكومات عميلة .

ولما كان النقاش أصبح اكثر تعقيداً ، وأخذ طابعاً مجرداً ، فقد توقف تروتسكي عن الكلام بالروسية وشرع يتكلم الالمانية . ووسط تعابير حقوقيةودبلوماسية ، احس كوهلمان بأنه في بيئته وأعاد إطلاق النقاش من دون حذر . تساءل قائلاً : « متى تأتي أمة الى الوجود ، في نظر رئيس الوفد الروسي ، ككيان منفصل ؟ إذا لم يكن في وسعها ، ان تولد في ظل احتلال أجنبي ، فكيف تحدث ولادتها ومتى ؟ » . وقد سر تروتسكي بأن تتوفر له

فرصة جديدة لإعادة تأكيد وجهة نظره ، فأجاب عن السؤال المربك بطريقة الحذف . فما هو ثابت أنه ما من أمة مستقلة طالما هي تحت الاحتلال وطالما لا تستمد حكومتها وادارتها قواهما إلا من وجود الفرق الأجنبية . إن المعيار الحاسم هو إرادة الشعب المعبر عنها بحرية وديمقراطية في استفتاء . ففنلندا التي احتلتها القوات الروسية مثل نموذجي . وفي اوكرانيا : « لا تزال سيرورة تقرير المصير جارية » . إلا أن كوهلمان لفت الانتباه إلى ان حكومة يتم خلقها هكذا تثير انقطاعاً في الاستمرارية الشرعية ؛ والاستمرارية الشرعية هي الألف والياء بالنسبة لذهن محافظ . وقد ذكّر تروتسكي الوزير الالماني أن دولة محتلة تقطع الاستمرارية الشرعية ، وتفعل ذلك من دون التبرير الذي يمكن أن تستعين ثورة به . وردّ كوهلمان بحذق قائلاً إنه إذا ادعت ثورة انها لا تستند إلى أي أساس شرعي فلأن أساسها الوحيد إذّاك ، هو القوة والأمر الواقع . وبدا تروتسكي محصوراً ، على وشك أن تنفد حججه ، ؛ فإذا اعترف بهذه النقطة الاخيرة ، فهو يتخلى بذلك عن كل امكانية احتجاج على الأمر الواقع الذي تنطوي عليه الإلحاقات الالمانية . وقد اجاب بإقامة تمييز بين القوة التي تطفو من داخل امة بالذات وتجعل تلك الأمة تختار مصيرها ، والقوة الأجنبية التي تفرض نفسها على إرادتها .

أظهر النقاش مفهومين لا يمكن أن يلتقيا يتناولان التاريخ والاخلاق . ان ادنى لحظات تلك المبارزة قد جرت روايتها ، وإساءة روايتها ، في العالم اجمع . فالأمم المتعرضة للاحتلال ، التي كان مستقبلها على كف عفريت ، كانت تلهث . وفي إحدى اللحظات ، أوحى كامينيف لتروتسكي أن يوضح بأنه إذ ينكر على المانيا حق إبقاء تلك الأمم تحت سيطرتها إنكاراً بتلك الدرجة من الشراسة ، لا يطالب بذلك الحق لروسيا كما كان فعل أي دبلوماسي روسي تقليدي . فأعلن تروتسكي : « إننا نتعهد بألا نجبر تلك البلدان مباشرة أو مداورة على القبول بهذا أو ذاك من أشكال الحكم ، وبألا نسيء بأي شكل من الأشكال لاستقلالها عبر أي اتفاق عسكري أو جمركي . . . ونود أن نعرف إذا كان الوفدان الالماني والنمساوي ـ المجري مستعدين لقطع تعهدات مماثلة . . .؟ » .

كان ذلك يعيد النقاش إلى مشكلات شائكة . وقد أجاب كوهلمان بأن لحكومات البلدان التي تحتلها المانيا الحق في عقد كل الاتفاقات التي ترغب في عقدها ؛ لا بل من حقها التنازل عن قطعة من الأرض للمحتل . وقول ذلك كان بالنسبة لكوهلمان توضيحاً لمقاصده ، وهو ما جره إليه تروتسكي بكل لباقة . وقد قال هذا الأخير ، الذي لم يكن يريد ترك هكذا حجة تمر : « إن رئيس الوفد الالماني ، حين يعلن ان لهؤلاء الناس (الحكومات العميلة) حق عقد معاهدات واتفاقات والتنازل عن أراضٍ ، ينبذ مبدأ تقرير المصير نبذاً

نهائياً وقاطعاً » . لم تدعُ الدول المركزية حكومات البلدان المحتلة للمجيء الى بريست ـ ليتوفسك ، وهذا وحده كافٍ لإظهار انها تعاملها كأجرام لا ارادة خاصة بها . « ولا يسمّى هذا في اللغة التقليدية التي نستخدمها في ظروف كهذه حق الشعوب في تقرير مصيرها ، بل إلحاقاً ، وهي صيغة مختلفة تماماً . . . »[٤٠] .

وقد حشر تروتسكي خصمه بشكل واضح في الزاوية ومع ذلك لم يكن استدلاله مفحماً بشكل كامل ، وهو كان أقل تأثيراً على الرأي الالماني مما انتظره ، وذلك من جراء دقة ذلك الاستدلال ورهافته . ولم يتمكن في كل حال من أن يحرك الى حد بعيد العمال والجنود الالمان الذين كان معداً لاستثارتهم . وهنا كان يكمن ضعف ذلك القسم من الدراما . ولم تصبح المناقشة شعبية فجأة ، ومن وجهة النظر البلشفية خصبة سياسياً ، إلا عندما تدخل الجنرال هوفمان ، مستعجلاً لارتداء أسلاب حرب أخيل . انفجر الجنرال الذي خرج عن رقابة كوهلمان قائلاً : « إن الوفد الروسي يتكلم كما لو كان يمثل غازياً منتصراً على بلادنا . أود أن أذكّر أعضاءه بأن الوقائع تثبت العكس : إن القوات الالمانية الظافرة هي التي تقف على الأرض الروسية . وأود أن اضيف ان الوفد الروسي يطلب منا ان نعترف بحق تقرير المصير في شكل وعلى مستوى لا تعترف بهما حكومته . . . إن القيادة الالمانية العليا تعتبر من الضروري رد هذا التدخل في شؤ ون المناطق المحتلة » . كان هوفمان يرفض خوض أي نقاش حول الجلاء .

بالنسبة لتروتسكي ، كانت تلك هي المناورات الكبرى ، وقد سأل هوفمان ساخراً إذا كان يمثل القيادة الالمانية العليا أو الحكومة الالمانية . وقوبل السؤ ال بـ[*] schaden Freude من جانب كوهلمان وكزرنين . إذا كان المهم ، كما يزعم الجنرال ، هو وضع القوات الحالي ، فالروس الذين كانوا يستولون على اراضٍ نمساوية وتركية كان بإمكانهم أن يكلموا النمساويين والاتراك بلهجة غير اللهجة التي يخاطبون بها الالمان ، وهو ما امتنعوا عنه تماماً . وأعلن تروتسكي رضاه عن فظاظة ملاحظات هوفمان بصدد السياسة البلشفية الداخلية ؛ لقد دعا هو بالذات خصومه كي يعبروا عن افكارهم بصراحة ودون لف أو دوران . « الجنرال محق تماماً حين يقول إن حكومتنا تستند الى القوة . فالتاريخ لم يعرف إلى الآن حكومات استغنت عن القوة . . . إلا أن عليّ الوقوف بشكل جازم ضد تأكيد خاطىء كلياً : ليس صحيحاً أننا اعتبرنا اولئك الذين لا يفكرون مثلنا خارجين على القانون .

---

(٤٠) المرجع ذاته ، ص ٨٤ ـ ٨٥ ؛ كوهلمان، المرجع ذاته ، ص ٥٢٤ ـ ٥٣٢ .

(*) بالالمانية في النص (م)

وسأكون سعيداً جداً إذا علمت ان الصحافة الاشتراكية - الديمقراطية الالمانية تتمتع بحرية الصحافة ذاتها التي تتمتع بها صحافة خصومنا والمعادين للثورة في روسيا » . (في تلك الفترة ، كانت المقارنة لا تزال لصالح السوفييتات) . وواصل تروتسكي قائلاً : « إن ما يذهل حكومات البلدان الأخرى ويثير غيظها هو كوننا نوقف الرأسماليين الذين يعلنون إغلاق المعامل ، بدل أن نوقف العمال الذين يضربون ؛ وبدل أن نطلق النار على الفلاحين الذين يطالبون بالأرض ، نوقف المالكين والضباط الذين يحاولون اطلاق النار على الفلاحين »[٤١] . وشدد على التناقض بين محاجة كوهلمان ومحاجة هوفمان . فالأول ادعى أن للبلدان التي تحتلها المانيا حكومات مستقلة الى هذا الحد أو ذاك ، بينما حاول الثاني أن يبرر استمرار الاحتلال الالماني بواقع انه ليس لتلك البلدان ادارة خاصة بها . لكن مهما اختلفت محاجتا الجنرال والوزير فهما يصلان إلى النتيجة ذاتها ، وهو ما يثبت أن « فلسفة الحق لا تتدخل إلا في المقام الاخير حين يقرران مصير الأمم الحية »[٤٢] .

كان لتلك الاعادة الى الرشد تأثير مدمر . يشير هوفمان في يومياته قائلاً : « كان لخطابي تأثير أقل مما كنت أتوقع »[٤٣] . أما كوهلمان ففقد برودة أعصابه ، وتأسف لأنه انجرف في طريق الدبلوماسية المكشوفة[٤٤] . وقد حاول فيما بعد أن يمحو الآثار السيئة لتدخل هوفمان شارحاً ضرورة عذر « صراحة الجندي الفظة » . بينما لاحظ تروتسكي ان العذر لا يفعل غير إثبات ان الفروق بين المدنيين والعسكريين في المعسكر المعادي ليست سوى مسألة شكل ، لا مسألة مضمون إطلاقاً . « أما نحن ، اعضاء الوفد الروسي ، فلا ننتسب للمدرسة الدبلوماسية . ينبغي أن نعتبر انفسنا بالأحرى كجنود للثورة . واعترف بصراحة اننا نفضل التصريحات الواضحة والدقيقة من كل النواحي »[٤٥] .

وفي ٥ كانون الثاني / يناير ، طلب تروتسكي تعليق المؤتمر للتمكن من إبلاغ حكومته مطالب المانيا . وكان مضى على بدء المؤتمر ما يقارب الشهر . وقد تم كسب الكثير من الوقت ، وكان على الحزب والحكومة الآن ان يتخذا قراراً . وفي طريق العودة إلى

---

(٤١) ميرنيي بيريفورقوري ، ص ١٠٢ .

(٤٢) توجه تروتسكي على انفراد الى كوهلمان الذي اشار في مرافعته إلى قرار للمحكمة العليا في الولايات المتحدة بعد حرب الاستقلال . قال : « إن السيد سكرتير الدولة كان بدا اكثر امانة حيال شخصه لو استلهم قضاء جورج الثالث لا قضاء جورج واشنطن » .

(٤٣) هوفمان ، المرجع ذاته ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

(٤٤) ميرنيي بييريغوڤوري ، ص ١٠٠ - ١٠٤ .

(٤٥) المرجع ذاته ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

بتروغراد ، تأمل تروتسكي من جديد الخنادق الروسية التي بدا فراغها ذاته يطالب بالسلام . لكنه كان يعرف اليوم افضل من أي وقت مضى ان ثمن السلام هو فقد الحظوة والمهانة الكلية لروسيا والثورة . وفي برست ، حين كان يقرأ الصحافة الاشتراكية الالمانية والنمساوية صدمته ملاحظته أن تلك الصحافة كانت تصور المؤتمر احياناً كمسرحية مرتبة سلفاً ليس من شك بما يخص حلها . كان بعض الاشتراكيين الالمان يعتقدون حقاً ان البلاشفة عملاء للقيصر الالماني ، وحتى اولئك الذين لم يكن لديهم شك في نزاهة لينين وتروتسكي كانوا يعتبرون سياستهما كـ « لغز بسيكولوجي » . إن الرغبة في غسل الحزب من كل أدرانه كان بين أهم الأسباب التي حكمت سلوك تروتسكي في المؤتمر(٤٦) . كان يبدو الآن أن جهوده لم تمر دون ثمار ، فقد بدأت مظاهرات واضرابات من اجل السلام اخيراً في البلدان المعادية ؛ وفي برلين وفيينا ، كانت ترتفع احتجاجات عنيفة ضد محاولات هوفمان لفرض شروطه . وقد استخلص تروتسكي من كل ذلك، أنه ليس على السوفييتات أن ترضخ لتلك الشروط . كان عليها ان تنتظر لحظة مؤاتية وتحاول ان تقيم بينها وبين الدول المركزية حالة لا تكون السلم ولا الحرب . ضمن هذه الاستعدادات الذهنية وصل الى سمولني حيث كان منتظراً بنفاد صبر وبقلق .

* * *

وصل تروتسكي إلى بتروغراد في ذروة النزاع الذي كان دائراً بين السوفييت والجمعية التأسيسية التي دعيت أخيراً إلى الانعقاد . وبعكس توقعات البلاشفة وحلفائهم ، كانت أغلبية اعضاء الجمعية من الاشتراكيين الثوريين اليمينيين . لذا قرر البلاشفة والاشتراكيون الثوريون اليساريون حل الجمعية ، وهو ما حصل بعد أن رفضت المصادقة على مراسيم لينين حول الأرض والسلم ونقل السلطات آلى السوفييتات . وفي البدء جرى التذرع لتبرير هذا الحل بالحجة القائلة إن الانتخابات قد تمت وفقاً لقانون انتخابي لاغٍ أعِدّ خصيصاً في أيام كيرنسكي لإعطاء وزن للفلاحين الميسورين لا يتناسب مع حجمهم . والمفارقة التي سمحت للبلاشفة بأن يكونوا اغلبية في السوفييتات وأقلية في الجمعية جرى شرحها في الفصل السابق . أما السبب الحقيقي للحل فكان عدم تلاؤم سلطة الجمعية مع سلطة ال سوفييتات . كان يجب حل الجمعية أو الاجهاز على ثورة اوكتوبر ، وقد دعم تروتسكي الحل بشدة ودافع عنه باستمرار ، إما شفهياً أو كتابة ، مضطلعاً هكذا بالمسؤولية الأدبية

(٤٦) انظر مقدمة تروتسكي لميرنيي بيروغولوري .

من دون تحفظ[٤٧] . فمنذ ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ ، دافع عن ديكتاتورية البروليتاريا ، التي تضطلع بها السوفييتات ، ومن الطبيعي ألا يكون أبدى أي تردد حين يكون الخيار بين الديكتاتورية والبرلمانية . إلا أنه لم يلعب أي دور مباشر في تشتيت الجمعية ، هذا الأمر الذي تم في ٦ كانون الثاني / يناير ، أي قبل عودته إلى بتروغراد . وفي ٧ كانون الثاني / يناير ، أي يوم وصوله ، عاش هو ولينين لحظات من القلق لأنه بدا أن انصار الجمعية على وشك تنظيم مظاهرة شعبية كبرى ضد الحل . إلا أن المظاهرة اجهضت بشكل يائس ؛ وسوف ننتظر وقتاً لاحقاً ، خلال الحرب الاهلية ، لتتشكل في منطقة الفولغا « حركة من أجل الجمعية التأسيسية »[٤٨] .

في ٨ كانون الثاني / يناير ، أي بعد يومين من حل الجمعية التأسيسية ، انصرفت اللجنة المركزية كلياً للنقاش حول السلم والحرب ، الذي خاضته بغية التعرف إلى استعدادات الحزب بحضور مندوبين بلاشفة آتين من المقاطعات لحضور المؤتمر الثالث للسوفييتات . وقد قدم تروتسكي تقريراً عن مهمته وعرض استنتاجاته : لا سلم ولا حرب . اما لينين فأصر على قبول الشروط الالمانية . وتكلم بوخارين على « حرب ثورية » ضد آل هابسبورغ وآل هوهنزلرن ، وتم التصويت فأعطى نجاحاً ساحقاً لأنصار الحرب الثورية ، الذين تمت تسميتهم « شيوعيين يساريين » ، فلم يحصل مشروع لينين لصالح سلم فوري إلا على ١٥ صوتاً ، وحصل مشروع تروتسكي على ١٦ صوتاً ، بينما احرز مشروع بوخارين الداعي للحرب ٣٢ صوتاً[٤٩] . إلا ان هذا التصويت لم يكن يلزم اللجنة المركزية ، لأن عناصر لا تنتمي للجنة شاركت فيه .

وسرعان ما اصبح الحزب البلشفي بكامله ممزقا بين من يدافعون عن السلم ، ومن يناصرون الحرب . وكان وراء هؤلاء الاخيرين اكثرية واسعة ، لكن مرتبكة ، يعززها للغاية الاشتراكيون الثوريون اليساريون الذين لم يكن يريد السلم احد منهم . إلا أن جناح

---

(٤٧) انظر الفصل حول الجمعية التأسيسية في الدفاع عن الارهاب ، ص ٤١ . ٤٥ ؛ انظر كذلك تريتيي فسيروس . سييزل سوفييتوف ، ص ١٧ ، ٦٩ ـ ٧٠ .

(٤٨) يروي انطونوف ـ اوفسينكو الحادثة بصورة شبه ساخرة . كان لينين قد استلم تقريراً يقول ان الاشتراكيين الثوريين اليساريين يسيرون على رأس مظاهرة من ١٠٠ ألف شخص في اتجاه قصر توريد . اما امرأة تروتسكي التي شاهدت المتظاهرين فقدرت عددهم بـ ٢٠ ألفاً . فوجه لينين وتروتسكي امرأ عصبياً لأنطونوف ـ أوفسينكو بتفريق التظاهرة . فمضى انطونوف على رأس فوج نحو قصر توريد فلم يجد احداً يفرقه . « كان انصار الجمعية قد أتوا ، وقاموا بصخب مجيد واختفوا كأشباح صينية . ولم يكن هناك اكثر من ٥ آلاف متظاهر ، كعدد اجمالي » . انطونوف ـ اوفسينكو ، زابيسكي او غرازدانسكوي فويني ، ج ١ ، ص ١٨ ـ ١٩ .

(٤٩) بروتوكولي تسن . كوم . ، ص ٢٠٠ .

الحرب لم يكن واثقاً من قضيته ، ولم يبرهن من أجل العودة إلى الأعمال القتالية عن القوة ذاتها التي اثبتها في معارضته للسلم .

وفي الاجتماع اللاحق للجنة المركزية ، في ١١ كانون الثاني / يناير هاجم جناح الحرب لينين بشدة . واتهمه دزرجينسكي بأنه يصل في خشيته إلى حد أن يجحد كل برنامج الثورة ، مثلما فعل كامينيف وزينوفييف في اوكتوبر ، وأوضح بوخارين أن قبول أمر القيصر الالماني يعادل توجيه طعنة خنجر لظهر البروليتاريا الالمانية والنمساوية . ففي فيينا ، كان ثمة إضراب عام ضد الحرب . أما اوريسكي فرأى أن لينين ينظر للمشكلة « من وجهة نظر روسية ضيقة ، لا من وجهة نظر اممية » . وهو خطأ وقع فيه سابقاً . وباسم منظمة بتروغراد ، أدان كوسيور موقف لينين . أما أنصار السلم الأكثر حزماً فكانوا زينوفييف وستالين وسوكولنيكوف . فتماماً كما في اوكتوبر ، لم يكن زينوفييف يرى إلى أي شيء يجري الاستناد لانتظار ثورة في الغرب ؛ وكان يعتقد ان تروتسكي أضاع وقته في بريست ، وتنبأ للجنة المركزية بأن المانيا ستفرض فيها بعد شروطاً اكثر قساوة . وعبر ستالين عن وجهة نظر مشابهة ، لكن اكثر تنوعاً . وبمعرض شرح سوكولنيكوف ان حماية الثورة هي الاعتبار الذي يجب ان يتغلب على اي اعتبار آخر ، بشّر في صيغة مثيرة للفضول بتعديل لاحق لمنظورات الحزب ؛ قال : « إن التاريخ يُظهر أن ملح الأرض ينتقل تدريجياً نحو الشرق . ففي القرن الثامن عشر ، كانت فرنسا ملح الأرض ، والمانيا في القرن التاسع عشر . أما اليوم فروسيا »(٥٠) .

وبدا لينين متشككاً حيال نهاية الاضراب العام في النمسا ، هذا الاضراب الذي كان تروتسكي وجناح الحرب يعلقان عليه أهمية بالغة ؛ ثم رسم لوحة لعجز روسيا العسكري . وقد اعترف بأنه يدافع عن سلم « مخزٍ » وبأن هذا السلم خيانة لبولونيا ، إلا أنه أعلن عن اقتناعه بأنه إذا رفضت الحكومة ذلك السلم ستتم تصفيتها ، وستجد حكومة اخرى نفسها مجبرة على القبول بشروط أسوأ . إلا أنه انتقد الحجج الفظة للغاية التي قدمها ستالين وزينوفييف اللذان كانا يستندان إلى الانانية المقدسة للثورة الروسية . لم يكن يجهل الطاقات الثورية لدى البلدان الغربية ، إلا أنه كان يعتقد أن السلم سيسرّع نضجها . ربما يحبل الغرب بثورة ، إلا أن الثورة الروسية أصبحت « ولداً سليماً وهو يصرخ بعنفوان » ، ويجب حماية وجودها .

وضمن تلك الظروف ، قدم اقتراح تروتسكي ارضية تلاقٍ بالنسبة للجناحين

(٥٠) المرجع ذاته ، ص ٢٠٦ .

المتعارضين ، مع ان كلاً منهما لم يقبل منه ، في اعماق ذاته ، غير الجزء الذي يتطابق مع مواقعه . فجناح الحرب تبناه لأنه يجعل السلم امراً مستحيلاً ، ولم يرد لينين ومجموعته فيه غير وسيلة لإيقاف جناح الحرب عند حده . كان لينين يريد ترك تروتسكي يقوم بمحاولة ثانية ، ويكسب الوقت بوجه خاص ، لا سيما ان تروتسكي كان يقوم بكل ما في وسعه لإقناع الشيوعيين اليساريين بأن من قبيل الافتقار الكلي للواقعية الاعتقاد بأن بالامكان خوض حرب ثورية . وبناء على اقتراح من لينين ، كلفت اللجنة المركزية ، بالاجماع عدا صوت واحد هو صوت زينوفييف ، كلفت تروتسكي بأن يؤخر بكل الوسائل توقيع السلم . عندئذٍ عرض تروتسكي حله الخاص : « نوقف الحرب ولا نوقع السلم ؛ ونسرح الجيش » . وقد صوت تسعة اعضاء مع هذا الاقتراح ، وسبعة ضده . وهكذا كلف الحزب تروتسكي رسمياً بمتابعة سياسته في بريست[٥١] .

قدم تروتسكي كذلك تقريره إلى المؤتمر الثالث للسوفييتات . كانت الأكثرية الساحقة في المؤتمر تناصر الحرب لدرجة أن لينين بقي في المؤخرة . حتى تروتسكي أصر على معارضته للسلم أقل مما على معارضته للحرب . وقد كتب شاهد انكليزي يقول : « إن خطاب السهرة الكبير قد القاه تروتسكي الذي جرى الاصغاء الى تقريره بانتباه خاشع . كل الانظار كانت مشدودة إليه ، لأنه كان في ذروة تأثيره . . . ، الرجل الذي يجسد إرادة روسيا الثورية ، متكلماً للعالم الخارجي . . . وحين انهى تروتسكي خطابه الكبير ، نهضت الجمعية الواسعة من العمال والجنود والفلاحين . . . وانشدت نشيد **الأممية** بشكل احتفالي . وكان الانفجار عفوياً بقدر ما كان عميق التأثير بالنسبة لأولئك الذين شهدوه (ومؤلف هذه السطور من بينهم) . . .»[٥٢] . ووافق المؤتمر على تقرير تروتسكي بالاجماع ، إلا أنه لم يتخذ قراراً وأطلق يدي الحكومة بالكامل .

وقبل العودة الى بريست ، عقد تروتسكي اتفاقاً خاصاً مع لينين عدّلا بموجبه قرارات اللجنة المركزية والحكومة تعديلاً جذرياً بما يخص إحدى النقاط . وقد وعد بأنه سيتخلى عن سياسته في بعض الظروف لصالح سياسة لينين ، فتكتيكه لم يكن صالحاً بالفعل إلا طالما يسمح له الالمان بتجنب كل خيار بين السلام والحرب . وتساءل لينين بقلق : ما الذي يحدث لو اختاروا أن يعاودوا الأعمال الحربيّة ؟ وكان مقتنعاً بحق أن هذا ما سيتم . وفي حين لم يكن تروتسكي ينظر إلى هذا الخطر كاحتمال جدي ، تعهد بتوقيع السلم إذا صحّت

---

(٥١) المرجع ذاته ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٧ .

(٥٢) فيليبس برايس ، ذكرياتي حول الثورة الروسية ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

مخاوف لينين . واذا كان رأى هو ولينين أن من حقهما تجاوز قرار اللجنة المركزية والحكومة القاطع ، فلأن هذا القرار كان غامضاً : إن عبارة « لا حرب ولا سلم » لم تكن تولي أي اهتمام للاحتمال الذي كان يقلق لينين بالدرجة الأولى . إلا أن اتفاقهما الخاص كان هو الآخر غامضاً كما سيثبت ما تلا ذلك . كان لينين مقتنعاً بأن تروتسكي تعهد بتوقيع السلام حالما يكون عليه أن يواجه إنذاراً أو تهديداً بهجوم الماني جديد . أما تروتسكي فكان يعتقد انه تعهد بقبول شروط السلام مذ يكون الالمان بادروا عملياً إلى هجوم جديد . ، وانه ، حتى في تلك الحالة ، لم يعد بقبول شروط غير تلك التي حددتها حتى ذلك الحين الدول المركزية ، ولم يعد إطلاقاً بقبول الشروط الأكثر سوءاً التي أملتها فيما بعد .

حوالى منتصف كانون الثاني / يناير ، استعاد تروتسكي مقعده في بريست على طاولة المؤتمر . في غضون ذلك ، كانت الاضرابات والتظاهرات من اجل السلم في المانيا والنمسا قد قمعت ، أو أصبحت في النقطة المائتة في احسن الأحوال . ووجد تروتسكي بمواجهته خصوماً مفعمين بثقة بالنفس جديدة . عبثاً تخلى عن كل بروتوكول وطلب دعوة الاشتراكيين الالمان والنمساويين الى بريست[٥٣] . وعبثاً طلب السماح له بالذهاب الى فيينا للاتصال بفيكتور أدلر الذي احتج في البرلمان النمساوي ضد سلوك الجنرال هوفمان في بريست . إلا أنه تمكن من قضاء أوقات قصيرة ، في فرصوفيا ، حيث استقبل بحرارة لدفاعه عن استقلال بولونيا .

كانت اوكرانيا ، وبولونيا ، في هذه المرة ، الموضوعين الرئيسيين في المناقشات . فكوهلمان وكزرنين كانا يعدان من وراء الستار سلماً منفصلاً مع الرادا الأوكرانية ، في حين كان البلاشفة يدعمون بقوة ثورة سوفياتية في اوكرانيا . كانت الرادا لا تزال تسيطر على كييف ، إلا أن خاركوف اختارت لنفسها حكومة سوفياتية رافق أحد ممثليها تروتسكي حين عاد الى بريست . لقد تم تغيير غريب في المواقف داخل الاحزاب الاوكرانية ، فأولئك الذين كانوا يناصرون في ظل القيصر وحدة أو اتحاداً فدرالياً مع روسيا ، غدوا يميلون الآن لصالح الانفصال . والبلاشفة الذين شجعوا الانفصالية في السابق ، اصبحوا يؤيدون الاتحاد الآن . اصبح الانفصاليون اتحاديين والعكس بالعكس ، لا بفعل نزعة وطنية روسية او اوكرانية ، بل لأنهم كانوا يرغبون في الانفصال عن نظام الحكم القائم في روسيا أو في الانضمام إليه . وكانت الدول المركزية تأمل الاستفادة من هذا الانقلاب في المواقف .

---

(٥٣) كانت الحكومة الالمانية قد رفضت للتو السماح للقادة الاشتراكيين ـ الديمقراطيين الالمان بالذهاب الى ستوكهولم ، من حيث كان هؤلاء ينوون الاتصال بقادة الثورة الروسية .

وبطرح أنفسهم كحماة للانفصالية الاوكرانية ، كانوا يأملون وضع يدهم على موارد اوكرانيا الزراعية والمواد الاولية فيها ، التي هم بأمسّ الحاجة إليها ؛ وكانوا يأملون أيضاً أن يردوا إلى نحر روسيا حجة تقرير المصير . أما الرادا الضعيفة ، قليلة الثقة بذاتها ، والمشرفة على الانهيار ، فكانت تحاول الاستناد إلى الدول المركزية ، رغم قَسَم الاخلاص الذي أقسمته تجاه الحلفاء . كان وفد الرادا مؤلفاً من سياسيين أغرار وقليلي النضج - من البورششن burschchen ، كما كان يقول كوهلمان[٥٤] - خارجين لتوّهم من غاباتهم ، تسحقهم الأدوار التي أنيطت بهم في لعبة الشطرنج الدبلوماسية الكبيرة تلك .

حتى في ذلك الحين ، لم يعترض تروتسكي على مشاركة ممثلي الرادا ، إلا أنه أبلغ أن روسيا لن تعترف بأي اتفاق منفصل بين هؤلاء والدول المركزية . وقد حذر كذلك كوهلمان وكزرنين من انهما يضخمان قوة الانفصالية الأوكرانية . حينئذٍ اندفع لوبينسكي ، مندوب الرادا ، في هجوم عنيف ضد تروتسكي والحكومة السوفياتية ، متهماً إياهما بدوس حقوق اوكرانيا بالأقدام ، وبفرض حكومات مصطنعة في خاركوف وكييف بالقوة . وقد كتب كزرنين في يومياته : « كان تروتسكي مبلبلاً لدرجة ان رؤيته تثير الرثاء . علاه شحوب غير معتاد ، وكان ينظر أمامه بتحديق . . . وتسيل نقاط عرق ضخمة على جبينه . ومن البديهي أنه كان يحس بخجل عميق ، وهو يتلقى هكذا الشتائم من مواطنين له ، بحضور العدو »[٥٥] . وقد أنكر تروتسكي فيما بعد أن يكون عانى من هكذا ارتباك ، إلا أنه يبدو من الممكن تصديق كلام كزرنين . فهو لاحظ بالتأكيد أن خصومه نجحوا في التشويش حول موضوع تقرير المصير . ولا بد أنه تساءل في أعماق ذاته إذا لم يكن مندوب الرادا محقاً في الادعاء بأن سوفييتات أوكرانيا لا تمثل الشعب الأوكراني[٥٦] . وهذا لا يعني أن تروتسكي احس بوساوس كبيرة حيال فرض سيطرة السوفييتات في أوكرانيا ، لأنه لم يكن في وسع الثورة أن توطد سيطرتها في روسيا من دون الامتداد الى اوكرانيا التي كانت تغوص عميقاً بين روسيا الشمالية وروسيا الجنوبية . لكن كانت تلك المرة الأولى التي تتناقض فيها مصالح الثورة مع مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها ؛ وما كان في وسع تروتسكي بعد ذلك الحين أن يتمسك بهذا المبدأ بضمير مرتاح قدر ما كان كذلك في السابق .

---

(٥٤) ايرينيرونجن ، ص ٥٣١ .

(٥٥) كزرنين ، المرجع ذاته ، ص ٢٤٦ .

(٥٦) هذا ما تسمح بالاعتقاد به رسالة خاصة من تروتسكي للينين وجدتها في محفوظات تروتسكي ، في هارفارد ، مؤرخة في نهاية الحرب الأهلية . في هذه الرسالة يؤكد تروتسكي بشكل جازم أن الأدارة السوفياتية في اوكرانيا ارتكزت منذ البدء على اناس تم أرسالهم من روسيا ، لا على عناصر محلية . وكان تروتسكي يطلب وضع حد جذري لطريقة الحكم تلك .

ثم عاد الى الهجوم بصدد بولونيا ، فسأل لماذا لم تكن بولونيا ممثلة في بريست . فأجاب كوهلمان أنه لا يمكن لبولونيا أن تكون حاضرة في المؤتمر إلا اذا اعترفت روسيا سلفاً بالحكومة البولونية القائمة . فقال تروتسكي : « يسألوننا أيضاً إذا كنا نعترف ، أو لا نعترف باستقلال بولونيا . . . إن السؤال المطروح هكذا ملتبس . هل نعترف باستقلال ايرلندا ؟ إن حكومتنا تعترف به ، طبعاً . . . لكن ايرلندا يحتلها الانكليز حتى الآن . إننا نعترف بحق كل إنسان في التغذية . . وهذا يختلف تماماً عن الاعتراف بأن كل إنسان جائع هو شبعان »[٥٧] . والاعتراف بحق بولونيا في الاستقلال لا يعني اطلاقاً أن نسلّم بأنها مستقلة تحت الوصاية النمساوية ـ الالمانية . وهنا هرع رادك بفعالية إلى المساعدة فانتقد بشدة طغيان النمسا والمانيا على مسقط رأسه : تكلم على النفي القسري لمئات الألوف من الفلاحين البولونيين الى المانيا ، وعلى الظروف القاسية جداً التي تم فيها ذلك ، وعلى سجن قادة كل الاحزاب السياسية البولونية ، بمن فيهم خصم رادك القديم بيلسودسكي ، الذي كان آنذاك قائد الفرقة البولونية وقاتل سابقاً الى جانب المانيا والنمسا ، وسيصبح ديكتاتور بولونيا .

في أوج تلك النقاشات ، تلقى تروتسكي في ٢١ كانون الثاني / يناير رسالة من لينين تنبئه بسقوط **الرادا** واعلان الحكومة السوفياتية في كل اوكرانيا[٥٨] . فاتصل شخصياً بكييف ، وتأكد من صحة النبأ ، ثم أبلغ الدول المركزية بأنه لم يعد يعترف بحق **الرادا** في المشاركة بأعمال المؤتمر .

كانت تلك أيامه الأخيرة في بريست . فالاتهامات والاحتجاجات المتبادلة ادت الى وضع اصبحت المفاوضات معه عقيمة فلم يعد بالامكان اطالتها اكثر . وفي الاستراحة بين الجلسات ، كان تروتسكي يغير أفكاره وهو يكتب من شباط / **فبراير الى بريست - ليتوفسك** ، وهو مؤلَّف صغير ، نوع من التمهيد لكتاب **تاريخ الثورة الروسية** المدهش والضخم ، الذي سيكتبه بعد ١٥ سنة ، في منفاه بجزيرة برينكيبو . وأرسل أخيراً كتاباً إلى لينين يقول فيه : « سنعلن أننا نضع حدّاً (للمفاوضات) ، لكننا لا نوقع السلام ؛ وسيكونون عاجزين عن شن هجوم علينا . فإذا هاجمونا ، لن يكون وضعنا أسوأ مما هو عليه الآن . ينبغي أن نعرف قرارك ؛ ونحن نستطيع أن نطيل المفاوضات يوماً أو يومين أو ثلاثة أيام أو أربعة . بعد ذلك يتعينّ علينا قطعها »[٥٩] . » . ولم تسمح له الأحداث

---

(٥٧) ميرنبي بيريغوفوري ، ص ١٦٢ .

(٥٨) لينين ، سوش . ، ج ٢٦ ، ٤٦٤ .

(٥٩) أكد تروتسكي للسيد ويلر - بينيث صحة تلك الرسالة . انظر السلم المنسي ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

بانتظار قرار جديد من بتروغراد . في كل حال ، إن التصويت الذي جرى قبل رحيله اعطاه ما يكفي من الحرية بخصوص العمل الذي كان يتصوره . وعرض عليه الكونت كزرنين أن يلعب دور الوسيط ؛ لا بل مضى يزور تروتسكي لتحذيره من ان هجوماً ألمانياً جديداً أصبح وشيكاً ولرجائه تحديد شروطه الأخيرة . ورد تروتسكي بأنه قد ينحني أمام القوة ، لكنه يرفض أن يقدم للالمان شهادة حسن سلوك . دعهم يضموا إذا شاؤ وا بلداناً أجنبية لكن عليهم ألا يتوقعوا أن تتولى الثورة الروسية تجميل أعمال قرصنتهم عن طريق إعلان موافقتها .

عشية القطع ، وضعت الدول المركزية الروس أمام الأمر الواقع : لقد وقعت سلماً منفصلاً مع الرادا . وأعلن تروتسكي : « لقد أعلمنا خصومنا رسمياً بسقوط الرادا . لكن تواصلت المفاوضات مع حكومة لم تعد موجودة . نقترح إذاً على الوفد النمساوي ـ المجري أن يرسل ممثلاً إلى أوكرانيا ليتمكن من أن يلاحظ بنفسه أن الرادا قد انتهت . . . وهو ما أقدمنا عليه خلال محادثة خاصة ، لكن بالشكل الأكثر صراحة وقطعاً . . وكان الجواب أنه لم يمكن تأجيل توقيع المعاهدة »[٦٠] . وكتب الجنرال هوفمان في يومياته أن تروتسكي قال إنهم ضجرون من التعامل مع حكومة تقوم على ارض لا تزيد مساحتها عن مساحة الغرف التي يشغلها مندوبوها في بريست ـ ليتوفسك . ورد كوهلمان بلؤم قائلاً ان التقارير الالمانية « التي لا يرقى الشك الى صحتها تناقض هذا التأكيد بشكل دامغ »[٦١] . وهو ما لم يمنع الجنرال هوفمان من أن يلاحظ في يومياته ما يلي : « وفقاً للتقارير التي أمامي . . . ثمة ما يدعو ، للأسف ، إلى الاعتقاد أن تأكيد تروتسكي لا يفتقر إلى أساس »[٦٢] . إن الصلح المنفصل مع اوكرانيا قد تم استخدامه بكل بساطة ذريعة لدى الدول المركزية كي تبسط اشرافها على كل اوكرانيا . ومن المؤكد أنهم كانوا يعتبرون أوراق اعتماد محاوريهم الاوكرانيين باطلة تماماً ولهذا السبب بالضبط اعتبر تروتسكي انه لا يمكن ان يواصل المفاوضات ، لأن أي سلوك معاكس كان معناه التواطؤ مع مشروع الالمان وكل ما يعنيه : إطاحة السوفييتات وفصل أوكرانيا .

في اليوم اللاحق بالذات ، خلال اجتماع لجنة فرعية جرى المشهد المشهور الذي بسط فيه الجنرال هوفمان خارطة عسكرية كبيرة تظهر فيها مجمل الأراضي التي تتطلع المانيا إلى ضمها . فلما كان تروتسكي اعلن عن استعداده « للانحناء أمام القوة » ، لكن ليس

(٦٠) ميرنيي بيريغوفوري ، ص ١٧٨ ـ ١٨١ .
(٦١) المرجع ذاته ، ص ١٨٢ .
(٦٢) هوفمان ، المرجع ذاته ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

لمساعدة الالمان على إنقاذ المظاهر ، اعتقد الجنرال طبعاً أن تأكيداً فظاً للمطالب الالمانية هو أقصر طريق للوصول الى السلام . وحين اجتمعت اللجنة السياسية في اليوم ذاته ، بتاريخ ٢٨ كانون الثاني / يناير - ١٠ شباط / فبراير ، تكلم تروتسكي للمرة الأخيرة فقال :

« كانت مهمة اللجنة الفرعية . . . أن تقول إلى أي حد يمكن للحدود التي اقترحها الخصم ان تضمن ، ولو لدرجة هزيلة ، حق شعوب روسيا في تقرير مصيرها . وقد استمعنا الى تقارير ممثلينا و . . . هذا هو أوان اتخاذ قرار . إن الأمم تنتظر بنفاد صبر نتيجة مفاوضات سلام بريست - ليتوفسك . وهي تتساءل متى ستنتهي هذه المجزرة التي لا مثيل لها ، والتي تسببت بها أنانية الطبقات الحاكمة وشهوة القوة لديها . وإذا كان استطاع احد المعسكرين ، في لحظة معينة ، ان يتذرع بالدفاع المشروع ، فهذه الذريعة فقدت منذ زمن طويل أي أساس . وحين تستولي بريطانيا العظمى على المستعمرات الافريقية ، وعلى بغداد والقدس ، فهي لا تخوض حرباً دفاعية . وحين تحتل المانيا الصرب وبلجيكا وبولونيا وليتوانيا ورومانيا ، وتستولي على جزر موسّون ، فهذا أيضاً ليس حرباً دفاعية . إنه صراع من اجل تقاسم العالم . وهو الآن واضح ، أوضح من أي وقت آخر .

إننا نرفض المشاركة وقتاً أطول في هذه الحرب الامبريالية الصرف ، حيث يدفع الناس دمهم إرواء لمطامع الطبقات المالكة . . .

وبانتظار الساعة القريبة التي ستنتزع السلطة فيها الطبقات العاملة في كل البلدان . . . نسحب شعبنا وجيشنا من الحرب . إن على جندينا ، حارث الأرض ، أن يعود الى ارضه ليحرثها في الربيع ، تلك الأرض التي انتزعتها الثورة من الملاّك لتعطيها للفلاح . وينبغي أن يعود جنديّنا ، الشغّيل ، الى مصنعه ، لا ليصنع فيه آلات للتدمير ، بل ليصنع أدوات يبني بواسطتها ، هو وشغيل الأرض ، الاقتصاد الاشتراكي الجديد » .

فيما كان مندوبو الدول المركزية يصغون إلى تلك الجمل المحمومة ، كانوا مستعدين أيضاً للتصفيق لتروتسكي ، وللهتاف : « زأرت جيداً أيها الأسد » . وكانوا يأملون أن تكون تلك الزأرة الاخيرة التي قد تليها أنات الهزيمة . ولم يدركوا إلا شيئاً فشيئاً أهمية ذلك التصريح ومغزاه ، فتأثروا وهم يعون أنهم يشهدون مأساة فريدة في التاريخ[٦٣] .

---

(٦٣) في اليوم التالي ، قال الخبير القانوني الالماني الرئيسي ، كروج ، ليوفي انه بحث عن سابقات تاريخية ، ولم يجد غير واحدة تعود الى العهد القديم ، في الحروب بين فارس واليونان . انظر ملحق يوفي في ميرنبي بيريغوفوري ، ص ٢٦٢ .

وقد واصل تروتسكي كلامه فقال :

«إننا ننسحب من النزاع. ونحن نعلن ذلك لكل الأمم ولكل الحكومات . نصدر الأمر بالتسريح العام لجيشنا . ... في الوقت ذاته ، نعلن أن الشروط التي عرضتها علينا حكومتا المانيا والنمسا ـ المجر تتناقض تماماً مع مصالح الشعوب . تدينها الجماهير العمالية في كل البلدان ، بما فيها الشعوب الالمانية والنمساوية ـ المجرية . . وتشعر شعوب بولونيا واوكرانيا وليتوانيا وكورلاندا واستونيا بالعنف الذي تُقمع به تطلعاتها . وبالنسبة للشعب الروسي تشكل تلك الشروط تهديداً دائماً . إن الجماهير الشعبية في العالم بأسره ، التي يوجهها وعيها السياسي وحسها الاخلاقي ، لا تملك إلا أن تدينه . نرفض قبول الشروط التي تكتبها الامبرياليتان الالمانية والنمساوية ـ المجرية بحد السيف على لحم الأمم الحي . لا يمكننا أن نضع توقيع الثورة الروسية في اسفل معاهدة سلام تحكم على ملايين الناس بالاضطهاد واللعنة والبؤس »[٦٤] .

وقد كتب مؤرخ بريست ليتوفسك أنه حالما تلاشت أصداء صوت تروتسكي المدوّي ، سكت الجميع . ظلت الجمعية بكاملها فاقدة للنطق ، بعد أن أخرستها جسارة تلك الحادثة المفاجئة . وقطع هذا الصمت الذاهل هتاف هوفمان : « خارق ! » وذلك بنبرة مصدومة . لقد انقطع خيط السحر . فتلفظ كوهلمان ببعض الكلمات حول ضرورة عقد جلسة بكامل الأعضاء ، إلا أن تروتسكي رفض قائلاً إنه لم يعد ثمة ما ينبغي نقاشه . وغادر البلاشفة القاعة على الفور ، ثم تلا ذلك صمت كئيب تفرق خلاله مندوبو الدول المركزية ، الذين عجزوا عن تصديق ما سمعوه ، وتبلبلوا كلياً[٦٥] .

إلا أنه قبل أن تمضي الوفود ، حدث شيء لم يفهم تروتسكي كل معناه ، شيء كان يثبت صحة أشد مخاوف لينين سوءاً . فقد أعلن كوهلمان أنه ، بعد الذي حصل ، قد يُستأنف القتال ، على اساس انه ليس لتسريح الجيش الروسي اية اهمية حقوقية ، والذي يهم انما هو رفض إقرار السلام ، ولا شيء آخر . واعتقد تروتسكي أن هذا الكلام ليس اكثر من تهديد فارغ ، فأجاب أنه لا يعتقد أن الشعبين الالماني والنمساوي سيتركان حكومتيهما تواصلان حرباً خالية بشكل واضح من أي طابع دفاعي . واعطى كلام كوهلمان ذاته مبرراً لعدم اخذ التهديد على محمل الجد ، حين سأل إذا كانت الحكومة السوفياتية مستعدة على الأقل لإقامة علاقات قانونية وتجارية مع الدول المركزية وكيف يمكن لهذه

(٦٤) ميرني بيريغوفوري ، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

(٦٥) ويلر ـ بينيث ، المرجع ذاته ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

الدول ان تتصل بروسيا . وبدل أن يجيب تروتسكي كما كان عليه أن يفعل من وجهة نظره - لأنه كان يمكن لذلك أن يدفع الدول المركزية للتعهد باحترام مبدأ « لا حرب ولا سلم » - رفض تروتسكي بصلافة أن يخوض نقاشاً حول تلك النقطة .

ولما كان قد بقي يوماً آخر في بريست ، تناهت إلى سمعه أخبار خصومة بين هوفمان الذي كان يريد استئناف القتال ، والدبلوماسيين المدنيين الذين كانوا يفضلون القبول بوضع « اللاحرب واللاسلم » . وبدا أن المدنيين قد انتصروا مؤقتاً ، لذا عاد تروتسكي إلى بتروغراد واثقاً من نفسه ومعتزا بنجاحه . وقد بدا لنا الرجل في تلك اللحظة بكل قوته وكل ضعفه . « وحيداً ، ليس خلفه غير بلد يغوص في الفوضى ، وحكومة قامت لتوها ، (هو) . . . . الذي لم يكن قبل عام غير صحفي مغمور منفي في نيويورك ، خرج قبل قليل منتصراً في صراع مع تحالف أمهر دبلوماسيي نصف أوروبا »[٦٦] . لقد أعطى البشرية درسها الأول الكبير في الدبلوماسية العلنية حقاً . لكنه استسلم في الوقت ذاته لتفاؤله . فقد كان يسيء تقدير العدو ويرفض حتى الاصغاء لتحذيراته . وكفنان كبير ، كان غائصاً في ذاته وفي مثاله الاعلى ، ومأخوذاً بقيمة ما أنجزه من عمل ، لدرجة أنه تجاهل عيوبه بخفة . هكذا لم يكن تروتسكي بلغ بتروغراد بعد ، حين أعطى الجنرال هوفمان امر الهجوم للقوات الالمانية ، يدعمه في ذلك لودندورف وهندنبرغ والقيصر .

لم يلق الهجوم الالماني الذي بدأ في ١٧ شباط / فبراير أية مقاومة[٦٧] . وقد كتب هوفمان : « إنها الحرب الأكثر هزلية التي رأيتها في حياتي . فقد تمت بصورة شبه حصرية بواسطة القطارات والسيارات . توضع في قطار حفنة من المشاة المسلحين بالرشاشات وبمدفع ، ويتم الاندفاع نحو المحطة اللاحقة . يجري الاستيلاء على المحطة وتوقيف البلاشفة ، ثم يوضع فوج آخر في القطار وتستمر الرحلة »[٦٨] . وحين بلغت أنباء الهجوم سمولني ، لم تتوصل اللجنة المركزية للحزب ، بعد ثمانية تصويتات متتالية ، إلى الاتفاق على الاجراءات التي ينبغي اتخاذها لمواجهة الوضع . فاللجنة كانت منقسمة بشكل متساوٍ بين انصار السلام وانصار الحرب . وصوت تروتسكي وحده كان يمكن ان يرجّح كفة الميزان . وفي الحقيقة أن القرار الحاسم كان يتوقف في ذلك اليوم واليوم الذي تلاه ، ١٧ و ١٨ شباط / فبراير ، عليه وعليه وحده ، إلا أنه رفض ان يقرر .

كان وضعه بالغ التعقيد . فلقد تصرف وتكلم بطريقة جعلت الكثيرين يضعونه في

---

(٦٦) المرجع ذاته ، ، ص ١٦٦ .

(٦٧) منذ الآن ، تتناسب التآريخ مع التقويم الأوروبي الذي تبنته روسيا في شباط / فبراير ١٩١٨ .

(٦٨) هوفمان المرجع المذكور ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

مصاف أنصار الحرب ، وهو كان في الواقع أقرب اليهم ، سياسياً ، وأدبياً ، مما إلى لينين . إلا أنه كان قد وعد لينين سراً بدعم السلام إذا عاود الألمان مساعيهم وحين يفعلون ذلك . وكان يرفض الاعتقاد أن تلك اللحظة قد أزفت . وفي ١٧ شباط / فبراير ، صوّت مع جناح الحرب ضد اقتراح لينين المطالب بالافتتاح الفوري لمفاوضات سلام جديدة . ثم صوّت مع جناح السلم ضد الحرب الثورية . وفي الاخير اقترح مشروعاً يطلب الى الحكومة الامتناع عن أية مفاوضات جديدة حتى تنجلي بوضوح نتائج الهجوم الالماني السياسية والعسكرية . وقد نجح مشروعه الذي دعمه جناح الحرب بأكثرية صوت واحد هو صوته . عندئذٍ طرح لينين على اللجنة السؤال التالي : هل ينبغي توقيع السلام إذا ظهر أن الهجوم الالماني هجوم فعلي ، وإذا لم تبرز اية معارضة ثورية في المانيا والنمسا ؟ وكان جواب اللجنة المركزية بالايجاب(٦٩) .

وفي الغداة ، في ساعة مبكرة من الصباح ، استهل تروتسكي جلسة اللجنة المركزية بتلخيص لآخر الاحداث . كان الامير ليوبولد دو بافيير قد أعلن على الملأ ، بواسطة الاذاعة ، ان المانيا تدافع عن كل الأمم ، بما فيها الأمم الغربية المعادية لها ، ضد الطاعون البلشفي . ووصلت أخبار تفيد بأن فرقاً المانية من الجبهة الغربية ظهرت في روسيا . وقام الطيران الالماني بعمليات فوق دفينسك ، وكان متوقعاً حدوث هجوم على ريفل . وكل ذلك كان يعطي انطباعاً بأن الأمر يتعلق بهجوم واسع ، دون ان تسمح الوقائع بعد بتأكيد ذلك . أما التصريح المذاع الذي أدلى به الأمير ليوبولد فكان يتنبأ بتواطؤ بين المانيا والحلفاء ، إلا أن الأمر لم يكن يتعلق أيضاً إلا باحتمال . وقد أصر لينين مجدداً على إجراء اتصالات فورية مع المانيا ، وقال : « علينا الاسراع في العمل ، فليس لدينا وقت نضيعه ، فإما الحرب ، أي الحرب الثورية ، أو السلم » . وفي حين كان تروتسكي يتساءل إذا « لم يكن الهجوم سيؤدي الى انفجار جدي في المانيا » ، ظل يقول إنه لم يحن الوقت بعد لطلب السلام . ومرة أخرى ، سقط اقتراح لينين بأكثرية صوت واحد .

وبين صباح ١٨ شباط / فبراير ، ومسائه ، تطور الوضع بصورة درامية . فحين افتتح تروتسكي الجلسة الليلية للجنة المركزية ، اعلن أن الألمان استولوا على دفنسك ، وان ثمة اشاعات في كل مكان حول هجوم الماني وشيك في اوكرانيا . ولما كان لا يزال متردداً ، اقترح استقصاء شروط الدول المركزية من دون طلب افتتاح مفاوضات سلام . فأجاب لينين قائلاً : « إن الجماعة لن تفهم . فإذا كانت الحرب ، ما كان علينا تسريح

(٦٩) بروتوكولي تسن . كوم . ، ص ٢٢٦ - ٢٢٩ .

الجيوش » . لقد « لعبنا بالحرب » ويمكن لهذا أن يؤدي لانهيار الثورة . « نحن نكتب مقالات ، وفي غضون ذلك ، يستولون (اي الالمان) على ادوات النقل . . . سيقول التاريخ انكم سلمتم الثورة (للعدو) سنكون عجزنا عن توقيع سلام لا ينطوي على أي خطر بالنسبة للثورة » . ودافع ستالين وسفردلوف عن وجهة نظر مماثلة ، قال ستالين : « فلتدوّ المدافع خمس دقائق ، ولن يبقى جندي روسي واحد على الجبهة . . . أنا لا أتفق مع تروتسكي ، فطرْحُ المشكلة كما يفعل هو من قبيل الأدب » . إلا أن زينوفييف ، محامي السلام الاكثر حزماً ، كانت لديه الآن وساوس . فلينين كان مع السلام حتى لو ادى لخسارة اوكرانيا ، أما زينوفييف فلم يكن يريد الذهاب الى هذا الحد[٧٠] .

تكلم تروتسكي ثلاث مرات ليعلن معارضته لكل مطالبة بالسلام ، وثلاث مرات اقترح الاكتفاء باستقصاء نوايا العدو . لكن حين قدم لينين اقتراحه مرة اخرى ، فوجئ الجميع بتروتسكي يصوت لمشروع لينين ، لا لمشروعه هو . وهكذا انتصر جناح انصار السلم بأكثرية صوت واحد . وقد طلبت الاكثرية الجديدة الى لينين وتروتسكي ان يكتبا رسالة إلى الحكومة المعادية ، وفي ساعة متأخرة من الليل ، عقدت اللجنتان المركزيتان للحزبين الحكوميين ، الحزب البلشفي والحزب الاشتراكي الثوري اليساري ، اجتماعاً مشتركاً انتصر فيه جناح الحرب ، مرة اخرى . لكن التصويت في الحكومة كان لصالح البلاشفة ، وفي الغداة ، في ١٩ شباط / فبراير ، طلبت الحكومة الصلح رسمياً .

مرت أربعة أيام من القلق والذعر قبل أن يبلغ الجواب الألماني بتروغراد ، أربعة أيام ما كان يمكن لأي شخص أن يقول خلالها بأية شروط ستقبل الدول المركزية إعادة افتتاح المفاوضات ، ولا حتى إذا كانت ستقبل ذلك . فقد كانت جيوشها تتقدم وتهدد بتروغراد . وتأسست في المدينة لجنة دفاع ثورية بقيادة تروتسكي . وحتى حين كانت السوفييتات تلتمس السلام ، كان عليها ان تستعد للحرب . وقد جس تروتسكي نبض السفارات والبعثات العسكرية الحليفة ليعرف إذا كانت الحكومات الغربية ستساعد السوفييتات في حال استئنافها الحرب . وكان قام في السابق بهكذا استقصاءات ، لكن من دون نجاح[٧١] . لكن في هذه المرة ، بدا الانكليز والفرنسيون أيسر منالاً . ولم تمر ثلاثة أيام

---

(٧٠) ثمة محضران حول هذه الجلسة . فوفقاً لأحدهما ، دافع زينوفييف عن السلام ، قائلاً إن التقليد البيسماركي القائم على التعاون مع روسيا لم يمت بعد في المانيا ، وإن من مصلحة الالمان ، مثلهم مثل الروس ، تحقيق السلام . ومن المثير للفضول أن نرى كم تظهر اللازمات اللاحقة للسياسة الخارجية السوفياتية بشكل عابر واولي في هذه النقاشات العاجلة . بروتوكولي تسن . كوم . ، ص ٢٤٢ .

(٧١) روى الكولونيل روبينز ان تروتسكي اقترح في كانون الثاني / يناير أن يذهب ضباط اميركيون الى الجبهة ليمنعوا تهريب السلع

على ارسال طلبات الصلح حتى كان تروتسكي يعرض أمام اللجنة المركزية ، في غياب لينين ، تلميحاً فرنسياً ـ انكليزياً لإمكانية تعاون عسكري . وكم كان محجلاً بالنسبة إليه ، حين رفضت اللجنة المركزية هذا التلميح على الفور ، وتنصلت من مسعاه ، وتحول الجناحان ضده ، أنصار السلام لأنهم كانوا يخشون أن يفسدوا فرص سلام منفصل إذا وافقوا على مساعدة الحلفاء ، وانصار الحرب لأن مبادىء الأخلاق الثورية ذاتها التي كانت تدفعهم لمعارضة أي اتفاق مع المانيا دفعتهم ايضاً لإدانة كل تعاون مع « الامبرياليين الفرنسيين والانكليز ».إذاك اعلن تروتسكي انه ينسحب من المفوضية للشؤون الخارجية فهو لم يكن يستطيع البقاء فيها ـ كما قال ـ إذا لم يفهم الحزب ان من حق حكومة اشتراكية قبول عون دول بورجوازية ، شريطة أن تحتفظ باستقلالها الكامل[٧٢] . وفيما بعد ، اقنع اللجنة المركزية بطريقته في رؤية الأمور ، ودعمه لينين بحزم .

حين وصل الجواب الالماني في نهاية المطاف ، كان له وقع الكارثة . فهو لم يعط السوفييتات اكثر من ٤٨ ساعة للرد ، ولم يكن يتطلع إلى أكثر من ثلاثة أيام من المفاوضات . أما الشروط فكانت أسوأ بكثير من شروط بريست ، إذ نصت على أن تقوم روسيا بتسريح شامل للجيش ، وتتخلى عن ليتونياواستونيا ، وتخلي اوكرانيا وفنلندا . وحين اجتمعت اللجنة المركزي في ٢٣ شباط / فبراير ، لم يكن باقياً لها نهار كامل لاتخاذ قرارها . ومرة اخرى ، كان يتوقف كل شيء على تصويت تروتسكي وحده ، لأنه إذا رضخ للينين بما يخص طلب السلام الجديد ، فهو لم يتعهد بقبول الشروط الجديدة ، الأكثر قساوة بكثير. وبخلاف لينين ، لم يكن يعتقد ان السوفييتات عاجزة تماماً عن الدفاع عن نفسها . على العكس من ذلك ، لا بل بصورة اوضح مما قيل ، كان يميل الآن إلى جانب جناح الحرب . فقد قال : « إن حجج لينين غير مقنعة إطلاقاً ، ولو حدث أن أمّنا الإجماع لدينا ، لكان بإمكاننا أن نبدأ بتنظيم الدفاع ، وأن ننظمه فعلاً . ولن يكون لنا الدور الرديء ، حتى لو كان علينا أن نغادر بتروغراد وموسكو . سوف نحبس أنفاس العالم بأسره . واذا قبلنا اليوم هذا الانذار ، من يقول لنا إننا لن نتلقى غداً إنذاراً آخر . . . ؟ ربما حصلنا على السلام ، لكننا سنفقد دعم العناصر المتقدمة من البروليتاريا ، ونقود

الروسية الى المانيا ويحوّلوا مخزونات المواد الأولية الى داخل البلاد . وقد اوضح تروتسكي آنذاك انه ليس من مصلحة السوفييتات تعزيز قوة المانيا حتى لو وقّعت صلحاً منفصلاً . هارد ، ريمون روبينز Own story ص ٦٤ ـ ٦٥ . وقد شرح قائلاً : « بدل ان تعترف الحكومات الحليفة والحكومة الاميركية بوجود تروتسكي تركت الالمان يستولون على كل المواد الاولية الروسية على الحدود الروسية » . المرجع ذاته . ص ٧٠ ـ ٧١ .

(٧٢) دويتوكولي تسن . كوم . ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٦ .

البروليتاريا في كل حال إلى الهلاك »[٧٣] . ومع ذلك ، بعد أن توقع الأسوأ من الصلح ، وبعد أن أكد أن السوفييتات قادرة على الدفاع عن نفسها ، ضمن بتصويته مرة أخرى نجاح جناح السلام .

ولكي نفسر هذا السلوك المدهش ، يجب أن ننظر عن كثب إلى موقع الجماعات وحججها وأسبابها . فلينين كان يريد الحصول بجميع الوسائل على « استراحة » للسوفييتات ، استراحة تسمح لها بإعادة ترتيب البيت وبناء جيش جديد . وكان لينين مستعداً لشراء تلك الاستراحة بأي ثمن ، حتى لو كان الانسحاب من اوكرانيا وبلدان البلطيق ، ودفع تعويضات . لكنه لم يكن ينظر إلى ذلك السلام « المخجل » كأمر نهائي . هو ايضاً كان يفكر بحتمية حرب ثورية ، وأكثر من مرة ذكّر بصلح تيلسيت الذي فرضه نابوليون على بروسيا في عام ١٨٠٧ ، والذي استفاد منه رجال الدولة البروسيون التقدميون ، من امثال فون ستاين وغنايزينو ، لتحديث بلادهم وجيشهم مهيئين هكذا فرصة الثأر . كان لينين يريد أن يحذو حذوهم ، آملاً علاوة على ذلك أن تنتصر خلال تلك الاستراحة الثورة في المانيا ، وتتخلى عن فتوحات القيصر .

أما جناح الحرب فأجاب بأن الدول المركزية لن تسمح للينين بالاستفادة هكذا من الاستراحة : ستحرم روسيا من قمح اوكرانيا وفحمها ، ومن نفط القوقاز ، وستنقل الى تحت سيطرتها نصف السكان الروس ، وتشجع حركات معادية للثورة وتدعمها ؛ وباختصار ، فهي ستعمل على خنق الثورة . ولن تكون السوفييتات قادرة على بناء جيش جديد خلال استراحة ، مهما تكن . إن عليها ان تخلق جيشها خلال المعركة بالذات ، وهي لن تستطيع ذلك إلا خلال المعركة . وفي الحقيقة ، قد تضطر السوفييتات لإخلاء بتروغراد وحتى موسكو ، إلا أنها تملك ارضاً واسعة كفاية بحيث تتمكن من الانسحاب اليها وتجميع قواها . وحتى لو بدا الشعب قليل التصميم على النضال من اجل الثورة ، بمقدار قلة تصميمه على الدفاع عن النظام القديم ـ وهو ما كان قادة جناح الحرب يرفضون التسليم به ـ ، فإن التقدم الالماني مع ما سيرافقه من نهب ومظالم ، سوف يوقظ الشعب من ملله وذهوله ، ويجبره على المقاومة ، وسيولّد حماساً شعبياً جباراً وأصيلاً لصالح الحرب الثورية ؛ ومن هذا الحماس سينبثق جيش جديد عملاق . إن الثورة التي لن تكون قامت بأي استسلام مهين ، ستنجز إذّاك عملها الإحيائي ، وتحرك الطبقات العاملة الأجنبية ، وتبدد في الاخير كابوس الامبريالية .

---

(٧٣) المرجع ذاته ، ص ٢٤٨ .

كان كل جناح مقتنعاً بأن السياسة التي يطرحها الجناح الآخر مؤذية ، لذا جرت النقاشات في جو بالغ التوتر . ويبدو أن تروتسكي كان الوحيد الذي يرى أنه يمكن قول الكثير ، من وجهة نظر واقعية ، لصالح نمطي العمل المقترحين وضدهما ، وأنه لا هذا ولا ذاك يتناقضان مع مبادىء الأخلاق الثورية .

وقد أصبح الآن فكرة مبتذلة بالنسبة للمؤرخ - وتروتسكي فعل بعد فوات الأوان كل ما يجب لكي يكون الأمر كذلك - القول ان سياسة لينين كانت تتمتع بكل فضائل الواقعية وان جناح الحرب لم يكن يمثل غير تيار دونكيشوتي الى حد بعيد في البلشفية . إلا أن هكذا حكماً لا يعطي قادة جناح الحرب حقهم بالكامل . صحيح ان شجاعة لينين وفرادته سمتا في تلك الايام الى مستوى العبقرية ، وأن الأحداث - لا سيما سقوط سلالتي هوهنزلرن وهابسبورغ والغاء معاهدة بريست قبل نهاية الحرب - أعطته كامل الحق . وصحيح أيضاً أن جناح الحرب ، الذي كانت تحكم سلوكه في الغالب ردود فعل عاطفية مشوشة ، لم يكن يقترح سياسة متماسكة . لكن علينا القول ، لصالح هؤلاء القادة ، انهم دعموا أطروحاتهم بحجج قوية بمقدار ما هي واقعية ، حجج أثبتت صحة قسم كبير منها الأحداث . فالـ « استراحة » التي حصل عليها لينين كانت في الحقيقة نصف وهمية ، إذ بذلت حكومة القيصر بعد توقيع معاهدة السلام كل ما في وسعها لأجل خنق السوفييتات . إلا أنها لم تستطع أن تفعل اكثر مما يسمح لها به صراعها الجبار على الجبهة الغربية . وما كان في وسعها أن تفعل أكثر بكثير من دون صلح منفصل مع إحدى الدول الغربية ، حتى لو رفضت السوفييتات الأمر المفروض في بريست . وبوخارين ورادك ، اللذان كانا ضد الاستسلام ، أصرا على هذا الواقع الذي كان واحداً من تلك التي ضيّقت الى حد بعيد حرية تصرف المانيا . ولقد اظهر التاريخ السري للحرب ، فيما بعد أن حكمهما ، في ذلك الظرف ، كان أصح من حكم لينين . فاحتلال اوكرانيا ومناطق في روسيا الجنوبية شل لوحده مليون جندي الماني ونمساوي . ولو رفضت روسيا توقيع السلام ، لكان جل ما يمكن أن يفعله الالمان هو محاولة الاستيلاء على بتروغراد . وربما كانوا تمكنوا بصعوبة من المخاطرة بالزحف على موسكو[٧٤] . ولو أخذوا بتروغراد وموسكو ، لكانت السوفييتات ، المستمدة القسم الاكبر من قوّتها من العاصمتين ، عانت من أزمة خطيرة للغاية ، وربما حاسمة . لكن لم يكن ذلك هو سبب الخلاف بين لينين وجناح الحرب ، لأن لينين ايضاً اعاد التأكيد ، مراراً ، بثقة بالنفس غريبة ، ان حسارة احدى

---

(٧٤) اكد لودندورف ان هجوماً المانيا في العمق كان « غير وارد » وان اندفاعة قصيرة وقوية كانت متصورة ، ليس اكثـ . ما بين كريغسير يترونجن ، ص ٤٧٧ .

العاصمتين ، او اثنتيهما ، لن توجه ضربة مميتة بالضرورة للثورة[٧٥] .

إن الحجة الاخرى التي قدمها قادة جناح الحرب ، القائلة إنه سيكون على السوفييتات أن تبني جيشاً جديداً في ميادين القتال ، ووسط المعركة بالذات لا في هدوء الثكنات ، خلال الاستراحة ، بدت بشكل متناقض واقعية تماماً ، إذ هكذا تم بناء الجيش الاحمر في الواقع . ولم تفعل مداخلات بوخارين ورادك في المؤتمر السابع للحزب حول هذه النقطة غير استباق السياسة العسكرية التي سيتبناها تروتسكي ولينين في السنوات اللاحقة[٧٦] . وبالضبط ، لأن روسيا كانت مشمئزة تماماً من الحرب ، لم يكن في وسعها أن تبني جيشاً جديداً في ظروف هادئة نسبياً . وما كان يمكن إلا لضربات خطيرة ولضرورة القتال الحتمية ، والقتال فوراً ، أن توقظ الطاقات الكامنة للشعب السوفياتي ، وأن تستخدمها . هكذا فقط ، يمكن تفسير كيف تمكنت أمة ، بدت منهكة للغاية حين دعيت للحرب في ظل القيصر والأمير لفوف وكيرنسكي ، من خوض الحرب الاهلية وحروب التدخل طوال ثلاث سنوات ، تلبية لنداء لينين وتروتسكي .

كان ضعف جناح الحرب ناجماً عن مضمون أطروحاته أقل مما عن افتقاره لقائد حقيقي . فقادته كانوا بوخارين ، ودزرجنسكي ، ورادك ويوفي واوريتسكي ، وكولونتاي ولوموف ـ اوبوكوف ، وبوبنوف ، وبياتاكوف ، وسميرنوف ، وريازانوف . وكلهم كانوا اعضاء مهمين في الحزب ، وبعضهم كانوا مثقفين سامي المقام ، وخطباء ونقاداً لامعين ، وآخرون رجالاً نشيطين شجعاناً . لكن لم يكن بينهم من يملك الارادة التي لا تلين ، والسلطة الادبية ، والصفات السياسية الاستراتيجية ، والمرانة التكتيكية ، وحس الادارة ، كل تلك الأمور الضرورية لقائد في حرب ثورية . وطالما كان جناح الحرب يفتقر الى قائد ، لم يكن يمثل غير حالة ذهنية ، خميرة اخلاقية ، صيحة يأس أدبية ، لكن ليس سياسة مع ان اكثرية في الحزب تأثرت بتلك الخميرة في البدء وتجاوبت مع صيحة اليأس تلك . كان مقعد القائد فارغاً في جناح الحرب ، وكان اعضاؤه ينظرون إلى تروتسكي متوسلين . وكان بينهم الكثير من أصدقائه القدامى الذين انضموا معه الى الحزب البلشفي ، وشيء قليل كان يمنعه من الاستجابة لدعوتهم اللبقة . ومع أنه أكد أن سياسة لينين ، مثلها مثل سياسة أنصار الحرب ، كان لها ما يبررها ، فهو لم يكن يخفي ما

---

(٧٥) إن ستالين ، وحده ، أكد أن استسلام إحدى العاصمتين سيعني الخراب ، و « تعفن » الثورة . على هذا الاساس ، بدا محامياً للسلام اكثر انسجاماً من لينين . بروتوكولي تسن . كوم . ، ص ٢٤٨ .

(٧٦) سيدموي سييزد ، ر . ك . ب . ص ٣٢ - ٥٠ ، ٦٩ - ٧٣ .

توحيه له من نفور عميق . ويذهلنا ذلك لا سيما أنه في اكثر اللحظات حراجة رمى بكل ثقله إلى جانب لينين .

وإذا كان رفض قيادة جناح الحرب فلأنه أدرك أنه سيحوّل في اللحظة ذاتها انقسام الحزب البلشفي الى انشقاق لا رجعة فيه ، إلى نزاع دامٍ . ويكون هو ولينين قد تجابها كقائدين لحزبين متعاديين لا تفصل بينهما بعض الخلافات الثانوية ، بل مسألة حياة أو موت . فلينين كان قد حذر اللجنة المركزية من أنه إذا حُشر في وضع الأقلية بصدد موضوع السلام ، سينسحب من اللجنة ومن الحكومة ويطرح الموضوع على قاعدة الحزب(٧٧) . وفي تلك الفترة ، كان تروتسكي الخليفة الوحيد للينين على رأس الحكومة . لكن كقائد لحكومة مهمتها خوض اصعب الحروب في ظروف يائسة ، كان سيتحتم عليه اسكات كل معارضة للحرب ، وأن يتخذ بصورة شبه مؤكدة تدابير قمع ضد لينين . والجناحان ، الواعيان لهذا الوضع وما يترتب عليه ، كانا يمتنعان عن توجيه تهديدات مكشوفة ، لكن كان ثمة تهديدات مبطنة كثيرة في مضمرات النقاش . وإذا كان تروتسكي صوّت لصالح لينين في اللحظات العصيبة ، فذلك لمنع الحرب الاهلية من الوصول إلى صفوف الحزب بالذات(٧٨) .

إن الحالة التي كانت نتجت عن ذلك على الارجح ، لو تصرف تروتسكي بشكل آخر ، تشبه إلى هذا الحد أو ذاك الصراع المثلث الذي دار بين كومونة باريس ودانتون وروبسبيير إبان الثورة الفرنسية . ففي عام ١٧٩٣ ، كانت الكومونة (وأنا كارزيس كلوتس) يريدان ، مثلهما مثل بوخارين والاشتراكيين الثوريين اليساريين ، شن الحرب على كل الحكومات المعادية للثورة في اوروبا . كان دانتون مع شن الحرب على بروسيا ،

---

(٧٧) بروتكولي تسن . كوم . ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

(٧٨) بعد ذلك بعشرين عاماً ، سوف يُتّهم بوخارين خلال المحاكمات الكبرى بأنه نظم أثناء ازمة بريست مؤامرة لتوقيف لينين . وهذا الاتهام ، المعد خصيصاً لجعل مؤامرة بوخارين ضد ستالين أكثر قابلية للتصديق ، هو في غير محله . إلا أنه لا بد أن قادة جناح الحرب تساءلوا في لحظة من اللحظات ما الذي يفعلون لو حصلوا على أغلبية اللجنة المركزية . كانوا شكلوا حكومة من دون لينين ، وإذا واظب لينين على معارضته الحرب ، كان يمكن ان يلجؤوا الى توقيفه . وفي عام ١٩٢٣ ، أكد زينوفييف أن بوخارين ورادك تصورا الأمر بجدية ، هما والاشتراكيون الثوريون اليساريون . أما رادك فأنكر ذلك ، موضحاً أنه مزح فقط بصدد توقيف لينين . وقد روى الكولونيل روبنز ، وهو شاهد متجرد كلياً كان على صلة وثيقة بالقادة البلاشفة ، روى منذ عام ١٩٢٠ ان نقاشاً دار بين لينين ورادك قال فيه هذا الاخير انه لو وجد في بتروغراد خمسمئة رجل شجاع لأوقفوا لينين وجعلوا من الممكن قيام حرب ثورية . وأجاب لينين إنه قد يسجن محاوره أولاً (هارد ، ريموند روبنز ، آون ستوري ، ص ٩٤) . ولو كان هناك إعداد لمؤامرة حقيقية ضد لينين لما استعجل رادك فأعلم بها لينين سلفاً . لكن إذا كانت تلك الكلمات مزاحاً في الواقع ، فهي كانت تنخرط جدياً في منطق الوضع .

لكن مع التفاهم مع انكلترا التي كان يأمل أن يحل فيها فوكس محل پيت بعد وقت قصير . وكان روبسبيير يحث الكونفنسيون(*) على إعلان الحرب في وجه انكلترا بينما كان مع التفاهم والبروسيين . وقد توحد دانتون وروبسبيير ضد الكومونة ، لكن حين حطماها اختلفا ، وسوّت المقصلة النزاع بينهما .

لا بد أن تروتسكي ، الذي غالباً ما كان يرى الثورة الروسية عبر موشورة الثورة الفرنسية ، شعر بالتشابه بين الوضعين . وربما تذكر رسالة إنجلز المرموقة إلى فيكتور أدلر ، التي تشرح كل « نبضات » الثورة الفرنسية بصدف الحرب والخلافات التي كانت تثيرها(٧٩) . ولا بد أنه رأى نفسه في دور يذكر قليلاً بدور دانتون ، ورأى لينين في دور روبسبيير . وكان ذلك كما لو ان ظل المقصلة ، وقف للحظة بينه وبين لينين . وهذا لا يعني أبداً أنه إذا كان هنالك نزاع مكشوف بينهما ، فقد لعب تروتسكي بالضرورة لعبة خاسرة ، أو أن لينين كان يميل إلى تسوية الخلافات الداخلية في الحزب عن طريق المقصلة . إن كل تماثل يتوقف هنا . كان بديهياً أنه لو انتصر جناح الحرب لأدى به ذلك إلى إزالة معارضيه وإلا لن يستطيع القيام بمهمته بنجاح . ولم يكن حل سلمي لأزمة الحزب ممكناً إلا في ظل انصار السلم الذين كان بإمكانهم التسامح مع المعارضة بسهولة اكبر . وكان ذلك اعتباراً حاسماً في نظر تروتسكي ، فلإبعاد ظل المقصلة ، كانت تضحيته الكبرى ، إن بفكرةٍ أو بكل طموح شخصي .

أمام تهديد لينين بالاستقالة ، أجاب موجهاً كلامه لأنصار الحرب أكثر مما إلى لينين : « لا يمكننا الانخراط في حرب ثورية في ظل انقسام الحزب . . . فضمن هذه الشروط لن يكون حزبنا قادراً على خوض الحرب ، لا سيما أن اولئك الذين يريدونها لا يريدون ان يستخدموا عملياً وسائل القيام بها (أي عون الدول الغربية)(٨٠) . » « لن أتحمل مسؤولية التصويت لصالح الحرب » . وقد أضاف فيما بعد : « ثمة الكثير من الذاتية في موقف لينين . لست متأكداً من أنه مصيب ، لكنني لا أريد أن أفعل شيئاً يمكن أن يسيء الى وحدة الحزب . سوف أفعل ، على العكس ، كل ما في وسعي لحماية تلك الوحدة . لكن لا يمكنني البقاء في منصبي وان اتحمل شخصياً مسؤولية قيادة الشؤون الخارجية »(٨١) .

(*) الجمعية التأسيسية (م)

(٧٩) ك . ماركس وف . انجلز ، مراسلات مختارة ، ص ٤٥٧ - ٤٥٨

(٨٠) بروتوكولي تسن . كوم . ، ص ٢٤٨ .

(٨١) المرجع ذاته ، ص ٢٥١ .

لم يكن قادة جناح الحرب يشاركون تروتسكي مخاوفه . فدزرجينسكي الذي كان يقود التشيكا[٨٢] ، فكر بأن الحزب قوي كفاية بحيث يتحمل حدوث انشقاق واستقالة لينين .ولوموف ـأوبوكوف ، زعيم بلاشفة موسكو ، حث تروتسكي على ألا « يفزعه » إنذار لينين ، لأن باستطاعتهم الاضطلاع بالسلطة من دون لينين[٨٣] . إلا أن وزن حجج تروتسكي وإلحاحها احدثا اثناء النقاش تأثيراً عميقاً لدى بعض انصار الحرب ، كدزرجنسكي ويوفي ، بحيث اعاد هذان الاخيران النظر في الوضع . وهكذا حصل لينين على سبعة أصوات لصالح السلام . لم يكن يمثل ذلك غير أقلية في اللجنة المركزية ، لكن لما كان تروتسكي وثلاثة قياديين من جناح الحرب امتنعوا ، ولم يعارض لينين غير أربعة أصوات ، فقد تمت الموافقة على شروط السلام . أما القادة الثلاثة من جناح الحرب الذين امتنعوا ، يوفي ودزرجنسكي وكريستنسكي ، فقد نصوا بياناً رسمياً يعلن أنهم لا يستطيعون تصور « حرب تخاض في الوقت ذاته ضد الامبريالية الالمانية والبورجوازية الروسية وجزء من البروليتاريا بقيادة لينين » ، وأن أي انشقاق سيكون كارثة كلية يهون عندها أسوأ سلم[٨٤] . إلا أن انصار الحرب العنيدين ، بوخارين ، واوريتسكي ، ولوموف ، وبوبنوف (علاوة على بياتاكوف وسميرنوف اللذين حضرا الجلسة) فضحوا التصويت لصالح السلم كأمر لا يعبر إلا عن رأي الأقلية . وقد أعلنوا في احتجاجهم أنهم يتخلون عن كل مسؤ ولياتهم داخل الحزب والحكومة . وعبثاً حاول لينين اقناعهم بالتراجع عن ذلك . أما تروتسكي فبعد أن أدى موقفه إلى هزيمة الشيوعيين اليساريين ، أبدى لهم العطف والمودة ، وأوضح لهم متأسفاً بأنه كان صوّت بصورة مختلفة لو عرف أنهم سيستقيلون[٨٥] .

لقد ربح جناح السلام ، لكن ضميره لم يكن مرتاحاً . فاللجنة المركزية التي قررت في ٢٣ شباط / فبراير قبول الشروط الالمانية سرعان ما صوتت بالاجماع على مشروع للاعداد الفوري للحرب القادمة . وحين جرى الوصول الى تعيين وفد جديد الى بريست ـ ليتوفسك حدث مشهد مأساوي ـ هزلي ، فكل أعضاء اللجنة المركزية تهربوا من الشرف

(٨٢) التشيكا ، اللجنة غير العادية للنضال ضد الثورة المضادة ، وقد سبقت الغيبيو .G.P.U

(٨٣) المرجع ذاته ، ص ٢٥٠ .

(٨٤) المرجع ذاته ، ص ٢٥٣ .

(٨٥) حدث في الجلسة ذاتها مشهد مثير ؛ فلقد اكد لينين لخصومه المهزومين أن من حقهم التحريض ضد السلم ، فانتفض ستالين ضد هذا الكلام وقال إنه لما كان أظهر قادة جناح الحرب عدم انضباطهم لدرجة الاستقالة ، فقد وضعوا أنفسهم بأنفسهم خارج الحزب بصورة آلية . فاحتج لينين وتروتسكي بعنف على تصريح ستالين ، مما دفعه لسحبه . المرجع ذاته ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

المشكوك به ، شرف ان يكونوا في عداد أعضائه . فما من أحد ، حتى اكثر محامي السلام حماساً ، كان مستعجلاً ليضع توقيعه في أسفل المعاهدة . وسوكولنيكوف الذي قاد الوفد الجديد فيما بعد ، هدد بالاستقالة من اللجنة المركزية حين تم اقتراح اسمه ؛ وقد لزم كل صبر لينين وإقناعه لجعله يرضخ(٨٦) . وما أن تمت تسوية هذه المسألة ، حتى طلب تروتسكي الى اللجنة المركزية اخذ العلم باستقالته من مفوضية الشؤون الخارجية ، التي كانت غدت عملياً بين يدي تشيتشرين ، وذلك وسط تهكم ستالين الذي اضطر بعد ذلك إلى الاعتذار . وقد طلبت اللجنة المركزية الى تروتسكي البقاء في عمله حتى توقيع معاهدة السلام ، فتعهد تروتسكي فقط بألا يعلن استقالته على الملأ قبل ذلك الموعد وأوضح أنه سيتوقف عن الظهور في أي جهاز حكومي . وبناء على تدخل لينين ، أجبرته اللجنة على ان يحضر على الأقل جلسات الحكومة التي لا تناقش فيها مشكلات تتعلق بالسياسة الخارجية(٨٧) .

بعد كل الجهود التي بذلها تروتسكي في الفترة الاخيرة ، بعد الانتصارات والاحباطات ، كانت أعصابه في ذروة الانهاك . فلقد بدا العمل الباهر الذي أنجزه في بريست غير مُجدٍ إطلاقاً ، وهو ما كان يعتقده الكثيرون ويقولونه . وليس من دون حق كان يُوجَّه اللوم إليه لأنه دغدغ الحزب بوهم الأمان عن طريق تأكيداته المتكررة بأن الالمان لن يجرؤ وا على الهجوم . بين ليلة وضحاها غدا المعبود شبه مذنب . وقد كتب السيد فيليبس برايس يقول : « في امسية السابع والعشرين من كانوا الثاني / يناير ، اجتمعت الهيئة التنفيذية المركزية للسوفييت في قصر توريد وتكلم تروتسكي . . . لم يكن احد قد رآه منذ عدة أيام ، وما كان يبدو أن أحداً يعرف ما آل إليه .إلا أنه مضى في ذلك المساء إلى القصر . . . وأطلق سيول بلاغة مسمومة ضد امبريالية الدول المركزية والحلفاء ، الذين كان يُضحّى بالثورة الروسية على مذبحهم . وحين ختم كلامه انصرف . ويقال إنه كان يرزح تحت وطأة الاذلال لدرجة أنه انهار وبكى(٨٨) .

* * *

في الثالث من آذار / مارس وقَّع سوكولنيكوف معاهدة بريست ليتوفسك ، معلناً بأعلى صوته أن السوفييتات تتصرف تحت الإكراه . وفي أقل من ١٥ يوماً استولى الالمان على كييف واجزاء واسعة من اوكرانيا ، ودخل النمساويون إلى أوذيسّا والأتراك إلى تريبيزوند .

---

(٨٦) المرجع ذاته ، ص ٢٥٩ - ٢٦٦ .

(٨٧) المرجع ذاته ، ص ٢٦٨ .

(٨٨) فيليبس برايس ، المرجع ذاته ، ص ٢٥١ . انظر أيضاً إ . ستاينبرغ ، ألز إيش فولكسكوميسار وار ، ص ٢٠٨ -٢١٣ .

وفي اوكرانيا ، اطاح المحتلون السوفييتات وأعادوا الرادا الى الوجود ، لينتزعوا منها فيما بعد كل سلطة ويضعوا الهتمان سكورو يادسكي على رأس الحكومة العميلة . وأمطر المنتصرون المؤقتون حكومة لينين بالطلبات والانذارات التي ينافس بعضها بعضاً في الاهانة والاذلال . اما الإنذار الأكثر جرحاً للكرامة فهو ذلك الذي طالب السوفييتات بتوقيع صلح فوري مع « اوكرانيا المستقلة ».وفي أوكرانيا ، كان الشعب ، ولا سيما الفلاحين ، يواجهون قوات الاحتلال وعملاءها الاوكرانيين بمقاومة يائسة . وبتوقيع صلح منفصل مع هؤلاء الاخيرين ، كان سيبدو بالضرورة أن السوفييتات تجحد كل المقاومة الاوكرانية . وقد طلب تروتسكي في اللجنة المركزية رفض الانذار الالماني . اما لينين الذي لم يكن ينفك يفكر بالانتقام ، فكان مصمماً مؤقتاً على شرب كأس الاذلال حتى الثمالة . لكن مع كل استفزاز الماني جديد ، كانت معارضة السلام تظهر مجدداً في الحزب والسوفييتات ، ولم تكن معاهدة بريست قد حظيت بعد بالمصادقة ، ولم تكن المصادقة قد اصبحت اكيدة .

في السادس من آذار / مارس ، انعقد مؤتمر استثنائي للحزب في قصر توريد لتقرير إذا كان يجب التوصية بالمصادقة في المؤتمر اللاحق للسوفييتات . تمت المناقشات في أقصى السرية ، ولم تُنشر محاضرها إلا في عام ١٩٢٥ . وقد جرت تلك المناقشات في جو انهيار في المعنويات . ولاحظ مندوبو المقاطعات أن دوائر الحكومة تتحسب لهجوم الماني فتعدّ لإخلاء بتروغراد ، وهو ما لم يجرؤ كيرنسكي على القيام به . كان المفوضون قد اصبحوا « جالسين على حقائبهم وسط باقي امتعتهم » . وكان تروتسكي وحده سيبقى لينظم الدفاع ؛ وقد نقل المندوبون ان شعبية الحزب هابطة في كل مكان[٨٩] . فقبل قليل ، كانت الرغبة في السلام على درجة من القوة بحيث اسقطت نظام شباط / فبراير وحملت البلاشفة الى السلطة لكن الآن وقد عاد السلام ، كان الحزب الذي انجزه أول من انصب عليه اللوم .

في المؤتمر ، كان نشاط تروتسكي في مركز النقاشات حتماً . وفي احد الخطابات الاكثر عنفاً ، طلب لينين المصادقة على معاهدة السلام ، وشن هجومه الرئيسي على جناح الحرب ، لكنه انتقد كذلك تروتسكي الذي اقترف « الخطأ الضخم » المتمثل بالاعتقاد بسهولة بالغة ان الألمان لن يهاجموا ، وهو ما جعله يقترح شعار « لا حرب ولا سلم »[٩٠] . وقد هرع جناح الحرب لنجدة تروتسكي ، فقال رادك : « حتى الصحافة الالمانية الشوفينية

(٨٩) ذكر التقرير الرسمي ان « المنظمات المحلية كانت ضعيفة ، ومفككة . وقد عكس المؤتمر وضع كل الحزب ، وكل الطبقة العاملة ، وكل روسيا » . سيدموي سييزد ر . ك . ب ، ص ٤ ـ ٥ .

(٩٠) المرجع ذاته ، ص ٢٢ .

اعترفت بأن البروليتاريا الالمانية كانت ضد هندنبورغ ومع تروتسكي . إن سياستنا في بريست ليتوفسك لم تكن فشلاً ، لم تكن خداعاً بل سياسة واقعية ثورية »[٩١] . لقد كان افضل بكثير للسوفييتات ألا تعقد الصلح إلا بعد بدء الهجوم الالماني ، لأنه لن يمكن حينذاك لأحد من الناس أن يشك في انها تصرفت تحت إكراه احداث خارجية . ثم أوضح رادك إلى أي حد أحبط تروتسكي آمال جناح الحرب : « لا يمكن أن نأخذ على تروتسكي إلا مأخذاً واحداً ، هو أنه بعد كل ما فعله في بريست ، عاد فاصطف في الجانب الآخر . . . إن من حقنا أن نأخذ عليه ذلك وهو ما نفعله »[٩٢] .

ومرة اخرى شرح تروتسكي مبررات سلوكه ، لكن بصورة اكثر وضوحاً . قال إن بوخارين ورادك وأصدقاءهما ، الذين رأوا في الحرب فرصة الخلاص الوحيدة : « رأوا نفسهم مجبرين ، وقد اهملوا كل الاعتبارات الحزبية ، على طرح المشكلة مثلما على حد موسى . . . لقد كان خلفنا بلد ضعيف ، وفلاحون سلبيون ، وبروليتاريا سيئة الاستعداد ، وكنا كذلك تحت التهديد بالقطيعة في صفوفنا بالذات . . . كانت أمور كثيرة مقحمة في تصويتي . . . ما كان بإمكاني تحمل مسؤولية انشقاق . ولقد فكرت أن علينا الانسحاب (أمام الجيش الالماني) بدل توقيع صلح لن يعطينا غير استراحةوهمية . إلا أني لم اكن استطيع الاضطلاع بمسؤولية قيادة الحزب . . . »[٩٣] .

إذا عدنا إلى المحاضر نرى انها المرة الأولى التي نرى فيها تروتسكي يعلن جهاراً أنه يرفض الحلول محل لينين على رأس الحزب . وقد أضاف : « لن يكون خطر الانشقاق زال أو قل إذا تأجلت الثورة الاوروبية »[٩٤] . واعترف أنه أخطأ بصدد النوايا الالمانية ، لكنه ذكّر لينين بأنهما اتفقا حول قطع المفاوضات . وأوضح أنه يكنّ احتراماً عميقاً لسياسة لينين ، لكن ليس للطريقة التي كان جناح السلام يدافع بها عن وجهة نظره أمام اوسع الجماهير ، وهي طريقة ما كان يمكن إلا أن تولّد البلادة والانهزامية ، وتثبط الطبقة العاملة ، وكانت تجعل بناء الجيش الجديد ، الذي يريده الجميع ، امراً في غاية الصعوبة . وأعلن انه لا يطالب المؤتمر برفض المصادقة على المعاهدة ، لكن ثمة حدوداً للتنازلات ؛ وأنه لا يجب الرضوخ للينين وتوقيع معاهدة مع العملاء الاوكرانيين الذين نصّبتهم

(٩١) المرجع ذاته ، ص ٧١ .
(٩٢) المرجع ذاته ، ص ٧٢ .
(٩٣) المرجع ذاته ، ص ٨٣ .
(٩٤) المرجع ذاته ، ص ٨٤ .

المانيا[٩٥] . وعند ذلك بالذات ابدى ملاحظة تتعلق بأمر راهن مقلق جداً . قال : إذا كان الحزب عاجزاً الى حد الاضطرار للتخلي عن عمال اوكرانيا وفلاحيها ، فربما يكون من واجبه ان يعلن ما يلي « . . . **لقد جئنا قبل أواننا** ، وسوف نعود إلى السرية ، تاركين تشيرنوف وغوشكوف وميليوكوف يتفاهمون مع . . . اوكرانيا . . . لكنني اعتقد انه حتى إذا اضطررنا للانسحاب ، علينا ان نتصرف كثوريين حقيقيين وأن نناضل حتى آخر نقطة من دمنا »[٩٦] . كانت تلك هي المرة الاولى التي يلمّح فيها بهذا الوضوح إلى أنه ربما لم تكن الثورة الروسية غير قفزة فاشلة . وبالنسبة لأذنين ماركسيتين ، كانت تلك كلمات ذات معنى مشؤوم : لقد تكلم ماركس وانجلز ، واعادا الكلام ، على القدر المأساوي لأولئك الثوريين الذين « يأتون قبل أوانهم »[٩٧] . وبعد أن ذكرً اخيراً بـ « الاعتدال الكبير » و « التضحية بالشخصية » من جانب دزرجنسكي ويوفي وكرستنسكي ، ومن جانبه هو ايضاً ، قال للينين إن ثمة مساوئ في سياسته بقدر ما فيها من المنافع ، وإن جناح السلام ربما كان بصدد « التضحية بمبرر حياته الوحيد لأجل التمكن من الحيـاة ، بكل بساطة »[٩٨] .

ومرة أخرى لجأ لينين إلى التهديد بالاستقالة ، وقال إنه سيستقيل إذا حد المؤتمر من حرية عمله بالنسبة لأوكرانيا ، شارحاً انه ليس هنالك من خيانة في سلوك الجنود الذين يرفضون الهرع لنجدة رفاق محاصرين ، حين يعرفون أنهم ضعفاء جداً بحيث يعجزون عن انقاذهم وأنهم لن ينجحوا إلا في الموت معهم . كان ذلك هو موقف السوفييتات تجاه اوكرانيا . وقد أيدت لينين اكثرية كبرى في هذه المرة .

إلا أن تروتسكي اقترح تعديلاً لمشروع لينين ، تعديلاً يستبدل « ضرورة » إقرار السلام بـ « الإذن » بإقراره . ولم يكن في وسعه أن يوضح من على منصة المؤتمر لماذا يتردد هكذا بعد كل ما فعله من اجل ضمان انتصار سياسة لينين . فما وراء الستار كان متفقاً مع

---

(٩٥) قال ريازانوف في النقاش : « لا يضع لينين اي حد للاستسلام والانسحاب ، لكن تروتسكي يحاول مع ذلك ان يمسكه بأطراف سترته وأن يوقفه » المرجع ذاته ، ص ٩ .

(٩٦) المرجع ذاته ؛ ص ٨٥ .

(٩٧) « إن أسوأ شيء يمكن ان يحدث لقائد حرب متطرف هو ان يرى نفسه مجبراً على تحمل عبء الحكم في حقبة لا تكون فيها الحركة غدت ناضجة لضمان سيطرة الطبقة التي يمثلها ولاتخاذ التدابير التي تتطلبها تلك السيطرة . . . يجد نفسه بالضرورة في مأزق . فما يمكن أن يفعله يتناقض مع كل اعماله السابقة ، وكل مبادئه وكل المصالح الراهنة لحزبه : « وما يجب ان يفعله لا يمكن إنجاحه . . . إن الحزب الذي يضع نفسه في هكذا وضع صعب سائر حتماً الى الهلاك » . إنجلز ، حرب الفلاحين في المانيا ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٩٨) سيدموي سييزد ر . ك . ب ، ص ٨٦ .

لينين تماماً على جس نبض الحلفاء مرة اخرى لمعرفة ما إذا كانوا سيقدمون المساعدة في حال رفض المصادقة على معاهدة السلام . وبانتظار الجواب ، كان لينين يؤخر التصويت على المصادقة ، حتى في المؤتمر . لا بل ذهب تقريباً حتى وعد الرئيس ويلسون برفض معاهدة بريست ، بمقابل وعد حازم بالمساعدة(٩٩) . وفي مؤتمر الحزب ، قال لينين بصورة ملغزة ان الوضع يتطور بسرعة عظيمة بحيث ربما تحول بعد يومين نحو معارضة المصادقة(١٠٠) . إلا أن تروتسكي كان يريد من المؤتمر ألا يصوغ قراره بتعابير صارمة للغاية . ومع ذلك لم يكن لينين يتوقع في الواقع أي جواب مشجع من الحلفاء ، وهو ما لم يكن ليخطىء بصدده . فبناء على الحاح تروتسكي قبل القيام بالاستقصاءات الضرورية ، لكن بهدف تبديد أي شك بهذا الخصوص . كان يريد ، خلال الانتظار ، أن يؤيد المؤتمر الصلح بلا تحفظ ، وهو ما تم بالفعل .

لقد ذكّر تروتسكي خلال النقاش بـ « اعتداله الكبير » و « بالتضحية بذاتيته » . ولا يمكن ان نمتنع عن التفكير حيال ذلك بالحكم الذي أصدره احد اصدقائه في ايام صباه ! « كل سلوك تروتسكي محكوم بذاتيته ، لكن ذاتيته تحكمها الثورة »(١٠١) . هذه السمة الخاصة بالفتى ابن الثامنة عشرة كانت موجودة ايضاً لدى الرجل ابن الثمانية والثلاثين الذي أصبح مشهوراً . إن سلوكه خلال هذه المأساة يشهد على الحاق طموحه وأذواقه الشخصية بمصالح الحزب . وحين انتصر لينين على طول الخط ، احتدمت « الأنا » لدى تروتسكي وجعلته يشترط من على منصة ذلك المؤتمر المشؤوم تعويضات . وقد تبعت المناقشة حول السلام مناقشة مضحكة حول اخطاء تروتسكي وميزاته . فأصدقاؤه وانصاره ، كرستنسكي ويوفي وريازانوف ، اقترحوا تعديلاً شكلياً بحتاً لتبرير سياسة بريست . وكان امراً عبثياً من مختلف النواحي أن يجري اقتراح مشروع كهذا في هكذا لحظة . كان المؤتمر قد قرر للتو بأن السلام ضرورة مطلقة ، فما كان من المعقول مطالبته بمباركة ذات مفعول رجعي لسياسة « لاحرب ولا سلم » . وواقع ان المدافعين عن تروتسكي كانوا ينتمون لجناح الحرب اظهر هذا الاقتراح كالهجمة الاخيرة للأقلية المهزومة . أما المؤتمر فلم يكن ينوي اطلاقاً ان يدين تروتسكي بسبب عمله في بريست ، بل كان يفضل ان ينسى الماضي ببساطة . لكن حين تم الاصرار على ان يقرر جهاراً ، ما كان في وسعه إلا أن يدين ، فرفض الاقتراح وجرح عنفوان تروتسكي وكبرياءه . وقد

(٩٩) هارد ، ريموند روبنز آون ستوري ، ص ١٣٥ ـ ١٣٩ ؛ ويلر ـ بينيت ، السلام المنسي ، ص ٢٩٠ ـ ٣٠١ .

(١٠٠) سيدموي سييزد ر . ك . ب . ص ١٤٠ .

(١٠١) انظر الفصل الثاني .

صاح تروتسكي معلناً أنه بذلك اصبح الرجل الذي يكرهه امبرياليو الدول المركزية اكثر من أي رجل آخر ، الرجل الذي يحملونه مسؤولية استمرار الحرب . وان الحزب يغطي بسلطته الآن ، متعمداً أو غير متعمد ، اتهامات العدو . وعلى هذا الأساس ، استقال من كل المسؤوليات التي اوكلها اليه الحزب .

كان تعيين تروتسكي في مفوضية الحرب أمراً مقرراً ، أو على وشك ان تقرره المجالس الداخلية للحزب . لذا كان المؤتمر راغباً في ارضاء تروتسكي ، جزئياً على الأقل . ووسط الفوضى والارتباك تتالت الاقتراحات والتصويتات دون التمكن من الوصول بوضوح الى نتيجة . وخلال كل تلك المخاصمة التي لم تكن تتميز بالكثير من السمو ، بقي لينين صامتاً . وباسم جناح لينين ، اكد زينوفييف لتروتسكي ان الحزب بأسره يشكره على الجهود الرائعة التي بذلها في بريست لدفع الطبقة العاملة الالمانية الى الانتفاض ؛ وطمأنه ايضاً الى ان الحزب يعتبر هذا الجزء من عمله « سلبياً بصورة تامة » ؛ إلا أنه كان على تروتسكي ان يفهم ان الحزب عدّل موقفه وان من العقم الضياع منذ ذلك الحين في نقاشات حول صيغة « لا حرب ولا سلم » . وقد صوّت المؤتمر أولاً على اقتراح زينوفييف ، ثم تبنى اقتراحاً قدمه رادك يعاكسه ، ثم صوت ايضاً على نص آخر يعاكس نص رادك . أما تروتسكي فشكا قائلاً : « إنه لأمر لا يصدّق في التاريخ ان يتمكن حزب يواجه العدو من ادانة سياسة ممثليه » . وفي غضبه ، اقترح مشروع قرار يدين من دون تحفظ سياسته الخاصة به . وبالطبع رفض المؤتمر المشروع ، وانسحب تروتسكي من العراك . وحين جرى انتخاب اللجنة المركزية ، حصل هو ولينين على اكبر عدد من الأصوات . فإذا كان الحزب يتخلى عن سياسة تروتسكي ، إلا أنه كان يحتفظ مع ذلك بثقة فيه لا تحفّظ فيها .

* * *

أربعة أشهر مثقلة كانت قد انصرمت منذ صادقت السوفييتات على السلام . كان مجلس مفوضي الشعب غادر بتروغراد واستقر في الكرملين في موسكو . وغادرت البعثات الدبلوماسية للحلفاء بتروغراد ايضاً ، لكنها استقرت في فولوغدا ، وهي مدينة صغيرة في المقاطعات ، وذلك احتجاجاً على معاهدة السلام . كان تروتسكي قد اصبح مفوضاً للحرب ، وبدأ « تسليح الثورة » . فاليابانيون هاجموا سيبيريا واحتلوا فلاديفوستوك ، وقمع الالمان الثورة الفنلندية واجبروا الاسطول الروسي على الانسحاب من خليج فنلندا . وكانوا احتلوا كذلك كامل اوكرانيا ، والقرم ، وسواحل البحر الاسود وبحر آزوف ، ونزل

الفرنسيون والانكليز في مورمانسك . وانتفضت الفرقة التشيكية على السوفييتات . كل تلك التدخلات الاجنبية ، شجعت القوى الروسية المعادية للثورة ، فانطلقت في صراع لا هوادة فيه ، صراع لا يعرف مبدأ ولا يرعى عهداً . وعدد كبير من اولئك الذين لم يمر الزمن على اتهامهم البلاشفة غدوا يعتمدون الآن على العون الالماني لمواجهة البلاشفة(١٠٢) . ولما كانت موسكو ومدن شمالي روسيا قُطعت عن اهرائها فقد وقعت فريسة الجوع . وأصدر لينين مرسوماً بالتأميم العام للصناعة وطلب إلى لجنة الفلاحين الفقراء مصادرة الاحتياطي المدخر لدى المزارعين الاغنياء ، للتمكن من إطعام عمال المدن . وقد جرى قمع العديد من الانتفاضات الحقيقية والعديد من المؤامرات الوهمية .

لم يحدث أن تسبب سلام في يوم من الايام بالقدر من الآلام والاهانات التي تسبب بها « سلام » بريست لروسيا . لكن لينين كان يعتني بـ « طفلته »الثورة ، ليساعدها على اجتياز كل تلك المحن وكل تلك المصاعب . لم يكن يريد فضح معاهدة بريست ، مع أنه لم يحترم بنودها ، من نواحٍ عديدة . لم يتوقف لحظة عن دعوة العمال الالمان والنمساويين للانتفاض . ورغم بند نزع السلاح الروسي ، سمح بتكوين الجيش الاحمر . إلا انه عارض في كل الظروف شهر أنصاره سلاحهم بوجه المانيا ، ودعا إلى موسكو البلاشفة الذين قادوا في السابق سوفييتات اوكرانيا فوقعوا تحت اغراء خوض نضال سري ضد الدولة المحتلة(١٠٣) . وفي كل اوكرانيا ، كانت آلة الحرب الالمانية تسحق مجموعات الغوار ؛ والحراس الحمر الروسيون ، الذين كانوا يشهدون احتضارها من الجانب الآخر من الحدود ، كانوا يتحرقون شوقاً للهرع إلى نجدتها ، لكن لينين فرض احترام أوامره ، ولم يضعف ابداً .

كان تروتسكي قد تخلى منذ زمن عن كل معارضة للسلام ، فقبل قرار الحزب النهائي وكل نتائجه . كان التضامن الوزاري والانضباط الحزبي يجبرانه ايضا على دعم سياسة لينين ، وقد فعل ذلك بصدق وإخلاص كاملين ، لكن صدقه كلفه اكثر من ازمة ضمير والعديد من لحظات الكرب والغم . اما جناح الحزب البلشفي ، المضطرب ، والمفتقر الى قائد ،فخلد إلى الصمت ، بعكس الاشتراكيين الثوريين اليساريين الذين لم ينفكوا يجهرون بأعلى صوتهم بمعارضتهم للسلام ونفاد صبرهم . وفي مارس / اذار ، بعد التصديق فوراً ، خرجوا من مجلس مفوضي الشعب . إلا انهم كانوا لا يزالون يشغلون مناصب في

---

(١٠٢) دنيكين ، اوشركي روسكوي سموت ، ج ٣ ، ص ٧٢ ـ ٩٠ .

(١٠٣) انطونوف ـ اوفسينكو ، زابسكي او غرازدانسكوي فوين ... ٥ ... ١

كل الوزارات تقريباً ، ولا سيما في التشيكا وفي الاجهزة التنفيذية للسوفييتات . لكن لما كانوا مغتاظين من كل ما حدث ، لم يكن ممكناً أن يستمروا زمناً اطول في الحكومة والمعارضة في آن معاً .

تلك كانت هي الحال حين انعقد المؤتمر الخامس للسوفييتات في موسكو ، في بداية تموز / يوليو ١٩١٨ . قرر الاشتراكيون الثوريون اليساريون ان يمضوا الى أبعد ما يكون ويقطعوا علاقتهم بالبلاشفة . ومرة أخرى سُمعت الاحتجاجات ضد السلام . صعد مندوبون اوكرانيون إلى المنصة ليصفوا النضال اليائس الذي يخوضه الانصار الاوكرانيون ويطلبوا المساعدة . وفضح القائدان الاشتراكيان الثوريان اليساريان ، كامكوف ، وسبيريدوفنا ، « الخيانة البلشفية » وطالبا بحرب تحرير .

كان كامكوف وسبيريدوفنا ، كلاهما ، ثوريين عظيمين من المدرسة النارودنية القديمة . فقد قاتلا القيصرية بالقنابل ودفعا ثمن جرأتهما سنوات عديدة في الزنزانة والأشغال الشاقة الجبرية . وكانت سلطتهما سلطة الابطال والشهداء اكثر مما هي سلطة القادة والرجال السياسيين . كانا يرفضان وزن الأمور بميزان العقل ، ويطلبان الى الثورة الظافرة ان تبرهن على القدر من البطولة الذي برهنا عنه . إلا أن البلاشفة ككل كانوا ابعد ما يكونون عن المشاركة في حماس بهذا القدر من اللاعقلانية . إلا أن نداءات كامكوف وسبيريدوفنا ضربت على وتر حساس في قلوب الكثير من البلاشفة ، وبالتأكيد في قلب تروتسكي . وحين اجتاز كامكوف المنصة ، والمؤتمر منعقد ، ومضى ينتصب أمام المقصورة الدبلوماسية حيث كان الكونت ميرباخ ، سفير المانيا ، يشهد النقاشات ، ويصيح به مصوّباً نحوه سبابته ومعلناً كل حقده على القيصر والامبريالية الالمانية ، صفق المؤتمر تحية لشجاعته ؛ وصفق تروتسكي ، هو الآخر ، من اعماق قلبه ، فكامكوف لم يفعل اكثر من تكرار ما فعله هو بالذات في بريست ؛ وصدى صوته الخاص به هو الذي بدأ يخرج من شفتي كامكوف وسبيريدوفنا . فقبل بضعة اشهر فقط أقسم علناً ، وبشكل رسمي ، وبثقة بالنفس ، ان البلاشفة سيدافعون عن شرف الثورة « حتى آخر نقطة من دمهم » . وعبر عن أملهم بأن يفعل الاشتراكيون الثوريون اليساريون الشيء ذاته . وقبل وقت أقصر توسل لرفاقه ان يعترفوا بأنهم أتوا قبل أوانهم وأنهم يسقطون في صراع غير متكافىء بدل غسل ايديهم من مصير اوكرانيا . منذ ذلك التاريخ تبع لينين ، معتقداً ان هذه هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الثورة لكن لم يكن يستطيع في اعماق ذاته انيدين من لا يحذون حذوه .

كان يلعب مع ذلك دوراً متناقضاً بشكل غريب حين طلب في ٤ تموز / يوليو إلى

المؤتمر أن يصوت على امر ملح كان سيعلنه بصفته مفوضاً للحرب[١٠٤] . كان الامر يستهدف فرض عقوبات صارمة على مجموعات الانصار الروسية التي كانت أعمالها تهدد بإشعال الحرب من جديد عن طريق مهاجمة القوات الالمانية بمبادرة منها . كان نص الأمر هو التالي : « هي ذي أوامري ، كل المحرضين الذين يواصلون ، بعد نشر هذا القرار ، تشجيع عصيان الحكومة السوفياتية سوف يتم توقيفهم ونقلهم الى موسكو ، ومحاكمتهم أمام المحكمة الاستثنائية . كل عملاء الامبريالية الاجنبية الذين يدعون الى اعمال هجومية (ضد المانيا) ويقومون بمقاومة مسلحة لسلطة السوفييتات ينفذ فيهم الحكم بالاعدام » .

وقد برهن على ضرورة هذا الأمر بمنطق متماسك تماماً ، فقال إنه ليس ما يدعو للتحري عن السياسة الصحيحة : السلم أو الحرب . فحول هذه النقطة ، اتخذ المؤتمر السابق للسوفييتات ، الذي هو أعلى مرتبة دستورية في الدولة ، قراره . وما أوضحه هو انه ليس من حق أي شخص أن ينتحل سلطات الحكومة ويندفع بمبادرة خاصة منه في عمل مسلح . فالتحريض ضد السلم لدى الحراس الحمر والانصار اتخذ اشكالاً خطيرة ؛ والمفوضون الذين دعموا السلام تعرضوا للاغتيال ؛ وقوبلت لجان التحقيق المرسلة من موسكو بإطلاق النار ؛ اما صديقه راكوفسكي ، الذي قاد الوفد المفاوض مع الراغا ، فجرى تهديده بتفجير القنابل . « وأنتم تفهمون ايها الرفاق أنه لا يمكن المزاح بصدد هكذا موضوعات ؛ وبوصفي مسؤولاً حالياً عن سلوك الجيش الأحمر . . . » .

في تلك اللحظة ، قاطعه كامكوف صارخاً : « كيرنسكي ! » وصاح في وجهه اشتراكي ثوري يساري آخر : « إنك تنظر الى نفسك كنابوليون جديد » . فأجاب تروتسكي : « كيرنسكي ! إن كيرنسكي كان يتلقى الأوامر من الطبقات البورجوازية ، أما أنا فمسؤول أمامكم ، انتم ممثلي العمال والفلاحين الروس . إذا رفضتم اقتراحي وتبنيتم قراراً آخر ، سواء أكنت موافقاً أو غير موافق ، فسوف انصاع لقراركم حينذاك كجندي للثورة وأضعه موضع التنفيذ » . وبذلك كان يبين أنه إذا كان يتصرف هكذا فتضامناً مع الحكومة التي ينتمي اليها لا لأنه على خلاف مع المعارضة ، حول مسألة مبدئية . إلا أنه حذر كذلك المعارضة من أن تصديع السلم في تلك الفترة لن يفيد إلا الحلفاء والمتطرفين العسكريين الألمان الذين لم يرضهم الأمر المفروض في بريست . وقد بدا لطيفاً ومتوخياً الاقناع حيال الاشتراكيين الثوريين اليساريين ، الذين هاجموه مع ذلك بعنف ، وامتنع عن اتهامهم بأنهم دفعوا باتجاه الحرب[١٠٥] . وحين اخذت عليه سبيريدونفا « أسلوبه الحربي ،

---

(١٠٤) تروتسكي ، كاك فوروزالاس ريفولوتسيا ، ج ١ ، ص ٢٦٦ ، ٢٧٤ .

(١٠٥) لم يتهم تروتسكي الاشتراكيين الثوريين اليساريين الا حوالى نهاية النقاش ، وحتى في ذلك الحين ، اوضح ان الاتهامات

البونابرتي » ، اجاب معتذراً تقريباً : « في الحقيقة اني لا أتذوق اطلاقاً الأسلوب الحربي ، أيها الرفاق . لا بل أنا معتاد على استخدام لغة الصحافي التي افضلها على اية لغة اخرى . لكن لكل نموذج من النشاطات نتائجه ، حتى على صعيد الأسلوب . وكمفوض للشعب لشؤون الحرب ، عليه أن يضع حداً لاغتيال ممثلي ذلك الشعب ، لست صحفياً ولا يمكنني أن أعبر عن افكاري بغنائية الرفيقة سبيريدوفنا .

لكن الرفيقة سبيريدوفنا كانت قد تخلت مؤقتاً عن كل غنائية . صعدت المرأة الصغيرة الناحلة الى المنبر لتتهم لينين وتروتسكي بالخيانة ولتهديدهما ، وصاحت : « سوف ألجأ الى المسدس والقنبلة كما فعلت سابقاً » . كان ذلك إعلاناً عن الانتفاضة التي ستنفجر بعد يومين من ذلك التاريخ . وقد ترك لنا سادول وصفاً مزخرفاً جداً للمشهد ، وللطريقة الخاصة التي رد بها لينين وتروتسكي على التهديد :

« نهض لينين . كان وجهه الغريب ، البلدي ، هادئاً وساخراً كما حاله دائماً . فهو لم يتوقف ـ ولن يتوقف ـ عن الضحك إزاء الشتائم ، والهجمات والتهديدات المباشرة التي تتساقط عليه . وفي تلك الظروف المأساوية ، حين يعرف أن ما يتعلق الأمر به إنما هو عمله ، مثله الأعلى ، حياته ، تعطيني تلك الضحكة الواسعة والصادقة التي يجدها البعض في غير موضعها انطباعاً بقوة خارقة . ومن وقت لآخر تنجح إهانة اكثر عنفاً ، تنجح للحظة في تجميد تلك الضحكة المهينة جداً للخصم والمثيرة لغيظه إلى أبعد الحدود . . . » .

« وإلى جانب لينين ، حاول تروتسكي ان يبتسم هو الآخر : لكن الغضب والانفعال والتأثر بدلت تلك الابتسامة لتصبح تقطيباً أليماً . حينئذٍ انطفأ وجهه المنتعش والمعبر واختفى خلف قناع شيطاني مرعب . ليست لديه ارادة السيد [illegible]ية ، وهدوؤه ، وتحكمه المطلق بنفسه ، إلا أنه . . . أقل عناداً وشراسة »[١٠٦]

ومن البديهي أنه كان أسهل بالنسبة للينين أن يواجه خصومه بذلك القدر من رباطة الجأش : كان مقتنعاً دائماً بأن السلام هو الطريقة الوحيدة لإنقاذ الثورة . أما تقطيبة الوجه لدى تروتسكي فكانت انعكاساً للنزاع الداخلي .

موجهة ضد افراد لا ضد الحزب ككل . وفي الحقيقة ان الحزب ككل كان ينخرط في محاولة يائسة لتصديع السلام .
المرجع ذاته ، ص ٢٧٥ .

(١٠٦) سادول ، ملاحظات حول الثورة الروسية ، ص ٣٩٦ .

قطع تلك النقاشات الصاخبة في السادس من تموز / يوليو ، اغتيال الكونت ميرباش ، سفير المانيا . إن القاتلين ، وكانا اشتراكيين ثوريين يساريين من الموظفين الكبار في التشيكا ، واسماهما بلومكين وأندرييف ، تصرفا بأمر من سبيريدوفنا أملاً في إثارة حرب بين روسيا والمانيا(١٠٧) . وبعد الاعتداء مباشرة ، فجر الاشتراكيون الثوريون اليساريون انتفاضة ضد البلاشفة ، ونجحوا في توقيف دزرجنسكي وقادة آخرين للتشيكا ذهبوا الى مركز قيادة المتمردين من دون حراسة . وقد استولوا على مركز البريد والبرق واعلنوا من هناك انه تمت اطاحة حكومة لينين . إلا أن المتمردين المفتقرين إلى قائد ، كما إلى خطة عمل ، ما لبثوا ان استسلموا بعد يومين من المناوشات .

وفي ٩ تموز / يوليو انعقد مؤتمر السوفييتات من جديد ، وأعلن تروتسكي أن الانتفاضة قد قمعت . وأوضح أن الحكومة فوجئت بالهجوم ، بعد أن أرسلت القوات الموثوقة القليلة التي كانت في العاصمة لتقاتل في الشرق الفرقة التشيكوسلوفاكية ، وكانت الحكومة أوكلت مهمة ضمان أمنها لتلك المجموعة من الحرس الاحمر قبل كل شيء ، المؤلفة من الاشتراكيين الثوريين اليساريين الذين نظموا الانتفاضة . وكل ما تمكن تروتسكي من أن يواجه اولئك المتمردين به كان فوجاً من الرماة الليتونيين ، بقيادة فاتزتيس ، وهو كولونيل قديم في هيئة الاركان سوف يصبح قائداً عاماً للجيش الأحمر ، ومفرزة من أسرى الحرب النمساويين ـ المجريين ، المهتدين الى الثورة ، بقيادة بيلاكون ، مؤسس الحزب الشيوعي المجري لاحقاً . وقد اتخذت الانتفاضة طابع الاوبريت من وجهة النظر العسكرية ،إذا لم نقل السياسية . كان المتمردون عصبة من الانصار الشجعان ، لكن غير المنضبطين ، الذين لم ينجحوا في تنسيق هجماتهم وانتهوا الى الرضوخ استجابة لاقناع البلاشفة اكثر مما تحت ضغط القوة . وتروتسكي ، الذي كان يتولى في تلك الفترة تنظيم الحراس الحمر ومجموعات الغوار في جيش أحمر ممركز ، استفاد من الانتفاضة كمثل للبرهان على صحة سياسته العسكرية . وقد تحدث عن المتمردين بنوع من الشفقة ، قائلاً انه ، وآخرين غيره ، دافعوا عنهم أمام الحكومة كما عن « اولاد يعيشون عيشة منحلّة » ، لكنه أضاف « انه لا يمكن أن يفسح في المقام لأولاد مثلهم »(١٠٨) . وقد جرى توقيف قادة

---

(١٠٧) ندم بلومكين على عمله فيما بعد وانضم الى الحزب البلشفي ، وقد تميز في الحرب الاهلية ودخل الى التشيكا . وفي العشرينات تعاطف مع المعارضة التروتسكية ، لكنه استجاب لنصيحة تروتسكي وبقي في منصبه في الغيبيو . واثناء وجود تروتسكي في المنفى في برنكيبو ، زاره بلومكين سراً وعاد الى موسكو حاملاً رسالة من تروتسكي الى المعارضة . لكن قبل أن ينجح في إبلاغ الرسالة ، جرى توقيفه وقتله . (محفوظات تروتسكي ، هارفارد) .

(١٠٨) تروتسكي ، كاك فوروزالاس ، ريفولوتسيا ، ج ١ ، ص ٢٧٦ .

المتمردين ، ثم منحوا العفو بعد عدة أشهر . ولم يتم اعدام غير اولئك الذين اساؤ وا استخدام مراكز ثقة كانوا يشغلونها في التشيكا .

هكذا أدان تروتسكي الصدى العنيد لاحتجاجاته المحمومة ضد السلام . وكانت تلك نهاية الجدال الكبير حول بريست - ليتوفسك .

أسلحة للجمهورية

« الحرب أداة للسياسة ؛ وهي تحمل بالضرورة سمة تلك السياسة . ينبغي أن تقيس كل شيء بمقياس السياسة . وقيادة الحرب هي إذاً ، بخطوطها العريضة ، السياسة بالذات التي تمسك بالسيف بدل أن تمسك بالقلم ، دون أن تتوقف مع ذلك عن التفكير وفقاً لقوانينها الخاصة بها »[1] .

وفي حرب قومية تحددها هذه الصيغة لكلاوزفيتز ، غالباً ما يجري تعتيم التماثل بين الاستراتيجية والسياسة ، وما يكون أبعد ما يمكن عن البداهة . أما في حرب أهلية ، فهذا التماثل فوري وجليّ . إن قوانين السياسة هي التي تتحكم بمختلف مراحله ، وهي التي تملي على المتحاربين تسعة اعشار حركاتهم وتوجه الحكم النهائي في ميادين المعركة . وحين عُيّن تروتسكي في منتصف آذار / مارس ١٩١٨ مفوضاً للحرب ورئيساً للمجلس الاعلى للحرب ، لم يلق حتى السيف ليأخذ بيده القلم ، بل استخدم الاثنين معاً .

لقد عمد إلى تأسيس جيش مما بدا عدماً ؛ فقوات النظام القديم المسلحة زالت من الوجود ، وعلى نهر الدون وفي شمالي القوقاز ، كانت بعض المفارز الموالية للبلاشفة لا تزال تواجه طلائع الحراس البيض . إلا أنها كانت تفتقر الى اية قيمة عسكرية بحيث فضلت الحكومة حلها ، دون محاولة الاستفادة منها في بنية الجيش الجديد ، لشدة ما كانت تخاف ان ينقل الجيش القديم للجيش الجديد مساوئه الفوضوية . وهكذا تم إسقاط كل القوة العسكرية الضخمة الخاصة بالعهد القديم ، ولم يبق منها كعنصر ذي قيمة غير فرقة الرماة الليتونيين بقيادة الكولونيل فاتزيتيس . ولم يكن إلى جانبها غير الحراس الحمر ، المؤلفين من عمال ومجموعات انصار ممتلئين حماساً ، ويتمتعون احياناً بما يكفي من الانضباط ، لكنهم قليلو التدريب أو التنظيم ، أو عديموه . أما عددهم فلم يكن كبيراً ، ففي تشرين الاول / اوكتوبر ١٩١٧ ، لم يكن حراس بتروغراد الحمر يضمون اكثر من أربعة آلاف ، وحراس موسكو اكثر من ثلاثة آلاف رجل ، مسلحين وجيدي التدريب[2] . ومنذ تشرين

(١) ترجمة دينيز نافيل (الى الفرنسية)، منشورات مينوي ، ص ٧١٠ ، ١٩٥٥ (ملاحظة المترجم الى الفرنسية) .
(٢) بيات ليث فلاسني سوفييتوف ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

الاول / اوكتوبر ، ازداد عددهم بشكل واضح . تلك كانت البدايات المتواضعة للجيش الأحمر الذي اصبح تعداده بعد سنتين ونصف خمسة ملايين جندي .

لا تعطي الأرقام إلا فكرة ضعيفة عن الصعوبات التي كان عليه أن يتغلب عليها . لكن اعظم العوائق كانت على الصعيد المعنوي والسياسي ، فحين بدأ تروتسكي يجهز الجيش الأحمر اعطى انطباعاً بأنه يحرق كل ما هام به ويهيم بكل ما أحرقه . فالبلاشفة فضحوا الروح العسكرية وشجعوا الجندي على التمرد في وجه النظام وعلى النظر الى الضابط كعدو . وإذا كانوا تصرفوا هكذا فليس بفعل عداء مبدئي للجيش ، بل لأنهم كانوا يرون فيه خادماً لمصالح الأعداء . وقد لقيت دعاوتهم نجاحاً باهراً غدا يلعب الآن دوراً في غير مصلحتهم . فلكي يخلقوا جيشاً قادراً على تأمين الدفاع عنهم اضطروا إذاً لمكافحة العقلية التي خلقوها هم ذاتهم . كانت الذهنية الشعبية مصنوعة من اتجاهات متنوعة : استهوال للحرب مناصر للسلام ، قناعة بأن الثورة يمكن أن تستند إلى الحراس الحمر والأنصار وليست بحاجة لجيش نظامي ، إيمان بحق الجنود غير القابل للتصرف في انتخاب قادتهم ولجان للجنود . وحين شرع تروتسكي يقول للمرة الأولى ان لجان الجنود لا تستطيع ان تقود الفيالق في ساحة القتال ، وان الجيش يحتاج الى المركزة والانضباط الشديد ، بدت كلماته كتدنيس للمقدسات الثورية .

زد على ذلك أن كل الجهاز الحكومي هوى الى الحضيض بحيث بدا تأسيس جيش جديد مشروعاً طوباوياً يائساً . ولقد خلق تروتسكي مجمعاً من ثلاثة مفوضين ، هم بودوفويسكي وأنطونوف ـ أوفسينكو وديبنكو . ومنذ تشرين الثاني / نوفمبر ، كان لقبه رئيس « المجمع الروسي الكبير لإدارة شؤون وزارة الحرب » ، إلا أن أزمة بريست حالت بينه وبين أن يتولى جدياً هذه المسؤولية الجديدة . وقد أعد المجمع مرسوم ١٥ كانون الثاني / يناير ١٩١٨ الخاص بخلق جيش من المتطوعين . وكمعظم قوانين تلك الحقبة وتنظيماتها ، كان هذا المرسوم قبل كل شيء إعلاناً مبدئياً بقيت الحكومة آنذاك عاجزة عن التحرك على أساسه . لم يكن ظهر بعد أي جهاز اداري يجند المتطوعين ويؤويهم ويؤمن لهم اللباس والغذاء ؛ ولم يكن ثمة ضباط ، ولا نواب ضباط ، يدربون المجندين الجدد . وسينتظر تروتسكي حتى نيسان / أبريل ، أي شهراً بعد مباشرته وظيفته ، ليخلق مصالح منطقية ومحلية في اطار مفوضيته ، أي مراكز تجنيد ، لكن لم يكن تم شيء بعد لوضع المرسوم موضع التنفيذ . وبعد مرور خمسة اشهر على ثورة اوكتوبر ، كانت النتيجة الملموسة الوحيدة تتمثل بأن عدة مئات من الحراس الحمر بدأوا يتمرنون على القيادة في بعض المدن .

إن البيانات الاولى التي نصّها تروتسكي كمفوض للحرب تنطوي على العناصر

الرئيسية لسياسته العسكرية[٣] . وهو يوجه النداء فيها قبل كل شيء لأعضاء الحزب والسوفييتات . . لأنه لم يكن يأمل النجاح بمهمته إلا بفضل عونهم . اجتهد في أن يفهمهم أن على الثورة أن تنتقل من طورها الأولي ، التدميري ، إلى طورها اللاحق ، القائم على البناء . وقال : « إن العمل والانضباط والنظام ستنقذ الجمهورية السوفياتية» . وأوضح أن الانتقال إلى الطور الجديد ينبغي أن يتم اولاً في الميدان العسكري ، لأن خلاص الثورة يتوقف عليه . لم يشهّر بصورة انتهازية بالطور التدميري ، لأنه ـ كما قال ـ ادى إلى « اليقظة الكبرى للشخصية في روسيا » ، وفي ذلك تكمن عظمته وأهميته التاريخية . إلا أن الشخصية التي تم ايقاظها ، عن طريق الرد على الاضطهاد القديم ، بدت أنانية ومناهضة للمجتمع : « بالأمس كان الانسان من عامة الشعب لا يزال عدماً ، عبداً للقيصر ، للنبلاء ، للبيروقراطية ، دولاباً في الآلة . . . دابة للركوب . . . وبعد أن تحرر غدا لديه الآن وعي شديد لشخصه وبدأ يرى في نفسه مركزالعالم »[٤] . كان من واجب الحزب إذاً ان يعوّد الشخصية الموقظة على انضباط اجتماعي جديد ، موافق عليه بحرية . لذلك كان على الحزب أن يكافح في داخله الانحرافات المعادية للعسكرية ؛ وكان كبيراً جداً عدد اعضاء الحزب الذين ظلوا حتى ذلك الحين يرون في أي جيش أداة مضادة للثورة . وكان ما يزال مبكراً جداً خلق جهاز عسكري كامل ، وكان ينبغي الاهتمام بالمقابل ، مؤقتاً ، بتشكيل نواة الجهاز اللاحق . وقد اصدرت الحكومة مرسوماً يقضي بإجبارية التكوين العسكري للجميع ، لكن على ان يجري الاقتصار ، في المدى الفوري ، على تجنيد متطوعين وتدريبهم . كان على الحزب أن يكافح أيضاً تلك الانحرافات الفظة التي تتعلق بانتخاب القادة ولجان الجنود ، وكل الاشياء التي لم تكن اطلاقاً من جوهر الديمقراطية الثورية . إن المبدأ الديمقراطي يشترط أن تتولى الجماهير انتخاب الحكومة والاشراف عليها ، لكن لا أن تنتحل الجماهيروظائف الحكومة ، وتحرمها من سلطاتها التعيينية . كان على الجيش الأحمر أن يستعين بخدمات الضباط القيصريين القدامى ؛ ففي حقل الدفاع القومي ، لا يمكن للشجاعة والحماس الثوري وروح التضحية ان تكفي . « كما أن الصناعة تحتاج لمهندسين ، والزراعة لخبراء زراعيين متخصصين ، يحتاج الدفاع القومي بشكل جازم لمتخصصين عسكريين »[٥] .

---

(٣) انظر خطابه بتاريخ ١٩ آذار / مارس في سوفييت موسكو ، وتصريحه في ٢١ آذار / مارس وخطابه في ٢٨ آذار / مارس في مؤتمر الحزب في موسكو . كاك فوروزالاس ريفولوتسيا ، ج ١ .

(٤) المرجع ذاته ، ص ٣٩ .

(٥) المرجع ذاته ، ص ٢٩ .

وإذا كان اولئك الذين صنعوا الثورة يشمئزون اشمئزازاً عميقاً من تلقي أوامر من الجنرالات والكولونيلات الباقين من النظام القديم ، فالجنرالات والكولونيلات لم يكونوا أقل نفوراً من وضع مهارتهم وخبرتهم في خدمة البلاشفة ؛ ونادرة هي الاستثناءات . فأول عسكري منهم قبل بمساعدة البلاشفة كان الجنرال بونش ـ بروفيتش ، القائد القديم لقوات الجبهة الشمالية الذي كسبه للقضية شقيقه ، الكاتب البلشفي الشهير . وقد كلف تروتسكي الجنرال بمهمة تنظيم هيئة الاركان العامة ، وهي مهمة تتجاوز طاقات الملازم كريلنكو الذي تم تعيينه قائداً عاماً في الأيام الأولى للثورة . لكن عدد الضباط الذين حذوا حذو بونش بروفيتش كان قليلاً جداً ، والذين فعلوا ذلك أقبلوا على عملهم مع العادات الذهنية للجندي النظامي ، المدرب على العمل في الاطار الصارم والمحدد جيداً لجيش عادي ؛ وكانوا منزعجين من مناخ الثورة . وقد روى رادك كيف تمت في نيسان / ابريل ١٩١٨ أولى لقاءات تروتسكي مع اولئك الضباط : طيلة أيام عديدة ، عرض الضباط افكارهم وناقشوها ، بينما كان تروتسكي يصغي صامتاً . جرى اقتراح كل اصناف الوسائل لكهربة الجيش القديم ، لكن لم يكن احد يأخذ بالحسبان التبدلات النفسية الحديثة . عند ذلك عرض تروتسكي الخطوط العريضة لخطته لتنسيب المتطوعين ، فلم يحصل على جواب غير الصمت المتضايق وهز الأكتاف . كان الضباط يعزون انهيار الجيش القديم الى الافتقار للانضباط ، وكانوا مقتنعين بأنه لا يمكن أن يكون هنالك انضباط في جيش من المتطوعين . بدت لهم مشاريع تروتسكي اختراعاً خيالياً لثوري هاوٍ[٦] .

لكن السياسة كانت تتحكم ببرنامج العمل العسكري ، في طريقة النظر لدى تروتسكي . ففي البدء يجب تطويع المتحمسين للثورة ، لأنهم هم وحدهم من سيفرضون على أنفسهم انضباطاً حديدياً ، وعليهم سيكون الاعتماد لفرض الانضباط على الآخرين فيما بعد . حتى تنسيب المتطوعين لم يكن أمراً سهلاً ، فالمغامرون والراكضون وراء الميداليات كانوا يتزاحمون في مكاتب التطويع ، وكان ينبغي تصفيتهم بعناية . وسوف ينتظر تروتسكي حتى نهاية صيف ١٩١٨ كي يلجأ إلى التجنيد ؛ واستدعى لخدمة العلم عدداً صغيراً من العمال الصناعيين في موسكو وبتروغراد ، وقد جرت تحية تنسيب العشرة آلاف الأولين كعمل باهر . وازداد عدد المجندين الجدد ، تدريجياً ، مع أن المعارضة العمالية بدأت تظهر كلما توسع التجنيد . إلا أن الاقناع والدعوة الى التضامن الطبقي تغلبا في معظم الاحيان على حالات المقاومة . ولم يدع تروتسكي الفلاحين إلا بعد أن أصبح للجيش نواة بروليتارية صلبة ، فجنّد الفلاحين الفقراء أولاً ، ثم السيريدنياك (الفلاحين

(٦) ك . رادك ، بورتريتي إي بامفليتي ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

المتوسطين) . وغالباً ما فر هؤلاء جماعات جماعات وكان لتموجات الحرب الاهلية انعكاسات عنيفة على معنوياتهم[٧] .

ولما كانت الجيوش تختفي وتولد من جديد بصورة دورية ، على الوتيرة المتكررة والفظة لتقدم السوفييتات وتراجعها ، توجب تكرار السيرورة ذاتها في مقاطعات عديدة وفي أوقات مختلفة . لذا توجب انتظار الأيام الاخيرة من الحرب الاهلية لرؤ ية الجيش الأحمر يظهر بوجه متماثل . كانت الأطوار المختلفة لتنظيمه تتداخل باستمرار ، وقد قاتلت فرق متمرسة بالحرب وجيدة الانضباط جنباً الى جنب مع وحدات تتسم بطابع جمهرة نصف مسلحة . ونتج عن ذلك مفاقمة لعدم الاستقرار وللعصبية الخاصين بجيش ثوري تشكل وسط الهزة الشاملة . وإذا كان الجيش الأحمر وقف على رجليه رغم كل ذلك ، رغم النقص المزمن في الاعتدة والذخائر والملابس والاحذية ، ورغم الجوع والاوبئة ايضاً ، فذلك لأنه تألف من سلسلة من الحلقات المتراكزة الأكثر فأكثر اتساعاً ، التي تتناسب كل منها مع شريحة اجتماعية مختلفة ، وتمثل درجة مختلفة من الولاء للثورة . وفي كل فرقة ، كل مفرزة ، كانت النواة البلشفية تسحب وراءها العناصر البروليتارية ، وتسحب بواسطتها الجمهور المتردد وغير الموثوق كثيراً من الفلاحين .

في ٢٢ نيسان / ابريل ١٩١٨ ، عرض تروتسكي خطته أمام الهيئة التنفيذية المركزية للسوفييتات[٨] . وحين وصل للكلام على استخدام الضباط من الجيش القديم ، اطلق

---

(٧) لم يتم تجنيد الكولاك والبورجوازية المدينية إلا في المصالح المساعِدة ومفارز العمل . اما الذين رفضوا الخدمة عازين ذلك لأسباب دينية فتم استبعادهم .

(٨) كان المرسوم الذي عرضه تروتسكي أمام الهيئة التنفيذية يبدأ هكذا : « إن إحدى المهام الاساسية للاشتراكية تتمثل بتخليص البشرية من النزعة العسكرية ، ومن وحشية النزاعات الدامية بين الأمم . وهدف الاشتراكية هو نزع السلاح الشامل ، والسلام الدائم والتعاون الأخوي لجميع الشعوب التي تقطن الأرض » . كاك فوروزالاس ريفولوتسيا ، ج ١ ، ص١٢٣ - ١٢٤ . في تلك المناسبة ، وافقت الهيئة التنفيذية ايضاً على نص قَسَم الجيش الأحمر ، الذي كتبه تروتسكي :

« أنا ، ابن الشعب ، العامل والمواطن في الجمهورية السوفياتية ، اخذ لقب جندي في جيش الفلاحين والعمال .

أتعهد أمام الطبقات العاملة لروسيا والعالم اجمع أن أحمل هذا اللقب بشرف ، وأن أتعلم مهنة السلاح بضمير حي . .

أتعهد بأن أراعي الانضباط الثوري بدقة ومن دون ملل . . .

أتعهد بالا أقترف اعمالاً يمكن ان تجرح كرامة مواطن للجمهورية السوفياتية أو تحط من قدره وبأن أحول دون أن يقترف رفاقي تلك الأعمال ، وبأن أضع كل افعالي وافكاري في خدمة المصلحة العليا لتحرر كل الطبقات العاملة .

المناشفة صيحات الاستهجان . صرخ دان : « هكذا يعلن امثال نابـوليون عن ظهورهم ! » واتهم مارتوف تروتسكي بفتح الطريق لكورنيلوف جديد . وبالطبع ، لم تقنع تلك الاتهامات الكثيرين ، لا سيما انها أتت من حزب سلّم الثورة تقريباً لكورنيلوف[9] . إلا أن الاعتراضات الأكثر جدية كانت اعتراضات الاشتراكيين الثوريين اليساريين ، الذين لم تكن خطة تروتسكي ، بالنسبة اليهم ، تستحق حتى النقاش . اما الاعتراض الاكثر ثباتاً والأشد قوة فقد أتى من داخل الحزب البلشفي بالذات . هذا الاعتراض كان يتذرع بالأسباب الأكثر تنوعاً . ومعظم الشيوعيين اليساريين الذين عارضوا صلح بريست رفضوا سياسة تروتسكي باسم روح الحرية لدى الثورة . لقد رفضوا ان يكفلوا خلق جيش دائم وممركز ، دون الكلام طبعاً على جيش يوكل الى جنرالات القيصرية وكولونيلاتها . إن الشيوعيين اليساريين بقيادة إ . ن . سميرنوف ، وبوخارين، وبياتاكوف ، وبوبنوف ، انطلقوا في حرب ضد تروتسكي ، بالعنف ذاته والمجاهرة ذاتها اللذين هاجما بهما لينين في قضية بريست ؛ ان معارضة سياسة تروتسكي حالياً كانت تعني بالنسبة اليهم مواصلة صراعهم السابق ؛ فلقد كانوا يرفضون كل مساومة مع قوى النظام القديم ، سواء في السياسة الخارجية أو في السياسة الداخلية .

كان الاتجاه الآخر في المعارضة يتألف من أناس ينتمون إلى الهرم الداخلي للحزب البلشفي .هؤلاء الناس كانوا عموماً انصار مركزة السلطات وانضباط صارم ، وكانوا يعتبرون الشيوعيين اليساريين كمضجاجين غير مسؤولين . لم يكونوا معارضين بشكل اساسي لخطط تروتسكي العسكرية ، لكنهم تخوفوا من الاستعانة بالضباط القدامى . كانوا يخشون ، ليس من دون مبرر ، ان ينضم الضباط الى صفوف الجيش الأحمر لهدف واحد هو خيانة الثورة من الداخل بشكل أفضل . وكان بعضهم غيورين على المواقع العليا التي حصلوا عليها والتي طُلب اليهم الآن أن يتقاسموها في الجيش مع أعدائهم السابقين . لقد اندمج الحسد والشبهة في شعور معارضة قوي عبر عن نفسه في لجنة الحزب المركزية . وحتى البلاشفة الذين وقفوا ضد تنسيب الضباط لم يفعلوا ذلك إلا

أتعهد بأن أستجيب لنداء حكومة العمال والفلاحين للدفاع عن الجمهورية السوفياتية . . . ولن اوفر طاقتي أو حياتي في النضال من اجل الجمهورية السوفياتية الروسية ومن اجل قضية الاشتراكية والاخوة بين الشعوب .

. . إذا حصل لسوء الحظ أن أخللت بهذا الوعد الرسمي ، فليحتقرني الجميع ولتعاقبني الذراع التي لا تلين للقانون الثوري » . **المرجع ذاته** ، ص ١٢٥ .

(٩) المرجع ذاته ، ص ١١٧ .

مع تقييدات ذهنية مهمة ، وقد سمحوا بين الحين والآخر لعواطفهم المكبوتة ، بالتعبير عن نفسها بحرية . هاجموا سياسة تروتسكي بشكل منحرف ، غير متهمين مبدأها بالذات ، بل تفاصيلها وأشكال تطبيقها .

هذان الاتجاهان المعارضان التقيا فشكلا ائتلافاً ملتبساً ، وحصلا على دعم المفوضين والقادة في الحرس الأحمر ، ومجموعات الانصار ، وهم عمال ونواب ضباط تميزوا خلال الاسابيع الأولى للثورة ، وكانوا محاطين بهالة بطولة ، بحيث شعروا بإهانة عميقة ، وهم يفكرون أنهم سيطيعون أوامر جنرالات قيصريين أو أية سلطة عسكرية اخرى .

كانت تلك مشكلة تؤدي إلى مشكلة أخرى اكثر اتساعاً بكثير ، تتعلق بموقف الدولة الجديدة من القيم الايجابية للحضارة ما قبل الثورية ، ومن الأنتلليجنسيا التي كانت تمثل مجموع الافكار والمعارف والطاقات التي خلفها النظام القديم . وكانت هذه المشكلة تنطرح في الميدان العسكري بصورة حادة بشكل خاص ، لكن كان لها في كل حقول الحياة السوفياتية أهمية حيوية . كان البلاشفة والعمال يحقدون حقداً شديداً على اعضاء المهن الحرة الذين تمتعوا بالحرية وبالعديد من الامتيازات فيما كان الثوريون يمضون ريّق شبابهم في المنفى أو في السجن . وكانوا ينذهلون حين يقال لهم إن عليهم أن يعيدوا « خدام » القيصر والـ « بورجوازيين الجهلة » إلى ما كانوا عليه من نفوذ واحترام . إلا ان هذا ما كانت الثورة قد بدأت تفعله ، لسبب بسيط هو انها لم تكن قادرة على إعدام الانتلليجنسيا ، تلبية لتعطشها للثأر ، من دون تدمير أسس مستقبلها بالذات . فمن دون أطباء البلاد وعلمائها وباحثيها وتقنييها الذين لم يكن يتوفر منهم الكثير الفائض ، ومن دون كتّابها وفنانيها ، كانت هوت الى قاع الهمجية البدائية الذي كانت غدت قريبة منه بما يدعو للخطر . كانت المجادلات حول موضوع « الاختصاصيين » تدور بالتالي ضمنياً حول مستوى الحضارة الذي ينبغي أن يبدأ منه « بناء الاشتراكية » . بهذه التعابير ، وليس فقط على مستوى المنافع العسكرية ، طرح تروتسكي المشكلة مراراً . أوضح أن « الارث الثقافي » الذي تملكته الثورة ينبغي إنقاذه والعناية به وتنميته ، وأنه طالما سيكون على الثورة أن تدافع عن نفسها ، ينبغي اعتبار التجربة والطاقات العسكرية جزءاً لا يتجزأ من ذلك الارث . وان مداخلاته بهذا المعنى تحتل صفحات عديدة من التاريخ الثقافي كما التاريخ العسكري للنظام السوفياتي .

كان تحالف المجموعات الذي حاول إفشال سياسة تروتسكي مثيراً للخوف ، لا سيما أن لينين احتفظ زمناً طويلاً لنفسه بحكمه على استخدام الضباط ، مع أنه تدخل بالكثير من

الالحاح من اجل معاملة « الاختصاصيين » المدنيين بذوق واعتبار . وكان الفرع العسكري للحزب ، الذي يرتبط به الى حد بعيد التعاون مع الضباط ، معارضاً بحزم لسياسة تروتسكي . وقد انفجر النزاع علناً حين أعلن لاشيفيتش ، رئيس الفرع العسكري في الحزب ، وعضو اللجنة المركزية ، وصديق زينوفييف الحميم ، حين أعلن جهاراً أن الحزب لن يستخدم الجنرالات القدامى إلا لـ « عصرهم كثمار ليمون حامض ورميهم فيما بعد » . وتكلم زينوفييف باللهجة ذاتها ، كما لو كان يحاول جرح كبرياء الضباطِ وخنق كل محاولات تروتسكي لتنسيبهم في المهد[10] . وقد كتب احدهم ، الجنرال نوفيتسكي ، الذي عرض من تلقاء ذاته خدماته على البلاشفة ، كتب رسالة مفتوحة لتروتسكي يعلن له فيها أنه يرفض التعاون لأنه لا يريد أن « يتم عصره كثمرة ليمون حامض ويُرمى به فيما بعد » . ورد تروتسكي مديناً بصُورة جازمة تلك التهجمات على الضباط . وقد قال : « هؤلاء الجنرالات القدامى ، الذين يعملون بضمير حي ضمن الظروف الصعبة الراهنة ، يستحقون رغم روحهم المحافظة احترام الطبقة العاملة أكثر بكثير مما يستحق الاشتراكيون ـ الزائفون الذين يقضون وقتهم في حبك الدسائس . . . »[11] .

لم يكن تروتسكي يسعى فقط لطمأنة الضباط ، بل كان صادقاً في سخطه على اللهجة الفظة والعدوانية التي تكلم بها زينوفييف ولاشيفيتش . وحتى حين انتهت الحرب الاهلية ، ولم يعد هنالك من حاجة الى الضباط بالالحاح ذاته ، ظل تروتسكي يطالب بمعاملتهم باحترام . وأكد أنه ينبغي مواصلة استخدامهم ، حتى بعد أن يكون سلك الضباط الجديد اكتمل تكوينه ، لأنه ما من مجتمع متمدن ومحكوم بشكل عقلاني يستطيع أن يبذّر الكفاءة والمعرفة والاستحقاق ، أو ينبغي عليه فعل ذلك . وأعلن ايضاً عن ايمانه بالشهامة الادبية للثورة ، شهامة يمكن أن تشمل حتى اناساً آتين من أوساط محافظة ، ثم انتقد بحدة تزمت اولئك البلاشفة الذين يعتقدون أن أي امرئ كان ضابطاً في جيش القيصر محكوم بأن يبقى فاقد الحس إلى الأبد تجاه نداء الاشتراكية .

وقد حاول شخصياً أن يقنع الضباط بالشهامة الأدبية للثورة ، وهي شهامة كانت تخفيها تعاساتها . وبعض المرافعات التي دبجها للضباط تعتبر من بين الدفاعات عن الثورة

---

(١٠) أ . ف . إيلين ـ زينيفسكي أوفلاستي ، ص ٨٧ ـ ٨٩ .

(١١) تروتسكي ، كاك فوروزالاس ريفولوتسيا ، ج ١ ، ص ١٣٥ ؛ ايلين ـ زنييفسكي ، المرجع ذاته ، ص ٨٠ ـ ٩٠ . كانت كلمات تروتسكي تستهدف جهاراً المعارضة غير البلشفية ، إلا أنها كانت موجهة عملياً ضد زينوفييف ولاشيفيتش . كان تروتسكي يدين صراحة تلك الصيغة التي تتكلم على عصر الجنرالات كثمار الليمون الحامض .

الأكثر تأثيراً . والمقطع التالي من خطاب التدشين الذي ألقاه في الأكاديمية العسكرية في عام ١٩١٨ يعطي مثلاً واضحاً على ذلك . كان الخطاب يتناول بوجه خاص تاريخ الاكاديمية ، لكنه كان ينطوي كذلك على كلمات لم تسمع من نوعها جدران الاكاديمية في يوم من الأيام :

« إن من لم يعتادوا على الثورة وسيكولوجيتها . . . يمكن بالطبع أن ينظروا بنوع من الاستهوال . . . الى هذه الفوضى الصاخبة ، حتى في تجلياتها الأكثر سلبية ، حين يحدث للجندي ، العبد بالأمس ، ان يجد نفسه بغتة في مقصورة من الدرجة الأولى وينتزع مخمل المقاعد ليصنع منه عصائب للساق ؛ حتى في عمل تخريبي بهذا القدر تتجلى يقظة شخصيته . فالفلاح الروسي الذي أسيئت معاملته ، وديس بالأقدام ، واعتاد على الصفعات ، وشبع من أسوأ الاهانات والشتائم ، ربما تكون المرة الأولى في حياته التي يجد نفسه فيها بغتة في مقصورة من الدرجة الأولى . وخلال يومين أو ثلاثة أيام ، خلال شهر ، أو سنة ـ كلا ، بل خلال شهر ـ سيعي بشاعة مسلكه. إلا أن شخصيته التي استيقظت . . شخصيته البشرية ستبقى حية في ذاته الى الأبد . ومهمتنا تتلخص بتكييف هذه الشخصية مع الجماعة ، وجعلها تشعر بنفسها ، لا كرقم ، لا كعبد كما في الماضي ، ولا كإيفانوف ، أو بتروف فقط ، بل كإيفانوف ـ الشخصية الانسانية »[١٢] .

ولما كان تروتسكي واثقاً إلى أقصى الحدود من مقدرته الفكرية والمعنوية الخاصة به ، فغالباً ما كان يؤنب الجنرالات الذين جنّدهم لما لديهم من نزعة روتينية ، ومن محدودية ، وأحياناً من جهل . وإذا كان ألح على حاجة الثورة للضباط القدامى ، فقد كرس نفسه ، بالمقابل ، بكل قوة واندفاع وحزم ، لتكوين سلك ضباط جديد ، انطلاقاً من ضباط صف ، وعمال عاديين . ووجه النداء إلى ضباط الصف كما إلى « الاطار المقبل الدائم لسلك ضباط جمهورية السوفييتات » ، قائلاً لهم إنهم هم الذين كانوا يحملون عصا الماريشالية في كيسهم[١٣] ، سواء في الثورة الروسية أو في الثورة الفرنسية . وفي نهاية الحرب الأهلية ، لم يكن الضباط « القيصريون » يشكلون إلا ثلث الكادر القيادي ، إذ كان الثلثان الأخران عناصر خارجة من الصف ، وكان يوجد بينهم عدد من الماريشالات اللاحقين للحرب العالمية الثانية . لكن في عام ١٩١٨ ، كان اكثر من ثلاثة أرباع جهاز

(١٢) تروتسكي ، المرجع ذاته ، ص ١٦٥ .

(١٣) تروتسكي ، المرجع ذاته ، ج ١ ، ص ١٧٤ - ١٨٥ .

القيادة والادارة في الجيش الأحمر ضباطاً من النظام القديم ؛ وفي المراتب العليا من القيادة ، كانت النسبة اكبر ايضاً[14] .

وبين الضباط ، كان هنالك خونة بالطبع ، وخونة كامنون . وبعضهم لم يكونوا ينتظرون غير فرصة للانضمام الى الحراس البيض ؛ وكان البعض ينشرون قواتهم بحيث تكون الخسائر كثيرة والهزيمة محققة ؛ وكان آخرون يبلغون القيادة المعادية اسراراً مهمة . وبعد قليل من تعيين تروتسكي مفوضاً للحرب ، كان الشاهد الرئيسي في محاكمة الاميرال شاستني ، المتهم بالتخريب ؛ وقد حكم على الاميرال بالاعدام بعد شهادة تروتسكي . وكانت المحاكمة معدة لإقناع الجيش الوليد بفكرة مسلَّم بها بشكل عام في كل جيش عادي ، تقول بأنه ينبغي النظر الى بعض الأعمال كخيانات ، وإنزال العقاب بسببها على هذا الأساس ؛ وكانت تستهدف ايضاً تخويف الضباط المتعاطفين مع الحراس البيض ، ففي فترة الحرب الأهلية ، أية عقوبة أخف من الاعدام لا يكون لها تأثير وقائي ، والخوف من السجن ، لا يحول بين من يستعد للخيانة والخيانة ، لأنه يؤمن بالانتصار النهائي لرفاقه ، وهو انتصار سيعيد اليه الحرية ويعود عليه بالتكريم والمكافآت ؛ أو انه يعتمد على عفو عام في نهاية الحرب الاهلية . لقد كانت أوامر تروتسكي مشفوعة بتهديدات صارمة ضد عملاء الحراس البيض . لكن حتى التهديد بعقوبة الاعدام لم يتوصل إلى الحيلولة بشكل ملحوظ دون خيانات الضباط في خطوط القتال . عندئذٍ أمر تروتسكي بإحصاء عائلات اولئك الضباط من أجل ان تستخدم نساؤ هم وأولادهم كرهائن حين ينتقلون إلى معسكر العدو . وكان ذلك تدبيراً قاسياً جداً ، وقد استخدم تروتسكي كل الامكانات الدرامية لبلاغته ليجعل منه أمراً مرعباً لأقصى درجة ممكنة . وبرر هذا التدبير قائلاً إنه من دونه سوف تنهزم الثورة وتتعرض الطبقات التي ساندت الثورة لانتقام الحراس البيض . إن الذعر والحذر المرَضيّ والاهواء العنيفة التي سيطرت خلال الحرب الأهلية أودت بالعديد من الضحايا البريئة ، واضطر تروتسكي دون انقطاع إلى تذكير مرؤ وسيه شديدي الحماس بأن هدف الارهاب ليس تدمير الأعداء الكامنين ، بل اجبارهم على وضع انفسهم في خدمة الدولة الثورية .

وقد ضم مفوضين الى الضباط ؛ وكانت الثورة الفرنسية قدمت سابقات في هذا المجال ، كما بالنسبة لعديد من المؤسسات الأخرى . وكان كيرنسكي عين مفوضين في

---

(١٤) تروتسكي ، ستالين ، ص ٢٧٩ ، انظر ايضاً فوبروزي ايستوريي ، عدد ٢ ، ١٩٥٢ ؛ يو . ب . بتروف ، فوتنيي كوميساري .

الجيش ، إلا أنه حتى ذلك الحين كان المفوضون يلتحقون فقط بالمراكز القيادية العليا ، وكان دورهم غامضاً بما فيه الكفاية . أما تروتسكي فعين مفوضين في كل درجات الهرم العسكري ، من قائد السرية إلى القائد العام . وحاول كذلك أن يحدد بشكل واضح المسؤوليات والواجبات المتبادلة للقائد العسكري والمفوض . وكان الأول مسؤولاً عن التكوين العسكري وقيادة العمليات ، والثاني عن ولاء القائد ومعنويات القوات(١٥) . لم يكن أي امر عسكري ذا قيمة إلا إذا وقعه الاثنان ، لكن مهما كان الوضوح النظري لتوزيع المهام هذا ، فقد نتج عنه تصدع للسلطة العسكرية . كان التنافس والغيرة أمرين محتومين ، وكان الضباط ساخطين على رقابة المفوضين ، والمفوضون يرفضون الانصياع للتوجيهات التي تجعل الجنرالات والكولونيلات أدنى منهم على الصعيد السياسي ، وأعلى منهم على الصعيد العسكري . وكان تروتسكي يريد جعل التوازن محكماً بين الرتبتين . وكان يبدو للمفوضين احياناً حامياً للضباط ، وللضباط كالملهم الرئيسي للمفوضين ؛ ولما كان يتصرف دون أن يأخذ احداً بالحسبان ، فقد جعل من الكثيرين اعداء له . لكنه ربح كذلك انصاراً مخلصين بين الضباط الذين كانوا يعترفون بجميله لكونه أعاد اعتبارهم ، وكذلك بين المفوضين الذين كانوا يعتقدون بأن الجيش الأحمر يدين بتماسكه وقوته السياسية لخطته . وإجمالاً ، فإن خطته اعطت نتائج مثيرة للرضى ، في الوقت ذاته الذي تسببت فيه بخلافات . وفي كل حال لم يكن هناك أي حل بديل يمكن اقتراحه ، فالجيش الأحمر كان انهار سياسياً لو أوكل من دون رقابة لسلطة الضباط القدامى ؛ ولو تُرك بقيادة هواة بلاشفة ، لتحطم في ساحات الوغى . والواقع أن أحداً لم يشد بنظام تروتسكي إشادة ساطعة وتلقائية مثل دنيكين الذي وقع ضحية ذلك النظام : « يمكن لحكومة السوفييتات ان تعتز بالمهارة التي جندت بها إرادة الجنرالات والضباط الروس وذكاءهم ، هؤلاء الذين جعلت منهم ، بالرغم من نفورهم ، أدوات مطيعة لها . . . »(١٦) .

بقي أن يتم تزويد الجيش الأحمر بسلطة ممركزة وقيادة موحدة ، وقد واصل تروتسكي حل الحرس الأحمر ومجموعات الأنصار . إلا أن دمج وحدات الأنصار بدا مزعجاً لأن اعضاءها كانوا ينشرون في الوحدات النظامية « روح الغوار » . وفي النهاية ، أصدر تروتسكي مرسوماً بحل وحدات الأنصار حلاً كاملاً ، متوصلاً حتى الى تهديد القادة والمفوضين الذين ينوون دمجها بعقوبات صارمة . وأصر على أن يتألف الجيش كله من فرق

---

(١٥) انظر الخطاب الذي القاه تروتسكي في أول مؤتمر للمفوضين في موسكو ، في حزيران ١٩١٨ . كاك فوروزالاس ريفولوتسيا ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، وغيرها .

(١٦) دنيكين ، أوشركي روسكوي سموتي ، ج ٣ ، ص ١٤٦ .

وفيالق مشكلة على نمط واحد ، مما انتج ما لا يحصى من النزاعات مع مجموعات الانصار ، لا سيما مع جيش ماخنو[١٧] الفوضوي . لكن حتى في الفرق التي كان يقودها بلاشفة ، غالباً ما لم تكن سياسة المركزة والتنميط الموحد للجيش مطبقة إلا بشكل بالغ السطحية . وبالنسبة للعديد من البلاشفة ، كانت المركزة اكثر بشاعة ايضاً حين تستتبع التبعية لجنرال « قيصري » . وقد واصل الشيوعيون اليساريون التعبير علناً عن معارضتهم . إن مركز معارضة آخر ، أكثر سرية ، لكن اكثر فعالية ايضاً ، كان يتشكل من الجيش العاشر ، بقيادة فوروشيلوف ، الذي كان يدافع عن تزاريتسين ، التي ستصبح ستالينغراد فيما بعد .

* * *

في منتصف عام ١٩١٨ ، كانت جمهورية السوفييتات لا تزال عملياً من دون جيش ، ولو ان التدخل الخارجي اتخذ آنذاك الاتساع الذي بلغه فيما بعد ، أو لو كان الحرس الابيض مستعداً ، لكانت السوفييتات وجدَت نفسها في وضع يائس . إلا أن مسار الاحداث كان في صالح البلاشفة إلى حد ما ، لأنه اعطى تقريباً الوتيرة ذاتها لجهود المعسكرين من أجل تجميع قواتها وتنظيمها . فالحرس الابيض ، والجيش الأحمر ايضاً ، كانا لا يزالان في طور التكوين ؛ ولم يتجاوز التقدم الالماني الحافة الشمالية ، بينما لم توطد قوات الحلفاء سيطرتها إلا على المراكز الامامية البعيدة في مورمانسك وارخانجلسك وفلاديفوستوك . وفي وسط روسيا ، كان البلاشفة يدعمون سلطتهم في أمن نسبي . وهذا ما يوضح البطء الملموس على صعيد تقدمهم في الميدان العسكري ، إذ كان ينبغي أن يحدث تهديد ضاغط ومميت من اجل تسريعه . هذا التهديد جاء بغتة من الفرقة التشيكوسلوفاكية ، التي تم خلقها في بداية الحرب من أسرى حرب عازمين على قتال النمسا ـ المجر .

بموجب معاهدة بريست ، تعهدت الحكومة السوفياتية بنزع سلاح الفرقة ، وقد جرى تطبيق البند على مضض وبصورة شكلية بحيث احتفظت الفرقة بالقسم الأكبر من سلاحها . وقد اقترح الفرنسيون والانكليز في البدء إخلاء الفرقة عن طريق مرفأ روسي ، وهو ما وافقت عليه الحكومة السوفياتية . لكن الحلفاء لم يرسلوا المراكب الضرورية ، فيما

---

(١٧) تمت محاولات عديدة غير نافعة للتصالح مع انصار ماخنو . وفي اطار احدى تلك المحاولات ، اعلن تروتسكي جهاراً ان اتهام ماخنو بالتعاون مع الحراس البيض باطل ، لكنه ادان عالياً سلوك انصار ماخنو على الصعيدين السياسي والعسكري . وفي الاخير ، قامت فرقة فرسان بوديبني بتشتيت مفارز ماخنو والقضاء عليها . انظر كاك فوروزالاس ، ريفولوتسيا ، ج ٢ ، ك ٢ ، ص ٢١٠ ـ ٢١٢ ، ٢١٦ ـ ٢١٧ ، و ب . أرشينوف ، غيشيشتي در ماخنو بيفيغونغ .

بعد ، ثم قرروا إبقاء الفرقة في روسيا حيث يمكن استخدامها ، سواء ضد البلاشفة ، أو ضد الالمان ، أو حتى ضد الطرفين معاً . وقد كفل تروتسكي للفرقة الأمن الأكمل وعرض على اعضائها حق الاقامة والعمل في روسيا إذا شاؤوا . وفي حين كانت الفرقة تتنقل من دون هدف عبر الأورال وسيبيريا ، وضعتها في حالة غليان اشاعات تقول إن البلاشفة يستعدون لتسليمها للألمان . وتمردت الفرقة ، وسرعان ما احتلت منطقة واسعة في الفراغ العسكري لآسيا الروسية ، وقلبت السوفييتات وتحالفت مع حراس كولتشاك البيض(١٨) .

حين استولى التشيكيون على سَمارا عند نهر الفولغا ، أصدر تروتسكي ، للمرة الأولى ، مرسوماً بالتجنيد الاجباري للشغيلة ، ومن موسكو ارسل المجندين الجدد ، على وجه السرعة ، كي يقاتلوا التشيكيين . ومعظم هؤلاء المجندين لم يتلقوا عملياً أي تكوين عسكري ، ولم يتم تسليحهم إلا أثناء الرحلة . وخلال تقدم التشيكيين بالذات ، نظم الاشتراكيون الثوريون اليساريون انتفاضة ضد البلاشفة . وقد قلنا إن هؤلاء الأخيرين لم يكونوا يستحوذون في موسكو إلا على القوات الليتونية بقيادة فاتزتيس ، ومفرزة من اسرى الحرب ، المهتدين إلى الثورة ، بقيادة بيلاكون . وبعد قمع انتفاضة موسكو ، مضت القوات الليتونية ، هي الأخرى ، لمقاتلة التشيكيين . كان الوضع على الفولغا قد تفاقم نتيجة لخيانة مورافييف المزعومة ، الكولونيل الذي هزم كيرنسكي حين حاول استعادة بتروغراد ، ثم تميز فيها بعد على الجبهة الجنوبية ، والذي تم تعيينه في الاخير قائداً عاماً للجبهة الشرقية . كان مورافييف ـ على الأقل ، حسب زعم البعض ـ متواطئاً مع الاشتراكيين الثوريين اليساريين ، واتهمه البلاشفة بالتواطؤ مع التشيكيين وكولتشاك ، وقد انتحر ، وفقاً لما رواه البعض ، بعد أن اكتشفت حقيقته ، بينما ذكر آخرون أنه تم اعدامه . وفي غضون ذلك ، استولى التشيكيون على أوفا ، وسيمبيريسك وايكاتيرنبورغ .

في ايكاتيرنبورغ بالذات كان البلاشفة يحتجزون القيصر وعائلته ، وكانوا ينوون مقاضاته أمام محكمة ثورية ، تماماً كما شارل الأول ولويس السادس عشر ، وكان تروتسكي احتفظ لنفسه بدور المدعي العام . إلا أن تقدم التشيكيين وكولتشاك فاجأ بلاشفة إيكاتيرنبورغ ـ هذا ما زعموه على الأقل ـ لدرجة أنه لم يتوفر لهم الوقت لإجلاء القيصر وعائلته . وقد خافوا إطلاق البيض سراح القيصر ، وأن يجمع حوله القوى المضادة للثورة

---

(١٨) « . . توصلت الى التأكد من حسن نية تروتسكي ، ولولا جنون الفرنسيين لكان تم إخلاء التشيكيين ـ حسب قناعتي ـ بكل أمان ومن دون أي حادث » ؛ هذا ما كتبه بروس لوكهارت ، المرجع ذاته ، ص ٢٧٢ ، ٢٨٥ .

المنقسمة حتى ذلك الحين في غياب قائد قادر على توحيدها حول شخصه . وربما تذكر البلاشفة كلام مارا القائل : « الويل للثورة التي لا تكون لها الجرأة الكافية لقطع رأس رمز النظام القديم » ، فأعدموا القيصر وكل أفراد عائلته ، قبل ان ينسحبوا على عجل . وتقول الرواية البلشفية الرسمية إن الاعدام تقرر من جانب بلاشفة المدينة ، لكن موسكو أيدته بعد حصوله . وتسمح بعض الاسباب بالتشكيك بصحة هذه الرواية ، إذ يبدو أن بلاشفة إيكاتيرنبورغ طلبوا في البدء إلى المكتب السياسي اتخاذ قرار ، وأن تروتسكي نصح بإجلاء القيصر لأجل التمكن من محاكمته ، لكن المكتب السياسي الذي رفض المخاطرة أمر بتنفيذ الاعدام . وهكذا حرم العالم من محاكمة درامية إلى اقصى الحدود ، كان سيتواجه فيها تروتسكي والقيصر .

واصل التشيكيون والحراس البيض تقدمهم . وفي ٦ آب / أغسطس غادر الجيش الأحمر في حالة من الهلع والذعر مدينة كازان ، المدينة الكبيرة الاخيرة على الضفة الشرقية للفولغا العليا . ولو أن التشيكيين نجحوا في عبور النهر من ذلك المكان ، لاستطاعوا التدفق في السهل الكبير الأجرد من دون مصادفة عوائق حتى موسكو .

أعلنت الهيئة التنفيذية المركزية للسوفييتات أن الجمهورية في خطر ، ولجأ تروتسكي الى اول تجنيد إجباري لضباط وضباط صف ، واتخذ تدابير صارمة حيال الشيوعيين الذين كانوا يعيشون حياة رخاء في الجيش ويسعون للحصول على امتيازات[١٩] . وبعد يومين من سقوط كازان ، مضى الى الجبهة في القطار الذي سوف يستخدمه محل اقامة ومركز قيادة متحركاً ، خلال عامين ونصف . وفي أمر يوم نُشر قبل رحيله ، يقول :

> « قبل ذهابي إلى الجبهة التشيكوسلوفاكية ، أرسل تحياتي لكل اولئك الذين . . . يدافعون عن حرية الطبقة العاملة واستقلالها بشرف وشجاعة . . . الشرف والمجد للمقاتلين البواسل !
>
> في الوقت ذاته ، إليكم هذا الإخطار : لا أمان لأعداء الشعب ، عملاء الامبريالية الاجنبية ، مرتزقة البورجوازية . في قطار مفوض الشعب للحرب ، حيث تم تحرير هذا الأمر ، تنعقد محكمة ثورية عسكرية . . . (هذه المحكمة) تتمتع بسلطات غير محدودة داخل المنطقة التي يحددها خط السكة الحديدية هذا . إن الاحكام العرفيّة معلنة على امتداد كل هذه المنطقة ، والرفيق كامنتشيكوف ، الذي كلفته بالدفاع عن خط موسكو ـ كازان أصدر الأمر بخلق معسكرات تجميع

(١٩) تروتسكي ، كاك فوروزالاس ريفولوتسيا ، ج ١ ، ص ١٧٤ ـ ١٨٥ .

في موروم وأرزاماس وسفياجسك . أحذر المفوضين السوفيات المسؤ ولين في كل مناطق العمليات العسكرية بأننا سنكون متطلبين حيالهم بصورة مضاعفة ، فالجمهورية السوفياتية ستعاقب خدامها المهملين أو المجرمين بالقدر من القساوة الذي تعامل به اعداءها . الجمهورية في خطر ! الويل للذين يفاقمون هذا الخطر ، مباشرة أو مداورة »[٢٠] .

وصل تروتسكي إلى سفياجسك ، وهي مدينة صغيرة على ضفة الفولغا الغربية ، مقابل كازان . كان ذلك هو الموقع الأكثر تقدماً للحمر ، بعد الانسحاب الى ضفة النهر الغربية . وقد وجد تروتسكي الجبهة في حال يقرب من التفكك : فرار جماعي للجنود ، انهيار معنويات القادة والمفوضين . وحين نزل تروتسكي من قطاره الذي كان في مرمى نار العدو ، وقع على جمهور من الجنود المصابين بالذعر ، فصب عليهم سيول بلاغة مضطرمة ، وألّبهم ، وقادهم شخصياً ، بالمناسبة ، إلى المعركة . وفي لحظة حرجة بوجه خاص ، شارك حراسه في المعركة ، تاركين إياه شبه وحيد في القطار . واقترح المفوضون المحليون ان يذهب فيحتمي في باخرة على نهر الفولغا ، لكن تروتسكي الذي خشي انعكاس امر من هذا النوع على نفسية القوات ، رفض الاقتراح . وقد انطلق تروتسكي على متن نسّافة متلفة مع بحارة من كرونشتادت كانوا قد جاؤ وا بأسطول صغير الى الفولغا ، وذلك في غارة ليلية جريئة جداً على كازان . وجرى تدمير الاسطول الى حد بعيد ، إلا أنه نجح في اسكات البطاريات المعادية المركزة على الجروف ، وعاد تروتسكي سالماً إلى قاعدته .

وكانت القوات المنخرطة ، في تلك المعركة قليلة الأهمية[٢١] . وكما في بداية كل حرب اهلية ، فحظ ثورة كبرى يستند الى معارك صغيرة . في هكذا معارك ، يكون القائد على مرأى من رجاله باستمرار ، ويمكن لإيمانه وحضور ذهنه وشجاعته أن تصنع المعجزات . وينبغي أن يفرض سلطته على القوات ايضاً بمثله الشخصي ، وهو امر نادراً ما يتوقعه المرء من قائد جيش نظامي . إلا أن القواد يكونون هم أيضاً على مرأى من القائد العام ، ويمكن لسلوكهم فوق ارض المعركة أن يعود عليهم بترقية وشهرة خارقتين . ويعود تاريخ صداقة تروتسكي وفاتزيتيس ، الذي رقاه بعد قليل لرتبة قائد عام للجيش الأحمر ،

---

(٢٠) المرجع ذاته ، ص ٢٣٣ .

(٢١) حتى بعد انتصار الحمر ، وفي حين كانت صفوفهم تتضخم إلى حد بعيد ، لم يصل تعدداهم الى اكثر من ٢٥ ألفاً . لذا كان عددهم لدى وصول تروتسكي أقل بكثير .

إلى سفياجسك بالذات . هناك أيضاً ، لفت انتباهه الشاب توخاتشيفسكي ، وهناك بدأت علاقته الرفاقية براسكولنيكوف ، قائد بحارة كرونشتادت ، وبالمفوضين إ . ن . سميرنوف وأركادي روز نغولتز . وفي سفيا جاسك أيضاً ، شعر بتقدير رفيع للمواهب التنظيمية لف . ميجلوك ، الذي شجع صعوده طوال الحرب الأهلية ، والذي سصبح عدوه فيها بعد ومعاون ستالين . هؤلاء الرجال ، محنّكو الجيش الخامس ، ظلوا مرتبطين بتروتسكي طوال الحرب الأهلية ، وشكلوا تقريباً النسخة المقابلة لمجموعة تزاريتسين التي كان يرعاها ستالين .

وإذا كان تروتسكي لم يبخل بالمدائح على اولئك الذين كانوا يتميزون بمؤهلاتهم وبشجاعتهم ، فقد كان صارماً تجاه اولئك الذين عجزوا عن القيام بواجبهم . هكذا حوّل إلى المحكمة العرفية قائد فيلق ومفوضه ـ كان يدعى المفوض بانتلييف ـ اللذين انسحبا في اوج المعركة مع رجالهما من خط النار ؛ وقد اعدم القائد والمفوض رمياً بالرصاص . ويقول تروتسكي في نوع من التفسير : « ليس جنود الجيش الأحمر . . . جبناء ، أو رعاعاً . إنهم يريدون القتال من أجل حرية الطبقة العاملة ، فإذا تراجعوا أو قاتلوا بشكل بائس ، فالخطأ يقع على القادة والمفوضين ؛ وأنا أطلق هذا التحذير : إذا انسحبت مفرزة ما من القتال من دون إذن بذلك ، فسوف يجري إعدام مفوضها أولاً ، ثم القائد بعده . . . إن الجبناء ، أولئك الذين يسعون للنجاة بجلدهم ، اولئك الذين يخونون لن ينجوا من الرصاص . وأنا أتحمل مسؤولية ذلك أمام الجيش الأحمر »[٢٢] .

إن الرسائل غير المنشورة المتبادلة بين تروتسكي ولينين تظهر أي انتباه دقيق كان يوليه لتفاصيل المعركة . ففي احداها يطلب تعزيزات بإلحاح ، وفي اخرى يطلب ان يرسل اليه في منطقة الفولغا شيوعيون منضبطون « مستعدون للموت ، لا محرضون صغار لا حاجة اليهم ها هنا » ؛ ويطلب في رسالة اخرى مخزون مسدسات وجوقة موسيقية عسكرية جيدة . ولما كان عازماً على تعبئة خيال الجنود وعنفوانهم ، فقد طلب أن يأتي الشاعر الشعبي الهجائي ، ديميان بدنيي فيقوم بجولة على الجبهة ، وأن توزع الحكومة ميداليات عسكرية . ويمكن أن نأخذ فكرة عن قلة الحماس التي استقبل بها البلاشفة هذا الاقتراح ، بعد أن ألغوا كل الأوسمة ، حين نعرف ان تروتسكي جدد طلبه ثلاث مرات بنفاد صبر متنام . ونجد كذلك في تلك المراسلة مثلاً مثيراً للفضول على قساوة تروتسكي . وفي ١٧ آب / أغسطس ، أعلمه لينين أن الصليب الأحمر ، يدعمه قنصلا فرنسا وأميركا ، طلب

(٢٢) تروتسكي ، كاك فوروزالاس ريفولوتسيا ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

السماح بإرسال مواد غذائية ، إلى نيني ـ نوفغورود التي كان يحتلها البلاشفة ، وسمارا التي كانت بين أيدي البيض . ولم يعبر لينين عن أي اعتراض ، إلا أن تروتسكي رفض السماح للصليب الأحمر بعبور الخطوط . وقد اجاب لينين بقوله : « إن مجانين ومشعوذين سيبدأون الكلام على إمكانية صلح مع البيض » . وأضاف أنه « لا يرغب في أن يرى الصليب الأحمر آثار قصف (« الحريق والدمار ») « الاحياء البورجوازية » في كازان . إلا أنه اطلق قبل القصف تحذيراً علنياً لسكان كازان العاملين : « إن مدفعيتنا . . . ستفعل كل ما في وسعها لتحاشي إنزال اضرار بالمساكن والاحياء الفقيرة . لكن يمكن ان تحصل حوادث في معركة مجنونة ، لذا يهمنا أن نحذركم من الخطر الوشيك . . . أجْلوا أطفالكم عن المدينة . . . تعالوا ابحثوا عن ملجأ في الأرض السوفياتية . إننا نعرض الاستضافة الاخوية لكل السكان العمال والبؤساء »[٢٣] .

في ١٠ أيلول / سبتمبر هاجم الحمر كازان واستولوا عليها ؛ وبعد ذلك بيومين استولى توخاتشيفسكي على سيمبيرسك وأعلن عن انتصاره لتروتسكي برسالة مقتضبة للغاية : « نُفِّذ الأمر . أُخذت سيمبيرسك . » . وفي بداية تشرين الأول / أوكتوبر ، كانت كل منطقة الفولغا قد انتقلت إلى يدي السوفييتات .

كان لهذا النصر أفضل النتائج ، لا سيما لأنه توافق مع أزمة سياسية خطيرة . ففي موسكو ، قامت الاشتراكية الثورية ف . كابلان بمحاولة لاغتيال لينين . واغتال اشتراكي ثوري آخر أوريتسكي في بتروغراد . ورد البلاشفة باعلان الارهاب الأحمر وبإعطاء الأمر بإعدام الرهائن . خلال تلك الاحداث ، تم استدعاء تروتسكي الى موسكو حيث وجد لينين يتعافى من جراحه ، وطمأنه هو والهيئة التنفيذية للسوفييتات حول آفاق الحملة ، ثم عاد الى الجبهة . في تلك الفترة بالذات حاول الاشتراكيون الثوريون اليمينيون إعادة جمع عناصر الجمعية التأسيسية المشتتين وتشكيل حكومة منافسة في سمارا ، تحت حماية التشيكيين وكولتشاك . كان الاشتراكيون الثوريون يتمتعون بتأثير مرموق لدى فلاحي الفولغا ، وكان يمكن لانبعاث الجمعية التأسيسية ، وإن يكن رمزياً صرفاً ، أن يزعج البلاشفة . لكن استيلاء الجيش الأحمر على كل منطقة الفولغا أزال هذا التهديد ، وحُكم على الحركة من أجل الجمعية التأسيسية بالعجز بعد أن تم حرمانها من الدعم الفلاحي . وجد الاشتراكيون الثوريون أنفسهم تحت رحمة كولتشاك الذي سرعان ما نادى بنفسه

---

(٢٣) المرجع ذاته ، ص ٢٢٤ : نُشرت رسالة لينين بصدد الصليب الأحمر في لينينسكي سبورنيك ، ج ١٨ ، ص ١٨٦ ؛ اما جواب تروتسكي فموجود في المحفوظات .

ديكتاتوراً (« سيداً أسمى ») ؛ وشتت بقايا الجمعية ، وأعدم بالرصاص بعضاً من قادتها ، وأجبر الآخرين على اللجوء الى أرض سوفياتية . وهكذا تم سحق انصار الجمعية بين السوفييتات والحراس البيض[٢٤] .

وفي الأخير ، حفز الانتصار في منطقة الفولغا تطور الجيش الأحمر بشدة . كان الخطر قد أخرج السوفييتات من بلادتها ، أما النصر فأعطاها الثقة بقوتها . كان العمل التنظيمي الأولي الذي انجزته مفوضية الحرب بدأ يعطي ثماره ، جرى تجهيز هيئات أركان ، وغدت مراكز تجنيد تقوم بعملها ، والجيش أصبح يمتلك بداية بنية .

في نهاية أيلول / سبتمبر ، عاد تروتسكي إلى موسكو وحوّل المجلس الاعلى للحرب إلى مجلس ثوري لحرب الجمهورية ، كانت صلاحياته تغطي حقل السياسة العسكرية[٢٥] . وكانت ترتبط به مجالس الحرب الثورية الخاصة بالجيوش الاربعة عشر ، التي يتألف كل مجلس منها من قائد الجيش ومفوضين أو ثلاثة . وكان تروتسكي رئيساً لمجلس حرب الجمهورية ؛ أما ممثله لدى المجلس ، الذي كان يدير أعماله اليومية حين يكون هو في جولة تفتيش على الجبهات ، فكان إ . م . سكليانسكي . وقد امتدح تروتسكي كثيراً مؤهلات ممثله ونشاطه وحماسه ، وكان يسميه كارنو(*) الثورة الروسية . ان التآريخ التي كتبت حول الحرب الاهلية في أيام ستالين لا تشير ابداً تقريباً ، الى اسمه مع أنه لم يدخل ابداً في الصراع بين ستالين وتروتسكي ومات عام ١٩٢٥ . لكن مراسلات لينين المنشورة ، واكثر ايضاً، الذكريات غير المنشورة ، لا تسمح بالشك حول الدور الاساسي الذي لعبه سكليانسكي في قيادة الأمور العسكرية . كان واحداً ممن اتخذ مجرى حياتهم في تلك الحقبة طابعاً استثنائياً خارقاً . فكمتخرج شاب من كلية الطب في كييف ، خدم في الجيش قبل الثورة كطبيب ، ثم اصبح بعد قليل عنصراً مهماً في التنظيم العسكري السري للبلاشفة . ولم يتعرف اليه تروتسكي إلا في خريف ١٩١٧ وقد أذهلته ديناميته الخلاقة ، وروحه المنهجية كثيرة التدقيق ، فطلب اليه أن يكون ممثله[٢٦] .

وكان الاعضاء الآخرون في المجلس فاتزيتيس ، الذي تم تعيينه قائداً عاماً ، وإ . ن . سميرنوف وأ . روزنغولتز ، والمفوضون الذين عاونوا فاتزيتيس على الفولغا ،

---

(٢٤) ف . تشيرنوف ، مصائبي في روسيا .

(٢٥) يجب الا نخلط بين المجلس الثوري للحرب ومجلس دفاع العمال والفلاحين (الذي كان يرأسه لينين يساعده في ذلك تروتسكي) الذي كان ينسق السياستين المدنية والعسكرية .

(*) فيزيائي فرنسي (١٨٣٥ - ١٩١٩) (م) .

(٢٦) تروتسكي ، سوش . ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ - ٢٨١ .

وراسكولنيكوف الذي قاد الاسطول الأحمر في كازان ، وفي الاخير مورالوف ويورينييف .
إن المنتصرين في كازان هم الذين استلموا قيادة الشؤون العسكرية . بمساعدتهم بادر تروتسكي الى إعادة تنظيم الجبهة الجنوبية ومركزة قيادة العمليات فيها . كانت المراكز الرئيسية القوية الخاصة بالبيض في الجنوب الآن . وكانت أهم قوة بلشفية في الجنوب هي الجيش العاشر بقيادة فوروشيلوف . إلا أن فوروشيلوف رفض إعادة تنظيم قواته وفقاً لنموذج تروتسكي ، فالنزاع كان تحت الرماد منذ بعض الوقت . وقد امضى ستالين الجزء الأكبر من الصيف في مركز قيادة فوروشيلوف في تزاريتسين وقدم الدعم لفوروشيلوف . وبعد وقت قليل ، في ايلول / سبتمبر ، عمل ستالين كمفوض سياسي رئيسي لكل الجبهة الجنوبية وحدثت نزاعات دائمة بين الجبهة ومركز القيادة العامة في موسكو . وكان تروتسكي عازماً على وضع حد لهذه الحالة ، فعيّن في بداية تشرين الأول / اوكتوبر سيتين ، وكان جنرالاً في الجيش القديم ، قائداً للجبهة الجنوبية وطلب من فوروشيلوف الخضوع له . وعيّن كذلك مجلساً ثورياً جديداً للحرب للجبهة الجنوبية حيث حل شليابنيكوف ، وكان بلشفياً سامي القدر ، محل ستالين في منصب مفوض رئيسي . وقد شفع تروتسكي تلك التعيينات بالتهديد التالي : « كل القادة والمفوضين الذين يجرؤ ون على انتهاك قواعد الانضباط سوف يقاضون فوراً ، من دون أي اعتبار لمزاياهم السابقة ، أمام محكمة عسكرية فورية للجبهة الجنوبية[٢٧] . وفي الوقت ذاته ، اقترح تروتسكي تعيين ستالين في مجلس حرب الجمهورية ، آملاً هكذا ، إما أن يهدئه ، أو أن يوثق يديه ؛ وكان ستالين احتج باستمرار ضد تدخلات تروتسكي على الجبهة الجنوبية .

عاد ستالين الى موسكو حيث تمت مصالحة سطحية بين الخصمين . إلا أن فوروشيلوف المستقوي بحماية ستالين واصل تحديه للسلطة العليا وتجاهل أوامر القائد الجديد ؛ ولم يمر وقت طويل حتى عاد ستالين إلى تزاريتسين . لكن لما كان النزاع يتفاقم ، استدعى لينين ستالين إلى موسكو بلباقة ، ومضى تروتسكي لتفتيش الجبهة . وقد روى تروتسكي ذاته ، وآخرون ، قصة زيارة تروتسكي لتزاريتسين ، اكثر من مرة ، حيث هدد فوروشيلوف بإحالته إلى المحكمة العرفية . وفي أمر يومي علني ، اتهمه بوضع طموحه الشخصي فوق مصالح مجمل الجبهة[٢٨] . وتحت وطأة التهديد ، وعد فوروشيلوف بالانصياع ، أما تروتسكي فوقف عند هذا الحد ، واكتفى لأجل ايقاف فوروشيلوف عند

(٢٧) تروتسكي ، كاك فوروجالاس ريفولوتسيا ، ج ١ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .
(٢٨) انظر أمر اليوم الذي أصدره تروتسكي بتاريخ ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ في تزاريتسين ، في كاك فوروجالاس ريفولوتسيا ، ج ١ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

حده[٢٩] بتسليم اوكولوف ـ وهو رجل كان يثق به كلياً ـ قيادة الجيش العاشر . وقد عاد للكلام علنياً على الموضوع ، في الذكرى الأولى للثورة ، حين قدم تقريراً أمام مؤتمر السوفييتات حول الوضع العسكري ، ولم يتردد في رسم لوحة قاتمة عن ظروف الجيش العاشر ، أما مجموعة تزاريتسين فلم تغفر لتروتسكي هذا الإذلال [٣٠] .

أمضى تروتسكي ما تبقى من الخريف وبداية الشتاء على الجبهة الجنوبية . في غضون ذلك ، كان خصومه في موسكو ، ولا سيما ستالين وزينوفييف ، يحوكون الدسائس ضده ، محاولين التأثير على لينين محققين في ذلك بعض النجاح . وقد روى تروتسكي فيما بعد أنه في حين كان في الجبهة اطلعه مينجينسكي الذي أصبح فيما بعد قائد الغيبيو ، على « الدسيسة ».قال له مينجينسكي ان ستالين كان يحاول إقناع لينين بأن تروتسكي يجمع حوله العناصر المعادية للينين . وقد طرح تروتسكي السؤال صراحة على لينين ، وروى أن هذا الاخير أحس بالحيرة ولم ينفِ حصول الدسيسة في الحقيقة ، إلا أنه أكد له أنه يثق ثقة كاملة بصدقه وإخلاصه . بيد أن لينين رفض مع ذلك الانحياز في الخصومة لأحد الطرفين وعمل على تهدئته . وبعد وقت غير طويل ، اقترح استدعاء اوكولوف ، الرجل الذي تركه تروتسكي في تزاريتسين لمراقبة فوروشيلوف ، فرفض تروتسكي وقرر هذه المرة ان يمضي إلى النهاية ، إذ طلب إعفاء فوروشيلوف من قيادة تلك المنطقة لإلحاقه بأوكرانيا ، وتعيين مفوضين جدد في الجيش العاشر . وقد رضخ لينين واضطر فوروشيلوف للرحيل .

حاولت مجموعة تزاريتسين الانتقام ، فأشاعت أن تروتسكي يصادق الجنرالات القيصريين ويضطهد البلاشفة في الجيش . وقد ورد الاتهام على صفحات **البرافدا** ، التي كان يديرها بوخارين . ففي ٢٥ كانون الأول / ديسمبر ١٩١٨ نشرت **البرافدا** هجوماً عنيفاً على تروتسكي شنّه عضو في فريق فوروشيلوف[٣١] . وكان ذلك يتطابق مع محاولة جديدة للشيوعيين اليساريين للوصول الى إعادة نظر في السياسة العسكرية ؛ فلما كانوا فشلوا في منع تجنيد الضباط القيصريين ، قاموا بتعديل خطتهم : طلبوا أن يمسك المفوضون بكل مواقع القيادة وأن يعمل الضباط تحت أوامرهم بصفة مستشارين وحسب .

---

(٢٩) رسالة تروتسكي للينين في ١٤ كانون الأول / ديسمبر ١٩١٨ في محفوظات تروتسكي .

(٣٠) في محضر الذكرى الاولى الذي يضم بوجه خاص الاجوبة عن الانتقادات الموجهة للمركزة ، اعطى تروتسكي طوعاً تقديراً مبالغاً به لقوة الجيش الأحمر ، فأكد أن التايمز اللندنية التي قدرت الجيش الأحمر بنصف مليون رجل أوردت أقل من الحقيقة . وفي الواقع انه لم يكن يضم اكثر من ٣٥٠ ألف رجل . كاك فوروجالاس ريفولوتسيا ، ج ١ ، ص ٣٣٢ ـ ٣٤١ . بيات لت فلاستي سوفييتوف ، ص ١٥٦ .

(٣١) كان المقال بعنوان : « آن الأوان » ، وبتوقيع كامينسكي .

واتخذت الحملة ضد تروتسكي منحى اكثر شراسة أيضاً ، إذ أشيع أنه كان يسلم الشيوعيين والمفوضين لفرق الإعدام . ونقل سميلغا ولاشيفيتش ، وكانا عضوين في اللجنة المركزية يشغلان مناصب سياسية في الجيش ، الاتهام الى المكتب السياسي واللجنة المركزية (ونحن نذكر ان لاشيفيتش تنازع مع تروتسكي بصدد الضباط الذين ينبغي « عصرهم كثمرة ليمون حامض ») . وقد جرى أمام اللجنة المركزية ذكر حالات المفوض بانتيلييف الذي حُوِّل الى المحكمة العرفية وأعدم بالرصاص في سفياجسك ، ومفوضين آخرين ، هما زالوتسكي وباكاييف ، قيل انهما كانا مرا بفريق الاعدام لولا القليل .

رد تروتسكي على تلك الاتهامات برسالة سرية الى اللجنة المركزية[٣٢] ، لم يعتذر فيها عن إعدام بانتلييف الذي قال إنه أحيل إلى المحكمة العرفية بسبب الفرار الصريح من ساحة القتال ؛ لكنه أضاف بأنه ، حسب علمه ، لم تَعْرض اية حال اخرى من هذا النوع . وقبل وقت قريب ، حصل سوء تفاهم حين أمر المفوضين بمسك سجلات عائلات الضباط كي يعرف هؤلاء ان عائلاتهم ستتعرض للانتقام اذا هم خانوا . وتبين مرة اخرى ، حين انضم عدة ضباط الى الحراس البيض ، ان المفوضين لم يهتموا بمسك سجل عائلاتهم ، فكتب تروتسكي ان شيوعيين يقترفون هذا الاهمال يستحقون الاعدام . وقد اعتقد سميلغا ولاشيفيتش ، كما يظهر ، انّ تهديد تروتسكي يستهدفهما ؛ فرد تروتسكي بأن هذا غير معقول على الاطلاق لأن سميلغا ولاشيفيتش يعرفان تماماً ان تروتسكي يعتبرهما من أفضل مفوضي الجيش ، وبأن تهديده « ملاحظة عامة » لا تستهدف احداً بوجه خاص .

ويبدو ان توضيحات تروتسكي كانت سليمة ، فخصومه لم يقدموا اية وقائع اخرى لدعم اتهامهم غير حالة بانتلييف . أما الثابت فهو أن أوامر تروتسكي كانت تنطوي على تهديدات مخيفة للغاية ، وأنها لطخت سمعته بالرغم من كونها هدفت فقط إلى فرض الانضباط . والاتهامات التي تسببت بها تكررت على لسان انصار ستالين بعد الحرب الاهلية بزمن طويل .

طلب تروتسكي الى اللجنة المركزية تحديد موقفها من سياسته العسكرية وتوبيخ البرافدا لنشرها مقالاً اتهامياً من دون أي تحقيق مسبق . وقد رد هو بالذات على صفحات البرافدا مهاجماً « المشعوذين المدعين والاميين في الحزب » الذين ينشرون الحذر والعداء

---

(٣٢) لم تؤرخ تلك الرسالة ، لكن من المؤكد ، إذا عدنا لمضمونها ، انها كتبت حوالى نهاية كانون الاول / ديسمبر ١٩١٨ . وهي لم تنشر . محفوظات تروتسكي .

حيال الضباط . « إن الرأي العام يعرف كل حالات الخيانة تقريباً . . . لكن حتى في الدوائر الداخلية قليلة هي الأشياء المعروفة عن ضباط محترفين قدموا حياتهم بشرف وقلب نبيل لأجل قضية روسيا ، قضية العمال والفلاحين »(٣٣) . كان ينبغي ، بالتأكيد ، إعلام الرأي العام بكل حالات الخيانة ، لكن كان يجب كذلك أن يعرف ان فيالق بكاملها أبيدت في الغالب لأنه كان يقودها هواة عاجزون عن فهم أمر وقراءة خارطة . وقد عارض تروتسكي بحزم تلك الاقتراحات الجديدة التي ترمي لتحويل الضباط الى مجرد مستشارين للمفوضين ، وقال إن الفكرة لا تساوي شيئاً على المستوى العسكري ، فهي « معدة لارضاء شهوات الانتقام » ؛ لم يكن هدف الارهاب الأحمر ابادة الانتلليجنسيا أو إذلالها ، بل تخويفها ، على الأكثر ، ودفعها الى خدمة دولة الشغيلة .

وقد تكلم مجدداً حول هذا الموضوع في « رسالةلصديق» ظهرت في فينوي ديلو (الشؤون العسكرية) ، في شباط / فبراير ١٩١٩(٣٤) . والرسالة تُظهر حدة الجدال ، وفيها يبدي احتقاره لـ « البيروقراطي السوفياتي الجديد » الذي « ترتعد فرائصه خوفاً على وظيفته » وينظر إلى كل شخص أرفع منه ، بالثقافة أو بالكفاءات ، نظرة حقد أو غيرة . ولما كان هذا البيروقراطي يرفض أن يتعلم ، فهو لا يحاول أبداً أن يرى في ذاته أسباب إخفاقاته ؛ وهو لا ينفك يركض وراء كبش فداء ، مستعداً أبداً للصياح : خيانة ، خيانة . إن هذا البيروقراطي ، المحافظ والكسول والحانق على كل ما يذكّره بضرورة أن يتعلم ، قد أصبح ثقلاً مربكاً في الدولة الجديدة . « إنه هو التهديد الحقيقي للثورة الشيوعية ، وأمثالـه هم المتواطئون الحقيقيون مع الثورة المضادة ، حتى لو لم يشاركوا في اية مؤامرة » . والثورة لن تكون اكثر من هرجة مشؤومة ، اذا كانت نتيجتها الوحيدة هي السماح لعدة آلاف من العمال بتقاسم مراكز الحكم والصيرورة أسياداً . « لن تبرر ثورتنا نفسها كلياً إلا حين يشعر كل شغيل ، رجلاً كان أو امرأة ، ان حياته اصبحت اسهل ، واكثر حرية ، ونظافة ، وكرامة . ونحن لم نصل بعد الى هذا الهدف ، ولا يزال يفصلنا طريق وعر عن هدفنا الوحيد والجوهري »(٣٥) .

تلك كانت ، باختصار ، اللازمة اللاحقة لصراع تروتسكي ضد ستالين . وقد ظهرت للمرة الاولى بعد مرور عام على ثورة اوكتوبر .

* * *

(٣٣) برفادا ، ٣١ كانون الاول / ديسمبر ١٩١٨ : كاك فوروجالاس ريفولوتسيا ، ج ١ ، ص ١٥٤ - ١٦١ .
(٣٤) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ج ١ ، ص ١٧٠ - ١٧٢ .
(٣٥) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ج ١ ، ص ١٧٠ - ١٧٢ .

في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ ، انهارت الامبراطوريتان النمساوية ـ المجرية والالمانية بفعل الهزيمة والثورة . وقد ألغيت معاهدة بريست ، وانسحبت جيوش الدول المركزية من روسيا واوكرانيا ، تاركة خلفها فراغاً عسكرياً كان تروتسكي نافد الصبر ليرى الجيش الأحمر يملأه . إلا أن الجزء الأكبر من الجيش كان مضطراً للبقاء في الأورال ، جنوبي روسيا ، بمواجهة كولتشاك ، وعلى نهر الدون ، بمواجهة دينيكين وكراسنوف . وكان الوضع على الجبهتين الغربية والجنوبية ـ الغربية مشابهاً للوضع على الجبهات الاخرى بعد الثورة بوقت قصير : لم يكن في وسع البلاشفة الاتكال هناك إلا على الحرس الأحمر ومجموعات الانصار . لكن تلك العناصر كانت تفتقر الى الذخائر بشكل يائس ، وكانت الأسلحة تصدأ لعدم توفر الشحم ، وتموت الجياد جوعاً . وكانت تتم عمليات النقل العسكرية عبر الخط الحديدي بسرعة كيلومتر في الساعة . أما صرامة السياسة البلشفية في الريف ، لا سيما مصادرة المواسم ، فتركت تأثيراً مؤسفاً على مزاج القوات[٣٦] .

ضمن تلك الشروط ، لم يرد لينين التعجيل في احتلال اوكرانيا ، فقد كان يعتبر من الأهم تنظيف الدون وشمالي القوقاز من القوى المعادية للبلشفية . أما تروتسكي فكان يعتقد ، على العكس ، انه ينبغي إعطاء الأولوية لاحتلال اوكرانيا ، لا سيما انه كان يتوقع إنزال حملة عسكرية للحلفاء على شواطىء البحر الاسود ، وأراد إرساء إشراف السوفييتات على اوكرانيا لابقاء الحملة العسكرية أبعد ما يمكن عن موسكو . في غضون ذلك ، كان حراس كولتشاك ضربوا ضربتهم مرة اخرى واستولوا على اوفا وبيرم . ولما كان لينين خشي ان يتلاقى كولتشاك ودنيكين وكراسنوف على الفولغا ، فقد طلب الى تروتسكي ألا « يتحمس كثيراً » لخططه الاوكرانية ويهمل الجبهات الاخرى . إلا أنه سرعان ما أوقف تقدم كولتشاك ، ولم يَرِد الخطر الذي كان يشغل بال لينين الى ذلك الحد . بالمقابل ، نزل الفرنسيون في اوذيسّا ونيكولاييف ، مثلما توجس تروتسكي . ومع ذلك بدا الأنصار البلاشفة في اوكرانيا اقوياء بما يكفي لإنزال الهزيمة ببتليورا والاستيلاء على خاركوف ، ونقل الثورة الى الجزء الأكبر من البلاد . لكن في غضون ذلك ، كان دنيكين جمع قواته في سهوب شمالي القوقاز .

أدى حلول الشتاء الى ركود مؤقت في المعارك ، حتى انه امكن الاعتقاد في لحظة من اللحظات ان هذا الركود قد ينتهي الى هدنة رسمية . وقد تحول التدخل الفرنسي إلى

---

(٣٦) مصدر هذا الوصف هو الرسائل المتبادلة بين لينين وتروتسكي ، في نوفمبر وديسمبر ويناير . خلال كل تلك الفترة ، اعلم تروتسكي موسكو بالظروف المخيفة لوضع اوكرانيا ، وطلب تلطيف سياسة الحزب حيال الفلاحين . **محفوظات تروتسكي** .

كارثة ، إذ أدى التحريض البلشفي الى تمرد الحامية الفرنسية في اوذيسّا . ولم يمض وقت قصير حتى كانت الحملة الفرنسية بكاملها تغادر روسيا مثيرة خيبة الحراس البيض المريرة . إلا أن كليمنصو وفوش لم يتخليا عن سياسة التدخل ؛ ورغم معارضتهما ، اقترح الرئيس ويلسون ان توقع الاحزاب والحكومات الروسية المتحاربة هدنة ، وتعقد مؤتمراً تداولياً في جزيرة برينكيبو . وقد قبلت الحكومة السوفياتية الاقتراح ، وفي ٢٤ كانون الثاني / يناير ١٩١٩ أبرق لينين الى تروتسكي قائلاً : « أنا آسف ، لكن عليك أنت أن تمضي لرؤية ويلسون »[٣٧] . وقد طلب الى تروتسكي أن يسارع للاستيلاء على بضع مدن أخرى لتقوية موقفه في مؤتمر برينكيبو ، وهو ما يشير الى أنه كان يجول بباله جدياً توقيع هدنة . وإذا كان تروتسكي وافق على تسريع العمليات العسكرية ، فقد رفض ترؤس وفد الهدنة ، ربما لأن مرارة ذكريات بريست لم تكن امحت بعد من نفسه. ، واقترح أن يحل محله تشيتشرين وراكوفسكي . إلا أن الموضوع وقف عند هذا الحد ، إذ رفض قادة الحراس البيض ، بتشجيع من جانب الفرنسيين ، أن يلتقوا البلاشفة ، وفشلت محاولة الوساطة .

كان الفصل الملائم لحملة جديدة يقترب . ومنذ عام وتروتسكي يشغل مفوضية الحرب ، إلا أن سياسته العسكرية لم تلق دائماً مباركة الحزب . وكان يضع تلك السياسة موضع التنفيذ بمبادرة شخصية منه . أما خصومه فكانوا يستعدون بشكل محموم لوضع سياسته موضع الاتهام في المؤتمر اللاحق للحزب الذي كان سيتم في آذار / مارس . وكان لينين لا يقلّ حزماً عن تروتسكي في مناصرة مركزة وانضباط صارمين ، إلا أنه لم يكن اتخذ موقفاً بعدحول موضوع استخدام الضباط . كانت الخيانات تتكاثر بحيث استنحت المعارضة الفرصة للاستفادة من هذا الواقع . وقبل المؤتمر بقليل ، اقترح لينين على تروتسكي أن يصرف كل الضباط ويعين لاشيفيتش ، الذي كان رقيباً في الجيش القيصري قائداً عاماً . لكنه فوجيء جداً حين أعلمه تروتسكي أن ٣٠ ألف ضابط غدوا يخدمون في الجيش الأحمر . حينذاك فهم لينين مدى حجم المشكلة واعترف بأن حالات الخيانة قليلة إذا أخذنا بالاعتبار عدد الضباط المستخدمين ، كما أنه سلّم ايضاً بأن من المستحيل صرف الضباط ، وعبر جهاراً عن إعجابه للفرادة التي برهن عنها تروتسكي في « بناء الشيوعية » مستعيداً آجرّ البناء المهدوم للنظام القديم »[٣٨] .

---

(٣٧) محفوظات تروتسكي .

(٣٨) لينين ، سوبراني سوشينيني (الطبعة الأولى ١٩٢٠ - ١٩٢٦) ، ج ١٦ ، ص ٧٣ . إن واقع جهل لينين ، بعد عام من بداية الحرب الكلامية ، نسبة الضباط القدامى في الجيش الأحمر يظهر أنه استغرق في تسيير الأمور الاقتصادية والسياسية ولم يتابع ، إلا من بعيد وبصورة عامة جداً ، قيادة الأمور العسكرية . وفي الوقت الذي كان لا يزال فيه تحت تأثير ما أعلمه به

انتظر تروتسكي المناقشة بثقة ، بعد أن ضمن دعم لينين . وقد جمعت المعارضة انصارها في الجيش وارسلت منهم الى المؤتمر اكبر عدد يمكن انتخابه . لكن قبل افتتاح المؤتمر شن كولتشاك هجوماً عاماً جديداً ، ومرة أخرى اهتز وضع الجبهة الشرقية اهتزازاً شديداً ، وبدا غير معقول أن تضيع قيادة مفوضية الحرب وقتها في الدفاع عن سياستها في نقاشات طويلة ، وأن تغادر كوكبة من المفوضين الجبهة لحضور المؤتمر ، فقررت اللجنة المركزية إذاً أن يمضي تروتسكي فوراً الى الجبهة الشرقية ، ويعود المندوبون العسكريون الى مراكزهم . واحتجت المعارضة ، قائلة ان تروتسكي استفاد من حالة الطوارىء ، ليفرض عليها الصمت وللتملص من تفحص دقيق لسياسته .عندئذٍ رجعت اللجنة المركزية عن قرارها وسمحت للمندوبين العسكريين المعارضين بالبقاء في موسكو . إلا أن تروتسكي وأنصاره في الجيش التحقوا فوراً بالجبهة ، وكان ترك « موضوعات » يعرض فيها الوجوه الرئيسية لسياسته ، قدمها سوكولنيكوف باسمه أمام المؤتمر .

تم النقاش الكبير حول الأمور العسكرية في جلسات سرية للفرع العسكري في المؤتمر . ومحاضر تلك الجلسات بقيت سرية ، إلا أن الخطوط العريضة للمناقشة ونتائجها يمكن استخلاصها بوضوح من محفوظات المكتب السياسي والرسائل المتبادلة بين تروتسكي وزينوفييف وستالين[٣٩] . وقد أخضع فوروشيلوف والشيوعيون اليساريون تروتسكي لنقد صارم ؛ ومرة أخرى جرى اتهامه بأنه أعدم مفوضين . فتدخل لينين ودافع عن تروتسكي بحماس وشدة ، ثم مضى ليشارك في اعمال أخرى . أما النقاش فقاده عند ذاك زينوفييف وستالين ، لكن هزيمة المعارضة كانت متوقعة إثر مداخلة لينين . حاول ستالين وزينوفييف ، كلاهما ، أن يعطيا الانطباع بأن وجهتي نظرهما مماثلتان لوجهة نظر لينين ، لكن دعمهما لسياسة تروتسكي افتقر الى الحرارة . وقد قدما للمعارضة بعض التنازلات الصغيرة ، أي ما يكفي لإلقاء ظلال على انتصار تروتسكي . ولم تحصل المعارضة إلا على ثلث الأصوات ؛ وربما كانت التنازلات هي التي قللت من أهميتها ، كما أوضح زينوفييف فيما بعد للمكتب السياسي . وأيد المؤتمر ، في تصويت علني ، نشاط تروتسكي تأييداً تاماً

تروتسكي ، جرى نقاش بينه وبين غوركي الذي كان يسعى لكسبه للبلشفية ، فقال له : « دلني على رجل قادر على ان يبني في عام واحد جيشاً نموذجياً تقريباً ، وأن يحظى باحترام الخبراء العسكريين . إننا نملك هذا الرجل ، لدينا كل شيء ، وسنجترح العجائب » . م . غوركي ، لينين والفلاح الروسي ، ص ٩٥ ، ٩٦ . وقد نقل غوركي هذه المحادثة بعد موت لينين ، في حين كانت الحملة ضد تروتسكي تبلغ أوجها . وفي طبعة جديدةلمؤلَّف غوركي ، ظهرت بعد طرد تروتسكي ، خفف من المدائح لصالح تروتسكي ، بصورة لا تفعل غير اثبات صحة الرواية الاولى . انظر غوركي ، ايام مع لينين ، ص ٥٦ ـ ٥٧ . وقد اختفى امتداح لينين لتروتسكي من الطبعات اللاحقة لمؤلفات لينين .

(٣٩) محفوظات تروتسكي . أنظر أيضاً فوسموي سييزد . ر . ك . ب ، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

وتبنى اطروحاته . إلا أنه قرن تأييده ببعض التحفظات ، في توجيه جرى نقله سرياً عبر الفرع العسكري في الحزب يلزم تروتسكي بإيلاء انتباه أكبر لرأي الشيوعيين في الجيش ، وبعقد اجتماعات شهرية مع المفوضين المهمين ، الخ . هكذا في حين بلغ الجمهور الكبير ان الحزب تضامن كلياً مع سياسة تروتسكي ، كان يمكن لخصومه في قيادة الحزب أن يشعروا بالرضى ، لأنه لم يتم تبييض صفحته ، بدون اي التباس ، من كل الاتهامات الموجهة ضده . وبقي الى حد ما بالنسبة للكثيرين ذلك الرجل الذي كان عدواً للشيوعيين بالزي العسكري[٤٠] .

بلغ تروتسكي في البدء أن المؤتمر أيد سياسته كلياً ، وذلك عبر برقية من ستالين وصلته في ٢٢ أو ٢٣ مارس / آذار ، وهو في الجبهة . وبعد قليل ، تلقى من اللجنة المركزية رسالة كتبها زينوفييف تعلمه بالتنازلات المقدمة للمعارضة . وتلزمه بالنظر إليها كـ « تحذير » . وقد رفض تروتسكي قبول « التحذير » ، وأجاب بأن من المستحيل استدعاء المفوضين من الجبهة في كل شهر لعقد اجتماعات معهم . وقال إن « التحذير » أملاه ، في كل حال ، « انحراف عامي فظ وفاضح » هو مصدر كل تهجمات فوروشيلوف . كان يأخذ على نفسه معاملته لهذا الاخير بالكثير من الرعاية ، لأن « كل استياء في الجيش هو استياء مسلح » . حتى في المنظمة المدنية للبلشفية ، كان هامش الخلاف المسموح به محدوداً جداً مذ ينتقل الحزب من النقاش الى العمل . هذا الهامش كان يجب ان يكون اكثر ضيقاً في الجيش ، حيث يجب فرض احترام كلي للانضباط . وقد عرض بحرارة أشد بعض تلك النزاعات مع القادة والمفوضين الذين كان عليه أن يوقفهم ويعاقبهم كمسيئين للانضباط ، لكن الذين كان يأمل أن يفهموا أنه تصرف لمصلحة الجيش ، فلا يضمروا له الضغينة في المستقبل . وفي الأخير ، طلب أن يسلط تحقيق رسمي كل الضوء على اعدام المفوضين[٤١] . وكان يضمر أن لينين وزينوفييف لم يكونا على علم تام بالظروف الرهيبة للجبهة . كان موقف المعارضة ناتجاً عن التعب والارهاق العصبي ، وقد عبر تروتسكي عن خشيته من أن تقع قيادة الحزب ، هي الأخرى ، في الإعياء الشديد .

وقد جرى إغلاق الملف مؤقتاً ؛ فالشيوعيون اليساريون ، الذين انهزموا في المؤتمر ، كانوا عاجزين عن تجديد حملاتهم . تخمرت ضغينتهم وهاجت أيضاً ، إلا أن الحاجة الى

---

(٤٠) في محاجّة لاحقة ، اصر تروتسكي على التصويت العلني للمؤتمر في حين تكلم انصار ستالين على التوبيخ الذي وجهه اليه المؤتمر سراً ، والروايتان صحيحتان لكن لا تقدم كل منهما إلا جزءاً من الحقيقة .

(٤١) جرى خلق لجنة تحقيق ، لكنها لم تقدم أي برهان يدعم الاتهام ، إذا استثنينا الحالة المشهورة الخاصة بپانتليف . ويبدو أن حكم اللجنة قد تم إعطاؤه الطابع العلني ، لكني فشلت في العثور عليه .

الانضباط والمركزة وقيادة عسكرية متخصصة ، في الازمات الاخرى للحرب الاهلية ، جرى قبولها كأمر بديهي . بيد أن المعارضة في الهرم الحزبي ، بقيادة ستالين وزينوفييف ، بقيت قوية على الدوام ، ولم تفعل غير تبديل الميدان فانتقلت الى مشكلات الاستراتيجية والخطط العملياتية .

* * *

كانت استراتيجية الحرب الاهلية محكومة بواقع أنه كان على الجيش الأحمر أن يقاتل على كل الجبهات التي يمتد طولها الاجمالي اكثر من ثمانية آلاف كيلومتر . حتى جيش جرار ، مجهز جيداً ومدرب بشكل ممتاز ما كان بإمكانه أن يمسك في آن معاً كل تلك الجبهات . كانت العمليات تتمثل بتوالي اندفاعات عنيفة محلية يقوم بها الحراس البيض نحو داخل الأراضي البلشفية وهجمات مضادة اكثر عنفاً يقوم بها الحمر . وبعد هزيمة الفرقة التشيكوسلوفاكية ، عرف عام ١٩١٩ ثلاث حملات رئيسية : هجوم كولتشاك انطلاقاً من القواعد السيبيرية في اتجاه الفولغا وموسكو ، اثناء الربيع ؛ تقدم دنيكين في الجنوب ، باتجاه موسكو ايضاً ، خلال الصيف ؛ واخيراً هجوم يودينيتش للاستيلاء على بتروغراد ، في الخريف. ولو توجهت كل تلك الهجمات في الوقت ذاته إلى مراكز سلطة السوفييتات ، ربما كانت تغلبت الثورة المضادة ؛ إلا أن الحراس البيض كانوا ينشطون على « الخطوط الخارجية » فيما تفصل بعضهم عن البعض الآخر آلاف الكيلومترات . كانت الجيوش البيضاء تتطور بالاستقلال بعضها عن البعض الآخر ، وبوتيرة مختلفة . وكان قادتها مهتمين خصوصاً بالحصول على أمجاد شخصية . وعلى العكس ، كان الجيش الأحمر يتمتع بكونه ينشط على « الخطوط الداخلية ».كان يمكنه أن ينقل قواته من جبهة لأخرى لضمان التفوق في نقطة معينة ، وكانت عملياته ، الخاضعة لخطة اجمالية ، وامكانياته تحت رقابة مركز موحد . لكنه كان من المشؤوم أن ينجم عن تحديد الأولويات الاستراتيجية خلافات ومجادلات ، لا سيما ان كل قرار ، أو ما يقارب ذلك ، كان يستتبع خياراً سياسياً ، واستراتيجياً ايضاً .

في آذار / مارس ونيسان / ابريل ، تقدمت قوات كولتشاك على جبهة واسعة باتجاه الفولغا ، وجعلت موسكو تنوء تحت ثقل التهديد ذاته الذي لم يتم التغلب عليه في الصيف السابق إلا بفارق قليل . كان الجيش الأحمر الشرقي منهك القوى ، فلقد تم إرسال افضل فرقة الى الجنوب لمواجهة دنيكين . وأمضى تروتسكي شهرين على الجبهة الشرقية لتدعيم الجيش المتراجع وإعداده لهجوم مضاد . وفي هذه المرة ، كان في وسعه أن ينظر الى المستقبل

بثقة اكبر مما اثناء الحملة ضد التشيكيين ، فقد اصبح هناك اكثر من نصف مليون رجل تحت السلاح ، والنقابات ارسلت للجيش ٥٠٪ من اعضائها ، وهو ما أدى إلى رفع تعداد أفراد الجيش قبل نهاية الحملة إلى مليون ونصف مليون جندي[٤٢] . وفي نهاية شهر نيسان / أبريل ، قام قائد الجبهة الشرقية ، س . كامينيف ، وكان كولونيلاً في هيئة الاركان العامة للقيصر سابقاً ، قام بعملية التفاف جريئة على خاصرة كولتشاك الجنوبية وسدد ضربة لخطوطه الممطوطة . وسرعان ما تراجعت القوات البيضاء نحو الأورال بارتباك وفوضى .

عندئذٍ بالذات ، انفجرت خصومة بين فاتزيتيس ، القائد العام ، وكامينيف قائد الجبهة . فهذا الأخير كان يريد استغلال نصره ومطاردة كولتشاك في سيبيريا . كان يقول بأنه واثق من قدرته على الاجهاز على جيش كولتشاك ، حتى لو تم حرمانه من جزء من قواته لإرسال تعزيزات جديدة الى الجبهة الجنوبية . إلا أن فاتزيتيس عارض مشروع كامينيف ، إذ كان يعتقد أن لدى كولتشاك قوات احتياطية مهمة في سيبيريا ويعتبر أن المجازفة كبيرة في حال مطاردته . على هذا الأساس ، أعطى الأمر لكامينيف بالتوقف في الأورال ، وحاز في ذلك على دعم تروتسكي . فهذا أيضاً كان يخشى أن تقع جيوش الشرق في فخ أعده كولتشاك[٤٣] ، وكان في تلك الفترة اكثر استعجالاً لتنظيف روسيا الاوروبية من الحراس البيض ، مما يمد سلطة السوفييتات إلى سيبيريا . كما أن مهمات جديدة ظهرت أيضاً : فالمجر وبافيير أعلنتا عن نفسيهما جمهوريتين سوفياتيتين وكان لينين يحث الجيش الأحمر على إحداث تلاقٍ مع السوفييتات المجرية ، مع أن القوات البولونية في غاليسيا الشرقية أغلقت طريق الوصول الى المجر[٤٤] . لتلك الأسباب جميعاً ، سعى تروتسكي للحد من الالتزامات على الجبهة الشرقية . ولما كان كامينيف يرفض التخلي عن فكرة المطاردة ، عزله تروتسكي من قيادته ، لكن مفوضي الجبهة الشرقية لاشيفيتش وسميلغا اعلنا عن تضامنهما مع القائد المعزول وطلبا إعادته إلى منصبه وترك حرية العمل له . وقد حصلا على دعم ستالين ، ثم لينين ، وعلى الغاء قرار تروتسكي وفاتزيتيس . ومضى كامينيف لمطاردة كولتشاك من الجانب الآخر من الأورال وسرعان ما سحق جيشه الذي تبيّن أنه لم يكن يملك أي احتياطي استراتيجي في سيبيريا . وهكذا ربح خصوم تروتسكي ميزة مهمة .

في غضون ذلك ، كان تروتسكي قد ذهب الى الجبهة الجنوبية حيث امضى الجزء الأكبر من الصيف . وفي اللحظة ذاتها التي بدأ فيها تقهقر كولتشاك ، دخل جيش دنيكين

---

(٤٢) بيات لت فلاستي سوفييتوف ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٤٣) تروتسكي ، سوش . ، ج ١٧ ، ك ٢ ، ص ٥٨٧ .

(٤٤) انظر الرسائل المتبادلة بين فاتزيتيس ولينين في ٢١ و ٢٢ نيسان / أبريل ١٩١٩ . محفوظات تروتسكي .

الى اوكرانيا حيث لم يصادف غير مقاومة ضئيلة ؛ فأوكرانيا التي كانت سلطة السوفييتات فيها لا تزال حديثة جداً ، وبالتالي سطحية ، لم تكن تمتلك جيشاً نظامياً . كانت عصابات انصار وحرّاس حمر تجوب البلاد ، فتنهب وتنشر الفوضى . وكانت مفارز ماخنو الفوضوية تسيطر على جزء من البلاد ؛ أما الشيوعيون اليساريون الذين هزموا في روسيا فوجدوا ملجأ لهم على الجبهة الاوكرانية التي كانت تقدم لهم حقلاً مفضلاً ، لأنها كانت لا تزال في الطور الأولي من التخمر الثوري . وكان تروتسكي وضع في قيادة الشؤون العسكرية في اوكرانيا انطونوف ـ اوفسينكو وبودفويسكي وبوبنوف ؛ لكن بوبنوف كان واحداً من الشيوعيين اليساريين ، وكان انطونوف ـ أوفسينكو ، هو الآخر ، من انصار ترك الحرية للحراس الحمر والانصار . واقترح تروتسكي ، بادىء ذي بدء ، اتخاذ تدبير حازم ، فطلب الى موسكو استبدال المفوضين الثلاثة في اوكرانيا بأناس مصممين على احترام الانضباط بدون أي تحفظ . واشتكى حتى من « نعومة » صديقه راكوفسكي الذي كان يقود حكومة اوكرانيا السوفياتية . وطلب تعيين كامينيف أو فوروشيلوف قائداً للجبهة الاوكرانية ، مع تعليمات جازمة بوضع حد لنشاط مجموعات الغوار[٤٥] .

لم يرد أي جواب من موسكو . وكلما أطال تروتسكي إقامته في اوكرانيا كلما كان يحس بأن الفوضى السائدة هناك كانت تتخطاه . وقد توصل الى الاعتقاد بأنه لن يكون ممكناً إحلال النظام في الشؤون العسكرية إلا حين تغدو الشروط السياسية والاقتصادية طبيعية اكثر . وقد أوضح لموسكو أنه غير قادر على مركزةالقوات وضبطها طالما يعجز عن تأمين الغذاء واللباس والسلاح لها . « لا التحريض ولا العقوبات ستصنع من قوات حافية وعارية ، وجائعة وممتلئة قملاً جيشاً محارباً »[٤٦] . وعبثاً طلب التزويد بالمؤن . من جهة أخرى ، أبدى الفلاحون الاوكرانيون عداء عميقاً للسوفييتات ، وكان قادة البلاد البلاشفة نصف راضخين للهزيمة ؛ وما كان للتبديلات في القيادة التي اقترحها تروتسكي بالذات أن تشكل علاجاً كافياً ضمن شروط من هذا النوع . في ذلك الحين ، أبلغه لينين بنفاد صبر متزايد أن يقوم بما يلزم لوضع اقتراحاته بالعزل والتفويض موضع التنفيذ .

في بداية تموز / يوليو ، عاد تروتسكي الى موسكو ، وكانت تلك المرحلة بالنسبة اليه ، وعلى المستوى الشخصي ، أسوأ مرحلة طوال الحرب الأهلية . وقد اعترف بأنه أساء

---

(٤٥) كان تروتسكي يعتقد ان فوروشيلوف اصبح في غضون ذلك نصيراً مقتنعاً بسياسته (برقية ١٧ أيار / مايو المرسلة من خاركوف الى اللجنة المركزية محفوظات تروتسكي) . كان لينين هو الذي يتهم فوروشيلوف الآن بـ « الاختلاس » من مخزونات الجيش (برقية من لينين لتروتسكي ، في ٢ حزيران / يونيو) .

(٤٦) رسالة في اول تموز / يوليو ١٩١٩ .

تقدير الوضع على الجبهة الشرقية ، حين عارض مطاردة كولتشاك ، وكان عليه الآن أن يرد على الانتقادات الموجهة لعمله على الجبهة الاوكرانية . زد على ذلك ان القائد الذي رقّاه ودعمه اصبح هدفاً لحملات عنيفة . فستالين كان يطالب بعزل فاتزيتيس ، لا بل يتهمه بالخيانة ، واقترح تعيين كامينيف ، هازم كولتشاك ، الذي لم يمر زمن على صرف تروتسكي له ، قائداً عاماً . وعلينا أن نشير ، عابرين ، إلى أن ستالين قاد قبل قليل عملية الدفاع عن بتروغراد وانتصر على يودينيتش ، وأنه كان لا يزال مكللاً بغار انتصاره . وفي ٣ تموز / يوليو ، انضمت اللجنة المركزية الى رأيه ، فجرى صرف فاتزيتيس مكرّماً ، بينما عُيِّن كامينيف قائداً عاماً . وقد عاند تروتسكي وأبدى استياءه . لكن « نجاح كامينيف على الجبهة الشرقية » ـ كما كتب فيما بعد ـ « كسب لينين الى جانبه وحطم مقاومتي »(٤٧) . وتلا هذا الاخفاق المر إخفاق آخر ، إذ قررت اللجنة المركزية إعادة تنظيم المجلس الثوري الحربي للجمهورية . ولقد بقي تروتسكي رئيساً له ، إلاّ أن أصدقاءه ، سميرنوف وروزنغولتز وراسكولنيكوف أخلوا المكان لسميلغا وغوزيف ، المفوضين اللذين دافعا عن القائد العام الجديد ضد تروتسكي ، واللذين دعم ستالين ترشيحيهما .

كانت هاتان الضربتان مؤلمتين جداً بالنسبة لتروتسكي بحيث استقال فوراً من المكتب السياسي ومن مفوضية الحرب والمجلس الحربي . لكن لم يكن في وسع المكتب السياسي ان يسمح بانفجار النزاع في وضح النهار . ومهما تكن المآخذ التي أمكن تسجيلها على تروتسكي في مجالس الكرملين الداخلية ، فقد بقي بالنسبة للبلاد قائد ثورة اوكتوبر ومؤسس الجيش الأحمر وصانع انتصاراته . فاستقالته ، والوضع على ما كان عليه من السوء ، كانت جعلت الذعر يدب في الجيش والحزب . في كل حال ، كان لينين صادقاً جداً في رغبته بألا تستغني حكومته عن خدمات تروتسكي ، وبناء على اقتراحه رفض المكتب السياسي استقالة تروتسكي ، وتبنى بالاجماع قراراً رسمياً يؤكد لتروتسكي احترامه العميق وثقته الكاملة ، طالباً إليه متابعة « مهماته بالغة الصعوبة ، والخطرة ، والمهمة » على الجبهة الجنوبية . في تلك المناسبة بالذات ، بادر لينين ، الذي هزته الحادثة بشكل ملحوظ ، إلى إبداء ثقته المطلقة بتروتسكي ، باسطاً له تأييداً على بياض لكل أمر يمكن أن يصدر عنه(٤٨) . وسحب تروتسكي ، بناء على ذلك استقالته .

---

(٤٧) تروتسكي ، ستالين ، ص ٣١٣ .

(٤٨) كان التوقيع على بياض ، الذي يحمل الختم الرسمي للينين ، مكتوباً بالشكل التالي : « لما كنت اعرف الطابع الدقيق لأوامر الرفيق تروتسكي ، اعرب عن اقتناعي ، عن اقتناعي المطلق بصحة ما يصدر عن الرفيق تروتسكي من أوامر ، وملاءمته ، وضرورته لنجاح القضية ، لدرجة أني أؤ يده من دون أي تحفظ » . محفوظات تروتسكي .

وقد اثارت الحملة ضد دينيكين موضوع خلاف آخر . وثمة ايضاً ، لم تكن الغلبة لتروتسكي ، فدنيكين استولى على تزاريتسين ، وعلى حوض الدونيتز المشهور بالفحم الحجري ، وعلى خاركوف ، وأصبح امتداد الجبهة المعادية للبلاشفة من الفولغا والدون إلى السهوب الغربية لأوكرانيا . كان قوزاقيو الدون يسيطرون على القطاع الشرقي بين الدون والفولغا بينما يتقدم الحراس البيض بحصر المعنى في الوسط والغرب . كان الأمر يتعلق إذاً بتقرير أي قطاع على الجيش الأحمر أن يشن عليه هجومه المضاد ، وقد اقترح القائد العام الجديد ضرب القطاع الشرقي ، على امتداد وادي الدون ، باتجاه تزاريتسين وقواعد دنيكين في شمالي القوقاز . وإذا تم النظر إلى الخطة من الناحية العسكرية البحتة ، فقد كانت خطة ممتازة يمكن أن تسمح بالاحاطة بقوات دنيكين وقطعها عن قواعدها الرئيسية ؛ وكان يمكنها أن تؤدي إلى فصل جيش دنيكين عن جيش كولتشاك ، بحيث لن يكون في وسع كولتشاك أن يصل قواته بقوات دنيكين حتى لو استعاد المبادرة وواصل تقدمه . كان ينبغي خوض الهجوم بواسطة الفيالق الحمراء المسحوبة من الأورال ؛ وفي الأخير ، كان أسهل أن يُلقى بتلك الفيالق ضد خاصرة دنيكين الغربية من نقلها أبعد إلى الغرب .

واعترض تروتسكي على هذه الخطة ، موضحاً أن دنيكين قد أضعفته الخلافات بين الحراس البيض بحصر المعنى وقوزاقيي الدون . كان الحراس البيض يضمون خصوصاً ضباطاً روسيين نافدي الصبر لقلب البلاشفة في موسكو وبتروغراد . أما القوزاق ، الميالون إلى الخصوصية ، فكانوا يرغبون فقط في دفع البلاشفة خارج مناطقهم ، غير متحمسين أبداً لحشر أنفهم خارج وادي الدون ، وكانت مشاريع دنيكين للهجوم على موسكو لا تثير اهتمامهم . وكان تروتسكي يرى أنه اذا القى الجيش الأحمر بثقله في وادي الدون فسوف يثير حنق القوزاق ويضطرهم للقتال باستئساد ، مما يسهل سد الثغرة في معسكر العدو ، دون ان تكون تلك هي الغاية منه . وحتى لو حقق الجيش الأحمر نجاحاً في البدء ، سيكون عليه فيما بعد أن يتقدم في منطقة فقيرة بخطوط المواصلات ووسط سكان معادين . في غضون ذلك سيضرب دنيكين القطاع الاوسط الذي يفتح له اقصر طريق الى موسكو . بناء على ذلك ، اقترح تروتسكي تركيز معظم قوات الجيش الأحمر في القطاع الأوسط ، واستهداف خاركوف وحوض الدونيتز بشكل رئيسي ، فإذا تقدم الحمر على امتداد هذا الخط ، سيكون في وسعهم شطر جيش دنيكين شطرين وفصل القوزاق عن الحراس البيض وتحييدهم . أما الميزة التي سيتمتع بها المهاجمون فهي العمل في منطقة شديدة التصنيع يقف سكانها الى جانب السوفييتات ، والاستفادة من شبكة كثيفة جداً من الطرقات والسكك

الحديدية . وهكذا يكون الوجه السياسي والاجتماعي للمنطقة هو الذي يحدد اتجاه الهجوم . وقال تروتسكي : رغم ان خطة كامينيف سليمة من وجهة النظر العسكرية البحتة ، فعيبها يكمن في أنها لا تأخذ بالحسبان التداخل الشديد للعوامل الاستراتيجية والسياسية في حرب اهلية .

حين نقلت المجادلة بين المفوض للحرب والقائد العام إلى أمام المكتب السياسي ، انتصرت حجج القائد العام ، الذي سمح له المكتب بشن الهجوم الرئيسي على القطاع الشرقي .

كان لهذا التعاقب المستمر لإخفاقات تروتسكي الشخصية نتيجة غريبة . فقد عاد تروتسكي إلى الجبهة بمزاج كئيب ، ولم يكد يصل الى مركز قيادته العام الميدانية ، في كوزلوف ، حتى تلقى رسالة محيِّرة ، تحمل تواقيع دزرجينسكي ، وكرستنسكي ولينين وسكليانسكي ، وتعلمه بأن القائد العام (فاتزيتيس) قد أُوقف بتهمة الخيانة . ولم تكن الرسالة تحدد أسباب الاتهام ، بل كانت تشير فقط لاستنادها إلى شهادات ضابط موقوف آخر . وكانت الضربة رهيبة . فقد كان مصدرها ستالين الذي سبق ان اتهم فاتزيتيس بالخيانة وكان يستهدف تروتسكي بوضوح . ولا نعرف تماماً ما كانت ردود فعل تروتسكي ؛ إلا أن من المؤكد تقريباً أنه دافع عن المتهم بقوة وأعلن عن تحمل مسؤولية ولائه واخلاصه ، لأنه تصرف بهذه الطريقة بالذات في قضايا مماثلة ، كان ضباط أقل أهمية متهمين فيها(٤٩) . ومن الثابت أنه أُطلق سراح فاتزيتيس بعد أيام قليلة ، وأعيد اعتباره . أما تروتسكي فأعطى تفسيرين للقضية : حسب الأول ، ربما لم يبرهن فاتزيتيس عن حذر كافٍ في علاقاته بالضباط المضادين للثورة في محيطه ؛ ووفقاً للآخر ، كانت لديه احلام مسيرة نابوليونية(٥٠) . لكن لا قلة الحذر ولا احلام الطموح الداخلية تعادل الخيانة وتستحق الحبس . وبعد اطلاق سراح فاتزيتيس ، بقي يضطلع بوظائف عليا في الجيش ، حتى تاريخ متقدم من عهد ستالين ؛ ولم يكن لتوقيفه في عام ١٩١٩ إذاً غير هدف واحد هو اضافة إهانة إلى خيبات تروتسكي الحديثة .

كانت تلك اسابيع توتر استثنائية بين تروتسكي ولينين ، كما تشهد على ذلك

---

(٤٩) بعد اشهر من ذلك التاريخ ، احتج تروتسكي ، مثلاً ، بحزم ضد توقيف الجنرال زاغين الذي بذل لمساعدة السوفييتات اكثر مما بذله سجانوه ، وفقاً لتعبير تروتسكي . وقد كتب هذا الاخير ان التعسف الذي كان يعامل به اناس كهؤلاء ترك تأثيراً كارثياً في معنويات الضباط . وقد طالب بإطلاق سبيل الجنرال ، الذي أعلن كفالته له شخصياً ، حتى يصدر الحكم عليه من جانب محكمة . محفوظات تروتسكي (مراسلة في كانون الثاني / يناير ١٩١٩) .

(٥٠) تروتسكي ، ستالين ، ص ٣١٠ - ٣١٦ .

مراسلتهما . وكان السبب خلافهما حول الخطة الاستراتيجية ، من جهة ، ومن جهة أخرى عمل سيزيف(*) الذي أوكل لتروتسكي في اوكرانيا ، المتمثل بكبح دينيكين ووقف تقدمه . وكان لينين يشتبه أيضاً بأن تروتسكي يحاول افقاد القائد العام الجديد اعتباره في نظر ضباط الجبهة الجنوبية . ومن الجنوب ، أرسل تروتسكي يقول ان ليغورييف ، قائد الجبهة ، لديه تحفظات كبرى على خطة كامينيف الهجومية وانه ينفذ أوامر هذا الاخير من دون قناعة بصحتها . وبدون أن يتخذ تروتسكي موقفاً في العمق ، كتب ان هذا وضع غير طبيعي واقترح تعيين قائد جديد للجبهة الجنوبية يشارك القائد العام وجهات نظره . هذا الاقتراح ، الذي كان يشهد مع ذلك على صدق تروتسكي ، أثار الحذر في الكرملين . وقد استبدل المكتب السياسي قائد الجبهة ، لكنه فصل أيضاً الى أوكرانيا سميلغا ولاشيفيتش اللذين كانا يكنان عداوة شديدة لتروتسكي : زد على ذلك أن المكتب ذكّر تروتسكي بأن عليه بذل ما في وسعه لتعزيز سلطة القائد العام الجديد . أما تروتسكي فقاوم بقوة هذه النصيحة المخاتلة ، وانتقد لينين والمكتب السياسي مرات عديدة بسبب الطابع « الشاذ » الذي تتخذه ردودهما على رسائله . بالمقابل ، أمطره لينين بالتحذيرات والتقريعات : لماذا هذا الشحّ في النتائج التي يعلن عنها ، أين أصبحت عمليات الهجوم التي كان يجب شنها في أوكرانيا ؟ .

وفي الحقيقة أن انعدام الاستقرار الذي كان يسود اوكرانيا لم يكن يقدم لتروتسكي إلا القليل من آفاق العمل العسكري ، أو لا شيء إطلاقاً . فالجيش الأحمر ركز معظم قواته في القطاع الشرقي من الجبهة وفي أوكرانيا ، التي كانت تشكل القطاع الأوسط والغربي في هذه الجبهة ، وكان على ذلك الجيش ان يدافع عن نفسه بوسائله الخاصة به . كان تروتسكي يكرر رسائل القلق الشديد الى موسكو فاضحاً عدم كفاية القوات الأوكرانيَّة ، التي كانت لا تزال مفككة كلياً . وثمة ما يدعو للاعتقاد أن المكتب السياسي كان يشتبه بأن تروتسكي لا يقدم كل تلك الطلبات إلا ليحصل ، بشكل موارب ، على اعادة نظر في خطة كامينيف العملياتية ، وعلى توزيع آخر للقوات .

وتسمح رسالة عنيفة بعدائيتها ، بعث بها تروتسكي الى المكتب السياسي في ١١ آب / أغسطس ، بتكوين فكرة عن طبيعة الوضع في الجبهة آنذاك . كتب يقول إن جنود الجيش الأحمر في أوكرانيا ليس لديهم ما يأكلونه ، ونصفهم لا أحذية لديهم ولا ثياب

(*) ملك كورنثية الاسطوري ، والدعوليس ؛ كان عليه أن يرفع صخرة ضخمة إلى أعلى الجبل ، لكنه ما أن يكاد يصل حتى تتدحرج إلى الأسفل فيعود ليرفها ثانية ، وهكذا دواليك ، وترمز الى العمل الصعب للغاية الذي يتطلب تكراره باستمرار ، ومن البداية (م) .

داخلية ، والقليل منهم لديهم معاطف . وهم يفتقرون كذلك للبنادق والذخائر . الجميع يملكون السلاح إلا الجنود ، فالكولاك يخزنون الاسلحة التي اشتروها من الفارين من الجندية . إن الجندي الأحمر الجائع والأعزل يفقد ثقته حين يجد نفسه وجهاً لوجه مع مرابي القرية الشبعان . ينبغي الاهتمام جدياً بالكولاك ، ونزع أسلحتهم . ألفا شيوعي موثوقون ومجهزون جيداً أو ثلاثة آلاف ، يمكن ان يعززوا الجبهة ، لكن موسكو ترفض إرسالهم . البلاشفة الأوكرانيون يعانون من مزاج انهزامي ، وهم يعتقدون أنه ربما لن تكون فكرة رديئة فكرة ترك اوكرانيا تجرب لفترة قصيرة سيطرة البيض ، عسى يشفي ذلك الشعب من أوهامه ويجعله يستدير نحو البلاشفة . وقد أكد تروتسكي للمكتب السياسي أنه يناضل بحزم ضد هذا الموقف ، لكن الفيالق الأوكرانية بحاجة لاستراحة ، لفرصة « تغتسل خلالها ، وترتدي الثياب ، وتعد نفسها للهجوم »[٥١] .

إلا أن دنيكين لم يعطهم تلك الاستراحة ؛ فبعد خمسة عشر يوماً استولى على كييف واحتل كل أوكرانيا تقريباً . كان يسعى لكي يهزم الجيش الأحمر في الوسط ، حيث كان ضعيفاً ، باتجاه فورونيج وكورسك ، آخذاً هكذا أقصر طريق الى موسكو .

عندئذٍ طلب تروتسكي إعادة النظر في خطة العمليات ، وأقترح ان تسحب القوات الاحتياطية للقيادة العليا من القطاع الشرقي ويتم توجيهها نحو فورونيج وكورسك . وقد جدد مراراً وتكراراً طلبه الذي كان المكتب السياسي وهيئة الاركان العامة يرفضانه باستمرار . في غضون ذلك ، لم يكن يتمكن الجيش الأحمر من التقدم بصورة حاسمة على الدون ، وأخذ دنيكين كورسك وفورونيج وأوريل . وقد انتظر القائد العام حتى هدد دنيكين موسكو مباشرة ، في بداية تشرين الأول / أوكتوبر ، كي يبدل خططه ويبدأ بحشد احتياطيه في القطاع الاوسط . لكن كانت نجحت قوات دنيكين آنذاك في احداث ثغرة باتجاه تولا ، آخر مدينة مهمة قبل موسكو . في الوقت ذاته ، كان يودنيتش مدججاً بالسلاح الذي زوده به الانكليز ، وتدعمه بحريتهم ، يتقدم بسرعة من استونيا باتجاه بتروغراد التي بلغ مشارفها .

ولولا خطورة الوضع القصوى ، لكان أمكن تروتسكي أن يستمتع برؤية الى أي حد انتقمت له الأحداث ، واجبرت خصومه على الاهتداء إلى وجهات نظره . حتى ستالين كان يريد الآن التخلي عن خطة كامينيف الذي كان يكيل له السباب بلا تحفظ ؛

(٥١) محفوظات تروتسكي .

وقد استعاد حرفياً محاجة تروتسكي(٥٢) .

في تلك الفترة من الضائقة العامة وهبوط المعنويات ، كان تفاؤل تروتسكي ونشاطه لا يعرفان حدوداً ، وكان مقتنعاً بأن إعادة تجميع القوات ، التي بوشر بها اخيراً ، سرعان ما ستعطي نتائجها . وبالفعل تمت اعادة تنظيم الجبهة وجُهز الاحتياطي ؛ وبفضل المواصلات التي جرى تقصيرها وتسهيلها جذرياً ، أمكن تموين القوات بوفرة . كانت امكانات العدو موزعة على مسافات واسعة ، بينما طاقة الجيش الأحمر مضغوطة كنابض ، وقدّر تروتسكي الموارد المادية والمعنوية التي كان لا يزال يمكن السوفييتات أن تستحوذ عليها وهو ممتلىء ثقة . وكأي عضو آخر في المكتب السياسي ، كان يضع نصب عينيه بلا انقطاع جحيم الحرب الاهلية . وكان يلازمه مشهد الجنود نصف العراة ، المرتجفين برداً ، والجرحى الذين يموتون جماعات جماعات ، بسبب الافتقار الى العناية الطبية . وكان يعرف كذلك التقلقل العصبي للجيش معرفة عميقة . لكنه كان يؤمن بأن الجيش قادر في اللحظات التي اصبح الخطر فيها مميتاً على انفجارات حماس مفاجئة ؛ كان يثق بروح التضحية لديه ؛ وبحميّة قادته وجنوده ، الذين كانوا ينتصرون دائماً على الخواء الذي كان يبدو ان الثورة تغوص فيه دورياً .

في تلك الفترة أعطى تروتسكي كل طاقته ، لا فقط كخالق رئيسي للجيش ، ومنظم له ، بل كذلك كملهمه ، ونبيه . فبكل جسارة ، طرح الصوت على الطاقات المعنوية المخبوءة التي تمتلكها الثورة ، وخطابه في مؤتمر الكومسومولات(*) ، مثلاً ، يعطي فكرة عن الطريقة التي بادر اليها . لقد اجتمعت الكومسومولات أو الشبيبة الشيوعية ، بينما كانت موسكو وبتروغراد على مرمى الحراس البيض . تكلم الى الشباب على واجباتهم « داخل الأرض الأكثر فأكثر ضيقاً ، المتروكة للجيش الأحمر » . كان عليهم المساعدة في التعبئة وفي إبقاء الصلات بين الوحدات المقاتلة ؛ عليهم التسلل الى الخطوط للتعرف إلى استعداداتهم ، الخ . لكن قبل المضي لإنجاز مهماتهم الخطيرة ، كان عليهم معرفة الموقع الذي يشغلونه في شؤ ون العالم . وقد استعرض الوضع العالمي بوضوح وببساطة ومن دون أية مراعاة . كان عليهم أن يفهموا كذلك أدوارهم انطلاقاً من سياق تاريخ العالم ، في

---

(٥٢) على هذا الاساس ينسب المؤ رخون السوفيات اللاحقون الى ستالين أبوة خطة تروتسكي الهجومية ، لكن رسالة ستالين الى لينين التي يطلب فيها تركيز القوة الضاربة في القطاع الأوسط مؤ رخة في ١٥ تشرين الأول / اوكتوبر ١٩١٩ (انظر ستالين ، سوش . ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٧) بينما تعود مذكرة تروتسكي بهذا الصدد الى ايلول / سبتمبر . تروتسكي ، سوش . ، ج ١٧ ، ك ٢ ، ص ٥٥٦ - ٥٥٩ ؛ فوروشيلوف ، ستالين أي كراسنايا أرميا ، ص ٢١ - ٢٢ .

(*) الكومسومول هو اتحاد الشبيبة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي (م)

المنظور الطويل للصعود البطيء ، البطيء بشكل مؤلم ، لكن الملهم ، للانسان من « مملكة الحيوان القاتمة » إلى ذرى الحضارة ، الأكثر غرابة ، التي كانت الاشتراكية تقودهم إليها . ذكّر سامعيه بالانسان البدائي ، « الاعرج ، العاجز ، الذي كان يتيه في الغابات النائمة ، والذي خلق لنفسه ، تحت وطأة التطيّر ، آلهة صغيرة وقياصرة وأمراء » . ثم أحل الانسان « محل الآلهة المتعددة الهاً واحداً ، ومحل القياصرة والأمراء المتعددين قيصراً واحداً » . « لكنه لم يتوقف عند هذا الحد . لقد تخلى عن القياصرة والآلهة وسعى ليصبح السيد الحر والسامي لوجوده الخاص به . . . ونحن نشارك في هذه المحاولة التاريخية التي لا مثيل لها » « إن مئات آلاف السنين التي ناضل خلالها الانسان وتقدم لن تكون اكثر من هرجة ، إذا لم نتمكن من بلوغ . . مجتمع جديد تقوم فيه كل العلاقات الانسانية . . . على التعاون ، وحيث سيكون الانسان أخاً للانسان ولا يعود عدواً له » . ثم تكلم على « أتون التاريخ الضخم » ، حيث أعيد تشكيل الطابع القومي الروسي وتحريره من ذبوله وخدره . « هذا الأتون لا يرحم . . . تلكحنا ألسنة لهبه الطويلة وتلتهمنا ، لكنها تصهر كذلك طبعنا » . وهتف تروتسكي : « طوبى لمن يشعر في روحه وفي قلبه بمرور التيار الكهربائي لعصرنا العظيم »[٥٣] .

في اكثر الأجواء شؤماً اجتمع المكتب السياسي ، وذلك في ١٥ تشرين الأول / اوكتوبر . كانت المعركة على اشدها في أوريل ، وكان يتوقف على نهايتها مصير موسكو . ولم يكن ثمة أمل كبير في الدفاع عن بتروغراد . بدا الوضع منحوس الطالع لدرجة أن لينين اقترح التخلي عن بتروغراد وتجميع كل القوات المتوفرة حول موسكو . لا بل كان يتصور احتمال سقوط موسكو وتراجع البلاشفة إلى الأورال .

أما تروتسكي فعارض بقوة بالغة ، معتبراً أن بتروغراد ، مهد الثورة ، يجب ألا تُترك للحراس البيض ، وأن خسارة هذه المدينة ستؤدي إلى تأثيرات كارثية في كل ما تبقى من البلاد . واقترح ان يمضي بذاته لتأمين الدفاع عن بتروغراد ، عارضاً على المكتب السياسي سلسلة من المراسيم الملحة لتعبئة كل ما يمكن تعبئته ، وقال : فلتُقفل مؤقتاً الوزارات والمكاتب الحكومية المختلفة غير النافعة ، وليُدع الجميع لحمل السلاح . ينبغي أن تتوجه الى بتروغراد على جناح السرعة ، قوات من اطراف الجبهة ، من سواحل البحر الأبيض ومن مقاطعات بولونيا الحدودية .

في تلك المرة ، سانده خصمه المعتاد . لقد طلب ستالين ، هو الآخر ، الدفاع عن

---

(٥٣) تروتسكي ، بوكولوليني اوكتيابريا ، ص ١٥٧ ـ ١٦٧ .

العاصمتين معاً[٥٤] . حدث بينهما في تلك المناسبة ذلك الوفاق الذي يمكن أن يوحد أعداء على مركب ضائع يعتزمون إنقاذه . وفي حين تطوّع تروتسكي للذهاب الى بتروغراد ، اقترح ستالين ان يحل محله على الجبهة الجنوبية . وتبنى المكتب السياسي المراسيم التي عرضها تروتسكي ، وعيّن لجنة من اربعة اعضاء ، (لينين ، تروتسكي ، كامينيف ، كرستنسكي) لوضعها موضع التنفيذ . وأذن لتروتسكي بالذهاب الى بتروغراد ، لكنه احتفظ بحكمه على الخطة التي اقترحها للدفاع عن المدينة .

في ١٦ تشرين الأول / اوكتوبر ، أملى تروتسكي ، في القطار الذي كان ينقله الى بتروغراد ، بعض التأملات التي أوحى بها إليه الوضع . وقد سخر من بيان تشرشل الذي اعلن عن حملة صليبية معادية للسوفيات من ١٤ أمة . وكتب : إن هذه ليست غير « ١٤ كياناً جغرافياً » ، وأربع عشرة فرقة فرنسية ـ انكليزية كانت لاءمت اكثر من كولتشاك ودنيكين . إن الصيحات الضخمة المعبرة عن فرح البورجوازية الغربية لدى فكرة السقوط الوشيك للسوفييتات لا تزال مبكرة . فحتى لو لم يتمكن الجيش الأحمر من ايقاف يونديتش قبل بتروغراد فسوف يسحقه داخل جدران المدينة . وقد خطط وصفاً للمعركة داخل بتروغراد ينبىء بشكل مثير بمعركة ستالينغراد ، خلال الحرب العالمية الثانية .

« بدخول الحراس البيض إلى تلك المدينة العملاقة ، سيجدون انفسهم ضائعين في تلك المتاهة الحجرية ، حيث سيصبح كل بيت لغزاً بالنسبة اليهم ، أو تهديداً أو خطراً مميتاً . من اين ستنطلق الرصاصة ؟ من نافذة ؟ من سقيفة ؟ من هري ؟ من زاوية شارع ؟ من كل مكان ! . . . بوسعنا أن نسد بعض الشوارع بأسلاك شائكة ، وترك اخرى مفتوحة سنحولها إلى فخاخ . كل ما هنالك حاجة إليه هو ان يكون بضعة آلاف من الاشخاص مصممين بحزم على عدم الاستسلام . . . يومان أو ثلاثة تدور خلالها معارك شوارع من هذا النوع ستجعل من الغزاة قطيع هاربين مخبولين ومرعوبين يستسلمون جماعات أو افراداً لعابرين لا يحملون سلاحاً أو لنساء . لكن معارك الشوارع تسبب خسائر عرضية وتؤدي إلى تدمير قيم ثقافية . وهذا واحد من الأسباب التي تضطر القيادة لأجلها إلى اتخاذ كل التدابير المناسبة لمنع العدو من الاقتراب من بتروغراد »[٥٥] .

في بتروغراد ، كانت تنتظره اخبار سيئة ، فيودنيتش استولى على كراسنويي سيلو ،

---

(٥٤) إن تروتسكي بالذات هو الذي أكد ذلك ، فاستناداً للمحاضر ، لا يبدو أن ستالين كان يحضر تلك الجلسة من جلسات المكتب السياسي . في ١٥ تشرين الأول / اوكتوبر ، ارسل رسالة الى لينين من الجبهة الجنوبية . ومن المرجح انه أعطى رأيه قبل رحيله .

(٥٥) تروتسكي ، سوش . ، ج ١٧ ، ك ٢ ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

في ضواحي بتروغراد . ولقد اضعف دفاعات المدينة نقل قوات إلى الجبهة الجنوبية ، وزرعت خيانة ضباط كبار في هيئة الاركان البلبلة في الجيش . وكان زينوفييف ، قائد « كومونة الشمال » في حالة ذعر وكان تردده ينتقل الى مرؤ وسيه . لكن وصلت من موسكو إشارة من لينين تبلغ تروتسكي أن المكتب السياسي أيد خطته وأذن له بمواصلة المعارك إذا اقتضت الحاجة داخل بتروغراد . وكان لينين يلح كذلك بحذر على إعداد الانسحاب ، ونقل الوثائق الرسمية ، والتأهب لنسف محطات الطاقة وتدمير أسطول البلطيق . فرد تروتسكي برسالة كلها ثقة ورباطة جأش ، وكما لو كان يريد أن يضفي على تلك الثقة نبرة تحدٍّ مطلق ، سأل إذا كان مأذوناً له أن يطارد يودنيتش في استونيا التي كانت تشكل القاعدة المتقدمة لقواته[٥٦] .

تكلم مجدداً في سوفييت بتروغراد ، الذي ترأسه في عامي ١٩٠٥ و١٩١٧ . تكلم بصراحة على الكارثة المهددة ثم بعد أن طلب الى الجمعية ان تبذل أقصى ما يمكنها من جهد أطلق العنان لتعلقه بتلك المدينة :

« في هذا الخريف الحزين والقاتم ، خريف البرد والجوع والغم ، تقدم بتروغراد لنا من جديد لوحة رائعة عن رباطة جأشها المعدية وحماسها وبطولتها . المدينة التي تألمت كثيراً واحترقت بنار داخلية عظيمة ، وتحدت اخطاراً جمة ، المدينة التي لم توفر نفسها يوماً ، المدينة التي عرضت نفسها للكثير من التدمير والخراب ، بتروغراد الحمراء الرائعة هذه تبقى كما في الماضي مشعل الثورة . . . »[٥٧] .

العديد من شهود العيان وصفوا نتائج مداخلة تروتسكي . والسطور التي سنقرأها كتبها لاشيفيتش الذي كان في تلك الفترة كل شيء ، إلا مؤيداً لتروتسكي ، والذي لعب بذاته دوراً مهماً في تلك الأحداث :

« مثل وصول قوات جديدة لتعزيز الجبهة . . . كان لحضور تروتسكي نتائج فورية : أعيد انضباط حقيقي ، وشرعت المكاتب العسكرية والادارية بالعمل . جرى

---

(٥٦) هذه المسألة أدت الى نقاش طويل بين لينين وتروتسكي وتشيتشرين . فالمفوض للشؤون الخارجية الذي كان يخشى تعقيدات دولية عارض بعنف كل ملاحقة الى استونيا . فاكتفى تروتسكي عند ذلك بتهديد الحكومة الاستونية بغزو الجيش الأحمر اذا رفضت نزع سلاح الحراس البيض الذين يتقهقرون إلى اراضيها . وقد تسبب موقف الدول البلطيقية ببعض القلق لتروتسكي والمكتب السياسي . وهدد تروتسكي جهاراً الحكومة الفنلندية بترك الفرق البشكيرية تهاجم هلسنكي إذا قام الجيش الفنلندي بأية محاولة ضد بتروغراد . وطلبت حكومات التحالف سراً إلى حكومات البلدان البلطيقية ان تشارك في هجوم يودنيتش . لكن البلدان البلطيقية التي ارعبتها تهديدات تروتسكي بقيت في حالة انتظار .

(٥٧) تروتسكي ، سوش . ، ج ١٧ ، ك ٢ ، ص ٢٨٧ .

صرف العاجزين وحدثت تبديلات في مِلاك القيادة العليا والدنيا . جاءت أوامر تروتسكي ، الواضحة والدقيقة ، التي لا توفر احداً وتطلب من الجميع أقصى ما يمكن من الجهود والاهتمام ، وتنفيذاً سريعاً لأوامر القتال ، تظهر فوراً أن يداً حازمة تقود . . . لقد بدأ التصحيح الداخلي . . . أعيدت المكاتب إلى وضع العمل ، والاتصالات التي كانت رديئة حتى ذلك الحين ، أصبحت مُرْضية . وشرعت مصالح التموين تعمل من دون صعوبة . وتناقصت حالات الفرار من الجبهة بصورة جذرية . وفي كل المفارز قامت محاكم ميدانية . . . بدأ كل واحد يفهم ان طريقاً واحدة بقيت مفتوحة هي الطريق الى الامام ، بينما كل طرقات الانسحاب انقطعت . وكان تروتسكي يهتم بأقل التفاصيل ، مطبقاً على كل نقطة من عمله نشاطه المحموم ، الذي لا يكل ، ودأباً يثير الدهشة » .(٥٨) .

واصل يودنيتش تقدمه طيلة عدة أيام ايضاً ، وقد أثار ظهور الدبابات الانكليزية على مقربة من المدينة الذعر ، إلا أن تروتسكي ، ممتطياً حصاناً ، جمع الفارين المذعورين واعادهم الى ساحة القتال . وفي اندفاعة مرتجلة ، شرعت مصانع قائمة على مرمى من مدفعية يودنيتش تصنع عربات تشبه الدبابات ، فزال الذعر . وقد برزت قوات نظامية ، وحراس حمر تشكلوا على جناح السرعة ، لا بل مفارز نسائية ايضاً ، فدافعت عن نفسها ، حسبما قال يودنيتش بالذات ، بـ « جنون بطولي » . ولم يمر اسبوع على وصول تروتسكي حتى انتقل المدافعون إلى الهجوم . وفي الذكرى الثانية للثورة ، التي كانت في الوقت ذاته عيد ميلاد تروتسكي الأربعين ، عاد هذا الى موسكو ليبشر الهيئة التنفيذية المركزية للسوفييتات بالنصر .

كان آخر فصل في الحرب الأهلية قد بدأ . فعلى الجبهة الجنوبية أيضاً ، كان الحراس البيض يتراجعون ويتفككون(٥٩) . وكان الجيش الأحمر يوجه ضغطه نحو خاركوف

---

(٥٨) بوربا زا بتروغراد ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٥٩) لم يفسر احد أسباب انهيار الجيوش البيضاء بصراحة اكثر فظاظة من صراحة دنيكين بالذات : « كان مفترضاً أن يؤدي تحرير قواتنا لأراضٍ واسعة . . . الى انتفاض كل العناصر المعادية للسلطة السوفياتية . . . والسؤال الوحيد الذي كان ينطرح هو معرفة ما اذا كانت الجماهير الشعبية ملت البلشفية . . . هل سيسير الشعب معنا ؟ . . . كان جوابه حائراً في البدء ، ثم سلبياً . (دنيكين ، اوشركي روسكوي سموتي ، ج ٥ ، ص ١١٨ . « لم تنج قوات جيش الجنوب من المرض العام ، ولطخت سمعتها بقيامها بمجازر بحق اليهود . . . انفقأت الخُرّاجات الداخلية في جو الحقد . لقد أصابت المذابح اليهود في الصميم ، لكنها أثرت كذلك على روح القوات ، فأفسدتها وخرّبت الانضباط . . . » المرجع ذاته ، ص ١٤٦ . ودعونا نلاحظ كيف يحكم رانغل على النتائج المعنوية للحملة : « أفقد جيش المتطوعين نفسه الاعتبار بعمليات النهب والعنف . لقد خسرنا كل شيء . لا يمكننا حتى ان نحاول السير مرة اخرى على امتداد الطرقات ذاتها ، خلف الراية ذاتها » . المرجع ذاته ، ص ٢٦٣ . وبصدد الفساد في الجيش ، كتب دنيكين : « هذا العيد في زمن رديء أثار غضب المراقبين الاجانب

وكييف وبولتافا . وفي سيبيريا ، كان كولتشاك قد انسحق كلياً . وكان انقلاب الوضع سريعاً لدرجة أنه بعد ثلاثة اسابيع من تلك الجلسة الحرجة التي رأى خلالها المكتب السياسي وجه الهزيمة ، كانت موسكو الحمراء تحتفل بالنصر . وفي الجلسة الاحتفالية بعيد الهيئة التنفيذية للسوفييتات هلل الحاضرون لتروتسكي كصانع للنصر ومنح وسام الراية الحمراء(٦٠) .

كان تروتسكي آنذاك في ذروة مسيرته السياسية والعسكرية . لقد قاد ثورة وأسس جيشاً عظيماً وقاده الى النصر . كسب افتتان الجمهور الكبير من انصار الثورة ، وإعجاب اعدائه الغاضب وحقدهم الذي لا يغتفر . ومثل القادة البلاشفة الآخرين ، كان يأمل أن تكون أهوال الحرب وفظائعها شيئاً من الماضي وأن يبدأ العهد السلمي لإعادة البناء الاشتراكي . وكان ينوي أن يلعب فيه دوراً بأهمية الدور الذي لعبه منذ اوكتوبر في القضايا العسكرية . وفي كانون الأول / ديسمبر ١٩١٩ ، خلال المؤتمر السابع للسوفييتات ، حدد نتائج الحرب الاهلية ، لأنه اذا كانت المعارك مستمرة فنهايتها لم يعد مشكوكاً فيها(٦١) . وقد حيّا عالياً أولئك الذين تحملوا العبء الرهيب للسنوات الاخيرة ، وامتدح المفوضين الذين كان مفترضاً أنه عدوهم : « مع مفوضينا . . . نمتلك نظاماً شيوعياً جديداً من الساموراي(*) اعضاؤه لا يتمتعون بأي امتياز فئوي ، ويعرفون أن يموتوا ويعلموا الآخرين الموت من أجل قضية الطبقة العاملة » . واكثر من المديح لقادة الجيوش المنتصرة ، لأولئك الذين كانوا جنرالات في جيش القيصر ، ولأولئك الذين خرجوا من الصف ، وكانوا عمال معادن أو حلاقين في حياتهم المدنية . تكلم بحرارة خاصة على النجاحات التي حققها ثلاثة قادة جيوش : فرونزي ، العامل ، وتوخاتشيفسكي ، ضابط الحرس ، وسوكولنيكوف ، الصحافي الثوري . ثم تطلع إلى الالغاء اللاحق للجيش الدائم وتحويله الى ميليشيا ديمقراطية تستلهم المثل الاعلى الاشتراكي ، تلك الميليشيا التي حلم بها جوريس في

وقرفهم . . . » واخيراً : « كانت المعدات والذخائر الانكليزية وخبز كوبان لا تزال تصلنا من قواعد تموينا ، لكن القواعد الاخلاقية كانت قد تدمرت » . المرجع ذاته ، ص ٣١٤ .

(٦٠) التكريم ذاته مُنح أيضاً لمدينة بتروغراد ولستالين الذي لم يحضر الاحتفال . وروى تروتسكي فيها بعد أن الحاضرين فوجئوا بالشرف الممنوح لستالين ، الذي لم يصفق أحد له . ومهما يكن ، فلا بد ان تروتسكي شعر بالانزعاج ، لأنه كتب فيها بعد : « تلقت بتروغراد وسام الراية الحمراء . وبتروغراد هي التي استحقته حقاً وبشرف . فحين تمنح الأوسمة لأفراد ، يمكن ان تحصل دائماً أخطاء ، ويمكن أن ينتج عنها امتيازات ، لكن حين يمنح تمييز لبيتروغراد ، ليس من خطأ ، ولا انحراف . » سوش . ، ج ١٧ ، ك ٢ ، ص ٣١٠ .

(٦١) المرجع ذاته ، ص ٣٢٥ ـ ٣٥٥ .

(*) المحارب الياباني في المرحلة الاقطاعية (م) .

الماضي[٦٢] . وتلفظ ببعض الكلمات اللطيفة ، حتى حيال المناشفة الذين انضموا ، في احرج الظروف ، للدفاع عن السوفييتات والذين كانوا يحضرون المؤتمر . قال : « اننا نقدر عالي التقدير واقع ان احزاباً اخرى ايضاً ، احزاباً تنتمي للمعارضة . . . عبأت عدداً من عمالها للعمل في الجيش . وقد استُقبلوا فيه كإخوة » . وقبل اشهر كان هدد المناشفة بـ « تحويلهم الى رماد » إذا أعاقوا الدفاع . لكنه كان يتوجه اليوم الى مارتوف الذي هنأ البلاشفة على نجاحاتهم الدبلوماسية والعسكرية . عبر « عن فرحه الحقيقي . . . من دون قصد خفي ومن دون أدنى سخرية » وهو يسمع مارتوف يتكلم على جيشنا ونضالنا الأممي ؛ لقد استخدم ضمير المتكلم في حالة الجمع ، وبذلك أضاف وزناً أدبياً وسياسياً الى قضيتنا » .

وكبلاشفة آخرين ، كان تروتسكي يتطلع إلى تهدئة في ميدان السياسة الداخلية ، تهدئة تسمح للأحزاب ، على الأقل احزاب المعارضة الاشتراكية ، باستعادة نشاطاتها علانية . وكان تخفيف سلطات التشيكا وإلغاء عقوبة الاعدام في كانون الثاني / يناير ١٩٢٠ ، من التدابير الأولى المعدة لافتتاح طريق جديد . لكن تلك الآمال المتفائلة ، لم يقيّض لها أن تتحقق .

لم تكن أهوال الحرب غدت شيئاً من الماضي[٦٣] .

---

(٦٢) انظر في نهاية الفصل اللاحق الهامش حول كتابات تروتسكي العسكرية .

(٦٣) تعود مصادر هذا الفصل والفصل اللاحق ، بين ما تعود اليه ، لكل من بوبنوف وكامينيف وآيدمان ، غراجدانسكايا فويتا ، ج ١ - ٣ ؛ كاكورين ، كاك سراجالاس ريفولوتسيا ، ج ١ - ٢ ؛ وفرونزي ، سوبراني سوشينيني ، ج ١ - ٣ .

الثورة والفتح

طوال تلك السنوات ، ارتقب القادة البلاشفة بنفاد صبر بشائر الثورة في اوروبا .
وكانت كل مرحلة من النضالات السياسية والاجتماعية في أوروبا تؤثر بشكل مباشر على مجرى الحرب الأهلية ، فسقوط آل هوهنزلرن وآل هابسبورغ ، مثلاً ، سمح للسوفييتات باستعادة الأرض التي خسرتها عبر صلح بريست - ليتوفسك . لكن بعد ذلك بوقت قصير اعلن الحلفاء المنتصرون الحصار ضد روسيا ، الذي تلاه « الزحف الصليبي للأربع عشرة أمة » . إن مجرد التهديد بتدخل الحلفاء أثر تأثيراً عميقاً على الوضع في روسيا . فمنذ الثورة ، كانت الطبقات الحاكمة القديمة في حالة انهيار عميق ، ترعبها الهوة التي تفصلها عن جمهور الشعب . كانت تفتقر الى التنظيم ، وقد فقدت ايمانها بقضيتها الخاصة بها ؛ ووجدت نفسها منقسمة على ذاتها وعاجزة عن وضع أية خطة عمل[1] . إلا أن الوعد بالتدخل أعطاها الشجاعة مجدداً . ولم تبدأ صفوف الحراس البيض تنتفخ ، ولم تأخذ الحرب الاهلية اتساعاً حقيقياً ، إلا حين قطع ذلك الوعد ، وبعد أن ظهر ضباط الارتباط الانكليز والفرنسيون والاميركيون في هيئات اركان الجنرالات البيض ، وبعد أن رست المراكب الاجنبية الاولى في المرافىء الروسية حاملة الأسلحة والذخائر . كان البلاشفة يعتقدون ان كثافة الغليان الثوري في الخارج ، وحدها ، هي التي يمكن أن تشل التدخل .
وكانوا مدفوعين لنقل الصراع الى داخل المعسكر المعادي ، وكانوا يميلون للقيام بذلك لا سيما أنهم تنبأوا دائماً بأن الطبقات القائدة في اوروبا لن تتصالح مع الثورة الروسية ، وأن هذه ستكون مضطرة ، من أجل حماية نفسها ، لمهاجمة النظام الرأسمالي الاوروبي ، الذي كان مفترضاً أن ينهار في كل حال تحت ضربات الطبقات العاملة الاوروبية . لم يتحقق غير نصف تلك النبوءة : اعلنت الطبقات الحاكمة في البلدان المتحالفة الحرب على البلشفية ؛ لكن كانت هنالك أوقات بدا فيها أن النصف الآخر ، المتعلق بانتفاض البروليتاريا الاوروبية ، على وشك ان يتحقق أيضاً .

---

(١) قبل أن ينتحر أحد القادة الأولين للحراس البيض ، الجنرال كاليدين ، في عام ١٩١٨ ، قال : « إن وضعنا يائس ، فعدا أن السكان لا يساندوننا فهم يناصبوننا العداء جهاراً . لم تعد لنا أية قوة ، والمقاومة لا جدوى منها » . دنيكين ، المرجع المذكور ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

منذ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ ، كانت المانيا والجزء الأكبر من اوروبا الوسطى في الغمرات المبشرة بانتفاضة . كانت مجالس نواب عمال موجودة في برلين وفيينا وفارصوفيا ، إلى جانب الحكومات الاشتراكية ـ الديمقراطية . والبلاشفة الذين نظروا الى تلك الاحداث عبر موشورة تجربتهم الحديثة كانوا يرون فيها نسخة طبق الأصل عن « ازدواجية السلطة تلك » التي أنجبتها ثورة شباط / فبراير في روسيا . كانوا يتكلمون على « شباط الالماني » ويتوقعون لمستقبل قريب تفكك النظام المزدوج وصعود مجالس النواب العمال ؛ كانوا يتوقعون « اوكتوبر المانية » .

كان يبرهن عن تبسيطية مبالغ بها الاعتقاد بأن التاريخ يمكن أن يتكرر من بلد لبلد ، بذلك القدر من الدقة والسرعة . لكن لمجريات كل الثورات الشعبية الكبرى العديد من الملامح المشتركة ، فهي تبتدىء جميعاً بانهيار جزئي للحكومة القائمة ، وجميعها تمر بمرحلة انتقالية من ازدواجية السلطة ، بينما الاحزاب المحافظة والمعتدلة والتوفيقية ، المتعادية فيما بينها ، ينهك بعضها بعضاً على التوالي ويُفقد بعضها البعض الآخر حظوته واعتباره . كان البلاشفة يعتقدون أن البلدان الأخرى ستمر إجمالاً بمختلف لحظات تلك السيرورة ، لكن الخطأ في تلك الحسابات لم يكن يقتصر على روزنامة الأحداث الثورية ، بل يمتد إلى الفرضية الاساسية التي ترى أن الرأسمالية الاوروبية تقترب من نهايتها . لقد أساء البلاشفة تقدير قوة المقاومة ، والتكيف لديها ، وسطوتها على الطبقات العاملة ، إساءة خطيرة . كان التخمر الثوري في اوروبا متقدماً كفاية بحيث لا يؤدي الى سير اقلية في الطبقة العاملة على خطى البلاشفة . فالأكثرية كانت تجتهد لانتزاع اصلاحات من الحكومات والطبقات المالكة ، لكن حتى حين كانت تبدي تعاطفاً مع الثورة الروسية ، لم يكن مزاجها يدفعها لسلوك طريق الثورة والحرب الاهلية ، والتضحية بذلك بمستوى حياتها ، وبأمنها الشخصي ، وبالاصلاحات التي حصلت عليها وتلك التي كانت تأمل الحصول عليها .

كانت مأساة البلاشفة في تلك الفترة البطولية تتمثل برفض التسليم بتلك الوقائع وبعدم اخذها بالحسبان . فالقادة البلاشفة اعتقدوا ان النزعة المحافظة النسبية للحركة العمالية الاوروبية هي واجهة موهنة تخفق خلفها كل الغرائز الثورية للبروليتاريا . كل ما يجب فعله إنما هو كسر تلك الواجهة الرقيقة لتحرير الطاقات المعادية للرأسمالية التي كانت تخفيها . وهذه الرؤ يا للعالم لم تكن ناتجة فقط عن خطأ في التقدير السياسي ، بل كانت تعكس العجز السيكولوجي لدى البلاشفة الأولين عن وعي انعزالهم في العالم ، وهو عجز يشارك فيه كل قادة الثورة ، لكنه لم يكن قوياً وكلياً لدى أي منهم بالقدر الذي بلغه لدى

تروتسكي ، فلقد كان يطبع كل كيانه وقلبه وروحه استفظاعٌ غريزي للانعزال . ما من احد بين القادة البلاشفة يتملكه حتى ذلك الحين أي استشعار لـ « الاشتراكية في بلد واحد » . لكن انعزال البلشفية كان قد اصبح بالنسبة لتروتسكي كابوساً لا يحتمل ، لأنه كان يعني أن المحاولة الاولى والوحيدة للبناء الاشتراكي ستضطر لأن تتم في اسوأ الشروط ، محرومة من قسمة عمل دولية متقدمة للغاية ، ومن دون التأثير الخصيب للتقاليد الثقافية القديمة والغنية ، وسط فقر مادي وثقافي مثير للهلع ، وهمجية وفظاظة يمكن أن تشوها حتى الاندفاع نحو الاشتراكية وتفسداه . عاجلاً أو آجلاً ، لم يكن يمكن لذلك الخوف من الانعزال إلا أن يصطدم بالحقيقة ، وهذا الاصطدام سيدفع البلاشفة ، إلى التخبط بتشنج مع الصورة التي يكونونها عن العالم .

بعد تجربة بريست ، حين هز هذا المأزق للمرة الأولى ثقة تروتسكي ، وجد نوعاً من المخرج في الأعمال الهرقلية للحرب الأهلية . عند ذلك وجد استهوال العزلة تعبيره في تفجرات عنيفة للثقة بالامتداد الوشيك للثورة . وفي كانون الثاني / يناير ١٩١٩ ، حين كانت شوارع برلين تُشَكُّ بالمتاريس ، كتب يقول : « منذ الآن ، لم يعد شبح الشيوعية هو الذي يؤرق أوروبا . . . فشيوعية من اللحم والدم تدْرُج الآن بخطوات كبيرة على سطح القارة »[٢] . كان يعتقد الآن أن أفكار البورجوازية وآمالها هي التي تتسم بطابع لاواقعية عميقة . وقد رأى شيئاً ما شبحياً في ظهور الرئيس ويلسون في اوروبا « هذا التارتوف[*] الذي تربى على نظام الصيام لدى الكويكرز[**] ، والذي يجوب اوروبا النازفة كممثل اعلى للأخلاق ، وكرسول للدولار الاميركي يعاقب الأمم ويحل خطاياها ، وينظم مصيرها » . لم يكن بإمكان اوروبا إلا أن ترى ان حظها الوحيد في الخلاص يكمن في اتحاد قاري للجمهوريات السوفياتية ؛ وحين تكون المانيا بلغت ذلك الاتحاد ، « ستأتي ايطاليا السوفياتية وفرنسا السوفياتية لتنضما اليها ، بصورة مبكرة شهراً واحداً ، أو متأخرةً شهراً واحداً »[٣] .

في أول أسبوع من آذار / مارس ١٩١٩ تم حدث معبر بين جدران الكرملين . ففي محكمة عدل امبراطورية قديمة ، ترأس لينين اجتماعاً لحوالى عشرين مندوباً ينتمون لمجموعات من اليسار الاشتراكي الاجنبي . كان حضور اولئك المندوبين يشكل ، بمعنى

(٢) تروتسكي ، سوش . ، ج ١٣ ، ص ٦ - ١٤ .
(*) شخصية في احدى مسرحيات موليير ترمز الى النفاق (م) .
(**) شيعة بروتستانتية (م) .
(٣) الاستشهاد ذاته .

ما ، الثغرة الأولى في الحصار . كان على معظمهم أن يتحايلوا لعبور الحدود ؛ وبعض المندوبين منعتهم حكوماتهم من السفر ، بينما اوقف آخرون في الطريق . أما البلاشفة الذين انقطعوا منذ زمن طويل عن الغرب فقد أصغوا بشغف الى تقارير المندوبين وكانت التقارير مشوشة ومتناقضة ، لكن كان يبدو أنها تشجع الآمال بثورة قريبة .

لم يكن هدف المؤتمر التداولي واضحاً تماماً . هل كان عليه أن يضع أسس الأممية الثالثة أو أن يحدد فقط الخطوات التمهيدية باتجاهها ؟ . كان البلاشفة يميلون الى التشكيل الفوري لأممية جديدة ، لكنهم كانوا يرغبون في سماع رأي المندوبين الأجانب . والألمان ، الذين كانوا الأكثر عدداً ، أكدوا أن المجموعات المتمثلة في المؤتمر ، باستثناء الروس ، ضعيفة للغاية فلا يمكن أن تساهم في تشكيل اممية حقيقية صلبة . إلا أن مندوباً نمساوياً ، وصل بعد رحلة ملأى بالمغامرات ، والنقاشات في أوجها ، رسم لوحة أخاذة لأوروبا تتخمر بالثورة كلياً ، وطلب إلى المؤتمر بشغف وحماس أن يرفع علم الأممية الجديدة . واستجاب المؤتمر التداولي لندائه واعلن عن نفسه مؤتمراً تأسيسياً للأممية الشيوعية . وهكذا ابصرت النور المؤسسة الكبرى ، من أب هو الشوق ، وأم هي الحيرة ، في حين لعبت الصدفة دور الولادة .

وقد تلازمت ولادتها مع جزر الثورة في أوروبا . ففي برلين تم سحق انتفاضة كانون الثاني / يناير ، وروزا لوكسمبورغ ، وكارل ليبكنخت اللذان قاداها على مضض ، تعرضا للاغتيال . كان تاريخ اوروبا يمر في منعطف ، فأي موجة من موجات السنوات التالية لم تكن لها قوة انتفاضة ١٩١٨ ولا انعكاساتها . وقد اقترف القادة البلاشفة خطأ عدم فهم أن الأمر يتعلق بانعطافة . هكذا لم يظهر لهم سحق انتفاضة برلين اكثر من وجه سيىء عرضي ، شبيه بذلك الذي عرفوه في تموز / يوليو ١٩١٧ ، لا بد أن يليه تفاقم للصراعات الاجتماعية . وحين استقبل لينين المندوبين الأجانب في الكرملين ، قال لهم : « لقد اصبحت الحرب الأهلية واقعاً ، لا في روسيا وحسب ، بل كذلك في بلدان اوروبا الرأسمالية الأكثر تقدماً ، في المانيا مثلاً . . . الثورة بدأت ، وهي تتعزز وتتقوّى في كل البلدان . . . فالنظام السوفياتي لم ينتصر في روسيا المتأخرة فقط بل كذلك في المانيا ، البلد الأوروبي الأكثر تطوراً ، وفي انكلترا ايضاً ، أقدم بلد رأسمالي »(٤) . كان لينين ضحية هذا الوهم ، مثله مثل تروتسكي ، لكن هذا الاخير الميّال للنبوءات المثيرة نادى به بصورة اكثر صخباً وبريقاً .

---

(٤) لينين ، سوش . ، ج ٢٨ ، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤ .

ويمكن التساؤ ل إذا كان لينين وتروتسكي عمدا آنذاك إلى تأسيس الأممية لو كانا اكثر تعمقاً بحقيقة الوضع في اوروبا . كانا في الأحوال كافة ، وبالتأكيد ، دافعا عن فكرة أممية جديدة ، كما سبق وفعلا منذ عام ١٩١٤ ؛ لكن ثمة مسافة بين تقديم فكرة وتخيّل تنفيذها الملموس . ففي فترة زيمرفالد وكيينتال ، كان لينين وتروتسكي ، يتخيلان كلاهما الأممية الجديدة لا كجهاز يمثل أقلية ثورية ومنافسة للأممية القديمة الاشتراكية ـ الوطنية ، بل كمنظمة تجمع أغلبية العمال وتقودهم ، وتحل محل الأممية القديمة . لقد اعلن تروتسكي بوضوح أنه إذا بقي الثوريون الماركسيون أقلية ، عليهم العودة إلى الأممية القديمة ليكونوا جناحها اليساري[٥] . لم يكن هنالك ما هو أبعد عن نواياه ، كما عن نوايا لينين ، من إضفاء العلامة المهيبة للأممية على تشكيلة من الشلل السياسية الصغيرة .

إلا أن هذا ما فعلاه في آذار / مارس ١٩١٩ . فمعظم المندوبين الذين جعلوا من أنفسهم آباء الكومنترن المؤسسين لم يكونوا يمثلون إلا مجموعات ماركسية أو مناصرة للسلام معششة في زوايا الحركة العمالية الاوروبية . هذا الواقع ما كان لينطوي على أهمية في وضع ثوري حقاً ، لأن المجموعة المتطرفة في هكذا وضع تكتسب عموماً نفوذاً سريعاً وتمسك بدفة القيادة . أما البلاشفة ، فلم يكونوا يعون تماماً مدى ضعف شركائهم الاجانب ، لكن حتى لو كانوا عكس ذلك لأملوا مع تقدم الثورة العالمية أن يزداد أولئك الشركاء قوة ، كما فعل البلاشفة الذين لم يكونوا يشكلون اكثر من طائفة صغيرة في بداية عام ١٩١٧ . وهذا الأمل كان له ما يبرره لا سيما أن الأممية الثانية كانت قد هوت الى حضيض من فقدان الاعتبار بحيث لم يعد ممكناً إحياؤ ها . إلا أن العداء العمالي المعمم للأممية القديمة لم يكن ناجماً عن موقف ثوري إيجابي بل عن رد فعل ضد الحرب والاشتراكية ـ الوطنية ، وهو ما لم ينتبه له البلاشفة ، بالطبع . مع ذلك ، لم تخب آمالهم كلياً ، ففي أقل من عام ، سوف تكسب الأممية الجديدة سطوة عظيمة ، لدى الحركة العمالية الاوروبية .

لم يظهر تروتسكي في مؤتمر التأسيس إلا لوقت قصير . كان كولتشاك أطلق هجوم الربيع ، وقد قطع تروتسكي جولة تفتيشه في ساحة القتال ليشارك في المؤتمر التداولي ، حيث تقدم بزيه العسكري ، وقد نزل لتوه من قطاره ، حاملاً معه نَفَساً من أنفاس الحرب الأهلية . أما المندوبون الذين عرفوه كناطق بلسان زيمرفالد ، فتطلعوا بفضول شديد الى المعادي للروح العسكرية بحماس وشغف ، وقد اصبح قائداً عسكرياً[٦] . شرح للجمعية

---

(٥) انظر الفصل الثامن .

(٦) أرتور رانسوم ، ستة اسابيع في روسيا ، ص ١٤٣ .

بسرعة الخطوط العريضة لسياسته العسكرية وعرض عليها بياناً معداً لتقديم الأممية الجديدة للعالم . كان البيان يبتدىء بلمحة سريعة وقاطعة عن التبدلات الطارئة حديثاً على صعيد الرأسمالية . وجوهر ما قاله تروتسكي هو ان الحرب أعلنت وفاة سياسة دعهم يفعلوا Laisser faire ، وميل الدولة الآن للسيطرة على الحياة الاقتصادية . هل ستكون تلك الدولة بورجوازية أو بروليتارية ، هذا هو السؤال . أما الاصلاحيون والاشتراكيون - الوطنيون فيتملصون من المشكلة ويدعون إلى التوفيق . « إذا لاقت خطاباتهم قبولاً لدى الطبقات العاملة سوف يتخذ التطور الرأسمالي أشكالاً جديدة ، اكثر تركزاً بكثير ، ومخيفة ؛ سوف يقوم على جثث اجيال عديدة ، مع ما يلازم ذلك من منظور حرب عالمية جديدة . ولحسن حظ البشرية ان هذا مستحيل »[7] . واضاف تروتسكي انه اذا انتصرت الاشتراكية في اوروبا ، فسوف تحرر ايضاً كل الأمم المستعمرة وتضع في خدمتها تقنيتها ، وتنظيمها وتأثيرها الروحي ، لتسمح لها بالارتفاع بصورة أسرع الى اقتصاد من النمط الاشتراكي : « ايها العبيد المستعمرون في آسيا وافريقيا ، ستكون ساعة ديكتاتورية البروليتاريا في اوروبا ، ساعة تحرركم . » . كان البيان يختلف عن التأكيدات الأولى الكلاسيكية للسياسة الماركسية ، من حيث كونه يشدد على ديكتاتورية البروليتاريا ، ودور الحزب الثوري ، والعداء المجاهر به للديمقراطية البورجوازية . لم يكن الأمر يتعلق ، والحالة هذه ، بفروق في المبادىء ، لكن فكرة تحالف بين الثورة الاشتراكية الغربية وشعوب الشرق المستعمرة كانت أمراً جديداً تماماً . كانت فكرة تحمل سمة الأممية الثالثة ؛ ومع ذلك كان البيان يتوجه قبل كل شيء إلى اوروبا :

« كل العالم البورجوازي يتهم الشيوعيين بتدمير الحرية والديمقراطية السياسية ، لكن هذا الاتهام لا أساس له . فباستيلاء البروليتاريا على السلطة تكتشف فقط أن من المستحيل تماماً تطبيق . . . الديمقراطية البورجوازية ، وتخلق الشروط والأشكال الخاصة بديمقراطية عمالية جديدة واكثر رقياً . . . ان احتجاجات البورجوازيين ضد الحرب الاهلية والارهاب الأحمر هي اكبر نفاق في التاريخ . . . فما كانت حرب اهلية حدثت لو أن زمر المستغِلين الذين قادوا البشرية الى حافة الكارثة ، لم يعترضوا أقل خُطوة الى الامام يخطوها الشغيلة ، ولو لم ينظموا مؤامرات واغتيالات ويطلبوا المساعدة المسلحة من الخارج . . . إن الاحزاب الشيوعية ، التي لا تتسبب ابداً بحرب اهلية بوسائل اصطناعية ، تحاول أن تختصر قدر الامكان طول حرب كهذه . . . وان تخفف عدد الضحايا ،

(٧) تروتسكي ، سوش . ، ج ١٣ ، ص ٣٨ - ٤٩ .

وان تضمن ، فوق كل شيء ، انتصار الطبقة العاملة » .

كانت الأممية أبعد ما تكون عن تشكيل تجمّع متآمرين أو عن التخلي عن تراث الاشتراكية الاوروبية ، وقد اعلنت عن اعتزازها بكونها وريثة « الجهود البطولية لسلسلة طويلة من الثوريين ، من بابوف الى كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ ، ولاستشهادهم »[٨] .

لم يمر شهر على نشر البيان حتى كانت الثورة تتوطد في نقطتين مهمتين من اوروبا الوسطى : فقد اعلنت المجر وبافيير عن نفسيهما جمهوريتين سوفياتيتين . وعلق البلاشفة عليهما اكبر الآمال ، فمن ميونيخ وبودابست لا بد أن تصل الثورة سريعاً الى برلين وفيينا . وقد بلغت الانباء تروتسكي وهو يشن هجوماً على جبال الاورال ، وهنالك ، على أبواب آسيا ، حيّا تلك الاحداث التي بدت كوعد بأن خلاص الثورة آتٍ من الغرب . وفي الـ « تأملات حول مجرى الثورة البروليتارية » ، التي كتبها تحت تأثير تلك الأحداث يلاحظ ما يلي : « كانت الكنيسة تقول في الماضي : Ex Oriente Lux . . . أما في عصرنا ، فقد بدأت الثورة في الحقيقة ، في الشرق » ، لكن « الثورة التي نجتازها هي ثورة بروليتارية ، والبروليتاريا الأقوى والأكثر تنظيماً والأكثر استنارة توجد في البلدان الرأسمالية القديمة » . إلا أنه كان هنالك ما يشبه الحدس المشؤوم في التفسير الذي اعطاه لمجرى الاحداث الغريب . فقد كانت المجر المنطقة الاكثر تخلفاً في الامبراطورية النمساوية ـ المجرية ، وكانت بافيير المقاطعة الالمانية الاكثر تأخراً . وفي بافيير كما في المجر ، كان الفلاحون هم الذين يسيطرون ، لا العمال ؛ كما أن البلدين كانا يُعتبران عادة معقلين للرجعية ، فكيف أمكن أن تشق الثورة لنفسها طريقاً فيهما لا في مراكز الاشتراكية الاوروبية ؟ .

كان جواب تروتسكي انه إذا كانت بروليتاريا ذينك البلدين المتأخرين ضعيفة ، فطبقاتهما الحاكمة أكثر ضعفاً . « يتقدم التاريخ على امتداد الخط الأقل مقاومة ، والعصر الثوري قام بفتوحاته عن طريق تحطيم الابواب الأقل إرتاجاً » . والاستعارة تكشف بوضوح المعنى العميق لفكرة تروتسكي ، فهو لم يكن يشك في ان الثورة ستدخل الى قلب القلعة : « موسكو اليوم هي مركز الأممية الثالثة ، وقناعتنا العميقة ان هذا المركز سينتقل غداً نحو الغرب ، نحو برلين وباريس ولندن . لقد استقبلت البروليتاريا الروسية بفرح ، بين جدران الكرملين ، مرسلي الطبقات العاملة العالمية ؛ وبفرح أعظم أيضاً ، سوف

---

(٨) تروتسكي ، سوش . ، ج ١٣ ، ص ٣٨ ـ ٤٩ .

ترسل مندوبيها الى المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية في احدى عواصم اوروبا الغربية . إن مؤتمراً أممياً في برلين أو في باريس سيعني الانتصار الكامل للثورة البروليتارية في أوروبا ، وبالتالي في العالم اجمع . . . ويا لسعادة العيش والكفاح في أيام كتلك »[٩] .

لم تمر ثلاثة اشهر على هذا الكلام حتى كانت كل هذه الآمال العظام تتبدد كالدخان في الريح . فبافيير السوفياتية سقطت تحت ضربات الجنرال هوفمان خصم تروتسكي في بريست ، وكان الارهاب الابيض يسيطر على انقاض المجر السوفياتية . وقد شهد عمال برلين وفيينا هزيمة الكومونتين دون أن يتحركوا . بدت المانيا والنمسا ، أي كل اوروبا ، في حالة الوصول الى توازن جديد ذي طابع محافظ ، بعد توقيع معاهدة فرساي . وتطابقت تلك الأحداث مع أسوأ لحظات الحرب الاهلية ، فالتدخل الفرنسي ـ الانكليزي كان في أوجه ، وكان دنيكين يستولي على اوكرانيا ويتقدم نحو موسكو .

كانت تلك فترة مثيرة من تاريخ البلشفية . فبالاضافة إلى أن التدخل المعادي للسوفيات كان يزداد حدة ولا يصادف ، مؤقتاً ، إلا القليل من المعارضة الفعالة من جانب الطبقات العاملة الغربية ، أو لا يصادف أي قدر منها ، وبالاضافة إلى أن الثورة خسرت رأسي جسريها في أوروبا الوسطى ، كانت تتعرض في روسيا بالذات للخطز الاكبر المتمثل باحتمال خسارة مقاطعاتها الغربية والوسطى ، الغنية والمتمدنة نسبياً ، والاضطرار للانسحاب الى صحارى الشرق ، المكان الوحيد الذي كانت نتائج المعارك فيه ملائمة للجيش الأحمر . لكن إذا كان الحظ يعبس في وجه البلاشفة في الغرب ، فقد كان يقدم لهم فرصاً جديدة في الشرق . كان هنالك أولاً سلسلة جبال الأورال حيث يمكن للسوفييتات ان تلجأ وتحظى بالأمن الكامل . لكن ما وراء الأورال وسيبيريا ، بوجه خاص ، كانت آسيا تتمرد على البورجوازية الغربية . ففي الهند كادت حملة العصيان المدني التي قادها غاندي تتحول الى انتفاضة قومية واسعة ضد الانكليز . تلك السلسلة من الأحداث حركت خيال تروتسكي وخرطته في اتجاه مثير للفضول .

ففي ٥ آب / أغسطس ١٩١٩ ، ارسل تروتسكي من الجبهة مذكرة سرية الى اللجنة المركزية طالباً « إعادة توجيه »جذرية للسياسة الدولية . وقد أوضح ان الثورة جرى دفعها نحو الشرق مما يوجب إذاً تحويل انظارها نحو الشرق . وأكد ايضاً ان الثورة في اوروبا قد تتم خلال سنة أو خمس سنوات فقط ؛ وقال ان دنيكين لن يتمكن من تعزيز سيطرته على اوكرانيا ، أما الآن فلا يمكن للجيش الأحمر أن يلعب غير دور ضئيل في

(٩) المرجع المذكور ، ص ١٤ ـ ٣٠ .

اوروبا ، سواء كقوة هجومية أو كقوة دفاعية ، لكن أبواب آسيا مفتوحة في وجهه . وفي آسيا لن يكون على الجيش الأحمر أن يكبح غير القوات اليابانية ، قليلة العدد للغاية بالنسبة للمساحات السيبيرية ، وسوف تحول الغيرة الاميركية دون توسع اليابان(١٠) . وأضاف تروتسكي ان وزن النظام السوفياتي في آسيا عظيم لدرجة أنه ليس في مقدور البلاشفة أن ينتظروا تطور الوضع في اوروبا وحسب ، بل كذلك أن يبذلوا في الشرق نشاطاً مكثفاً .

وبمعرض كلام تروتسكي الخالي من الأوهام حول الأممية التي تأسست للتو ، طرح الفرضية القائلة ان جهازاً يقود الثورة في آسيا يمكن أن يظهر في مستقبل قريب ، اكثر فائدة من الهيئة التنفيذية للكومنترن ، وأنه يمكن للجيش الأحمر أن يجد طريق الهند أقصر واسهل من طريق المجر السوفياتية . فقد عرض عليه « رجل خبير في المسائل العسكرية » خطة لتكوين حملة عسكرية من الخيّالة يمكن أن تعمل في الهند . وكان تروتسكي يردد أن طريق الثورة الفرنسية او الانكليزية يمكن ان تمر في كابول وكلكوتا وبومباي ، وقد طلب النظر بأقصى الالحاح في الاقتراحات التالية : إنشاء قاعدة صناعية في الأورال لجعل السوفييتات مستقلة عن حوض الدونيتز ، سريع العطب من الناحية الاستراتيجية ؛ فتح اكاديمية عسكرية في الأورال أو التركستان ؛ تكوين كادرات عسكرية لقيادة النضال في آسيا ؛ وينبغي تجنيد تقنيين ومخططين ولغويين ، واختصاصيين آخرين ، للقيام بهذا العمل ، لا سيما بين الشيوعيين الاوكرانيين الذين اصبح عليهم ، بعد خسارة اوكرانيا ، ان يساعدوا الثورة على الاستقرار في سيبيريا (١١) .

لم يكن لتلك الاقتراحات اكثر من علاقات قليلة بما تم فعله ، وما يمكن ان يتم فعله ، لتحاشي كارثة عسكرية . ولقد ضم تروتسكي إلى مذكرته رسالتين أخريين أورد فيهما اقتراحات مفصلة لإعادة تنظيم الجبهة الجنوبية . ويمكن الافتراض أن المكتب السياسي اهتم في العاجل بهذه الاقتراحات الاخيرة اكثر مما اهتم بـ « التوجيه الجديد في آسيا »(١٢) . زد على ذلك ان افكار تروتسكي الآسيوية لم يكن لها جذور عميقة في ذهنه ، فقد كانت رد فعل ثقافياً محتدماً على توافق ظروف استثنائية ، ورد الفعل هذا كان يتعارض

(١٠) قال تروتسكي ان الولايات المتحدة تخاف السيطرة اليابانية في سيبيريا الى حد ان « تعساء واشنطن » (مع أنهم استخدموا كولتشاك عميلاً لهم) يمكن أن يعقدوا العزم على دعم السوفييتات ضد اليابان . وبعد ذلك بوقت قصير ، اعطى لينين ، هو الآخر ، اهمية كبرى للخصومة بين اميركا واليابان . لينين ، سوش . ، ج ٣١ ، ص ٤٣٣ - ٤٤٠ .

(١١) محفوظات تروتسكي .

(١٢) يمكن أن نقع على تأثير افكار تروتسكي بالطبع في اعمال المؤتمر الثاني للكومنترن وفي أعمال مؤتمر شعوب الشرق الذي تم في باكو ، بعد ذلك بعام .

مع التوجه الاساسي ، الاوروبي . إلا أنه منوّر جداً ومفيد بما يخص المستقبل ، ففي سياق أقل حدة ، تواصلت الظروف التي ولّدت افكار تروتسكي الأسيوية ، لا سيما القطيعة بين روسيا والغرب ، وتباعد منظورات الثورة في اوروبا ، تواصلت بعد نهاية حرب التدخل والحرب الاهلية ، بحيث سيكون للقادة السوفيات رد فعل مطابق بخطوطه العريضة لرد فعل تروتسكي . سوف تنتقل مراكز السلطة السوفياتية نحو الشرق ، حتى الاورال وما بعده ، إلا أن ستالين ، لا تروتسكي ، هو الذي سيكون الفاعل الرئيسي لهذا الانتقال الجوهري ، الذي ما كان بإمكانه إلا أن يؤدي الى « تشريق » للمناخ السياسي والفكري للثورة ، تشريق ما كان أمكن تروتسكي أن يتمثله . إن طريق الثورة الى بكين وشانغهاي ، إذا لم يكن إلى بومباي وكلكوتا ، سوف تظهر أقصر من الطريق الى باريس ولندن ، واسهل بالتأكيد من طريق الثورة إلى برلين أو حتى بودابست . إنه برهان على الخصوبة الفكرية لدى تروتسكي ان يكون تمكن في ومضة بارقة من فتح منظورات على المستقبل تتخطى بعيداً فهم معظم معاصريه .

وقبل نهاية عام ١٩١٩ ، تمكن البلاشفة مجدداً من التطلع الى اوروبا مفعمين بالأمل . فأوكرانيا والمقاطعات الجنوبية في روسيا الاوروبية تم تحريرها . وكانت الجيوش البيضاء تنتظر رصاصة الرحمة . وكانت معارضة الحركة العمالية الاوروبية بدأت أخيراً تضايق التدخل الفرنسي ـ الانكليزي جدياً ، ولم يبق الشك يحوم إلا على العلاقات مع بولونيا . كانت فرنسا تدفع بولونيا لتلعب دور رأس الحربة في الحملة الصليبية المعادية للسوفيات . لكن بيلسودسكي الذي اضحى سيد بولونيا ، دون أن يكون ديكتاتورها بعد ، تبنى موقفاً ملتبساً . فقد كان يطمح الى غزو اوكرانيا ، حيث كانت الارستقراطية الارضية البولونية تملك مساحات شاسعة ، وخلق اتحاد بولوني ـ اوكراني تحت سيطرة بولونيا . لكنه اجل تنفيذ خطتّه طالما القوات البلشفية تقاتل الحراس البيض ، لأنه لم يكن يجهل ان انتصار دنيكين أو يودنيتشس يعني نهاية الاستقلال البولوني . لقد عقد هكذا اتفاقية وقف للنار شبه رسمية مع البلاشفة ، من غير علم الفرنسيين الذين كانوا يسلحون جيشه ويجهزونه ، وامكن الاعتقاد إذاك أن وقف النار هذا سيؤدي الى هدنة والى صلح . وفي تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٩ ، نظر المكتب السياسي في شروط تسوية اقترحها البولونيون ، واعتبروا الشروط مقبولة ؛ وقد تم تكليف تروتسكي وتشيتشرين بدراسة الموضوع بالتفصيل[١٣] .

كان القادة البلاشفة مقتنعين بقرب السلام لدرجة أنهم حولوا الى جيوش عمل تلك

(١٣) أنظر المقتطفات من محاضر المكتب السياسي ، جلسة ١٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٩ في محفوظات تروتسكي .

التي لم تكن منخرطة في اعمال قتالية . وفي ١٦ كانون الثاني / يناير ١٩٢٠ ، رفع الحلفاء حصار روسيا . وفوراً بعد ذلك ، أصدرت الهيئة التنفيذية المركزية للسوفييتات مراسيم بالاصلاحات المذكورة من قبل ، أي إلغاء عقوبة الاعدام والتضييق من سلطات التشيكا . إلا أنه بعد أيام من ذلك الحين ، في ٢٢ كانون الثاني / يناير ، اوضح تروتسكي للمكتب السياسي ان هناك مجالاً للتخوف من كون بيلسودسكي يستعد للحرب[١٤] ، وقد عمل بتشجيع من لينين على تعزيز الجيوش الحمراء على الجبهة البولونية[١٥] .

في بداية آذار / مارس ، بدأ البولونيون عملهم . وقد سارع تروتسكي الى موسكو ، بعد أن كان يفتش جيوش العمل في الأورال . وجرى وقف العمل بالاصلاحات السلمية أو الغاؤها ، بينما عاشت البلاد ، مرة اخرى ، مناخ الحرب .

وبالمناسبة ، علينا أن نشير الى ان تروتسكي كان من انصار سياسة حازمة وعنيدة حيال بولونيا . فطوال اشهر عديدة ، قدم تشيتشرين ، عبثاً ، عروضاً للسلام مع فارصوفيا ، مقترحاً تسوية ملائمة لبولونيا للغاية بما يخص موضوع الحدود . وقد واصل تشيتشرين تقديم عروض توفيقية حتى بعد بداية الهجوم البولوني . لكن تلك المساعي اثارت معارضة شديدة داخل المفوضية للشؤون الخارجية ، لا سيما من جانب ليتفينوف ، مساعد المفوض . أما تروتسكي فتدخل ودعم ليتفينوف بحزم ، وطلب الى المكتب السياسي وقف أي عرض للصلح . ولم يجد بيلسودسكي في ذلك إلا علامات ضعف لدى السوفييتات ، ولما كانت عروض الصلح تمت سراً لم يكن بالامكان ان ينجم عنها دفع الرأي العام البولوني باتجاه السلام . فطلب تروتسكي العودة الى الدبلوماسية العلنية التي ستسمح للشعب البولوني بأن يفهم من المسؤول الحقيقي عن تفجير الاعمال العدوانية . ووضع بيلسودسكي حداً للنقاش ، لأنه وجد حجة بعد وقت قصير لقطع المفاوضات واكتسح اوكرانيا واستولى على كييف . وفي أول أيار / مايو ١٩٢٠ ، طلب تروتسكي الى الجيش الأحمر ان يوجه للغازي ضربة « تدوي في شوارع فارصوفيا والعالم اجمع » .

هز الغزو البولوني روسيا بعمق . فللمرة الأولى ، لم يكن البلاشفة يدعون الى الحرب الاهلية بل الى حرب قومية . والأكيد هو ان تلك الحرب كانت بالنسبة اليهم حرباً ضد « المالكين والرأسماليين البولونيين » ، حرباً أهلية تحت ستار حرب قومية . لكن الثابت ايضاً هو ان النزاع فجر ردود فعل وطنية وانفعالات شوفينية افلتت من رقابتهم .

---

(١٤) رسائل من تروتسكي الى زينوفييف ولينين وكريستنسكي ، في المحفوظات .

(١٥) رسالة في النصف الثاني من شباط / فبراير ، محفوظات .

فبالنسبة للعناصر المحافظة في روسيا ، كانت تلك حرباً ضد العدو الوراثي الذي لم يكن بإمكانهم تحمل عودته الى الظهور بشكل امة مستقلة ، حرباً روسية بحق ، حتى لو قادها اميون بلاشفة . وبالنسبة للأورثوذكسيين من الطقس اليوناني ، كان ذلك نضالاً ضد شعب لم يكن يمكن اصلاح اخلاصه للكاثوليكية الرومانية ، وحملة صليبية مسيحية حتى لو قادها شيوعيون ملحدون . وبعض تلك العناصر المحافظة كانت متضامنة مع الحراس البيض ، لكن لما كان الحراس البيض قد تحطموا شر تحطيم ، فقد كانت تبحث عن ذريعة تسمح لها بالقفز الى العربة السوفياتية دون أن تفقد وجهها ، وجه الوطنيين والاورثوذكسيين ، وكان الغزو البولوني هو تلك الذريعة . وقد قاد حركة لم الشعث الجنرال بورسيلوف الذي كان قائداً عاماً في ظل النظام القديم ، فوضع نفسه بتصرف تروتسكي ودعا كل الروس الطيبين ليحذوا حذوه . هكذا كانت الحرب تضيف الى ألوانها الثورية تلاوين قومية ؛ وقد فعلت قوات بيلسودسكي الكثير لإيقاظ المشاعر المعادية للبولونيين ، فكان سلوكها في أوكرانيا متعجرفاً ، وأعادت للملاكين البولونيين ملكياتهم القديمة ، وطبعت انتصاراتها بأعدامات للأسرى ومذابح لليهود .

كان الارتفاع على موجة وحدة قومية تجربة جديدة ومزعجة بالنسبة للبلاشفة ؛ وقد حاول تروتسكي إعادة تأكيد مفاهيم الحزب الأممية . استقبل تظاهرات التضامن التي ابداها بورسيلوف حيال الجيش الأحمر بصورة ايجابية ، لكنه أدان علناً تصريحاته الشوفينية والمعادية للكاثوليك[١٦] . وحين راجت الاشاعة القائلة بأن بورسيلوف سيقود فيالق الجيش الأحمر المكلفة بقتال البولونيين ، سارع تروتسكي الى تكذيبها معلناً ان قوات جبهة بولونيا ستكون بقيادة توخاتشيفسكي وييغوروف ، اللذين برهنا ، خلال الحرب الاهلية ، عن اخلاصهما للمثل الأعلى الأممي للثورة . وفي أوج أعمال القتال ، أصدر قراراً علنياً بحظر فينوي ديلو (القضايا العسكرية) ، مجلة هيئة الاركان العامة ، التي استخدمت في مقال حول بيلسودسكي تعابير « مهينة للكرامة القومية للشعب البولوني » ، ثم أمر باجراء تحقيق لكي لا يكلف المذنبون بعد اليوم « بعمل يسمح لهم بممارسة تأثير على ذهن الجيش الأحمر »[١٧] . (ثمة شيء مغلوط تاريخياً في نبل هذا السلوك ، في عصر يتهم فيه رجال الدولة والكتّاب « المتمدنون » ، في زمن الحرب ، الطابع القومي للشعب المعادي بالوحشية والبهيمية واللاإنسانية) . وخلال جولات تروتسكي على الجبهة ، كان عليه أن يتحكم بسخط الجيش الذي علم بأن البولونيين يعدمون أسرى الحرب . وقد شرح

(١٦) تروتسكي ، سوش . ، ج ١٧ ، ك ٢ ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(١٧) كاك فوروجالاس ريفولوتسيا ، ج ٢ ، ك ٢ ، ص ١٥٣ .

لجمعيات من الجند على الجبهة قائلاً إنه حتى العدو لا ينبغي ثلبه وتشنيعه . ومنع منعاً باتاً ممارسة أي اعمال انتقامية ضد الأسرى البولونيين ؛ ففي أمر يوم وَرَدَ ما يلي : « فلتقطع يد الجندي في الجيش الأحمر الذي يرفع سكيناً بوجه اسير حرب ، أو رجل منزوع السلاح ، أو مريض ، أو جريح » . فجندي الجيش الأحمر الذي لا يلين في احتدام القتال ، ينبغي ان يبدو شهماً حيال الاعداء الأسرى وغير القادرين على الدفاع عن انفسهم[١٨] .

لم يكن لانتصار بيلسودسكي في اوكرانيا مستقبل . فقد كفت عدة اسابيع من الاحتلال البولوني لينتفض الفلاحون الاوكرانيون ضد الغزاة . وعززت جيوش توخاتشيفسكي في القطاع الشمالي من الجبهة ، وجيوش ييغوروف في القطاع الجنوبي فرقٌ كانت تقاتل دنيكين وكولتشاك حتى ذلك الحين . والجيش الأحمر كان الآن في أوج قوته ، رغم تجهيزه البائس ؛ فقبل نهاية الحملة سيصل تعداده إلى خمسة ملايين رجل . وفي ١٢ حزيران / يونيو ، استعاد البلاشفة كييف ، وتقهقرت قوات بيلسودسكي بشكل فوضوي نحو حدود بولونيا الإثنية .

إذاك بالذات ، جاءت نزاعات سياسية مهمة تعقّد مسار الحرب . وكان بعض تلك النزاعات يتعلق بعلاقات روسيا مع انكلترا ، وبعض آخر يتعلق بموقفها حيال بولونيا ، وكانت المشكلتان تتلاقيان في بعض النقاط .

لقد أضعفت معارضة الحركة العمالية الانكليزية للتدخل وهزيمة الحراس البيض المعسكر التدخلي بقيادة ونستون تشرشل . وكانت الحكومة الانكليزية منقسمة لأن الوزير الأول لويد جورج كان يريد انهاء التدخل وإعادة العلاقات التجارية مع روسيا . وفي نهاية أيار / مايو ١٩٢٠ غادرت بعثة تجارية سوفياتية ، بقيادة كراسين ، موسكو إلى لندن ؛ ثم تعزز المعسكر التدخلي مؤقتاً بفعل انتصارات بيلسودسكي . وكان المكتب السياسي مقتنعاً بأن الحكومة الانكليزية ، مثلها مثل الحكومة الفرنسية ، تدعم بيلسودسكي بدون تحفظ . وقد حاولت المفوضية للشؤ ون الخارجية والكومنترن الانقلاب ضد المواقع البريطانية في آسيا ، لا سيما في فارس وافغانستان ، حسبما كان اقترح تروتسكي في العام السابق ، إلا أن السياسة الانكليزية بدت حائرة من جديد : كانت معارضة الحركة العمالية للتدخل منفلتة من عقالها ، كما ان هزيمة البولونيين بيّنت مرة اخرى ، في كل حال ، سخافة التدخل . وفي ١١ تموز / يوليو ، عرض اللورد كورزون ، وزير الخارجية الانكليزي ، وساطة حكومته بين السوفييتات وبولونيا ، كما بين السوفييتات

(١٨) تروتسكي ، سوش . ، ج ١٧ ، ك ٢ ، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٥ .

وبقايا جيش دنيكين التي انسحبت الى القرم ، بقيادة البارون رانغل .

خلال شهري حزيران / يونيو وتموز / يوليو ، بذل المكتب السياسي والمفوضية للشؤون الخارجية جهدهما لتمييز التوجه الحقيقي للسياسة البريطانية . وتدخل تروتسكي في النقاشات باستمرار ووجد نفسه معارضاً للأكثرية . وهذه المجادلة تركت آثاراً واضحة جداً في الرسائل السرية التي بعث بها تروتسكي الى تشيتشرين ولينين واعضاء آخرين في المكتب السياسي ، كما في الملاحظات المقتضبة التي كتبها لينين بيده ، والتي نجدها في **محفوظات تروتسكي** . وفي مذكرة بتاريخ ٤ حزيران / يونيو ، يطلب تروتسكي بإلحاح تبني موقف مصالح حيال انكلترا . وقد أوضح ان انكلترا لا تتبع بصدد التدخل سياسة واحدة وحازمة بوضوح ، وان من مصلحة السوفييتات ان تبقى مترددة . فلو حاولت السوفييتات تنظيم عصيانات معادية للانكليز في الشرق الأوسط ، واكثر من ذلك ، لو أرسلت إلى هنالك حملة عسكرية ، سوف يتجمد الانكليز في موقف عداء لا يلين تجاه السوفييتات . وقال إنه أولى في آب / أغسطس الماضي أهمية كبرى للحركات الثورية في آسيا ، لكنه أصبح اليوم قادراً على القول على ضوء معلومات حديثة ، ان تلك الحركات الثورية ، في الشرق الأوسط على الأقل ، تفتقر إلى قوة جوهرية ذاتية[١٩] . كان على البلاشفة أن يشجعوا هناك الدعاوة الثورية والعمل السري ، لكن مع تحاشي أي عمل يمكن ان يجرهم الى عمليات عسكرية تنطوي على مخاطر . كان عليهم ، في أفضل الأحوال ، أن يستعينوا بالتهديد بثورة في الشرق الأوسط كورقة رابحة في مساوماتهم الدبلوماسية مع بريطانيا العظمى . لكن كان عليهم أيضاً أن يستنحوا كل فرصة لإقناعها برغبتهم في التوصل لاتفاق في الشرق .

على هامش تلك الوثيقة ، دوَّن لينين ملاحظة ساخرة تقول : إن تروتسكي ، مثله مثل كراسين ، منخدع بخصوص السياسة الانكليزية : فهذه الاخيرة تتبع خطاً حازماً ودقيقاً ، ومن « الواضح تماماً » ان انكلترا كانت تساعد البولونيين ورانغل وتواصل مساعدتهم[٢٠] .

في تموز / يوليو ، اعيدت المشكلة إلى بساط البحث ، بعد عرض الوساطة الذي قدمه اللورد كورزون ؛ وقد أعلم لينين تروتسكي الذي كان على الجبهة بالعرض ،

(١٩) اضاف تروتسكي أنه حتى في اذربيجان السوفياتية ، في القوقاز ، التي كانت فيها طبقة عاملة كبيرة العدد ، وكانت مرتبطة بروسيا منذ زمن طويل ، لم يكن النظام السوفياتي يقف لوحده على قدميه .

(٢٠) يظهر قرار للمكتب السياسي ، مؤرخ ايضاً في ٤ حزيران /يونيو ان المكتب كان يعتقد ايضاً بوجود تواطؤ بين بيلسودسكي والحكومة الالمانية .

فأجاب تروتسكي في اليوم ذاته برسالتين ، احداهما الى تشيتشرين والاخرى للمكتب السياسي ، لمطالبتهما بقبول الوساطة الانكليزية بين روسيا وبولونيا وبالسعي لعقد هدنة تؤدي الى الصلح مع الحلفاء كما مع بولونيا[٢١] . ونصح المكتب السياسي مرة اخرى بأن يأخذ بالحسبان ، وبالكثير من العناية ، الاتجاهات المختلفة في السياسة الانكليزية[٢٢] .

رفض المكتب السياسي اقتراحات تروتسكي ، والعرض الانكليزي ، بالطبع . ومن الغريب أن تروتسكي هو الذي تم تكليفه بإبلاغ اللورد كورزون الرفض ، وقد اضطلع بهذه المهمة بنزاهة ، بمقتضى مبدأ التضامن الوزاري . هكذا ، في بيان يلتمع بالسخرية ، حيث ما كان في وسع أحد أن يكتشف ادنى تحفظ ذهني ، شرح كيف أن الحكومة البريطانية ، التي تورطت في التدخل ، هي طرف في النزاع ولا يسعها إذاً أن تلعب دور مُوَفِّق غير متحيّز[٢٣] .

هذا الخلاف بين تروتسكي ولينين لم يكن يتعلق ، بعد كل شيء ، بغير التكتيك الدبلوماسي ، لكنه كان يعيد الى خلاف آخر اكثر جوهرية بكثير . ففي حين رفض لينين اقتراحات كورزون ، طلب « تسريعاً عنيفاً للهجوم ضد بولونيا » ، وهو ما كان تروتسكي يعارضه . فالجيش الأحمر استعاد كل مقاطعات اوكرانيا وبييلوروسيا ، وكان يقف تقريباً على خط كان اقترحه اللورد كورزون ، في الفترة التي كان لا يزال يعتمد فيها على انتصار دنيكين ، كحدود بين بولونيا وروسيا . وكان تروتسكي يريد ألا يتخطى الجيش الأحمر ذلك الخط وأن تقدم السوفييتات علناً عروض سلام . أما لينين واكثرية المكتب السياسي فكانوا يريدون ان يتابع الجيش الأحمر تقدمه في بولونيا حتى فارصوفيا لا بل ما بعدها .

ومرة أخرى ، كان التداخل بين السياسة والاستراتيجية في مركز الجدال ، فقد كانت هنالك مخاطرة عسكرية في اقتراح تروتسكي ، إذ ان بيلسودسكي لم يكن عازماً على الارجح ان يعترف بخط كورزون كحدود ، وكان يمكن أن يستخدم الهدنة لاعداد هجوم جديد . وكان تروتسكي يرى ضرورة اتخاذ تلك المخاطرة ، فقد كان يعتقد بوجود منافع سياسية وأخلاقية للحل الذي ينادي به ، وأخطار ملازمة للحل الذي يراه لينين . وكان يؤكد أن عرضاً علنياً وصريحاً للصلح يُظهر أنه لم يكن للسوفييتات أية رغبة في الاساءة الى

---

(٢١) مع ذلك كان تروتسكي ضد أي وساطة في النزاع بين السوفييتات ورانغل ، لأن هذا النزاع كان شأناً داخلياً روسياً .

(٢٢) طلب تروتسكي ، بوجه خاص ، استشارة تيودور روتستاين ، الماركسي الروسي ـ الانكليزي المرموق ، حول وضع الرأي العام الانكليزي .

(٢٣) تروتسكي ، سوش . ، ج ١٧ ، ك ٢ ، ص ٤٢٦ .

استقلال بولونيا ، ولم تكن تطمع في أي جزء من أرضها ، وهو ما يمكن أن يؤثر إيجابياً على الشعب البولوني . فإذا تجاوب بيلسودسكي مع عروض الصلح ، يكون كل شيء على ما يرام ، وفي حالة العكس ، سيعرف الشعب البولوني والعالم من هو المسؤول الحقيقي عن مواصلة الحرب . وأوضح تروتسكي ان تقدم الجيش الأحمر الى فارصوفيا ، من دون عرض أولي للصلح ، سوف يدمر الصداقة بين الثورة الروسية والشعب البولوني ويخدم مصالح بيلسودسكي . وكانت حجة تروتسكي أن القياصرة سيطروا على الجزء الأكبر من بولونيا منذ حوالى قرن ونصف ، ولم يمر عامان بعد على استعادة البولونيين لاستقلالهم الذي ضمنته لهم الثورة الروسية رسمياً . إن جيشاً روسياً يكتسح الأرض البولونية ، حتى رداً على استفزاز من جانب بيلسودسكي ، حتى وهو يسير خلف الراية الحمراء ، سيبدو للبولونيين الوريث المباشر لتلك الجيوش القيصرية التي استعبدتهم ، هم وآباؤهم واجدادهم . عند ذلك سوف يستبسل البولونيون في الدفاع عن أرض بلادهم[٢٤] .

أما لينين فلم يكن يشعر بتلك الوساوس ، ولا بتلك الحدوس . فبيلسودسكي هو الذي لعب دور المعتدي بصورة متعمدة ومكشوفة ، بينما بذل لينين كل جهوده لتحاشي الحرب . والآن ، بعد أن أصبحت نتائج القتال لصالح الجيش الأحمر ، فمن حقه وواجبه ، حسب اعتقاد لينين ، ان يقطف ثمار النصر . فما من جيش ظافر ، تسيّره قيادة حكيمة ، يتوقف في منتصف الطريق وهو يطارد جيشاً شبه منهزم . ما من مبدأ أخلاقي ، سياسي أو استراتيجي ، يحظر على جيش مطارد أن يدخل إلى أرض الغزاة .

لم يكن ذلك كل شيء ، بل كان لينين يعتقد أن العمال والفلاحين البولونيين سيستقبلون الغزاة كمحررين . فقد كان لدى كل القادة البلاشفة ، ومن بينهم تروتسكي ، فكرة مشوشة حول الوضع في بولونيا . ذلك انه كان من نتائج الحصار قطع روسيا عن جارتها ، بشكل كلي ، كما لو كانت على بعد آلاف الكيلومترات . كانوا يعرفون أنه تواجدت في بولونيا سوفييتات كان للشيوعيين نفوذ قوي ضمنها ، وكانوا يعتقدون أن تلك السوفييتات لا تزال موجودة . لكن معلوماتهم كانت تعود لأكثر من عام ، ومنذ ذلك الحين ، تغير الوضع في بولونيا كما في سائر بلدان اوروبا الوسطى ، فبيلسودسكي سحق السوفييتات ووجه للحزب الشيوعي ضربة صارمة[٢٥] . كانت تعيش في موسكو مجموعة

(٢٤) كان ذلك هو رد فعل الأمم البلطيقية الصغيرة أيضاً . فخلال السنة بكاملها ، طلب تروتسكي الى المكتب السياسي عقد الصلح مع كل تلك الأمم . وهو ما تم بالفعل (محفوظات تروتسكي) .

(٢٥) حتى عام ١٩٢٠ ، تكلم تروتسكي على اهمية السوفييتات البولونية ، معتقداً انها لا تزال موجودة . انظر سوش . ، ج ١٥ ، ص ٣٠١ .

من الاشتراكيين البولونيين المرموقين ، الذين التحقوا بالبلشفية ، وهم الذين استشارهم المكتب السياسي . كان البولونيون منقسمين بشكل غريب : فرادك ومارشليفسكي ، ودزرجنسكي ، على ما يبدو ، الذين انتموا للجناح الامي في الاشتراكية البولونية ، ولم يؤمنوا بقيامة بولونيا كدولة قومية ، حذروا يومذاك المكتب السياسي من ان غزواً يقوم به الجيش الأحمر قد يصطدم بانفلات جبار للنزعة الوطنية البولونية . وكان هذا التحذير ، جزئياً ، هو الذي حدد موقف تروتسكي . اما لينين فيظهر أنه تأثر اكثر بتقرير للابنسكي ، الذي كان يأتي من الاتجاه الأكثر وطنية في الاشتراكية البولونية ، والذي بالغ كثيراً في تقدير قوة الشيوعية البولونية . ولما كان التفاؤ ل قد جرف لينين ، الذي اعتقد ان تقدم الجيش الأحمر سيكون اشارة الثورة في بولونيا ، فقد جعل المكتب السياسي يصطف الى جانبه . حتى ستالين ، الذي نبذ بهدوء فكرة السير الى فارصوفيا ، عاد فتبنى وجهة نظر لينين ، وبقي تروتسكي وحده في المعارضة .

كان لينين ينظر أبعد بكثير ، فبولونيا هي الجسر بين روسيا والمانيا ، وهوكان يأمل أن يتصل بالمانيا بواسطتها . وكان يعتقد أن المانيا ايضاً تفعل فيها الخميرة الثورية ؛ وهذا الوهم كان وراء دخانه القليل من النار ، ففي آذار / مارس ١٩٢٠ ، قامت عناصر من الجيش الالماني بانقلاب في برلين لإطاحة النظام البرلماني والمجيء بديكتاتورية عسكرية . لكن لم يطل الامر يومين حتى كان إضراب عام للعمال الالمان يهزم القائمين بالانقلاب (الذي دعي بمحاولة كاب الانقلابية) ، وقد شكل هذا الاضراب تظاهرة قوة للحركة العمالية الالمانية . كانت المبادرة الى الاضراب من جانب النقابات ، لا من جانب الشيوعيين ، لكن الحزب الشيوعي الالماني حقق بعد ذلك بقليل تقدماً ملموساً ، دون ان يتوصل مع ذلك لجر الجزء الأكبر من الطبقة العاملة خلفه . وكان ذلك كافياً ليتساءل لينين ، إذا كان ظهور الجيش الأحمر على حدود المانيا لن يحفز الحركة الثورية ويقويها ويعززها . كان يريد « سبر غور أوروبا بواسطة حراب الجيش الأحمر » . وخلال جلسة للمجلس الثوري الحربي ، في أوج الهجوم ، مرّر ملاحظة لسكليانسكي كتب فيها : « ينبغي الاستيلاء على فارصوفيا بأي ثمن خلال ثلاثة أيام أو خمسة » . وقد سعى بإصرار لمعرفة إذا كان الجيش الأحمر ، الذي دخل في « الممر » البوميراني(*) ، سيتوصل لقطعه لمنع البولونيين من الوصول الى دانتزيغ . ودانتزيغ هي المرفأ الذي كانت بولونيا تتلقى عبره اعتدة من الغرب ، لكنه كان كذلك نقطة التقاء مع المانيا[٢٦] .

(*) نسبة لبوميرانيا على ضفاف البحر البلطيقي (م)

(٢٦) محفوظات تروتسكي .

ومع ان تروتسكي اعتبر قرار الاكثرية يحبل بالكوارث ، فقد انصاع له ، فبقي في مركزه وأعطى الأوامر بالمسير وانجز عمله المعتاد ؛ إلا أنه اوقف جولاته على الجبهة . ولما كانت الهجمات تتطور ، تشكل مجلس ثوري بولوني للحرب ، كان عملياً حكومة مؤقتة يقودها البلاشفة البولونيون الذين عارضوا المسألة . وكلما كان الجيش الأحمر يتقدم كلما كانت تقارير المجلس تصبح قاتمة ، فالعمال والفلاحون البولونيون كانوا يتلقون المجتاحين كفاتحين لا كمحررين . إلا أن الجيش الأحمر كان مندفعاً تلقائياً إلى الأمام بصورة لا تُقاوَم ، وكانت مواصلاته تتمطى وتمتد وقواه تنفد . وكان الانفصام بين الجيوش يتسع بشكل خطير ، فجيوش الشمال بقيادة توخاتشيفسكي كانت تقترب من فارصوفيا ، بينما انحرفت جيوش الجنوب ، بقيادة ييغوروف وبوديبيني ، نحو الجنوب الغربي باتجاه لفوف . أما المفوض السياسي الكبير لجيوش الجنوب فكان ستالين الذي اختير لهذا المركز بناء لإلحاح تروتسكي[٢٧] ؛ ولكي لا يبدو ستالين ادنى من توخاتشيفسكي ، كان يريد لفوف غنيمة حرب إذا دخل منافسه الشمالي إلى فارصوفيا . ومن الوسط ، في الفُرجة بين الجيشين سينطلق بيلسودسكي بعد قليل ليضرب خاصرة قوات توخاتشيفسكي ومؤخرتها . وقد اقلق الانفصام بين الجيشين لينين لبرهة من الوقت[٢٨] ، وتأخرت هيئة الاركان العامة قليلاً لإبلاغ قادة جيوش الجنوب بضرورة إغلاقه . لكن الجيش الأحمر واصل التقدم وكانت موسكو تهلل فرحاً .

في تلك الفترة ، من منتصف حزيران / يونيو ، إلى ٧ آب / أغسطس ، انعقد المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية في بتروغراد وفي موسكو . خلال السنة الماضية ، كانت الحركات العمالية الاوروبية اقتربت من الأممية ؛ كان قادة الاحزاب الاشتراكية الكبيرة والقديمة يأتون الآن بصورة شبه متواضعة يقرعون بابها . وقد ناقش المؤتمر شروط الانضمام ، « النقاط الـ ٢١ » المشهورة التي صاغها لينين وزينوفييف ، ومهام الاحزاب الشيوعية ، ومصير الامم المستعمرة ، الخ . لكن سيطر على المناقشات الانتظار الممض للنهاية العسكرية في بولونيا ، التي كان هنالك اعتقاد بأنها ستعطي دفعاً جديداً وقوياً للثورة الاوروبية . ويوماً فيوماً ، كان لينين يقف أمام خارطة عسكرية كبيرة يشرح بتفاؤلٍ اخبار تقدم توخاتشيفسكي .

ظهر تروتسكي في بداية المؤتمر للدفاع عن الـ « نقاط الـ ٢١ » ثم عاد قبل نهاية

---

(٢٧) رسالة تروتسكي الى اللجنة المركزية في ١١ أيار / مايو ١٩٢٠ . المحفوظات .

(٢٨) تضم محفوظات تروتسكي ملاحظة لا تاريخ لها من لينين إلى سكليانسكي ، يعبر فيها لينين عن مخاوفه .

المؤتمر مباشرة ليقدم البيان الذي كتبه باسم الأممية ، وكان الجيش الأحمر آنذاك على أبواب فارصوفيا بالذات . وقد استقبله المندوبون وحيّوه بعاصفة من التصفيق . وفي تصعيد من الدوائر الكلامية والصور المجلجلة ، رسم لوحة للوضع العالمي بعد عام على معاهدة فرساي . وفضح بسخط شديد « بابل » الرأسمالية المنحطة ونزع « قناع الديمقراطية » عن وجهها . قال : « ليست الديمقراطية البرلمانية الالمانية إلا فراغاً بين ديكتاتوريتين »[٢٩] . وكان المندوبون يصغون إليه لاهثين ، فالسلطة السحرية لكلماته ومقارناته تضاعفت عشر مرات بواقع ان المعركة التي كان الجميع يعتقدون أنه ملهمها بلغت ذروتها . إلا أن تروتسكي امتنع عن الخوض في موضوعها ، ولم يكن بيانه ينطوي على اي تلميح الى انتصارات الجيش الأحمر . لكن المندوبين لم يلاحظوا حتى تكتمه ، ولم يكونوا يستطيعون ان يحزروا أي توتر وأي خوف كان يخفيهما مظهره المطمئن ولغته المذهلة . ففي تلك الجمعية التي كان الاكثر حذراً فيها يهيجون فرحاً ، كان تروتسكي هو الوحيد الذي رفض الاحتفال بنصر كان الجميع يحيّون فيه صانعه[٣٠] .

بعد ذلك بأسبوع ، بدأت معركة الفيستول ، التي لم تدم اكثر من ثلاثة أيام . هذه المعركة لم تغير مجرى التاريخ كما كان يتوقع المعاصرون ، بل أخرته ربع قرن . لكن الجيش الأحمر كان في نهاية المعركة في حالة تقهقر كامل . وقد طلب المكتب السياسي الى تروتسكي ، في حين كانت المعارك في اوج احتدامها ، ان يمضي الى الجبهة لاستدراك الوضع ، فرفض وأجاب أنه لا وهم لديه ، وأن أي تدخل شخصي على ارض المعركة ، مهما يكن رافعاً للمعنويات ، لن يستطيع تلافي الكارثة[٣١] .

وبدت الكارثة في ذلك الحين أسوأ مما كانت في الواقع ، لأن حراس رانغل البيض الذين رأوا الجيش الأحمر يتراجع أمام البولونيين اندفعوا خارج القرم واجتاحوا القوقاز . وبعد يومين من معركة الفيستول ، في ١٩ آب / أغسطس ، قدم تروتسكي وستالين تقريراً عن الوضع العسكري إلى المكتب السياسي ؛ ولما كان المكتب اعترف بالهزيمة في بولونيا ،

---

(٢٩) تروتسكي ، بيات لت كومنترن ، ص ٨٩ .

(٣٠) خاطب تروتسكي خلايا الحزب في الاكاديمية العسكرية ومدارس أخرى بعد الحرب بوقت قصير ، فقال انه لم يعتقد لحظة واحدة بأن الجيش الأحمر سيأخذ فارصوفيا ، لا بل انه لم يتوقع حتى ان يصل الى حيث وصل . في تلك المناسبة وفي مناسبات اخرى ، تكلم بالكثير من الصراحة على الخلافات بصدد الزحف على فارصوفيا ، ولم يناقض روايته للأحداث احد . (كالك فوروجالاس ريفولوتسيا ، ص ٣ ، ك ١ ، ص ٩١) .

(٣١) رسالة من تروتسكي الى المكتب السياسي في ١٧ آب / اغسطس (محفوظات تروتسكي) . دامت المعركة من ١٤ آب / اغسطس إلى ١٧ منه .

فقد قرر اعطاء الأولوية للحملة ضد رانغل ، وكلف ستالين وتروتسكي ، كليهما ، بأن يعبئا من جديد اعضاء الحزب . وقد تم ارسال معظمهم الى القرم وسحب معظم سلاح الفرسان بقيادة بودييني من الجبهة البولونية . وتلقى ستالين كذلك التعليمات لتوقع تدابير ينبغي اتخاذها إذا واصل رانغل تقدمه . لكن قوات رانغل ، رغم تجهيزها الجيد ، كانت قليلة العدد ومحبطة لدرجة لم تخلق معها تهديداً جدياً ؛ وسرعان ما تقهقرت الى القرم ، آملة أن تتمكن من الصمود خلف الرقعة الضيقة المحصنة المتمثلة بمضيق بيريكوب . وبعد معركة وحشية وملحمية بقيادة فرونزي وستالين ، دخل الجيش الأحمر المضيق ودفع برانغل الى البحر ، فكانت تلك خاتمة الحرب الاهلية[٣٢] .

في ١٢ تشرين الاول / اوكتوبر ، وقعت السوفييتات صلحاً مؤقتاً مع بولونيا . لكن بقيت الحرب تحوم في الهواء لبعض الوقت ، فالأحزاب البولونية الحاكمة كانت منقسمة ، إذ كان حزب الفلاحين الذي كان قائده ويتوس يترأس الحكومة ميالاً إلى الصلح ، بينما كان حزب بيلسودسكي العسكري يفعل كل ما في وسعه لاحداث انقطاع في المفاوضات مع روسيا[٣٣] . وفي موسكو ايضاً ، حل الانقسام محل الوحدة ، فأكثرية اعضاء المكتب السياسي كانوا لصالح استئناف القتال ، بعضهم لأنهم كانوا يعتقدون ان بيلسودسكي لن يحترم السلام ، في أي حال ، وآخرون لأنهم كانوا يتحرقون للانتقام . وقد ناقشت هيئة الاركان العامة موضوع هجوم جديد ، فتوخاتشيفسكي كان يعلن عن ثقته ، هذه المرة ، بالقدرة على القيام باستعراض النصر في فارصوفيا . ويروي تروتسكي ان لينين كان يحبذ في البدء استئناف الحرب ، لكن من دون حماس . وما هو ثابت ان تروتسكي امتدح السلام بقوة ودعا الى الاحترام الدقيق للمعاهدة المؤقتة مع بولونيا . ومرة أخرى ، كان يخاطر في الانحشار في وضع اقلية ، وفي الاضطرار للتنفيذ النزيه لسياسة يرفضها . وقد رفض هذا الوضع في اللحظة الاخيرة ، معلناً هذه المرة ان الخلافات عميقة لدرجة أنه لا يشعر بضرورة الالتزام بقرار للاكثرية او بمبدأ تضامن المكتب السياسي ، وأنه إذا ما حشر في وضع الأقلية سيحتكم إلى قاعدة الحزب في وجه القيادة . وكان ذلك تهديداً مارسه لينين بنجاح كامل خلال الجدال حول بريست ؛ وقد أصاب تروتسكي هدفه . كانت الأدوار في هذه المرة مقلوبة بشكل مثير ، لكن النهاية كانت مماثلة تقريباً : تخلى لينين عن جناح الحرب ودعم تروتسكي بكل ما لديه من نفوذ ، فتم انقاذ السلام[٣٤] .

---

(٣٢) محفوظات تروتسكي .

(٣٣)نقع على وصف ممتاز لتلك الخصومة في مذكرات ج . دابسكي ، رئيس الوفد البولوني لمحادثات السلام في ريغا .

(٣٤) تروتسكي ، حياتي ، ج ٢ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

كانت الخلافات عميقة ، لكن يمكن التساؤ ل إذا وُجد قائد بلشفي واحد ، دون أن نستثني تروتسكي ، فهم بعمق معناها التاريخي . إن أحداث منتصف القرن سوف تلقي الضوء على تلك الخلافات .

كان مبدأ من مبادىء السياسة الماركسية انه لا يمكن للثورة ـ ولا ينبغي لها ـ أن تُنقل الى البلدان الاجنبية على رؤ وس الحراب . كان مصدر هذا المبدأ في تجربة الثورة الفرنسية التي وجدت اكتمالها ودمارها في الفتح النابوليوني . وكان هذا المبدأ يقوم ايضاً على الفرضية الماركسية الاساسية التي تجعل من الطبقات العاملة لكل الأمم الصانعة العليا للاشتراكية ، والتي ترى انه لا ينبغي فرض الاشتراكية من الخارج على الشعوب . وكان البلاشفة ، ولا سيما تروتسكي ، قالوا غالباً انه يمكن للجيش الاحمر ان يتدخل في بلد مجاور ، لكن فقط كحليف ومساعد لثورة شعبية جارية ، لا كفاعل مستقل وحاسم . هذا الدور المساعد هو الذي كان لينين يعزوه إلى الجيش الأحمر حين أراد إرساله لنجدة الثورة السوفياتية في المجر . وللاضطلاع بدور من هذا النوع تدخل الحراس الحمر ، أو الجيش الأحمر ، في بعض الاحيان ، في فنلندا ولتونيا ، لدعم ثورات سوفياتية جارية كانت تتمتع بالدعم الشعبي ، وتمت هزيمتها بشكل رئيسي بفعل تدخلات اجنبية ، ولا سيما المانية . ولا يمكن القول في أي من تلك الحالات إن الجيش الأحمر صدّر الثورة . وفي حالة بولونيا ، قام البلاشفة بخطوة إضافية . وحتى آنذاك ، لم يكن لينين قد اصبح مناصراً لمبدأ الثورة عن طريق الفتح ؛ كل ما هنالك أنه كان يرى الطبقة العاملة البولونية على وشك الانتفاض ويعتقد أن تقدم الجيش الأحمر سيلعب دور الحفّاز . لكن ذلك لم يكن دعماً لثورة مندلعة ، ومهما تكن المبررات والآمال الحميمة لدى لينين ، فالحرب ضد بولونيا كانت تشكل المحاولة البارزة الأولى التي يقوم بها البلاشفة سعياً وراء التسبب بثورة عن طريق الفتح . ومن المؤكد ان البلاشفة خاضوا غمار تلك الحرب بعد استفزازات عديدة ، من دون أن يستوعبوا كل ما يترتب على قرارهم . لكن هكذا تحدث الانعطافات الكبرى الكاشفة للغيب في التاريخ ، والذين يتسببون بها لا يدركون في الغالب ماذا يفعلون . وهكذا ، بوجه خاص ، تلقي الاحزاب الثورية بمبادئها الأكثر قداسة من على ظهر السفينة وتبدل طبيعتها . فلو دخل الجيش الأحمر الى فارصوفيا لكان العامل الرئيسي في الانقلاب الاجتماعي ، وكان حل بهذا المعنى محل الطبقة العاملة البولونية . وعلينا أن نتذكر كيف اتهم تروتسكي في كتابات الشباب لينين باعتماد « الاستبدالية » ، أي بميله ليجعل من الحزب بديلاً للطبقة العاملة[٣٥] . وكانت الحالة التي نحن بصددها استبدالية على الصعيد

---

(٣٥) الفصل الثالث .

العالمي ، مع فرق يكمن في ان جيشاً ، لا حزباً ، هو الذي كان يلعب دور البديل من بروليتاريا أجنبية .

كان ذلك غريباً لا سيما أن لينين بقي طوال عشرين عاماً يبث في تلامذته ومناضليه ، بحماس ، احتراماً شبه دوغماتي لحق كل أمة ، وبولونيا بوجه أخص ، في تقرير مصيرها بحرية تامة . لقد انفصل عن رفاقه واصدقائه لأنهم بدوا أقل جزماً منه في هذا الموضوع . لقد سوّد رزماً من الأوراق ليكافح بقوة أولئك البولونيين ، من أمثال روزا لوكسمبورغ ورادك ودزرجنسكي ، اولئك الأمميين الذين كانوا يرفضون الدفاع عن دولة قومية بولونية ، فيما كانت بولونيا لا تزال مجزأة . وكان يبدو الآن ان لينين ينسى كل محاجّته ويعذر انتهاك استقلال كل أمة ، شريطة ان يحدث ذلك باسم الثورة .

وانتهى لينين إلى ادراك فظاظة موقفه ، فاعترف بخطئه ، وأعلن عن معارضته لتصدير الثورة على رؤوس الحراب[٣٦] ، ودعم تروتسكي في نضاله من أجل الصلح . تغلب الثوري العظيم فيه على اللاعب الثوري .

إلا أن هذا الخطأ لم يكن ثمرة الصدفة أو عدم الاتساق . كان مصدره خوف البلاشفة من الانعزال ، وهو خوف كان يشعر به كل قادة الحزب ، لكنه كان يؤثر على أعمالهم بشكل مختلف . فالزحف على فارصوفيا كان محاولة يائسة للخروج من تلك العزلة ؛ وقد اخفق لكن ستكون له انعكاسات عميقة على منظورات الحزب . ففكرة الثورة عن طريق الفتح ، نفذت الى اعماق الروح البلشفية ، وتخمرت فيها وأفسدتها . وبعض البلاشفة الذين فكروا في التجربة توصلوا الى الاعتقاد بأن المحزن ليس محاولة نقل الثورة الى الخارج بل إخفاق تلك المحاولة ؛ فلو تمكن الجيش الأحمر من الاستيلاء على فارصوفيا لأرسى فيها ديكتاتورية بروليتارية ، شاء العمال البولونيون أو أبوا . كان ايماناً بليداً برأي بورجوازي مسبق بائس الاعتقاد بأن الثورة التي تستجيب لرغبات الشعب وتمنياته هي وحدها التي ترتكز على أساسات صلبة . أما الدرس الرئيسي الذي يجب استخلاصه من القضية فهو ضرورة التسلح جيداً واعداد النفس بشكل أفضل في المرة القادمة[٣٧] .

---

(٣٦) كلارا زتكين ، ذكريات عن لينين ، ص ١٩ - ٢١ .

(٣٧) كتب مؤرخ الحزب ، ن . بوبوف : « كان تروتسكي يعارض زحف الجيش على فارصوفيا ، لا لأنه كان يعتبر قواتنا غير كافية ، بل لأن آراءه المسبقة الاشتراكية - الديمقراطية كانت تجعله يعتبر أن من السيىء نقل الثورة من الخارج الى بلد ما . وللأسباب ذاتها ، عارض تروتسكي هرع الجيش الأحمر لنجدة المتمردين في جيورجيا في شباط / فبراير ١٩٢١ . ان المحاجة المضادة للبلشفية ، الكاوتسكية ، التي استخدمها تروتسكي ، قوبلت بالرفض التام من جانب اللجنة المركزية ، في تموز /

سوف نتفحص في الفصل اللاحق تجارب البلاشفة في السياسة الداخلية التي دعمت لديهم طريقة النظر هذه وغذتها . ويكفي هنا القول ان هذه الطريقة ظهرت لدى اعضاء المكتب السياسي الذين كانوا يريدون استئناف القتال ضد بولونيا . لكن لم يكن يمكن للبلاشفة القدامى الدفاع عنها إلا في جلساتهم الخاصة وبنوع من الخجل . لم يكونوا قادرين على المناداة علناً بتلك الافكار أو رفعها لمستوى مبدأ . زد على ذلك أنه كان من طبيعة تلك الافكار بالذات ألا تستطيع ان تكون مجالاً لتصريحات علنية . لم يكن ممكناً تحدي التراث الماركسي جهاراً ، هذا التراث الذي كان لا يزال حياً لدى القادة البلاشفة لدرجة انه كان يسم كل مناهجهم الفكرية ويمنعهم من دفع خط تفكيرهم الجديد الى نهاياته . حتى بعد ثلاثين عاماً ، لن يقبل ستالين التسليم بأنه أيد الثورة عن طريق الفتح ، مع أنه لجأ اليها على مستوى واسع . ولا بد انه كان اصعب بكثير أن يعترف البلاشفة بالأمر ، حتى لأنفسهم ، في عام ١٩٢٠ .

لكن فكرة كانت تهيم على وجهها سرعان ما وجدت ناطقاً بلسانها . فبعد نهاية حرب بولونيا بقليل جعل توخاتشيفسكي من نفسه محامياً للثورة عن طريق الفتح . لم يكن مر وقت على هزيمته في الفيستول ، الاخفاق الوحيد ـ لكن أي إخفاق ـ الذي مني به منذ صعوده كشهاب . فهو انضم الى البلشفية عام ١٩١٨ ، بينها كان لا يزال ضابطاً شاباً ، واصبح الآن ، في السادسة والعشرين من عمره ، الجنرال الأكثر هيبة والأكثر شهرة في الجيش الأحمر . كان اخلاصه للنظام السوفياتي فوق كل الشبهات ، لكن إذا كان جندياً للثورة فهو لم يكن ثورياً . لم تكن تشده تقاليد الحزب ، وهو كان يستلهم نابوليون اكثر مما يستلهم ماركس . لم يكن يفهم لماذا استمر البلاشفة يصبون اللعنة على كل من كانوا يتكلمون على حمل الثورة الى الخارج على رؤوس الحراب . وقد عرض وجهات نظره في دراسات ومحاضرات في الاكاديمية العسكرية . كان يؤكد أنه ممكن وشرعي بالنسبة للجيش الأحمر ان يفرض الثورة « من الخارج » على بلد رأسمالي[٣٨] . . وفيما بعد ، توصل إلى اقتراح خلق هيئة أركان عامة أممية للجيش الأحمر ، تقود النشاطات العسكرية الثورية في كل البلدان . إن توخاتشيفسكي ذا الذكاء المحتدم والفريد والجريء كان يهاجم محرّمات الحزب جهاراً ، لكنه كان يقدم افكاره بشكل متطرف للغاية بحيث لم يكن يستطيع ان يكسب إليها الكثير من الناس . وكان قادة آخرون للحرب الاهلية مستعدين لاستعادة تلك

يوليو ، ١٩٢٠ ، بصدد بولونيا ، وفي شباط / فبراير ١٩٢١ ، بصدد . . . جيورجيا » . التاريخ العام للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

(٣٨) م . توخاتشيفسكي ، لوبنا كلازوف : انظر بوجه خاص دراسته : « ثورة انطلاقاً من لا شيء » ، ص ٥٠ ـ ٦٠ .

الافكار لحسابهم الخاص ، بعد تلطيفها بشكل ملائم . والثابت أنه كان ثمة رابط منطقي بين افكار توخاتشيفسكي ونظرية جيش أحمر ذي طابع هجومي صريح(٣٩) .

ناضل تروتسكي ضد هذا التيار الجديد . وغداة حرب بولونيا ، حذر البلاشفة من محاولة حمل الثورة الى الخارج بقوة السلاح ، وهو تحذير يرصع حقاً كل خطبه وكتاباته في تلك الفترة(٤٠) . لم تكن معارضته العقلانية للثورة عن طريق الفتح ، بمعنى ما ، إلا الوجه الآخر لايمانه شبه اللاعقلاني بالطاقة الثورية الخاصة بالطبقات العاملة الغربية وبقدرتها على صنع الثورة . وكان مقتنعاً بشكل مطلق بأن الطبقات العاملة في اوروبا واميركا مسوقة ، بفعل وضعها الخاص بها ، في طريق البلشفية ، لدرجة أنه كان يعتبر من المشؤوم تماماً السعي للقيام بالثورة عوضاً عنها ، أو سبرها وحفزها برؤوس الحراب . كان العالم يحبل ، في نظره ، بالاشتراكية ، ولم يكن هنالك إذاً وقت طويل من الانتظار ، فبإرادة تسريع الاشياء يخاطر المرء بالتسبب بكارثة . وقد أكد تروتسكي ان تضامن الثورة الروسية مع الطبقات العاملة في البلدان الاخرى ينبغي أن يعني بصورة رئيسية مساعدتها على فهم تجربتها السياسية والاجتماعية وتفسيرها ، وطرح مشكلاتها ، لكن ليس حلها بالنيابة عنها . وخلال نقاش ، تكلم بغضب على اولئك الذين يعتقدون في البلدان الاجنبية بامكانية الحلول محل الثورة عن طريق عمليات الجيش الأحمر ، وقال : « أفضلُ لهم أن يوضع حجر الرحى في عنقهم ويلقى بهم في البحر »(٤١) .

لكن التجربة البلشفية الجديدة كانت قوية للغاية بحيث لا تزول بسرعة ؛ وسرعان ما جرى السقوط فيها مجدداً ، فقد اكتسح الجيش الأحمر جيورجيا .

حتى شباط / فبراير ١٩٢١ ، عرفت جيورجيا حكومة منشفية وقعت السوفييتات معها معاهدة خلال الحرب مع بولونيا . كانت السوفييتات اكتسبت القوقاز بكاملها تقريباً في صفوفها ، ولم يكن باقياً غير جيورجيا كشوكة في خاصرتها . إن مطالبة المناشفة الجيورجيين بالاستقلال القومي كانت تفتقد مصداقيتها ؛ فقبل ثورة اوكتوبر ، كانوا هم ذاتهم قد طالبوا بحرارة بتوحيد جيورجيا مع روسيا ، مع اعطاء الأولى نوعاً من الحكم الذاتي ، لا اكثر ولا أقل . أما انفصاليتهم الحالية فلم تكن غير ذريعة ملائمة ، فمجرد وجود جيورجيا منشفية يجعل من الأصعب بالنسبة للبلاشفة ان يوطدوا نظامهم في سائر

---

(٣٩) انظر « ملاحظة حول كتابات تروتسكي العسكرية » ، في نهاية الفصل .

(٤٠) كاك فوروجالاس ريفولوتسيا ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٤٢ - ١٤٣ ، ٢٠٦ ، ٢٢٥ - ٢٢٧ .

(٤١) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ص ٢٢٥ .

القوقاز . ومن جهة ، لم يكن البلاشفة نسوا أن المناشفة انصاعوا لاحتلال بلادهم على يد الالمان ثم الانكليز من دون أي احتجاج ، وأنهم قمعوا البلاشفة الجيورجيين بصرامة . إلا أن الحكومة السوفياتية تعهدت رسمياً باحترام استقلال جيورجيا واعترفت بالحكومة المنشفية ، فلقد أمل المكتب السياسي أن تخضع جيورجيا لضغط القوقاز السوفياتية الذي لا يقاوَم ، وأن قادتها المناشفة لن يكونوا قادرين على حكم البلاد بالتعارض مع كل جيرانها ، وأنهم لا بد أن تطيحهم إذاً في النهاية قوى ثورية محلية . كان المكتب السياسي يميل بالتالي الى انتظار نضج الوضع .

لذا فوجىء تروتسكي كثيراً حين علم في منتصف شباط / فبراير ١٩٢١ ، وهو في جولة تفتيش في الأورال ، أن الجيش الأحمر دخل جيو رجيا . كان على وشك الرحيل إلى موسكو لحضور جلسة للجنة المركزية ، وقبل رحيله ، اتصل بسكليانسكي وسأله عمن أعطى امر الدخول الى جيورجيا ولأية أسباب . وقد ظهر أن غزو جيورجيا كان كذلك مفاجأة للقائد العام ، وتساءل تروتسكي إذا لم تدبر القضية عناصر غير مسؤولة ، من دون علم هيئة الاركان العامة للمكتب السياسي ، وكان ينوي أن « يثير المشكلة في جلسة اللجنة المركزية » ويجبر المذنب المفترض على إعطاء مبرر لسلوكه[٤٢] . لكن الأوامر بالزحف حصلت على موافقة المكتب السياسي ، واعطاها المجلس الثوري الحربي للقوقاز الذي كان اورجونيكيدزه ، صديق ستالين والجيورجي هو الآخر ، المفوض الرئيسي لشؤونه . لقد درس المكتب السياسي المسألة بغياب تروتسكي ، بعد أن قدم ستالين واورجونيكيدزه تقريراً يقول بأن انتفاضة بلشفية يدعمها الشعب بقوة قد انفجرت في جيورجيا ، وأن النتيجة موثوقة ، لكن تدخل الجيش الأحمر يمكن ان يختصر الصراع . ولما كان المكتب السياسي يعتبر ستالين واورجونيكيدزه خبيرين في الشؤون الجيورجية فقد انحاز لرأيهما .

لكن الانتفاضة في جيورجيا لم تكن تحظى بالدعم الشعبي المشار اليه ، ولم يتمكن الجيش الأحمر من دخول تيفليس ، عاصمة جيورجيا ، إلا بعد خمسة عشر يوماً من المعارك الضارية . كانت لجيورجيا ، مثلها مثل الأمم الصغيرة الحدودية ، ذكريات طويلة عن الاضطهاد القيصري ، وقد أثار ذلك الالحاق مجدداً بالقوة ضغينة شديدة في جيورجيا ، بقيت بعد ذلك بزمن طويل ، وانعكست بصورة غير مباشرة في معارضة البلاشفة الجيورجيين لسياسة موسكو الممركزة . وكانت تلك إحدى النقاط الرئيسية للخلاف بين

---

(٤٢) محفوظات تروتسكي .

ستالين وتروتسكي خلال السنة الاخيرة من حكم لينين ، إلا أن تروتسكي انحنى أمام الامر الواقع مؤقتاً . لم يكن ممكناً التراجع عن الاكتساح ، لكن التخفيف من آثاره فقط ، وهو ما قام به لينين تلقائياً ، فأبلغ اورجونيكيدزه والمفوضين الآخرين في القوقاز بضرورة « إبداء احترام خاص للجمعيات ذات السيادة في جيورجيا ، والبرهان على رعاية شديدة وتعقل وفطنة في العلاقات مع سكان جيورجيا » . وطلب اعلامه بكل مخالفة لتلك الأوامر وبأدنى حالات الخلاف مع الجيورجيين ، وحث اورجونيكيدزه على عدم توفير أي شيء للوصول الى مصالحة مع المناشفة ، حتى مع جوردانيا ، رئيس الحكومة المنشفية الذي لم يكن معادياً كلياً للنظام السوفياتي[٤٣] . لم يكن هنالك شيء ، في الحاضر ، يمكن تروتسكي ان يقوم به ، أو أن يرغب في أن يقام به . لكن لم يكن لإيعازات لينين غير القليل من التأثير : فالغزاة الذين انتهكوا السيادة الجيورجية إجمالاً ، لم يكن مزاجهم يتناسب مع احترامها على صعيد التفاصيل ، لكن لم يتم ادراك ذلك في الحال .

استمر تروتسكي ينتقد مبدأ الثورة عن طريق الفتح ويفضحه . لكنه لم يعتبر أن من حقه أن يناقش علناً الحالة الخاصة بجيورجيا ويجحد المسؤولية الجماعية للمكتب السياسي . اكثر من ذلك ، حين طلب الزعماء الاشتراكيون الديمقراطيون الغربيون ، كاوتسكي وماكدونالد ، وهندرسون وآخرون ، بأعلى أصواتهم جلاء الجيش الأحمر عن جيورجيا ، رد عليهم تروتسكي بما يفحمهم . كتب أهجوة لم يخصص فيها غير مقطع صغير للغزو ، حيث اكد من جديد حق الجيش الأحمر في المضي لمساعدة أي ثورة اجنبية مندلعة ، لكنه لم يقل ابداً إذا كانت تمت ثورة حقيقية في جيورجيا . بدل ذلك ، كتب عرضاً طويلاً ونفّاذاً لما تنطوي عليه الانتقادات الاشتراكية - الديمقراطية المتعلقة بالثورة الروسية ومصير الشعوب المستعمرة ، الخ من انعدام المنطق[٤٤] . وبكل ما لديه من حمية معتادة ، دافع عن السوفييتات ، أكانت عادلة أو غير عادلة ، في وجه اعدائها واصدقائها الفاترين للغاية . وهكذا ظهر في نظر العالم اجمع كواحد من كبار المسؤولين عن غزو جيورجيا .

اعتبر تروتسكي ان المكتب السياسي اقترف اخطاء بما يخص شؤون بولونيا وجيورجيا ، وأنه ضل في لحظة ضياع ؛ وقد عارض هذين الخطأين ، لكن دون ان يرى استمراريتهما الداخلية ودون ان يضفي عليهما أهمية استثنائية . وكان على حق الى حد ما ،

---

(٤٣) لينين ، سوش . ، ج ٣٢ ، ص ١٣٧ .

(٤٤) تروتسكي ، بين الحمر والبيض .

لأنه صحيح تماماً ان الحزب بمجمله لم ينخرط ، لا عن عمد ، ولا بوعي ، على طريق الثورة بواسطة الفتح . كان غزو جيورجيا محاولته الوحيدة الناجحة على تلك الطريق ، وفي تلك الحالة بالذات ، لم تكن تنقص الحزب الظروف المخففة . فجيورجيا كانت على كل حال جزءاً من روسيا فيما مضى ، وما كان يمكنها ان تبقى إلا كـ « جزيرة بورجوازية صغيرة » في القوقاز السوفياتية . ومع ذلك ، كان ثمة رابط داخلي بين القضية البولونية والقضية الجيورجية ، لأنهما ، كليهما ، كانتا تشيران إلى صعود تيار جديد داخل البلشفية .

إن الدورة الثورية التي افتتحتها الحرب العالمية الأولى كانت على وشك انتهائها . في بداية تلك الدورة ، حملت البلشفية موجة ثورةٍ أصيلة ؛ وحوالى نهايتها ، شرعت البلشفية تنشر تلك الثورة عبر الفتح . إن مسافة طويلة ، تمتد ما يقارب ربع قرن ، تفصل الدورة الاولى عن الدورة الثانية التي ستفتتحها الحرب العالمية الثانية . وبين الدورتين بقي البحر البلشفي راكداً. اما الدورة الثانية فستبدأ بما اختتم الدورة الأولى ، عنينا الثورة عن طريق الفتح . إنه لأمر مبتذل في التاريخ العسكري وجود استمرارية بين الطور النهائي في حرب والطور الابتدائي في الحرب اللاحقة ؛ إن الاسلحة والنظريات العسكرية المبتدعة أو المبلورة خلال الطور النهائي لنزاع مسلح تسيطر على الطور الابتدائي للنزاع اللاحق . وهي استمرارية مشابهة تلك التي يمكن ملاحظتها بين دورتي الثورة . ففي ١٩٤٥ - ١٩٤٦ ، وحتى جزئياً، في ١٩٣٩ - ١٩٤٠ ، استأنف ستالين الاشياء حيث تركها ، وبمعنى ما حيث تركها هو ولينين في ١٩٢٠ - ١٩٢١ . ولم يعش تروتسكي كفاية ليقرأ الفصل المدهش الذي كتبته فتوحات ستالين الثورية في التاريخ الحديث . كان موقفه إبان التظاهرات الاولى للتيار البلشفي الجديد قليل الإفحام . كان مع الثورة وضد الفتح . لكن حين كانت الثورة تقود الى الفتح ، أو كان الفتح يساعد الثورة ، كان يجد نفسه داخل طريق مسدود لم يكن يمكن أن يقدم ، في نظره ، أي مخرج مرضٍ . لم يدفع معارضته للفتح الثوري حتى القطيعة المكشوفة ، إلا أنه اكتفى بالتلفظ بتلك الصيغة التي لا نعرف إذا كان يجب ان نعتبرها تحذيراً أو لعنة : « من الأفضل لمن يريد حمل الثورة الى الخارج على رؤوس الحراب ، أن يعلق حجر الرحى في عنقه . . . » .

ملاحظات حول كتابات تروتسكي العسكرية

لا يمكن إنجاز ملخص لنشاطات تروتسكي العسكرية دون الكلام قليلاً على كتاباته العسكرية . إن الأديب لم يختف ابداً لدى مؤسس الجيش الأحمر وقائده . فلقد أحس تروتسكي ، حتى وسط دخان المعارك ، بالحاجة لصياغة تجاربه وأفكاره وللتعبير عنها . ودراساته العسكرية ، وخطبه ، وأوامره اليومية تؤلف اجزاء عديدة . وهي تتمتع بميزات متناقضة من مثل الانطلاقة الرومانسية ، والواقعية العملية، وأحياناً نفاذ شبه فلسفي .

ويروي رادك أنه حين أصبح تروتسكي مفوضاً للحرب ، لم يكن قرأ إلا بعض الأعمال العسكرية : **الجيش الجديد** لجوريس ، **تاريخ الحرب الطويل** لشولز ، احد الاشتراكيين الالمان ، والدراسات النقدية لفرانز مهرنغ حول فريدريك الكبير . ورادك يضيّق دون ادنى شك تكوين تروتسكي النظري ليبرز بشكل أفضل ضخامة نجاحه . فخلال حروب البلقان ، والسنوات الأولى من الحرب العالمية ، درس تروتسكي الأدب العسكري الرائج . ومن المؤكد أنه كان يعرف كتابات كلوزفيتز عن كثب ، مثله مثل لينين ، وهو يستشهد بتلك الكتابات في الغالب ويتأثر بروح صاحبها في طريقة تصديه للمشكلات . لكن رادك محق حين يقول إن المؤلَّف الذي اثر اكبر تأثير على تروتسكي هو **الجيش الجديد** لجوريس ، وهو بلا شك عمل مؤرخ كبير وديمقراطي اشتراكي كبير ، لكنه ليس عمل خبير عسكري .

في هذا المؤلَّف ، يحاول جوريس أن يوفّق وجهين لسياسته الخاصة : نضاله ضد سلك الضباط الفرنسيين الرجعي ، الذي برز تأثيره في حقل السياسة الداخلية في فترة قضية دريفوس ، ورغبته الوطنية في أن يرى الجمهورية الفرنسية مجهزة بجيش صلب قادر على الدفاع عنها . وقد تصور إصلاحاً للجيش يتناسب ، كما كان يأمل ، مع الاصلاحات السياسية والاقتصادية التي كانت ستحول فرنسا البورجوازية الى « جمهورية اشتراكية » . كان ينادي باستبدال الجيش الدائم بميليشيات ، فالجيش الدائم المحصور والمدرَّب في عالم الثكنات الضيق ، المعزول بشكل مصطنع عن المجتمع المدني والموضوع في تعارض كامن

معه ، كان المصدر الرئيسي للقوة السياسية لسلك الضباط . أما الميلشيات فينبغي ان تكون قاعدتها وحدات الانتاج ، والمصانع ، والتجمعات القروية . ويحصل اعضاء الميليشيات على تدريب محلي ، ويواصلون الحياة والعمل كمواطنين عاديين لا يكرسون انفسهم لتكوينهم العسكري إلا نصفياً أو بصورة متقطعة . تصبح الميلشيات عندئذٍ مرتبطة عضوياً بالجماعة المدنية ومندمجة بها لدرجة أنه ما من جنرال طموح ، وما من زمرة عسكرية يمكنها استخدامها كأداة سياسية[1] .

احتفظ تروتسكي بفكرة جوريس الأساسية لكنه دمجها في سياق مختلف . كان جوريس يعتقد أن من الممكن إضفاء الديمقراطية على الجيش ، وجعله ميليشيا ، حتى في ظل النظام الرأسمالي . أما تروتسكي فكان يرى في ذلك سقوطاً في الوهم الاصلاحي . إن المعارضة ، الحقيقية أو الافتراضية ، للجيش الدائم بالمجتمع المدني كانت تعكس بنظره النزاع بين مصلحة الطبقات المالكة ، التي كان الجيش يدافع عنها كملاذ أخير لها ، ومصالح الطبقة العاملة . وقد قال تروتسكي ان الجيش لن يندمج بالشعب ويتماثل معه إلا حين تفرض مصالح الطبقة العاملة نفسها . ويصلح الغاء الجيش الدائم للدولة التي تمحي شيئاً فشيئاً ، وتضمحل تدريجياً ، كما ينبغي أن تفعل الدولة البروليتارية نظرياً .

إلا أن تروتسكي اعطى الجيش الأحمر بنية جيش دائم . وأوضح أنه لا يمكن لنظام الميليشيات ان يعطي كامل نتائجه إلا في مجتمع عالي التصنيع والتنظيم والتمدن . كان السياق الروسي يملي على الجيش الاحمر مبادىء تنظيمه ، الشبيهة جداً بتلك التي كانت تحكم بنية الجيش القيصري . والفرق بين الجيشين سياسي واجتماعي وليس على الصعيد العسكري البحت .

كان تروتسكي يقدم عمله كضرورة مؤقتة ، ويلح على ان يجعل الحزب والحكومة من نظام الميليشيا هدفهما النهائي . وعرض وجهة النظر هذه في « الاطروحات » التي طرحها في المؤتمر الثامن للحزب في آذار / مارس ١٩١٩ ، والتي دافع عنها سوكولنيكوف امام المؤتمر ، بغيابه[2] .

كان يتصور اليوم الذي يتلقى فيه الناس تكويناً عسكرياً ، لا داخل الثكنات ، بل ضمن شروط تشبه الى حد بعيد شروط العمل اليومي للعمال والفلاحين . ولا يمكن البدء

---

(١) مقابل مفهوم جوريس ، هناك نظرية جيش محترف بشكل حصري ، يمكن ان يكون سلاحاً حاسماً في حرب اهلية. وهذه هي النظرية التي عرضها الجنرال ديغول في نحـو الجيش المحترف ، قبل ١٩٣٩ .

(٢) تروتسكي ، كاك فوروجالاس ريفولوتسيا ، ، ج ١ ، ص ١٨٥ ـ ١٩٥ .

بتطبيق نظام كهذا تطبيقاً جدياً قبل نهضة صناعية . لكن تروتسكي كان يلح على أنه يمكن منذالآن بناء ثكنات تشبه مدارس عسكرية وعامة ، ولا تكون فقط حقول تدريب . وكان الضباط في الجيش الأحمر يعيَّنون ولا يُنتخَبون ، لكن تروتسكي كان يتصور للمستقبل عودة الى نظام الانتخاب . وقد تبنى المؤتمر الثامن « اطروحات تروتسكي ، واستعادها المؤتمر التاسع ايضاً » .

لكنها اثارت جبلاً من الانتقادات حوالى نهاية الحرب الاهلية ، حين قام تروتسكي بأولى محاولاته لوضعها موضع التطبيق . فالضباط المحترفون القدامى فوجئوا بأن يروا ذلك الذي كان مركز الجيش بقوة والذي استأصل منه روح الغوار ، يدافع عن تنظيم عسكري يذكّر ، في نظرهم ، بصورة مزعجة بتنظيم الحرس الاحمر القديم . وما كان في وسعهم أن يتصوروا جدياً أنه يمكن تكوين جيش ، وتدريبه وتعويده على انضباط العمل الجماعي ، في غير الثكنات . وقد رد تروتسكي على احد منتقديه ، الجنرال سفيشن، مؤلف كتاب في الاستراتيجية ، والأستاذ في الاكاديمية العسكرية ، مدافعاً عن « جوريس الحالم » :

« إذا كان الاستاذ سفيشن يعتقد ان الحزب الشيوعي استلم السلطةليحل محل الثكنات مثلثةالألوان (القيصرية)ثكنات حمراء، فهو مخدوع جداً. والاحتجاج بأن القيادةفي نظام الميليشيا لا تمسك بسلطةحقيقية، إنما هو برهان على عمى سياسي مدهش . ربما لم يتم إرساء سلطة قيادة الجيش الأحمر الراهنة في الثكنات ؟ . . . . لا ترتكز السلطة على تنويم مغناطيسي ملائم خاص بالثكنات ، لكن على قوة جذب النظام السوفياتي والحزب الشيوعي . لقد نسي البروفسور سفيشن ببساطة ان يأخذ بالحسبان الثورة والانقلاب الروحي الضخم الذي ولّدته . . . بالنسبة اليه . ان المرتزق الجاهل والسكير ، الذي نهشه الزهري وخبلته الكاثوليكية ، وكان يخدم في معسكر فالنستاين ، والمتدرب على الحرفة الذي دمر الباستيل بقيادة صحفيين ومحامين ، والعامل السكسوني ، عضو الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ١٩١٤ -١٩١٨ ، والبروليتاري الروسي الذي استولى على السلطة للمرة الاولى في التاريخ ، كلهم هم بالنسبة اليه من لحم المدافع ذاته الذي ينبغي الاعتناء به في الثكنات . أليست هذه سخرية بالتاريخ ؟ » .

« إن تطور النظام الشيوعي سيتم بالتوازي مع التطور الروحي لجمهور الشعب الواسع . وما لم يعطه الحزب الى الآن بشكل رئيسي إلا للعمال المتقدمين ،

سوف يعطيه المجتمع الجديد لمجمل الشعب ، اكثر فأكثر . . . وبمعنى ما « حل » الحزب بالنسبة لأعضائه « محل » الثكنات ؛ اعطاهم حس ضرورة التضامن الداخلي ، وجعلهم قادرين على التضحية بأنفسهم وخوض نضال جماعي . سوف يفعل المجتمع الشيوعي الشيء ذاته لكن على مستوى أوسع بما لا يقاس . . . إن روح التعاون هي في معناها الأوسع روح الجماعية . وهي لا يمكن أن تولد في ثكنة وحسب ، بل كذلك في مدرسة منظمة بشكل مناسب ، لا سيما اذا كان التعليم مدموجاً فيها بالعمل الفيزيائي . يمكن أن تتطور بفضل مبدأ التعاون في العمل ، ويمكن أن تنمو بواسطة الممارسة المعممة والذكية للرياضة . وإذا كانت الميليشيات ترتكز على المجموعات الطبيعية ، الاقتصادية ـ المهنية في المجتمع الجديد ، وعلى الكومونات القروية ، والمشتركات البلدية ، والجمعيات الصناعية . . . التي توحدها داخلياً المدرسة ، والجمعية الرياضية وشروط العمل ، ستشهد الميليشيا إذاك حس « تضامن » لا مثيل له وذا ميزة أسمى بكثير من ميزة الفيالق المكونة في الثكنات »[٣] .

كما انه جرى انتقاد نظام الميليشيات داخل الحزب حيث طُلبت إعادة النظر في القرارات المتبناة لصالحه . وخلال مؤتمر للمفوضين في الجيوش ، في نهاية ١٩٢٠ ، قدم سميلغا حججاً مقنعة ضد نظام الميليشيات . واوضح أن معظم الفيالق والفرق في هذا النظام ستكون مؤلفة بصورة شبه حصرية من الموجيك ، وان الوحدات المكونة من عناصر تنتمي الى البروليتاريا الصناعية ستكون قليلة العدد ومعزولة عن باقي الجيش ، وهو ما يمكن ان يعرض للخطر ديكتاتورية البروليتاريا ؛ وانه لا غنى للبلاشفة عن توزيع العناصر البروليتارية في الجيش بأسره ، وهو ما لا يتناسب مع التنظيم الجغرافي ـ الاقتصادي للميليشيات . وكان سميلغا يؤكد ان الميليشيات ستكون رديئة على المستوى العسكري ايضاً . فروسيا بشبكتها من السكك الحديدية المبعثرة والرديئة ستكون عاجزة في حالة الحرب عن القيام بتعبئة بالسرعة المتوخاة وعن تركيز ميليشياتها في النقاط الاستراتيجية . سيكون للغازي متسع من الوقت ليبلغ الفولغا قبل ان تصبح روسيا قادرة على القتال . وقال سميلغا إن للميليشيات طابعاً دفاعياً بشكل أساسي . وإذا كان وقع جوريس تحت إغراء نظام الميليشيا فلأنه انطلق من تمييز غير واقعي ابداً بين الحرب الهجومية والحرب الدفاعية . فلكي يكون نظام الميليشيات قابلاً للحياة يفترض ما يلي : درجة عالية جداً من التصنيع ، طبقة عاملة كبيرة العدد ، ومتقدمة تقنياً ومثقفة نسبياً ؛ شبكة كثيفة جداً من

(٣) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ج٢ ، ك ١ ، ص ١١٥ ـ ١٢١ .

طرق المواصلات . وينجم عن ذلك أن روسيا لا تستطيع الاستغناء عن الجيش الدائم[٤] .

وقد اعترف تروتسكي بصحة الجزء الأكبر من هذا التحليل النقدي ، لكنه استمر في تقديم الميليشيات كالهدف النهائي للسياسة العسكرية . وفي عام ١٩٢١ ، خلق ثلاث فرق من الميليشيا ، على سبيل التجربة ، في بتروغراد ، وفي موسكو ، وفي الأورال . لكنه أوصى هو ذاته بالحذر . كانت تلك فترة اضطراب واستياء شعبي . وقد قال : « إذا كان عمال الأورال سيموتون جوعاً ، فستكون التجربة كارثة » . « لا يمكن القول بصورة مجردة أي نظام أفضل ؛ لا يجب محاولة حل هذه المشكلة كما لو كانت مسألة رياضيات ، بل يجب معالجتها كمشكلة سياسية واجتماعية يتعلق حلها بالظروف المسيطرة »[٥] . إلا أنه في السنوات اللاحقة ، أعيد تنظيم ما يقرب من ثلاثة أرباع الجيش الأحمر في وحدات اقليمية ، وربع واحد على اساس الجيش الدائم . كانت التجربة تمضي ابعد مما يمكن لروسيا أن تسمح لنفسها . وسوف يعاد تنظيم كل الجيش الأحمر في الثلاثينات ، تحت التهديد بالحرب العالمية الثانية ، ويعاد تحويله إلى جيش دائم . أما مبررات هذا الاصلاح المضاد ، الذي قام به ستالين وتوخاتشيفسكي ، فكانت تلك التي عددها سميلغا عام ١٩٢٠ . ومن جهة اخرى ، كان الاصلاح المضاد يتناسب مع الاتجاه العام الى السلطوية في تلك الفترة .

إن مسائل العقيدة العسكرية تحتل مقاماً مهماً في كتابات تروتسكي . وهو لا يدعي أية فرادة في هذا المجال ، لكنه حمل الى دراسة هذه المسائل سعة نظر تاريخية ، وتصدى لها بجدة وأصالة إذا لم تكونا كافيتين لصنع نظرية عسكرية جديدة ، فقد فعلتا الكثير لمنع الجيش الأحمر من تحمل نفقات تحيز مذهبي . كان على تروتسكي ان يناضل ، من جهة ، ضد الجنرالات القدامى ، ومن جهة أخرى ، ضد الضباط الثوريين الشباب . وكان يتكلم الى الاولين كمجدد يهاجم عاداتهم المحافظة في التفكير ، ويبدو للآخرين ، كبطل للاورثوذكسية العسكرية .

كان تروتسكي المحرك والملهم للأكاديمية العسكرية في موسكو ، حيث كان الجنرالات القدامى اساتذة ومحاضرين . وقد حاول جهده ان يحدّث النظام التربوي في الاكاديمية ، وأن يخلصه من كل تحذلق ، ويجعله يستفيد من التجارب الاخيرة للحرب .

---

(٤) إ . سميلغا ، أوشيريدنيي فوبروزي ستروبتيلستفا كراسنوي آرميي ، ص ٨ - ١٢ .

(٥) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ١٢ .

هكذا هاجم في احدى المرار كتّاب الاكاديمية الذين اخذ عليهم أسلوبهم التاريخي المزيف ، والجامد ، والذين شجعهم على أن يحذوا حذو الكتّاب الفرنسيين ، الذين كانوا يعرفون ، حسبما قال ، أن يجمعوا الى البحث التاريخي دراسة الحرب المعاصرة وسياقها السوسيولوجي . كان الاكاديميون ينظرون الى الحرب الاهلية بنوع من الاحتقار ، كبنت زنى للاستراتيجية الكبرى . ورد تروتسكي عليهم بتبرم :

« بينكم من يقول إن الفن العسكري لا يلعب أي دور في الحرب الاهلية الراهنة ، في الحرب الصغرى . أما أنا فأقول لكم ، أيها السادة الاختصاصيون العسكريون ان في ذلك برهاناً على جهل فريد . . . فالحرب الاهلية ، بجبهاتها المتحركة جداً والمرنة ، تقدم حقلاً خيالياً للمبادرة الحقيقية وللفن العسكري . والمشكلة هنا هي ذاتها التي في أي مكان آخر : الحصول على الحد الأقصى من النتائج عبر انفاق الحد الادنى من القوى . . . إن الحرب (العالمية) الاخيرة هي بالضبط . . . الحرب التي كانت تترك القليل من المجال لفن الاستراتيجية . وحين تجمدت الجبهة العملاقة ، الممتدة من الساحل البلجيكي حتى سويسرا ، اصبحت الحرب آلية ، وحُصرت الاستراتيجية في الحد الادنى ، وكان كل شيء يرتكز على استنزاف القوى المتحاربة . أما حربنا فاستندت ، على العكس ، الى الحركية والمناورة اللتين كانتا تسمحان للمواهب الكبرى بالبروز . . . . »[٦] .

واذا كان الجنرالات القدامى يرفضون تعلم دروس الحرب الأهلية ، فالشباب كانوا ينفرون في الغالب من تعلم دروس اخرى ، وكان طموحهم يتمثل في بناء « مذهب عسكري بروليتاري » جديد كلياً . وكانوا يقولون إنه ينبغي لذلك المذهب ان يتناسب مع حاجات الطبقة الثورية ويلائم ذهنيتها . عليها ان تنبذ الحرب الجامدة ، الدفاعية ، وتدفع باتجاه الهجوم والحركية . إن الطبقات الآفلة وحدها ، التي تتقهقر في كل الساحات ، يمكن أن تدعو لموقف دفاعي . كان « أسلوب الحرب البروليتاري » يفتن الضباط الخارجين من الصف . أما نصيراه الأكثر موهبة فكانا توخاتشيفسكي وفرونزي ، لكن يمكن الاشارة ايضاً إلى فوروشيلوف وبوديني . ولدى توخاتشيفسكي ، كان مذهب الحرب الهجومية يكمل منطقياً نظرية « الثورة المجلوبة من الخارج » ، وبدفاع الجنرال الشاب عن هذين المذهبين ، كان باقياً ضمن التراث النابوليوني . لكن لما كان يتمتع بذهن اكثر حداثة من ذهن زملائه ، فقد كان يرى الحرب الهجومية في المستقبل تسيطر عليها تشكيلات ضخمة من الدبابات والعربات المصفحة المتعاونة مع القوات الجوية . (وكان كذلك يدافع عن

(٦) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ج ٣ ، ك ١ ، ص ١٥٦ .

فيالق المظليين الذين يرى ضرورة ارسالهم ما وراء خطوط العدو ، في المناطق التي تكتسحها الحرب الاهلية) .

ربما كانت مجادلات تروتسكي ضد هذا التيار الفكري تشكل الجزء الأكثر تثقيفاً في كتاباته العسكرية . لقد رفض « الاستراتيجية البروليتارية » ، مثلما كان رفض في ميدان آخر « الثقافة البروليتارية » ، و « الأدب البروليتاري » . كتب يقول : « إن الحرب ترتكز في ذاتها على عدد كبير من العلوم ، لكن الحرب بحد ذاتها ليست علماً ؛ إنها فن تطبيقي . . . تقنية . . . فن وحشي ودموي . . . وإرادة صياغة مذهب عسكري جديد بالاستعانة بالماركسية ، تشبه إرادة استلهام الماركسية لخلق نظرية جديدة في فن البناء أو كتاب جديد في الطب البيطري »[٧] . وغالباً ما هاجم بسخرية لاذعة اولئك الذين كانوا ينظرون الى الديالكتيك الماركسي كما لو كان حجر الفلسفة ، وطالب باحترام نوع من التواصل في التجربة وفي التراث الثقافي . كان يرى في التجديدات « البروليتارية » حجاباً للفظاظة والمحدودية الفكرية . ولفت باستمرار انتباه سامعيه العسكريين الى الفقر الهمجي والفظاظة والقذارة لدى الجيش الأحمر ، وهي امور لم يكن يمكن وضع حد لها إلا بعمل مضنٍ ، وبذلك الاهتمام بالتفاصيل التي يحاول الروسي أن يتفلت منها باستمرار ، ملتجئاً الى مملكة التجريد المذهبي .

كان أنصار « المذهب البروليتاري الهجومي » قد حولوا إلى نظامٍ تجربتهم في الحرب الاهلية ، التي هيمنت خلالها المناورة السريعة . ورد تروتسكي بأن الجيش الأحمر تعلم سرعة المناورة ، التي زعموا أنها الميزة الحصرية لطبقة اجتماعية تنتفض ، تعلمها من الحراس البيض ، مثلما استعار هؤلاء من الجيش الأحمر طرقه في الدعاوة . وانتهى الحمر والبيض الى أن يتمثل بعضهم بعضاً في الميدان العسكري : « ينتهي الاعداء بعد تقاتل طويل فيما بينهم إلى ان يتعلم بعضهم من البعض الآخر أشياء كثيرة »[٨] . وتروتسكي ذاته لم يصدر أمره المشهور « ايها البروليتاريون ، امتطوا الجياد ! » الذي كان اشارة تكوين فيلق الخيّالة بقيادة بوديبني ، إلا في اوج هجوم دنيكين ، حين كانت الخيّالة البيضاء ، بقيادة مامونتوف ، تهدد بتفتيت المؤخرات البلشفية بهجمات عميقة وسريعة خلف خطوطها[٩] .

---

(٧) استشهاد مأخوذ من خطاب الى المندوبين العسكريين ، إبان المؤتمر الحادي عشر للحزب . المرجع المذكور ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ٢٤٤ .

(٨) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ج ٢ ، ك ١ ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٩) في البدء ، نظر تروتسكي من دون حماس إلى خطة بوديبني لخلق سلاح خيّالة . اما رد فعله فيمكن تفسيره ، في جزء منه ، بأن الفارس التقليدي كان القوزاقي الرجعي ، وفي جزء آخر ، بسبب التفكير تبعاً للتقنية الغربية . كان تروتسكي ميالاً للتفكير

لكن الحركية الكبيرة الخاصة بالحرب الاهلية كانت تعكس ، في رأي تروتسكي ، الشروط البدائية التي كانت الحرب تتم من ضمنها ، على اراضٍ واسعة جداً يتبعثر السكان على امتدادها . وقد قارن بين الحرب الاهلية الاميركية والحرب الاهلية الروسية ، فرأى في الحالتين ان القوى المتعادية قامت بعملياتها في مناطق قليلة السكان ، ومفتقرة جداً إلى طرق المواصلات ووسائل النقل ؛ وفي الحالتين ، كان لسلاح الفرسان حقل عمل واسع بشكل استثنائي . فالبيض ، مثلهم مثل الجنوبيين ، كانوا تقليدياً فرساناً من النوع الجيد ، وكان على الجيوش السوفياتية ، ان تحذو حذو جيوش الشمال فتبادر الى خلق سلاح فرسانها الخاص بها . ولم يكن ينتج عن ذلك إطلاقاً أن سرعة حركة كبيرة كانت جزءاً من « الأسلوب » العام للحرب الأهلية . فعلى ضفاف الشيلدت ، أو السين ، او التاميز ، تخاض الحرب بطريقة اكثر جموداً بكثير مما في السهب ، أو في المرج[10] . واذا كانت الحرب الأهلية اتخذت في روسيا اسلوباً نابوليونياً ، فلأن مستوى تمدن البلاد كان لا يزال متدنياً جداً . وقد اوضح تروتسكي ان إرادة جعل الجيش الأحمر يتبنى مذهب الهجوم النابوليوني ، كما كان ينوي توخاتشيفسكي ان يفعل ، ستكون برهاناً على افتقاد كلي للحس التاريخي ، وستكون نوعاً من الجنون.وابرز تروتسكي التناقض المذهل بين موقف فرنسا الثورية في اوروبا وموقف روسيا الثورية . ففي بداية القرن التاسع عشر ، كانت فرنسا البلد الأكثر تقدماً في القارة ، وهذا ما سمح لنابوليون بتبني استراتيجية هجومية ، أما روسيا فكانت أحد البلدان الأكثر تخلفاً في اوروبا في ميدان التقنية ، وما كان يمكن للاستراتيجية النابوليونية أن تلائم بأي شكل من الاشكال امكاناتها العسكرية والاجتماعية . وأشار تروتسكي الى ان هيئة الاركان العليا الفرنسية ، وفوش بوجه خاص ، حاولت عبثاً ان تستخدم الاستراتيجية النابوليونية ، فوضع فرنسا في اوروبا في ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ما كان يمكن ان يسمح لها بذلك ، ولم يسمح به أبداً . وسخر تروتسكي من ذلك « المذهب البروليتاري » الجديد ، الذي لم يكن غير نسخ بسيط عن الكتب الفرنسية لما قبل ١٩١٤ ، اذا نظرنا اليه عن كثب .

بأن عهد الفرسان قد ولى . وحين غيّر رأيه اخيراً ، كتب في ايلول / سبتمبر ١٩١٩ : « هذا الجسم المحافظ جداً والذي اضمحل الى حد بعيد ، يشهد انبعاثاً حقيقياً . لقد اصبح السلاح الهجومي والدفاعي الأهم في أيدي الطبقات الأكثر محافظة والاكثر انحطاطاً . علينا أن ننتزع من يدهم هذا السلاح ونجعله سلاحنا » . المرجع المذكور ، ج ٢ ، ك ١ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ . وقد احتفظ بودييني بنفور شرعي حيال تروتسكي الذي رفض خطته في البدء بازدراء .

(١٠) لكي يدعم تروتسكي هذا الاستدلال ، تصور المشكلات الدفاعية التي سيكون على البروليتاريا الانكليزية ان تحلها ، لو كان عليها ان تواجه خطر غزو . رسم لوحة لهذا الدفاع : تحصين السواحل ، والشطوط ، وتقوية الابراج المصفحة ، والاسلاك الشائكة ، والحواجز المعترضة ، على الطرقات التي تقود الى داخل الجزيرة ، الخ . وهي لوحة عرفتها انكلترا في ١٩٤٠ - ١٩٤١ . المرجع المذكور ، ج ٣ ، ك ٢ ، ص ٢٦٨ .

كل تحديد لـ « جوهر» الحرب عموماً وللحرب البروليتارية بوجه خاص ، ليس غير هذيان ما ورائي[١١] . إن نوعاً من الانتقائية ضروري في ميدان النظريات العسكرية ، وكان تروتسكي يتبنى صيغة لكلاوزفيتز : « في الفنون العملية ، علينا ألا نترك أوراق النظرية وزهورها تنمو كثيراً ، بل أن نقربها من التجربة التي هي ميدانها الطبيعي » . كان يهتم كثيراً بالمناهج التجريبية الخاصة بالامبرياليين الانكليز ، الذين « يفكرون على اساس القرون والقارات » ، ويعامل من دون مراعاة ورثة كلاوزفيتز الالمان . ما من مذهب « قومي » للحرب يقدم ، في نظر تروتسكي ، « حقيقة اخيرة » حول الحرب ، ولا يمكنه أن يقدم هكذا « حقيقة » . ولا تفعل أي مدرسة اكثر من عكس الشروط المؤقتة لوجود أمة من الأمم . إن المذهب الانكليزي حول توازن القوى والسيطرة على البحار ، والنظرية العسكرية الحذرة لألمانيا بيسمارك ، التي كانت تسير بمحاذاة العدوانية الدبلوماسية ، والمذهب الهجومي الصرف للمرحلة اللاحقة من الامبريالية الالمانية التي كانت تنبذ أي حذر ، مندفعة في سياق حركتها الخاصة بها ، والمذهب الهجومي البونابرتي لفرنسا ما قبل ١٩١٤ (ويمكن حتى أن نضيف رد الفعل الذي استثاره والذي كان اسمماجينو رمزه ، قبل ١٩٤٠) ، كل هذه المذاهب لا تفعل غير عزل بعض وجوه التجربة العسكرية ولحظاتها وغير المبالغة في تلك الوجوه واللحظات . إن الفكر الماركسي لا يتلاءم مع أي دوغمائية على الصنعيد العسكري . « الخائن وحده يتخلى عن الهجوم ، الأحمق وحده يختصر كل استراتيجية بالهجوم »[١٢] .

إن دراسات تروتسكي وخطبه مرصعة أحياناً بإيحاءات واستباقات مثيرة للاهتمام ، يقدمها خلال قيامه بتحليل ، ولا يمكن ان نذكرها كلها ها هنا . فيما يناقش استراتيجية الحرب العالمية الثانية ، قبل عشرين عاماً من انفجارها ، يؤكد انها ستختلف عن الحرب العالمية الاولى الى حد بعيد ، سواء في اوروبا الغربية أو في روسيا . ففي اوروبا الغربية ، ستكون حرب الخنادق أقل أهمية بكثير ، أو انها ستختفي كلياً . أما روسيا فستشهد ، على العكس ، حرب مواقع اكثر بكثير مما خلال الحرب الأهلية[١٣] . وفي مجادلة ضد فرونزي

---

(١١) إذا استعرضنا « الحقائق الخالدة » للعلم العسكري ، لا نحصل إلا على بعض البديهيات المنطقية ، وبعض الفرضيات الاوقليدية . دافعوا عن خاصرتكم ، اضمنوا طرق مواصلاتكم وانسحابكم ، اضربوا العدو حيث دفاعاته اضعف ، الخ . هكذا مبادىء يمكن تطبيقها حتى في ميادين بعيدة جداً عن فن الحرب . فالحمار الذي يسرق الشعير من ثقب في الكيس (« النقطة الأضعف في دفاعات العدو ») والذي يدير عجيزته الى الاتجاه المواجه لذلك الذي يأتي منه الخطر ، يتصرف بالتأكيد وفقاً للمبادىء الخالدة للعلم العسكري » . المرجع المذكور ، ج ٣ ، ك ٢ ، بحث حول « المذهب العسكري والمذهبية العسكرية الزائفة » .

(١٢) المرجع ذاته ، ص ٢٢٢ .

(١٣) المرجع ذاته ، ص ٢٦٨ .

وفوروشيلوف ، اكد تروتسكي انه إذا هاجمت روسيا في الغرب دولة رأسماليةٌ اقوى تقنياً ، ستكون مهمة الجيش الأحمر خلال المرحلة الاولى من القتال ، ان يدافع عن نفسه لا أن يهاجم ، لأن التعبئة في روسيا ستكون بطيئة ، ولأن عمليات دفاعية ستعطي الفرصة لانجازها . سيكون من غير المفيد ، بالتالي ، اطلاقاً أن ترسَّخ في ذهن الجيش فكرة التفوق المعنوي المحتوم لدى المهاجم . « فبما اننا نتمتع بالمساحة الواسعة والعدد الكبير ، فبوسعنا أن نحدد بهدوء وثقة الخط الذي ستسمح لنا عليه التعبئة ، التي اصبحت ممكنة بفضل دفاعنا الباسل ، بجمع قوة ضاربة كافية للانتقال الى الهجوم المضاد »(١٤) . بمعنى آخر ، يمكن للجيش الأحمر ان يضطر للتراجع ، لكن عمق تراجعه ستحكمه حاجات التعبئة بشكل حصري .

« (إلا أنه) إذا كنت الأول الذي يهاجم ، ولم يكن هجومي مدعوماً بالتعبئة بشكل كافٍ ، وكنت مضطراً للتراجع ، حينئذٍ تزل بي القدم ويمكن أن يكون ذلك لا يُعوَّض . وعلى العكس ، إذا كانت خطتي تلحظ انسحاباً أولياً ، وإذا كانت تلك الخطة واضحة للضباط الكبار ، وإذا كان لدى هؤلاء ثقة بالمستقبل القريب ، وكانوا ينقلون تلك الثقة إلى اسفل الهرم ، وإذا لم يكن يلغم تلك الثقة الرأي المسبق الذي يريد بكل الوسائل ان نكون البادئين بالهجوم ، حينئذٍ تتوفر لي الحظوظ كلها للنهوض مجدداً وكسب المعركة »(١٥) .

وبديهي أن تروتسكي لم يكن يرى فائدة هيئة الاركان الاممية الكبرى التي تحدث عنها توخاتشيفسكي . وقال : سيحين الوقت لخلق اجهزة من هذا النوع ، حين تجهِّز جيوش حمراء اخرى بعد اندلاع ثورات اصيلة في الخارج . لكنه رأى أن من الضروري وضع قواعد الحرب الاهلية وقوانينها ، التي ستتكثف فيها بعد نقاشات مسبقة تجارب الثورات والانتفاضات في البلدان المختلفة . ورسم حتى لمحة عامة عن قوانين الحرب الاهلية وقواعدها تلك .

غداة الحرب الاهلية ، اهتم تروتسكي بمشكلات التربية في الجيش ، وبالتعقيدات التقنية للحرب ، وبعلاقاتها الاكثر فأكثر وثاقة بالسياسة . وكتب يقول : « في تكوين الضابط الأحمر الكبير ، علينا أن ننمي في الوقت ذاته القدرة على القيام بتقديرات تأليفية synthétiques لدمج كل أنواع الاسلحة الحديثة ، وللتفاعل فيما بينها ، واكتساب توجه

(١٤) المرجع ذاته ، ص ٢٥٦ .

(١٥) الاستشهاد المذكور .

سليم سياسي واجتماعي . . . »[١٦] . وفي الاكاديمية العسكرية ، اوصى كبار الضباط بأن يتعلموا اللغات الاجنبية ، ويخرجوا من قوقعتهم القومية ، ويوسعوا آفاقهم و « يستفيدوا من التجربة العالمية للبشرية كافة » .

---

(١٦) المرجع المذكور ، ج ١ ، ص ١١ .

هزيمة في الانتصار

مثل بطل تراجيديا كلاسيكية ، وصل إلى ذروة السلطان ، كان تروتسكي يترنح . كان يعمل ضد مبادئه ، وبالرغم من الالتزام الادبي الأكثر رسمية . لقد أوصلته إلى هذا الوضع الصعب الظروف ، وهمُّ الدفاع عن الثورة كما عنفوانه الشخصي . وفي الموقع الذي كان يشغله ، كان من الصعب أن يفلت منه ؛ وقد كانت إجراءاته التتمة شبه المحتومة لكل ما فعله من قبل ، وخطوة واحدة كانت الآن تفصل العظمة عن الشؤم - فرفضه للمبادىء بالذات كان يمليه عليه مبدأ أيضاً . إلا أنه بتصرفه كما تصرف ، كا ن يزعزع الأرض ذاتها التي يقف عليها .

حوالى نهاية الحرب الاهلية ، دشن مناهج عمل ما كان بوسع الحزب البلشفي وبوسعه هو بالذات أن يضعاها موضع التنفيذ إلا عن طريق كبح مقاومة الطبقات الاجتماعية التي صنعت الثورة أو ساندتها . فالبلاشفة كانوا قد فضحوا الديمقراطية البورجوازية كتضليل يخفي لامساواة الطبقات الاجتماعية وهيمنة البورجوازية . لكنهم كانوا قد التزموا بدعم الديمقراطية البروليتارية ، ضامنين حرية التعبير والتنظيم للطبقة العاملة والفلاحين الفقراء . وما من قائد بلشفي كرر هذا التعهد قدر ما كرره تروتسكي ، وبالحماس ذاته الذي ابداه . والمفارقة مذهلة لا سيما أنه كان في الوقت ذاته معارضاً بحزم لتصدير الثورة على رؤوس الحراب . وكانت تلك المعارضة النتيجة المنطقية لمبدأ الديمقراطية البروليتارية . فإذا كان على الطبقة العاملة في بلد معين أن تكون سيدة نفسها ، فمن العبث ، لا بل الاجرام ، محاولة فرض نظام اجتماعي معين عليها « من الخارج » . وهذه الحجة كانت تطبق بالأولى على الطبقة العاملة الروسية : هي أيضاً كان يجب ان تكون سيدة بلادها . لكن السياسة التي تصورها تروتسكي يومذاك ، لم تكن تتناسب مع هذا الـ Samodeyatelnost ، تقرير الطبقة العاملة الذاتي لمصيرها السياسي ، الذي دافع عنه بلا ملل طوال عشرين عاماً ، والذي سيدافع عنه من جديد خلال سنواته السبع عشرة من النضال المكشوف ضد ستالين .

في البدء أطلق الخط السياسي الجديد بموافقة لينين . لكن مع تقدمه في هذه

الطريق ، وجد متحداً ضده لينين ومعظم البلاشفة الذين كانوا يذكُرون بمبادىء الديمقراطية البروليتارية . مذاك ، كانت افكاره تنطبع بوضوح بطابع تلك « الاستبدالية » (تبادل الأدوار) التي فضحها في الماضي كالآفة الرئيسية في البلشفية ، أو بالأحرى كالعاهة الوراثية للسياسة الثورية الروسية . ففي نظره أن الحزب ، المستضيء بفهمه لـ « المهام الراهنة » ولـ « رسالته التاريخية » الخاصة به ، عليه أن يُحلَّ هذا الفهم وهذه الرسالة محل تمنيات أوسع الشرائح الاجتماعية التي قادها الى الثورة ، ومحل جهودها . هكذا بدأ تروتسكي يشبه كاريكاتور لينين هذا الذي رسمه في الماضي البعيد[1] .

ما الذي كان يفسر هذا التحول الخارق ؟ ما الذي كان يدفع نبي الثورة المسلح والظافر إلى مناقضة نبوءته الخاصة به ؟ قبل محاولة الاجابة عن هذين السؤالين ، علينا أن نرسم سريعاً لوحة الوضع الاقتصادي والاجتماعي في روسيا ، لأنه على هذه الأرضية بالذات ، كانت الدراما تُمثّل مذاك .

***

منذ نهاية عام **١٩١٩** ، لم يكن تروتسكي يخصص غير القليل من الالتفات الى القضايا العسكرية . فنهاية الحرب الاهلية لم تعد أمراً مشكوكاً به ، وفي النصف الثاني من العام **١٩٢٠** ابتعد قليلاً عن قيادة السياسة العسكرية ، بسبب الاختلاف في وجهات النظر مع المكتب السياسي بصدد حرب بولونيا . لكنه كان يشغل نفسه منذ بعض الوقت بمشكلات اعادة البناء الاقتصادي ، بوجه خاص . وكان يتصدى لهذا الحقل الجديد بالثقة والحمية اللتين وفرهما له نجاحه في مفوضية الحرب ؛ وكان يغريه أن يطبق عليه الطرائق التي ركّزها واختبرها في الميدان العسكري . وفي ١٦ كانون الاول / ديسمبر **١٩١٩** ، عرض على اللجنة المركزية مجموعة من المشاريع (« الاطروحات ») لإعادة تحويل اقتصاد الحرب الى اقتصاد سلام ، وكان التدبير الرئيسي الذي اقترحه هو عسكرة العمل . وهو لم يكتب هذه الوثيقة إلا لأعضاء اللجنة المركزية ، آملاً حفز نقاش في تلك الدائرة الضيقة ، لكن بوخارين أخطأ فسارع الى نشر المقال في **البرافدا** ، فتسبب عدم الاحتراس هذا بمجادلة علنية عنيفة استمرت حتى ربيع عام **١٩٢١**[2] .

كانت سنوات الحرب العالمية ، والثورة ، والحرب الاهلية والتدخل الاجنبي قد ادت الى الخراب الكامل للاقتصاد الروسي ، وإلى تفتيت بنيته الاجتماعية . فالبلاشفة

(١) انظر الفصل الثالث .

(٢) تروتسكي ، سوشينيا ، ج ١٥ ، ص ١٠ - ١٤ ، ٣٦ .

اضطروا لأن يستخلصوا من اقتصاد مدمر وسائل القيام بالحرب الأهلية . وفي عام ١٩١٩ ، كان الجيش الأحمر استنفد كل مخزونات العتاد والذخيرة وتموينات أخرى ، وما كان يمكن الصناعات الموضوعة تحت الرقابة السوفياتية أن تحل محلها إلا جزئياً . في الايام العادية ، كان جنوبي روسيا يقدم الفحم والحديد والفولاذ ومواد أولية اخرى لصناعات الوسط والشمال . لكن روسيا الجنوبية التي احتلها الالمان في البدء ، ثم دنيكين ، لم تكن تخضع لإشراف السوفييتات إلا بصورة متقطعة ولفترات قصيرة . وحين استعادها البلاشفة نهائياً حوالى نهاية عام ١٩١٩ ، اكتشفوا ان مناجم الفحم في الدونيتز مغمورة بالمياه ، والصناعات الاخرى مدمرة .ولقد شل المراكز الصناعيةفي سائر انحاء البلاد حرمانها من الفحم والمواد الاولية . وحتى حوالي نهاية عام ١٩٢٠ ، كانت مناجم الفحم تقدم أقل من عشر انتاجها ما قبل الحرب ، وكانت مصانع التعدين تقدم أقل من واحد على عشرين . أما إنتاج المواد الاستهلاكية فكان يبلغ ربع الانتاج العادي تقريباً . وفاقم الكارثة تدمير طرق المواصلات . فالسكك الحديدية والجسور تعرضت للنسف في كل انحاء البلاد ،ومنذ عام ١٩١٤ لم يتم تجديد عربات النقل ، التي لم تستفد من عمليات الصيانة إلا قليلاً . لقد شُلَّت المواصلات حتماً . (فلنشر عابرين إلى أن هذا هو أحد اسباب هزيمة الجيش الأحمر في بولونيا . فالسوفييتات جندت خمسة ملايين رجل ، لكن أقل من ٣٠٠ ألف رجل منهم شاركوا في المعارك الاخيرة من حملة بولونيا . بمقدار ما كانت الاسلحة تتقدم ، كانت سكك الحديد أقل فأقل قدرة على نقل تعزيزات ومؤ ن الى مسافات أطول فأطول) . وكانت الزراعة منهارة هي الأخرى ، فمنذ ست سنوات لم يتمكن الفلاحون من تجديد تجهيزاتهم . وخلال تقهقر الجيوش وخلال هجماتها ، كانت تدوس حقولهم وتصادر جيادهم . لكن الزراعة قاومت أفضل من الصناعة ، بسبب طابعها التقني البدائي . فالموجيك كان يعمل بواسطة محاريث خشبية يستطيع صنعها أو إصلاحها بنفسه .

اجتهد البلاشفة في ممارسة رقابة صارمة على تلك الموارد الضئيلة ، ومن هذا الجهد ولدت شيوعية الحرب . لقد أمموا الصناعة بأسرها ، وألغوا التجارة الخاصة ، وأرسلوا مغاوير عمالاً الى الارياف يصادرون التموين لصالح الجيش وسكان المدن . كانت الحكومة عاجزة عن جباية الضرائب بشكل طبيعي ، إذ لم تكن في خدمتها الدوائر اللازمة . ولكي تغطي الحكومة نفقاتها ، كان طبع الاوراق النقدية يتم ليل نهار ، فانخفضت قيمة العملة لدرجة الاضطرار إلى دفع الرواتب والاجور عيناً . كانت وجبة الطعام الهزيلة تشكل الاجر الاساسي ، وكان يقبض العامل جزءاً من نتاجه ، زوج احذية .

هذه المجموعة من السبل والوسائل اليائسة ، بدت للحزب كما لو كانت تحقيقاً لبرنامجه الخاص به بسرعة غير متوقعة . فتشريك الصناعة كان تم ببطء أشد وحذر اكبر لو لم تحدث الحرب الاهلية ، لكن ذلك كان ، في كل حال ، احد الأهداف الرئيسية للثورة . إن مصادرة التموين ، وحظر التجارة الخاصة ، ودفع الاجور عيناً ، وتدني قيمة العملة ، وارادة الحكومة الاشراف على الموارد الاقتصادية للأمة ، كل هذا كان يشبه بشكل سطحي إلغاء اقتصاد السوق ذاك الذي كان قاعدة الرأسمالية . فالاقتصاد الشيوعي المحقق كلياً ، الذي كانت تتحدث عنه الكتب الماركسية ، كان ينبغي أن يكون اقتصاداً طبيعياً ، حيث يحل الانتاج والتوزيع ، المخططان اجتماعياً ، محل الانتاج للسوق والتوزيع الذي ينظمه المال . كان يميل البلشفي إذاً إلى أن يرى في اقتصاد الحرب في ١٩١٩ - ١٩٢٠ الملامح الاساسية لشيوعية محققة كلياً . وكانت تثبّت ذلك الرأي لديه المساواتية الصارمة التي كان حزبه ينادي بها ويمارسها ، والتي كانت تضفي على شيوعية الحرب طابعاً رومانسياً وبطولياً .

وفي الواقع أن شيوعية الحرب كانت تحريفاً مأساوياً ساخراً للرؤ يا الماركسية للمجتمع القادم . فهذا المجتمع كان ينبغي أن تكون قاعدته وسائل انتاج رفيعة التطور والتنظيم ، وفيض خيرات وخدمات . كان عليها ان تنظم الثروات الاجتماعية التي لم تكن الرأسمالية البالغة ذروتها تنتجها إلا بصورة غير منتظمة ، ولم يكن في وسعها أن تراقبها أو توزعها أو تنميها عقلانياً ، كما كان عليها أن تطور تلك الثروات . كان على الشيوعية أن تلغي إلى الأبد التفاوتات الاقتصادية عبر رفع مستوى المعيشة . أما شيوعية الحرب فكانت ، على العكس ، نتيجة التفتت الاجتماعي ، وتدمير وسائل الانتاج وإفساد نظامها ، وتندير لا مثيل له للخيرات والخدمات . كانت تسعى لإلغاء التفاوتات ، لكنها الغتها ، مضطرة ، عن طريق خفض مستوى المعيشة وتعميم الفقر[٣] .

لم يكن يمكن لهذا النظام أن يعمل طويلاً ، فمصادرة التموين وحظر التجارة الخاصة سمحت للحكومة ، مؤقتاً ، بالتغلب على الصعوبات الأكثر الحاحاً ، لكن هذه السياسة كانت تفاقم ، مع الوقت ، خراب الاقتصاد واختلال تنظيمه ، وتسرعهما . بدأ الفلاح يحجم عن اشتغال أرضه إلا بالقدر اللازم لإعالة أسرته ، رافضاً أن ينتج الفائض الذي كان يترصده مغاوير المصادرات . وحين يرفض الريف ان ينتج الطعام للمدينة تنهار أسس الحضارة المدينية بالذات . هكذا أقفرت المدن الروسية ، فقد غادرها العمال الى الريف

(٣) يمكن للقارىء ان يجد عرضاً مفصلاً وكاملاً لشيوعية الحرب في إ . هـ . كار ، الثورة البلشفية ، ج ٢ .

هرباً من المجاعة . أما الذين مكثوا فكانوا يتلاشون في المصانع ، وينتجون القليل ، ويسرقون في الغالب ما يصنعونه ليبادلوه بالطعام . لقد زالت السوق التقليدية القديمة ، لكن ابنتها غير الشرعية ، السوق السوداء ، كانت تدمر البلاد عن طريق تزييف العلاقات الانسانية والحط منها ، كما لو للانتقام . وكان يمكن ان يدوم ذلك سنة أخرى أو سنتين ، لكنه كان سيقود بالضرورة الى انهيار كل حكم والى التفتت الاجتماعي .

كان ذلك هو الوضع الذي انكب عليه تروتسكي في نهاية عام ١٩١٩ . ولمواجهته ، كان عليه ان يختار بين طريقتين . فبإمكان الحكومة أن تضع حداً لمصادرة المحاصيل وتطبق على الفلاحين نظام الضرائب ، نقداً أو عيناً . وحين يدفع الفلاح ضرائبه ، يُسمح له بالتصرف بمحصوله كما يشاء ، فيستهلكه ، أو يبيعه ، أو يبادله ، وهو امر يدفعه لانتاج الفائض للاستهلاك المديني . وباستئناف تحويل المحاصيل الزراعية من الريف الى المدن ، يمكن توقع إعادة تسيير الصناعة المؤممة . وفي الحقيقة ان ذلك كان يمكن ان يكون الحل الحقيقي الوحيد ، لكن إصلاحاً من هذا النوع كان يفترض إعادة التجارة الخاصة ، وما كان يمكن لذلك إلا أن ينسف كل بناء شيوعية الحرب الذي كان يعتز به البلاشفة .

أما الطريقة الأخرى فكانت تتمثل في السعي وراء حل ضمن دوّامة شيوعية الحرب . فإذا قررت الحكومة مواصلة المصادرات وتعزيز حظر التجارة الخاصة ، عليها ان تزيد الضغط على الفلاحين ، بإجبارهم أولاً على انتاج المزيد من الغذاء ، ثم بمصادرته . ويمكن ان تعد بمكافآت خاصة للمنتجين : ألبسة ، أحذية ، مواد زراعية . لكنها لم تكن قادرة على فعل ذلك قبل ان يصلح العمال الجائعون المصانع المتلفة أو المنهارة ويعيدوا تسييرها ، ولا قبل أن يشرعوا بإنتاج الخيرات التي كان يطالب بها الفلاحون . كانت الحكومة مضطرة إذاً لاشتراط إنتاج صناعي متزايد . ولما كانت عاجزة عن تقديم ما يشجع العمال على زيادة الانتاج ، فقد كانت ستضطر لأن تفرض عليهم ، كما على الفلاحين ، ضغطاً اكثر فأكثر صرامة . وكانت تلك علامة اكيدة على الطابع الطوباوي لشيوعية الحرب ، التي كانت ستستمر في تجاهل الحقائق حتى تنخرط في مأزق ولا تعود تستطيع الابقاء على نفسها إلا بتعزيز تدابير العنف دون توقف .

في البدء ، لم يذهب تروتسكي ما وراء السياسة المتبناة . كان يهتم بإيجاد وسيلة لاعادة تجميع الطبقة العاملة المبعثرة وردها إلى الصناعة . كان هنالك العمال الذين مضوا إلى الريف ؛ واولئك الذين تركوا عملاً متخصصاً لصالح عمل يدوي بغية الحصول على تسهيلات تموينية ؛ والمنحدرون من طبقتهم ، اخيراً ، الذين كانوا يكرسون انفسهم كلياً

للسوق السوداء ، وقد فقدتهم الصناعة . كيف إعادتهم جميعاً الى بيئتهم الطبيعية وإعادة دمجهم في جهاز الأمة الانتاجي ؟ ولما كان لا يمكن اجتذابهم بوعدهم بحياة افضل ، استنتج تروتسكي أنه ينبغي تجنيد العمال للعمل في المصانع كما يجنّد العساكر للعمل في الجيش . وهكذا توصل بصورة تجريبية خالصة الى فكرة عسكرة العمل . كانت الثورة نادت عالياً جداً بواجب العمل الذي ينبغي ان يلتزم به كل المواطنين ، وأعلنت ان « من لا يعمل لن يأكل » ؛ وفكر تروتسكي ان الوقت قد حان لتثبيت ذلك الواجب . ارسلت الثورة مئات الآلاف من الرجال ليموتوا في ميادين القتال ، فلماذا لا يكون من حقها أن ترسل الناس إلى المشاغل والمناجم حيث ينبغي خوض معركة جديدة لأجل الحياة .

في هذه « الاطروحات » التي نشرتها البرافدا قبل الأوان ، في ١٧ كانون الأول / ديسمبر ١٩١٩ ، كان تروتسكي يربط هذه الخطة ، بشكل مميز ، بالاصلاح العسكري الذي كان يلحظه : تحويل الجيش إلى نظام ميليشيات . كان يقترح استخدام اجهزة التعبئة العسكرية للتعبئة من اجل العمل المدني . ومن الغريب رؤ ية كيف كانت رغبته في المبادرة الى اصلاح ديمقراطي للغاية في الجيش تتلازم مع محاولته إدخال ذلك الشكل المتطرف من العمل القسري . كان ينبغي ان يتشبع الجيش بحس المواطنية المدنية ، وأن يعاد تنظيم مفارزه على اساس وحدات الانتاج ، أما العمل المدني فكان ينبغي إخضاعه للانضباط العسكري ، وكان يجب أن تمد الادارة العسكرية الوحدات الصناعية باليد العاملة . كانت مفوضية الحرب ستضطلع بوظائف مفوضية العمل[٤] .

كان لينين يدعم سياسة تروتسكي كلياً ، فقد بقي مخلصاً لشيوعية الحرب التي كان يمكن أن تعمل ، بشكل ما ، لكن شرط أن تنجح التدابير التي اقترحها تروتسكي . كما أن لينين لم يعترض على تكليف مفوضية الحرب بمد العمل الصناعي باليد العاملة . كان على هذه أن تركز من الألف الى الياء مختلف القطاعات المدنية في ادارتها ، وبعد سنوات الحرب الاهلية كان معظم تلك القطاعات لا يزال في طوره البدائي . لقد امتصت مفوضية الحرب خيرة الرجال ، واستحوذت بالاولوية على موارد الحكومة ، وكان يقودها الاداري الأكثر نفاذ بصر . كان جهازها ، القدير وفائق الفعالية ، العنصر الأكثر صلابة في ادارة لينين ، ومرتكزها الحقيقي . وكان توجيه المفوضية نحو العمل المدني يبدو قضية سهولة ادارية .

مذ عُرفت تلك الاقتراحات ، أثارت سيلاً من الاحتجاجات . ففي اجتماعات اعضاء الحزب والاداريين والنقابيين ، قوبل تروتسكي بصياح الاستنكار ، كما لو كان

---

(٤) في ٢٧ كانون الاول / ديسمبر ، أعلن أن الحكومة شكلت لجنة واجب العمل ، برئاسة تروتسكي .

« أراكشييف الجديد » ، كمقلد لذلك الجنرال سيء السمعة ، الذي كان وزيراً للحرب في عهدي الكسندر الأول ونقولا الأول ، ونظم معسكرات زراعية ساقها بالعصا . مذاك كانت عبارة **أراكشيفششينا** ، مرادفاً ، على الدوام ، للغارات العبثية التي يقوم بها الخيال البيروقراطي ـ العسكري ، في الميدان الاقتصادي والاجتماعي . ارتفعت صيحات احتجاج في الصحف البلشفية ، وكانت تصدر عن شركاء قدامى لتروتسكي ، كريازانوف ولارين ، وعن بلاشفة مرموقين ، كريكوف وميليوتين ونوجين وغولتزمان ، وآخرين أيضاً . كان التعب من الحرب الاهلية ونفاد الصبر حيال مهندس النصر يمتزجان بتلك الاحتجاجات . وكما يحدث دائماً في فترات الكمون ، بعد التوتر وتضحيات الحرب ، كان الناس يتمنون ان يكلل بالغار صانع النصر ، لكنهم كانوا اكثر استعجالاً ايضاً ليلقوا عن كواهلهم صرامة انضباط زمن الحرب ؛ وكانوا يبحثون عن أدلاّء يكونون رجالاً ذوي مزاج اقل احتداماً ، ومواهب أقل لمعاناً ، لكنهم يرغبون في مواصلة العمل المشروع به بلطافة اكثر . كنت تسمع البلاشفة القدامى الذين اكتسبوا صلابة في المعارك يعلنون انهم ملوا فرائض الجيش ، وأن مفوضية الحرب أبقت البلاد طويلاً في وضع الارهاب وامتصت دمها ، وأنهم لا يريدون تشجيع طموحات تروتسكي الجديدة .

بلغت القضية ذروتها في ١٢ كانون الثاني / يناير ١٩٢٠ ، حين ظهر لينين وتروتسكي أمام قادة النقابات البلاشفة لحثهم على القبول بالعسكرة . وقد دافع تروتسكي عن تقريره ، فقال إنه إذا كانت مفوضيته « نهبت » البلاد وفرضت انضباطاً صارماً ، فقد فعلت ذلك لربح الحرب . إنه لعار و « خطيئة ضد روح الثورة » أن يجري الانقلاب عليها وإثارة الطبقة العاملة ضد الجيش . كان خصومه راضين عن وضع البلاد الاقتصادي ، وكانت الصحف تخفي الحالة الحقيقية . « من الضروري الاعلان جهاراً وبصراحة أمام البلاد بأسرها أن وضعنا الاقتصادي اسوأ مئة مرة مما كان عليه وضعنا العسكري في أي يوم من الايام . . . ومثلما أطلقنا شعار : « أيها البروليتاريون ، امتطوا الجياد ! » علينا أن نصيح الآن : « أيها البروليتاريون عودوا الى مشاغلكم ! أيها البروليتاريون ، استأنفوا الانتاج ! »[٥] . كانت طاقة العمل لدى الأمة مستمرة في النقصان والتقهقر ، وما كان بالامكان إغاثتها وإعادة تكوينها وتجديدها من دون تطبيق تدابير اكراهية . وتكلم لينين بالمعنى ذاته ، إلا أن المؤتمر التداولي رفض بالاجماع تقريباً مشروع القرار الذي اقترحه لينين وتروتسكي ، ولم يصوت إلى جانبه إلا قائدان بلشفيان فقط من أصل اكثر من ستين . ولم يحدث في الماضي أن مني لينين أو تروتسكي بفشل مماثل .

(٥) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ص ٢٧ ـ ٥٢ .

لم تكن انتقادات تروتسكي حول رضى اخصامه غير مبررة ، فمن كانوا ينتقدونه لم يكونوا يقترحون ـ ولم يكن بامكانهم أن يقترحوا ـ أي حل عملي آخر . هم أيضاً كانوا مخلصين لشيوعية الحرب ، ولم يكونوا يشجبون إلا الاستنتاج الذي كان تروتسكي يستخلصه منها . كان سهلاً إذاً بالنسبة إليه أن يشير إلى انعدام المنطق لديهم . إلا أنه كان في اللامنطق هذا قدر من الواقعية ووساوس مشروعة . كان خصوم تروتسكي يرفضون الاعتقاد بأن دواليب الاقتصاد يمكن تسييرها بأمر من القيادة العسكرية ، وكانوا مقتنعين بأنه سيىء بالنسبة لدولة عمالية أن تتصرف كفرقة تجنيد اجباري تجاه طبقتها العاملة الخاصة بها(٦) .

في الفترة ذاتها ، كان جيش العمل الأول يتنظم ، لا بعسكرة العمل المدني بل بتحويل جيش نظامي الى قوة عمل . وقد جاءت المبادرة من مجلس الحرب الثوري للجيش الثالث ، المتمركز في الأورال ؛ فبعد انتصار هذا الجيش على كولتشاك ، كان يبذر وقته وطاقته في الفراغ . وكان يستحيل تسريحه وارسال الناس الى بيوتهم ، إذا لم يكن لشيء فلانعدام وسائل النقل . وقد اقترح مجلسه الحربي الثوري استخدام الجيش ، أثناء الانتظار ، لقطع الاخشاب والأعمال الزراعية ومهمات أخرى . وقد استقبل لينين وتروتسكي بالايجاب هذا الاقتراح الذي كان يعطيهما فرصة لتطبيق سياستهما دون الاصطدام بمقاومة . ولم تعترض النقابات إطلاقاً على هذا الاستخدام المنتج لفيالق عاطلة عن العمل(٧) .

كان تروتسكي يأمل استخدام هذه التجربة كنقطة انطلاق لتجنيد الشغيلة المدنيين وقيادتهم . والأمر في غاية السهولة : يكفي أن يعمد الجيش ، قبل تسريح رجاله ، إلى إحصاء مؤهلاتهم المهنية ؛ تُسجَّل مهنة كل جندي على سجله العسكري ، ويتم توجيه كل واحد من نقطة تسريحه إلى مكان العمل حيث ثمة حاجة اليه ، بصورة مباشرة . وكان تروتسكي يتطلع إلى دمج سجل الجندي العسكري بسجل العمل الخاص بالعامل ، ـ وهو مشروع يسهل كذلك تكوين ميليشيات على أساس وحدات الانتاج . وكانت تلك فكرة بارعة ، عيبها الوحيد هو ان الجندي المسرَّح ، والمتلهف للعودة إلى أسرته أو للسعي وراء شروط معيشة أفضل ، يمكن أن يغادر مكان العمل الذي ألحق به . وكان تروتسكي يضع مخططات لتنظيم كانتينات(*) قروية معدة لجذب الشغيلة ؛ لكن مشاريع من هذا النوع لم

---

(٦) ملأت هذه المجادلة صفحات الحياة الاقتصادية و البرافدا طوال شهر كانون الثاني / يناير ١٩٢٠ .

(٧) محفوظات تروتسكي .

(*) الكانتين ملهى مجاني للجنود (م) .

تكن قابلة للتحقيق في حقبة قحط وفوضى . كان تروتسكي يبدي إبداعاً وفرادة مذهلين ، لكن خياله كان يعمل بشكل محموم في الفراغ ؛ ولم يكن لافكاره أي تأثير على الواقع .

بعد جيش الأورال ، فُصل جيشا القوقاز واوكرانيا إلى العمل في المناجم والغابات ، والحقول . كان تروتسكي يدير كل التنظيم ، وكان الجنرال بونش - برويفيتش رئيس هيئة اركانه ، وبيات كوف ممثله في الأورال ، وستالين المفوض الأعلى لجيش العمل في اوكرانيا . واستبقى التنظيم الانضباط العسكري ، وكان كل جيش عمل يبلغ بانتظام نجاحاته وإخفاقاته على « الجبهة » . (كان تروتسكي أول من طبق تعابير ورموزاً واستعارات عسكرية على القضايا الاقتصادية المدنية ، مدخلاً هكذا إلى اللغة الروسية أسلوباً جديداً وحيّاً ، تجمّد فيما بعد في نوع من التكلف البيروقراطي الذي امتد إلى حقول اخرى) . كانت الآراء منقسمة ، بصدد فعالية جيوش العمل ، - في كل حال ، ما كان يمكن ان تكون ادنى من فعالية العمل المدني في تلك الحقبة . وقد هلل البلاشفة لجيوش العمل ، لا سيما بعد أن بذل تروتسكي جهده لتهدئة النقابات ، والتمس من جيوش العمل أن تتعاون معها ودياً .

كان يحمل الى تلك المهمة كل حماسه وذلك الاندفاع المسرحي اللذين كانا يدفعانه احياناً إلى تضخيم اهمية ما كان يفعله واضفاء هيبة مصطنعة على ما كان في أفضل الأحوال أساليب مؤسفة . هاكم مثلاً ما كتبه في احد أوامره لجيوش العمل :

« ابذلوا في عملكم طاقة لا تكل ، كما لو كنتم في زحف أو وسط معركة . . . القادة والمفوضون مسؤولون عن مفارزهم ، في العمل كما في القتال . . . على المديريات السياسية أن تنمّي الروح العمالية في الجندي وتستبقي الجندي في العامل . . . إن الفار من العمل محتقر وسافل بقدر ما هو كذلك الجندي الهارب من ساحة القتال . فليتعرض هذا وذاك لعقاب صارم ! ابدأوا عملكم واختتموه ، حيث يمكن ذلك ، بالاناشيد والاغنيات الاشتراكية . ليس عملكم عمل عبيد ، بل مهمة عظيمة المنفعة للوطن الاشتراكي »[8] .

في ٨ شباط / فبراير ، مضى الى الأورال مع هيئة اركانه ، ليقوم بتفتيشه الأول لجيوش العمل . وفي صحيفة قطاره ، لننطلق ، توجه لأعضاء هيئة اركانه بالتعابير التالية :

---

(٨) برافدا، ١٦ كانون الثاني / يناير ١٩٢٠ .

« لقد جرى تدمير التنظيم الرأسمالي القديم للعمل إلى الأبد ، والتنظيم الاشتراكي الجديد بدأ يأخذ شكله . علينا أن نغدو البناة الواعين والمنزهين للاقتصاد الاشتراكي ، ولن نجد إلا في هذه الطريق الخلاص والرضى . علينا أن نبدأ من الاساس . . . يتقدم قطارنا نحو الأورال الشمالي ، حيث سنكرس كل قوانا لتنظيم العمل ، الذي سيشارك فيه عمال الأورال ، وفلاحو الأورال ورجال الجيش الأحمر . . يداً بيد . خبز للجياع ! فحم للبرد ! هذا شعار فريقنا في المرة هذه »[9] .

كان كتب لتوّه هذه الكلمات حين هزته ، في الليل العميق صدمة قاسية . لقد خرج قطاره عن السكة في غمرة عاصفة ثلجية عنيفة . بقي قريباً من محطة صغيرة طوال الليل والنهار اللاحقين ، تحاصره اكوام ثلج متراكم . لم يأت أحد ليرى ما حدث ، فالمسؤولون عن المحطة كانوا قد توقفوا عن الاشارة الى مرور القطارات ، وحتى قطار رئيس المجلس الاعلى للحرب لم يلحظه احد . ورغم خطر المحكمة العرفية ، لم يكن احد يهتم بتخليص السكك من اكوام الثلج التي كانت تعرقلها . وكشف هذا الحادث لتروتسكي ، بصورة غير متوقعة ، الفراغ الذي كان ينمو حول سياسة الحكومة وخططها . كان الناس قد غاصوا في بلادة لا حدود لها ؛ وقد غضب تروتسكي وفتح تحقيقاً في الحال عارضاً القضية على المحكمة العسكرية . لكن ذلك لم يمنعه من التفكير بأن القمع وحده لن يكفي لعلاج لا مبالاة الشعب وخدره . وزادت هواجسه قتامة خلال إقامته في الأورال ، حيث أدرك تماماً أن طاقة الأمة وحيويتها كانتا تنضبان عند النبع بالذات ،- في المزارع ، في الريف .

بدأ يبحث مذاك عن العلاج ما وراء شيوعية الحرب . وحين عاد الى موسكو ، كان مقتنعاً بضرورة إعادة قدر من الحرية الاقتصادية إلى الفلاحين . كان يتخيل بتعابير واضحة ودقيقة ذلك الاصلاح الذي لا يمكن لغيره ان يخرج الأمة من الطريق المسدود . ينبغي وضع حد لمصادرة المحاصيل ؛ يجب تشجيع الفلاحين على الزراعة وبيع فائض محاصيلهم بقدر من الربح . ولم يكن الحزب والحكومة يدركان خطورة الوضع ، لأن الجمع الاجباري الاخير اعطى اكثر من سابقه . وقد شرح هذا الواقع بالشكل التالي : بعد رحيل الحراس البيض ، أمكن تطبيق المصادرة على منطقة اوسع بكثير من ذي قبل . « لكن ، في العموم ، كان احتياطي الغذاء على وشك ان ينفد ، وما كان يمكن لأي تحسين لنظام المصادرات أن يعالج ذلك النقص . كانت تلك الطريقة تؤدي إلى تفتيت قوة العمل ، ثم إلى تخفيضها ،

(٩) تروتسكي ، سوشينيا ، ج ١٥ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٥ .

وفي الاخير إلى تقهقر اقتصادي وسياسي »[١٠] .

لم تحظ حجج تروتسكي بقبول اللجنة المركزية ، فلينين لم يكن مستعداً لايقاف المصادرات ، والاصلاح الذي اقترحه تروتسكي بدا له قفزة في المجهول . وقد اشار الى أن الحكومة اظهرت الكثير من العجلة في اعدادها للانتقال نحو السلام ، في حين ابلغ تروتسكي ذاته اللجنة المركزية بأن بولونيا على وشك الهجوم . وبدا للينين اكثر ضمانة أن يتم التمسك بالخط السياسي الذي سبق تحديده ، بدل النيل من الاحتياطي الغذائي للجيش ، الذي تم تكوينه في مختلف الأحوال بفضل المصادرات . ولم يكن ذلك كل شيء ، فلينين واللجنة المركزية لم يكونا اسقطا بعد اوهامهما حول شيوعية الحرب ؛ فهذا النظام قدم خلال الحرب خدمات جلّى ، وكانا يأملان ان يكون اكثر فائدة ايضاً في زمن السلم . كان تروتسكي يقترح اعادة الاقتصاد إلى تقلبات السوق الحرة . وهذا ما كان يطالب به المناشفة ، بالضبط . فهل كان تروتسكي متفقاً معهم ؟ هل أصبح مدافعاً عن الليبرالية الاقتصادية ؟ وقد طُرح عليه هذا النوع من الأسئلة[١١] . قيل له إن الحزب خطا خطوة الى الامام ، باتجاه اقتصاد منظم ومراقَب ، بحيث لا يمكن ان يسمح لنفسه بالتقهقر الى الوراء .

ردت اللجنة المركزية إذاً اقتراحات تروتسكي . وسوف تنتظر البلاد مرور اكثر من سنة ، بعد أن كشف فشل شيوعية الحرب نتائجه المأساوية ، كي يستعيد لينين الاقتراحات ذاتها ، ويضعها موضع التطبيق تحت اسم السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) . آنذاك رُفعت القبعات لتلك السياسة ، ولا تزال ترفع لها ، كومضة عبقرية لدى لينين ، كمثل خارق لدى رجل دولة على القرار الشجاع والخالي من الدوغمائية . وعلى ضوء الأحداث ، يبدو انه جرى الافراط ، على الأقل ، في تقدير البادرة ؛ وحين اخذ تروتسكي ، فيما بعد ، على لينين واللجنة المركزية كونهما قررا أهم تعديلات السياسة الاقتصادية ، متأخرين عاماً أو عامين ، لم يكن الانتقاد في غير محله[١٢] . والحادثة تظهر

---

(١٠) تروتسكي ، سوشينينيا ، ج ١٧ ، ك ٢ ، ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤ . تصعب معرفة اذا كان تروتسكي ادرك بأن القبول باقتراحاته سيقود بالضرورة الى تصفية سياسة شيوعية الحرب التي دافع عنها هو ذاته . وقد اكد بعد مرور سنوات انه لم يكن نصيراً لعسكرة العمل إلا ضمن إطار شيوعية الحرب . وفي المؤتمر العاشر للحزب ، حين تم تبني السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) ، أصر مع ذلك على أن تبقى سياسة العمل التي اطلقها سارية المفعول ، معلناً انها ليست مرتبطة ، بالضرورة ، بشيوعية الحرب . انظر ديسياتني ر . ك . ب . ، ص ١٩١ ، وحياتي ، ج ٢ ، الفصل ٣٨ .

(١١) ديسياتي سييزد ر . ك . ب . الاستشهاد المذكور .

(١٢) انظر رسائل تروتسكي للجنة المركزية والمكتب السياسي ، في ٧ آب / أغسطس ١٩٢١ و ٢٢ آب / أغسطس ١٩٢٢ . المحفوظات .

كذلك الى اي حد لا يمكن دعم الرواية الستالينية للتاريخ التي تجعل من لينين صديق الفلاحين ، ومن تروتسكي عدوهم : إن شهرة لينين كصديق للموجيك تستند قبل كل شيء إلى السياسة الاقتصادية الجديدة .

وقد لاحظ يوفي ، صديق تروتسكي الحميم ، في الرسالة الاخيرة التي كتبها قبل انتحاره ، عام ١٩٢٧ ، ان نقطة الضعف الرئيسية لدى تروتسكي هي كونه لا يثبت في حكمته ، لا سيما حين تعني الحكمة الانعزال[١٣] . ويمكن أن نضيف انه في تلك المناسبة ، عاد تروتسكي الى الجنون المقبول ، بعد أن تلقى اللوم على حكمته ، وثبت في ذلك الجنون بحماس ، إلى درجة ان المجانين ذاتهم وجدوه مفرطاً . فبعد أن ردت اللجنة المركزية اقتراحات تروتسكي ، تراجع عنها ، ولم يستعد مشروعه في المؤتمر التاسع للحزب الذي انعقد بعد شهر واحد ، في نهاية شهر آذار / مارس ١٩٢٠ ، لا بل لم يلمِّح الى ذلك المشروع إطلاقاً . وبدا على العكس كالمسؤول الرئيسي عن السياسة الاقتصادية للحكومة ، وقدم عرضاً متقناً للمرحلة اللاحقة من شيوعية الحرب . فهل اقتنع بأن المراجعة السياسية التي اقترحها كانت غير ملائمة ؟ هل كان يعتبر من غير المناسب الدفاع عن اصلاح كان يطالب به المناشفة ايضاً ؟ أكان يخشى ألا يظهر الحزب ، بمجموعه ، متقبلاً ؟ لا بد أن كل هذه الاسباب لعبت دوراً في تحديد سلوكه .

واصل اقتصاد الأمة تقهقره ، بينما كانت ضرورة اللجوء الى عمل جذري اكثر الحاحاً . ولأن الحزب رفض التخفيف من صرامة شيوعية الحرب ، كان عليه ان يشددها . وقد وافق تروتسكي على تحمل ثقل ذلك المشروع ولا شعبيته . حثه المكتب السياسي على تحمل مسؤولية المواصلات ، المختل تنظيمها كلياً ، ووعده بمساندته حتى النهاية ، مهما تكن قساوة التدابير التي يمكن ان يقررها . فاحتج تروتسكي بعدم صلاحه للمهمة ، لكنه قبل تكليفه مؤقتاً بشؤون وزارة المواصلات ، علاوة على وزارة الحرب[١٤] . واستعاد بثقة متزايدة موضوعة عسكرة العمل ، موضحاً للمؤتمر ان ذلك تدبير لا غنى عنه لضمان تطور موارد الأمة ودمجها في خطة اقتصادية واحدة . كانت لا تزال هنالك مسافة طويلة الى الاقتصاد المخطط ، إلا أنه لم يكن على الحزب والامة توقع بلوغه بخطوات صغيرة حذرة . في الماضي ، تقدمت روسيا دائماً بقفزات ، وعليها أن تستمر على ذاك المنوال ، وبالطبع لم يكن الاكراه على العمل امراً يمكن التفكير فيه في دولة اشتراكية

---

(١٣) محفوظات تروتسكي .

(١٤) انظر مراسلة لينين وتروتسكي (اول شباط / فبراير ، و ٩ آذار / مارس) ، المرجع ذاته .

ناجزة ؛ لكنه « سيصل الى أعلى درجة من درجات كثافته خلال الفترة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية » . حث تروتسكي المؤتمر على تأييد تدابير تأديبية « ينبغي ان تتناسب صرامتها مع الطابع المأساوي لوضعنا الاقتصادي » : يُدفع « الفارون من العمل » الى الكتائب التأديبية أو يرسلون إلى معسكرات اعتقال[١٥] . وطالب كذلك بعلاوات تشجيع لأفضل العمال ، بغية حفز « المنافسة الاشتراكية » ؛ وتكلم اخيراً على ضرورة تبني العنصر التقدمي الذي تنطوي عليه « التايلرية » ، المفهوم الاميركي لادارة العمل وتنظيمه العلمي ، الذي استخدمته الرأسمالية استخداماً سيئاً وكان العمال محقين إذ كرهوه ، لكن الذي يمكن للاشتراكية أن تطبقه تطبيقاً عقلانياً ، وعليها أن تفعل ذلك . تلك كانت أفكاره الصادمة ، وقد وقفت اقلية في المؤتمر ضدها وانتقدت بسخط الاتجاه التسلطي لسياسة تروتسكي . وكانت تلك الأقلية تضم « الفوضويين » ، و « اليساريين ـ المتطرفين » ، و « المركزيين ـ الديمقراطيين » ، بقيادة اوسينسكي وسابرونوف وبريو براجنسكي ، وكلهم اناس سيتحد تروتسكي معهم في يوم من الأيام ضد ستالين . أما آنذاك فكان خصمهم الرئيسي وحصل على موافقة المؤتمر[١٦] .

بعد قليل ، عرض تروتسكي هذه الأفكار السياسية مجدداً أمام مؤتمر النقابات وفصّلها . وطلب إلى النقابات أن تعلم الشغيلة الانضباط ووضع مصلحة الانتاج فوق حاجاتهم أو متطلباتهم الشخصية . وكانت اللجنة المركزية للنقابات قد انقسمت إلى مجموعتين : إحداهما تدعم موقفه « الانتاجوي » ، والأخرى ، التي يقودها تومسكي ، كانت تعتبر أنه لا يمكن للنقابات ألا تدعم مطالب العمال « الاستهلاكية » . أما تروتسكي فكان يرى أن على العمال ان ينتجوا ، أولاً ، الموارد التي تسمح بالاستجابة في المستقبل لمطالبهم ؛ وان عليهم أن يتذكروا أنهم لا يشتغلون لصالح الطبقات المالكة القديمة ، بل للدولة العمالية . وكان معظم النقابيين البلاشفة يعرفون من خلال التجربة أن تحريضات من هذا النوع لا تؤثر في اناس جائعين . لكن بما أن الحزب تبنى سياسة تروتسكي ، لم يكن بإمكانهم معارضته علنياً .

في المؤتمر ، غدا المناشفة ناطقين بلسان المستائين ، فهاجموا جيوش العمل ، ورفضوا التسليم للحكومة بحق تجنيد العمال وحرمانهم من حق الدفاع عن مصالحهم ، واكدوا ان العمل الاجباري لا يجدي . وهتف المنشفي أبراموفيتش متعجباً : « لا يمكن بناء اقتصاد

---

(١٥) تروتسكي ، سوشينيا ، ج ١٥ ، ص ١٢٦ .

(١٦) ديسياتيي سييزد ر . ك . ب . ، ص ٨١ ـ ٨٤ ؛ ١٢٣ ـ ١٣٦ .

مخطط مثلما بنى الفراعنة أهرامهم »[١٧] . أطلق هكذا الصيغة التي سيرددها تروتسكي ، بعد سنوات ، في وجه ستالين . كان المناشفة يقفون على أرض صلبة ، وواقع ان دورهم في الثورة كان هزيلاً ، وكريهاً احياناً ، لم يكن ينتزع شيئاً من منطق حجتهم أو حقيقتها . ولم يكن يستطيع تروتسكي ذاته ان يناقضهم حين كانوا يؤكدون أنه لا يمكن إيقاف تبذير القوة الانتاجية الصناعية طالما لا يكون للفلاحين حق بيع محاصيلهم بحرية[١٨] .

لم يكن رد تروتسكي على تلك الانتقادات شيئاً آخر غير قطعة جميلة سفسطائية . وتكمن قيمتها التاريخية في انها ربما تكون المحاولة الصادقة الوحيدة في التاريخ الحديث لاعطاء تبرير منطقي للعمل القسري ، بما أن السادة والخفراء الحاليين لا يكلفون انفسهم عناء اعطاء شيء من ذلك . وكانت الحجة الرئيسية لتروتسكي أنه في ظل أي نظام اجتماعي ، « على الانسان أن يعمل لئلا يموت » ؛ وأن العمل كان إذاً ضرورة على الدوام ؛ وأن على الشيوعيين ان يتصدوا لهذه المسألة من دون نفاق ، لأنهم الأولون الذين ينظمون العمل لصالح المجتمع بكامله . وانتقل الى الاعتراض ضمناً على معنى الاختلافات في الشكل والدرجة التي اتسم بها هذا الالتزام بالعمل في ظل مختلف الانظمة الاجتماعية . فالانسان اشتغل كعبد وقن وحرفي وفلاح مستقل وأجير حر . لقد اتخذ الاكراه الطبيعي على العمل طابعاً ملطّفاً أو مفاقَماً ، وفقاً لنموذج العلاقات الاجتماعية وناضل الإنسان ضد العبودية والقنانة والرأسمالية لتلطيفها . وكانت الثورة الروسية قد وعدت بالتحويل الجذري لهذا الاكراه بواسطة تنظيم عقلاني للاقتصاد ، فإذا لم تتمكن من الوفاء بوعدها ، بسبب الفقر الذي ورثته والخراب الناجم عن الحرب والحصار، فليس ذلك خطأها . لكن لم يكن البلاشفة بحاجة الى اطّراح وعودهم بصورة مكشوفة ، وهو ما بدا أن تروتسكي فعله حين اعلن للنقابات أن القسر ، والتجنيد الاكراهي وعسكرة العمل لم تكن تشكل ببساطة تدابير استثنائية ، وأن لدولة الشغيلة ا لحق في اكراه أي مواطن على إنجاز أي عمل في أي مكان تختاره :

« إننا نتوجه من الآن فصاعداً نحو نمط عمل منظم اجتماعياً وفقاً لخطة اقتصادية الزامية بالنسبة لكل البلاد وكل الشغيلة . وهذا اساس الاشتراكية بالذات . . . إن عسكرة العمل ، حسب التعريف الاساسي الذي اعطيته لها ، هي القاعدة التي لا غنى عنها لتنظيم طاقتنا على العمل . . . هل صحيح ان العمل الاجباري غير منتج دائماً ؟ . . . ان هذه فكرة مسبقة ليبرالية ، الأكثر بؤساً والأكثر إثارة

(١٧) تريتيي فسيروسيكي سيزد بروفسو يوزوف ، ص ٩٧ .

(١٨) هذا الدفاع لصالح تبديل في السياسة يجسد مقدّماً النيب ، تولاه أمام المؤتمر المنشفي دالين ، المرجع ذاته ، ص ٨ .

للسخرية : فالقنانة ذاتها كانت منتجة . . . والعمل الاجباري للاقنان لم ينجم عن الارادة السيئة للسادة الاقطاعيين . كان (في زمنه) ظاهرة تقدمية »[١٩] .

هو ، المتمرد بامتياز ، صاحب نظرية الثورة الدائمة ، الذي كانت تدفعه رغبته في تبرير التدابير التي كان ينادي بها ، كاد يتوصل إلى الكلام كمدافع عن انظمة القسر والاستغلال الماضية .

خففت حرب بولونيا لبعض الوقت حدة هذا الجدال . فمرة اخرى ، فرض الخطر الخارجي القبول من دون تذمر بالتدابير السياسية التي كانت لتثير في السابق استنكاراً عنيفاً . وقد بذل تروتسكي ، محاطاً بفريق من التقنيين ، جهداً حازماً لاعادة تسيير القطارات ، وذلك في أسوأ فترة من فترات الحرب الأهلية .كانت حظيرة العربات آنذاك شبه خالية ، وكان المهندسون يتوقعون بالضبط الموعد الذي لا يعود فيه قطار واحد صالحاً للسير في روسيا ، ولم يكن ذلك الموعد يبعد اكثر من عدة اشهر من ذلك الحين . وقد وضع تروتسكي عمال السكك الحديدية ومشاغل التصليح تحت نظام القانون العرفي ، فنظم بشكل منهجي ترميماً سريعاً لعربات النقل . كان يذهب الى مشاغل التصليح ليقول للعمال ان البلاد تدفع ثمن اهمالهم من دمها : فشلل المواصلات هو الذي شجع البولونيين على الهجوم . وقال لهم : « إن حالة الشغيلة مؤلمة من جميع النواحي . وهي أسوأ من أي وقت مضى . وأنا أخدعكم إذا قلت لكم إنها ستكون أفضل غداً . كلا ، ثمة أمامنا أشهر من الصراع القاسي قبل أن نستطيع إخراج البلاد من هذا البؤس الرهيب ومن الانهاك الكامل ، قبل أن نتوقف عن وزن حصتنا من الخبز بواسطة ميزان الصيدلي »[٢٠] . وحين أثارت نقابة عمال السكك الحديدية اعتراضات ، صرف تروتسكي قادتها وعين آخرين مستعدين لتنفيذ أوامره . وكرر هذا التدبير في النقابات العمالية الاخرى للنقل . وفي بداية أيلول / سبتمبر ، أسس التسيكتران ، اللجنة المركزية لشؤون النقل ، التي سمحت له بالاشراف على كل قطاع النقل . وقد وفى المكتب السياسي بوعده فقدم له دعمه الكامل . فاحترام الحقوق الانتخابية وأصول التصويت في النقابات آنذاك كان بدا بفظاظة وضع يجد الناس فيه انفسهم داخل مدينة ضربها الطاعون . وحصل تروتسكي على نتائج تخطت كل التوقعات : اعيدت سكك الحديد الى العمل قبل الموعد الذي توقعته الخطة ـ « عاد دم

(١٩) المرجع ذاته ، ص ٨٧ - ٩٦ .

(٢٠) انظر خطابه في ٢١ حزيران ١٩٢٠ في مشاغل مورمانسك ، في سوشينيا ، ، ج ١٥ ، ص ٣٦٨ .

الجسم الاقتصادي يدور » - وقوبل بالتهليل من جرّاء ذلك النجاح[٢١] .

لكن ما ان انتهت حرب بولونيا حتى ظهرت المطالب والخلافات من جديد ، وبالمزيد من القوة . وقد تسبب تروتسكي ذاته بالانفجار ، فتحت تأثير النجاح هدد بإعادة النقابات الاخرى الى صوابها كما فعل بالنسبة لعمال النقل . هدد بـ « إقالة » قادة النقابات المنتخبين ، وباستبدالهم بمرشحين معينين يضعون المصلحة الاقتصادية للأمة فوق مصالح بعض فئات الشغيلة . . وفي تلك المرة ، كان يتخطى الحدود ، وقد فك لينين تضامنه معه واقنع اللجنة المركزية بأن تحذو حذوه . فدعت اللجنة الحزب جهاراً كي يقاوم بقوة « أشكالاً من العمل معسكرة وبيروقراطية » : انتقدت بقسوة تلك « المركزية المنحطة » التي تسحق ممثلي العمال المنتخبين . ودعت الحزب كي يعيد الى النقابات الديمقراطية البروليتارية ويجعل كل شيء تابعاً لِذلك العمل[٢٢] . وتشكلت لجنة خاصة ، كلفت بالسهر على تنفيذ قراراتها كان يرئسها زينوفييف . ومع أن تروتسكي كان عضواً فيها ، إلا أن معظم الاعضاء الآخرين كانوا اخصامه[٢٣] . وكتدبير أخير ، منعت اللجنة تروتسكي من الكلام علناً على العلاقات بين النقابات والدولة .

كان تروتسكي ، المصر على موقفه ، يبدي استياءه . وفي بداية كانون الاول / ديسمبر ، خلال جلسة مغلقة للتسيكتران ، عاد لمهاجمة النقابويين الذين اظهروا في الماضي ، حسب رأيه ، قدرة على قيادة إضرابات ، لكنهم كانوا يسيئون فهم حاجات اقتصاد اشتراكي . وقد دافع عن طريقته بإبداء الحزم تجاههم ، ورفض مطالبتهم بانتخابات في النقابات وندد بأولئك الذين كانوا يعلنون ان بيروقراطية جديدة تتولى احيـاء طرائق الحكم القيصري . قال : « ليست البيروقراطية اكتشافاً للقيصرية . لقد مثلت حقبة كاملة في تطور البشرية » ، حقبة لم تنته بعد . إن لادارة مدنية مؤهلة ومنظمة هرمياً حسناتها ، وروسيا لم تكن تعاني من تجاوزات بيروقراطية فعالة ، بل من غياب تلك البيروقراطية . وقد دعم وجهة النظر تلك مراراً ، مؤكداً باسم الفعالية ان ثمة ضرورة لمنح البيروقراطية بعض الامتيازات المحدودة . كان يجعل هكذا من نفسه ناطقاً بلسان الدوائر

---

(٢١) بصدد المرسوم المشهور رقم ١٠٤٢ حول سكك الحديد ، انظر المرجع المذكور ، ص ٣٥٤ - ٣٥٧ . في غضون العام ، وضع تروتسكي على رأس لجنة خاصة اتخذت تدابير استثنائية لاعادة تسيير صناعات وادي الدونيتز والأورال .

(٢٢) انظر تقرير اللجنة المركزية في ازفستيا تسنتر النوفو كوميتيتا ، ر . ك . ب . ، العدد ٢٦ ، ١٩٢٠ ، و ج زينوفييف ، سوشينيا ، ج ٦ ، ص ٦٠٠ . .

(٢٣) كانت اللجنة مؤلفة من زينوفييف وتومسكي وررودزوتاك وريكوف وتروتسكي . ثم دخلها فيها بعد شليابنيكوف ولوتوفينوف ولوزوفسكي وأندرييف . ولم يكن بين هؤلاء جميعاً غير واحد يشارك تروتسكي آراءه ، هو اندرييف الذي كان لا يزال ، بعد مرور ثلاثين عاماً على ذلك التاريخ ، عضواً في آخر مكتب سياسي في ظل ستالين .

الحاكمة ، وهو ما سمح فيما بعد لستالين بأن يمنحه لقب « بطريرك البيروقراطيين »[٢٤] .

وابدى تروتسكي ثقته بأن تحصل سياسته على الدعم الشعبي ؛ لكن الازمة الاقتصادية والاجتماعية لم تترك مجالاً لتطبيق تدابير اضفاء الديمقراطية التي كانت تتقدم ببطء مثير لليأس ، بسبب المستوى الثقافي والسياسي الضعيف للجماهير الروسية . « إن ما يدعى القيادة والعمل بواسطة مرشحين معينين ، يتناسب عكساً مع تطور الجماهير ، ومستواها الثقافي ووعيها السياسي وقوة جهازنا الاداري »[٢٥] .

ومرة اخرى ، وقفت اللجنة المركزية في وجه تروتسكي . فغضب هذا وذكّر لينين واعضاء اللجنة الآخرين بأنهم غالباً ما دفعوه سراً ، هو « مثير الفوضى » ، كي يتصرف بصرامة ، ودون الاهتمام بمبادىء الديمقراطية . وأكد أنه ليس شريفاً ، من جانبهم ، ان يلعبوا في العلن دور المدافعين في وجهه عن المبادىء الديمقراطية[٢٦] .

إن السوء الذي كان يعاني منه ، بشكل اكثر عمقاً ، مجمل نظام الحكم ، والذي لم يكن هذا النزاع الأخير غير علامة من علاماته ، كان ناجماً عن تخييب الآمال التي استثارتها الثورة لدى الشعب . فللمرة الأولى منذ ١٩١٧ ، وقفت اغلبية الطبقة العاملة ، لكي لا نتحدث عن الفلاحين ، في وجه البلاشفة دون أدنى شك . كان شعور بالعزلة قد بدأ يقلق الفريق الحاكم . ومن المؤكد أن الطبقة العاملة لم تتوصل للتأسف لقيام الثورة ، بل بقيت ترى فيها نفسها ، وتقابل بعداوة شديدة كل تحريض معادٍ للثورة بشكل مكشوف . فـ « اوكتوبر » وسم الوعي الشعبي بعمق عميق لدرجة انه كان على المناشفة والاشتراكيين الثوريين ان يوردوا قبل انتقاداتهم للحكومة اعترافاً واضحاً بـ « منجزات اوكتوبر » . إلا أن ذلك لم يحل دون أن تكون معارضة السياسة البلشفية الحالية عنيفة بقدر ما هي واسعة . فالمناشفة والاشتراكيون الثوريون الذين كانوا مكسوفين كلياً منذ ثلاث سنوات ، وكانوا يكادون لا يتجرأون على رفع رأسهم ، كانوا يستعيدون الآن بعض الحظوة الشعبية . وكان الناس يصغون بتعاطف اكثر ايضاً الى المحرضين الفوضويين المنددين بعنف بالنظام البلشفي . ولو سمح البلاشفة آنذاك بانتخابات حرة الى السوفييتات لتم عزلهم من السلطة بصورة شبه مؤكدة[٢٧] .

---

(٢٤) ستالين ، سوشينيا ، ج ٦ ، ص ٢٩ .

(٢٥) تروتسكي ، سوشينيا ، ج ١٥ ، ص ٤٤٢.

(٢٦) ديسياتيي سييزد ر . ك . ب . ، ص ٢١٥ .

(٢٧) كان العديد من القادة البلاشفة يسلمون بذلك صراحة او ضمناً . انظر لينين ، سوشينيا ، ج ٣٢ ، ص ١٦٠ ، ١٧٦ ، ٢٣٠ . . . ؛ زينوفييف ، في ديسياتيي سييزد ر . ك . ب . ص ١٩٠ ، ويتكلم تروتسكي في رسالة موجهة شخصياً الى

كان البلاشفة عاقدين العزم على عدم ترك الأمور تصل الى هذه النقطة الحرجة . ومن الخطأ القول إنهم يتعلقون بالسلطة لكونهم يتذوقون السلطة . فالحزب كان لا يزال ، بمجمله ، مفعماً بتلك المثالية الثورية التي اعطى عنها براهين باهرة خلال نضاله السري وإبان الحرب الاهلية . كان يتمسك بالسلطة لأنه كان يماثل بين مصير الجمهورية ومصيره ، ويرى في ذاته القوة الوحيدة القادرة على حماية الثورة . وكان من حظ الثورة ـ ومن سوء حظها ايضاً ـ أن رأي البلاشفة كان له مبرراته العميقة ـ فالثورة كان يصعب ان تعيش من دون حزب متعصب لها تعصب الحزب البلشفي . كان يمكن ان يوجد حزب آخر ، متعلق بالثورة التعلق نفسه وقادر على العمل بالقوة نفسها ، يتمكن عبر الانتخابات من ان يحل محل حزب لينين دون التسبب باختلال في الدولة الشابة ، لكن هذا الحزب لم يوجد . أما عودة المناشفة والاشتراكيين الثوريين فكانت أدت الى دمار ثورة اوكتوبر . كانت شجعت ، على الأقل ، الحراس البيض على ان يجربوا ، مرة أخرى ، حظهم ويحملوا السلاح من جديد . كانت غريزة البقاء البسيطة ، وأسباب اخرى اكثر خطورة ، تمنع البلاشفة من تصور احتمال من هذا النوع . ما كان بوسعهم أن يسمحوا به كمطلب ديمقراطي لأن انسحابهم كان سيعني القاء البلاد في أتون مرحلة جديدة من الحروب الاهلية .

وكان كذلك من غير المرجح أن تخرج انتخابات حرة الى السوفييتات بأكثرية واضحة . فالذين دعموا كيرنسكي ، عام ١٩١٧ ، لم يكونوا خرجوا بعد حقاً من كسوفهم، وكان يبدو أن الفوضويين والفوضويين ـ النقابيين ، الذين كانوا ينادون بـ « ثورة ثالثة » اكثر شعبية بكثير داخل الطبقة العاملة ، لكنهم لم يكونوا يشكلون قاعدة فعالة للمعارضة ، وفي كل حال لم يكونوا مرشحين لاستلام السلطة . واذا كانوا متحمسين للنقد ، فلم يكن لديهم أي برنامج سياسي ايجابي ، ولا تنظيم جدي على الصعيد القومي ، أو حتى على الصعيد المحلي ، ولا الرغبة الحقيقية في حكم بلاد واسعة . وكان يتجاور في صفوفهم ثوريون أصيلون ، وأشخاص طريفون ، ومحض لصوص . لم يكن يمكن أن يحل محل النظام البلشفي غير فوضى كلية ، تليها ثورة مضادة مكشوفة . وكان حزب لينين يرفض السماح لبلد جائع ، يعيش حالة اضطراب كامل ، بأن يزيحه من السلطة عبر الاقتراع ويغرق هو ذاته في فوضى دامية .

كان البلاشفة مهيَّئين تهيئة سيئة جداً من الناحية الفكرية والمعنوية لتلك الآثار

لوناتشارسكي (١٤ نيسان / أبريل ١٩٢٦) على « تهديد الاستياء » العمالي ، الذي سيطر على كل مجادلة ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ . محفوظات تروتسكي .

الغريبة المترتبة على انتصارهم . كانوا قد سلّموا ضمناً ، ودائماً ، بأن اكثرية الطبقة العاملة ، التي ساندتهم خلال الثورة ، سوف تواصل دعمهم بقوة الى أن ينجزوا البرنامج الاشتراكي . وكانت تلك القناعة الساذجة ناجمة عن الفكرة القائلة ان الاشتراكية هي الفكرة البروليتارية بامتياز ، وانه مذ تتوحد البروليتاريا معها لا تعود تتخلى عنها . وكانت هذه الفكرة تلتقي مع استدلال كل المدارس الاوروبية للفكر الاشتراكي . وفي الادب السياسي الغزير الذي انتجته هذه المدارس ، لم تنطرح الا لماماً للدرس مسألة معرفة ما يمكن ان يفعله الاشتراكيون في السلطة ، إذا فقدوا ثقة الشغيلة . لم يحصل للماركسيين ان تساءلوا إذا كان ممكناً أو مقبولاً السعي لإرساء الاشتراكية دون أخذ إرادة الطبقة العاملة بالحسبان . كانوا يعتبرون ببساطة أن هذه الإرادة أمر مفروغ منه ، وللسبب نفسه ، بدا بديهياً للبلاشفة أن ديكتاتورية البروليتاريا والديمقراطية البروليتارية (أو السوفياتية) ليستا غير وجهين مكمّلين للشيء ذاته وغير منفصلين عنه : كانت الديكتاتورية هناك للتغلب على مقاومة الطبقات المالكة ، وكانت تستمد قوتها وشرعيتها التاريخية من التعبير الحر والديمقراطي عن ارادة الطبقات الكادحة . لكن كان يولد الآن نزاع بين وجهي النظام السوفياتي . من جهة اخرى ، لو الغت الديكتاتورية الديمقراطية البروليتارية صراحةً ، لحرمت نفسها ، حتى في نظر نفسها ، من شرعيتها التاريخية ، ولتوقفت عن ان تكون ديمقراطية بروليتارية بالمعنى الصحيح للكلمة . إن الاحتفاظ بهذه الصفة يعني مذاك التأكيد بأنها تواصل سياسة ينبغي للطبقة العاملة أن تتماثل معها ، طوعاً أو كرهاً ، وذلك لمصلحتها الخاصة بها ، لكن هذه الطبقة لم تكن بدأت بعد تتماثل معها . كانت الديكتاتورية تمثل إذاك ، في أفضل الأحوال ، فكرة الطبقة لا الطبقة بالذات .

كانت الثورة قد بلغت الآن مفترق الطرق هذا ، الذي يعرفه ماكيافللي تماماً ، حيث يصبح صعباً بالنسبة اليها ، ان لم يكن مستحيلاً ، تثبيت الناس في قناعتهم الثورية ، وتضطر « إلى اتخاذ تدابير يمكن معها دفعهم إلى الاقتناع قسراً إذا لم يعودوا مقتنعين تلقائياً » . وبالنسبة للحزب البلشفي ، كان ذلك يفترض نزاع ولاءات اعمق ، من بعض النواحي ، من كل تلك التي عرفها حتى ذلك الحين ، نزاعاً يحمل في أعماقه المجادلات العنيفة والتطهيرات القاتمة للعقود اللاحقة .

عند مفترق الطرق هذا ، كانت البلشفية تعاني من أزمة أخلاقية يصعب علينا أن نجد مثيلاً لها في تاريخ حركات أقل عنفاً وأقل حماساً . أشار لينين فيما بعد الى « الحمّى » و « المرض المميت » اللذين كانا يقرضان الحزب في شتاء ١٩٢٠ - ١٩٢١ ، في فترة النقاش الصاخب حول دور النقابات في الدولة . وكانت تلك مسألة مهمة ، ومع ذلك ثانوية . لم

يكن بالامكان الاجابة عنها قبل حل المشكلة الاساسية المتعلقة بطبيعة الدولة بالذات . وكان الحزب يغوص كلياً في نقاش المسألة الثانوية ، لأنه لم يكن يعي بوضوح المشكلة الجوهرية ولأنه كان يخشى أن يوضحها لنفسه بصراحة . لكن خلال مواصلة النقاش ، اصطدم القادة الرئيسيون في كل لحظة بتلك المسألة الكبرى التي بقيت دون صياغة ، واضطروا لتحديد موقفهم .

من غير المجدي ان ندخل هنا في تفاصيل الجدال المعقد ، والتقني الى حد ما ، بصدد النقابات ؛ إلا أن واقع كون دراما الثورة برزت بمناسبة نقاش اقتصادي جاف في الظاهر بالدرجة نفسها ، إنما هو مميز كفايةً لروح الحقبة(٢٨) . ولنكتف بالقول إنه تبلورت إجمالاً ثلاثة مواقف . كان الذي قاده تروتسكي (ثم تروتسكي وبوخارين فيما بعد) يريد أن تحرم النقابات من استقلالها الذاتي ويمتصها جهاز الحكم ، وتلك كانت الخلاصة التي استمدها تروتسكي من نزاعاته مع النقابات . ووفقاً للتنظيم الجديد ، كان على القادة النقابيين ، الذين اصبحوا خداماً للدولة ، أن يدافعوا عن الدولة في وجه العمال ، لا عن العمال في وجه الدولة . عليهم ان يضغطوا لزيادة المردود ولحفظ الانضباط في العمل ، وان يدربوا العمال على تسيير الصناعة ، كما عليهم في الاخير أن يشاركوا في قيادة الاقتصاد القومي .

في الطرف الآخر ، كانت المعارضة العمالية ، بقيادة شليابنيكوف وكولونتاي ، تقف ضد وصاية الحكومة والحزب على النقابات ، وتتهم تروتسكي ولينين بمناصرة عسكرة العمل وتشجيع اللامساواة . وكانت تطالب ، بطريقة شبه ـ نقابية ، بأن تضطلع النقابات ولجان المصنع ومؤتمر قومي للمنتجين بالاشراف على كل الاقتصاد . وبينما كان تروتسكي يؤكد انه ، وفقاً للمنطق ، لا يمكن للنقابات أن تدافع عن الشغيلة ضد دولة الشغيلة ، كان شليابنيكوف وكولونتاي بدآ ينددان بدولة السوفييتات كمعقل لبيروقراطية جديدة ذات امتيازات .

وبين هذين الطرفين ، كان لينين وزينوفييف وكامينيف ، يتكلمون باسم اكثرية البلاشفة ، ويسعون وراء حل تسووي . هم ايضاً كانوا يلحون على واجب النقابات تلطيف غلواء الشغيلة وبث روح المسؤولية لديهم تجاه الدولة والاقتصاد المؤمَّم . وكانوا يلحون على واجب الحزب الاشراف على النقابات ، لكنهم كانوا يتمنون كذلك حماية طابعها كمنظمات جماهيرية مستقلة ، قادرة على ممارسة ضغط على الحكومة ، وعلى إدارة الصناعة .

(٢٨) نجد محضراً كاملاً للنقاش في النقابات السوفياتية (مكانتها في سياسة العمل لدى السوفييت) ، لدويتشر ، ص ٤٢ ـ ٥٩ .

كانت تلك المواقف تستتبع ، مفاهيم متباينة حول الدولة والمجتمع . وكانت **المعارضة العمالية** وأولئك الذين تطلق عليهم تسمية **الديسيميين** (مجموعة المركزية ـ الديمقراطية) المدافعين المستبسلين عن « الديمقراطية البروليتارية » في وجه الديكتاتورية . كانوا أوائل المنشقين البلاشفة المعترضين على طريقة الحكم المعدة لـ « اجبار الناس على الاقتناع » ، وكانوا يناشدون الحزب ان « يوكل أمره » للطبقة الكادحة التي حملته الى السلطة . وكانت اللغة التي يستخدمونها هي تلك التي استخدمها الحزب بأسره في عام ١٩١٧ . وكانوا المساواتيين الحقيقيين في تلك الثورة ، ومثالييها ، وحالميها الطوباويين . ولم يكن يستطيع الحزب الاصغاء اليهم ، إلا إذا كان مستعداً لانتحار نبيل لكن لا يغتفر . لم يكن يستطيع ان يسلم مصيره ومصير الجمهورية لطبقة عاملة مهزولة ، ومنهكة ، وفاقدة للمعنويات ، بنتيجة الحرب الاهليةوالمجاعة والسوق السوداء كانت الروح الدونكيشوتية **للمعارضة العمالية** تظهر في مطالبها الاقتصادية ، فقد طالبت بالارضاء الفوري لحاجات الشغيلة ، وبأجور وعلاوات متساوية للجميع ، وبالتأمين المجاني للغذاء واللباس والمساكن للعمال ، وبالاسعاف الصحي المجاني ، وبإمكانية نقل مجاني وتعليم مجاني[٢٩] . لم يكونوا يرغبون في أقل من رؤية التحقيق الكامل للبرنامج الكامل للشيوعية ، الذي صيغ نظرياً لاقتصاد وفرة كبرى . ولم يحاولوا ان يقولوا حتى كيف كان يمكن لحكومة تلك الفترة أن تستجيب لمطالبهم . وكانوا يحثون الحزب على أن يضع الصناعة ، أو ما بقي منها ، مرة أخرى تحت رقابة لجان المصنع تلك التي اظهرت فور قيام ثورة اوكتوبر انها قادرة بالضبط على تبديد ثروة الامة وتبذيرها . لقد كان طالع سوء ان يكون اناس ضائعون في ضباب خيالهم الوحيدين الذين دافعوا عن إعادة كاملة للديمقراطية البروليتارية .

كان تروتسكي ، بمقابلهم ، يحث الحزب على ان يتوقف مؤقتاً عن المناداة بالديمقراطية البروليتارية وممارستها ، ويبذل جهده لبناء ديمقراطية المنتجين . بكلام اوضح : كان على الحزب ان يرفض اعطاء الشغيلة حقوقهم السياسية ، وأن يمنحهم ، بالمقابل دوراً مهماً ومسؤوليات قيادية في إعادة البناء الاقتصادي . وقد أعلن تروتسكي أمام المؤتمر العاشر (آذار / مارس ١٩٢١) : في اللحظة الأكثر حدة من لحظات ذلك الجدال :

« لقد تخلصت **المعارضة العمالية** من الورطة بشعارات خطيرة . حولت المبادىء

(٢٩) ديستانيي سييزد ر . ك . ب . ، ص ٣٦٣ ؛ أ . م . كولونتاي ، المعارضة العمالية في روسيا .

الديمقراطية إلى أصنام ، ووضعت حق الشغيلة في انتخاب ممثليهم فوق الحزب ، كما لو لم يكن للحزب الحق في فرض ديكتاتوريته ، حتى إذا اصطدمت هذه الديكتاتورية مؤقتاً بالأحكام المتبدلة للديمقراطية العمالية . . . علينا أن نعي مهمة الحزب التاريخية الثورية . إن الحزب مضطر للابقاء على ديكتاتوريته دون أن يأخذ بالحسبان تماوجات مؤقتة في رد فعل الجماهير العفوي ، أو حتى التذبذبات الآنية للطبقة العاملة . ويشكل هذا الوعي بالنسبة إلينا خميرة وحدة لا غنى عنها . والديكتاتورية لا تستند في كل حين إلى مبدأ الديمقراطية العمالية الشكلي ، مع أن الديمقراطية العمالية تبقى بالطبع الطريقة الوحيدة بالنسبة للجماهير كي تشارك اكثر فأكثر في الحياة السياسية »[٣٠] .

لقد بعُد الوقت الذي كان تروتسكي يؤكد فيه أن نظام الحكم السوفياتي أرقى من البرلمانية البورجوازية ، لأن الناخبين يتمتعون ، بين ما يتمتعون به ، بحق إعادة انتخاب ممثليهم في كل لحظة ، لا فقط بشكل دوري ؛ وأن ذلك يسمح للسوفييتات بأن تعكس ، بشكل وثيق وفوري ، كل تبدل في الرأي الشعبي ، وهو ما لم يكن يمكن أن يفعله أي برلمان . مذاك ، كانت إعلانات المبادىء الغامضة الصادرة عنه المتعلقة بالديمقراطية البروليتارية تدوي كمحض بنود انشائية . فما كان جوهرياً إنما هو « مهمة الحزب التاريخية » وقناعة الحزب بأنه « العنصر التوحيدي الذي لا غنى عنه » . مذّاك كان يمجد ، بنوع من التورية ، لكن بما يكفي من الفصاحة ، التضامن الجماعي للفريق الحاكم في وجه امة معادية أو متبلدة .

كان لينين يرفض الاعتراف جهاراً بالطلاق بين الديكتاتورية والديمقراطية البروليتارية ، وهو ايضاً كان يعي النزاع القائم بين الشعب من جهة ، والحكومة والحزب من جهة اخرى ، إلا أنه كان يخشى ان تؤدي سياسة تروتسكي إلى تأبيد هذا الوضع . لقد كان الحزب مضطراً لإعادة النقابات الى رشدها ، وإقالة قادتها المعاندين ، وتحطيم المقاومة الشعبية أو تداركها والحيلولة دون التكوّن الحر للرأي داخل السوفييتات . فلينين كان يرى أن ذلك هو السبيل الوحيد لإنقاذ الثورة ؛ إلا أنه كان يأمل فقط ، عن طريق اللجوء لتلك الطرائق ، إعطاء الحكومة وقتاً تتنفس فيه ـ لم يعد مسلكه بكامله غير نضال لكسب الوقت ـ حتى تتمكن من تعديل سياستها ، وتنجح في انهاض البلاد مجدداً ، وتحسين وضع الشغيلة وكسبهم للبلشفية من جديد . عندئذٍ يمكن للديكتاتورية أن تعود تدريجياً الى وضع

---

(٣٠) ديسياتي سيزد ر . ك . ب . ص ١٩٢ . انظر كذلك ص ٢١٥ .

الديمقراطية البروليتارية . وإذا كان ذلك هو الهدف ـ وهو ما كان يوافق عليه تروتسكي ـ كان على الحزب أن يعيد فوراً تأكيد فكرة تلك الديمقراطية ، وألا يبادر إلى أي تدبير جذري يوحي بالتخلي عنها . وحتى إذا كان النظام لجأ في الغالب إلى القسر ، كان لينين يؤكد أن القسر هو أسلوب عمله الأخير ، والاقناع الاسلوب الأول(٣١) . كان ينبغي إذاً الا تتحول النقابات إلى هيئات تابعة للدولة ، بل أن تحافظ على بعض الاستقلال . كان عليها أن تتكلم باسم العمال ، وإذا اقتضى الأمر ضد الحكومة ؛ كان عليها ان تصبح مراكز تكوين شيوعية لا مراكز ترويض . كان يمكن أن تضايق مطالب النقابات الادارة أو أن تضعها في موقف صعب (وكان تروتسكي يتصور المشكلة من هذه الزاوية) ؛ وكان يمكن أن تكون الادارة محقة في وجه النقابات في بعض الظروف الخاصة ؛ لكن بعد التفكير العميق ، كان من المناسب ان تواجه الادارة صعوبات من هذا النوع وتخضع لضغوط شرعية او حركات اجتماعية . لم يكن يفيد في شيء ان يقال للعمال إن من واجبهم ألا يعارضوا دولة الشغيلة ، فتلك الدولة فكرة مجردة . وقد اشار لينين الى ان من واجب ادارته ان تأخذ ، في الواقع ، بالحسبان مصالح الفلاحين ، إلى جانب مصالح العمال ؛ وكانت تفسد عملها الفوضى ، « وتشويهات بيروقراطية » خطيرة ، والممارسة الاعتباطية للسلطة .

وكان على الطبقة العاملة ان تدافع إذاً عن نفسها ، في الوقت ذاته الذي تبقى فيه سيدة ذاتها ، وان تدعم مطالبها بمواجهة الادارة . كان لينين يرى ان على الدولة ترك المجال مفتوحاً أمام تعدد في المصالح والتأثيرات . أما تروتسكي فكان يرى ان الدولة احادية الاتجاه ضمناً .

وقد أيد المؤتمر العاشر مشاريع القرارات التي قدمها لينين ، بأغلبية ساحقة . فالبلشفية انحرفت عن الديمقراطية البروليتارية ، لكنها لم تكن اصبحت مستعدة للقبول بعكسها ، أي الدولة وحيدة الاتجاه .

* * *

خلال انعقاد المؤتمر ، اندلعت في قلعة كرونشتادت البحرية الانتفاضة الأكثر فرادة بين كل الانتفاضات الروسية ، انتفاضة قال لينين إنها أضاءت الواقع كالبرق .

كان المتمردون ، وهم بحارة في الاسطول الأحمر ، بقيادة بعض الفوضويين . كان يسود اضطراب اقصى منذ نهاية شباط / فبراير . حدثت اضرابات قريباً من ذلك المكان ،

(٣١) ديسياتي سييزد ر . ك . ب . ، ص ٢٠٨ . . . .

في بتروغراد بالذات ؛ وتوقع الناس اضراباً عاماً . وكانت كرونشتادت هائجة ؛ فقد راجت شائعة تقول انه حدثت اشتباكات بين عمال بتروغراد والجنود . كان رجال المراكب الحربية يعيشون حالة حماس سياسي تذكّر بحمّى ١٩١٧ . وخلال اللقاءات الجماعية كانوا يتداولون مشاريع قرارات تطالب بالحرية للعمال ، وبـ « برنامج جديد » للفلاحين ، وانتخابات حرة إلى السوفييتات . بدأت الدعوة إلى ثورة ثالثة تسيطر على كل الاجتماعات ، الثورة التي ينبغي أن تطيح البلاشفة وتقيم ديمقراطية السوفييتات . وقد أخطأ كالينين ، رئيس جمهورية السوفييتات ، فقام بزيارة الى القاعدة البحرية ، حيث ندّد بالبحارة كـ « مخادعين وغير مسؤ ولين » واشترط خضوعهم . وجاءت بعثةمن البحارة إلى بتروغراد ، فتم توقيفها .

وللحال شاعت عبر كرونشتادت صيحة : « فليسقط الطغيان البلشفي ! » جرى إذلال المفوضين البلاشفة وسجنهم ؛ واضطلعت لجنة فوضوية بالقيادة . ووسط الحماس ، رفع البحارة راية التمرد . وكتب مؤرخ فوضوي يقول عن الانتفاضة : « كرونشتادت ، البطولية والشهمة ، كانت تحلم بتحرير روسيا » . . . لم تتم صياغة أي برنامج واضح ، أما الشعارات فكانت : الحرية والاخوة بين كل شعوب العالم . كانوا ينظرون إلى الثورة الثالثة كلحظة انتقالية نحو التحرر النهائي ، ولانتخابات حرة الى سوفييتات مستقلة كخطوة أولى في هذا الاتجاه . وبالتأكيد ، كان على السوفييتات ان تكون مستقلة عن أي حزب سياسي ـ التعبير الحر عن إرادة الشعب ومصالحه »[٣٢] .

ندد البلاشفة برجال كرونشتادت كعصاة معادين للثورة يقودهم جنرال ابيض . ويبدو هذا الأتهام عارياً من كل صحة . فالبلاشفة الذين ناضلوا طويلاً ضد عصيانات لا تحصى ، كان يكفلها الحراس البيض أو يشجعونها ، ما كان يمكن لهم أن يصدقوا ان الحراس البيض لم يلعبوا أي دور في انتفاضة كرونشتادت . وقبل الحدث ببعض الوقت ، لّمحت صحف المهاجرين البيض بشكل غامض الى تمرد تحت الرماد في كرونشتادت ، فقدم ذلك ذريعة للشبهات . وقد حاول المكتب السياسي في البدء عقد مفاوضات مع المتمردين ، إلا أنه قرر في الاخير أن يقمع تمردهم . ما كان في وسعه التسامح إزاء تحدي البحرية ، فمع أنه لم يكن للعصيان أي حظ للتحول إلى ثورة ، كان المكتب يخشى مفاقمته للفوضى السائدة . ذلك أنه حتى بعد هزيمة الحرس الأبيض ، كانت تجوب البلاد عصابات عديدة من المتمردين والنهّابين ، من سواحل الشمال حتى بحر قزوين ، فتقوم بغارات

---

(٣٢) الكسندر بيركام ، دراوفستاند فون كرونشتادت ، ص ١٠ ـ ١١ .

وغزوات داخل المدن ، وتغتال المأمورين الحكوميين . وباسم ثورة جديدة ، اكتسحت عصابات من فلاحي الفولغا الجائعين ساراتوف ، ولم يمر وقت قصير حتى كان توخاتشيفسكي يحتاج الى سبع وعشرين فرقة من الرماة لاخضاعهم[٣٣] . بلغت الفوضى حداً كان لا بد معه للرأفة حيال متمردي كرونشتادت أن يتم اعتبارها علامة ضعف ، مما يمكن ان يفاقم الأمور .

في ٥ آذار / مارس ، وصل تروتسكي إلى بتروغراد وأمر العصاة بالاستسلام من دون شروط . وقد أعلن : « يمكن فقط للذين يستسلمون أن يعتمدوا على رأفة جمهورية السوفييتات . وفي الوقت بالذات الذي أوجه فيه هذا الانذار ، أعطي الأوامر كي يكون كل شيء جاهزاً لسحق العصيان بالقوة المسلحة . . . هذا هو الانذار الاخير »[٣٤] . وإنها لسخرية اخرى من سخريات التاريخ ان يكون تروتسكي هو الذي توجه بتلك العبارات إلى البحارة . لأنه كانت تلك كرونشتادت « ٥ » ، كرونشتادت التي دعاها « شرف الثورة ومجدها » . كم من المرار تكلم في القاعدة البحرية ، خلال ايام ١٩١٧ المحمومة ! كم من المرار رفعه البحارة على اكتفاهم ليهللوا له بجنون كصديقهم ، وقائدهم ! بأي اخلاص لحقوا به إلى قصر توريد ، الى زنزانته في سجن كريستي ، حتى أسوار كازان ، على الفولغا ، سائلينه المشورة دائماً ، منفذين أوامره من دون نقاش معظم الاحيان . كم من الهموم تقاسموها ، كم من الاخطار تحدوها معاً ! وفي الحقيقة أنه لم يكن باقياً من القدامى على قيد الحياة غير القليلين ؛ وأقل منهم ايضاً كانوا آنذاك في كرونشتادت . كان رجال **الاورورا** ، و **بتروبافلوفسك** ، وسفن حربية شهيرة أخرى يتألفون الآن من مجندين جدد ، أُخذوا من بين فلاحي اوكرانيا . وقد قال تروتسكي بالذات إنه كانت تنقصهم الروح الثورية المنزهة التي كانت تميز القدامى . كان هذا الملمح بالذات كرمز للوضع الذي كانت تعيشه الثورة آنذاك . فالرجال والنساء الذين قاموا بها لم يعودوا ما كانوا ولا حيث كانوا . أفضلهم ماتوا ، وآخرون امتصتهم الادارة ؛ وآخرون ايضاً تفرقوا وسيطرت عليهم المرارة والإحباط . وما كان يطالب به عصاة كرونشتادت لم يكن شيئاً ، غير ما وعد به تروتسكي اسلافهم ، ما كان يعجز هو وحزبه عن إعطائه . ومرة أخرى ، كانت شفاه

(٣٣) انظر المراسلة بين س . كامينيف وشابوشنيكوف وسميدوفيتش وقائد قطاع ساراتوف ، والتقرير الذي أرسله توخاتشيفسكي إلى لينين ، في ١٦ تموز / يوليو ١٩٢١ (محفوظات تروتسكي) . هي ذي رسالة مميزة وجهها شيوعيون من المناطق القطبية الى لينين (٢٥ آذار / مارس ١٩٢١) : « ان شيوعيي توبولوسك الذين يضحون بأنفسهم هنا ، يوجهون وداعاً مؤثراً الى الحزب الشيوعي الذي لا يقهر ، إلى رفاقنا الاعزاء وقائدنا لينين . بموتنا هنا ، نقوم الى النهاية بواجبنا نحو الحزب والجمهورية ، واثقين بحزم بانتصارنا النهائي » المرجع ذاته .

(٣٤) تروتسكي ، سوشينيا ، ج ١٧ ، ك ٢ ، ص ٥١٨ .

الآخرين ترسل اليه ، كما بعد بريست ـ ليتوفسك ، شيئاً يشبه صدى مراً وحاقداً لصوته هو . ومرة أخرى ايضاً كان عليه ان يخنقه .

تجاهل العصاة هذا التحذير ، فقد كانوا يأملون كسب الوقت . كان ذلك منتصف شهر آذار / مارس ، وكان خليج فنلندا لا يزال مسدوداً بقطع الجليد . إلا أنه كان يمكن ان يبدأ الذوبان بعد أيام قليلة . تصبح عند ذلك القلعة ، المشكوكة بالمدافع ، والتي يدافع عنها كل الاسطول الأحمر في البلطيق ، وتتمون من فنلندا أو بلدان بلطيقية اخرى ، تصبح منيعة ، ولا تقهر تقريباً . في الوقت ذاته ، كان الشيوعيون بالذات ينضمون إلى التمرد ، معلنين أنهم تخلوا عن «حزب الجلاد تروتسكي ، » . وقد قرر تروتسكي (أو توخاتشيفسكي ؟) أنه يجب الاستيلاء إذاً على القلعة قبل ان يحول ذوبان الثلوج دون الوصول اليها . وللحال توجهت فيالق من نخبة القوات وفرق صدام إلى بتروغراد لتعزيز الحامية . وحين وصل نبأ العصيان الى المؤتمر العاشر أثار قلقاً شديداً ، وغضباً أشد ، بحيث غادر معظم المندوبين الاشداء قاعة المؤتمرات في الكرملين ليقودوا بأنفسهم الفرق الصدامية التي كانت ستهاجم القلعة عبر خليج فنلندا . حتى قادة المعارضة العمالية و الدسيميون ، الذين قدموا للمؤتمر مطالب لا تختلف كثيراً عن مطالب العصاة ، القوا بأنفسهم في المعركة . هم أيضاً كانوا يؤكدون أنه ليس من حق البحارة ان يفرضوا بقوة السلاح حتى اكثر المطالب شرعية .

تقدمت القوات البلشفية ، بقيادة توخاتشيفسكي عبر الخليج ، وعلى بزاتها اغطية بيضاء ، فاستقبلهم إعصار من نار تفجر من معاقل كرونشتادت . كان الجليد يغوص تحت أقدامهم ؛ وموجة بعد موجة ، كان المهاجمون المتلفعون بأكفانهم البيضاء يغيبون في حجرة الخلود الجليدية تلك . كانت مسيرة الموت تتواصل ؛ ومن ثلاث جهات مختلفة ، كانت ارتال جديدة تتقدم بصعوبة ، زالقة وزاحفة على السطح الجليدي لتختفي بدورها في النار والجليد والماء . وفي حين كانت ارتال المهاجمين تغرق واحداً بعد الآخر ، بدا لرجال كرونشتادت ان الثورة البلشفية الضالة تغرق معها ، وان انتصار ثورتهم الخاصة بهم ، النقية والأصيلة ، كان يقترب . هكذا كان على اولئك المتمردين ، الذين ادانوا قسوة البلاشفة والذين كان هدفهم الوحيد السماح للثورة بأن ترضع حليب الحنان البشري ، كان عليهم لأجل البقاء أن يخوضوا معركة أقسى من كل معارك الحرب الأهلية . كان غضب المهاجمين وعنفهم يزداد حدة ، وفي ١٧ آذار / مارس ، بعد ليلة من المسير وسط عاصفة من الثلج ، نجح البلاشفة اخيراً في تخطي المتاريس . وحين تدفقوا في داخل القلعة انقضوا على المدافعين عنها كإلهات الانتقام .

تكلم تروتسكي في ١٣ نيسان / أبريل ، اثناء استعراض المنتصرين ، فقال : « لقد انتظرنا ، طالما يمكن الانتظار ، ان يكتشف رفاقنا البحارة ، الذين عميت ابصارهم فترة من الزمن ، إلى أين يقودهم عصيانهم . لكن كان علينا أن نواجه خطر ذوبان الثلوج ، فاضطررنا لبدء الهجوم[٣٥] » . وبالحديث عن العصاة المقتولين كـ « رفاق » كان يوحي من دون ارادته بأنه يحتفل ، اخلاقياً ، بانتصار على طريقة بيروس[*]. والشيوعيون الاجانب الذين اتوا الى موسكو بعد أشهر من ذلك التاريخ ، وهم يعتقدون ان كرونشتادت لم تكن غير حلقة من حلقات الحرب الاهلية « فوجئوا واضطربوا » حين اكتشفوا ان القادة البلاشفة كانوا يتكلمون على العصاة ، من دون الغضب والحقد اللذين كانوا يعربون عنهما تجاه الحراس البيض وجماعة التدخل الاجنبي . كانوا يتحدثون عنهم بـ « تكتم مفعم بالتعاطف » ، وبتلميحات كئيبة وملغزة بدت للزائر علامة الضمير المضطرب للحزب[٣٦] .

لم يكن التمرد انهزم بعد حين قدم لينين ، في ١٥ آذار / مارس ، السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) في المؤتمر العاشر ، الذي تبناها دون مناقشة تقريباً . كانت البلشفية تتخلى ، بصمت وكآبة ، عن حلمها بشيوعية الحرب . كانت تخطو خطوة الى الوراء ، حسبما قال لينين ، ليتسنى لها وضع أفضل للتقدم . انطفأ على الفور الجدال حول النقابات وكل ما كان يستتبعه ، فقصف المدافع في خليج فنلندا واضرابات بتروغراد وأماكن اخرى كانت كافية لاثبات قلة واقعية افكار تروتسكي : لم يعد هنالك مكان ، في كل حال ، لعسكرة العمل في السياسة الملطفة للسنوات اللاحقة ، القائمة على نظام الاقتصاد المختلط .

إلا أن المجادلة لم تكن محض ضجيج وغضب ، فمعناها بالنسبة للمستقبل كان أهم مما افترض القادة الرئيسيون بالذات . وبعد عشر سنوات ، سوف يستعيد ستالين لحسابه الخاص كل افكار تروتسكي ، دون تسميتها باسمها ، ستالين الذي دعم في ١٩٢٠ - ١٩٢١ سياسة لينين « الليبرالية » . زد على ذلك أنه لا ستالين ولا تروتسكي ، ولا انصار

---

(٣٥) تروتسكي ، سوشينيا ، ج ١٧ ، ك ٢ ، ص ٥٢٣ .

(٣٦) اندريه موريزيه ، عند لينين وتروتسكي ، ص ٧٨ - ٨٤ ، وف سرج ، مذكرات ثوري ، الفصل الرابع ، يصفان مرحلة كرونشتادت من وجهة نظر الشيوعيين الغرباء عن موسكو وقد تبنى المؤلفان اطروحة الحزب ، مع أنهما ، كليهما ، شعرا بالتعاطف مع المتمردين .

(*) بيروس هو ملك ايبير ، Epire من ٢٩٥ إلى ٢١٢ ق . م . حاز نصراً كاملاً في هيراكلي ، لكن دامياً للغاية ضد الفيالق الرومانية التي ارعبتها فِيَلته . (م) .

هذا ، أو ذاك ، اعترفوا آنذاك بهذا الواقع . فالأول احجم عن ذلك لأنه لم يكن يستطيع الاعتراف بأنه تخلى عن خط لينين لصالح خط تروتسكي ، والثاني لأن افكاره الخاصة به كانت تجعله يرتجف هولاً حين يراها وقد وضعها عدوه في الممارسة ببرود . ربما لم يكن هنالك بند واحد من برنامج تروتسكي (١٩٢٠ -١٩٢١) لم يستخدمه ستالين خلال الثورة الصناعية في الثلاثينات . لقد احدث التجنيد للعمل وإدارة العمل ، وفرض على النقابات تبني « سياسة إنتاج » بدل الدفاع عن مصالح الشغيلة الاستهلاكية ؛ وحرم النقابات من الآثار الاخيرة لاستقلالها وجعلها أدوات في يد الدولة . وحمى مجموعات « مدراء الأعمال» الذين منحهم امتيازات لم يحلم حتى بها تروتسكي . وأطلق « المنافسة الاشتراكية » في المصانع والمناجم ، وبتعابير استعارها ببساطة من تروتسكي . وضع قيد الممارسة نسخته الفظة الخاصة به عن تلك « التايلرية السوفياتية » التي دافع عنها تروتسكي[٣٧] . وفي الاخير ، انتقل من حجج تروتسكي الايديولوجية والتاريخية التي كانت تبرر بصورة ملتبسة العمل الاجباري إلى تطبيقه الكثيف .

كنا نحدد في الفصل السابق السيرورة التاريخية ، غير الواعية التي قادت من محاولات لينين المترددة والخجول للـ « ثورة عن طريق الفتح » إلى الثورات التي فرضها ستالين الفاتح . ثمة رابط واحد دقيق يربط سياسة تروتسكي الداخلية لتلك الفترة بتلك التي مارسها خصمه فيما بعد . ويبدو تروتسكي ولينين ، كل بطريقة مختلفة ، كالملهمين غير الاراديين لستالين . فالاثنان دفعت بهما ظروف مستقلة عن ارادتهما ، واوهامهما الخاصة بهما ، الى الاضطلاع ببعض المواقف التي ما كانت الاحداث ولا وساوسهما الشخصية تسمح لهما بالدفاع عنها زمناً طويلاً - مواقف قبل أوانها ، تختلف مع الذهنية البلشفية الشائعة ، لا بل مع الافكار الكبرى التي ألهمت حياتيهما .

لم يطلق تروتسكي فكرة اشراف الدولة المطلق على الطبقات الكادحة ، إلا تحت التهديد بانحلال كامل للثورة وللجسم السياسي الروسي . فكذهن حي وقلق ، يتذوق الاختبار، كان يبحث بجرأة ، وفي الاتجاه الاكثر تناقضاً ، عن وسيلة للخروج من ذلك الخطر . وكان يذهب في كل اتجاه إلى نهايته ، بينما كان الرأي العام البلشفي ، بمعظمه ، يراوح في المكان . اقترح النيب ، في حين كان الحزب لا يزال منخرطاً بحزم في شيوعية الحرب ، فانخرط فكره عندئذٍ في اتجاه معاكس ، واستكشفه حتى اقصاه ووصل إلى

(٣٧) في بداية ١٩٢٩ ، وبعد اسابيع من طرد تروتسكي من روسيا ، نادى المؤتمر التداولي السادس عشر للحزب بـ « المنافسة الاشتراكية » ، مستشهداً بشكل كامل بالقرار الذي نصه تروتسكي وتبناه الحزب عام ١٩٢٠ . وطبعاً لم يرد اسم المؤلف .

الخلاصة الأخرى : العلاج الوحيد لكل مساوىء شيوعية الحرب هو نظام صارم للعمل . إلا أن الرأي البلشفي توجه ببطء نحو النيب ، التي اجبر تروتسكي على التخلي عنها . كان منطق تروتسكي الواضح ، والمتسق والسريع - منطق الاداري الذي يغضبه الخلل والعمل سيىء الانجاز - هو الذي ضيَّعه . كان يتقدم حاني الرأس في النقاش ، وذهنه مثبَّت على هدفه ، فيقدم الكثير من الحجج وينطلق في التعميمات ، غير مهتم بحركات الرأي ، حتى الوقت الذي يمضي فيه بعيداً جداً ، متسبباً بالاثارة والغيظ . كان الاداري الواثق من نفسه يتغلب لديه على المفكر السياسي المرهف ويخفي عنه ما تستتبعه مخططاته . وما لم يكن غير مظهر من المظاهر المتعددة لفكر تروتسكي التجريبي سوف يصبح أليف ستالين ورياءه(٣٨) .

كان تروتسكي يبقى ، حتى في اخطائه ، شريفاً من الناحية الفكرية ، شرفاً كان يصل احياناًإلى السذاجة . لم يحاول تمويه سياسته ، وكان يسمي الاشياء باسمها ، غير مهتم إذا كان في ذلك ما يزعج . فلما كان معتاداً التأثير على الناس بقوة الحجج وبتحكيم العقل ، بقي يحتكم الى العقل لدعم القضية الأكثر ابتعاداً عن العقل . دافع علناً عن نظام الحكم بطريق القسر ، هذا النظام الذي لا يمكن أبداً الدفاع عنه علناً والذي لا يمارسه المرء إلا بصمت . كان يأمل إقناع الناس بأنهم لا يحتاجون إلى أن يساسوا بالاقناع . كان يقول لهم ان لدولة الشغيلة الحق في تطبيق العمل القسري ؛ وقد كان صادقاً في خيبة امله حين لم يهرع الناس لينخرطوا في معسكرات العمل(٣٩) . كان يتصرف بتلك الطريقة العبثية ، لأنه لم يكن يمكن ، في ظنه ، ان يتعلق الأمر بآلة قسر تنطلق ببطء ، وتطحن موادها البشرية دون شفقة ، بل بمنظورات عظيمة لا تزال غامضة لـ« سبارطة بروليتارية » تشكل صرامتها القاسية جزءاً من مغامرة رواد الاشتراكية . حتى عبثية سلوكه كانت تحمل في ذاتها علاج ذاتها ؛ وفي سذاجته ، كان يحذر الناس بإسهاب من الخطر الذي يهددهم . فقد كان يوضح الحدود التي يستعد للوصول اليها ، ويعرض سياسته على الرقابة العامة . وقد فعل كل ما في وسعه لاستثارة المعارضة التي أدت به الى الاخفاق . كان تروتسكي بحاجة

---

(٣٨) كانت تلك الاحداث في ذهن لينين ، على الارجح ، حين اشار في وصيته إلى « ثقة تروتسكي المفرطة بذاته وميله لترك الجانب الاداري البحت في الاشياء يستأثر به كثيراً » .

(٣٩) الى أي حد ترك تروتسكي نفسه يضل الطريق بفعل اعتياده تطبيق انماط اوروبية على روسيا ؟ إن تنظيم العمل في بلد مصنّع ، ونقل عمال ، مثلاً ، من مانشستر الى برمنغهام ، اومن شتوتغارت إلى إيسن ، هو شيء ، وشيء آخر مختلف تماماً هوجلب فلاحين من اوكرانيا ، اوعمال من بتروغراد الى المناجم والمصانع في الأورال وسيبيريا أو الشمال الكبير . فإدارة العمل في اطار صناعي موحد النمط الى هذا الحد أو ذاك تفترض بالتأكيد حداً ادنى من الاكراه ، بينما تطلبت الحد الاقصى في روسيا .

لوضوح النهار ليبقى حياً من الناحية السياسية ، بينما لزم طابع عصفور الليل الذي تميز به ستالين لوضع افكاره في التطبيق .

كان الحزب البلشفي يدافع كذلك عن مبدأ الديمقراطية البروليتارية ضد تروتسكي ، لكنه استمر في الابتعاد عن هذا المبدأ على صعيد الممارسة .

في عام ١٩٢١ فقط ، بادرت حكومة لينين إلى منع كل معارضة منظمة داخل السوفييتات . فطوال الحرب الاهلية ، ضايق البلاشفة المناشفة والاشتراكيين الثوريين ، واضعين إياهم تارة خارج القانون ، سامحين لهم طوراً بالظهور مجدداً في وضح النهار ليعودوا فيحظروهم فيما بعد . أما المرانة تجاه ذينك الحزبين ، أو التصلب ضدهما ، فكانت تمليها الظروف والتبدلات التي تطرأ على الحزبين المذكورين اللذين كانت بعض أجنحتهما تستند الى البلاشفة ، وأخرى الى الحراس البيض . إلا أن فكرة ضرورة حلهما ، من حيث المبدأ ، لم تفرض نفسها قبل نهاية الحرب الأهلية . وحتى خلال فترات القمع ، كانت مجموعات المعارضة التي لا تدعو صراحة الى المقاومة المسلحة في وجه البلاشفة تنصرف لشتى النشاطات العلنية أو السرية . وغالباً ما أزاحها البلاشفة من السوفييتات أو حدوا من تمثيلها فيها ، بالقهر أو بالحيلة ؛ فبواسطة نظام السوفييتات كانت حكومة لينين تنظم الحرب الاهلية ، ولم يكن في ذلك النظام مجال للعناصر المعادية ، او الحيادية . لكن الحكومة كانت ترى إلى ابعد ، إلى نهاية القتال ، حين تصبح قادرة على احترام القواعد الدستورية للسوفييتات وعلى قبول معارضة منتظمة من جديد . أما الآن فكان البلاشفة يعتبرون الامر مستحيلاً ، فكل احزاب المعارضة دعمت تمرد كرونشتادت ، وكان البلاشفة يعرفون إذاً ما يمكنهم أن ينتظروا منها . وكلما كانوا يجدون انفسهم معزولين في الأمة ، كلما كانوا يخشون خصومهم . وإذا كانوا الغوهم نصف الغاء لكسب الحرب الاهلية ، فقد بادروا بعد النصر إلى الغائهم كلياً وإلى الأبد .

ومن المفارقات ان البلاشفة توصلوا الى فرض احتكارهم السياسي في الوقت ذاته الذي تبنوا فيه سياسة اقتصادية اكثر ليبرالية . فالنيب كانت تفسح في المجال أمام مصالح الفلاحين الفرديين والبورجوازية المدينية . كان من المتوقع ان يدافع هؤلاء عن مصالحهم بالسعي لخلق وسائلهم الخاصة للتعبير السياسي ، أو عن طريق استخدام المنظمات المعادية للبلاشفة . وكان البلاشفة مصممين على ألا تبقى هنالك واحدة من تلك المنظمات . « يمكن أن يكون لدينا نظام الحزبين ، لكن احدهما سيكون في السلطة بينما الآخر في السجن » ـ هذه المزحة المنسوبة إلى بوخارين كانت تعبر عن وجهة نظر شائعة جداً في

الحزب . كان بعض البلاشفة يشعرون بالانزعاج من احتكارهم السياسي الخاص بهم ، إلا أنهم كانوا يخشون اكثر الخيار الآخر . وقد كتب تروتسكي فيما بعد أنه ولينين فكرا في رفع الحظر الملقى على احزاب المعارضة مذ يستقر وضع البلاد الاجتماعي والاقتصادي . ربما . إلا أن البلاشفة كانوا يزدادون في الفترة ذاتها اقتناعاً بأن أي معارضة لا بد أن تغدو عربة الثورة المضادة ، وهي قناعة ستلعب دوراً مهماً للغاية في صراعات المرحلة الستالينية . كان يؤ رق البلاشفة الخوف من رؤ ية البورجوازية المدينية الجديدة (التي تطورت سريعاً في ظل نظام النيب) ، والانتلليجنسيا والفلاحين يتوحدون ليشكلوا في وجههم قوة لا تقاوَم ؛ لذا لم يتراجعوا أمام أي تدبير يحول دون ذلك . هكذا بعد انتصار الثورة في الحرب الاهلية ، بدأت تهرب من ضعفها عن طريق الكليانية .

وفي الحال ، تقريباً ، بدا ضرورياً أن تلغى ايضاً كل معارضة في صفوف الحزب البلشفي بالذات . كانت المعارضة العمالية (والى حد ما الدسيميون أيضاً) تعبر إلى حد بعيد عن الخيبة والاستياء اللذين قادا الى انتفاضة كرونشتادت . كانت التشققات تنزع إلى التواصل ، بينما كانت المجموعات المناوئة ميّالة للتصرف كأحزاب داخل الحزب . إن إرساء قاعدة الحزب الواحد ثم السماح بعد ذلك بانقسام الحزب إلى تكتلات كان بدا نوعاً من العبث . وإذا قيّض للبلشفية ان تتمزق إلى حركتين متعاديتين أو ثلاث حركات ، كما كان قد تم بالنسبة للحزب الاشتراكي - الديمقراطي القديم ، ألن تصبح إحداها عندئذٍ عربة الثورة المضادة ؟ هذا هو السؤال الذي كان يطرحه البعض .

كان في جو مؤتمر ١٩٢١ شيء من هذا التوتر ، اللاعقلاني في الظاهر ، الذي ميّز مؤتمر ١٩٠٣ . وكان شبح الانشقاق يرتسم كذلك في الأفق ، لكن الانقسامات الحقيقية كانت في هذه المرة أكثر تردداً وارتباكاً مما في عام ١٩٠٣ . والآن ، كما آنذاك ، لم يكن تروتسكي يتخذ موقعاً في النقاش الى الجانب الذي سيغدو فيه بنهاية المطاف . الآن ، كما في الماضي ، كان همه تجنب الانشقاق ، لذا لم يقدم أي اعتراض حين اقترح لينين على المؤتمر حظر أي تكتل أو مجموعة منظمة داخل الحزب ؛ وهو ذاته شتت التكتل الذي شكله خلال المجادلة الاخيرة(٤٠) . إلا أن الأمر لم يكن يتعلق بعد بحظر كل معارضة داخل الحزب . فلينين كان يشجع غير الموافقين على التعبير عن تبايناتهم ، وكان يدعوهم لعرض وجهات نظرهم في صفحات خاصة من الصحافة البلشفية ، أو في ورقات نقاش . وقد طلب إلى

---

(٤٠) علاوة على تروتسكي وبوخارين ، كان القادة الرئيسيون لتلك المجموعة هم دزرجنسكي واندرييف وكريستنسكي وبريوبراجنسكي وراكوفسكي وسيريبرياكوف وبياتاكوف وسوكولنيكوف .

المؤتمر أن ينتخب الى اللجنة المركزية الجديدة قادة كل اتجاهات المعارضة . لكنه ألح على بقاء المعارضة مبعثرة وعلى ألا يتشكل المعارضون في روابط ، وعرض مشروع قرار كان احد بنوده (الذي بقي سرياً) يزيد من قدرة اللجنة المركزية على طرد المذنبين ، مهما تكن رتبتهم في هرم قدرة الحزب . وساند تروتسكي هذا الاقتراح ، أو لم يعترض عليه ، على الأقل ؛ وتبناه المؤتمر . وفي العاجل ، كان هذا البند يستهدف مباشرة شليابنيكوف ، الخصم الاشد مراساً لتروتسكي ، وقد تم استخدامه ضده بالذات بعد ذلك بقليل . ولم يتبادر إلى ذهن تروتسكي أنه سيستخدم في يوم من الايام ضده هو بالذات .

هذا النظام ، الذي كان يسمح بالمعارضة شريطة أن تبقى دون تنظيم ، كان يمكن أن يعمل طالما لا يعترض اعضاء الحزب إلا على مشكلات ثانوية أو عابرة . لكن كان يستحيل تحاشي تجمع المناضلين الملتقين حول رأي واحد ، حين تكون الخلافات جدية أو مستديمة . وما كان بإمكان اولئك الذين يتهمون الفريق الحاكم بأنه يحركه « عداء بيروقراطي وبورجوازي حيال الجماهير » ، من مثل اعضاء المعارضة العمالية ، ما كان بإمكانهم أن يمتنعوا عن توحيد جهودهم في وجه ما كانوا ينظرون إليه كقوة رديئة ومتينة التنظيم داخل الحزب . هكذا لم يكن في وسع حظر الكتلات ، في مرحلة اولى ، الحيلولة دون الانشقاق إلا لتسريعه فيما بعد .

لم يمر عامان حتى كان تروتسكي يتبنى الكثير من الانتقادات والمطالب التي صاغها القادة الأقل بلاغة للمعارضة العمالية و الدسيميين ، بعد مدها بالمزيد من القوة ، تلك الانتقادات والمطالب التي كان قد ساعد على استبعادها . وقد طالب هو الآخر ، بقوة ، بعودة الديمقراطية العمالية .

* * *

قبل سنوات قلائل ، كان تروتسكي المهاجر في فيينا قد رسم لوحة مذهلة لماضي روسيا ، أظهر فيها كيف وضع التاريخ الشعب الروسي في « محيط معادٍ » ، وعرّضه لضغوط اوروبا الغنية والقوية ، وللغزوات من كل حدب وصوب ، وهو ما دفعه إلى ترك قدره بين يدي دولة ـ لوياثان(*) . ولكي يتغذى اللوياثان ـ حسبما كتب ـ كان يجوّع الأمة ، ويؤخر تطور طبقاتها الاجتماعية أو يسرّعه ، ويدمر حضارتها(٤١) . وأحد وجوه الثورة كان

(*) مسخ في الميثولوجيا الفينيقية ، مرَّ الحديث عنه ايضاً في التوراة ، ولا سيما في سفر أيوب ، وورد في رؤ يا اشعيا كالقدرة الوثنية التي يجب ان تخضع ليهوه (م) .

(٤١) أنظر ، الفصل السابع .

انتصار الشعب على اللوياثان ، وقد بدا الانتصار كاملاً لأن الدولة القديمة تحولت الى رماد .

إلا أن الثورة اضطرت ، هي الأخرى ، إلى استمداد غذائها وحيويتها من ذلك « المحيط المعادي » ذاته ، ومنه استمدت كل صرامتها . فالجمهورية الجديدة ، الغنية بالافكار وبالتطلعات الشاملة ، كانت « فقيرة ، ذات فقر روكم خلال الف عام » . وكانت تكره ذلك الفقر بشراسة ، لكنه كان لحمها ودمها وحياتها .

كان تروتسكي قد وضع بمقابل « السهام والأقواس والدانتيلا القوطية » الخاصة باقطاعية اوروبا الغربية الابتذال الهمجي والفظ للاقطاعية الروسية القادرة فقط على سد شقوق اكواخها الخشبية بواسطة العشب . وكان قارن غنى تطور الطبقة الثالثة في اوروبا وتعقيده بالطوائف الحرفية الروسية التي تشرف عليها الشرطة ، و « الشخصية البورجوازية » الغربية الحرةوالمثقفة بـ « الأنف الذي كان يمكن ان تنهال عليه يد أي شرطي أو رجله » . بيد انه من احد تلك الأكواخ الخشبية التي ضربتها الثورة والحرب ، خرج هو والحزب البلشفي ليفتحا الطريق للاشتراكية . وخلافاً لكل توقع ، ادار الغرب « المتقدم والمتحضر » ظهره للثورة ، وسوف يكون على البلشفية ان تتحصَّن خلال عشرات السنين في الاطار الذي ولدت فيه ، بغية تحويله . وما كان يمكن لنوع الاشتراكية الذي بنته آنذاك إلا أن يحمل سمة إرثها التاريخي . وستضطر تلك الاشتراكية الى التطور ، قاسيةوفظة ، من دون السهام والاقواس والدانتيلا التي حلم بها الاشتراكيون . ولما كانت تطوقها قوى معادية راقية ، سرعان ما استسلمت للدولة الجديدة ـ اللوياثان ، المنتصبة من رماد الدولة القديمة . وكان على الدولة الجديدة ـ كالقديمة ـ أن تدافع عن الأمة وتعطيها الجراية ، وأن تؤخر تطورها وتسرعه ، وتمحو الشخصية الانسانية ، الشخصية الثورية البروليتارية . وان يكون تروتسكي ، عدو اللوياثان ، قد جعل من نفسه أول صانع لقيامته ، فتلك سخرية أخرى للتاريخ .

وكتب تروتسكي أيضاً في بداية مسيرته : « إن طبقة عاملة قادرة على ممارسة ديكتاتوريتها على المجتمع لن تتسامح إزاء سلطة ديكتاتور تمارس عليها هي بالذات »[٤٢] . وحوالى ١٩٢١ ، أبدت الطبقة العاملة عجزها عن ممارسة ديكتاتوريتها الخاصّة بها ، لا بل كانت عاجزة عن ممارسة رقابة على اولئك الذين كانوا يحكمون باسمها . فبعد أن انهكتها الثورة والحرب الأهلية ، توقفت تقريباً عن الوجود كقوة

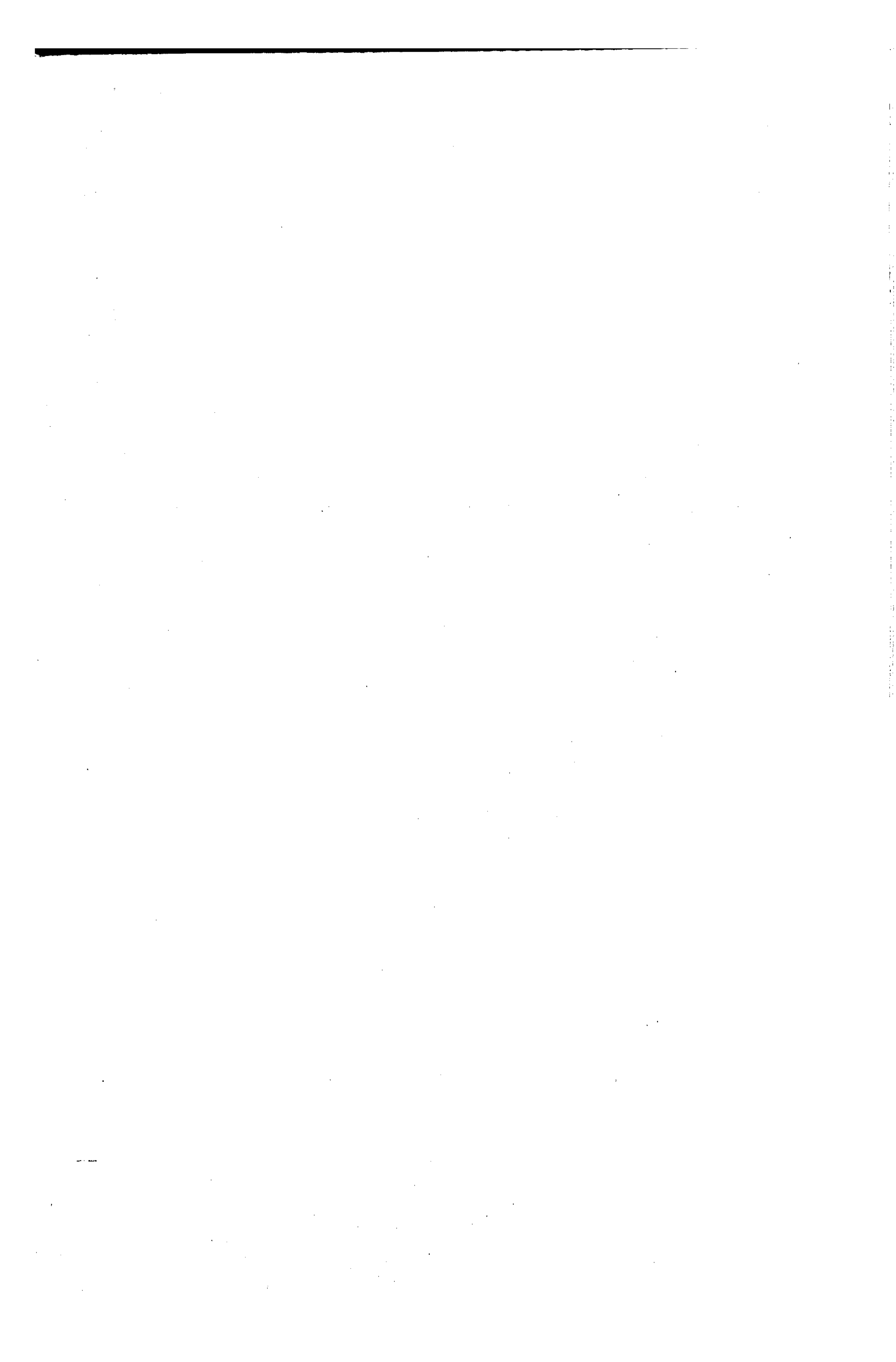
(٤٢) انظر ، الفصل ٣ .

سياسية . آنذاك نادى تروتسكي بـ « الرسالة التاريخية » للحزب ، وبحقه في أن يفرض على البروليتاريا ، كما على سائر المجتمع ، وصاية لا هوادة فيها . كانت تلك هي الفكرة القديمة « اليعقوبية » القائلة بأن من حق أقلية صغيرة فاضلة ومستنيرة ان « تحل محل » شعب لم يبلغ النضج بعد ، لتقدم له العقل والسعادة ؛ وهي فكرة كان تروتسكي فضحها علناً كالوسواس الوراثي الخاص بالديسمبريين والنارودنيين والبلاشفة . وكان يقول آنذاك إن « ذلك الوسواس » عكس ضمور كل الطبقات الاجتماعية في روسيا وبلادتها . وكان مقتنعاً بأنه مع ظهور طبقة عاملة حديثة واشتراكية ، جرى تجاوز ذلك الضمور . وقد اثبتت الثورة انه كان على حق . إلا أنه بدا أن كل طبقات المجتمع الروسي تسقط من جديد في سبات عميق ، بعد انتفاضات الطاقة لديها ونضالاتها الجبارة بين ١٩١٧ و ١٩٢١ . إن المسرح السياسي ، الذي كان يزدحم بالحاضرين طوال السنوات الاخيرة ، بدامقفراً ؛ لم يبق غير مجموعة واحدة تتكلم بقوة باسم الشعب ؛ وحتى المستمعون اليها سوف يتقلص عددهم شيئاً فشيئاً .

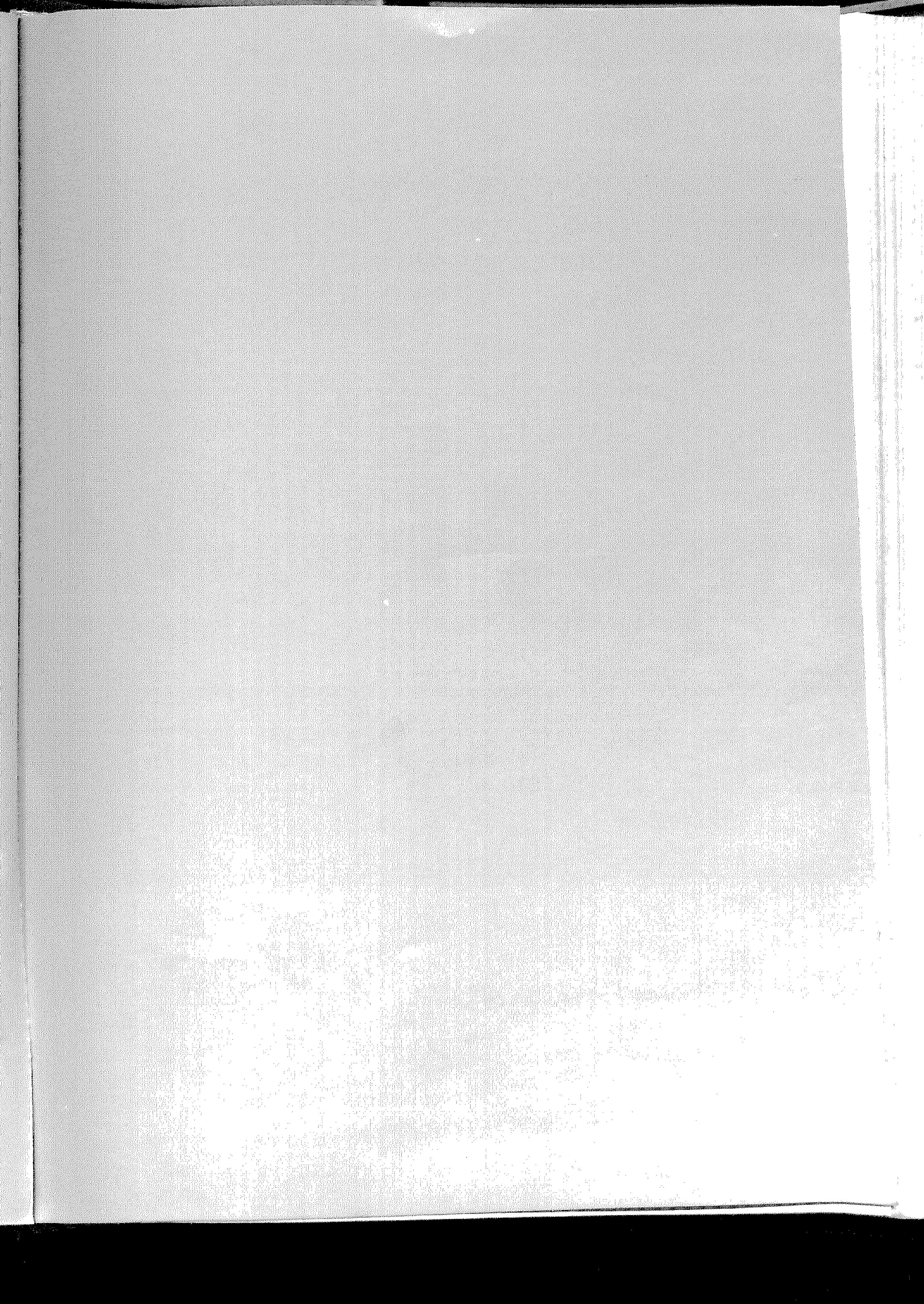
حين حث تروتسكي الحزب البلشفي آنذاك على « الحلول محل » الطبقات الكادحة ، لم يفكر وسط نار العمل والجدال بالمراحل اللاحقة من تلك السيرورة التي تنبأ بها مع ذلك منذ زمن طويل بنفاذ بصر غريب . « سيحل جهاز الحزب محل مجموع الحزب ؛ ثم تحل اللجنة المركزية محل الجهاز ؛ وفي الاخير ، يحل ديكتاتور واحد محل اللجنة المركزية » .

كان الديكتاتور ينتظر الآن في مؤخرة المسرح .

فهــرســت



ملحق: الصور





تروتسكي في عام ١٨٩٧، وكان آنذاك يقود أول منظمة أنشأها باسم «الاتحاد العمالي لروسيا الجنوبية».





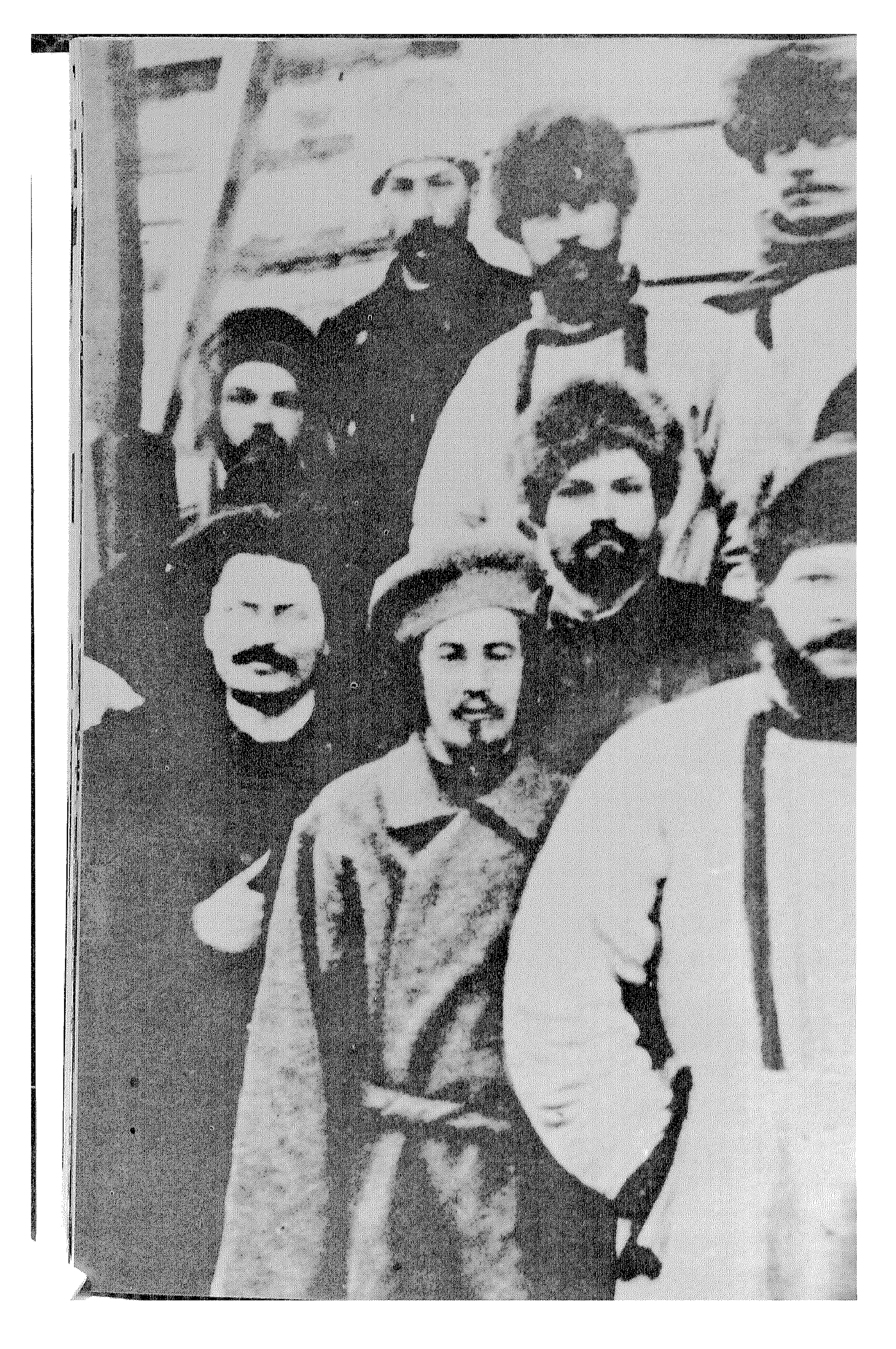
زوجه الثانية ناتاليا سيدوفا.

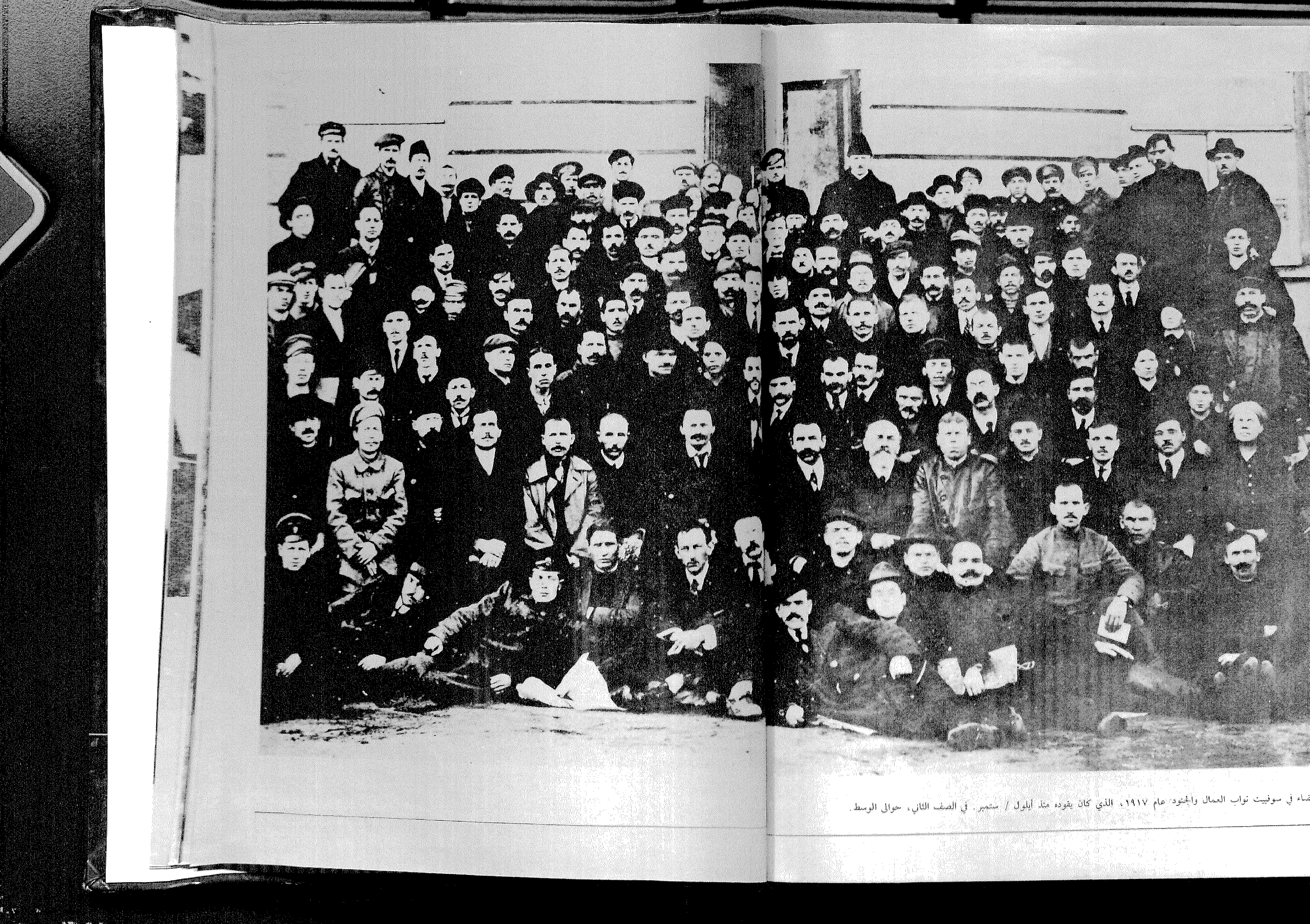
مع زوجه الأولى الكسندرا سوكولوفسكايا قبل انتقاله لأوروبا في أوائل القرن. وقد كتب فيما بعد: «فرق بيننا القدر، لكننا احتفظنا بروابط الأفكار والصداقة»



مع اعضاء سوفييت ١٩٠٥ خلال المحاكمة: الثاني الى اليسار، في الصف الثاني، وكان ملهم السوفييت وقائده.

في الطريق الى اوبدورسك بعد الحكم بالنفي في شتاء ١٩٠٧. كتب: «ننحدر كل يوم درجة نحو البرد والهمجية».





ضاء في سوفييت نواب العمال والجنود عام ١٩١٧، الذي كان يقوده منذ أيلول / سبتمبر. في الصف الثاني، حوالى الوسط.





في الجنود الحمر أثناء الحرب الأهلية

جبهة الحرب الأهلية ويرى في الأعلى هنا الجنود الحمر من القطار المشهور
ل به على الجبهات



لينين يخطب في ساحة سفردلوف في ٥ أيار ١٩٢٠ ويبدو تروتسكي واقفاً الى يسار المنبر



يستعرض القوات في العرض الذي نظمه الجيش الأحمر على شرف المندوبين للمؤتمر الثاني للأممية.



تروتسكي يخطب في ساحة سفردلوف في ٥ أيار ١٩٢٠ ويبدو الى يمين المنبر لينين وكامينيف



لينين خطيباً في ساحة سفردلوف في ٥ أيار ١٩٢٠ ويبدو تروتسكي واقفاً الى يسار المنبر



تبدو صورته وقد حملها المتظاهرون في موسكو عام ١٩٢٠ إلى جانب صور ماركس ولينين وكارل ليبكنخت.

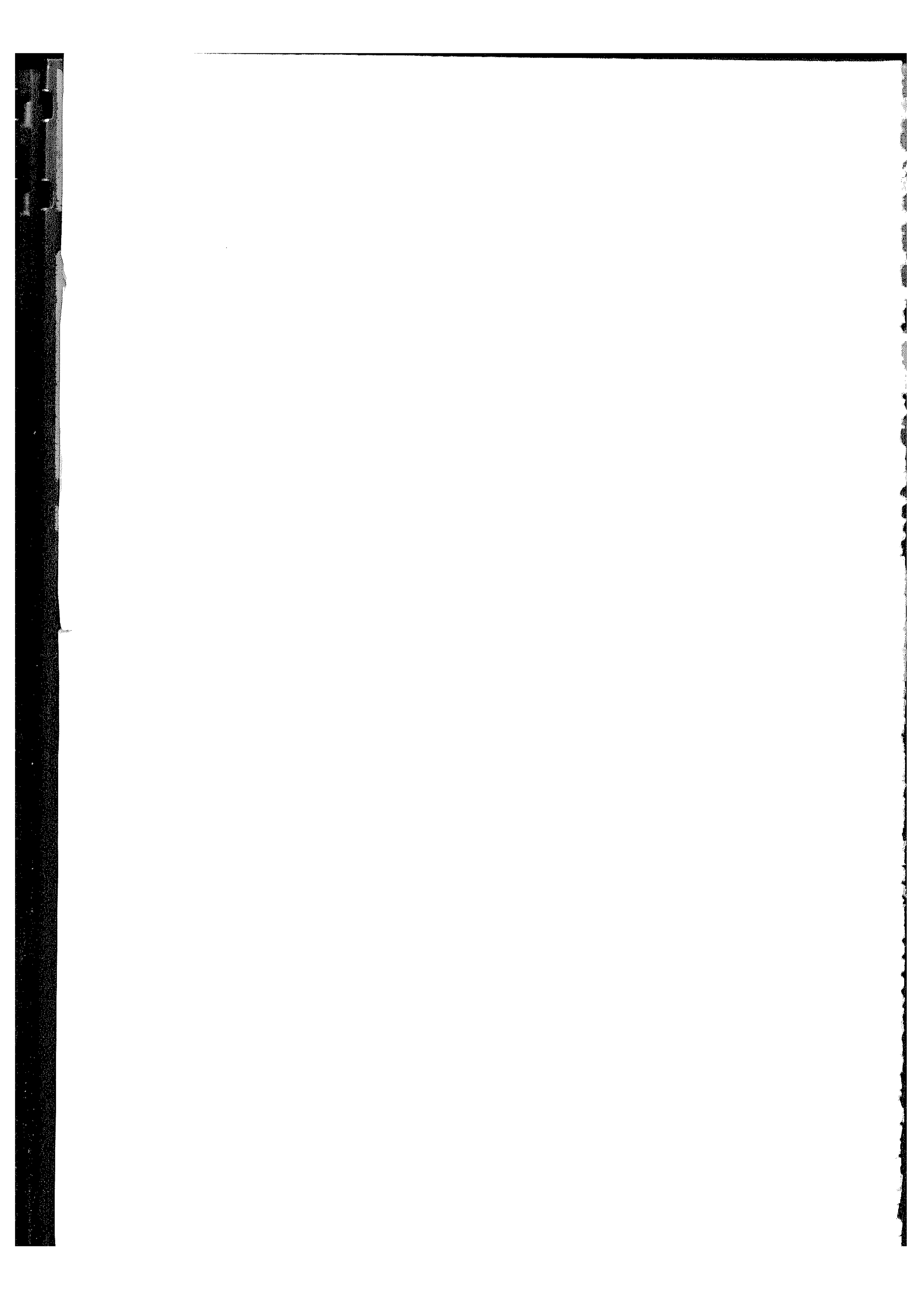
تروتسكي ولينين وسط المندوبين للمؤتمر العاشر للحزب.



صورة من الدعاوة البلشفية، متأثرة بالتراث الديني تمثل تروتسكي بهيئة مار جرجس شاكا برمحه الثورة المضادة (بهيئة التنين).

تروتسكي عام ١٩٢١







الغلاف: عماد حليم

إذا كانت شخصية تاريخية بحجم ليون تروتسكي، قائد اعظم ثورة في عصرنا قد بلغت أرفع درجات التألق عبر المسيرة الظافرة حيناً والمحبطة حيناً آخر للملايين من عبيد هذا العصر على طريق تحررهم وتحرر البشرية جمعاء، فقد تعرضت كذلك، في حياتها كما في مماتها، لأبشع عملية تشويه لإحدى أنصع الصفحات في التاريخ الثوري الخاص بمن امتلكوا القدرة على الصناعة الحية للتاريخ.

وإسحق دويتشر، في هذا الجزء (النبي المسلح) من الثلاثية التي كتبها عن تروتسكي، كما في الجزأين الآخرين (النبي الأعزل والنبي المنبوذ)، يبذل جهوداً جبارة ليعيد تكوين تفاصيل السيرة الحقيقية لليون تروتسكي بعد أن سطا «لصوص المقابر» على ضريحه.

الثمن

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠١٠٧٩ / ٨٠١٠٧٩
برقياً - موكيالي - بيروت - ص.ب: ٥٤٦٠-١١ بيروت